الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة علي لونيسي . البليدة 2.

كلية: العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم: العلوم الإنسانية

الحواضر الصحراوية بالمغرب الأوسط واقعها الاقتصادي و دورها الحضاري (4هـ – 8هـ /10م – 14م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل. م. د) التاريخ الوسيط

تخصص: المجتمع والاقتصاد بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط

إعداد الطالبة: خولة عمامرة

إشراف الدكتور: محمد الشريف سيدي موسى

أمام اللجنة المشكلة من:

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
الطيب بوسعد	أستاذ التعليم العالي	جامعة علي لونيسي البليدة 2	رئيسا
محمد الشريف سيدي موسى	أستاذ محاضر . أ.	جامعة علي لونيسي البليدة 2	مشرفا ومقررا
عبد القادر بوعقادة	أستاذ محاضر . أ.	جامعة علي لونيسي البليدة 2	ممتحنا
لخضر بن نيلي	أستاذ محاضر . أ.	جامعة علي لونيسي البليدة 2	ممتحنا
سحيري بغداد	أستاذ محاضر . أ.	جامعة يحي فارس المدية	ممتحنا
زرقوق محمد	أستاذ محاضر . أ.	جامعة خميس مليانة	ممتحنا

السنة الجامعية: 1443 – 1444هـ / 2022 – 2023م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى الوالدين الكريمين رحمهم الله وطيّب ثراهم

إلى الذين قاسموني أفراحي وواسوني عند أقراحي في كل لحظة وفي كل زفرة عائلتي الكريمة

إلى الذين رفعوا لواء العلم متحدّين كل الصعاب مواجهين خلان الجهل من أجل الجزائر

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي

شـكـــــر وتـقديـــر

" وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد"

سورة إبراهيم الآية : 7

إنّ الحمد الله نحمده ونشكره على فضله ومنّه وإحسانه لما أجزله لنا من توفيق وإعانة لإنجاز هذا العمل على هيئته هذه ومن باب أنّ من لم يشكر الناس لم يشكر الله الذي حثّنا على عدم نسيان ما لبعضنا على بعض من فضل .

أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف " **محمد الشريف سيدي موسى**" على إشرافه وتوجيهاته ومتابعته لهذا العمل فله مني كل الشكر والتقدير.

كما أتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة لما منحوه لي من أعزّ وقتهم وكبير جهدهم في قراءة هذا العمل وإفادته من خبرتهم بالتصويب والتعديل ليرفعوا به إلى مصاف الأعمال الأكاديمية فلهم أسمى آيات الشكر والتقدير

كما لا يفوتني إسداء الشكر إلى الأساتذة الأفاضل " **محمد حناي**" " **لزهر بديدة**" " **سليم الحاج سعد**" على ما قدموه لي من عون

والشكر في ذلك موصول إلى الزملاء الذين ساندوني و ساعدوني في عملي " **كمال بركات**" " **محمد العيد تيته**" " **عبد الرؤوف زواري**"

والشكر موصول لمن كان جهده سيال لإنجاز هذا العمل وإخراجه والفضل بعد الله في ذلك إلى الصديقة الغالية " **مريم بوغزالة محمد**"

لهؤلاء جميعا كل التقدير والامتنان وأخص الدعاء.

شـــكر خـــاص

﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلّت وإليه أنيب﴾ سورة هود الآية 88

أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير والامتنان إلى الدكتور "**محمد حناي**" الذي تجشم عناء متابعة هذا العمل ولم يدّخر جهدا في توجيهي ونصحني، فجاد عليّ من فيض خبرته العلمية القيّمة نصحني حين الاخطاء وشجعني حين الصواب، وكان أشدّ حرصا على أنّ يظهر هذا العمل على أحسن ما يجب أن يكون فله منيّ كل التقدير والاحترام والإجلال الذي يساوي حجم عطائه اللامحدود، مع التمني له بموفور الصحة والعافية.

الملخص:

تعتبر حواضر المغرب الاوسط الصّحراوية من أهمّ الحواضر التيّ أدّت دورا مُهما وفاعلا في تاريخ المغرب الاوسط نظرا للدّور الحضاري الذيّ اضطلعت به ولقد ساهمت عدّة عوامل في ذلك منها موقعها الجغرافي الاستراتيجي وبُعدها عن مراكز السلطة مما جعلها قبلة ومقصدا للعديد من الأجناس البشرية التيّ استوطنتها عبر مراحل مختلفة حيث لاذت بها بحثا عن الامن والاستقرار، فشكّلت تلك الهجرات فسيفساء بشرية أعطت بعثا جديدا لتلك الأصقاع .

ونظرا لموقعها المتميز فقد عرفت الحواضر الصّحراوية نشاطا اقتصاديا متنوعا ومتكاملا زاوج بين العديد من الأنشطة، وفي مقدّمتها النشاط الزراعي الذي كان عنوانا لها حيث اشتهرت بامتهانها للزراعة وبوفرة وتنوع منتوجاتها الزراعية وفي مقدّمتها التمور، والحمضيات، والزيتون

ناهيك عن النشاط الصناعي والحرفي الذي كان له حضورا معتبرا إذ عرفت العديد من الصناعات منها الصناعات النسيجية وصناعة الفخار والصناعات الحديدية.

وبما أنّ الحواضر الصّحراوية كانت تتوفر على شبكة من الطرق والمسالك التيّ تربطها بمختلف المناطق، فقد كان للنشاط التجاري الحظّ الأوفر من نشاطها الاقتصادي حيث ارتبطت بعلاقات تجارية مع حواضر التلّ والبلدان المجاورة وفي مقدّمتها بلاد السودان الغربي التي ارتبطت معها بعلاقات تجارية استمرت ردحا من الزمن، تحكمت من خلالها في القوافل العابرة للصحراء وسيطرت على أهمّ السلع في تلك الفترة (الذهب، والعبيد).

ولقد انعكس واقعها الاقتصادي المزدهر على المجالات الأخرى بما فيها الجانب العلمي حيث شهدت نشاطا علميا مزدهرا وكانت قبلة ومقصدا لطلاب العلم من مختلف الأصقاع لأخذ العلم والتعلّم على مشايخها .

ولأنّ اقتصاد حواضر المغرب الأوسط الصّحراوية كان قائما على النشاط التجاري فإنّ ساكنة الحواضر نقلوا إلى جانب سلعهم فكرهم وحضارتهم وعقيدتهم للضفة الأخرى (بلاد السودان الغربي) وهذا ما أهلهم لأداء دور المعلم ثمّ الشيخ المربي والتأثير في واقع بلاد السودان في شتى النواحي و المجالات فكان أثرهم الحضاري قويا وبارزا لأنّهم عدّلوا من واقع تلك الأصقاع وغيروا في نسيج أنظمتها من خلال المعاملة التيّ تستند إلى الرساليّة نصحا وإرشادا.

الكلمات المفتاحية:

الحواضر الصّحراوية . المغرب الأوسط . الدّور الحضاري . النشاط الاقتصادي . التأثير والتأثر.

Abstract

The desert cities of Middle Maghreb are considered among the most important cities that played an important and effective function in the history of Middle Maghreb due to the civilizational role they fulfilled. Several factors contributed to this, including their strategic geographical location and their far distance from the centers of government, which made them a destination for many human races that settled there through different stages. Those incomers were essentially refugees searching for security and settlement, and then they formed a human mosaic that gave a new revival to those parts.

Due to its distinctive location, the desert cities witnessed a diversified and integrated economic activity that combined many activities. The agricultural activity was the most important and the one these cities were famous for. They were known by farming and the abundance and diversity of their agricultural products, especially dates, citrus fruits, and olives. In addition, the significant presence of the industrial and craft activity cannot be denied. Many industries were known there, including textile industries, pottery and iron industries. Moreover, and since the desert cities had a network of roads that linked them to various regions, the commercial activity had the greatest part of its economic activity, as it was linked to commercial relations with the cities of the hill and neighboring countries, especially the countries of Western Sudan, with which it was associated with commercial relations that lasted for a long period of time. In favour of these relations, the desert cities controlled the caravans crossed the desert and the most important commodities of that period (gold and slaves).

Its prosperous economy was reflected in other fields, including the scientific side, as it witnessed a thriving scientific activity that was a destination for students of science from different parts of the world to take knowledge and learn from its sheikhs.

Because the economy of the desert cities of the Middle Maghreb was based on commercial activity, the inhabitants of the cities transferred besides their commodities, their thoughts, their civilization, and their beliefs to the other side (western Sudan). This qualified them to play the

role of the teacher, and then the educating sheikh, and to influence the country of Sudan in various aspects and fields. Their civilizational impact was strong and prominent because they modified the reality of those regions and changed the fabric of their systems through the treatment that is based on the message, with advice and guidance.

Keywords: Desert cities, Middle Maghreb, the civilizational role, the economic activity, the effect and affectedness

فهرس المحتويات

الإهـــــداء ----------3
شـكـــــر وتـقديـــر ----------4
شـــكـر خـــاص ----------5
الملخص: ----------6
فهرس المحتويات ----------10
قائـــمـــة المـخـتصرات ----------19
الـــمـــقدمـــة ----------20
الفصل الأول: الحواضر الصحراويـة بالمغرب الأوسط قراءة فـــي تاريخية (النشأة – المجال – الإنسان)
أوَّلاً- حواضر المغرب الأوسط الصحراوية التَّعدّد والتَّمايز: ----------35
1)- قراءة في تاريخ النَّشأة (وارجلان – وادي ميزاب – الزاب – وادي ريغ – أسوف – توات): ----------35
1 – 1 – وارجلان (التَّسمية والنشأة): ----------35
1 – 1 – 1 – الإطار الجغرافي لوارجلان: ----------43
1 – 1 – 2 – المناخ: ----------44
1 – 2 – وادي ميزاب: (الأصل والنشأة): ----------46
1 – 2 – 1 – قرى وادي ميزاب: يتكون من عدَّة قرى هي: --------49
1 – 2 – 2 – المناخ: ----------50

1 – 3 – بلاد الزَّاب: ----------51
1 – 3 – 1 – المدلول اللغوي للزاب: ----------51
1 – 3 – 2 – مدلول التَّسمية: ----------52
1 – 3 – 3 – الإطار الجغرافي للزاب: ----------52
1 – 4 – وادي ريغ (المجال الجغرافي والتَّسمية): ----------56
-1ـ 5 أسُوف أو سوف (المجال الجغرافي والتسمية): ----------59
1 – 6- توات (المجال الجغرافي والتَّسمية): ----------65
1 – 5 – 1 – المجال الجغرافي: ----------65
1 – 5 – 2 – أصل التَّسمية: ----------66
2)- البنية السُّوسيولوجيَّة لحواضر المغرب الأوسط الصّحراوية: --------69
2 – 1 – البربر: ----------71
2 – 2 – العرب: ----------79
2 – 3 – المولدون: ----------84
2 – 4 – اليهود: ----------84
2 – 5 – العبيد: ----------91
2 – 6 – الحرّاطين: ----------94
ثانيا- المنظومات المؤطِّرة للحواضر الصَّحراويَّة المغرب أوسطيَّة:---------97
1)- المنظومة السِّياسيَّة بين التَّبعيَّة والاستقلال: ----------97
2)- المنظومة الاجتماعيَّة و القيميَّة: ----------105
ثالثا- تنظيم العمران بالحواضر الصَّحراويَّة: ----------130

الفصـــل الثـــاني: النشـــاط الاقتصـــادي بالحواضـــر الصحراويـــة

أوّلاً: النَّشاط الزِّراعي في الحواضر الصَّحراويَّة "التَّنظيم والأثر". ---------154

1)- المُقوِّمات الزِّراعية: ----------155

2)- المنشآت المائيَّة ونُظم السَّقي بالحواضر الصَّحراويَّة بين "التَنظير والمُمارسة": ----------159

3)- الإنتاج الزِّراعي، أنواعه و الأنظمة المساعدة على إدارته: -------172

4)- النَّشاط الرَّعوي و تربية الحيوانات: ----------179

ثانياً- الصَّنائع والحرف بالحواضر الصَّحراوية "الخصوصيَّة الصَّحراويَّة والتَّقنيَّات المحلِّيَّة". ----------187

1)- المُقوّمات الصِّناعية: ----------187

2)- أنواع الصِّناعات: ----------189

3)- أثر الحروب والفتن على واقع النَّشاط الصِّناعي بالحواضر الصَّحراويَّة: 198

ثالثا- النَّشاط التِّجاري بالحواضر الصَّحراويَّة. ----------199

1)- التِّجارة الدَّاخليَّة: ----------199

1 – 1 – حواضر التَّبادل التِّجاري الدَّاخلي مع الحواضر الصَّحراويَّة: تأتي "تيهرت" ----------201

1 – 2 – الواردات: ----------211

1 – 3 – الأسواق: ----------215

2)- التِّجارة الخارجيَّة: ----------219

2 – 1 - القيروان: ----------219

2 – 2 - جبل نفوسة: ----------222

2 – 3 – غدامس: ----------224
2 – 4 – سِجِلْمَاسَة: ----------225
2 – 5 –السُّودان الغربي: ----------228
3)– الطُّرق التِّجارية ووسائل النَّقل: ----------232
3 – 1 – المسالك التي تربط حاضرة وارجلان بالسُّودان الغربي:-------232
4)– المبادلات التِّجاريَّة "الصَّادرات والواردات": ----------245
4 – 1 – صادرات حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة نحو بلاد السُّودان: -245
4 – 2 – واردات حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة من بلاد السُّودان: -252
5)– المراكز التِّجاريَّة بالسُّودان الغربي: ----------261
5 – 2 – تادمكة: ----------264
5 – 3 – غانة (كومبي صالح): ----------266
5 – 4 – كوكو: ----------268
5 – 5 – تمبكتو: ----------270
6)– نُظم المُعاملات التِّجاريَّة بين السُّودان الغربي و حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة: ----------272
6 – 1 – التَّعامل بالمقايضة: ----------272
6 – 2 – التِّجارة الصَّامتة: ----------273
6 – 3 – التَّعامل بالقماش: ----------274
6 – 4 – الودع: ----------274
6 – 5 – المُعاملات النَّقديَّة: ----------274
7)– حركة القوافل التِّجاريَّة: ----------277

7 – 1 – مرحلة التَّحضير والاستعداد:----------277

7 – 2 – مرحلة الانطلاق:----------278

7 – 3 – هيكل القافلة:----------279

8)– المخاطر التي تتعرض لها القوافل خلال الرَّحلة: ----------284

الفصل الثالث: النشاط العلمـــي والثقـــافي بالحواضر الصحراويـــة. --- 292

أوَّلاً: ملامح المنظومة التَّعليميَّة والعلميَّة بالحواضر الصَّحراويَّة.---------293

1)– عوامل ازدهار الحركة العلميَّة في الحواضر الصَّحراويَّة: ---------293

1 – 1 – العامل الجغرافي: ----------293

1 – 2 – العامل الاقتصادي: ----------296

1 – 3 – العامل السِّياسي:----------300

1 – 4 – العامل الدِّيني: ----------301

1 – 5– الحُظوة والمكانة التي احتلَّها المشايخ والعلماء في نفوس ساكنة الحواضر: ----------302

1 – 6 – طبيعة التَّركيبة القبليَّة للحواضر الصَّحراويَّة:----------303

1 – 7 – الإرث المذهبي الذي تعاظم مع وصول قاصدي وارجلان:----304

2)– المؤسَّسات التَّعليميَّة: ----------304

2 – 1 – الكتاتيب: ----------304

2 – 2 – المساجد والجوامع:----------306

2 – 3 – الزَّوايا: ----------309

2 – 4 – الغيران: ----------312

2 – 5 – الحلقة: ----------314
2 – 6 – دُور المشايخ: ----------315
3)– مراحل التَّعليم: ----------317
3 – 1 – المرحلة الأولى "مرحلة الكُتّاب": ----------317
3 – 2 – المرحلة الثَّانية: ----------321
3 – 3 – المرحلة الثَّالثة: ----------323
4)– الهيئة الإداريَّة والتَّعليميَّة: ----------326
4 – 1 – الشَّيخ: ----------326
4 – 2 – العُرفاء: ----------328
4 – 3 – أوقات الدِّراسة: ----------334
4 – 4 – طرق التَّقييم (الامتحانات و الاختبارات): ----------339
4 – 5 – أشكال التَّأديب في النِّظام التَّعليمي:----------340
ثانياً– العلوم السَّائدة بالحواضر الصَّحراويَّة: ----------346
1)– علم التَّفسير: ----------346
2)– علم الحديث: ----------347
3)– الفقه: ----------348
4)– علم الكلام: ----------349
5)– علم الفلك: ----------350
6)– الرَّحلات الجغرافيَّة: ----------351
7)– علم اللغة العربيَّة: ----------352

ثالثاً- العلماء وانتاجهم الفكري. ----------353
1)- أعلام وارجلان: رصدت المصادر التَّاريخيَّة العديد من الأسماء، منهم:-353
2)- أعلام أريغ: ----------364
3)- أعلام أسوف: ----------366
4)- أعلام الزَّاب: ----------372
5)- أعلام ميزاب:----------376
6)- أعلام توات: ----------378
رابعاً- المراكز العلميَّة بالحواضر الصَّحراويَّة. ----------385
خامساً- التَّواصل المعرفي بين الحواضر الصَّحراويَّة والبلدان المجاورة لها. --393
1)- جبل نفوسة: ----------393
2)- مع إفريقيَّة(المغرب الأدنى): ----------396
3)- مع المشرق: ----------399
4)- مع بلاد السُّودان: ----------401

الفصل الرابع: الدّور الحضاري للحواضر الصّحراوية وتأثيراته على بلاد السـودان الغربـي

أوَّلاً: الدَّور والأثر الاجتماعي. ----------406
1)- أثر فئة التُّجار في النَّسيج المجتمعي السُّوداني: ----------406
2)- مظاهر تأثير فئة التُّجار في النَّسيج المجتمعي السُّوداني: -------413
ثانياً: دورها في التَّأثير العقدي و السّلوكي:----------447
1)- مظاهر الوثنيَّة في السُّودان الغربي:----------447

2)- سلوك التُّجار المسلمين وعوامل القضاء على الوثنيَّة:----------450
ثالثا: دورها في التَّأثير الثَّقافي والعلمي بالسُّودان الغربي: ----------458
1)- انتشار اللغة العربيَّة: ----------458
(2)- النِّظام التَّعليمي ومراحله: ----------471
3)- المؤسسات التَّعليميَّة ببلاد السُّودان: ----------476
4)- المراكز الثَّقافيَّة ببلاد السُّودان الغربي: ----------479
5)- مظاهر التَّواصل الثَّقافي بين بلاد السُّودان وحواضر المغرب: ------489
رابعا: التأثير العمراني: ----------493
1)- العمران التَّقليدي بالسُّودان الغربي: ----------494
2)- التَّأثيرات المغربيَّة في عمران بلاد السُّودان الغربي: ----------497
الـــخاتـــمـــة ----------508
الـملاحـــــق ----------512
قـائـمـة المـصادر والمـراجع ----------520
الـــفـهارس ----------564
فهرس الآيـــــات القرآنيـــــة ----------565
فـهرس الأحاديـــث النبويـــــة الشريفـة ----------566
فهرس الأبيـــــات الشعريـــــة ----------567
فهرس الاعـــــــلام ----------568

كتب القاضي عبد الرحيم علي بن السعيد اللخمي البيساني إلى عماد الدين الأصفهاني

"إني رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتابه في يومه إلاّ قال في غده: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

حاجي خليفة: كشف الظُّنون عن أسامي الكُتُب والفُنُون، ج1، ص 18.

قائـــمـــة المـــخـــتصرات

تح	تحقيق
تر	ترجمة
تع	تعليق
تق	تقديم
مرا	مراجعة
تص	تصحيح
تن	تنسيق
د. س. ن	دون سنة نشر
د. م. ط	دون مكان طبعة
د. ط	دون طبعة
ط	طبعة
ع. خ	عدد خاص
ع	عدد
مج	مجلد
ج	جزء
ص	صفحة

المقدمة

الباحث في تاريخ الحواضر سواء أكانت تليَّة أو صحراويَّة والمتتبع لتاريخها، لا يمكن له الاهتمام بحاضرة دون أخرى، وذلك بسبب الارتباط العضوي والتكامل الحضاري بين هاته الحواضر وتكامل الأوصر الحضاريَّة فيما بينها، إذ أنَّها تخدم بعضها البعض فتشكِّل نسيجاً فسيفسئياً يُعبِّرُ عن الإنسان الذي أسَّسها وسكنها وبنى مُقوِّماتها الحضاريَّة معتمداً في ذلك على سدِّ حاجياته ومتطلباته التي هي في الأساس مصالحه التي تقوم عليها حياته.

وقد عرف المغرب الأوسط العديد من الحواضر التليّة منها والصّحراوية هذه الأخيرة التي أدّت دورا حضاريا بارزا شهدت عليه المصادر، وكانت لها بصمة ظاهرة لا يمكن اسقاطها من موسوعة البناء الحضاري الإنساني لأنَّها أضافت الكثير للسجل الإنساني مبرزة الصَّعوبات والتَّحديات التي تعرَّض لها إنسان المغرب الأوسط الصَّحراوي.

. التَّعريف بموضوع البحث:

تعتبر الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط، همزة وصل بين جميع الحواضر التي اتصلت بها سواء من الجانب التجاري، أو الثقافي فكانت مرتكز الحركة التِّجاريَّة ورافعة للحياة الاقتصاديَّة بين كلِّ هذه الأصقاع، فدبَّت بها الحياة وتنوَّعت أشكالها وبذلك أصبحت إحدى اللبنات الحضاريَّة في البناء الإنساني لما تبرزه من قدرة على تحمل إنسان هذه الحواضر كلَّ الصِّعاب وترويضها لصالحه وفق ما ينسجم مع مصالحه فبذلك كانت حواضر حياة وعطاء بناء على المقوِّم الاقتصادي؛ وحتى نرصد هذه الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط وأدوارها الحضاريَّة، سنحاول تسليط الضُّوء على واقع تشكُّلها وكيف قضى إنسانها مُشمِّراً على سواعد الجدِّ والاجتهاد مُذلِّلاً كلَّ الصِّعاب في سبيل أنْ يحيا حياة كريمة تسخِّر الواقع الاقتصادي في الإسهام الحضاري.

. دواعي اختيار الموضوع:

يُعتبر تاريخ الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط من بين المواضيع التي كُتب فيها من أوجه متعدِّدة، وعليه فإننا لاندعي السبق في طرح مسألة الحواضر الصّحراوية إذ أن الموضوع خصصت له النخبة العالمة ضمن مصنفات الرحلة والجغرافيا وكتب المسالك والممالك أبوابا عديدة والأمثلة على ذلك كثيرة منها ابن حوقل في مصنفه " صورة الأرض"، والبكري في مصنفه " المسالك والممالك" والإدريسي في مؤلفه" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وابن بطوطة في رحلته

الموسومة بـ " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، والحسن الوزان في مؤلفه" وصف إفريقيا"، كما تطرق لموضوع الحواضر الصّحراوية هم الأنثروبولوجيين والإثنواغرافيون المدرسة الاستشراقية والمدرسة الكولونيالية، ولئن كان من وجهة نظر أخرى ولأغراض استعمارية غير بريئة، إلا أنّها تبقى دراسات مهمة لها قصب السبق في الموضوع.

ويبدو أن الواقع الاقتصادي وتأثيراته الحضاريَّة بناء على المقوِّم الرَّئيس أَلاَ وهو إنسان هذه الحواضر الصَّحراويَّة صاحب الجهد الدُّؤوب في البناء الحضاري تعتبر بكراً لقلَّة الدِّراسات التي تناولته بحسب اطلاعنا، وبحسب ما وقع تحت أيدينا من مقالات ودراسات؛ وعليه ارتأينا أنْ نُسلِّط الضُّوء على هذه الحواضر من خلال سلوك ساكنيها الاقتصادي بحسب ما تيسر لنا من قُدرة. وقد كان اهتمامنا بهذا الموضوع ناتجاً عن أسباب ذاتيَّة وأخرى موضوعيَّة نشير إليها فيما يلي:

✓ **الأسباب الذَّاتيَّة:**

1)- حبُّ البحث في التَّاريخ الجزائري (المغرب الأوسط) والتَّطلع إلى إحياء تاريخ حواضرها الصَّحراويَّة وسير أعلامها.

2)- الرَّغبة في التَّعرف على تشكِّل هذه الحواضر ومعرفة ما عاناه إنسانها.

3)- الرَّغبة في تقديم دراسة أكاديميَّة تنبني على خطة علميَّة ومجموعة من المصادر والمراجع التي تُعضِّد إشكاليَّة البحث، وتكون إضافة للبحث العلمي في الجامعة الجزائريَّة، تتناول الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط واسهاماتها الحضاريَّة.

4)- تنوير الخلف من أبناء الجزائر (المغرب الأوسط) خصوصاً والمغاربة عموما بأمجاد أسلافهم، وإبراز انجازاتهم الحضاريَّة وكيف تحدوا الصِّعاب لأجل بنائها وتثبيتها، في بوتقة الأخوة الدِّينيَّة والإنسانيَّة فشكَّلت بذلك أوثق الرَّوابط بناء على المصالح، كلُّ هذا لأجل أنْ يقتدوا بهم ويستنيروا بنور جهودهم، ويواصلوا المسير على نفس الدَّرب من أجل رفعة الجزائر(المغرب الأوسط).

5)- رصد الثابت والمتغير في المجالات الصّحراوية المغرب أوسطية، والتعرف على فلسفة ساكنيها في تطويع هذا المجال القاسي ومحاولة فهم تشبثه به.

✓ **الأسباب الموضوعيَّة:**

1)- قلَّة الدِّراسات الأكاديميَّة التي سلَّطت الضُّوء على الواقع الاقتصادي ودوره الحضاري في الحواضر الصَّحراويَّة لبلاد المغرب الأوسط.

2)- نبش ذاكرة تاريخ الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط والتعرف على ساكنيه صانعوا أحداثه، لتتبع مسارها وربط الأجيال الحاضرة بتاريخ أسلافها.

3)- ابراز دور التَّنظيمات السِّياسيَّة داخل الحواضر الصَّحراويَّة (القصور)، وكذا الاقتصادية والاجتماعيَّة واستثمارها من أجل البناء الحضاري في هذه البقاع، وتشكيل هويَّة بلاد المغرب الأوسط.

. أهميَّة الموضوع:

من المسلم به جدلا أن المُنتظر من كل دراسة أو بحث علمي هو الإضافة والتجديد ويتحدد هذا الأخير في حقل الكتابة التاريخية بإحدى ثلاث: إما بالانفتاح على مضان مصدرية جديدة، وإما بطرق ونحت مواضيع مسكوت عنها ولا مفكر فيها، كما أن التجديد في الكتابة التاريخية في جانب مهم منه مرتبط بالتحكم بالمناهج الحديثة ومدى قدرة الباحث في إعماله للمقاربات المعرفية المتنوعة.

تأسيسا على هذا، وسعيا منا في تجسيد هذه الرؤية، وانطلاقا من انتمائي الوجداني والواقعي إلى حواضر الصحراء – على اعتبار أن الأسباب الذاتية أمر معتبر في البحث وما تمليه عليا مسؤولية الباحث في الحقل التاريخي من الاسهام في التأسيس للتاريخ الوطني، فإنه ومع كل الاعتبارات السابقة، ظل يتملكني انشغال علمي لطالما شغل فكري لدرجة جعلني مشدوهة أمام مفارقة كبيرة، فمن جهة لفت نظري ذلك الحضور الوازن للحواضر الصحراوية المغرب أوسطية في العصر الوسيط ، ودورها المحوري والفعال ليس على المستوى المحلي فحسب بل على المستوى الإقليمي والعالمي، ومن جهة ثانية غياب دراسات تؤرخ لهذه المجالات ، فكثيرا ما حُصر تاريخ بلاد المغرب الأوسط في عصره الوسيط في حواضر بعينها ظلت أقلام الباحثين مشدودة إليها على غرار (تلمسان، بجاية، قسنطينة، المسيلة، وتيهرت) فنحن إذا أمام مفارقة الحضور التاريخي للحواضر الصحراوية والتهميش التأريخي، فمجمل ما هو منجز حول هذه الأخيرة لحد الساعة لا يكاد يجيب إلا على قدر يسير من المسائل والقضايا التي يطرحها تاريخ هذا الحيز المجالي.

من هذا المنطلق يأتي موضوعنا: الحواضر الصحراوية بالمغرب الأوسط واقعها الاقتصادي ودورها الحضاري (4-10/8-14م) ، كمحاولة من شأنها أن تؤسس مع ما سبقها من دراسات لتاريخ أقرب للشمولية لهذه المجالات التي تم تغييبها، وتناولها وفق مقاربات مبتورة أحيانا وأيدولوجية استعمارية أحيانا أخرى وهكذا يأخذ موضوعنا قيمته العلمية والمعرفية كونه يسلط الضُّوء على مجالٍ جغرافي مهمٍّ وفاعل في تاريخ المغرب الأوسط، فالحواضر الصَّحراويَّة وبالرُّغم ممَّا ميَّز جغرافيتها من خصوصيَّة لموقعها، وما امتازت به من قسوة الطَّبيعة وبُعد المشقَّة والمخاطر وما عرفته من قحطٍ وجدبٍ وقحاله مقارنة بحواضر الشَّمال، إلاَّ أنَّها استطاعت أنْ تُحقِّقَ القدرة على إبراز حضورها في صُورٍ مُتعدِّدَة جعلتها في مصاف الحواضر الكبرى للمغرب الأوسط، فهذه الحواضر استطاعت أنْ تكون منبعاً للإسهام الحضاري.

- الأهداف المسطرة للموضوع:

نتطلع من وراء هذه الدِّراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، وهي كالتَّالي:

- التَّعريف بحياة الحواضر الصَّحراويَّة منَّ التَّشكُّل حتى التَّأثير والفعَالة الحضاريَّة وتسليط الضُّوء على الصُّعوبات التي عاشها ساكنوها، لكنهم بالعزم والاصرار والمثابرة والجدِّ وحبِّ الحياة بكرامة، حولوا المِحن إلى مِنح.
- لفت الانتباه إلى قدرة ساكنة الحواضر الصَّحراوية المغرب أوسطية وبراعتهم في التَّفاعل مع مُحيطها وتقديم المساهمة الحضاريَّة لها، من خلال السُّلوك الفعال والإيجابي المنتج.
- تزويد المكتبة الجامعيَّة بدراسة أكاديميَّة تاريخيَّة تُبيِّن اسهامات الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط المبني على قواعد العلم والدِّين، كيف كانت بصمته.

- حدود الدِّراسة:

اختيارنا لحدود هذه الدِّراسة **(الحواضر الصَّحراويَّة بالمغرب الأوسط واقعها الاقتصادي ودورها الحضاري (4 – 8هـ/10 – 14م))**، خيار له ما يُبرِّرُهُ علمياً، فالقرن (4هـ/10م) يمثِّلُ قرنٍ نزوح الرستميين باتجاه صحراء المغرب الأوسط، وإنشاء المدينة الدَّولة بوارجلان ألاَ وهي "سدارته"، أمَّا تاريخ القرن(8هـ/14م) يمثل أوج الإزهار الاقتصادي للحواضر الصّحراوية الذي انعكس بدوره على المجالات الأخرى.

- إشكاليَّة البحث:

تتمثل إشكاليَّة البحث المثارة في هذه الدِّراسة في التَّساؤل الرَّئيس التَّالي: **كيف اسهم الواقع الاقتصادي للحواضر الصَّحراويَّة لبلاد المغرب الأوسط في البناء الحضاري الإنساني؟**

مع طرح عدَّة أسئلة مُساعدة تُمكِّننا من الإجابة على هذه الإشكاليَّة وهي:

- كيف أسِّست الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط، وما هي أهم القبائل المكوِّنة لها؟
- ما المسارات التي اتخذتها هذه الحواضر في بنيتها وصقل شخصيتها الاعتباريَّة كحواضر فاعلة تشكِّل وتبني الرَّوابط التي من دونها لا يمكن لها أن تتمَّ، من خلال حضورها الاقتصادي؟
- كيف كانت بُنية الاقتصاد في الحواضر الصَّحراويَّة بالمغرب الأوسط؟
- ماهي أبرز تجليَّات النَّشاط الاقتصادي وأيُّ الأنشطة الاقتصاديَّة التي قام عليها اقتصاد حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة؟
- هل ساهم موقعها الجغرافي في ازدهارها الاقتصادي؟
- ما الأثر الذي تركته الممارسات الاقتصاديَّة للحواضر الصحراوية للمغرب الأوسط، وتأثيره في مجاله الحيوي بالسُّودان الغربي خاصة والحواضر الأخرى عامة؟
- ماهي انعكاسات وأدوار الواقع الاقتصادي على الجوانب الحضاريَّة بهاته الحواضر وتفاعلاتها البينيَّة؟

- مناهج الدِّراسة والبحث:

لا نجانب الصواب في حال قلنا بأن نجاح أي بحث متوقف في كثير منه على مدى مراس الباحث على المناهج، ووعيه قبل ذلك بحقيقة أن المنهج في مجمله مجموعة من الأدوات والآليات البحثية الموصلة للحقيقة العلمية، وعلى الباحث أن يدرك بأن طبيعة الموضوع وانتمائه لتخصص علمي بعينه عامل مهم في التحكم في المنهج الذي يصلح للدراسة.

تأسيسا على ما تقدم، يمكن القول دون مجازفة أن المنهج التاريخي أصلح المناهج التي يمكنها أن تقترب بنا لبناء نص تاريخي من شأنه أن يقربنا لحقيقة ما تصبوا إلى فهمه اشكاليتنا المطروحة، وهذا من خلال رصد الأحداث التاريخية واعتمدنا أيضا على المنهج الوصفي في وصفِ محلّ مُجرياتها وكذا الأحداث المحيطة بها، إلى جانب التَّحليل للوقوف على كيفيَّة تشكل هذه الحواضر

وواقعها الاقتصادي ذو التَّأثير الحضاري، وكيف صُقلت شخصيتها الاعتباريَّة لأداء أدْوارٍ متقدِّمة في البنيَّة الحضاريَّة الإنسانيَّة، مع استعمال المنهج المقارن أيضا للمقارنة بين واقع الحواضر الصَّحراويَّة والأدوار التي أدتها من خلال العرض لمسارات الأفعال والممارسات.

- قراءة المصادر والمراجع المعتمدة:

من أهمَّ المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا البحث، كتاب "سير الأئمة واخبارهم" لِـ "أبي زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني"(ت.471هـ/1078م): وهو من أهم المصادر التي اعتمدت عليها لما جمع بين دفتيه من معلومات مُهمَّة وقيِّمة ونسبته إلى "وارجلان" توحي باستقراره بها مدَّة من الزَّمن، وهذا ما يمكن أنْ يكون ذا إفادة واسعة فيما يخصُّ الجوانب الحياتيَّة المختلفة، ولقد اعتمدتُ في بحثي على النَّسختين، الأولى: من تحقيق (إسماعيل العربي)، والثَّانية: التي حقَّقها(عبد الرَّحمان أيوب)، وكان استعمالهما في شتى صفحات الدِّراسة .

كتاب "سير الوسياني" لمؤلِّفه "أبو الرَّبيع سليمان بن عبد السَّلام(550 - 600هـ/ 1153 - 1203م) وهو من أهمِّ المصادر التي اعتمدت عليها بشكل كبير في بحثي لما تضمَّنه من معطيات ووقائع أفادت الموضوع بشكل مكننا من رسم صورة أكثر اكتمالا حول الحواضر.

ولم تقل حجم الاستفادة التي كان مصدرها كتاب "طبقات مشايخ المغرب" لِمؤلفه "أحمد بن سعيد الدِّرجيني"(ت.670هـ/1271م) عن غيره من المصادر، حيث عاش فترة من حياته في إحدى هذه الحواضر ألاَ وهي "وارجلان"، فكان شاهد عيان فيما عرضه من وقائع.

إضافة إلى جملة من المصادر الإباضيَّة التي تمَّ الاعتماد عليها، واختلف حجم النُّقولات منها، إلاَّ أنَّ جميعها ساهم في رصد الملمح العام للحواضر الصَّحراويَّة، منها كتاب "المُعلَّقات" لمؤلف مجهول(القرن السادس الهجري)، وكتاب "قسمة الأرضين" لِـ"لفرسطائي"(ت.540هـ/1111م)، وكتاب "السِّير" لِـ"لشَّماخي"(ت.921هـ/1521م)

- أمَّا المصادر الجغرافيَّة، فهي المصادر التي لازمتني في جميع فصول بحثي نظراً لما لها من أهمية بالغة، منها:

كتاب "صورة" الأرض لمؤلِّفه "ابن حوقل النَّصيّبي"(ت.367هـ/977م)، الذي عمل بالتِّجارة وبدأ تجواله من "بغداد" ودخل بلاد المغرب فوصل إلى "بلاد السُّودان" وزار مدينة "أودغشت" و"غانة"،

ومدن سودانيَّة أخرى، وهو مصدر أساسي في دراسة الأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، استفدت منه في الجانب التِّجاري.

كتاب "المغرب في ذكر بلاد إفريقيَّة والمغرب" لمؤلفه "أبو عبيد البكري"(ت. 487هـ/1094م)، والذي قدَّم لنا مُعطيَات بالغة الأهميَّة حول بلاد "المغرب" و"السَّودان" حيث عرَّف ببعض المدن السُّودانيَّة كـ"مملكة غانة"، وأفادنا بمعلومات قيِّمة حول وضعيَّة الجالية المغربيَّة بها، ورصد أهمَّ المسالك المغربيَّة نحو بلاد السُّودان وتلك التي تربط بين المدن السُّودانيَّة كذلك.

كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" لِـ"لشَّريف الإدريسي"(ت.560هـ/1160م)، أفادني بمعلومات في الجانب الاقتصادي كأهم السِّلع الصَّادرة والواردة، وأشار إلى تواجد تجار الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد السُّودان، ناهيك عن المعلومات التي تخصُّ الجانب الاجتماعي.

كتاب "تُحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لِـ"مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد اللواتي الطَّنجي (ابن بطوطة)" (ت.770هـ/1368م)، الذي نقل لنا في رحلته التي دامت سنتين الكثير من المعلومات عن الأوضاع السِّياسيَّة والبلاط السُّلطاني، واهتم برصد أوضاع المغاربة في المنطقة ووظائفهم ومركزهم الاجتماعي، ونقل لنا عوائد السُّودانيين في ملبسهم ومأكلهم واحتفالاتهم.

كتاب "وصف إفريقيا" للرحالة "حسن الوزان" (ليون الإفريقي)" (ت. بعد957هـ/ 1571م)، والذي احتوى على معلومات مُهمَّة على المدن الصَّحراويَّة لـ"لمغرب الأوسط" و"بلاد السُّودان"، ففي كلِّ مدينة يقدِّم "الوزان" وصفاً شاملاً يضمُّ مختلف الجوانب اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وعمرانياً.

كتاب "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السَّعيدة إلى قسنطينة والزَّاب" لِـ"ابن الحاج النُّميري"(ت بعد 774هـ/1346م)،والذي يُعدُّ من أهمِّ المصادر الرَّحلاتيَّة فقد قدَّم لنا مجموعة من المشاهدات المُهمَّة حول الواقع العُمراني ببلاد "الزَّاب" خاصة بعد استقرار العنصر الهلالي بالمجال الزَّابي.

كتاب "تاريخ السُّودان لمؤلفه "عبد الرَّحمان السَّعدي"(ت.1066هـ/1656م)، من المصادر المهمَّة التي اعتمدتُ عليها في دراسة الواقع العلمي والثَّقافي لبلاد السُّودان، حيث أمدَّنا بمعلومات حول أهمِّ الحواضر العلميَّة ببلاد السُّودان وسير علمائها، كما تضمَّن بعض المعلومات حول

النَّشاط الاقتصادي، وقد جمع مؤلِّفه بين الرِّواية الشَّفويَّة والنَّقل من كتابات متقدِّمة، في مقدّمتها مؤلفات "أحمد بابا التُّنبكتي" لاسيما في القضايا الثَّقافيَّة.

- أمّا بخصوص المراجع التيّ وظفتها في بحثي فقد تنوعت وتعدَّدت هي الأخرى منها:

كتاب "غصن البان في تاريخ وارجلان" للشيخ "إبراهيم بن صالح أعزام"، وهو من المراجع التي أسهمت في تقديم وتفصيل تاريخ "وارجلان" السِّياسي والثَّقافي عبر مختلف العصور.

كتاب "توات مساهمة في دراسة المجتمعات الصَّحراويَّة"، لمؤلِّفه "مُحمَّد أعفيف"، من المراجع القيِّمة التي استقيت منها معلوماتي حول حاضرة "توات" .

كتاب "الإباضيَّة في المغرب الأوسط"، لمؤلِّفه "مسعود مزهودي"، تضمَّن معلومات ذات قيمة حول حاضرة "وارجلان"، والتي تطرَّق لها بشكل مُفصَّل خاصة الواقع الاقتصادي والثَّقافي.

كتاب "معالم الحضارة الإسلاميَّة بوارجلان"، لمؤلفه "عمر لقمان بوعصبانة"، وهذه الدِّراسة عبارة عن رسالة ماجستير طُبعت، تطرَّق صاحبها للدَّور الحضاري الذي أدَّته حاضرة "وارجلان" من نهاية القرن الثَّالث هجري التَّاسع ميلادي، إلى غاية القرن السَّابع الهجري الثَّالث عشر ميلادي.

كتاب "دراسات صحراويَّة"، لمؤلِّفه "حسن حافظي علوي"، وهو مجموعة من المقالات كتبها مؤلفها على مدى سنوات ونشرت أغلبها في "مجلَّة المناهل"، وبعض أعمال النَّدوات، ضمَّها مؤلفها في كتاب استفدت منه في الجانب الاقتصادي، لاسيما النَّشاط التِّجاري تحديداً.

كتاب "تطور الفكر التَّربوي الإباضي في الشَّمال الإفريقي من القرن الأوَّل حتّى القرن العاشر الهجري"، لمؤلِّفه "عبد الرَّحمان عثمان حجازي"، وهو من أهمِّ المراجع التي اعتمدْتُ عليها في رصد ملامح المنظومة العلميَّة والتَّعليمية بالحواضر الصَّحراويَّة.

- أمَّا فيما يخص المراجع باللغة الأجنبية فلقد استفدت من:

كتاب المؤلِّف "letheilleux(j)" (ouargla citè saharienne)، وهو عبارة عن دراسة اهتمَّت بالكشف عن تاريخ "وارجلان" منذ نشأتها إلى ما بعد الاستعمار الفرنسي للجزائر، تعرَّض من خلالها مؤلِّفها لأهمِّ العصور والتَّطورات التي مرَّت بها الحاضر.

كتاب (Etudes maghrèbines et soudanaises) لمؤلِّفه "lewicki (T)"، هذا الكاتب بولوني وهو من المهتمين بتاريخ الجماعات الإباضيَّة وعلاقاتها ببلاد السُّودان، وقد فصَّل المؤلف في ذكر المسالك والمراحل التي تربط "وارجلان" بالمدن الأخرى وأحصى عشرون مسلكاً، منها: عشرة نحو مدن الشَّمال، والأخرى نحو بلاد السُّودان، وقد اعتمدت عليه في الإشارة للمسالك التي تربط حواضر الصَّحراء بمختلف المدن.

– **الدِّراسات السَّابقة:** ما يجب الإشارة إليه أننا لا ندعي أننا ننسج على غير منوال في بحثنا، كما أننا لا نزعم لأنفسنا قصب السبق في التنويه على أهمية التأريخ للحواضر الصحراوية والكتابة عليها، فالمتتبع لحقل الدراسات التاريخية لا يفوته أن يلحظ بأن هذه المجالات تجاذتها جملة من الأقلام، وفق مقاربات ومطارحات تفاوتت قيمتها تبعا لطبيعة الدراسة، ومدى تحكم الباحث في أدوات الحفر التأريخي وزوايا النظر التي انطلقا منها وإشكالياته التي عالجها، وانطلاقا من بديهية أن البحث العلمي يقوم على التراكمية العلمية، واعتبارا من أن قيمة أي دراسة إلا بالوقوف على حدود ما سبقها من أعمال، فمن غير شك أن تجاهل ماهو منجز زيادة عن كونه يخل بمبدأ الأمانة العلمية، فإنه قد يجعل الباحث يدخل في مطب التكرار، وقد تفطن أرباب القلم من علماء الإسلام إلى هذه اللفتة المنهجية التي نوردها بلسان " الزركشي" الذي جاء في مقدمة كتابه البرهان قوله : ((وأعلم أن بعض الناس يفتخر ويقول: كتبت هذا وما طالعت شيئا من الكتب، ويظن أنه فخر، ولا يعلم أن ذلك غاية النقص، فإنه لايعلم مزية ما قاله على ما قيل، ولا مزية ما قيل على ما قاله))[1] ومن أجل ذلك لا بد من الإشارة إلى أهمّ تلك الدراسات التي كانت رافدا مهما لدراستنا مع تبيين مواطن الاستفادة ومواضع الخلل ومن أهمّ هذه الدراسات

. دراسة الدكتور "عمار غرايسة" الموسومة بعنوان: "**المدينة الدَّولة في المغرب الأوسط وارجلان أنموذجا**"، وهي رسالة ماجستير نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية " قسنطينة"، تطرَّق فيها صاحبها لحاضرة "وارجلان" بشكل مُفصَّلٍ خاصةٌ ما تعلَّق منها بالجانب الاقتصادي والثَّقافي وكانت من أهمّ الدِّراسات التي اعتمدتُ عليها وساعدتني في رسم صورة على الحواضر الصّحراويَّة.

[1] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص 24.

. دراسة "عزُّ الدِّين جعفري"، بعنوان: "**أطلس العادات والتَّقاليد بمنطقة توات**"، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه نوقشت بجامعة أبي بكر بلقايد " تلمسان"، أفادتني في معرفة كلُّ ما هو متعلق بالنَّشاط الاقتصادي والعلمي بالمنطقة.

. دراسة "أحمد ذكار"، والموسومة بعنوان: "**حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة بالسُّودان الغربي من سنة (1000 – 1301هـ/1519 – 1883م)**، رُغم أنَّ هذه الدِّراسة متأخِّرة زمنياً على فترة بحثنا، إلاَّ أنَّها أمدتنا بمعلومات مُهمَّة تخصُّ الجانب الاقتصادي، وكشفت لنا على جانب مُهمٍّ متمثلٍ في علاقات حواضر الصَّحراء بالبلدان المجاورة لها.

. دراسة "مُحمَّد العيد تيته"، بعنوان: "**العلاقات بين الإقليم الصَّحراوي للمغرب الأوسط وبلاد السُّودان خلال(ق.3 – 9هـ/9– 15م)**"، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه نُوقشت بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية " قسنطينة"، وتعدُّ من الدِّراسات الحديثة التي تطرَّقت لهذا المجال، اعتمدت عليها في مختلف فصول البحث حيث تكمن أهميتها في اعتماد صاحبها على عدد كبير من الدِّراسات الأجنبيَّة التي أثْرتِ الموضوع.

. دراسة "حسين بوبيدي" الموسومة بعنوان: "**التَّغيُّرات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في السُّودان الغربي من(ق.5 – 10هـ/11 – 16م) دراسة في تفاعل المؤثِّرات السُّودانيَّة والمغربية**"، وهي أطروحة دكتوراه نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية " قسنطينة"، عالج صاحبها موضوع في غاية الأهميَّة، حيث تتبَّع وبشكل دقيق التَّغيُّرات التي طرأت على المجتمع السُّوداني نتيجة التَّواصل الاقتصادي والثَّقافي مع بلاد المغرب، فأفادتني في الفصل الأخير المُتعلِّق بدراسة الدَّور الحضاري للحواضر الصَّحراويَّة ببلاد السُّودان، وممَّا زاد من أهمية هذه الدِّراسة اعتماد صاحبها على مصادر متنوِّعة، منها: المصادر البرتغاليَّة ناهيك عن الدِّراسات الأثريَّة.

. دراسة "صلاح الدِّين شعباني"، الموسومة بعنوان: "**التَّربية والتَّعليم عند الإباضيَّة بالمغرب الإسلامي بين القرنين الثَّالث والخامس الهجريين**"، وهي رسالة ماجستير نُوقشت بجامعة" الجزائر"، اهتمَّت بكلِّ ما هو متعلق بالجانب العلمي والمعرفي عند الإباضيَّة، اعتمدت على هذه الدِّراسة في الفصل المتعلق بالنَّشاط العلمي بالحواضر الصَّحراويَّة.

. دراسة "زينب سالمي"، "**الحركة العلميَّة في إقليم توات خلال القرنيين الثَّامن والعاشر هجري**"، وهي رسالة ماجستير نُوقشت بجامعة أبي بكر بلقايد " تلمسان"، اعتمدت عليها في دراسة الجانب العلمي والثَّقافي بحاضرة "توات". مع كتب ومؤلفات أخرى أفادت موضوعنا.

. خطة البحث:

- حتى تكون خطة الدِّراسة أكثر شموليَّة وإحاطة لكلِّ مُعطاً يُساعد في مُقاربة الحقيقة وتكون إجابتنا عن الإشكاليَّة شافية. قسَّمنا الدِّراسة إلى مُقدِّمة وأربعة فصولٍ وخاتمة، مع مجموعة من الملاحق، وثبتٍ للمصادر والمراجع وفهرس محتويات.

جاء الفصل الأوَّل بعنوان: "**حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة قراءة في تاريخيَّة النَّشأة، المجال، الإنسان**"، وقد تطرَّقت فيه إلى التَّعريف بالحواضر من حيث النَّشأة وأصل تسمية كل حاضرة وحدودها الجغرافيَّة ومميِّزاتها الجغرافيَّة، ثمَّ عرَّجتُ في الحديث عن البنية السُّوسيولوجيَّة للحواضر من خلال ذكر أهمِّ الاجناس التي سكنت تلك الحواضر وواقع هجرتها وتاريخ قدومها لها، ثمَّ تطرقت إلى المنظومة التي كانت تؤطر تلك الحواضر بما فيها (المنظومة السِّياسية والاجتماعية...)، ثمَّ عرّجت على التَّنظيم العمراني للحواضر الصّحراوية

أمَّا الفصل الثَّاني فكان بعنوان: "**النَّشاط الاقتصادي للحواضر الصَّحراويَّة**" تطرقتُ فيه إلى مختلف الأنشطة السَّائدة في الحواضر الصَّحراويَّة، وفي مقدِّمتها النَّشاط الزِّراعي حيث ذكرت أهمَّ مقوِّمات هذا النَّشاط، والإنتاج الزِّراعي وأنواعه، والمنشآت المائيَّة ونظم السَّقي، ثمَّ تطرَّقت للنَّشاط الصِّناعي باعتباره من الأنشطة الاقتصاديَّة التي لاقت انتشاراً واسعاً بالحواضر الصَّحراويَّة، أشرتُ فيه إلى مقوِّمات الصِّناعة وأهمِّ الصِّناعات والحرف، والعوائق التي واجهت هذا النَّشاط، ثمَّ تطرَّقت للحديث عن النَّشاط التِّجاري وهو قوام اقتصاد الحواضر الصَّحراويَّة، تطرّقت فيه للتجارة الدَّاخليَّة والخارجيَّة التي ربطت بين حواضر الصَّحراء ومختلف الحواضر والمناطق المجاورة لها، ثمَّ تحدَّثت عن أهمِّ المسالك التِّجاريَّة وطبيعة السِّلع المتبادلة، وأهمِّ المراكز التَّجاريَّة ونُظم المعاملات التِّجاريَّة، ثمَّ أشرت إلى القوافل التِّجاريَّة والمخاطر التي تعترضها.

وعن الفصل الثَّالث فقد كان بعنوان: "**النَّشاط العلمي والثَّقافي بالحواضر الصَّحراويَّة**"، تحدَّثتُ فيه على المنظومة التَّعليميَّة والعلميَّة بحواضر الصَّحراء، وأهمِّ المؤسسات التَّعليميَّة، وأبرز العلوم

السَّائدة، وأهمِّ العلماء وإنتاجهم الفكري، والتَّواصل العلمي والمعرفي بين الحواضر الصَّحراويَّة والمناطق المجاورة لها.

أمَّا الفصل الرابع فجاء بعنوان: "**الدّور الحضاري للحواضر الصَّحراويَّة وتأثيراته على السُّودان الغربي**"، تطرَّقت فيه للدور الحضاري للحواضر الصَّحراويَّة وتأثيراتها في بلاد السُّودان الغربي، وقد شمل هذا التَّأثير جوانب مختلفة، منها: التَّأثير الاجتماعي والتَّأثير العقدي والسُّلوكي، ثمَّ أشرت أيضاً للتأثير العلمي والمعرفي، ثمَّ التَّأثير العمراني.

- وعن خاتمة الدِّراسة فقد جاءت عبارة على استنتاجات حول المضمون المقدَّم.

. الصُّعوبات:

ما كان هذا البحث ليتمَّ دونَ أنْ تعترضه العديد من الصُّعوبات التي بدا أثرها واضحا على المحتوى، ومن جملة هذه الصُّعوبات نذكر التَّالي:

✓ محدوديَّة المادة المعرفيَّة في المصادر والمراجع فيما يخص موضوع البحث، وتشابه وتماثل الكثير منها في نقولاتها.

✓ أنَّ جلُّ ما كتب حول تاريخ حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة كان في فترات متأخِّرة ومعظمها عبارة عن تقارير فرنسيَّة ومذكِّرات لبعض القادة الذين زاروا هذه الحواضر ونقلو مشاهداتهم المختلفة.

✓ النُّقص الكبير في المادة المعرفيَّة بخصوص بعض الحواضر كحاضرة "الزَّاب" و"ميزاب" و"توات"، وهو ما صعَّب من مهمَّة إنجاز بحثي ودفعني في كثير من الأحيان إلى القراءات العديدة للمعلومة لرفض المتكرِّرِ منها واعتماد الأصح المتفق عليه المتناثر بين طيّات الكتب وبين براثن السُّطور لعلي أفوز بالتَّجديد في المعلومة، مع الاعتماد على بعض الإسقاطات مستندةً في ذلك إلى التَّشابه البيئي والتَّقارب الجغرافي ووحدة المذهب بينهم.

✓ صعوبة ضبط حدود الحواضر لأنَّ حدود حواضر الصَّحراء للمغرب الأوسط والواحات عموماً انبنى على بعدين: بُعد سياسي جعل المجال يتسع ويضيق حسب اندماجه أو استقلاله عن الكيان السِّياسي، وبشري بفعل التِّرْحال الذي ميَّز المنطقة.

✓ و ما زاد من هذه الصُّعوبات هو إصابتي بوعكة صحيَّة ألزمتني التَّوقف عن العمل لفترات كبيرة وبشكل متكرِّر، وبفضل الله وعونه استطعت تجاوز تلك الصُّعوبات.

في الأخير أرجو أنْ يكون بحثي هذا قد ساهم في إبراز الدَّور الحضاري لحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة بالاستناد إلى واقعها الاقتصادي. لا شكَّ أنَّ كلَّ عمل ينجزه صاحبه يعتريه النُّقصان ويشوبه الخطأ، ويؤثر عليه التَّقصير، فإنْ حالفني التَّوفيق فالفضل الله وحده وإنْ أخطأت السَّبيل فالكمال الله وحده والعصمة للأنبياء وليشفع لي صدق التَّوجه وعدم ادخار الجهد في الفهم.

الفصل الأول: الحواضر الصحراويـة بالمغرب الأوسط قراءة فـــي تاريخية (النشأة – المجال – الإنسان)

أولا: حواضر المغرب الأوسط الصحراوية التعدد و التمايز.

ثانيا: المنظومات المؤطرة للحواضر الصحراوية المغرب أوسطية.

ثالثا: تنظيم العمـــران بالحـــواضر الصحراويـــة.

دآب الإنسان منذ القدم على الاكتشاف، فكسر الصَّخر وفتَّت الحجر وأحل الصَّحاري إلى واحات خضراء غَنَاءَ، وراح يبحث لنفسه عن موطئ قدم من خلال الاستقرار ثمَّ العمران، فأسَّس حواضر أينما حلَّ واستقرّ، ومن هذه الحواضر في الصَّحاري، نجد حواضر بلاد المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، فكيف نشأت وتسمَّت؟

أوَّلاً– حواضر المغرب الأوسط الصحراوية التَّعدّد والتَّمايز:

1)– قراءة في تاريخ النَّشأة (وارجلان – وادي ميزاب – الزاب – وادي ريغ – أسوف – توات):

1 – 1 – وارجلان (التَّسمية والنشأة):

إنَّ الحديث عن تاريخ وارجلان في جوانبه المختلفة بدءاً بأصل التَّسمية والنَّشأة يُحيلنا دون شكٍّ للاطلاع على ما سجَّلته كتب الرَّحالة والجغرافيون سواء منهم من اتصل بالمنطقة بشكل مباشرٍ أو من تَنَاقلت إليه أخبارها عن طريق الرِّواية والسَّمع فالباحث في تاريخ وارجلان يجد نفسه أمام العديد من الآراء كان الاختلاف والتَّباين فيها هو سيد الموقف؛ وأوَّل ما يلفت انتباهه هو ذلك الاختلاف والتَّباين الكبير في مختلف المصادر والمراجع وكتب الرَّحلة حول أصل تسمية هذه الحاضرة، ونطقها، ومدلولات الاسم اللغويَّة والاصطلاحيَّة.

وردت عند البكري (ت.460هـ/1067م) باسم" وارجلان"[1]، والإدريسي (ت.548هـ/1154م) " وارقلان"[2]،بينما يذكرها إبن سعيد المغربي(ت.610هـ/1228م)

[1]– أبو عبيد البكري: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط.1، (ب. س. ن)، ص. 182.

[2]– أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، ط.1، 2002م، مج.1، ص.20.

بواركلان إذ تستبدل الجيم بكاف[1]، وهي التَّسمية ذاتها التي اعتمدها كل من إبن حوقل(ق.4هـ/10م)[2]،وصاحب الرَّوض المعطار[3]، وأوردها الزُّهري(ت.6هـ/12م) في كتابه الجغرافية بصيغتين مختلفتين الأولى باسم: "وارقلان" والثَّانية باسم: "واركلان".[4]

أمَّا صاحب الموسوعة الكبرى "معجم البلدان" "ياقوت الحموي" (ت.626هـ/1228م) فيذكرها باسم "ورجلان" بعد أنْ دَقَّقَ في نطق اسمها بقوله «**ورجلان بفتح أوله، وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون**»[5]، أمَّا الرَّحالة المغربي الحسن الوزان فذكرها باسم "وركلة" (بفتح الواو وسكون الرَّاء)، وقدَّم وصفاً للحاضرة من حيث عمرانها ونشاطها الاقتصادي وثرائها[6]، وخلال القرن الحادي عشر الهجري السَّابع عشر ميلادي مرَّ عليها الرَّحالة المغربي العياشي وهو في طريقه لأداء فريضة الحج وذكرها باسم "واركلا" ووصفها بأنَّها مدينة عظيمة ولها سبعة أبواب.[7]

---

[1]– أبو الحسن علي بن سعيد المغربي: **الجغرافيا**، تح: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التِّجاري للطباعة والنَّشر، بيروت، ط.1، 1970م، ص.126.

[2]– أبو القاسم بن حوقل النَّصيبي: **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت، ط.1، 1992م، ص.86.

[3]– مُحمَّد بن عبد المنعم الحميري: **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، مطابع هيد لبرغ، بيروت، ط.2، 1984م، ص.600.

[4]– أبو عبد الله مُحمَّد الزَّهري: **كتاب الجغرافيَّة**، تح: مُحمَّد حاج صادق، منشورات مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، ط.1، (ب. س. ن)، ص.112 – 115.

[5]– أبو عبد الله ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط.1، 1977م، ج.3، ص.371.

[6]– الحسن بن مُحمَّد الوزان: **وصف إفريقيا**، تر: مُحمَّد حجي ومُحمَّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1983م، ج.2، ص.136 – 137.

[7]– أبو سالم عبد الله بن مُحمَّد العياشي: **الرِّحلة العياشيَّة**، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السُّويدي للنشر، أبوظبي، ط.1، 2006م، ج.1، ص.114.

- **أمَّا في المصادر الإباضيَّة فقد ورد ذكرها كالتَّالي:**

ورد ذكـرها عند أبو يعقوب الوارجـلاني باسم "وارجــلان" [1] وهي التَّسميـة التي كانت أكثر تـــداولاً فـي مصـــادر الإباضـيين، أمـــثال: الدِّرجـــيني(ت.670هـ/1271م)[2]، والشَّماخي(ت.928هـ/1522م)[3]والوسياني(ت.550هـ/1155م)[4]،وأبوزكرياء(ت.474هـ /1081م)[5].

وفي مستهل القرن التَّاسع الهجري الخامس عشر ميلادي تطرق لها إبن خلدون بشيء من التَّوضيح والتَّعليل فذكرها باسم "واركلا"[6]، بكسر رائِها ويكتبها بالكاف مُستعيضا نون النِّهاية بلام وألف ممدودة، ويشير إبن خلدون بأن قبائل بني واركلا الزَّناتيين القادمين من منطقة الزَّاب هم من أسَّسوها «**بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناته... كانت مواطنهم قبلة الزَّاب واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على**

---

[1]– أبو يعقوب يوسف الوارجلاني: **الدَّليل والبرهان**، تح: سالم بن حمد الحارثي، وزارة التُّراث والثَّقافة، مسقط، ط.2، 2006م، ج.2، ص.103. **ينظر أيضا:** عبد الرَّحمان الجيلالي: «**أبو يعقوب يوسف الوارجلاني وكتابه الدليل والبرهان**»، مجلَّة الأصالة، ع.41، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص.164.

[2]– أبو العباس أحمد الدِّرجيني: **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح: إبراهيم طلاي، (د م ط)، ط.1، (د س ن)، ج.1، ص.95.

[3]– أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشَّماخي: **السّير**، تح: سعود السّيالي، وزارة التُّراث القومي والثَّقافة، مسقط، ط.2، 1992م، ج.2، ص.46.

[4]– أبو الرَّبيع سليمان بن حسان الوسياني: **سير الوسياني**، تح: عمر بن لقمان بوعصبانة، منشورات وزارة التُّراث والثَّقافة، مسقط، ط.1، 2009م، ج.1، ص.99.

[5]– أبو زكرياء يحي بن أبي بكر: **كتاب السّير وأخبار الأئمة**، تح: عبد الرَّحمان أيوب، الدَّار التَّونسيَّة للنشر، ط.1، (د. س. ن)، ص.159 – 160.

[6]– عبد الرَّحمان بن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشَّأن الأكبر**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 2000م، ج.7، ص.69.

ثمان مراحل من "بسكرة" في القبلة عنها ميامنة إلى "المغرب"، بنوهـــا قصورا متقابلة متقاربة الخطة ثم استبحر عمرانها».[1]

كما ذكرها صاحب الاستقصا لأخبار دول المغرب باسم "واركلان" في معرض حديثه عن عرب بني معقل «**... ملكوا قصور الصَّحراء التي إختطتها زناته بالقفر مثل قصور السُّوس غربا، ثمَّ توات، ثم بودة، ثم تمنطيت، ثم واركلان**».[2]

- **أمَّا المصادر والمراجع المعاصرة فقد أوردت ذكرها على صورتين: (وارجلان وورقلة).**

فصاحب غصن البان في تاريخ وارجلان يذكرها باسم "وارجلان"، ويقول: «**بأن لها أسماء عديدة ولكن الأصح هو اسم وارجلان**».[3]

كما أشار لها أحمد توفيق المدني باسم "وارجلان" «**ورقلة اسمها الأصلي "بني وارجلان" قصر من أبدع القصور البربريَّة في الجنوب الجزائري... وكانت "وارجلان" محطَّ رجال الإباضيَّة عند تشتت الدَّولة الرُّستميَّة**».[4]

وعلاوة على ما ذُكر بخصوص "وارجلان" فقد كان للأسطورة حضورها في تحديد أصل تسمية "وارجلان"، فالأساطير الشَّعبية تروي أنّ أسداً كان جاثما أمام المورد المائي بالحاضرة وكلما اقترب النَّاس للسقي إلَّا والتهم أحدهم فاتفق الجميع على محاربته والقضاء عليه، ولما تمكَّنوا من ذلك وشاع خبر قتله بين النَّاس، قيل بالأمازيغيَّة **(الوير انجلاء)**، و"الوير" بالأمازيغيَّة **تعني الأسد، وانجلاء باللغة العربية**

---

[1]– إبن خلدون: **العبر**، المصدر السابق ، ج.7، ص.69. **ينظر أيضا:** عبد الرَّحمان الجيلالي: **أبو يعقوب يوسف الوارجلاني**، المرجع السابق، ص.163.

[2]– أبو العباس أحمد النَّاصري: **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح: جعفر النَّاصري ومحمد النَّاصري، دار الكتاب، الدَّار البيضاء، ط.1، 1954م، ج.2، ص.159.

[3]– إبراهيم بن صالح أعزام: **غصن البان في تاريخ وارجلان**، تح، إبراهيم بحاز وسليمان بومعقل، مطبعة العالميَّة، غرداية – الجزائر، ط.1، 2013م، ص.56.

[4]– أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط.1، 1984م، ص.244.

تعني زال وغاب، ومنذ ذلك الحين أصبحت تسمى " الوير نجلاء" ومع تقادم الزَّمن أصبحت تسمى "وارجلان"، ويفهم من هذه الأسطورة أنَّ هذا الاسم أطلق عليها بعد انتشار اللغة العربية والإسلام لاستعمالهم كلمة عربية "إنجلاء".[1]

أما الرحالة والأثريون الأوربيون الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها في أبحاثهم ومصنفاتهم باسم "ورقلة" (Ouargla) دون توضيح أو تفسير لأصل أو مدلول الكلمة، إن استثنينا **جون ليثيو** (Jean lethielleux) الذي يرى أنَّ التَّسمية تعود إلى لون بشرة سكَّانها وأنَّ كلمة "وار" عند البربر تعني أولاد أو أبناء، وتأتي في بداية الاسم، أمَّا الجزء الثَّاني من الكلمة "**أكلي**" **أو** "**إيكلان**" تعني الأسود بمعنى **(أبناء الزنوج، أو أبناء السُّمر)** ، ويقدم لنا "ليثيو" إشارة مهمة، مفادها أنَّ جماعة من الزِّنجباريين قَدِمُوا المدينة وعلى رأسهم الشَّيخ "حادور" وقاموا ببناء المدينة سنة(106هـ/726م)، ولأن هؤلاء ذو بشرة سمراء فقد نسبت المدينة إليهم[2].

ورغم ما تحمله هذه الرِّواية من أهمية إلَّا أنَّها تفتقر لأدِلَّة وشواهد أثريَّة من شأنها أنْ تُعزِّزها وتجعل قبولها أمراً مُسْتصاغاً، بينما يرى "جورج غير ستر" (Georges Gerster) أنَّ نشأة "وارجلان" وازدهارها يعود إلى ما قام به رجال السُّود من السُّودان من زراعة بساتين النَّخيل بواحة عفران.[3]

والجدير بالملاحظة أنّ كلاً من "**ليثيو**" و"**جورج غير ستر**" يُرْجعان تأسيس "وارجلان" إلى العامل الخارجي دون تقديم تفسير يوضح أسباب قدوم هؤلاء إلى المدينة

---

[1]– أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية بالسودان الغربي من (1000هـ – 1591م/ 1301هـ–1883م)**، مذكرة مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير تخصص: التَّاريخ الإفريقي، كلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة والعلوم الإسلاميَّة، جامعة أحمد دراية، أدرار – الجزائر، 2010م، ص.8.

[2]– Jean lethielliux: **ouaregla cité saharienne**, libraire orientaliste, Paul geuthner s.a paris, 1983,p.11.

[3]– جورج غير ستر: **الصَّحراء الكبرى**، تع: خيري حمَّاد، منشورات المكتب التِّجاري، بيروت، ط.1، 1961م، ص.148.

ومتى كان ذلك؟ وهل هجرة هؤلاء كانت عن قصد وبمحّض إرادتهم أمْ أنَّها هجرة قّسريَّة جاءت نتيجة ظروف أجبرتهم على ذلك؟ وفي ظلِّ غياب ما يدعم هذا الطرح تبقى مجرد آراء.

بينما ينسبها لارجو(Largeau) نقلاً عن "بوعصبانة"، إلى إمرأة يقول: بأنَّها سكنت مكان المدينة حيث شنَّت الغارة على جبل كريمة وخُرِب ما حوله، فبنت كوخا وغرست نخلا فسميت المدينة باسمها.[1]

وفي ظلِّ غياب المصادر التي تطرَّقت للمدينة بشكل مفصَّل ومُعمَّقٍ، يبقى ترجيح النُّصوص وتأويلها وفق ما يتماشى مع المعطيات التَّاريخيَّة وما يتقبله العقل والمنطق هو السَّبيل الأوحد لمحاولة الوصول إلى مُقاربة تكاد تلامس الحقيقة، وبحسب ما هو مُتوافر من مادة خبريَّة، وجدت اختلافاً كبيراً في كتابات المؤرخين بخصوص تأسيس "وارجلان"، فالبعض يُرجع تأسيسها إلى العصور الحجريَّة ويُعلِّلون ذلك بوجود أدوات حجريَّة تعود إلى العهد النُّيولتيكي، كما أنَّ الرُّسوم والنُّقوشات التي وجدت بعيداً مثل التي وجدت في الطَّاسيلي تدلُّ على تواجد بشري في تلك المناطق منذ القديم، وهو مالا يمكن استبعاده كون الإنسان قديماً كان كثير التَّنقل والتِّرحال، لا يمكث كثيراً في منطقة حتى يغادرها لأخرى، فالكهوف والمغارات التي وُجدت بأعالي "ورقلة" بمنطقة "بامنديل" في العصر الحجري الأخير دلَّت على تواجد الإنسان بالمنطقة[2].

بينما يرجعها آخرون للفترة القرطاجيَّة والنُّوميديَّة، فالرحالة المغربي "الحسن الوزان" يؤكد «**بأنَّها مدينة قديمة بناها النُّوميديين في صحراء نوميديا**».[3] ولكنَّه لم يقدم لنا ما يؤكد حقيقة ما ذهب إليه، وبمقارنة نص الوزان مع ما توفر من نصوص

---

[1]– عمر لقمان بوعصبانة: **معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراته**، إشراف مديريَّة الثَّقافة، ورقلة – الجزائر، ط.1، 2009م، ص.31.

[2]– أحمد ذكار: «**مدينة ورقلة التَّسمية والتَّأسيس(دراسة تاريخية)**»، **مجلَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، ع.17**، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، ديسمبر/2014م، ص.164.

[3]– الوزان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.136.

أخرى نستنتج أنْ أنَّه ربما يكون تأسيسها قد تمَ من طرف القبائل التي تم تهجيرها قسرا نحو الجنوب في إطار الإستراتجية التي تبناها الرُّومان بهدف تفكيك البنية الاجتماعيَّة للسكان فقد حلَّت أفواج من البربر بالصَّحراء، وتعذر عليها العودة إلى الشَّمال بسبب الحصار المفروض عليهم من قبل الرُّومان فسكنوا في العديد من المناطق الصَّحراويَّة وأسَّسوا عدداً كبيراً من القرى.[1]

وهو ما يؤكده "إبن خلدون": «**بأنَّها بُنيت من طرف قبائل بني واركلا بنوها قصورا متقاربة، ثم استبحر عمرانها**»[2]، ويرى بعض المؤرخين الآخرين أنَّ تأسيسها يعود إلى بداية الفتح الإسلامي عندما وقعت فتن دفعت بالكثير من البربر بالهجرة نحو الصَّحراء حيث أسَّسوا قصوراً كثيرة منها قصر ورقلة [3].

وأمام التَّباين الكبير في آراء المؤرخين حول نشأة "وارجلان" يصعب علينا الوصول لمعرفة حقيقة نشأتها، فالحديث عن تأسيس "وارجلان" وتحديد ذلك زمنياً، من الصُّعوبة بمكان في ظلِّ تضارب آراء المؤرخين، ولهذا يري "**دوفيري**" (Dovery) فيما ذكره عنه بوعصبانة «**بأنّها من أقدم مدن الصَّحراء ومن غير الممكن أنَ نحدد لها تاريخا دقيقا**»[4]، بينما يكتفي صاحب غصن البان بالقول بأنَّها: **(من الأوطان القديمة).**[5]

مما سبق عرضه من مختلف التَّسميات التي أطلقت على الحاضرة يتضح لنا أنَّ كل تلك التَّسميات رغم تباينها إلَّا أنَّها أُطلقت على وطن واحد في مجملها، والتَّباين

---

[1]– مُحمَّد بشير شنيتي: «**التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية**»، مجلة الأصالة، مج.16، ع.41، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص.6 – 7.

[2]– إبن خلدون: **العبر**، المصدر السَّابق، ج.7، ص.69.

[3]– مختار حساني: **الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر،(د ط)، 2011م، ج5، ص 260.

[4]– بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.32.

[5]– أعزام: المرجع السَّابق، ص.49.

الحاصل مردُّه إلى اختلاف الألسن في نطق بعض الحروف، وهذا ما أكَّدَه الشَّيخ "إبراهيم أعزام" بقوله: «**وارجلان، واركلا، ورقلة، وارقلا، وارقلان، هذه الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديما وحديثا...**».[1]

ولأنَّ كلمة "وارجلان" كانت الأكثر تداولا خلال القرن(2هـ/8م)، وهي التَّسمية التي اعتمدها المؤرخون الإباضيَّة، فعليه ارتأيت اعتمادها في هذا البحث، بحكم أنَّهم كانوا الأقرب والأدرى بـالمنطقة سواء بالسَّكن أو المجاورة، كذلك أنَّ الكثير منهم كان كثير التَّردد عليها.

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ "وارجلان" لم يرد ذكرها بأي شكل من الأشكال سواء في فترة الفتوحات الإسلامية أو الفترة التي سبقتها، وكلُّ ما ذُكر عنها لا يزيد عن إشارات عابرة، ولم يرد ذكرها بوضوح إلاَّ بعد ظهور أوَّل كيان سياسي مُستّقل بالمغرب الأوسط والمتمثل في الدَّولة الرُّستميَّة حينها ظهر اسمها بقوَّة في المصادر التي أرَخت لتلك الدَّولة سيما الإباضية منها، إذْ أصبحت "وارجلان" خاضعة لحكم بني رستم وتُشكِّل الحدود الجنوبية للدولة، كما أنَّها أضحت العاصمة الثَّانية للإباضية بعد سقوط عاصمتهم تيهرت[2]، وملجأ للناجين من العبيديين.

وفي تقديري غياب اسمها في المراحل التي سبقت ظهور الدَّولة الرُّستميَّة راجع لعدم ارتباطها بأيّ كيان سياسي رغم اعتناق أهلها للإسلام منذ القرون الأولى، فأهل "وارجلان" اعتنقوا الإسلام «**عندما حمل الفاتحون الأولون مشعل الهداية إلى المغرب الأوسط في أواسط خير القرون**»[3]

---

[1]– أعزام : المرجع السابق ، ص.56.

[2]– **تيهرت:** من أشهر مدن المغرب الأوسط، وهي مدينتين إحداهما قديمة والأخرى مُحدثة، لها ثلاثة أبواب وأسواقها عامرة وغلَّاتها كثيرة، كانت عاصمة لبني رستم لمدة 130 سنة. **ينظر إلى:** الحميري: المصدر السابق، ص.126.

[3]– علي يحي معمر: **الإباضية في موكب التَّاريخ، الحلقة الرَّابعة(الإباضية في الجزائر)**، المطبعة العربيَّة، غرداية – الجزائر، ط.1، 1985م، ج.2، ص.393.

ويشير "الشَّيخ أعزام" بأنَّ "وارجلان" كانت «**منذ الفاتح في القرن الثاني وطن إسلامي**»[1]، وأياً كان فإنَّ "وارجلان" ضاربة في القدم وتعدُّ من أهم المدن الصَّحراويَّة التي لها إرثها التَّاريخي من دون شكٍّ.[2]

1 – 1 – 1 – الإطار الجغرافي لوارجلان:

من الصُّعوبة بمكان أنْ نتحدث عن الموقع الجغرافي لحواضر الصَّحراء بما فيها "وارجلان"، وهذا لعدم وجود حدود مضبوطة في المناطق الصَّحراويَّة لكوَن الأمر مرتبط أشدَّ الارتباط بالتَّحولاَت السِّياسيَّة الواقعة بما فيها موازين القوى ناهيك عن حركة القوافل وانتقالها المستمر بين المناطق بحثاً عن الكلأ أو عن موطن للاستقرار فكلُّ هذا يجعل من اجتهادنا مُجرد محاولة نسعى من خلالها لرسم حدود وارجلان؛ ومما زاد الأمر تعقيدا هو غفلة الجغرافيين والرَّحالة عن ذكر ذلك، تُمثِّل "وارجلان" الحدود الجنوبيَّة للمغرب الأوسط والممتدة من المحيط غرباً حتى حدود مصر شرقاً، إذْ تُشكِّلُ جغرافياً «الجزء الفاصل الواصل بين شمال إفريقيا وإفريقيا الوسطى والغربيَّة والشَّرقيَّة»[3].

وهذا ما جعلها ملتقى لكثير من الخطوط الفكريَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة وبالأساس الاقتصاديَّة(التِّجارة) وكل ما هو متصل بها، وهو ما يوحي بحصول نوع من التَّمازج مسَّ العديد من الأصعدة[4]. أمَّا شرقاً فتحدها بلاد الزَّاب، وغربا وادي ميزاب، وعن

---

[1]– أعزام: المرجع السَّابق، ص.49.

[2]– عمار غرايسة: «**من الأدوار الحضاريَّة للمدن الصَّحراوية وارجلان أنموذجا**»، مجلَّة الواحات للبحوث والدِّراسات، ع.15، جامعة غرداية – الجزائر، 2011م، ص.412.

[3]– عبد الكريم غلاب: **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2005م، ج.1، ص28.

[4]– عمار غرايسة: **المدينة الدَّولة في المغرب الأوسط وارجلان أنموذجا**، مُذكِّرة مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير تخصص: حضارة المغرب الأوسط، إشراف: عبد العزيز فيلالي، قسم التَّاريخ، كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة – الجزائر، 2009م ص.17.

الجهة الشَّماليَّة فلم نتمكن من ذلك لعدم وجود تجمُّعات سكنيَّة تابعة لوارجلان، ويتضح لنا ذلك من خلال ما ذكرته المصادر الجغرافيَّة وعلى رأسها "ياقوت الحموي" الذي يذكر بأن "وارجلان" (كورة بين إفريقية وبلاد الجريد)، أمَّا "إبن سعيد" فيذكر أنَّ «قاعدتها تمارية»، بينما يرى "الحميري" بأنَّها «عبارة عن سبعة مدائن مسوَرة حصينة قريبة من بعضها البعض».[1]

• **أما موقعها فلكيا:** فهي تقع بين 31 – 32 شمال خط الاستواء، و5.15 – 5.30 شرق خط غرينتش، وترتفع على مستوى سطح البحر 136م تحفُ بها المرتفعات من الجهة الغربيَّة، والعروق الرَّملية و(القارات).[2]

1 – 1 – 2 – المناخ:

ترتبط حالة المناخ في الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط، بالبنية التَّضاريسيَّة وبطبيعة السَّطح، ولكن الغالب على هذه الحواضر المناخ القاري الذي يتميَّز بالحرارة والجفاف صيفاً، والبرودة والجفاف شتاءً، ومن خصائص هذا المناخ هو الفارق الكبير في درجات الحرارة بين فصلي الصَّيف والشِّتاء، وبالمدى الحراري الواسع بين الليل والنَّهار حيث تنخفض درجة الحرارة إلى أقل من 20درجة مئوية تحت الصِّفر في ليالي الشِّتاء، ليصعد الزِّئبق في الصَّيف ويُسجل أكثر من 50 درجة مئوية تحت الظِّل نهارا.[3]

---

[1]– مسعود مزهودي: **الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب(296هـ– 909م/442هـ – 1058م)**، منشورات جمعيَّة التُّراث، غرداية – الجزائر، ط.1، 1996م، ص.27. **وينظر**، الحموي: المصدر السَّابق، مج.3، ص.371. **وينظر**، إبن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126. **وينظر أيضاً**، الحميري: المصدر السَّابق، ص.600.

[2]– بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.35.

[3]– إسماعيل العربي: **الصَّحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، ط.1، 1983م، ص.15.

ومما يزيد من قسوة المناخ شدّة هبوب الرِّياح، إذْ تَعْرف الحاضرة أنواع كثيرة من الرِّياح، وموسم الرِّياح الرَّملية يبدأ في الغالب مع بداية الرَّبيع وهذا راجع للاختلال النَّاجم عن تباين الضَّغطين، الضَّغط المرتفع الآزوري الطَّارد للرياح من المحيط الأطلسي، والضَّغط المنخفض الجاذب لها من حوض البحر المتوسط، ولهذا فالمنطقة ممراً للزوابع الرَّمليَّة المتجهة من الغرب نحو الشَّرق.[1]

وتختلف أسماء الرِّياح باختلاف المناطق الصَّحراويَّة، فالرِّياح الحارة تسمى (الشِّهيلي)، في وسط الصَّحراء وتكون جنوبيَّة، أمَّا الرِّياح التي تحمل زوابع رمليَّة مُثقلة بالرَّمل والغبار تُسمَّى (السِّيروكو) عند الفرنسيين، بينما يسميها المصريون(بالخمسين) لأنَّها تستمر خمسون يوما دون انقطاع وهي جنوبية شرقيَّة. وتصل شدّة الرِّياح لأنْ تطوي قافلة كاملة، فقد تتحول إلى إعصار يقضى على كلِّ ما حوله[2] ويكفي المرء أنْ يقوم بزيارة لهذه المناطق في فصل الرَّبيع ليشاهد ذلك بأمِّ عينيه، ونظرا لما تخلفه هذه الرِّياح من أضرار كبيرة على المنازل والبساتين، دفع بأهالي المنطقة لابتكار نمط معماري جديد يتماشى مع طبيعة المنطقة ويُقلِّلُ من الأضرار.

• **أمَّا عن تساقط الأمطار:** لكوَن المنطقة يسودها المناخ القاري المعروف بشدَّة الحرارة وقلَّة التَّساقط، فقد تمرُّ السِّنين دون أنْ يُسجَّل نزول الأمطار، وهذا ما يجعل معدل تساقط الأمطار بالمنطقة لا يتعدى في بعض السَّنوات 100ملم، وكمية الأمطار التي تسقط لا تعود على الزَّرع بفائدة بسبب سرعة تبخرها بفعل الحرارة الشَّديدة[3]، والمناخ السَّائد بـِ"وارجلان" نفسه الذي يسود باقي الحواضر الصَّحراويَّة.

---

[1]– إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص.16. **وينظر**، أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة بالسُّودان الغربي**، المرجع السَّابق، ص.13. **وينظر أيضاً**: عمر لقمان بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.37.

[2]– إسماعيل العربي: المرجع نفسه، ص17.

[3]– مبارك بوطارن و محمد نجيب خلف: "**الدور التجاري لمدينة ورقلة في العصر الوسيط**"، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، مج1،ع2، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، جوان2008م، ص.42.

1 – 2 – وادي ميزاب: (الأصل والنشأة):

عُرفت المنطقة عند المؤرخين بعدَّة أسماء مختلفة، هي: بادية بني مصعب، أرض الشَّبكة، وادي ميزاب، والشَّائع من هذه الأسماء هو "**بادية بني مصعب**" وتعود هذه التَّسمية لإحدى القبائل البربريَّة الزَّناتيَّة التي عَمَّرت المنطقة منذ أقدم العصور، فكانت لهم منتجعا ومَرتعاً[1] .

ويُرجع "إبن خلدون" نسبتهم إلى **(مصاب بن يادين بن جانا، وبني يادين من ولد رزجيك)**، فهم من بربر زناته من فرع واسين من بطن يادين بن مُحمَّد، وبنو يادين هؤلاء شعوب عديدة وأفخاذ كثيرة، فمنهم: بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنو زردال، وبنو مصاب[2]، وقد ملك بنو يادين شمال الصَّحراء من الزَّاب إلى وادي ملويَّة، ومن جبال الأوراس بالمغرب الأوسط إلى سفوح جبال الأطلس الأعلى بالمغرب الأقصى وبفعل هبوب رياح بنو هلال اضطروا للنزوح نحو الجنوب فانتقل بنو مصاب إلى "الشَّبكة" وأسّسوا هناك ما يعرف بقصور بني مصاب[3].

وفي هذا الشَّأن يقول صاحب العبر: «**ومن بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل قيطري في القبلة لما دون الرِّمال على ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في المغرب، وهذا الاسم للذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني يادين وضعوها في أرض حرَة على أحكام وضراب ممتنعة في قننها، وبينها وبين الأرض المحجَرة المعروفة بالحمادة في سمّت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد**

[1]– علي يحي معمر: المرجع السابق، ج.2، ص.431.

[2]– إبن خلدون: **العبر**، المصدر السَّابق، ج.7، ص.82.

[3]– إبراهيم بكير بحاز: "**الميزابيون المعتزلة قراءة جديدة لنصوص قديمة**"، مجلة الحياة،ع1،صادرة عن معهد الحياة الخاص، غرداية،(الجزائر)،جانفي 1998م،ص.125 – 126.

على فراسخ من ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب زناته وإنَ كانت شهرتها مختصَّة بمصاب».[1]

في حين يرى الإباضيَّة بأنَّ التَّسمية الأقرب للصواب هي: "**ميزاب**" ومعناها "**أصحاب الميزاب**"[2] . ويرجعون تلك التَّسمية إلى أحد شيوخ الإباضيَّة وهو "**بلال مرداس بن حدير**" الذي دخل إحدى الليالي الحرم بمكَّة وجلس تحت الميزاب يدعو الله بأنْ يظهر له صحة دينه، فنزلت عليه قطرة ماء من ميزاب الكعبة، فعدَ ذلك استجابة لدعـائه ومن يومها أصبح الإباضيَّة يقفون في الطَّواف تجاه ميزاب الكعبة[3] ورغم أهمية هذه الرِّواية إلاَّ أنَّها بحاجة لمّا يثبت صحتها، أما عن تسمية الوادي الذي يسكن حوله الإباضيَّة **بوادي ميزاب**، يرجع إلى آلة للوزن فالميزاب هو اسم لألة الوزن مشتقه من كلمة "مِوزان".[4]

ومن خلال ما طرح من آراء حول أصل تسمية "ميزاب" فالرَّاجح أنَّ ما ذهب إليه "إبن خلدون" هو الأقرب للصواب، على اعتبار أنَّ البربر نزحوا نحو الصَّحراء في وقت مبكر نتيجة السِّياسية التي انتهجها الرُّومان تجاه السُّكان، فتمَّ تهجير العديد من القبائل نحو هذه المناطق، فلا يستبعد أنْ تكون قد وصلت إحدى بطون هذه القبائل إلى تلك النَّواحي، بالإضافة أنَّ معظم من استوطنوا هذه الرُّبوع كانوا من بربر زناته، وهذه الأخيرة معروفة بكثرة تنقلها وترحالها بحثاً عن الكلأ والمراعي، كما أنَّ هذه الكلمات "مصب، مصاب، مضاب" هي الأكثر تداولاً في المصادر التي تتكلم عن هذه المنطقة، وخير ما نستشهد به في هذا الشَّأن ما ذكره "أبو زكريا" في كتابه "سير الأئمة

---

[1]– ابن خلدون: **العبر**،ج.7، ص.80.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.59. **وينظر**، عبد القادر موهوبي: **ومضات تاريخيَّة واجتماعيَّة لمدن وادي ريغ وميزاب وورقلة والطيبَات والعليَة والحجيرة**، دار البصائر، الجزائر، ط.1، 2011م، ص.113.

[3]– مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.59. **وينظر**، عبد القادر موهوبي: المرجع نفسه، ص.113.

[4]– مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.59.

وأخبارهم"، ففي معرض حديثه عن "الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر" يقول: «**كان يشتي في أريغ ويُربِّعُ في البراري عند بني مصعب**».[1]

أمَّا عن سبب تحريف "بني مصعب" إلى "مزاب"، فهذا راجع لعدم استطاعة بعض البربر النُّطق بالعين محقّقة وإنَّما ينطق بها همزة، ولرّبما يسهلها إلى الألف، بالإضافة لتعدُّد اللهجات والألسنة، كما أنَّه لتقادم العهد، دور في اختلاف النُّطق لهذه التَّسمية فقالوا: **(مصعب، ومُصاب، ومُضاب ومُزاب، وميزاب)**. وعلى أيِّ حال فكلمة "ميزاب" هي المرحلة الأخيرة لمصعب وهي الشَّائعة لليوم.[2]

وما تجدر الإشارة إليه، هو أنَّ القبائل البربريَّة التي استقرت بميزاب كانت قد اعتنقت الإسلام في وقت مبكر خلال فترة الفتوحات الإسلاميَّة، وساهمت في نشره ومع ظهور المذاهب الفقهيَّة تسرّبت أصول المعتزلة إليهم فسمُّوا بـ"الواصليَّة"، ويشير إلى ذلك صاحب الرِّسالة الشَّافية بقوله: «**وليس أهل هؤلاء القرى إباضيَّة، بل كانوا معتزلة يسافرون إلى تيهرت لقتال الإباضية**».[3]

والجدير بالذَّكر أن **ميزاب** لم تظهر كحاضرة لها دورها الفعّال سيما في المجال الاقتصادي، إلَّا في حدود القرن الخامس الهجري بعد انتقال الإباضيَّة واستقرارهم بها، لتصبح ميزاب المعقل الثَّالث للإباضيَّة بعد "وارجلان" و"سدراته"، ومنذ ذلك الحين عرفت الحاضرة تطوراً ملحوظاً، ففي الجانب العقدي تحوَّل أهلها من الاعتزال للإباضية، وعلى المستوى العمراني عرفت ظهور العديد من القرى.

---

[1]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص266.

[2]– يوسف بن بكير الحاج سعيد: **تاريخ بني ميزاب ونضالهم من أجل الحقِّ في التَّباين "دراسة اجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسية"**، المطبعة العربيَّة، غرداية – الجزائر، ط.3، 2014م، ص.7 وما بعدها.

[3]– مُحمَّد بن يوسف أطفيش: **الرّسالة الشّافية في بعض التَّواريخ وأنساب بني مصعب**، (د. م. ن)، ط.1، (د. س. ن)، ص.21.

1 – 2 – 1 – قرى وادي ميزاب: يتكون من عدَّة قرى هي:

• **العطف:** تسمَّى بالبربرية (تاجنينت)، وسُمِّيت بالعطف لانعطافها جانب الوادي، وتُعدُّ من أقدم مدن "ميزاب"، أسسها الشَّيخ "خليفة بن آبغور" سنة (402هـ/1012م)[1]، وبهذه القرية تكوَّنت أوَّل مجموعة سَكنيَّة للإباضيَّة.

• **غرداية (تغردايت):** أُسِّست المدينة سنة (442هـ/1053م)، وقد سُمِّيت باسم غار نزلت به امرأة تسمَّى "داية"، ويُفسِّر آخرون بأنَّ التَّسمية جاءت من أنَّ هذا الغار كان وكراً للغربان لأنَّ "الداية" في لغة سكان المغرب، تعني الغراب.[2]

• **بونور(آت بُونُورة):** تأسست سنة (457هـ/1065م)، وترجع أصل تسميتها إلى القبيلة البربريَّة التي بنتها، وقرية "بونورة" تقع على جبل منقطع عن باقي الهضاب.[3]

• **بني يزقن(بني يسجن):** تأّسست سنة(720هـ/1321م)، وأصل مُخطط المدينة شبيه بمخطط مدينة "تافيلالت" بالمغرب الأقصى. و"بني يزقن" لا يزال يطلق على أوَّل أحياء المدينة، حيث يسكن القرية نصف عدد الإباضية الموجودين في ميزاب.[4]

• **مليكة:** أسِّست سنة(756هـ/ 1355م)، اسمها الأصلي هو "أتمليشت" نسبة إلى أحد زعماء قبيلة زناته البربرية.[5]

• **القرارة:** أنشئت سنة (1040هـ/1631م)، وهي لفظ بربرية أصلها "قارة" وجمعها "تقرار"، وهي جبال لها شكل بيضوي تَغيَّر شكلها بفعل الظُّروف المناخية هاجرت إليها

---

[1]– بكير بن سعيد أعوشب: **ميزاب يتكلم تاريخيا عقائديا، اجتماعيا**، (د. م. ن)، ط.1، (د. س. ن)، ص.46.

[2]– مُحمَّد بن يوسف أطفيش: المرجع السَّابق، ص.22. **وينظر**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.61.

[3]– يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السَّابق، ص.47. **وينظر**، بكير بن سعيد أعوشب: **ميزاب يتكلم تاريخيا**، المرجع السَّابق، ص.47.

[4]– يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع نفسه، ص.22. **وينظر**، مُحمَّد بن يوسف أطفيش: المرجع السابق، ص.22.

[5]– بكير بن سعيد أعوشب: **ميزاب يتكلم تاريخيا**، المرجع السابق، ص.47.

جماعات من "غرداية" و"بني يزقن" و"العطف"، لعدم قدرتهم على السَّكن قديماً خارج أسوار مدنهم.[1]

• **بريان:** أنشئت المدينة سنة (1060هـ/1690م)، والتَّسمية الأصلية لها "آت برقان" وهي لفظة بربريَّة أمازيغيَّة قديمة، تعني خيمة مصنوعة من الوبر، وقيل أنَّ أهل "بريان" الأوائل كانت لهم خبرة كبيرة جداً وحذاقة صنعةٍ في نسج هذا النَّوع من الخيم فَنُسبوا إليه، في حين يرجع البعض أصل التَّسمية إلى العامل الجغرافي، فموقع المدينة سُمِّيَ قديما بهذه التَّسمية من طرف الرُّعاة الذين يقصدونه لكثرة مياهه.[2]

أمَّا عن الطَّبيعة الجغرافيَّة لميزاب فلا نملك عليها سوى بعض المعلومات التي قد لا تفي بالغرض، فبلاد "ميزاب" أو "بلاد الشَّبكة" تقع على هضبة صخريَّة كِلسيَّة تقع شمال صحراء المغرب الأوسط، وتمتاز عن بقيَّة المناطق المجاورة لها بطبيعتها القاسية، سُمِّيت ببلاد الشَّبكة لأنَّها تتخلَّلها أودية عديدة لا يتجاوز عُمقها مائة متر تتجه معظمها من الشَّمال الغربي نحو الجنوب الشَّرقي، وتبلغ مساحة "بلاد ميزاب" حوالي ثمانية وثلاثين ألف كيلو متر مربع.[3]

1 – 2 – 2 – المناخ:

يبدوا أنَّ ميزاب كغيرها من حواضر الصَّحراء يسودها المناخ القاري الذي يمتاز بالحرارة والجفاف وقلَّة التَّساقط، حيث لا يتجاوز معدل التَّساقط بها عن سبعة وستون مليمترا، كما أنَّ هواء المنطقة جاف جداً وما يزيده جفافا الرِّياح المثيرة للرمال القادمة

[1]– بكير بن سعيد أعوشب: **وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية (دينيا، تاريخيا، اجتماعيا)**، المطبعة العربيَّة، غرداية – الجزائر، ط.1، 1991م، ص.69 – 70.

[2]– بكير بن سعيد أعوشب: **وادي ميزاب**، المرجع نفسه، ص.70.

[3]– يوسف بن بكير حاج سعيد: **تاريخ بني ميزاب**، المرجع السَّابق، ص.1.

من الجنوب الغربي، والتي تكثر مع بداية فصل الرَّبيع، أمَّا عن درجات الحرارة فتصل أقصاها إلى خمسين درجة، بينما أدنى درجة لا تنزل تحت درجة واحدة تحت الصِّفر.[1]

1 – 3 – بلاد الزَّاب:

1 – 3 – 1 – المدلول اللغوي للزاب:

من النَّاحية اللغويَّة وردت العديد من التَّعاريف عند أهل اللغة، "فإبن منظور" و"الفيروز آبادي" يذكران: زأب، وزأب القربة يزأبها زاباً، حملها ثمَّ أقبل بها مسرعاً، وزأب الرَّجل إذا شرب شرباً شديداً والإبل ساقها.[2]

بينما يضبطها "إبن خلكان" بقوله: الزَّاب بفتح الزَّاي وبعد ألف باء موحدة، هي كورة بإفريقية[3]، أمَّا "صاحب معجم البلدان"، فيقول: الزَّاب بعد الألف موحدَة إن جعلناه عربيا، وزاب الشَّيء إذا جرى، وزابَ، يزوبُ، إذ إنْسَلَ هرباً[4]، والزَّاب في معناه اللغوي يدلُّ على الماء.

وأُستعمل مصطلح الزَّاب بالمشرق للدلالة على "زاب الموصل" بالعراق، الذي كان عبارة عن واديين من أودية بلاد الرَّافدين، وقد برزت هذه التَّسمية في بلاد المغرب في القرن الثَّاني الهجري في إطار التَّنظيم الإداري لولاية إفريقيَّة.[5]

---

[1]– يوسف بن بكير حاج سعيد: **تاريخ بني ميزاب**، المرجع السَّابق، ص.1.

[2]– جمال الدِّين ابن منظور: **لسان العرب**، الحرف: عين، مادة: عزب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط.1، 1979م. مج.4، ج.33، ص.2923.

[3]– أبو العباس شمس الدين(إبن خلكان): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د ط)، (د س ن)،ج4، ص 421.

[4]– ياقوت الحموي: المصدر السَّابق، ج.3، ص.123.

[5]– علي الهطاي: «**الجغرافيَّة التَّاريخيَّة لبلاد الزَّاب من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن (5هـ/11م) دراسة في تطور المجال والمواقع**»، مجلَّة المواقف للبحوث والدِّراسات في المجتمع والتَّاريخ، ع.12، جامعة مصطفى ستامبولي، معسكر – الجزائر، ديسمبر/2017م، ص.11.

1 – 3 – 2 – مدلول التَّسمية:

يأخذ الزَّاب اسمه من مدينة زابي (zabi) الرومانية القديمة الواقعة في منطقة الحُضنة، ولقد أنشأ حولها الرُّومان العديد من الأبراج ومعاقل للحراسة في إطار ما يعرف(بخط الليمس)[1]، ولقد كانت هذه المنطقة تاريخيا تعرف بنوميديا وخاضعة للحكم الرُّوماني حيث مثَّلت مركزا للفرقة الثَّالثة وتتميز بكثرة حصونها وتعدُّ منطقة استراتيجيَّة لامتدادها على منطقة الواحات الواقعة جنوب الأوراس، وبالتالي مثّلت حلقة وصل بين منطقة التَّلِّ بالشَّمال، والصَّحراء الكبرى بالجنوب.[2]

ورد ذكره عند صاحب "تاريخ إفريقيَّة والمغرب" في معرض حديثه عن الحملة الثَّانية للقائد "**عقبة بن نافع**"[3] فيما بين (62 – 63هـ) بأنَّ "عقبة" لما وصل "**بلاد الزَّاب**" «**سأل عن أعظم مدنه قدرا فقالوا: مدينة يقال لها (أذنة) ومنها الملك وكان حولها ثلاثمائة قرية**»[4]، فهل هذا يعني أنَّ العرب هم أوَّل من أطلقوا هذه التَّسمية على هذا الإقليم؟

1 – 3 – 3 – الإطار الجغرافي للزاب:

قصد رسم حدود واضحة لبلاد "الزَّاب" اقتضت الضَّرورة العودة إلى ما كتبه الجغرافيون الذين زاروا المنطقة فكانوا شاهد عيان عليها، أو من تناقلت لهم أخبارها، والإشكاليَّة التي تواجه الباحث في هذا الشَّأن هو عدم وجود حدود مضبوطة واضحة

---

[1]– إسماعيل العربي: المرجع السَّابق، ص.142.

[2]– علي الهطاي: المرجع السَّابق، ص.11.

[3]– **عقبة بن نافع الفهري:** هو عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط قرشيا من فهر وُلد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة، من القادة الفاتحين الذين فتحوا بلاد المغرب قام ببناء مدينة القيروان سنة(51هـ) وكان خير والي وخير أمير. **ينظر**، إبن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح: ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثَّقافة، بيروت، ط.3، 1983م، ج.1، ص.19 وما بعدها.

[4]– الرَّقيق القيرواني: **تاريخ إفريقية والمغرب**، تح: مُحمَّد زينهم مُحمَّد عزب، دار الفرجاني للنشر والتَّوزيع، القاهرة، ط.1، 1994م، ص.42.

المعالم للزَّاب فحدودها تختلف من جغرافي لآخر كل بحسب الفترة التي عايشها، فالجغرافيون رسموا حدود الزَّاب سياسيا أكثر منه جغرافيا، ولهذا وجب علينا التَّطرق لما ذكره الجغرافيون والأخذ بالقول الأقرب لما يتوافق مع الوقائع التَّاريخيَّة للفترة.

فـ"إبن خردذابة" (ت280هـ/894م) أطلق اسم "الزَّاب" على إحدى مدن المغرب وذلك خلال حديثه عن الطريق الرَّابط من برقة إلى المغرب، فلا نعلم إنْ كان المقصود مدينة معينة أو أنَّ المصطلح شامل لكامل بلاد "الزَّاب".[1]

بينما نجد المؤرخ والجغرافي "اليعقوبي" (ت292هـ/905م) ينسب جملة من المدن لبلاد "الزَّاب" كان قد زارها ومرَّ بها، وهي كالآتي: (باغاية، تيجس، ميلة، بلزمة، نقاوس، سطيف، مقرة، أربة، وطبنة) فالزَّاب عند "اليعقوبي" بلد واسع يضمُّ ثمانية مدن، مكتفيا بذكر حدوده الغربية مدينة وهي "أربة" آخر مدن "الزاب"[2]، وهو الأمر نفسه عند المقديسي (381هـ/ 991م) الذي ذكر بعض المدن التَّابعة للزاب منها: (المسيلة، مقرة، طبنة، بسكرة، بادس، تهوذا، طولقة، أذنة، أشير).[3]

ومع أواخر العصر الوسيط طرأ تغيير على الخارطة الجغرافيَّة لبلاد "الزَّاب" حيث اتسع مجاله، فصاحب "معجم البلدان" يذكر أنَّ "الزَّاب الكبير" يشمل: (بسكرة، وتوزر، قسنطينة، طولقة، قفصة، نفزاوة، نفطة، بادس).[4]

أمَّا صاحب "الرَّوض المعطار في خبر الأقطار" فيذكر بأنَّها مدن كثيرة منها: (المسيلة، نقاوس، طبنة، بسكرة، تهودة)[5]. والزَّاب عند "إبن خلدون" منطقة شاسعة

---

[1]– أبو القاسم عبيد الله ابن خُرْداذبة: **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، ليْدن – هولندا، ط.1، 1881م، ص.87. **وينظر أيضاً**، علي الهطاي: المرجع السَّابق، ص11.

[2]– أحمد بن أبو يعقوب إسحاق(اليعقوبي): **البلدان**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2002م، ص.190.

[3]– المقديسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط.3، 1991م، ص.221.

[4]– ياقوت الحموي: المصدر السَّابق، ج.3، ص.124.

[5]– الحميري: المصدر السَّابق، ص.281.

تمتدُّ من منطقة "الدَّوسن" بالغرب إلى منطقة "ادس" و"تنومة" شرقاً، وتضمُّ عِدَّة مدن منها: (زاب طولقة، زاب مليلة، زاب بسكرة، زاب تهودة، زاب بادس).[1]

في حين يحدد صاحب "وصف إفريقيا" حدود إقليم "الزَّاب" من تخوم لـِ"مسيلة" غرباً إلى "بلاد الجريد" شرقاً، أمَّا شمالاً فمن جبال مملكة "بجاية" إلى الطَّريق المؤدية من "تقرت" و"ورقلة" جنوباً، ويضمُّ إقليم "الزَّاب" بحسب "الحسن الوزان" خمس مدن، هي: (بسكرة، البرج، نفطة، طولقة، دُوسن)[2].

وتتدعم هذه الرِّواية بما ذهب إليه صاحب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" عند حديثه عن ولاية "**إبراهيم بن الأغلب**" فيذكر بأنَّ الخليفة "هارون الرَّشيد" ولاه بلاد "الزاب" وهي بلاد الجريد[3]، وهذا يعني أنَّ مدن "الزَّاب" ومدن "الجريد" كانت ضمن إقليم "الزَّاب"، و"بلاد الجريد" تعدُّ ضمن "الزَّاب الكبير"، إلَّا أنَّ هذا الرَّأي ليس محلّ اتفاق وغير مُجمع عليه لدي الجغرافيين والمؤرخين.

إذ يرى بعض الجغرافيين أمثال: (ابن حوقل، وياقوت الحموي، والحميري، وصاحب الاستبصار) بأنَّ "بلاد الجريد" تابعة لإقليم "الزَّاب" وضمن إطاره الجغرافي، ويذهب كل من "الحميري" و"صاحب الاستبصار" لأبعد من ذلك، ويذكران بأنَّها «مثلها في حرِّ هوائها وكثرة نخيلها».[4]

في حين يرى قسم آخر من الجغرافيين والمؤرخين، وفي مقدّمتهم "عبد الواحد المراكشي" (ت.647هـ/1249م) الذي يرى أنَّ "بلاد الجريد" مُنفصلة عن "الزَّاب"، فعند

---

[1]– ابن خلدون: **العبر**، المصدر السابق، ج6، ص47،48.

[2]– الوزان، المصدر السَّابق، ج.2، ص.138 وما بعدها.

[3]– إبن عذارى المراكشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.92.

[4]– مؤلف مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تع: سعد زغلول عبد الحميد، دار النَّشر المغربيَّة، الدَّار البيضاء، ط.1، 1985م، ص.171.

حديثه عن شساعة مملكة الموحدين في عهد "**عبد المؤمن بن علي**" يذكر أنَّه أرسل إلى "بلاد الجريد" وهي "توزر، وقفصة، ونفطة، والحامة.[1]

وما يؤكد فرضيَّة أنَّ "بلاد الجريد" خارج منطقة الزَّاب ما أورده بعض المعاصرين في تحديد المجال الجغرافي لمنطقة "الزَّاب" والتي كانت تمتدُّ من "تبسة" شرقاً إلى "المسيلة" غرباً، ويَحدُّها من الشَّمال "سلسلة الأوراس" وتمتدُّ إلى واحات جنوب "بسكرة" الواقعة على طريق "واد أريغ".[2]

ومن خلال ما قدمه الجغرافيون يتضح لنا أنَّ صورة "الزَّاب" تختلف من مصدر لأخر كل بحسب الفترة التي عايشها، خاصة فيما يتعلق ببلاد الجريد التي كانت محلَّ اختلاف، فالبعض يُدرجها ضمن "الزَّاب الكبير" والبعض يطلق عليها اسم "الزَّاب الأعلى"، وعليه يبقى من الصُّعوبة بمكان رسم حدود واضحة لمدينة "الزَّاب"؛ فالأمر هنا متعلق بالوضع السِّياسي فامتداد وتقلُّص الحدود ترجع إلى طبيعة قوة الدَّولة.

وفي تقديرنا أنَّ إقليم "الزَّاب" ظلَّ تابع لولاية إفريقيَّة سياسياً لاسيما بعد تمام عملية الفتح، وهذا ما يؤكده المؤرخ "عبد الرَّحمان الجيلالي بقوله: «**أنَّ أرض الزَّاب أو الجنوب الجزائري فإنَّه كان ملحقا في الغالب بولاية تونس**»[3]، كما يذكر "مارمول كربخال": «**أنَّه ظلَّ حينا من الدَّهر تابعاً لسيادة تونس**».[4]

لم يتوقف اختلاف وتباين الجغرافيين والمؤرخين عند هذا الحدِّ، بل ظهر التَّباين أيضاً في تحديد جغرافيَّة تقسيم "الزَّاب"، والمقصود بمنطقة "الزَّاب" هنا، هي المنطقة الواقعة بين "بادس" شرقاً و"طولقة" غرباً)، فقد قُسِّمت منطقة "الزَّاب" في البداية إلى

---

[1]– عبد الواحد المراكشي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: مُحمَّد زينهم مُحمَّد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.1، 1994م، ص.193.

[2]– علي الهطاي: المرجع السَّابق، ص.13.

[3]– عبد الرَّحمان الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1965م، ج.2، ص.32.

[4]– مارمول كربخال: **إفريقيا**، تر، مُحمَّد حجي وآخرون، الجمعيَّة المغربيَّة للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، الرِّباط، ط.1، 1989م، ج.3، ص.167.

قسمين "الزَّاب الأعلى" ويضمُّ "منطقة الحضنة"، و"الزَّاب الأدنى" ويضمُّ "بسكرة والمدن المجاورة لها".[1]

أمَّا "ابن خلدون" فقد قسم بلاد "الزَّاب" إلى ثلاثة أقسام، "الزَّاب الغربي" وقاعدته "طولقة"، و"الزَّاب الأوسط" وقاعدته "بسكرة"، ثمَّ "الزَّاب الشَّرقي" وقاعدته "بادس" و"تنومة"، ويذكر بأنَّ الزَّاب وطن كبير.[2]

والجدير بالذِّكر أنَّ الموقع الجغرافي لبلاد "الزَّاب" جعله محلَّ أطماع العديد من القوى السِّياسيَّة لبسط نفوذها عليه وظلَّت المنطقة ردحاً من الزَّمن بين مدٍّ وجزر، كما أنَّ عواصمه اختلفت باختلاف الكيانات السِّياسيَّة التي خضع لها، بدءاً بِـ"طبنة" في عهد الأغالبة، ثمَّ "لمسيلة" في العهد الفاطمي، ثمّ "القلعة" في العهد الحمادي، وفي العصر الموحدي وما بعده أصبحت "بسكرة" عاصمة "الزَّاب" وقاعدته[3] .

1 – 4 – وادي ريغ (المجال الجغرافي والتَّسمية):

تتبوأ "بلاد أريغ" موقعا استراتيجياً في الشَّمال الشَّرقي لصحراء المغرب الأوسط في منخفض مستطيل[4] أطلق عليه "ياقوت الحموي" اسم "**الزَّاب الصَّغير**"[5]، ولم تُسعفنا المصادر بما فيها الإباضيَّة بأيِّ إشارة بخصوص جغرافيَّة الموقع، إنْ استثنينا ما ذكره "ابن خلدون" الذي أشار خلال حديثه عن جماعات من "بنو ريغة"، حيث أوضح نزولهم ما بين "الزَّاب" و"واركلا"، و اختطوا قصوراً في عدوة وادٍ ينحدر من الغرب نحو الشَّرق[6]، وبهذا الذِّكر تكون "بسكرة" حدَّه الشَّمالي و"وارجلان" جنوبا، و"أسوف" شرقاً،

---

[1]– علي الهطاي: المرجع السابق، ص14.

[2]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.47.

[3] . علي الهطاي: المرجع السابق، ص14.

[4]– عبد الحميد إبراهيم قادري: **التعريف بوادي ريغ**، الآمال للطباعة، الوادي – الجزائر، ط.1، 1999م، ص.1.

[5]– ياقوت الحموي: المصدر السَّابق، ج.3، ص.113.

[6]– ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.64.

ومن الغرب هضبة "وادي ميزاب"[1]، أمَّا "ابن سعيد" فقد أطلق عليها اسم "ريغ" ووصفها بأنَّها «بلاد نخل ومحمَّضات ومياه تنبع على وجه الأرض... واسم قاعدتها "تماريّة"...، وفي شرقيها مدينة "بسكرة" قاعدة "بلاد الزَّاب"، وفي شماليها مدينة لمسيلة».[2]

وما يواجهنا عند الحديث عن هذا المجال هو عدم وضوح الصُّورة كون "أريغ" اسم يُطلق على منطقة جغرافيَّة مُحدَّدة، أم هو مجال تنتمي إليه العديد من المناطق؟

فَـ"**الوسياني**" خلال عرضه لترجمة بعض المشايخ، يذكر أحدهم وينسبه إلى منطقة (تجدّيت أو تاجديت)، وأثناء حديثه عن "**عنان بن دليم المطرفي** " الذي قال عنه: أنَّه غَيَّرَ مساره فجاز فوق "أريغ" بعد خروجه من منطقة "تنديت" حتى وصل آجلو[3].

ومن خلال هذه الرِّوايات تبدو "أريغ" وكأنَّها حيز جغرافي مستقلٌّ بذاته، غير أنَّنا لا نستطيع الجزم بذلك، وفي اعتقادنا أنَّ أريغ ماهي إلَّا مدينة ضمن المدن الواقعة ضمن الرُّقعة الجغرافيَّة، إلَّا أنَّها لاقت شهرةً وحضوراً أكثر من غيرها وبهذا تكون قد طغت على باقي المدن لتصبح الإشارة في معرض الحديث عن الكلِّ ضمن الجزء، فالعياشي في رحلته يذكر أنَّ "تكرت" قاعدة "بلاد ريغ".[4]

---

[1]– إبراهيم بن مُحمَّد السَّاسي العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تع: الجيلاني بن إبراهيم العوامر، دار ثالة للطباعة، ط.1، 2007م، ص.32. **وينظر أيضاً**: عبد القادر نوحه: **وادي ريغ في مشبك الأحداث ببلاد المغرب**، مطبعة مزوار، الوادي – الجزائر، ط.1، 2016م، ص.44.

[2]– ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126.

[3]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.374. **وينظر أيضاً**، عمار غرايسة: **التَّحولات الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة في واحات المغرب الأوسط (الزَّاب، أريغ، أسوف، وارجلان) من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثَّامن الهجري الرَّابع عشر الميلادي**، أطروحة مُقدَّمة لنيل درجة الدُّكتوراه تخصص: التَّاريخ الوسيط، إشراف: علاوة عمارة، قسم التَّاريخ، كلِّيَّة الآداب والحضارة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة – الجزائر، 2019م، ص.23 وما بعدها.

[4]– العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.120.

أمَّا عن تاريخيَّة هذا المجال فيشير "الحسن الوزان" بأنَّها تعود للفترة النُّوميدية بقوله: «مدينة قديمة بناها النُّوميديون»[1]، وتعدَّدت الرِّوايات حول تسميتها، فـ"إبن خـــلدون" سمَّاها "بلاد ريغ"، «أرض "ريغة" نسبة لبني ريغة من بطون مغراوة[2] الزَّناتية»[3]، بينما يرى "العدْواني" أنَّ اسم المنطقة يعود إلى رجل اسمه "ريغ" موضحاً ذلك بالحرف الواحد «ثمَّ قلت له أخبرني على وادي ريغ؟ وعن مسكنه؟ فقال لي: ريغ اسم رجل يقال له باهوت بن شملخ بن كعب بن عاوية من ولد أندلس بن يافث»[4].

أمّا الإباضيَّة فيرجعون أصل التَّسمية إلى الواد الذي ينحدر من الهضاب الشَّماليَّة باتجاه شط ملغيغ[5]. والسُّؤال المتبادر إلى أذهاننا، هو كيف تنسب المنطقة إلى قبيلة واحدة دون سواها، رغم وجود عددٍ كبير من القبائل كانت موجودة هناك قبلها.

وحسب اعتقادنا أنَّ تسمية المنطقة يمكن أن تكون مشتقة من كلمة **ريغ** (ج، رياغ) وهو التُّراب، وقيل التُّراب المدقَّق، أو من الفعل "**راغ**"[6]، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ**﴾[7]. وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ **فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾[8]. و**راغ** هنا تعني **مال في خفية**[1]، وهي نفس الصِّيغة التي تكون قد أطلقت على الوادي بعدما اختفى وحاد عن مجراه.

---

[1]– الوزان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.135.

[2]– **مغراوة:** من قبائل "زناته" واوسع بطونها، وهم أهل البأس والغلب، ونسبهم يعود إلى مغراو بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن ألديرت بن جانا. ينظر، ابن خلدون: **العبر**، المصدر السَّابق، ج.7، ص.33.

[3]– ابن خلدون: المصدر السابق، ج.7، ص.64.

[4]– مُحمَّد بن عمر العدواني: **تاريخ العدواني**، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1996م، ص. 138.

[5]– الشَّماخي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.32.

[6]– الفيروز أبادي مُحمَّد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 1999م، ص.704.

[7]– **سورة الذَّاريات:** الآية.26.

[8]– **سورة الصَّافات:** الآية.91.

ويتفق هذه المعنى مع ما أصَّل له العلامة الشَّيخ "التِّجاني نصيري"[2] في دروسه أمام مجموعة من تلاميذه، مِنَ أنَّ كلمة **وادي ريغ**، تعني الوادي المدفون، ويعود سبب دفنه إلى عقاب «أرسله الله جزاء على المنكرات والمعاصي التي كان يقترفها السَّاكنة»[3]. وهنا يقع التَّطابق في بعض الرِّوايات على أنَّ "ريغ" تعني الميلان على مجرى الواد ودفنه.

-1ـ 5 أسُوف أو سوف (المجال الجغرافي والتسمية):

لم تتحدث المصادر الجغرافية كثيرا عن حاضرة أسوف رغم أهمية موقعها حيث أنّها تتوسط أهمّ الطرق والمسالك التجارية التي تربط بين أهمّ حاضرتين من الحواضر التجارية في بلاد المغرب، وهما وارجلان و القيروان.[4]

وقد أشار صاحب الاستبصار إلى موضع أسوف عند ذكره ما وراء قسطيلية في قوله: << وآخر بلاد الجريد مدينة درّجين وهي مدينة قديمة بقرب نفطة وهي مدينة كبيرة و فيها تصنع الكسى الدرجيني، وهو يشبه السجلماسي في ثوبه و لونه و لكنه دونه في الجودة، وبالقرب منه بلد سوف ولا يُعرف خلفه عمران ولا حيوان إلاّ جبال من

=

[1]– السُّيوطي جلال الدِّين و المحلي جلال الدِّين: **تفسير الجلالين**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 2003م، ص.449.

[2]– **التِّجاني بن السَّايح بن نصر المدعو(نصيري):** ولد سنة 1884م بحي المصاعبة، في عائلة ميسورة الحال، فقد بصره منذ صغره، التحق بركب طلاب العلم بسبب فراسة الشَّيخ عبد الرَّحمان العمودي فيه، حيث تتلمذ على يد هذا الشَّيخ الجليل حتى نبغ في شتى العلوم، فبعث به إلى الفرع الزَّيتوني بالجريد التُّونسي فأكمل دراسته هناك، بعدها رحل لفاس فمكث بها طالباً للعلم 3 سنوات. في سنة 1918م ارتحل إلى مدينة تقرت ودرَّس بها لمدة 27عاماً، فتخرج فيها على يده علماء أجلاء، منهم: "الشَّيخ اللقاني بن السَّايح"(أحد علماء الطَّبقة الزَّيتونية). توفي يوم الثلاثاء 10 أفريل1945م. **ينظر**، محمد حناي: «**من أعلام البناء الثَّقافي والتَّعليمي بوادي ريغ العلامة الشَّيخ التِّجاني نصيري**»، مجلَّة الذَّاكرة، ع.8، تصدر عن مخبر التُّراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشَّرقي الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، جانفي/2017م، ص.8 – 14.

[3]– علي حملاوي : «**وضعية الآثار بمنطقة وادي ريغ الجنوب الشَّرقي الجزائري**»، مجلة آثار، ع.5، **(ع.خ)**، جامعة الجزائر، 1999م، ص.109.

[4] – مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص138.

رمل يصاد فيها الفنك الذي لا يوجد لجلده نظير في الدنيا>> فصاحب الاستبصار جعل بلد سوف ضمن بلاد الجريد كما أشار إلى أناسا أرادوا معرفة ما وراء قسطيلية فأعدّوا الأزودة والمياه وذهبوا في تلك الصحاري والرمال أياما فلم يروا أثرا لعمران وملك أكثرهم في تلك الرمال.[1]

وقد يكون كتاب "شرائع الدين" الذين يعود تاريخه لحدود القرن (3هـ/9م) أقدم مصدر ذُكرت فيه بلاد أسُوف بالمعنى الحرفي للكلمة.[2]وباستثناء المصادر الإباضية فإنّ أسُوف لا تكاد تذكر في أغلب المصادر المختلفة بشكل عام، وهو ما جعلنا في اشكالا في تحديد جغرافية موقعها الذي لم نهتدي إليه إلاّ بالاعتماد على ما تناولته المصادر الإباضية التي نستطيع من خلالها التعرف على أنّها توسطت كُلا من درجين في بلاد الجريد التي تحدّها من الناحية الشرقية، وأريغ ووارجلان اللتين تحدّانها من الناحية الغربية.[3]

فالروايات الإباضية تشير إلى أنّ أهل درجين وجدوا في أسوف ملجأ بعد أنّ تهدمت قلعتهم عام (440هـ/1048م)[4]، وهذا لكوّنها الأقرب إليها وقد تكون واقعة على التماس مباشر معها بناءا على ما ذكره "الحميري" الذي أشار بأنّها دون عمران.[5]

---

[1] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص159.

[2] – غرايسة: **التحولات الاجتماعية و الثقافية في واحات المغرب الأوسط**، المرجع السابق ص36. الحميري: المصدر السابق، ص333.

[3] – غرايسة: **التحولات الاجتماعية و الثقافية في واحات المغرب الأوسط**، المرجع نفسه، ص36.

[4] – الوسياني: المصدر السابق، ج2، ص901.

[5] – الحميري: المصدر السابق، ص333.

ما طرحه الحميري لا يعني بالضرورة أن تكون تلك البلاد غير موجودة فلربّما تكون قد تعرضت للهدم و الخراب، إذ من غير الممكن القبول بعدميه عمران سوف حتى هذا التاريخ، و أغلب الظن ربما تكون قد اندرس عمرانها بعد أن كانت في وقت سابق و قبل أن يتجدد في وقت لاحق، إذ يثار في بعض الكتابات إلى وجود نوع من الحياة القديمة بالمنطقة بما كان من مستكشفات خلال الفترة الاستعمارية، ينظر: غرايسة: **التحولات الاجتماعية**، المرجع السابق ، ص 36 هامش رقم(5).

وتشير المصادر الإباضة إلى أسُوف ببلاد الرمل التي ربّما تكون المظهر الجغرافي الأكثر حضورا في هذا المجال، والذي قد يفهم من بعض النصوص أنّ بلد الرمال هذه قد تكون قريبة من بلاد أسوف حتى أعتقد أنّها منها،[1] وهذا ما ورد عند الشمّاخي (ت 928هـ/1521م) الذي تحدث عن الرمال كاسم لبلد قريب من مجال سوف.[2]

وكثيرا ما برز اسم الرمل في ذكر حركة بن غانية[3] الذي هرب من بسكرة وتوغل في الرمل الذي حقق له المنجاة[4] وكان ذلك مطلع القرن (7هـ/13م) وكان قبله مخلد بن كيداد في مواجهته مع الشيعة بعد معركة ماواس (336هـ/947م).[5]

إنّ انتشار الإباضية بشكل مبكر في مراكز تجمعاتها الكبرى، وفي ظل ما كان قائما من تواصل بين تلك المراكز فإن مجال أسوف (سوف) قد أخذ شكل منطقة العبور التي ربّما يُعزى إليها كبير الفضل في استقرار الحياة فيها وتطوّرها[6]، فالدرجيني في معرض حديثه عن "المغير بن فضالة المراغني" أشار إلى أنّه صاحب أبي نوح في مسيره من قنطرار إلى سوف[7] .

---

[1] – عمار غرايسة: **التحولات الاجتماعية**، ص37.

[2] – الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص158.

[3] – **حركة بني غانية**: ثورة قامت ضد السلطة الموحدية امتدت قرابة خمسين عاما (580–631هـ) ينظر: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، تح مرا: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2002م، مج10، ص128.

[4] – ابن خلدون: **العبر**، ج6، ص378.

[5] – عماد الدين ادريس الداعي: **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، تح: محمد اليعلاوي دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985م، ص315.

[6] – غرايسة: **التحولات الاجتماعية**، ص38.

[7] – الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص156–157.

كما ورد ذكرها عند أبو زكرياء يحي في القرن (5هـ/11م) خلال حديثه عن التواصل الذي كان بين اباضية بلاد الجريد واباضية أسوف وأريغ ووارجلان[1] وورد ذكر مجال أسوف في قصة جُغراف المرتبطة بالحديث عن الانتقال إلى عالم الفناء[2] وقد ظلت إلى وقت متأخر محتفظة بهاته الخصوصية.[3]

وبخصوص تسمية "أسوف" فقد اختلفت الروايات[4] في أصل التسمية وسنقف في هذا المقام على أهمّ الروايات، فالعدواني في تاريخه نسب سوف إلى واد اسمه غديرة النيل ويشير لذلك في قوله:<<... ثمّ انحدروا إلى سوف وكان فيها يومئذ غديرة النيل>>.[5]

وطرح مؤرخ سوف "إبراهيم العوامر" عدّة آراء منها <<أنّها كانت محلاّ لأهل الصوفة لأنّ كل عابد من أهل التصوف ينقطع للعبادة فيها>> وقيل سميت بذلك <<لأنّ أهلها الأولين كانوا يلبسون الصوف من أغنامهم لعدم وجود غيره من

---

[1] – أبو زكرياء: المصدر السابق، تح (إسماعيل العربي)، ص284–286.

[2] – الوسياني: المصدر السابق، ج2، ص901–902.

[3] – غرايسة: **التحولات الإجتماعية**، ص38.

[4] – ذكر أحمد نجاح تفسيرا لغويا لاسم (سوف) و أشار بأنّها مشتقة من اللفظ الأمازيغي (أسوف) و الذي يُعرف باسم (**أسيف**) و يعني الأرض المنخفضة على ضفاف الوادي و أن كلمة الوادي بالعربية تعني في الأمازيغية (سوف) و أنّ أصلها عربي و هو تحريف لكلمة السيوف و هي الكثبان الرملية، ينظر إلى:

Ahmed Najah: **Le souf des oasis, la maison des livres, Alger**, 1971,p32.

نقلا عن غرايسة: **التحولات الاجتماعية**، ص36، هامش(1).

و يتداول اليوم عند أهل سوف لفظ السافي التي تعني الرمل خاصة لما يكون ناعما كما يطرح اسم "**أسيف**" باعتباره دلالة عن نهر و تعبير **السّيف** للدلالة عن الموضع الغني بالماء، ينظر إلى: سعيد بن عبد الله الدارودي: **حول عروبة البربر مدخل إلى عروبة الأمازيغيين من خلال اللسان**، منشورات فكر، سلطنة عمان، ط1، 2012م، ص68. ومن الآراء التي ربطت الاسم بجغرافية المنطقة أو نمط حياه سكانها ما أشار إليه الفرنسي جستون كوفي: **مذكرات حول سوف و السوافة**، تر: عبد القادر ميهي، مطبعة الرمال، الوادي، (الجزائر)، ط1، 2016م، ص10.

[5] – محمد العدّواني: المرجع السابق، ص109.

المنسوجات عندهم>>، وقيل أيضا << كان بها رجل عليم أيّ صاحب حكمة يسمى ذا السوف فسميّت هذه الأرض به، والسوف معناه في اللغة العلم أو الحكمة>>.[1]

في حين يذهب البعض أنّ كلمة سوف مشتقة من الاسم الأمازيغي أسوف وتعني الأرض المنخفضة على ضفاف الوادي، وبهذا أدّغمت كلمة "سوف" وأصبحت وادي سوف، وعلم اللسانيات يُشير بأنّ كلمة الوادي بالعربية ترادفها بالأمازيغية كلمة سوف.[2]

ويبدو لي أنّ هذا الرأي أقرب للصواب ذلك لأنّ أغلب أسماء المدن والأماكن تخضع إما من الطبيعة التي تتميز بها، أو لقبيلة يعود لها الفضل في تعميرها واشتهرت بها.

وبخصوص دخول الإسلام للمنطقة فقد صرّح "إبراهيم مياسي" بأن عقبة أو قومه قد وصلوا سوف وفتحوا قراها وكان هذا ولايته الأولى سنة (46)هـ.[3] في حين يشير أندري روجي فوازن بأنّ دخول الإسلام تم عن طريق بعثات الفتح الإسلامي القادمة إلى بلاد البربر في القرن 7م.[4]

وبالعودة إلى المصادر الإباضية نجدها تُشير إلى اعتناق أهل أسوف إلى المذهب الإباضي، ووردت عدّة إشارات تؤكد تضامن أهل أسوف مع إخوانهم في المذهب من أهل قسطيلية وبلاد الجريد فيما يُلمّ بهم من مصائب وأزمات.[5]

---

[1] – إبراهيم العوامر: المرجع السابق ، ص38.

[2] – إبراهيم مياسي: **قبسات من تاريخ الجزائر**، دار هومة، الجزائر، (د.ط)، 2010م، ص100.

[3] – إبراهيم العوامر: المرجع السابق، ص139.

[4] – أندري روجي فوازن: **سوف مونوغرافيا**، تر أبو بكر مراد، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، 2016م، ج2، ص168.

[5] – أبو زكرياء: المصدر السابق، تح(إسماعيل العربي)، ص244.

ويضيف علي يحي معمر بأنّ<< بلد سوف بالنسبة للإباضية خير مكان لمن يقوم بالدعوة لأنّه جاء متوسطا بين الأماكن العامرة بهم كأنه منطقة ارتكاز، فيرتحل منه الداعية مغربًا فيزور بلاد أريغ ووارجلان وبادية بني مصعب وجبال الأوراس وما والاها>>.[1]

وفي تقديري أنّ سوف انخرطت في الإسلام ثم اعتنقت المذهب الإباضي والمعلوم أنّ قبيلة زناته البربرية التي استقرت بهذا المجال كانت تعتنق المذهب الإباضي كمذهب يدعوا للعدل والمساواة.

ويذكر أبو زكرياء أنّ أسوف لها اتصالات مع إخوانهم في الدعوة في بلاد الجريد وأريغ ووارجلان، وهو يؤكد ذلك وجود الطريق نشط يربط بين القيروان ووارجلان عبر أسوف مرورا بقسطيلية، ويذكر في احدى رواياته أنّ جماعة من أهل المذهب خرجوا سنة (449هـ/1057م) قصد زيارة إخوانهم من أهل دعوتهم فانطلقوا من جربة ثم مرّوا على إخوانهم بقسطيلية ثم قنطرارة ثم نفطة حتى وصلوا أسوف فمكثوا بها ما شاء الله أن يمكثوا عند إخوانهم، ثم خرجوا منها إلى وغلانة ثم تماسين، حتى انتهى بهم الطريق إلى وارجلان.[2]

وأشار أبو زكرياء في رواية أخرى أنّ خزروف بن فلفول لما أراد السفر إلى طرابلس ارتحل إلى أسوف، وفيها وجد قافلة متجهة إلى نفزاوة فصطحبها.[3]

[1] – علي يحي معمر: المرجع السابق، ج2، ص168.

[2] – أبو زكرياء: المصدر السابق، (إسماعيل العربي)، ص284–285.

[3] –أبو زكرياء: المصدر السابق، (عبد الرحمان أيوب)، ص 330. مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص138.

1 – 6– توات (المجال الجغرافي والتَّسمية):

1 – 5 – 1 – المجال الجغرافي:

تباينت آراء المؤرخين في ضبط حدود "إقليم توات"، فالإقليم يضمُّ ثلاثة مناطق، هي: (توات، تيدكلت، تيكورارين)، ثمَّ عَمَّمَ اسم "توات" على الإقليم كلَّه الذي يضُمُّ أجزاء صحراويَّة تابعة جغرافيا للمغرب الأوسط.[1] فـ"إبن بطوطة" ذكر توات خلال رحلة عودته من "مالي" إلى "المغرب" سنة(754هـ/1353م) فقال: "توات" بين "تكدا" و"توات" «ودخلنا بودة وهي أكبر قصور توات وأرضها رمال سبخة».[2]

أمَّا "العياشي" فقد ضبط حدود المنطقة شمالاً وجعل قرى "تسابيت" أوَّل عمالة "توات" ويظهر ذلك في قوله: «... ودخلنا أوّل عمالة توات وهي قرى تسابيت وزُرّنا أوّل قرية منها قبر الوليّ الصَّالح سيدي مُحمَّد بن الصَّالح المعروف بعريان الرَّأس».[3]

ويقع "إقليم توات" في جنوب المغرب الأوسط، بين خطي طول 4غرباً و1 شرقاً خط غرينتش، وبين خطي عرض (26 – 30) شمال خط الاستواء[4].

يَحدُّه من الشَّمال "العرق الغربي الكبير" و"وادي أمقيدن"، ومن الجنوب "هضبة تنزروفت" و"واد قاريت" و"جبال مويدار".[5]

أمَّا من الشَّرق "العرق الشَّرقي الكبير" المحاذي لواد الماية، ومن الغرب "واد السَّاورة" وروافده[1]؛ وتتمركز المناطق الثَّلاثة حول "هضبة تادميت" من الجهة الغربية،

---

[1]– الزَّهراء بوكرابيلة: «**إقليم توات بين التَّعريف والتَّأليف**»، مجلة القرطاس، ع.3، تصدر عن مخبر الدِّراسات الحضاريَّة والفكريَّة، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، جانفي2017م، ص.195.

[2]– ابن بطوطة: **رحلة إبن بطوطة، (تحفة النّظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار)**، تح: عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1987م،ج2،ص713.

[3]– العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.79.

[4]– مُحمَّد الصّالح حوتيّة: **توَات والأزواد**، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط.1، 2007م، ص.28.

[5]– مُحمَّد برشان: "**الصَّحراء في أبحاث المهدي البوعبدلي إقليم توات أنموذجا**"، مجلة دراسات، مج3،ع1، جامعة بشار، الجزائر، جوان 2014م، ص.204.

حيث تأخذ منها مساحة لابأس بها، ويُحيط بالإقليم أودية كثيرة، أهمَّها: "واد أميقدون"، "واد مسعود"، ووادي قاريت"[2]. ويتربع الإقليم على مساحة تزيد عن ثلاثة آلاف كلم مربع.[3]

1 – 5 – 2 – أصل التَّسمية:

تباينت آراء المؤرخين حول أصل التَّسمية "توات" وتاريخ اختطاطه، وعليه سنحاول أن نستعرض تلك الآراء ونرجح ما نراه الأقرب للصواب وللوقائع التَّاريخيَّة.

فهناك من أرجع أصل التَّسمية للقائد العربي "**عقبة بن نافع الفهري**"، وعلى ما يروى أنَّه لما استفتح بلاد المغرب ووصل ساحله ثمَّ عاد لـِ"درعة" و"سجلماسة" وصلت خيله لـِ"توات" ودخلها بتاريخ(62هـ/ 681م)، وسأل عن هذه البلاد وهل تواتي (تليق) لنفي المجرمين من عصاة المغرب ينزلهم بها، فأجابوه تواتي، فأطلق اللسان بذلك ثمَّ تغيَّر اللفظ على لسان العامة بضرب من التَّخفيف وأصبح توات[4].

وهذا الرَّأي نستبعده لعدَّة اعتبارات منها: أنَّنا لم نعثُر على ما يُثْبت وصول "عقبة بن نافع" إلى منطقة "توات" في المصادر التي تتبَّعت حركة الفتوحات، بما فيها حملة "عقبة بن نافع"، فحدُّه كان منطقة سجلماسة، ثمَّ إنْ سلمنا بصحة ما جاء في هذه الرِّواية فماهي التَّسمية التي أُطْلقت على المنطقة قبل وصول عقبة لها؟

=

[1]– محفوظ رموم: «**توات الجغرافيا والمصطلح من خلال المونوغرافيا المحليَّة والأجنبيَّة**»، مجلة الحوار الفكري، مج.11، ع.12، تصدر عن مخبر الدِّراسات الإفريقيَّة للعلوم الانسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة أحمد دراية، أدرار – الجزائر، ص.83.

[2]– الزَّهراء بوكرابيلة: المرجع السَّابق، ص.196.

[3]– نفسه . **وينظر أيضاً**، مُحمَّد برشان: المرجع السابق، ص.204.

[4]– أحمد أبا الصَّافي جعفري: **الحركة الأدبية في إقليم توات**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط.1، 2009م، ج.1، ص.16 – 17.

في حين يرى صاحب "فهرس الرُّصاع" أنَّ التَّسمية تعود لإحدى بطون قبائل الملثمين سُكَّان الصَّحراء، حيث يقول: «... **والملثمون هم قبائل الصَّحراء بالجنوب عُرفوا بهذا الاسم لأنَّهم يتلثمون بلثام أزرق، ومنهم طوائف التَّوارق ولمطة ولمتونة والتَّوات**».[1]

بينما يذهب "عبد الرحمان السَّعدي" مذهبا آخر في تفسيره لمدلول الكلمة، إذ يُرْجع أصلها إلى اللغة التَّكرورِيَّة ويقصد بها (الوجع والألم)، ويُورد قصة مفادها أنَّ سلطان مالي "كنكان موسى"[2] أثناء رحلته لأداء فريضة الحجِّ، مرَّ على المنطقة وهناك تخلَّف عليه الكثير من أصحابه لوجع أصابهم في الرِّجل لكثرة المشي، فاستوطنوا المكان لفترة كبيرة فأصبح يعرف بهم، ومنذ تلك الحادثة أصبح المكان يعرف باسم "توات" ويعني في لغة أهل التَّكرور وجع الرِّجل[3]. ورواية السَّعدي هذه مُضطربة وغير مقبولة من حيث المنطق، فرحلة حج السلطان "كنكان موسى" كانت خلال القرن (8هـ/14م)، واسم "توات" كان متداولاً قبل هذه الحادثة، كما أنَّه من غير المعقول أنْ يُطلق اسم المنطقة على العلَّة التي أصابت بعض من حلُّوا بها.

وهناك من علَّل سبب تسميتها بـِ"توات" لمُوَاتَاتِهَا وصلاحية أرضها للعبادة، فقد كانت ملجأ وملاذا للكثير من العلماء والأولياء الذين اتخذوها مقراً للتعبد والخلوة، وقيل أيضاً هي من «المواتاة، أيْ أنَّ أرض "توات" مواتية للعيش والاستقرار».[4]

---

[1]– أبو عبد الله مُحمَّد الأنصاري: **فهرست الرصَاع**، تح، مُحمَّد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ط.1، 1967م، ص.127.

[2]– **كنكان موسى:** هو أبو بكر الثَّاني المسمّى "منْسى موسى" أعظم ملوك "مالي"، تولّى الحكم سنة (738هـ/1337م) واشتهر بحجته المشهورة، مرَّ بالقاهرة وأفاض على الناس هدايا من الذهب. توفي سنة (742هـ/1341م). **ينظر**، حسين مؤنس: **إبن بطوطة ورحلاته. تحقيق ودراسة وتحليل**، دار المعارف، القاهرة، ط.1، 2003م، ص.232.

[3]– عبد الرَّحمان السَّعدي: **تاريخ السُّودان**، طبعة هوداس، 1964م، ص.7.

[4]– عبد الحميد بكري: **النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التَّاسع الهجري إلى القرن الرَّابع عشر**، دار الغرب للنشر والتَّوزيع، وهران – الجزائر، ط.1، 2007م، ص.16، **وينظر أيضا:** خير الدِّين شتره: «**القيم**

وهذا الرَّأي لا يستند لأيِّ دليل تاريخي أو لغوي وإنَّما هو مُجرَّدُ تخمين وتخريج للمصطلح وبحث في معناه الظَّاهري الاشتقاقي دون استعراض لأصول المصطلح وتاريخه.[1]

في حين يرى البعض أنَّ أصل التَّسمية يعود لفترة الموحدين (565هـ/1169م) وأُشّتق اسمها من الإتاوات، وهي المغارم، فالموحدين كانوا يقبضون الإتاوات عن أهل المنطقة فَعُرفَ أهلها بأهل الإتاوات، ثمَّ حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصارت الألسنة تنطقها توات[2]. ورواية الإتاوات هذه غير منطقيَّة لكوْن أنَّ التَّسمية كانت متداولة قبل مجيء الموحدين، كما أنَّه من غير المنطقي أنْ تُسمى المنطقة على اسم ضريبة أو مَغرم كانت تدفعه، وإلَّا سُمِّيت معظم مدن المغرب الأوسط باسم المغارم والضَّرائب التي فرضت عليها.

وتتمَّة لما ذهب إليه المؤرخون من اجتهادات في إيجاد المدلول الحقيقي للتسمية فقد غلب بعضهم المدلول اللغوي للكلمة، فالفشتالي يرى أنَّ اسم "**توات**" أصله بربري ومعناه الواحات.[3]

أمَّا علم الإتيمولوجيا فيرى أن كلمة "توات" في اللغة الأمازيغية تطلق على الأماكن المنخفضة.[4]

=

الاجتماعية بإقليم توات من خلال أدب النَّوازل نوازل عبد الرَّحمان الجنتوري أنموذجا»، مجلة التراث، ع.17، جامعة زيان عاشور، الجلفة – الجزائر، مارس/2015م، ص.62.

[1]– محفوظ رموم: المرجع السَّابق، ص.88.

[2]– مُحمَّد باي بلعالم: **الرِّحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات**، (د م ن)، (د ط)،(د س ن)، ص.59.

[3]– فارس عبد العزيز الفشتالي: **مناهل الصَّفا في مآثر موالينا الشُّرفا**، تح، عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة والثَّقافيَّة، (د م ط)، (د ط)، (د س ن)، ص73.

[4]– محفوظ رموم: المرجع السَّابق، ص.88.

أمَّا عند الباحثين الفرنسيين منهم من يرى أنَّ "توات" تعود في أصولها للإغريق فكلمة (ouasis) تعني الواحة، ويرى "مارتان" أنَّ أصل التَّسمية تعود إلى مفردة (وا. Oe) التي توجد في عدَّة لغات ووجدت أيضاً لدى قبائل "زناته" وهي تعبير لغوي أضيف إليه حرف التَّاء في أوله وآخره فصارت "توات".[1]

ومن خلال ما سبق عرضه من آراء حول أصل تسمية "توات"، فإنَّنا نرجح أنَّ التَّسمية تعود إلى فترات التي غلبت فيها قبائل "زناته" و"صنهاجة" على الإقليم، وبما أنَّ معظم أسماء المناطق والقصور على اللهجة الزَّناتيَّة الأمازيغية، فالأولى أنْ يكون أصل "توات" أمازيغيا، وهو الرَّأي الذي يميل إليه معظم من بحث في تاريخ المنطقة[2]. أمَّا قبل تلك الفترة فقد يكون الإقليم حمل تسمية أخرى على لغة الجيتول الذين تواجدوا بالمنطقة قبل الزَّناتيين والصَّنهاجيين.

2)– البنية السُّوسيولوجيَّة لحواضر المغرب الأوسط الصّحراوية:

تختلف المجتمعات في بُنيتها بحسب تاريخها وأصولها وخلفياتها الحضاريَّة والعقديَّة، وهي الأبعاد التي تؤسس للمجتمع كيانه المتميِّز والمختلف عن جميع الكيانات الأخرى، ولأنَّ المجتمعات الإنسانيَّة لا تحيا فقط في الحاضر، لذلك نرى أنَّه من الضَّروري معرفة من أينْ انحدرت لنستطيع أنّ نتبين وجهتها في المستقبل[3].

---

[1] –MARTIN (A–G–P):**Quatre Siécles d'Histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902 au maroc de 1894 à 1912 d'aprés archives et documentations indigénes**, librairie felix alcan, paris, 1923,p01.

[2]– محفوظ رموم : المرجع السَابق ، ص.89.

[3]– أحسن دواس: **صورة المجتمع الصَّحراوي الجزائري في القرن التَّاسع عشر من خلال كتابات الرَّحالة الفرنسيين مقاربة سوسيو ثقافية**، مذكَّرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، تخصص: الأدب المقارن، إشراف: الأخضر عيكوس، قسم اللغة العربيَّة، كلِّيَّة الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة – الجزائر، 2008م، ص.43.

وعليه ارتئينا البحث في البُنية السُّوسيولوجيَّة المشكِّلة لمجتمع حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة.

من خلال ما سبق عرضه حول الخصوصيَّات الجغرافيَّة لحواضر الصَّحراء، قد يتبادر إلى الذِّهن أنَّ هذه القفار كانت بيئة خالية وطاردة للعنصر البشري، بينما الوقائع والأحداث التَّاريخيَّة وما ورد ذِكره في العديد من المصادر التي أرَّخت لهذا المجال، تؤكد على أنَّه قد عرف استقطاب بشري كبير على مرِّ العصور واستقرّت به العديد من الإثنيات، هذه الأخيرة نتج عن اندماجها وتَثَقُفِهَا نوعاً من الحراك الاجتماعي والثَّقافي، وقد يُفسَّر توافد تلك العناصر على الواحات، إلى موقعها الجغرافي وبُعدها عن مراكز السُّلطة وجُور الحكام الذي جعل منها قبلة ومقصداً لكثير من المهاجرين والفارِّين الذين أتوها فُرادى وجماعات من مختلف الجهات.

وأثناء البحث في العناصر المشكِّلة للمجتمع الواحاتي والبحث في أصولهم، يخامرك شعور أنَّك أمام مقطع جيولوجي على حدّ تعبير أحد الباحثين، تُشير كلُّ طبقة فيه إلى عنصر مُعيَّن، هاجر إلى الواحات في وقت ما، وأنَّ تلك الطَّبقات شكَّلت مع مرور الزَّمن التَّركيبة السُّكانيَّة التي عليها ساكنة الواحات اليوم[1]؛ فالصَّحراء عرفت استقرار بشري منذ أقدم العصور، فقد كانت موطن الإنسان البدائي الذي شغل المجال بتحركاته الشَّديدة التَّنوع – كالحروب والهجرة بحثا عن الكلأ، والبيئِيَّة كالكوارث والجفاف – مُختلف مناطق شمال إفريقيا بما فيها الصَّحراء.[2]

---

[1]– مُحمَّد أعفيف: «**واحات توات عبر التَّاريخ مجال للتواصل والتَّعايش**»، مقال ضمن كتاب، **مجالات الجوار المغربيَّة_استحضار لماض تواصلي عريق**، تنسيق: حميد تيتاو، منشورات كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، وجدة، ط.1، 2016م، ص.72.

[2] – عرف المغرب القديم عدَّة مجموعات بشرية أهمُّها المور، وقبائل البقواط، وقبائل البوار، النُّوميديون والجيتوليون، ومن المرجَّح أنَّهم وصلوا للمناطق الصَّحراوية كمنطقة "أريغ"، لأنَّ إطارهم الجغرافي تمثل في السُّهوب والمرتفعات الجنوبيَّة وحوافي الصَّحراء الشَّمالية. ينظر، معاذ عمراني: « **المواقع الحضاريَّة في منطقة وادي ريغ فترتي ما قبل التاريخ والعصر القديم**»، مجلة الباحث في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مج.10، ع.2، كليَّة

فالشَّواهد والآثار التي تركها في شكل نقوش ورسومات على الصُّخور وفي الكهوف والمغارات خير شاهد على ذلك، فتلك الآثار التي خلَّفها الإنسان من أدوات حجريَّة وعظام الحيوانات[1] عبَّر من خلالها على واقع معاش، فاستقرار الإنسان البدائي بالصَّحراء لم يكن سوى حلقة من حلقات الهجرات الوافدة على الواحات والتي استمرت عبر مختلف العصور، فالمتأمل للتاريخ البشري للواحات يجد أنَّ أصول ساكنيه تشكَّلت من عناصر متنوعه، وعليه فإنَّنا سنتناول التَّركيبة الاجتماعية بإثنياتها العِرقيَّة والدِّينيَّة والطَّبقيَّة؛ ويأتي في مقدمة هؤلاء، التَّالي:

2 – 1 – البربر:

تكاد تجمع جلُّ المصادر التَّاريخيَّة التي تناولت نسب البربر وتاريخهم واقتفت آثار تحرُّكاتهم على أنَّهم عناصر طارئة على هذا المجال، فأصولهم الأولى وديارهم كانت "**بفلسطين زمن جالوت بن ضريس بن جانه**"[2]، بينما يرى آخرون بأنّهم يَمنيون "**قـــالوا أوزاع من اليمن**"[3] أتو بلاد المغرب فتناسلوا فيه.[4]

أمَّا عن قدومهم لبلاد المغرب فصاحب "الاستبصار" يشير إلى أنَّ "البربر" قد مشى أكثرهم نحو المغرب وتفرَّقت البرابر في بلاد إفريقية وبلاد المغرب حتى وصلوا

=

العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، قسم العلوم الإنسانيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي – الجزائر، 2019م، ص.59.

[1] – كشفت الأبحاث الأثريَّة عن وجود مجموعة من الأدوات تمثَّلت في بعض السِّهام المُحدَّدة وجماجم بها أسنان بارزة طولها 0.07، ووجدت آثار أخرى في موقع "بلوري" بالقرب من سيدي المخفي على الضِّفة الغربيَّة لشط ملغيغ، وفي قرى "أولاد موسى" و"بئر مروان" بضواحي "لورير"، وجدت سهام ومسامير وكميَّة معتبرة من الصَّوان وبيض النَّعام والصَّدفات. ينظر، معاذ عمراني: المرجع نفسه، ص.56.

[2]– الشَّريف الإدريسي: المصدر السابق، مج.1، ص.257. **وينظر**، ابن خردذابة: المصدر السَّابق، ص.91. **وينظر أيضاً**، مؤلف مجهول: **الاستبصار** المصدر السَّابق، ص.155.

[3]– إبن خلدون: **العبر**، ج.6، ص 120.

[4]– أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر البلاذري: **فتوح البلدان**، تح: عبد الله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع، مؤسسة المعان للنشر، بيروت، ط.1، 1987م، ص.315.

أقاصي بلاد المغرب واستوطنوها وهي الإشارة ذاتها التي أوردها "الإدريسي" بشأن ظهور البربر بالمغرب.[1]

ومع استقرارهم وتناسلهم عرف البربر تَعدُّداً في البطون والأفخاذ، ممَّا أسهم في تباين تركيبتهم الاجتماعيَّة التي حصرها النَّسابة في فرقتين "**البتر والبرانس**"، اللتين تفرع عنهما من البربر قبائل«**لا يلحق بعددهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعُّب أفخاذهم وقبائلهم**».[2]

ومما أشار إليه "إبن خلدون": «أنَّ البربر قبائل كثيرة وشعوب جمَّة، وهي هوارة وزناته وضرية ومغيلة وزيحوحة ونفزة وكتامة ولواته وغمارة ومصمودة وصدينه ويزدران ودنجين وصنهاجة ومجكسة ووارکلان وغيرهم».[3]

أمَّا بخصوص تسميتهم بالبربر فتذهب بعض الدِّراسات الحديثة للقول بأنَّ هذا الاسم قد أُلْصِقَ بسكان هذه المنطقة علي يد الرُّومان والإغريق الذين يطلقونه على كلِّ

---

[1]– مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص156. **وينظر**، الإدريسي: المصدر السابق، مج.1، ص.122.

[2]– إبن حوقل : المصدر السابق، ص.97. **وينظر**: محمد علي بن أحمد بن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د س ن)، ص 495. **وينظر**، ابن خلدون: **العبر**، المصدر السابق، ج.6، ص.116. **وينظر**، صالح بن عبد الحليم الإيلاني المصمودي: **مفاخر البربر**، تح: عبد القادر بوبايه، مؤسسة البلاغ للنشر والدِّراسات والبحوث، الجزائر، **(ط.خ)**، 2013م، ص.244 – 246. **وينظر**، إصطيفان إكصيل: **تاريخ شمال إفريقا القديم**، تح، مُحمَّد التَّازي سعود، مطبوعات أكاديميَّة المملكة المغربيَّة، الرِّباط، ط.1، 2007م، ج.5، ص.101. **وينظر**، غابرييل كامب: **البربر ذاكرة وهوية**، تر: عبد الرَّحيم حزل، إفريقيا الشَّرق، الرِّباط، **ط.1**، 2014م، ص.55. **وينظر**، أ. ف. غوتيه: **ماضي شمال_إفريقيا**، تر: هشام الحسيني، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، كاليفورنيا، ط.1، 2010م، ص.111 وما بعدها. **وينظر**، عبد الرَّحمان الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، المرجع السَّابق، ج.1، ص.48. **وينظر**، مبارك بن مُحمَّد الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تق و تص: مُحمَّد الميلي، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، ط.1، 1986م، ج.1، ص.81. **وينظر**، إبراهيم حركات: **المغرب عبر التاريخ**، دار الرَّشاد الحديثة، الدَّار البيضاء، ط.1، 2000م، ج.1، ص.20.

[3]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.122.

أجنبي وغريب عن الحضارة والثَّقافة الهلينيَّة[1]، بينما يرى البعض أنَّ العرب هم من أطلقوا عليهم هذه التَّسمية للغتهم الغير مفهومة، وقد كان العرب قديما يُسمُّون كلَّ الأصوات التي لا يفهمونها بربرة، أمَّا البربر فيسمون أنفسهم "**الأمازيغ**" نسبة إلى جدِّهم "مازيغ بن كنعان بن حام"، وهم يعتدون بهذا الاسم، وهذا ما نستشفه من ردِّهم على "عمر بن الخطاب" ﷺ حين سألهم عن نسبهم فقالوا: «**نحن أبناء مازيغ**»، **والأمازيغ تعني «الأشراف أو الأحرار»**.[2]

– ونظرا لكثرة تِعدَادِ البربر وتشعُّبهم وتفرُّع قبائلهم فقد استوطنوا أغلب مناطق المغرب بما في ذلك الواحات التي عرفت توافد واستقرار عدَّة قبائل بها، وهو ما جعلنا نتساءل حول زمن هجرتهم، وماهي دوافعها، وهل كانت تلك الهجرات قسَريَّة أم طوْعيَّة؟ وهل كانت القبائل المهاجرة على دراية بأحوال الصَّحراء؟

– في واقع الأمر لا يمكننا البحث في أسباب هجرة القبائل البربريَّة نحو الصَّحراء بمعزل عن الظُّروف والواقع السِّياسي الذي أحاط بهم، فالمعلوم أنَّ الهجرات غالباً ما ترتبط بدوافع عديدة، سياسية أو اقتصاديَّة، أو... وإذا ما نظرنا إلى الواقع السِّياسي لبلاد المغرب نلاحظ أنَّ هذه الهجرات جاءت نتيجة لظروف سياسيَّة دفعت بالكثير من القبائل إلى هجرة مواطنها، بدءاً بالحروب الدِّينية التي جرت بين البربر والرُّومان، مما دفع هذه الأخيرة لانتهاج استراتيجيَّة تُمكِّنها من قمع ثورات البربر، فكان الحلُّ الأمثل لذلك هو عزل السُّكان عن بعضهم البعض وترحيلهم إلى مناطق معزولة وليس هناك أنسب من الصَّحراء لذلك، وبهذا تمَّ تهجير أعداد كبيرة من البربر نحو الصَّحراء ومع

[1]– مُحمَّد حقي: **البربر في الأندلس**، شركة النَّشر والتَّوزيع – المدارس، الدَّار البيضاء، ط.1، 2001م، ص.26.

[2]– مُحمَّد علي دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، كاليفورنيا، ط.1، 2010م، ص.33. **وينظر**:عبد الوهاب بن منصور: **قبائل المغرب**، المطبعة الملكيَّة، الرِّباط، ط.1، 1968م، ج.1، ص.262.

تزايد الضَّغط الرُّوماني على سكان الشَّمال اضطر الكثير منهم إلى التَّوجه نحو الصَّحراء هروبا من السِّياسية التَّعسفيَّة للرومان.[1]

- وهذه الهجرات سواء كانت فرديَّة أو جماعيَّة وجدت في مراعي حافات الصَّحراء عاملاً مغرياً للتوغل ولانتجاع الكلأ والتَّمتع بنوع من الحريَّة، فالغزو الرُّوماني دفع بالبربر إلى اللجوء للصحراء[2] فبعد أنْ كانت الهجرة في البداية قسراً أصبحت مع مرور الزَّمن طوعاً.

- وعليه فقد شهدت الواحات إقبالاً كبيراً للبربر الذين توافدوا عليها وكان معظمهم من القبائل البترية، وتأتي في مقدمتها "**قبيلة زناته**" التي سجلت حضوراً كبيراً في أغلب الواحات، وقد استوطنت عموم زناته «**ما بين تاهرت إلى فاس وهم رحالة وأكثرهم فرسان يركبون الخيل ولهم عادية لا تؤمن**» و تركَّزت عموم زناته بالمغرب الأوسط حتى أصبح يعرف بهم "**وطن زناته**"[3]، أمَّا عن أهمِّ بطون زناته المتمركزة بالحواضر الصَّحراوية للمغرب الأوسط، نجد:

- **قبيلة تناوت:** سكن قسم منها واحة "وارجلان" وإليها ينسب العالم الجليل أبو عمار عبد الكافي[4] التَّناوتي الورجلاني، مؤلف كتاب "علم الكلام".[1]

---

[1]– شنيتي: «**التَّوسع الرُّوماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة**»، المرجع السَّابق، ص.7.

[2]– غلاب: المرجع السَّابق، ج.1، ص.30.

[3]– ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.3. **وينظر**، يوسف السُّنوسي: **زناته والخلافة الفاطميَّة**، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ط.1، 1986م، ص.58. **وينظر**، أ.ف غوتييه: **ماضي شمال إفريقيا**، المرجع السَّابق، ص.112 – 113.

[4]– **أبو عمار عبد الكافي:** عالم شهير من علماء عصر الازدهار العلمي بوارجلان، ولد بقرية "تُناوت" من قرى وارجلان وإليها ينسب، تتلمذ في موطنه ثمَّ رحل إلى تونس لاستكمال معارفه، صنَّفه "الدِّرجيني" في مؤلفه من علماء الطبقة الثَّانية عشر. عُرف بورعه وسخائه واجتهاده؛ من مؤلفاته: "كتاب السّير في نظام العزابة". **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي وآخرون: **معجم أعلام الإباضيَّة من القرن الأوَّل إلى العصر الحاضر(قسم المغرب)**، مُر: مُحمَّد صالح ناصر، منشورات جمعية التُّراث، لقرارة – الجزائر، ط.2، 2000م،ج 2 ص.258. **وينظر**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.485 – 486.

- **قبيلة بني يكشن:** من قبيلة زناته وهي فرع من فروع مغراوة.
- **قبيلة بني ورتجين:** إحدى بطون مطماطة البربرية وإليها ينسب "أبو سليمان داود بن أبي يوسف إلياس اليرتاجني".[2]
- **قبيلة زواغة:** إليها ينسب العالم الإباضي "أبو سليمان داوود بن ويسلان الزُّواغي"[3] الذي كان يسكن واحة "وارجلان" في قرية "إفران".[4]
- **قبيلة بني ياجرين:** إحدى بطون زناته إليها ينسب عدد من العلماء أمثال: "أبي صالح تبركت الياجراني"، و"سليمان بن موسى الياجراني".
- **قبيلة بنو زلغين (أوزلقين):** قبيلة بربرية تقيم بـِ"وارجلان" و"وادي ريغ".[5]

- كما ورد ذكر عدد من القبائل الأخرى منفصلا لاستكمال صورة المشهد الاجتماعي لعموم "وارجلان"، منها: بني مسافر، بني تكسنيت، بني غسيرت[6]، بنو واركلان، وهم أبناء "نمالة بن فريني بن زانا بن يحي"، وإليهم ينسب البلد، بنو زنداك من مغراوة، بني واسين.[7]

=

[1]– تاديوس ليفيتسكي: **المؤرخون الإباضية في إفريقيا الشمالية**، تر: ماهر جرّار وريما جرّار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2000م، ص.64.

[2]– **أبو سليمان داود بن أبي يوسف:** أحد المشايخ والفقهاء المشهورين وكان شيخ حلقة بقنطرارة، عُرف بسعة علمه وخلقه، ذكره الدِّرجيني من علماء الطَّبقة العاشرة. توفي سنة 462هـ/1069م. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السابق،ج.2، ص.142. **وينظر**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص. 447 – 448.

[3]– **أبو سليمان داوود بن ويسلان الزواغي:** أحد فقهاء وعلماء "جربة"، روى عنه الوسياني بعض السِّير، وهو أحد الشُّيوخ الأربعة الذين عُرض عليهم كتاب الألواح لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر. توفي سنة 504هـ/1110م. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: ، المرجع نفسه،ج.2، ص.146.

[4]– تاديوس ليفيتسكي: **المؤرخون الإباضية**، ،ص.39 و 114 و 122 و 123.

[5]– تاديوس ليفتسكي: المرجع نفسه، ص.164.

[6]– غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.37.

[7]– ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.79. **وينظر**، بوزياني الدراجي: **القبائل الأمازيغيَّة. أدوارها، مواطنها، أعيانها**، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط.1، 2007م، ج.1، ص.184.

- أمَّا "بنو يفرن": فهم من أبناء يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، وهي من أوسع بطون زناته، وقد فشا فيهم المذهب الإباضي، وعن "بنو مغراوة" فيتصل نسبهم بزاكيا مثل قبيلة بني يفرن، بني واسين، بنو ورماز، سكن بعضهم "وارجلان" وقسم منهم سكن "أريغ".[1]

- أما القبائل البربرية التي استوطنت "أريغ"، منها:

• **بنو ريغة:** هذه القبائل إليهم ينسب المجال الذي سكنوا فيه واستوطنوه، وهم من "مغراوة" أحد بطون زناته، نزل الكثير منهم ما بين قصور "الزَّاب" و"وارجلان" واختطوا بها قصورا كثيرة وبهم تعرف لهذا العهد.[2]

• **الرَّواغة:** ينحدرون من قبيلة زناته البربريَّة ويشكلون أغلب سكان "وادي ريغ"، وتعود أصولهم إلى قبيلتي "ريغة" و"سنجاس" المغراويتين.[3]

- أمَّا عن حاضرة مُصاب (ميزاب): فقد استوطنها هي الأخرى عدد من القبائل، منها:

• **بني واسين:** هؤلاء بقصور "مُصاب" على خمس مراحل من جبل "قيطري"، وسكَّانها لهذا العهد شعوب "بني يادين" من "بني عبد الواد" و"بني توجين" و"مصاب" و"بني زردال".[4]

- أمَّا حاضرة "الزَّاب" فقد استوطنتها قبائل "بني سنجاس" وكانوا خوارج، كذلك "بني واسين"، كما وفد على "أسوف" عدد من بطون زناته منهم: "زواوة"، "زواغة"، "دُمر"، "بني توجين"، "بني مغراوة"، "بنو يفرن"، "بنو يادين".[5]

- أمَّا حاضرة "توات" فقد استوطنتها قبائل صنهاجة[1] البربرية، ويعتبرون السُّكان الأوائل للإقليم، وأصل هؤلاء البربر من الملثمين، وهو ما يؤكده صاحب "العبر" في

---

[1]– بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.44 – 45.

[2]– ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.64.

[3]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.24.

[4]– ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.80.

[5]– ابن خلدون: **العبر**، ج7، ص.64 و 79.

قوله: «... **هذه الطَّبقة من صنهاجة هم الملثّمون الموطنون بالقفر وراء الرِّمال الصَّحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها... وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السُّودان حاجزا واتخذوا اللثام خطاما... وكثروا وتَعدَّدت قبائلهم من "كذالة"، "فلمتونة"، "فمسوفة"، "فوتريكة"، "فناوكا"، "فزغاوة"، ثمّ لمطة**».[2]

وعرف إقليم "توات" توافد قبائل أخرى من الشَّمال منها: قبيلة زناته والتي يبدوا أنَّ توافدها على مجالات الصَّحراء كان كبيراً، وهذا راجع للظروف السِّياسيَّة التي شهدها المغرب آنذاك منها الصِّراع الفاطمي الأموي، الذي كانت بلاد المغرب مسرحاً له، إذْ تحالفت زناته مع الأمويين بالأندلس حيث دعم الخليفة الأموي "**عبد الرَّحمان النَّاصر**"[3] قبائل زناته وعمل على إمدادها بالمال والسِّلاح وتحريضها على قتال صنهاجة حليفة الفاطميين والعدّو التقليدي لزناته، وازداد الصِّراع بين زناته وصنهاجة بعد رحيل آخر الخلفـاء الفاطميين "**المعـزّ لدين الله الفاطمي**"[4] لمصر بعد أنْ أوصى

=

[1]– **صنهاجة:** ينتسب الصَّنهاجيون إلى ولد (صنهاج) وأصل الكلمة صناك بالصَّاد المُشَمَّمة بالزَّاي والكاف القريبة من الجيم فلمّا عرّبتها العرب زادت الهاء بين النون والألف فصارت (صنهاج)، ثمّ أضيفت لها تاء الجمع فتحولت إلى (صنهاجة) وهي قبيلة بربريَّة بُرنسيَّة تنحدر من ولد صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن قيمتا بن سدور بن مولان بن مصلين بن يبرين بن مصرايم بن حام. **ينظر**، ابن خلدون: **العبر**، المصدر نفسه،**ج.6**، ص.201. **وينظر**، إبن حزم: المصدر السابق، ص.495.

[2]– إبن خلدون: **العبر**،ج.6، ص.241.

[3]– **عبد الرَّحمان بن مُحمَّد (الملقب بالنَّاصر):** أمير الأندلس، بويع بالإمارة وعمره 22 سنة، كان شهماً صارماً، وتسمى بأمير المؤمنين ولقب "بالنَّاصر لدين الله"، دامت ولايته خمسين سنة، وتوفي سنة(350هـ/961م). **ينظر**، أحمد بن يحي بن عميرة الضَّبي: **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط.1، 1967م، ص.17. **وينظر**، أبو عبد الله بن أبي نصر: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ط.1، 1966م، ص.12.

[4]– **المعزّ لدين الله الفاطمي:** أبو تميم بن معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله، ولد بالمهدية ببلاد المغرب سنة (319هـ/931م)، تولى الخلافة بعد موت أبيه سنة (341هـ/952م). **ينظر**، يوسف بن تغري بردي الأتابكي: **مورد اللطاف_فيمن ولى السَّلطنة والخلافة**، تح: نبيل مُحمَّد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصريَّة،

خليفته على بلاد المغرب "بلكين بن زيري الصَّنهاجي"[1] «...**بأنّ لا يرفع السَّيف عن البربر**»[2]، وفي روايـــــة أخرى قال له: «**اشفيني في أولاد المجوس زناته ومزاته**».[3]

وعليه فقد شهدت حواضر الصَّحراء توافداً كبيراً لزناته خلال هذه الفترة، خاصة بعدما اشتدَّت الحرب بينها وبين الأمير الصَّنهاجي "المعزّ بن باديس الزِّيري"[4] إذْ انهزمت زناته في موقعة "**الجفنة**" وهي مشهورة لعظمها عندهم[5]، وازدادت تلك الهجرات أيضاً بعد قيام دولة الموحدين نتيجة لسياساتها العدائيَّة تجاه قبائل زناته، إذْ اضطرت بطون كثيرة منها كقبيلة "مغراوة" و"بني يفرن" إلى الهجرة نحو أماكن بعيدة عن تسلُّطِ الموحدين، خاصة بعد مقتل أميرهم "مسعود بن وانوديت المغراوي"، فكانت الصَّحراء ملجأهم حتى وصلوا ناحية "تكورارين"[6]، وهو ما أشار إليه "إبن خلدون" بقوله: «... **وسكن المناطق الأخرى من الصَّحراء قبائل زناته بقصور تيقورارين على عشرة**

=

القاهرة، ط.1، 1997م، ج.1، ص.268. **وينظر**، أبو عبيد الله محمد بن حماد: **أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم**، تح: التُّهامي نقره وعبد الحليم عويس، دار الصَّحوة، القاهرة، ط.1، 1988م، ص.83.

[1]– **بلكين بن زيري بن مناد:** لقب بأبي الفتوح وسيف الدَّولة، يرفع نسبه إلى "حمير"، وهو مؤسس الدَّولة الصَّنهاجيَّة، توفي (373هـ/983م). **ينظر**، خير الدِّين الزَّركلي: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط.15، 2002م، ج.2، ص.74.

[2]– شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب النَّويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2004م، ج.24، ص.93 .

[3]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.138.

[4]– **المعزّ بن باديس بن المنصور الصَّنهاجي:** من ملوك الدَّولة الصَّنهاجيَّة بإفريقيَّة، ولد بالمنصوريَّة سنة (398هـ/1007م)، وُليَّ بعد وفاة أبيه سنة (406هـ/1016م)، وأقرّه الحاكم الفاطمي، لُقب "شرف الدَّولة". قطع خلافته عن الفاطميين وجعلها للعباسيين سنة (440هـ/1048م)، وتوفي سنة (454هـ/1062م). **ينظر**، خير الدِّين الزَّركلي: المرجع السابق،ج.7، ص.269. **وينظر**، لسان الدين إبن الخطيب: **أعمال الأعلام**، تح: سيد كسروي حسين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2003م، ج.2، ص.323 – 324.

[5]– علي بن أبي الكرم إبن الأثير: **الكامل في التَّاريخ**، مرا: محمد يوسف الدَّقاق، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 1987م، ج.8، ص.221.

[6]– عبد الله مقلاتي ومحفوظ رموم: دور **منطقة توات الجزائريَّة في نشر الإسلام والثَّقافة العربيَّة بإفريقيا الغربيَّة**، الشُّروق للإعلام والنَّشر، الجزائر، ط.1، 2009م، ص.30.

مراحل من تلمسان وتنتهي إلى ثلاثمائة أو أكثر في واد واحد، وفي الجنوب الغربي منها قصور توات، وبعدها تمنطيط».[1]

2 – 2 – العرب:

إلى جانب البربر من زناته كان لبعض القبائل العربيَّة حضورها في المجال الواحاتي والذي أكَّدته بحدِّ السَّيف أمام جلدة زناته، والمعلوم أنَّ التَّواجد العربي ببلاد المغرب برزَ مع حركة الفتوحات الإسلاميَّة، غير أنَّ بلاد المغرب لم تكن للعرب موطناً أيام الفتح، ولم يكن ذلك لهم إلَّا في أواسط المائة الخامسة، عندما دخلت العرب أرض إفريقيَّة واستوطنتها بحُللها وخيامها، وهذا ما يؤكده صاحب الاستقصا «... اعلم أنَّ أرض إفريقيَّة والمغرب لم تكن للعرب بوطن... ولم تكن العرب تسكن المغرب ولا استوطنوه بإحيائهم وحُللهم ولم تكن للخيمة بأرض المغرب وجود».[2]

وكما هو معلوم في حركة التَّاريخ الإنساني أنَّ هجرات الشُّعوب تحدث إمَّا جراء وضعٍ سياسيٍ كالحروب والفتن وما ينجرُّ عنها من عدم استقرار، أو معيشية طاردة أو جاذبة وهجرة القبائل العربية نحو المغرب جمعت الأسباب السِّياسيَّة والاقتصادية معاً فالظُّروف المعيشيَّة لتلك القبائل كانت صعبة نتيجة الجفاف والقحط وشظف العيش أمَّا السِّياسيَّة فقد وجدها الخليفة الفاطمي أنَّها الفرصة المواتية للخلاص من تلك القبائل التي عاثت في الأرض فساداً ولتأديب الصَّنهاجيين الخارجين عن طاعة الفاطميين[3] وجاء هذا بعد قطع الأمير الزِّيري "المعزّ بن باديس" علاقاته مع الفاطميين بمصر

---

[1]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.134.

[2]– أبو العباس أحمد بن خالد النَّاصري: المرجع السَّابق، ج.2، ص.145. **وينظر**، غرايسة:_**المدينة الدَّولة**، ص.33.

[3]– بوزياني الدَّراجي: «**بنو هلال وأحلافهم المنشأ والهجرة والاستقرار**»، المجلة الخلدونيَّة، ع.9، **(ع.خ)**، تصدر عن الجمعيَّة الخلدونيَّة للأبحاث والدِّراسات التَّاريخيَّة، بسكرة – الجزائر، جانفي2011م، ص.27.

وإقراره بالخلافة العباسية السُنيَّة، وما تبعها من تحوُّل من المذهب الشِّيعي الإسماعيلي إلى المذهب المالكي.[1]

وهو الأمر الذي أثار غضب الخليفة الفاطمي المستنصر[2] لذا عمل على السَّماح لتلك القبائل بالعبور إلى الضِّفة الغربيَّة من النِّيل والانتقال إلى بلاد المغرب التي قَدَّمها الفاطميون لبني هلال وسليم إقطاعاً. ولأنَّ من طبيعة هاته القبائل التَّمرّد والفوضى والسَّلب والنَّهب، فكان الأجدر والأوفق أنْ يرمي بهم الفاطميون من مملكتهم إلى مملكة خصومهم بالمغرب حيث سلطان بني زيري[3]، وهذا ما نستشفه من الرِّسالة التي بعثها "اليازوري" وزير الخليفة الفاطمي إلى "المعزِّ بن باديس"، قائلاً: «... **لقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا، وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا**».[4]

أمَّا عن بداية تواجد العرب في مجالات الواحات، فقد كان في القرن (7هـ/13م)، وكانت قبائل "بنو المعقل" من أوفر القبائل العربيَّة نصيباً، وكان دخولهم إلى بلاد المغرب الإسلامي مع "بني هلال" في عددٍ قليل لا يتجاوز المائتين بحسب أحد المصادر، الذي أخبر بذلك قائلاً: «... **وقد تحيَّز المعقل منذ أمد قديم إلى الهلاليين ودخلوا معهم إلى المغرب في عدد دون المائتين وأصبحت بذلك المعقل في الفيافي**

---

[1]– راضي دعفوس: «**الصِّراع المذهبي في إفريقيَّة في منتصف القرن الخامس/الحادي عشر وانتصار المالكيَّة**»، دراسات في التَّاريخ العربي الإسلامي الوسيط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2005م، ص.273 – 278.

[2]– **المستنصر بالله الفاطمي:** أبو تميم معدّ المستنصر بالله، ثامن الخلفاء الفاطميين، تولى أمر الحكم بعد أبيه وهو دون السّن الثَّامنة، كان عهده عهد قوة واتساع وازدهار للخلافة الفاطميَّة. توفي سنة (487هـ/1094م). **ينظر**: إبن خلكان: المصدر السابق، ج.5، ص.229 – 230. **وينظر**، يوسف بن تغري بردي: **النُّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثَّقافة والإرشاد، القاهرة، ط.1، 1963م، ج.5، ص.1 وما بعدها.

[3]– غلاب: المرجع السَّابق، ص.182.

[4]– تقي الدِّين أحمد بن علي المقريزي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تح: مُحمَّد حلمي مُحمَّد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط.2، 1996م، ج.2، ص.216. **وينظر**، إبن الأثير: المصدر السَّابق، ج.8، ص.295. **وينظر أيضاً**، النُّويري: المصدر السَّابق، ج.24، ص.117.

ناحية الجزائر». وبهذا أصبح "بنو المعقل" رقماً مهماً في معادلات التَّوازنات الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة.[1]

ويؤكد "مبارك الميلي" على اندماج "المعقل" مع غيرهم من «**أشجع وفزارة وبني سليم، ومن بني هلال أحياء مع المعقل أيضا من مسلم وسعيد والعمور وكرفة والمهابة وحصين**»[2]، وهو ما أكده وجود عدد من القبائل الهلالية بالمنطقة حيث كانت «**بطون رياح دائبة الحركة والتَّنقل من الجريد إلى القيروان إلى الزَّاب إلى لمسيلة إلى ورقلة**»؛ كما استقر "الذُّواودة" بمجالات "الزَّاب" و"ريغ" و"وارجلان" وما وراءها من القفار.[3]

كما واصل "بنو معقل" زحفهم نحو الجنوب وتوغلوا في المناطق الصَّحراويَّة وصاروا مجاورين للقبائل الزَّناتيَّة، وأصبحوا حلفائهم، كما تمكَّن "بنو المعقل" من التَّكيف مع البيئة الجديدة حيث تفاعلوا معها حتى نمت قوَّتهم وأصبحت لهم مكانة بين القبائل، وهو ما أكده "إبن خلدون": «**بأنَّهم أقاموا في القفار وتفرَّدوا في البيداء فنموا نمواً لا كفاءة له**».[4]

ولمَّا زحفت قبائل "زناته" من الصَّحراء وتمكَّنت من السَّيطرة على بلاد المغرب إثر تأسيس دول لهم في كل من "فاس"[5] و"تلمسان"[6]، استخلف "بنو المعقل" في الصَّحراء وملكوا ملكهم، حيث سيطروا على القصور التي شيَّدها الزَّناتيون كقصور

---

[1]– أبو العباس أحمد النَّاصري: المرجع السَّابق، ج.2، ص.159. **وينظر**، مصطفى أبو الضَّيف أحمد عمر: **القبائل العربيَّة_في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط.1، 1982م، ص.235. **وينظر**: غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.212.

[2]– الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المرجع السَّابق، ج.2، ص.193.

[3]– مصطفى أبو الضيف: المرجع السابق ،ص.212 – 213.

[4]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.77. **وينظر**، أبو العباس أحمد النَّاصري: المرجع السَّابق، ج.2، ص.159.

[5]– **فاس:** مدينة كبيرة على برِّ المغرب من بلاد البربر وهي حاضرة البحر وأجلُّ مدنه، وهي مدينتان مفترقتان مسوَّرتان "عدوة القرويين" و"عدوة الأندلسيين". **ينظر**، ياقوت الحموي: المصدر السَّابق، ج.4، ص.230.

[6]– **تلمسان:** قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناته. **ينظر**، ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج.2، ص.44.

"السُّوس" غرباً وقصور "توات" و"تيقورارين" و"تسابيت" شرقاً، وأصبحت لهم مكانة عالية بـِ"توات" خاصة وبالواحات عامة، إذْ سلكوا نهج من سبقوهم في الهيمنة على الواحات وفرض الإتاوات على القصور والسَّيطرة على المسالك التِّجاريَّة بين "سجلماسة" و"توات".[1]

وقد أشار إلى ذلك "إبن خلدون في قوله: «... فلمَّا ملكت زناته بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن قام هؤلاء المعقل في القفار وتفرّدوا في البيداء... وملكوا قصور الصَّحراء التي اختطتها زناته بالقفر مثل قصور السُّوس غرباً، ثُمَّ "توات" ثُمَّ "جوده" ثُمَّ "تامنطيت"، ثُمَّ "واركلان" ثُمَ "تسابيت" ثُمَّ "تيكورارين" شرقاً... فجاز عرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الإتاوات والضَّرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا».[2]

وتتفرع قبائل "بنو المعقل" إلى ثلاثة بطون في الصَّحراء، وهم: "ذوي منصور"، "ذوي عبيد الله"، و"ذوي حسان"، وكان "ذوي عبيد الله" مجاورون لـِ"بني عامر بن زغبة"، فمواطنهم ما بين "تلمسان" إلى "وجدة" إلى مَصبِّ "وادي ملويَّة"، وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور "توات" و"تمنطيت".[3]

واسْتُوْطِنَت "توات" قبائل عربية أخرى عبر مراحل زمنيَّة مختلفة، منهم: "أولاد مُحمَّد"، "الخنافسة"، "المحارزة" ، "أولاد طلحة"، "أولاد عيش"، "أولاد عمر"، "أولاد غانم"، "أولاد منصور"، "أولاد زنان".[4]

---

[1]– مُحمَّد أعفيف: **واحات توات عبر التاريخ**، ص.70.

[2]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.77 – 78.

[3]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.80.

[4]– عباس عبد الله: **الدّور الحضاري لإقليم توات وتأثيراته في بلاد السودان الغربي من القرنيين 9و10هـ/ 16.15م**،رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف : بشار قويدر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001/2000م، ص.55.

وعلى غرار حاضرتي "وارجلان" و"توات" فقد شَهدت حواضر الصَّحراء الأخرى حضوراً معتبرا للعنصر العربي بما فيها حاضرة "الزَّاب" التي كانت موطن لقبائل "بني رياح" من "بني هلال بن عامر"، حيث تغلبوا على أطراف "الزَّاب" من "وارجلان" وقصور "ريغ"، وصيَّروها سهاماً بينهم وانتزعوها للموحدين.[1]

وكان الجانب الغربي من "الزَّاب" وقاعدته "طولقة" "لأولاد مُحمَّد" و"أولاد سباع بن يحي"، أمَّا عن الجانب الأوسط فقد كانت قاعدته "بسكرة" "لأولاد مُحمَّد"، أمَّا الجانب الشَّرقي من "الزَّاب" وقاعدته "بادس" و"تنومة"، فهو "لأولاد نابت" رؤساء "كرفة".[2]

ويبدو لنا أنَّ الحضور العربي بحاضرة "الزَّاب" كان بشكل كبير، حيث أنَّ استقرار العنصر الهلالي بِـ"الزَّاب" نقل المنطقة من خصوصيتها المُتعدِّدة الأجناس إلى وسط عربي ريفي غلب عليه مفهوم القبيلة بمعناها التَّقليدي، كما أنَّ عملية تهجير القبائل البربريَّة أو إخضاعها بقوة السَّيف كان له الأثر في تَحوُّل منطقة "الزَّاب" من تركيبتها الاجتماعيَّة المحلِيَّة إلى تركيبة اجتماعيَّة مَشرقيَّة تتميز بالدَّور المحوري للقبيلة، في تنظيم النَّسيج الاجتماعي.[3]

ولم يقتصر الحضور الهلالي بِـ"الزَّاب" على تغيير التَّركيبة الاجتماعيَّة فحسب، بل شمل التَّحول أيضاً الطَّابع العمراني للمنطقة حيث نجح "بنو رياح" في إبراز تَحضُّرهم من خلال تشييد العديد من القصور كقصر "باينة"، وقصر "عثمان بن علي بن أحمد الرِّياحي"، و"قصبة طولقة"، و"قلاع ريغة" وقد وصف إبن الحاج النُّميري

---

[1]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.46.

[2]– ابن خلدون: **العبر**، المصدر السابق ، ج.6، ص.46 – 47.

[3]– عمارة علاوة: «**التَّحولات المجاليَّة والطُّبونيمية لبلاد الزَّاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثَّامن الهجري الرَّابع عشر الميلادي**»، مجلَّة تراث الزِّيبان، ع.1، جمعية تراث الأجيال، عين النَّاقة، بسكرة – الجزائر، 2016م، ص. 20.

(ت.774هـ/1346م) تلك القصور في رحلته المشهورة "فيض العباب"، كما نجح "بني مزني" أيضاً في تأسيس ملك لهم بقاعدة "الزَّاب" مدينة "بسكرة".[1]

2 – 3 – المولدون:

وهم خليط من الدِّماء العربية أو الدِّماء البربريَّة بالدِّماء الزِّنجيَّة نتيجة التَّزاوج بين السُّكان الأصليين أو العرب الوافدين بالزِّنجيَّات والموالي؛ وبطول الزَّمن وتعاقب الأجيال اندمجت جميع هذه الأجيال في بوتقة واحدة وأصبحوا يُشكِّلون مُجتمعاً واحداً.[2]

2 – 4 – اليهود:

إلى جانب البربر والعرب عرفت الحواضر الصَّحراويَّة تواجداً لباس به ومؤثراً للعنصر اليهودي، وإنْ كانت المصادر لا تُقدِّمُ لنا ما يوفي بالإحاطة بهم من حيث أسباب هجرتهم للمغرب وزمن وصولهم وأعدادهم، وغالبا ما تشير الدِّراسات بأنَّ وجودهم في بلاد المغرب كمهاجرين كان منذ العهد الرُّوماني[3]، حيث برزوا داخل المجتمع المغاربي وامتهنوا العديد من الأنشطة الاقتصاديَّة.[4]

بينما يرى آخرون أنَّ تواجد العناصر اليهوديَّة ببلاد المغرب كان على شكل دُفعات، وترجع دفعتهم الأولى إلى القرن(1م) وبالضَّبط إلى سنة (70م) بعد سقوط

---

[1]– إبن الحاج النميري: **فيض العبا ب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزَّاب**، تح: مُحمَّد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1990م، ص.414 – 435. **وينظر أيضاً: دولة بني مزني ببسكرة (1279 – 1402م)**، المجلة الخلدونيَّة، ع.**9**، **(ع.خ)**، المرجع السَّابق.

[2]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.25.

[3] – مسعود كواتي: **اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين**، دار هومه للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.1، 2009م، ص.23.

[4]– فاطمة بوعمامة: **اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السَّابع والثَّامن هجري الموافق لـ14 – 15ميلادي**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، **ط.1**، 2011م، ص.16. **وينظر أيضاً**، فوزي سعد الله: **يهود الجزائر هؤلاء_المجهولون**، دار الأمَّة للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.2، 2004م، ص.31 – 32.

"أورشليم"، أمَّا الثَّانية فجاءت بعد فشل ثورة اليهود على الرُّومان سنة (117م)، بالإضافة إلى توافد اليهود العراقيين والعرب في القرن (6 و 7م)[1]. وقد تركَّزت التَّجمعات اليهوديَّة بالشَّمال وتأثَّرت بالأحداث السِّياسيَّة حيث توغَّل عددٌ منهم في الصَّحراء بسبب الاضطهاد الدِّيني الذي تعرَّضوا له من طرف الرُّومان، فكانت حياتهم بالواحات أكثر استقرار، إذْ كانت الواحات أقرب وأفضل ملجأً للفارين من القمع الرُّوماني، وهناك احتموا بالقبائل البربريَّة المعادية للسلطة الرُّومانيَّة في منطقة جغرافيَّة شكَّلت تضاريسها الوعرة والقاسية درعاً وحصناً آمناً من الهجمات الرُّومانيَّة.[2]

ومِمَّا شجَّع اليهود على اللجوء إلى حواضر الصَّحراء هو وقوع تلك الحواضر على أهمِّ الخطوط التِّجاريَّة بين الشَّمال وبلاد السُّودان، والمعلوم أنَّ اليهود عُرِفوا بنشاطهم الاقتصادي والتِّجاري على مرِّ العصور، وأبرز نشاطٍ زاولوه دون انقطاع هو التِّجارة، حيث يرى أحد الباحثين بأنّها "**الدِّين الثاني لليهود**"، وعليه فقد كانت حواضر الصَّحراء منطقة استقطاب وجذب لليهود.[3]

فبحاضرة "وارجلان" أصبح اليهود جزءاً من الفسيفساء الاجتماعيَّة لها، حيث عُرفوا بكونهم أرباب مال حتى أصبحوا عنواناً له، في مثلِ ما ذكر الشَّيخ "مُحمَّد بن

---

[1]– محفوظ رموم: **توات الجغرافيا والمصطلح**، المرجع السَّابق، ص.91.

[2]– عبد القادر كركار: «**الرَّوابط الاقتصاديَّة بين ضفتي الصَّحراء الكبرى ودور اليهود في النَّشاط التِّجاري أواخر العصر الوسيط**»، مجلة الباحث في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مج.6، ع.**1**، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، قسم العلوم الإنسانيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي – الجزائر، جوان/2016م، ص.141. **وينظر أيضاً**، فوزي سعد الله: المرجع السابق، ص.32.

[3]– عبد الرَّحمان بشير: **اليهود في المغرب العربي**، منشورات عين للدِّراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، القاهرة، ط.1، 2001م. ص.45. **وينظر أيضاً**، فوزي سعد الله: المرجع السَّابق، ص.33.

مانوج"[1] الذي ردَّ على حسن حال غنمه بقوله: «**لا أحبُّ أن تكون مائة كما لا أحبُّ أنْ أكون يهوديا**».[2]

وفيما أشار إليه "أبو نوح سعيد بن زنغيل"[3] في جملة عرض انتقاده لأهل "وارجلان" على ما أظهروه من طائفيَّة «**طائفة يقولون حصيرنا وحصيركم، ويهودنا ويهودكم**»[4]، وهو ما يوحي بأنَّ اليهود كانوا يشكِّلون جزءاً مهماً من النَّسق والنَّسيج الاجتماعي، ويبدو أنَّه لم يكن هناك تعارض على وجودهم الاجتماعي وهذا ما نستشفه من بعض الآراء، حيث ورد في سؤال لأهل "وارجلان" عن «**مسألة يهودي اشترى جنانا في وادي أجلو... فقال لهم "يونس بن الشيخ المعزّ الهواري": خذوا عني الشُّفعة شفعة الإسلام، فسألوا "أبو مُحمَّد" عن ذلك، فقال: ذروا النَّاس يعيشون في بلدكم**».[5]

لقد أدى اليهود دوراً بارزاً في "وارجلان" حيث تضامنوا مع أهلها من الإباضيَّة في رفع الحصار الذي ضربه "عبيد الله الشِّيعي"[6] على المدينة، فقد تمكَّن أحد اليهود

---

[1]– **مُحمَّد بن مانوج:** هو أبو مُحمَّد عبد الله بن مانوج اللمّائي الهواري، رجلاً عالماً وفقيهاً ورعاً زاهداً ذا جدٍّ واجتهادٍ، وهو من الفقهاء السَّبعة المسمُّون بأهل الغار (غار أمجاج). **ينظر**، الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.769.

[2]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.410. **وينظر**، الوسياني: المصدر نفسه، ج.2، ص.770. **وينظر أيضاً**: غرايسة: **المدينة الدَّولة**، المرجع السَّابق، ص.35.

[3]– **أبو نوح سعيد بن زنغيل:** أحد أقطاب العلم عند الإباضيَّة، نشأ وسكن بالجريد بتونس، ثمَّ استوطن "وارجلان"، وقد برع في علوم الفصاحة والبيان وفنون الجدل والردِّ عن المخالفين، كانت له مناظرات مشهورة خصَّ بها علماء المعتزلة والنُّكَّار. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.176.

[4]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص.234.

[5]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.454.

[6] – **عبد الله الشِّيعي:** هو الحسن بن أحمد بن مُحمَّد بن زكريا من أهل صنعاء وقيل من أهل الكوفة، أخذ أسرار الدَّعوة عن "ابن حوشب" الذي أرسله إلى بلاد المغرب مع حجيج "كتامة" ليقوم بالدَّعوة لعبيد الله المهدي. توفي سنة(298هـ/910م). **ينظر** مُحمَّد بن القاسم (إبن أبي الدِّينار): **المؤنس في أخبار إفريقيَّة وتونس**، مطبعة الدَّولة التُّونسيَّة، تونس، ط.1، 1869م، ص.51. **وينظر أيضاً**،إسماعيل بن كثير:**البداية والنِّهاية**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 1986م، ج.11، ص.116.

المقيمين بـِ"وارجلان" أنْ يُفشل حصار "عبيد الله الشِّيعي" لأهلها[1]، وظلَّ اليهود قاطنين بـِ"وارجلان" وجزءاً من نسيجها الاجتماعي إلى غاية استلاء دولة الأشراف "أولاد علاهم" على "وارجلان" سنة(1040هـ/1630م) فطردوهم منها.[2]

كما عرفت حاضرة "توات" أيضاً إقبالاً كبيراً لطائفة اليهود حيث عرفت المنطقة ثلاث هجرات رئيسيَّة، انطلقت الأولى من ليبيا باتجاه "توات" في القرن الثَّاني للميلاد، والثَّانية كانت في القرن السَّادس الميلادي من الموصل، والأخيرة انطلقت في القرن السَّابع الميلادي من الأندلس لتصل إلى "توات" في القرن العاشر الميلادي[3]، فحاضرة "توات" كانت مقرًّا مهمًّا لجماعة من اليهود تميَّزت بوضع اقتصادي مُتميِّز، مكَّنهم من تشييد بعض القصور كقصر "تمنطيط".[4]

وكان لليهود دوراً بارزاً في التِّجارة بـِ"توات"، فتواجد الجاليات اليهوديَّة الغنيَّة والكبيرة بها جعلهم يحتكرون التِّجارة والصِّياغة وسكُّ النُّقود، فازداد ثراؤهم ونفوذهم في المنطقة وتحكَّموا في الرَّعيَّة وتسلطوا عليهم، وقاموا بتشييد بِيعة كبيرة وضخمة تشبيهاً بهيكل نبي الله "سليمان"عليه السلام، كما بنوا بيعاً أخرى في واحات "توات" الأخرى، ويبدو أنَّ نفوذ اليهود بـِ"توات" كان كبيراً، فالإمام "عبد الكريم المغيلي"[5] لمَّا حلَّ بتوات وجد اليهود

---

[1]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص.165. **وينظر أيضاً**، عبد الرَّحمان بشير: المرجع السَّابق، ص.45.

[2]– أعزام: المرجع السَّابق، ص.188.

[3]– محفوظ رموم: المرجع السَّابق، ص.91.

[4]– مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرِّباط، ط.1، 2014م، ص.66.

[5]– **مُحمَّد بن عبد الكريم المغيلي التِّلمساني:** إمامُ علامةٌ، مفسِّرٌ فقيهٌ، أخذ علمه عن الإمام "الثَّعالبي" والشَّيخ "يحي بن بدير" وله مراسلة مع السُّيوطي، اشتهر بمناوأته لليهود وهدم كنائسهم بتوات، رحل للسودان والتَّكرور، وله عِدَّة تآليف منها: "البدر المنير في علوم التَّفسير" و"مصباح الأرواح في أصول الفلاح". **ينظر**، أحمد بابا بن مُحمَّد التَّكروري التُّنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الدِّيباج**، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس، **ط.2**، 2000م، ص.576 – 578. **وينظر**، خير الدِّين الزَّركلي: المرجع السَّابق، **ج.6**، ص.216. **وينظر**، أبو

قد ضربوا بأذانهم في كلِّ شاردة وواردة من أمور حياة التُّواتيين، وتمرَّدوا على الكثير من الأحكام الشَّرعيَّة الإسلاميَّة، وهو الأمر الذي أثار غضبه عليهم ورأى في ذلك إسقاط لصفة الذِّمي عنهم، فأمر بهدم بِيَعِ وكنائس اليهود، وبدأ حواره مع علماء عصره بخصوص هذه المسألة، وعلى رأسهم قاضي[1] "توات" الشَّيخ "**أبو عبد الله العصنوني**[2]".

لقد كان "العصنوني" من أشدِّ المعارضين للشيخ "المغيلي" في مسألة هدم الكنائس فراسل بدوره علماء "فاس" و"تلمسان" و"تونس" لأخذ رأيهم في المسألة، فكانت آرائهم مُتباينة في ذلك، فوافق فقيه تلمسان "**أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري**"[3] رأي "العصنوني"، ورأى أنَّ هدم بيع اليهود لا يجوز على رأي المالكيَّة[4]، ووافقه في ذلك "إبن البركات" الذي ذكر أنَّ المنكر لا يُغيَّرُ بمنكر أكبر منه، لأنَّ ذلك قد يؤدي إلى ظهور الفتنة.

=

عبد الله مُحمَّد بن أحمد (إبن مريم) التِّلمساني: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبعة الثَّعالبيَّة، الجزائر، **ط.1**، 1908م، ص.253 – 256.

[1] – أحمد أبّا الصّافي جعفري: **من تاريخ توات أبحاث في التراث**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط.1، 2011م، ص.14.

[2]– **عبد الله بن أبي بكر بن عثمان بن أحمد العصنوني التِّلمساني:** فقيه وقاضي في إقليم "توات" قدم إليها سنة (826هـ/ 1423م) وسكن في "تمنطيط"، وكانت بينه وبين الشَّيخ "المغيلي" مناقشات منها نازلة اليهود. **ينظر**، أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيَّة والأندلس والمغرب**، اشْ: مُحمَّد حجي، وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة، الرِّباط، ط.1، 1981م، ج.2، ص.214 – 216.

[3]– **أبو العباس أحمد بن مُحمَّد بن زكري التِّلمساني:** عالم "تلمسان" ومفتيها، إمامٌ عالمٌ مُتفَنِنُ هُمام، فروعيٌّ وأصوليٌّ، أخذ عن أئمة زمانه، منهم: "إبن مرزوق الحفيد" و"قاسم العقباني"... ، له منازعات مع الشَّيخ "السُّنوسي" في مسائل العلم. ألَّف كتاب في مسائل "القضاء والفتيا" و"بغية الطَّالب في شرح عقيدة إبن الحاجب". توفي سنة (899هـ/1493م) . **ينظر**، مُحمَّد بن مُحمَّد مخلوف: **شجرة النُّور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة**، مطبعة السَّلفيَّة، القاهرة، ط.1، 1930م، ص.267. **وينظر أيضاً**، إبن مريم التِّلمساني: المصدر السَّابق، ص.38 – 41.

[4]– الونشريسي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.218. **وينظر**، عبد الرَّحمان بعثمان: **حملة المغيلي_على يهود توات وأثرها على الواقع الحِرفي في المنطقة**، مجلَّة النَّاصرية، مج.4، ع.1، تصدر عن مخبر البحوث الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، جامعة مصطفى ستامبولي، معسكر – الجزائر، جوان/2013م، ص.131.

في حين وافق رأي "المغيلي" كلٌ من الإمام "**مُحمَّد بن يوسف السنوسي**"[1] و"**أبو مهدي عيسى بن أحمد الماواسي**"[2] فقيه "فاس"، الذي رأى أنَّ منزلة "توات" وغيرها من قصور الصَّحراء كُلُّها ديار إسلام فلا ينبغي المسامحة بإقرار الكنائس فيها للكفار.[3]

وبوصول جواب العلماء للإمام "المغيلي" أمر جماعته وأنصاره بالاستعداد لهدم بِيَعِ اليهود فكانت بداية الثَّورة عليهم سنة (882هـ/1477م)، حيث هدم أنصار "المغيلي" بيع "تمنطيط" وقصدوا كنائسهم، وأمر "المغيلي" بقتل كُلِّ من عارضهم وجعل سبع مثاقيل لكلِّ من يقتل يهودياً، فهدموا جميع البِيَعِ الموجودة بـِ"توات" وطردوا اليهود من المنطقة.[4]

ومن "توات" انتشر اليهود بـِ"وادي ميزاب" الذي عَرف هو الآخر قدوم عائلات يهوديَّة هـــاجرت من "تمنطيط" بسبب خراب البِيعَةِ التي هدمها الإمام "المغيلي"، وقد انضم إليهم آخرون قَدموا من مختلف أقطار المغرب، فكانوا يسكنون بحيٍّ خاص بهم، وكانت لهم مَقبرة خاصة بهم، وقد اشتغل اليهود بـِ"ميزاب" بصياغة الحُليّ وصناعة الأواني المعدنيَّة، وكان لا يسمحُ لهم بممارسة التِّجارة في ميزاب[5]، لربُّما رأوا فيهم

---

[1] – **مُحمَّد بن يوسف بن عمر شعيب السَّنوسي:** من كبار علماء "تلمسان"، كان فاضلا صالحا انفرد في العقائد الكبرى و الوسطى والصغرى، ومن تآليفه شرحه الكبير على الحوفية المسمى "المقرَّب المستوفى كبير الجرم كثير العلم". توفي سنة (895هـ/1489م). **ينظر**، التُّنبكتي: المصدر السَّابق، ص.569 – 571. **وينظر**، إبن مريم التِّلمساني: المصدر السَّابق، ص.237 – 244.

[2] – **أبو مهدي عيسى بن أحمد بن مُحمَّد الماواسي الفاسي:** نشأ في بيت علم وأخذ العلوم عن شيوخ "فاس" و"تلمسان"، كالشَّيخ "الغمام أبي مُحمد عبد الله العبدولي"، وليّ خطة الفتوى بعد "القروي". توفي سنة (896هـ/1490م). ينظر، التُّنبكتي: المصدر نفسه، ص.299.

[3] – الونشريسي: المصدر السابق، ج.2، ص.225. **وينظر**، أحمد بابا التُّنبكتي: المصدر نفسه، ص.576.

[4] – التُّنبكتي: المصدر السابق، ص.577. **وينظر**، عبد الرَّحمان بعثمان: المرجع السابق، ص.132.

[5] – يوسف بن بكير الحاج سعيد: **تاريخ بني ميزاب**، ص.75.

منافس خطير لهم أو خوفاً من نفوذهم وتسلُّطهم على المنطقة مثلما وقع بِـ"توات"، كما مُنعوا من امتلاك الأراضي الفلاحيَّة وامتطاء الجواد واستعمال الآبار العموميَّة.

كما انتشر اليهود بِـ"وادي ريغ" لوقوعها ضمن شبكة الطُّرق التِّجاريَّة بين "بسكرة" و"وارجلان"، وكانت لهم علاقات اقتصاديَّة مع غيرهم من اليهود المجاورين لهم بالمنطقة، وعَرفت "تُكُرت" أيضاً حضوراً للطائفة اليهوديَّة، حيث أشار "الأغواطي" في رحلته إلى وجود جماعة من النَّاس يُسمون بالمجاهريَّة، وهم يقطنون حيًّا خاصاً بهم، وقد كانوا في القديم يهوداً ولكنهم أسلموا بعد تهديد السُّكان لهم، ومازالوا يتميَّزون بالملامح الخاصة باليهود، ومنازلهم مثل منازل اليهود تنبعث منها الرَّائحة الكريهة وهم لا يتزاوجون مع العرب إلاَّ نادراً ولهم ثروة هائلة، ونسائهم تظهرن في الأسواق مُحجَّبات ويتحدثن بالعبريَّة بينهن عندما يرغبن في إخفاء موضوع الحديث.[1]

وعرفت حاضرة "أسوف" أيضاً هجرات يهوديَّة منذ الفتح الإسلامي وذلك لما للمنطقة من أهميَّة تجاريَّة، فقد زاولوا نشاطهم الحرفي بها وذلك من خلال بعض الصِّناعات التي اشتهروا بها في كلِّ المُدن التي تواجدوا بها، وفرضوا وجودهم التِّجاري بالمنطقة، حيث لاتزال إلى اليوم بعض الأحياء خير شاهد على وجودهم الغابر كـ"رحبة اليهود" و"حيّ الملاح".[2]

وبما أنَّ اليهود عُرفوا بنشاطهم التِّجاري وارتكز وجودهم في المناطق التي تشهد حركة تجاريَّة دؤوبة، فلا نستبعد بأنْ يكون لهم تواجد بحاضرة "الزَّاب" بحكم وقوعها على الطُّرق المُفْضية للسُّودان الغربي، فهي من المحطات التِّجاريَّة المُهمَّة وإنْ كانت

[1]– الحاج بن الدِّين: **رحلة الأغواطي** ، تح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدُّوليَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، **(ط.خ)**، 2011م، ص.100.

[2]– عبد القادر كركار: المرجع السَّابق، ص.143.

المصادر لم تشر إلى ذلك إلَّا أنَّ وقوعها ضمن شبكة الطُّرق التِّجاريَّة دفعني إلى إسقاط مثل هذه الإشارات على حاضرة "الزَّاب".

2 – 5 – العبيد:

نظراً لوقوع حواضر الصَّحراء على الطُّرق المُفْضية لبلاد السُّودان فهي من أهم القواعد التِّجاريَّة الجنوبيَّة التي تربط المغرب الأوسط بالسُّودان الغربي، فلا بدَّ أن يكون لهذه الفئة تواجداً وحضوراً في المجتمع خاصة ونحن نعلم أنَّ العبيد كانوا من أهم السِّلع التي يستوردها المغرب عبر حواضر الصَّحراء، فـ"إبن سعيد" يصف "وارجلان" بأنَّها: «**بلاد نخل وعبيد ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط**»[1]، وقد عرفت "وارجلان" تَدفُّقاً للرقيق بمختلف أنواعه سواء الأبيض القادم من أوروبا أو الأسود القادم من الصَّحراء فـ"وارجلان" تُشكِّل النَّواة الأولى في تصدير العبيد فكان ينقل عبرها إلى باقي مدن المغرب الأوسط.[2]

وقد حفظت لنا المصادر حضوراً معتبراً لهذه الفئة منذ عهد الإمام "عبد الرَّحمان بن رستم" مؤسس الدَّولة الرُّستميَّة، فخلال الزِّيارة الثَّانية للوفد المشرقي للعاصمة "تيهرت" وجدوا الأمور قد تبدَّلت وأحوال المدينة قد حالت ... واتخذوا السُّور والعبيد والخدام قد كثرت.[3]

وعليه لا نستغرب من وجود هذه الفئة ضمن البُنية الاجتماعيَّة للواحات، ولقد شكَّلت هذه الفئة قاعدة الهرم الاجتماعي حيث كانت القاعدة التي تحكم التَّوزيع المهني

---

[1]– إبن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126.

[2]– مُحمَّد بن عربة وأحلام بوسالم: «**دور مدينة وارجلان في تجارة الرَّقيق ببلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**»، مجلَّة العبر للدِّراسات التَّاريخيَّة والأثريَّة في شمال إفريقيا، مج.4، ع.1، جامعة عبد الرَّحمان بن خلدون، تيارت – الجزائر، جانفي2021م، ص.93.

[3]– ابن الصَّغير المالكي: **أخبار الأئمة الرُّستميين**، تح و تع: محمَّد ناصر و إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1986م ص.31.

في الواحات هي "**استخدم ولا تخدم بنفسك**"[1]، ناهيك لما كان يقوم عليه المذهب الذي ينظم الحركة العامة لِـ"وارجلان" من كون بيع الرَّقيق وشراؤهم واستخدامهم جائز وما أُجيز بذات التَّوجه لمن بيده عبيد أنْ يستخدم عبيده النَّهار كله من طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، كلُّ هذا ساعد على اتساع دائرة العبيد بِـ"وارجلان" وتعدَّدت المجالات التي يشغلونها.[2]

ويبدو لنا أنَّ الحضور الكبير لهذه الفئة بِـ"وارجلان" جعل البعض يُرجعون سبب لون بشرة السُّكان لكثرة تسريِّهم بالجواري السُّود، فالرَّحالة "مارمول"(Marmol) يشير إلى أنْ سواد بشرة أهل "وارجلان" ليس بسبب حرارة الطَّقس وإنَّما لأنَّهم يُضجعون إلى فراشهم جواريهم السَّوداوات فتلد لهم أولاداً يُشبهون أمهاتهم.[3]

وعلى غرار حاضرة "وارجلان"، عرفت حواضر الصَّحراء الأخرى حضوراً معتبراً لهذه الفئة التي شكَّلت جزءاً من نسيجها الاجتماعي، فمدينة "تُكرت" التي تشكل قاعدة إقليم "أريغ" كانت تستورد سنويا خمسمائة عبداً، وينتشر العبيد في جميع قرى "أريغ"، كما كانت حاضرة "توات" أيضاً سوقاً رائجة لهذه التِّجارة، وتُعتبر المناطق الغربيَّة من السُّودان هي المورد الأساسي للعبيد المجلوبين إلى "توات" فتلك المناطق كانت تُستغلُّ لتوفير الرُّقيق، وأهمُّ فئات رقيق السُّودان هم التُّكرور السِّنيغاليون، والصُّونكي الغانيون والصُّونغاي من "جاو"[4]، هذا وقد أشار "إبن بطوطة" إلى وجود ستمائة خادم في

---

[1]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.453.

[2]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.94.

[3]– مارمول كربخال: المصدر السَّابق، ج.3، ص.166.

[4]– أحمد الحمدي: «**تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصنف مجلوب السَّودان لأحمد بابا التُّنبكتي**»، مجلة الحضارة الإسلاميَّة، مج.15، ع.22، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والعلوم الإسلاميَّة، جامعة أحمد بن بلة، وهران – الجزائر، ماي/2014م، ص.438.

القافلة التي نقلته إلى "توات"[1]، لقد تواجد العبيد في مختلف المناطق وكانوا يقومون بالأشغال الشَّاقة كحفر الفقاقير والزِّراعة وخدمة البيوت وحراسة القصبات العسكريَّة.[2]

ولا نستبْعد في أنْ يكون لهذه الفئة تواجداً أيضاً بكلٍّ من حاضرتي "الزَّاب" و"أسوف" بحكم أنَّ العبيد كانوا من أهمِّ السِّلع التي يتم استيرادها من بلاد السُّودان، وكان أكثر تُجَّارها من هذه الحواضر، فالأغواطي في معرض حديثه عن أهل "أسوف" أشار بأنَّ السُّكان جعلوا من تجارة العبيد حرفة حيث يذهبون إلى السُّودان مع تجَّار "غدامس" بهدف جلب العبيد.[3]

وأشار أيضاً بعض الرَّحالة الفرنسيين الذين زاروا المنطقة إلى ممارسة أهل "أسوف" تجارة العبيد، حيث ذكر "روجي ليزال"(Rogee Lizale) بعض القبائل التي اختصَّت بهذه التِّجارة وعلى رأسهم الرَّبايع والشَّعانبة، فهم مُختصُّون فيها سواء كانوا يعملون لحسابهم الخاص، أو عملاء عبور لصالح بعض السُّوافة الأثرياء، ولضمان الرِّبح الوفير كان لزاماً على القوافل أنْ تضمن السِّلع ذهاباً وإياباً، وأورد "ليزال" تفاصيل حول رحلة تجارة العبيد ذهاباً وإياباً؛ أمَّا عن مجالات استخدام العبيد فذكر أنَّ الرِّجال السُّود اختصوا بالأشغال الأكثر تعباً وإنهاكاً منها رُعاة عند البدو، وُبسْتانيون وفلاحون يعتنون بالنَّخيل عند الحضر، أمَّا النِّساء فاختصوا بالأشغال المنزليَّة والاعتناء بالبيوت وحضانة الأطفال.[4]

---

[1]– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص712.

[2]– عبد الله مقلاتي و محفوظ رموم: المرجع السَّابق، ص.35.

[3]– الحاج بن الدِّين: **رحلة الأغواطي**، ص.96.

[4]– روجي ليزال: **السود في سوف**، تر: عبد القادر ميهي، (د م ن)، (د ط)،(د س ن)، ص 20.

2 – 6 – الحرّاطين:

يرى البعض أنَّ كلمة الحرّاطين جاءت من كلمة حُرٌ ثاني، والبعض يرى أنَّها جاءت من كلمة (أحرَّضان) البربريَّة وتعني الأسمر أو الهجين، وهم من العبيد الذين تمَّ تحريرهم اشتغلوا في مختلف الحرف، كما كانوا يشتغلون في الزِّراعة (كخمَّاسين[1]).

ولمَّا كان اهتمام غالبية سُكَّان الحواضر الصَّحراويَّة بالتِّجارة، فلابدَّ وأنْ يكونوا قد تركوا الأعمال الشَّاقة المتعلقة بحفر الآبار وتنظيف العيون وزراعة البساتين، وبعض الأعمال الحرفيَّة التي تأبى الطَّبقات الاجتماعيَّة القيام بها كالدِّباغة وبناء المنازل بيد هؤلاء، ويرى أحد الباحثين بأنَّ هؤلاء العبيد المملوكين لم يتلقوا ما يُقابل جُهدهم ويُحسِّن وضعهم فهم يعملون دون أنْ يملكوا شيء، وهذا ما أظهر أفراد هذه الفئة بصورة أكثر سلبيَّة تُعبِّر عن وضع اجتماعي يوحي بحالة من اللاتوازن واللااستقرار على مستوى البنية الاجتماعيَّة[2]، وهناك جانب كبير من الصَّواب فيما ذهب إليه الباحث إذا نظرنا إلى حال "وارجلان" التي عُرف عن أهلها أنَّ الواحد منهم «يطلق عبيده فلا يعُولهم ولا يمُونهم ولا يكْفيهم طلب معاشهم، فينطلقون في أموال النَّاس على غير رضى أصحاب الأموال وعلى غير إذْنهم فيكاد أحدهم يكون سارقاً

---

[1]– **الخماسين:** مفردها "خماس"، مشتقة من اللفظة العربية "الخمس"، وهو عبارة على عقد يبرم بين العامل وصاحب الملك (صاحب الغابة)، يتعهد العامل بموجبه أن يعتني بكل غابة النَّخيل أو جزء منها توكل له عملية تذكيره وتنظيفه والسَّهر على سقيه وحمايته، حتى ينقضي الأجل المبرم بينهما، على أن يتحصل العامل على "خمس 5/1" المنتوج. **انظر**:. R. Montagne: «**Etude du contrat de Khamessat**», mémoire du Cheam, paris, 1938, p.16. **وينظر أيضاً:** مبارك جعفري: «**جوانب من الحياة الاجتماعيَّة في منطقة** توات من خلال المصادر المحليَّة»، أعمال الملتقى_الوطني حول: الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في الجنوب الجزائري خلال القرنين(13/12هـ – 19/18م) من خلال المصادر المحليَّة، كلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، المركز الجامعي بالوادي، مطبعة منصور، 2012م. ص.124.

[2]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.94.

وهو في المحراب جالسا»، وكان هذا الأمر من جملة الانتقادات التي وجهها الشَّيخ "أبو نوح سعيد بن زنغيل" لأهل و"ارجلان".[1]

ولقد شغلت وضعية العبيد بعض علماء "توات" أيضاً حيث شهَّرَ بعض علمائها بالتَّجاوزات التي تحدث في معاملتهم، أمَّا بخصوص وضعهم القانوني فقد عُولج بصفة محدودة نسبياً، كإشكال فقهي من طرف بعض المُفتيين لكون التَّابع لا حكم له لاسيما من جعل الشَّرع زمامه بيد غيره، ويرى بعض الباحثين أنَّ النَّظرة الإزدرائيَّة تجاه العبيد قد تجلَّت في اختلاف فقهاء القرن الثَّامن الهجري بشأن التعارض القائم بين التَّعاليم الشَّرعيَّة وبعض الممارسات الاجتماعيَّة، كظاهرة الخمَّاسة ووضعية الخمَّاس هل هو أجير أمْ مشارك؟ فالبعض يرى ضرورة إزالة الغَرَر بتحديد أجر للفلاح، في حين استسلم البعض لضغوط الواقع الاجتماعي ورخَّص الممارسات العُرفيَّة.[2]

ولقد وبرزت بعض المحاولات الفرديَّة لبعض الفقهاء لتحسين أوضاع العبيد الاجتماعيَّة، مثل محاولة "**الفقيه مُحمَّد بن إسماعيل المسناوي الجراري**" الذي أعتق عبيده ووزَّع عليهم ماله[3]، وكذلك الفقيه "**أبو عبد الله مُحمَّد بن مُحمَّد بن علي بن موسى**" المدعو "عريـــان الرَّأس"، الذي كان من عباد الله الصالحين «**... اشترى كثيراً من المماليك وأعتقهم لوجه الله تعالى**».[4]

وممَّا سبق عرضه يتضح لنا أنَّ الواحات عرفت توافد أمواج من الهجرات عبر مختلف العصور وإنْ كان توافد واستقرار تلك الهجرات ارتبط في الأساس بالأوضاع السِّياسيَّة التي شهدها المغرب آنذاك، فكلَّما عرفت مناطق الشَّمال اضطراباً ازدادت

[1]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.154. **وينظر أيضاً**، أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص.234.

[2]– أحمد الحمدي: المرجع السَّابق، ص.441.

[3]– مُحمَّد حجِّي: **الحركة الفكريَّة بالمغرب في عهد السَّعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، مطبعة فضالة، ط.1، 1978م، ج.2، ص.630.

[4]– عبد الرَّحمان السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.52 – 55 .

الهجرة نحو الصَّحراء، حيث أنَّ موقعها الجغرافي المُنعزل وبُعدها عن مراكز السُّلطة وظُلم الحُكَّام ناهيك عن ازدهارها الاقتصادي جعل منها قبلةُ وملجأً عزيزاً للفارين سواء من أدعياء الملك أو ممن أدْبرت عنهم مقاليد الحكم، أو للباحثين عن قاعدة اقتصاديَّة وبشريَّة لإقامة سلطة تنطلق من الواحات، ولقد حفظت لنا المصادر أخبار لبعض من كانت الصَّحراء ملجأً لهم، أمثال: الإمام الرُّستمي "أبو يعقوب بن أفلح" (ت.310هـ/922م) الذي لجأ إلى "وارجلان" بعد زوال حكمهم وسقوط عاصمتهم "تيهرت" على يد "عبيد الله الشِّيعي".

كما لجأ إليها أيضاً الثَّائر على الفاطميين "أبا يزيد مُخلد بن كيداد"[1]، كما اتخذ عدد من أمراء زناته من "توات" و"قورارة" منفى اختيارياً ريثما تستقيم أحوالهم من جديد، فقد لجأ إليها السُّلطان "أبو حمُّو الزَّياني" حين طرده المرينيون من "تلمسان" سنة 1357م.[2]

وأيّاً كانت دوافع تلك الهجرات نحو الصَّحراء فإنَّ تواجد واستقرار البعض بها واتخاذها موطن لهم، أدى مع مرور الزَّمن إلى تشكُّل تنوع إثني بالمنطقة، نتج عنه ثراءً ثقافياً وعمرانياً مزدهراً.

---

[1]– **أبو يزيد مخلد بن كيداد:** من قبيلة زناته ولد سنة (270هـ/883م) بكوكو من بلاد السَّودان وهو من أبناء الجريد، لقب بصاحب الحمار قاد ثورة ضدَّ الفاطميين في عهد الخليفة "القائم بأمر الله" وانتهت على عهد "المنصور الفاطمي"، وكانت من أشدِّ الثَّورات التي هدَّدت تواجد الفاطميين. توفي سنة (336هـ/947م). **ينظر**، إبن خلدون: **العبر**، ج.7، المصدر السَّابق، ص.18 – 23.

[2]– إبن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.179. **وينظر**، مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات**، ص.71.

ثانيا– المنظومات المؤطِّرة للحواضر الصَّحراويَّة المغرب أوسطيَّة:

1)– المنظومة السِّياسيَّة بين التَّبعيَّة والاستقلال:

مِنَ الصُّعوبة بمكان البحث في المنظومة السِّياسيَّة المؤطِّرة لحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، فالباحث يجد نفسه وكأنَّه يتحدث عن جزءٍ منفصل عن المغرب الأوسط أو عن كيان مستقل بذاته، فجُلُّ المصادر التي أرَّخت لتاريخ حواضر الصَّحراء لا نجدها تتحدث عن الحضور السِّياسي إلَّا في إشارات عابرة لا تُمكِّننا من رسم المشهد السِّياسي للحواضر، ولعلَ هذا راجع بالأساس إلى الموقع الجغرافي لتلك الحواضر الذي صَعَّبَ من مهام السُّلطة ومتابعتها، ناهيك عن حالة عدم الاستقرار التي عرفتها الكيانات السِّياسيَّة التي ظهرت بالمغرب الأوسط من نُشوب حروب وفتن كانت من أولويات السُّلطة القضاء عليها، وعليه فقد عرفت الحواضر الصَّحراويَّة نوعاً من الاستقلال الذَّاتي جعل منها قادرة على تسيير شؤون نفسها بنفسها، وكان ارتباطها بالسُّلطة السِّياسيَّة ارتباطاً إسمياً، ولنا أنْ نلاحظ ذلك مع أولى الكيانات التي ظهرت بالمغرب الأوسط والمتمثِّلة في الدَّولة الرُّستميَّة (160هـ/296هـ – 908/776م) التي بلغت حدودها حتى شمال الصَّحراء، وكانت "وارجلان" تحت جناحها – الدَّولة الرُّستميَّة[1]–، غير أنّ نفوذ "بني رستم" على هذه الحاضرة الصَّحراويَّة كان إسمياً، ولعل ما ساعد في إيجاد هذا الشَّكل من العلاقات هو التَّخلي الرَّسمي عن مبدأ المركزيَّة في

[1]– عبد الكريم يوسف جودت: **العلاقات الخارجيَّة للدولة الرُّستميَّة**، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، ط.1، 1984م. ص. 58 – 59.

الحكم الذي تبناه "بنو رستم" إلى غاية عهد الإمام "أفلح"[1] (208هـ/258هـ – 871/823م).[2]

وهو ما يؤكده المُؤرخ "علي يحي معمر" على اعتبار أنَّ نفوذ الدَّولة الرُّستميَّة على "وارجلان" كان «نفوذا إسمياً لا يتعدى إقامة حدود الله على من يخرج عنه... أمَّا غير ذلك فقد كانت تُترك لأهل البلاد أنْ يعيشوا كما يحلُو لهم، فهم أحرار في معاملاتهم وتجارتهم وجميع أعمالهم».[3]

وإنْ سلَّمنا باستقلاليَّة "وارجلان" وتبعيتها الاسميَّة للدولة الرُّستميَّة، فإنَّ التَّساؤل يبقى قائماً بخصوص مُتزعم هذه البلاد وكيفيَّة إدارة شؤونها في ظلِّ هذه الاستقلاليَّة؟

يبدو أنَّ "وارجلان" كانت تعيش حالة من الهدوء والسَّلام طيلة فترة حكم الدَّولة الرُّستميَّة، وكلُّ ما يربطها بها من علاقة هو اعترافها بالتَّبعيَّة لها وإقامة الحدود وإصدار الأحكام باسمها.[4]

وهذا الواقع يوحي بوجود سلطة خاصة قائمة بـِ"وارجلان" قد تكون محلَّ قبول اجتماعي، وتشير الرِّوايات التَّاريخيَّة بأنَّ "عبيد الله المهدي" لمَّا اجتاز "وارجلان" وهو في طريقه نحو "سجلماسة"[5] وجه سؤال أراد من خلاله التَّعرف على شيخ "وارجلان.[6]

---

[1]– **الإمام أفلح بن عبد الوهاب:** ثالث الأئمّة الرُّستميين حكم بويع بالإمامة سنة (208هـ/823م)، كان من أكبر علماء زمانه وانفرد بآراء في علم الكلام. بلغت الدَّولة في عهده أوجَّ ازدهارها. توفي سنة (258هـ/871م). **ينظر**، محمد بن موسى بابا عمّي: المرجع السابق ج.2، ص.60.

[2]– محمود إسماعيل عبد الرَّازق : **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرَّابع الهجري**، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.2، 1985م، ص.168.

[3]– علي يحي معمر: **الإباضيَّة في موكب التَّاريخ**، ج.2، ص.395.

[4]– علي يحي معمر: المرجع نفسه، ج.2، ص.394 – 395.

[5] – **سجلماسة:** مدينة بجنوبي المغرب، بُنيت سنة(140هـ/757م) وأهلها أغني النَّاس وأكثرهم مالا لأنّها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذَّهب الذي اشتهرت سجلماسة في التجار به. **ينظر**، الحموي: المصدر السابق،ج.3، ص.192.

[6]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.58. **وينظر**، أبو زكرياء: المصدر السَّابق، ص.160.

ونزول الإمام "يعقوب بن أفلح" بحاضرة "وارجلان" يؤكد لنا أمرين في غاية الأهميَّة، **أولهما:** أنَّ "وارجلان" كان يدير شؤونها المشايخ، حيث أستقبل آخر الأئمة الرُّستميين من قبل "أبو صالح جنون بن يمريان" الموصوف بشيخ المدينة، أمَّا الأمر **الثَّاني:** فيتمثل في عرض أهل "وارجلان" على الإمام "يعقوب بن أفلح" أنْ يولوه على أنفسهم فرفض وقال: «لا يستتر الجمل بالغنم»[1]؛ وهو ما يؤكد لنا عدم خضوع "وارجلان" لأيِّ سلطة.

ويبدو أنَّه كان لسلطان هؤلاء المشايخ أثر وحضور كبير خاصة في الجانب الاجتماعي، وهذا ما نستشفه من بعض الإشارات التي ورد ذكرها في بعض كتب السِّير التي تدلُّ على عمق هذا الحضور، ومن ذلك أنَّ الإمام "يعقوب" لمَّا حل بـِ"وارجلان" كان معه ابنتاه وابنة أخيه قد مَنعهنَّ من التَّزويج، ثمَّ إنَّ جماعة من مشيخة "وارجلان" اجتمعوا ودعوه إلى انكاحهما ولا يعطِّلهما فقال: «إذا رغبتم في هذا ورأيتموه صلاحاً فأنا لا أصاهر إلَّا رجلين فاضلين أحدهما من أهل الدِّين والأخر من أهل الدُّنيا ويكونان على اختياري»[2]. كما وردت إشارة أخرى عند "الوسياني" تؤكد حضور المشايخ مفادها أنَّ: الشَّيخ ماكسن بن الخير بن مُحمَّد الجرمي الوسياني اليفرني[3](ت.491هـ/1097م) أراد الانتقال من "وارجلان" إلى "أريغ" فمنعه الشَّيخ "عيسى بن أبي الحجاج" وقال له: «اعلم أنَّه لا يصحُّ لك الانتقال عن "وارجلان" حتى أموت... فلا آذن لك في المسير فوافقه».[4]

---

[1]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.105. **وينظر**، أبو زكرياء: المصدر نفسه، ص.179.

[2]– الدرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.104.

[3]– **هو** عالم أصولي ولد بالقيروان، تخرَّج يده أفذاذ العلماء مثل "أبو مُحمَّد عبد الله العاصمي". توفي بوارجلان وله مقام يزار، ترك كتباً في الفقه والسِّير. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.352.

[4]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.432.

ومن خلال تلك الإشارات التي وقفنا عليها بدا لنا مدى قدرة "وارجلان" على تسيير شؤونها، وهذا من خلال ما توافر لها من مشايخ، ولعلَّ أبرز ملمح يؤكد لنا حقيقة استقلالها هو ظهور "مجلس العزَّابة" الذي كان بحقٍّ عنواناً للاستقلاليَّة. إنَّ أهم عنوان لعدم خضوع "وارجلان" لأيِّ سلطان أنَّ أهلها لم يكونوا يؤدون على أملاكهم وديارهم وأنفسهم أيَّ ضريبة للدولة، وكما هو معلوم أنَّ الضَّريبة في غالب الأحيان تُمثِّل رمزاً وعنواناً للتبعيَّة والخضوع[1]، فـ"وارجلان" كانت تُسيِّر نفسها بنفسها من خلال "مجلس العزابة"، فماهي حقيقة هذا المجلس؟ وماهي ظروف نشأته؟ وماهي حدود سلطته أو صلاحيته؟

1 – 1 – نظام العزَّابة:

1 – 1 – 1 – مفهوم العزَّابة: يقصد بالعزَّابة لغة الغربة والبُعد، وعزَّبهُ أيّ أبعده، كما تعني العَزَب من لا أهل له، فيقال رجل أعزب أي لا أهل له.[2]

- **أمَّا اصطلاحا:** يُقصد بها خدمة الإسلام والمصلحة العامة والبُعد النِّسبي عن زينة الحياة لا سيما التَّفاني وراء جمع المادة، ثمَّ الالتزام الكليُّ بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.[3]

ويُعرِّفها الدِّرجيني: بأنَّها لقبٌ لكلِّ من لازم الطَّريق وطلب العلم وسِيرِ أهل الخير وحافظ عليها وعمل بها، فإنَّ حسن جميع هذه الصِّفات سمّي عَزَّابياً.[4]

1 – 1 – 2 – ظروف ظهور نظام العزابة:

---

[1]– أعزام: المرجع السَّابق، ص.104.

[2]– جمال الدِّين ابن منظور: **لسان العرب**، الحرف: عين، مادة: عزب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط.1، 1979م. مج.4، ج.33، ص.2923.

[3]– فرحات الجعبيري:«**حقيقة نظام العزابة**»، **مجلَّة التَّواصل**، مجلَّة فكريَّة ثقافية دوريَّة جامعة، ع.4، جانفي2016م، ص.15.

[4]– الدّرجيني: المصدر السابق: ج.1، ص.3.

بسقوط الدَّولة الرُّستميَّة نهاية القرن (3هـ/9م) يكون قدْ تحقَّق وفقاً لمبادئ الفكر الإباضي انجلاء إمامة الظُّهور، والتَّحوُّلِ عنها لما يُعرف بمرحلة السِّرِّ والكتمان والتي ارتبطت بها النَّشأة الأولى للعزَّابة، ويَذكر في هذا الشَّأن المؤرخ "عمرو خليفة النَّامي" بأنَّ مرحلة السِّرِّيَّة التي عرفها إباضية شمال إفريقيا عقب معركة "باغايا" (358هـ/968م) قد أدَّت إلى إنشاء نظام العزَّابة المشابه لما كان عليه عمل شيوخ أهل "البصرة" زمن "جابر بن أبي زيد" و"أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة"، وفي بادئ الأمر كان على شكل حلقة ثُمَّ تطوَّر ليصبح نظاماً اجتماعياً يهتم بالشُّؤون الاجتماعيَّة إذْ سنَّ قوانينه "أبو عمار عبد الكافي" (ت.570هـ/ 1174م).[1]

أمَّا عن ظهوره الفعلي فيرى "أبو عمار الكافي" أنَّه ظهر في القرن (5هـ/11م) حيث يقول في هذا الشأن: «ومن هنا الخمسون الأولى من المائة 5هـ ابتداء العزَّابة، والعزَّابة هم جماعة ينتخبون من أهل الورع والصَّلاح والتَّفقّه في الدِّين والأمانة والصِّدق يتولون الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر باليد واللسان، ويقومون بجميع الوظائف الدِّينيَّة والدُّنيويَّة في المجتمع الإباضي لحفظه ممَّا عسى أنْ يدخله من بدع لا تتماشى مع الدِّين الحنيف»[2].

وأوَّل من تصدى لهذا العمل هو العالم الإباضي الكبير "أبو عبد الله مُحمَّد بن أبي بكر الفرسطائي"[3] أواخر القرن الرَّابع الهجري، بعدما درس الأوضاع العُرفيَّة التي تحكم المجتمع الإباضي مستنداً في ذلك إلى تشريعات الإسلام، فوضع دستوراً عُرف "**بنظام العزَّابة**"، ويعدُّ من أقدم القوانين التي وضعت في المجتمعات الإسلاميَّة، وقد تمَّ

---

[1]– **دراسات عن الإباضيَّة**، تح: ميخائيل خوري، درا الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2001م، ص.284. **نقلاً عن:** غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.200.

[2]– فرحات الجعبيري: المرجع السابق، ص.15.

[3]– **مُحمَّد بن أبي بكر الفرسطائي:** أحد أقطاب الإباضيَّة بالمغرب ومن أبرز المُصلحين الدِّينيين والاجتماعيين، وُلد بمدينة "فرسطاء" بجبل نفوسة بليبيا سنة 345هـ/956م، اشتهر بتأسيسه لنظام حلقة العزَّابة. توفي سنة 440هـ/1049م وقبر بمقبرة آجلو. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.368 – 369.

تعديله من قبل عدد من العلماء من خلال إضافة بعض المواد وأطلق عليه "**سيرة العزَّابة**"؛ فالعزَّابة هيئة مُحدَّدة العدد تعمل وفقا لضوابط مُعيَّنة للإشراف الكامل على شؤون المجتمع (دينياً، اجتماعياً، سياسياً)، ويُمثِّل العزابة الإمام ويقومون بعمله في حالة غياب الدَّولة الإباضيَّة، وللانضمام إلى حلقة العزَّابة وجب توفُّر شروط مُحدَّدة.[1]

1 – 2 – هيئة العزابة ووظائفهم: يتراوح عدد أعضاء الهيئة ما بين اثني عشر وأربعة عشر عضواً.

1 – 2 – 1 – شيخ العزابة: ويكون أكثر علماً وذكاء وأقدرهم على حل المشاكل الاجتماعيَّة، يتولى الإرشاد والتَّوجيه ويُبلِّغ القرارات التي اتخذتها هيئة العزَّابيَّة إلى العامة، وينظر إلى الشَّيخ بأنَّه صاحب الشَّرعيَّة، فهو لا يصل لهذا المنصب إلَّا عن طريق الانتخاب، ويُساعد الشَّيخ مجموعة تعرف بأهل الحلِّ والعقد ويتمُّ اختيارهم من جميع العشائر ويتحرى في اختيارهم (أعْلمُ وأصْلحُ وأوْرعُ).[2]

1 – 2 – 2 – المؤذن: يقوم بالآذان وضبط أوقات الصَّلاة.

1 – 2 – 3 – الإمام: يؤم بالمسلمين في الصَّلوات الخمسة ويلقي عليهم خطبة الجمعة، وفي أغلب الحالات يكون نائبا لشيخ العزَّابة.[3]

1 – 2 – 4 – وكيلان لأوقاف المسجد: مسؤولان عن أوقاف المسجد والمقابر ويسعيان لجلب المنفعة وصيانة أوقاف المسجد ودفع كلِّ ما من شأنه أنْ يضرَّ بمصالح المسجد.

---

[1]– أحمد إلياس حسين: **الإباضيَّة في المغرب العربي**، مكتبة الظَّاهري للنشر والتَّوزيع، عَمَّان، ط.1، 1992م، ص.51 – 52.

[2]– بكير بن سعيد أعوشب: **وادي ميزاب**، ص.105. **وينظر أيضاً**، أعزام: المرجع السَّابق، ص.251.

[3]– بكير بن سعيد أعوشب: **وادي ميزاب**، ص.105.

1 – 2 – 5 – المعلمون: يتراوح عددهم بين ثلاثة وخمسة أعضاء، وهم مسؤولون على نظام المسجد وعن شؤون المحاضر القرآنيَّة نظاما وتربيةً.

1 – 2 – 6 – المسؤولون الاجتماعيون: أشخاص يقومون بتغسيل الموتى والإشراف على مراقبة وصاياهم وتقييم تركاتهم بحسب أحكام الإسلام.

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ أعضاء هيئة العزَّابة كانوا لا يتلقون أيَّ مقابل مادي عن عملهم، وفي اعتقادهم أنَّ هذا الأمر فرضٌ يُوجبه عليهم الواجب الدِّيني والاجتماعي والأخلاقي، فمجلس العزَّابة لو كـــان أعضـــاؤه يعملون بأجرة لأصبح محلُّ أطماع الطَّامعين فيُقدم إليه غير الأكفـــاء وتصبح وظيفته محلَّ المنافسة من ذوي الأطماع الماديَّة فيدخل فيه من يضرُّ المجتمع ولا ينفعه.[1]

وكانت العزابة تتخذ من الجامع الكبير في كلِّ مدينة مقرًّا لها تُباشر فيه عملها، وهذا المقرُّ لا يجوز لعامة النَّاس الدُّخول فيه إلَّا في حالات خاصة مُستعجلة، كما وُجد أيضاً المجلس الدِّيني للنساء إذْ يُعدُّ هذا المجلس تكميلاً لمجلس العزَّابة يعالج القضايا الدِّينيَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة المتعلِّقة بحياة العنصر النِّسوي، ويضمُّ في عضويته نساء مسلمات مُصْلحات عاملات خبيرات بالمسائل النِّسويَّة ومشاكلها.[2]

إنَّ تطبيق نظام العزَّابة في صورته كمؤسسة أو هيئة لها أدوارها على جميع الأصعدة أدى لحفظ مجتمع له خصائص الدَّولة ماعدا الاسم، وساعد على تكوين مُجتمع متماسك ذو خصائص واضحة حافظ عليها، فنظام العزَّابة أصبح بعد التَّعديلات التي أدْخلت عليه وانتقاله من مُجرد حلقة إلى نظام مُتعدِّد المؤسسات والهيئات المجسَّدة لما يمكن اعتباره جهاز تنظيم العلاقات وإدارة مختلف الشُّؤون

[1]– بكير بن سعيد أعوشب: **وادي ميزاب**، ص.106.

[2]– أعزام: المرجع السَّابق، ص.104. **وينظر أيضاً**، بكير بن سعيد أعوشب: **وادي ميزاب**، ص.106.

السِّياسيَّة والاجتماعيَّة وما هو ذو صلة كذلك بالجوانب الاقتصاديَّة والثَّقافيَّة أظهرت هذا النِّظام **(كبديل عن الدَّولة)**.[1]

ومما تقدَّم يبدو لنا أنَّ نظام العزَّابة استطاع تسيير شؤون المجتمع الإباضي وتمكَّن من أنْ يحلَّ محلَّ السُّلطة السِّياسيَّة من خلال فرض سلطته على العامة، وهذا من خلال ورع واستقامة القائمين عليه وحرْصِهم الحثيث في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ هذا النِّظام لم يقتصر العمل به في "وارجلان" فحسب وإنَّما تمَّ تعميمه في جميع الحواضر التي لها نفس الانتماء المذهبي (ميزاب، أريغ، أسوف) فالهدف الأساسي من تأسيس هكذا نظام هو الحفاظ على المذهب الإباضي وجمع شمل منتسبيه بعدما اقتنع الإباضيَّة بأنْ لا قدرة لهم على تكوين إمامة الظُّهور، وهذا ما أكَّده آخر أئمتهم "يعقوب بن أفلح" وهو في طريقه لـِ"وارجلان" بعدما نظر إلى الطَّالع وأمر أتباعه بأنْ يفترقوا قائلا: «... افترقوا فقد انّقضت أيَّامكم وزال مُلككم فلا يعود إليكم إلى يوم القيامة»[2]، ولهذا حرص مؤسسه "**أبو عبد الله مُحمَد بن بكر الفرسطائي**" على نشره في جميع المناطق التي يتواجد بها الإباضيَّة، ولقد أشارت المصادر إلى تنقلاته رفقة طُلَّابه بين "أريغ" و"وارجلان" و"ميزاب".[3]

وإنْ استطاع نظام العزَّابة أنْ يؤطِّر المجتمع الإباضي ويمثِّل عنواناً لاستقلاليته[4]، فإنَّ حاضرة "الزَّاب" قد خضعت لسلطة بعض الأُسر كأسرة "بني رُمَّان"،

---

[1]– علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.2، ص.397. **وينظر أيضاً:** غرايسة: **المدينة الدولة** ، ص.62.

[2]– مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.193. **وينظر أيضاً**، عبد الله الباروني: **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، مطبعة الأزهار البارونية، (د م ط)، (د ط)، (د س ن)، ج.2، ص.294.

[3]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.183. **وينظر أيضاً**، أبو زكرياء: المصدر السَّابق، ص.178.

[4]– صالح بن عمر أسماوي: **نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة بواد ميزاب**، رسالة مُقدَّمة لنيل دبلوم الدِّراسات المُعمَّقة في التَّاريخ الإسلامي، إشراف: موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987م، ص.6 وما بعدها.

وأسرة "بني سندي" الذين ظلَّ ولائهم لِـ"بني حماد" إلى أنْ قضى عليهم الموحدون، وبعد استقرار العرب الهلاليَّة بالمنطقة شهدت تراجعاً كبيراً للمذهب الإباضي بها، وخضعت لسلطة العرب، حيث تمكَّنت "أسرة من الأثبج" وهم "بنو مُزني" من تولي الحكم فيها باسم الحفصيين ثمَّ اسْتقلَّت بنفسها بالمنطقة منذ القرن (8هـ/14م).[1]

أمَّا حاضرة "توات" فقد خضعت في البداية إلى سلطة قبائل زناته التي استقرَّت بالمنطقة، ثمَّ لسلطة القبائل العربية التي خَلَفت زناته في حكم المنطقة، ووضعوا عليها الإتاوات والضَّرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها مُلكاً.[2]

2)– المنظومة الاجتماعيَّة و القيميَّة:

2 – 1 – فئات المجتمع:

من خلال ما سبق عرضه بخصوص الْبنية السُّوسيولوجيَّة للحواضر الصَّحراويَّة يكون قد اِرْتسم لنا جانبا من الفسيفساء التي ميَّزت المجتمع الواحاتي اجتماعياً من حيث تنوُّع وتعدُّد مكوِّناته، إذْ بدا مُجتمع مُتعدِّد الأطياف، كان للنشاط التِّجاري إسهاما واضحاً في رسم ملمحه الاجتماعي، فقد شكَّلت فئة العبيد التي كانت من أهمِّ الواردات جزءاً من المنظومة الاجتماعيَّة، كما كان لفارق المستوى المعيشي وطبيعة الاستقرار في المناطق دوراً بارزاً في صياغة الواقع الاجتماعي؛ ومن خلال الوقوف أمام المشهد الاجتماعي للحواضر والذي يمثِّل أساس التَّركيبة الاجتماعيَّة يبدو لنا أنَّ المجتمع لم يكن منسجماً ومتناسقاً، ولربَّما هذا يعود إلى موقع الحواضر الذي جعل منها قبلة وملتقى للتجار من مختلف الأمصار لينطلقوا منها إلى بلاد "السُّودان" موطن الذَّهب

[1]– إسماعيل العربي: المرجع السَّابق، ص.143 – 148.

[2]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.78.

والعبيد، ونظراً للحركة والنَّشاط الاقتصادي لبعضها كـ"وارجلان" على سبيل المثال آثر الكثير منهم الاستقرار بها[1] ، أمَّا عن أهمِّ فئات المجتمع فهي كالتَّالي:

2 – 1 – 1 – فئة المشايخ والأشراف:

احتلت هذه الفئة قمَّة الهرم نظراً لما تَميَّز به أفرادها من علم وورع وتقوى، وتختلف تسميتها من حاضرة لأخرى، ففي الحواضر التي تَبَنَّت المذهب الإباضي تَجسَّدت في المشايخ، وحين نتحدث عن المشايخ فإنَّنا بالتَّأكيد سنتجاوز تلك الصُّورة التي طُبعت في المِخيال الجَمْعي والمرتبط بأصحاب العمائم، وإنَّما المشايخ هنا تتجاوز ذلك التَّصور فهم من آلت إليهم شؤون المجتمع وفُوِّضت لهم مُهمَّة إدارته،[2] وعُرفت هذه الفئة بحاضرة توات باسم "**الأشراف**" وحُظيت بتقدير الجميع، والسِّرُّ في تَبْجيل أهل "توات" للأشراف وإحاطتهم بجانب من التَّعظيم والتَّقديس يعود لِحبِّهم لآل البيت وفي كل من ينتسب إليهم تيمُّنًا وبركةً، وغالبا ما يَسْبِق اسم الشَّريف لفظة **(سيدي)** للرجل و **(لالة)** للمرأة.

ويبدو أنَّه كان لهذه الفئة حضورها ووزنها داخل المجتمع، ففي "وراجلان" على سبيل المثال كانوا بمثابة أهل الحلِّ والعقدِ، ومن أهمِّ المشايخ الذين تَولُّوا شؤونها الشَّيخ "**غيار**" الذي كان مقرُّه "**بقصر بكر**" فالرِّوايات تذكر بأنَّ "**عبيد الله المهدي**" لمَّا وصل "وارجلان" سأل عن شيخها فقيل له: «شيخها غيار، فقال: أين منزله فقالوا له تاغيارت...»[3]، كمَا تقلَّدَ مشيخة "وارجلان" أيضاً "أبو صالح جنون بن يمريان" وذلك خلال القرن (4هـ/10م) فالرِّوايات تُشير أنَّ الإمام "يعقوب بن أفلح" لمَّا وصل

[1] – غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.90.

[2] – غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.90. **وينظر أيضاً**، خير الدِّين شتره: «**القيم الاجتماعيَّة بإقليم توات من خلال أدب النَّوازل، نوازل عبد الرَّحمان الجنتوري أنموذجا**»، مجلَّة التُّراث، المرجع السَّابق، ص.70 – 71.

[3] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص.160.

"وارجلان" استقبله شيخها "أبو صالح"[1]، أمَّا ما يؤكد ويبرهن عن نفوذ وحضور هذه الفئة في المجتمع أنَّ الإمام "يعقوب" لمَّا حلَّ بـِ"وارجلان" وقرَّر عدم تزويج ابنتيه فاجتمع إليه جماعة من مشيخة "وارجلان" وحرَّضوه عن العدول عن رأيه، وهذا الموقف يبرز لنا حضورهم الاجتماعي.

ومن ذلك أيضاً واقعة الشَّيخ "**ماكسن** بن الخير بن مُحمَّد الجرمي الوسياني اليفرني"، مع الشَّيخ "عيسى بن أبي الحَجَّاج" ومنعه من الخروج من مدينة "ورجلان" التي مرَّت معنا أعلاه. ومثل هذه المواقف توضح لنا نفوذ المشايخ في المجتمع ومدى تأثير السُّلطة الرُّوحيَّة عليه.

2 – 1 – 2 – فئة الأحرار (التُّجار):

كان لهذه الطَّبقة حضوراً وإسهاماً كبيراً في المجتمع، فرضته بما تملكه من مال حيث كانت «قوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعمٍ سابغة قلَّما يُدانيها التُّجار في بلاد الإسلام سعة حال»[2] والمعلوم أنَّ "وارجلان" من أكبر القواعد التِّجاريَّة إلى بلاد السُّودان فأهلها كانوا يَقُودون القوافل إلى بلاد السُّودان، ولقد أثروا وأثلوا أموالاً شِدَّةً في الكثرة كوَّنت فيهم طبقة كبيرة من الأغنياء الكبار، ويُشير "الباروني" بأنَّ أكثر المسافرين لتجارة السُّودان في ذلك العهد من أهلا "وارجلان" و"هوارة"[3].

ومن الواضح أنَّ هذا الثَّراء سينعكس على الحالة المعيشيَّة لهذه الفئة ويبدو أنَّ هؤلاء التُّجار يُمثِّلون قبائل رئيسيَّة هي من تَتَولَّى زمام الحركة التِّجاريَّة التي كانت سبباً في حالة اليُسرِ والثَّراء الذي همْ عليهِ، فـ"الإدريسي" وصف "وارجلان" بأنَّها مدينة

---

[1]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.105. **وينظر أيضاً**، أبو زكرياء: المصدر نفسه، ص.179.

[2]– ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.65. **وينظر أيضاً**: غرايسة: **المدينة الدولة**، المرجعص.93.

[3]– الباروني: المصدر السَّابق، ج.2، ص185. **وينظر أيضاً**، مُحمَّد علي دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**، ج.3، ص.311.

فيها قبائل مياسير وتُجار أغنياء، ولربَّما حالة اليُسر تلك التي وُصِفت بها "وارجلان" تعود إلى المجلوب لها من التِبر الذي كان يُضرب بها، وهذا ما أورده "الإدريسي" في حديثه عن "وارجلان" «... تجار أغنياء يتجولون في بلاد السُّودان ويجلبون التِّبر ويضربونه في بلادهم».[1]

ولقد انعكست حالة اليُسر تلك على المشهد العمراني أيضاً، حيث أشار "إبن خلدون" إلى استبحار العمران بها[2].

فالتِّجارة كما يرى أحد الباحثين كانت أكثر من مُجرَّد نشاطٍ اقتصادي يتم تعاطيه، بقدر ما كان لها من تأثير في إحداث التَّحوُّل الاجتماعي من البداوة إلى التَّحضُّر.[3]

2 – 1 – 3 – فئة العبيد: شَكَّلت هذه الطَّبقة قاعدة الهرم الاجتماعي والأقلُّ حظاً لم يخلُ منها قصراً أو مدينة، وتفرَّدت هذه الطَّبقة بخدمة الأرض والأعمال الشَّاقة والاشتغال بمهن يأنفُ الآخرون مزاولتها.

2 – 2 – نظام الأسرة في مجتمع الحواضر الصَّحراويَّة:

إذا كانت القبيلة هي الخَليَّة الأساسيَّة في تركيب النِّظام الاجتماعي لدى المجتمع الصَّحراوي، فإنَّ الأسرة هي مُعين هذه الخليَّة الكبرى، تَسْتمدُّ منها قُوَّتها وصيْرورتها، فالأسرة هي الدِّرع الواقي له من الآفات الاجتماعيَّة[4]، فالأصل اللغوي لمعنى الأسرة أنَّها "الدِّرع الحصين" وأسرة الرَّجل أهله وعشيرته الأدنون.[5]

---

[1]– الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.296.

[2]– ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.132.

[3]– غرايسة: **المدينة الدولة**، المرجع السَّابق، ص.93.

[4]– أحسن دواس: المرجع السَّابق، ص.49.

[5]– مُحمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، مُرا: أنس مُحمَّد الشَّابي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ط.1، 2008م، ص.54.

والأسرة في مجتمع المغرب الأوسط تتألف عادة من الزَّوج والزَّوجة والأبناء، ولكون المجتمع مجتمع قبلي فقد شاع فيه ظاهرة تَعدُّدِ الزَّوجات، لقد تميَّزت الأسرة في المجتمع البربري بالتَّماسك والاتحاد فهي العمود الفقري للمجتمع والرَّكيزة الأساسيَّة لبُنيانه، فكان للأب السُّلطة العُليا في الخارج وللأمِّ السُّلطة التَّامة داخل البيت، يراها الرَّجل ساعده الأيمن وقُوَّته، فَوَثَقَ بها وجعل أعنَّة أمور البيت بيدها، وكانت المرأة مُعتدَّة بنفسها تتمتع بالاستقلاليَّة داخل بيتها، ترى نفسها المسؤول الأوَّل عليه ولهذا كانت تقوم بواجباتها في إدارة شؤون البيت.[1]

وعِلاوة عن ذلك فقد حرصت المرأة في مجتمع المغرب الأوسط على إشاعة المحبَّة والاحترام داخل الأسرة وحرصت كلَّ الحرص على ضمان السَّعادة والرَّاحة لكلِّ أفرادها فقد كـــانت العلاقة بين الأفراد قائمة على أساس المحبَّة والاحترام سواءً كان ذلك بين الزَّوجين أو بين الأبناء والآباء.

ولقد صوَّرت لنا بعض المصادر جانباً من تلك العلاقة مُتمثِّلة في علاقة الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء، والتي كانت قائمة على الاحترام والطَّاعة وبرِّ الوالدين، حيث نقل لنا "الدِّرجيني" في إحدى نصوصه صورة صادقة عن العلاقة التي تربط الأب بأبنائه خلال حديثه عن "**أبو يعقوب بن سهلون**"[2] فيقول: «**... كان أبو يعقوب بن سهلون كثير الرِّفق وله إبن يُسمى أيُوب وكان إذا أراد أنْ يأمره بشيء أشار إشارة، أو ساقه في حكاية لئلا يغلق عليه الأمر فيخالفه فيعق، وكان متى أشار له بشيء**

[1]– مُحمَّد علي دبوز: **تاريخ المغرب**، اج.1، ص.74.

[2]– **أبو يعقوب يوسف بن سهلون (450/400هـ – 1058/1009م):** من كبار مشايخ "وارجلان" وعلمائها تتلمذ على يد "أبو نوح سعيد بن زنغيل"، عُرف بإتقان الحفظ للمسائل وحِدَّة الذَّكاء، كان كثير الرِّفق حكيما في التَّربية وكانت له محضرة بـ"وارجلان" يُعلم فيها القرآن وعلوم الفقه. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص. 489. **وينظر أيضاً**، الدرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.422.

إمتثله وأتى على حسب ما يُرْضيه... حتّى ضُرب بهما المثل في برِّ الابن للأب والأب للأبن فقالوا: "الأب كأبي يعقوب والابن كأيوب").[1]

وعلى الرُّغم من أنَّ نص "الدِّرجيني" يُبرز لنا صورة على بِرِّ الأبن بأبيه، فإنّه يكشف لنا في الوقت ذاته عن أسلوب من أساليب التَّربية التي كان ينتهجها الآباء في تربية أبنائهم في مجتمع الواحات.

ومن مظاهر التَّرابط الأسري ما اعتادت عليه العديد من العوائل التُّواتيَّة بعد وفاة مُعيلها، إذْ تَرْكن إلى السَّكن تحت سقف واحد وفاءْ لذكرى الوالد وصوناً للوالدة، ويقوم الأخ الأكبر مقام الأب في تسيير شؤون الأسرة ورعاية الأيتام وحفظ حقوقهم، هذا وقد صَوَّرت نوازل "الجنتوري" جانبا كبيراً من العلاقات البينيَّة بين أفراد العائلات في مجتمع الواحات ومدى التَّرابط السَّائد في أوساطها المَبْني على أُسسٍ دينيَّة واجتماعيَّة مُحافظة ومتينة، إذْ تَعدَّت عناية الآباء إلى الأحفاد[2]، فإنْ كان عطف الآباء على الأبناء أمر فطري، فإنَّ هذا العطف تجاوز الأبناء ليفيض على أبناء الأبناء "**الحفدة**" ولا غرو في ذلك فالجدُّ أبٌ في المخيال الثَّقافي الإسلامي، حيث كشف بعض النَّوازل عن ظاهرة التَّصدُّق على ولد الولد بِعدد من حبات الماء من نصيب الجدِّ في السَّاقية مع ما يُمثِّله الماء من جاهٍ وثراء في ذلك العهد، بلْ إنَّ بعض التُّواتيين أوصى بثلث ماله لأولاد أولاد[3]، فوجود هكذا نماذج يوحي لنا بمدى الحبِّ والاحترام والتُّلاحم الذي كان سائد داخل الأسرة.

وإنَّ كان التُّرابط والتَّماسك وجوُّ المحبَّة هو العنوان السَّائد للأسرة في مجتمع الواحات فإنَّ ذلك ما كان له أنَّ يحْجُب صور المشاكل والخلافات التي هزَّت كيان

[1]– الدِّرجيني: المصدر السابق ،ج.2، ص.423.

[2]– خير الدِّين شتره: المرجع السَّابق، ص.72.

[3]– نفسه.

هذا الصَّرح في الكثير من الأحيان وأدَّت إلى انهياره أحياناً أخرى، فالصُّورة الُمشْرقة لمظاهر الوئام والتَّعاون ما كان لها أنْ تحجب جوانب التَّوتر والتَّنافر التي خيَّمت على الأسرة، ولقد حَاولتُ الوقوف على أهمِّ المشاكل والخلافات التي عكَّرت صفو الأسرة من خلال ما أُتيح لي من مصادر، وكانت من أكثر المشاكل شيوعا في الأسرة هي:

2 – 2 – 1 – ظاهرة تعدُّد الزَّوجات واتخاذ السَّراري: رغم أنَّ الإسلام قد أجاز للرجل حقَّ التَّعدُّد بناء على النُّصوص الشَّرعيَّة الواردة في هذا الباب، ومنها قوله تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾**.[1]

غير أنَّ هذا الأمر ظلَّ مرفوضاً وغيرُ مُستساغ من قبل الكثير من النِّساء، فكان زواج الرَّجل بامرأة ثانية من أبرز المشاكل التي زعزعت أمن واستقرار الأسرة، حيث ظلَّ زواج الرَّجل مرَّة ثانية هاجس يُؤرْق المرأة، وهو الأمر الذي دفع بالكثير مِنْهن إلى أخذِ احتياطهن من ذلك من خلال اشتراطهم على من يتقدم للزواج منهن «بأنْ لا يتزوج عليها أو يتسرى وإنْ فعل ذلك فأمرها بيدها»[2]

فوجود مثل هكذا شرط يوحي لنا بأنَّ تَعدُّد الزَّوجات كان أمراً شائعاً في المجتمع ولا نستبعد ذلك، خاصة إذا علمنا أنَّ مجتمع الواحات أُشْتُهر أفراده بامتهان التِّجارة والمعلوم أنَّ الرِّحلة التِّجاريَّة كانت تستغرق شهوراً الأمر الذي يدفع بالكثير من الرِّجال إلى الزَّواج مرّة ثانية، ناهيك على أنَّ المجتمع كان مجتمع قبلي والمجتمعات القبليَّة عادة ما يكون فيها للزوج أكثر من زوجة، ويبدو لنا أنَّ زواج الرَّجل بامرأة ثانية كان يُسبِّب ضرراً كبيراً للزوجة الأولى قد يؤدي بها في بعض الأحيان إلى الوفاة، وهذا ما وقفنا عليه من خلال بعض الرِّوايات، حيث كان لزواج الشَّيخ الإباضي "**حمو بن**

[1]– سورة النساء: الآية.3.

[2]– الونشريسي: المصدر السَّابق، ج.3، ص222.

اللؤلؤ"[1] من ابنة الإمام "يعقوب بن أفلح" بالغ الأثر على زوجته الأولى التي اغْتَمَّت حين سَماعها بذلك اغتمامًا شديداً أفضى بها للموت.[2]

2 – 2 – 2 – غياب الزَّوج: كان من أكثر المشاكل شيوعا إذْ غالبا ما كان غياب الزَّوج يفتح باب المشاكل وينتهي الأمر في أكثرها بالطَّلاق أو التَّطليق، حيث ورد في بعض النَّوازل «إمرأة غاب عنها زوجها لناحية الغرب وطال هناك مقامه فقامت زوجته تدّعي ضرر النَّفس والإنفاق».[3]

2 – 2 – 3 – عدم طاعة الزَّوجة لزوجها: كانت من أكثر المشاكل شيوعاً، ورُوي عن الشَّيخ "جنون بن علي" أنَّه أتاه "إبراهيم بن يحي بن أبي بكر"، وكان قد حَلَف لأمرأته أنْ لا تُسافر إلى أندرار فمضت وحنَّثته فلمَّا قَدِمت قال لها: «أبعديني فإنَّك حنَّثت يميني، فطلبت صداقها، وحُكم عليه بالصَّداق».[4]

لقد وجدت العديد من المشاكل التي لا يسعنُا المقام للوقوف عليها، منها وجود أَمَةٌ(خادمة) في البيت والتي كان وجودها يُثير بعض المشاكل والخلافات بين الزَّوجين

---

[1] – **حمّو بن اللؤلؤ**:**(400/450هـ–1009/1058م)** من أهل الصَّلاح والعلم، يسكن "تين ياماطوس" قرب "وارجلان"، تتلمذ عليه "أبو الحسن أفلح المادغاسني".**ينظر**،مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.123.

[2]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص.179.

[3]– أحسن زقور: «**نظام الأسرة في منطقة توات من خلال غنية المقتصد السائل في ما وقع في توات من القضايا والمسائل**»، المجلَّة الجزائريَّة للمخطوطات، ع.15، جامعة وهران(**1**) أحمد بله، الجزائر، ديسمبر/2016م، ص.334.

[4]– مؤلف مجهول: **المعلَّقات في أخبار وروايات أهل الدعوة**، تح: سليمان بن إبراهيم بابزيز، منشورات وزارة التراث والثقافة، مسقط، ط1، 2009م، ص.90 – 91.

فتُشير الرِّوايات بأنَّ أحد الآباء بحاضرة "توات" وهب لابنته خادمة، لكن الزَّوج أصرَّ بعد فترة على بيع تلك الأَمَة خوفاً من أنّ يؤدي وجودها في البيت إلى انحراف أبنائه[1].

كما برزت أيضاً بعض الخلافات المتعلِّقة (بالصَّداق، والنَّفقة، والميراث...)، ولم تكن جُلُّ المشاكل التي ظهرت داخل الأسرة الزَّوج هو المتسبب الوحيد فيها، وإنَّما كان للمرأة يد في ظهور بعضها، وإنْ كان في أغلب المشاكل المرأة هي الطَّرف المظلوم فيها والمتعدَّى عليها؛ فلقد وقفنا على بعض الخلافات كان فيها الزَّوج هو الطَّرف المظلوم فمن خلال ما وقفنا عليه في بعض المصادر وجدنا العديد من الأزواج ممَّن أُبْتُليا بزوجات سيئات الخُلق قبيحات المعاشرة، فقد أُبْتُليا الشَّيخ "جنون بن يمريان" بزوجة سيئة الخلق «فحدث وأنْ لطمته مرَّة حتى ارتسمت آثار أصابعها في خدِّه»، كما عانى شيخه "**أبو يوسف يعقوب**"[2] هو الآخر من سوء خلق زوجته التي ضربته بمقلى فصيَّرته طوقا في عنقه.[3]

2 – 3 – مكانة المرأة في مجتمع الحواضر الصَّحراويَّة:

حظيت المرأة في مجتمع المغرب الأوسط بمكانة مرموقة مكَّنتها من المشاركة في جميع المجالات الحياتيَّة واستطاعت أنْ تُثبت حضورها في عدَّة ميادين ظلَّت حكراً ووقفاً على الرَّجل ردحاً من الزَّمن، فمجد وحضارة المغرب الأوسط لم تكن من صنع الرَّجل وحده فقد كان للمرأة أيضا دورها البارز والفَعَّال في ذلك، حيث تجاوزت أسوار

---

[1]– أحمد بوسعيد: **الحياة الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن (12هـ/18م)**، مُذكِّرة مُقدَّمة لنيل شهادة الماجستير تخصص: التَّاريخ المغاربي الاجتماعي والثَّقافي، إشراف: محمد حوتيه، قسم التَّاريخ، كُلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة والعلوم الإسلاميَّة، جامعة أدرار، 2012م، ص.100.

[2] – **أبو يوسف يعقوب بن سيلوس الطَّرفي السَّدراتي (ق. 3هـ/9م)**: من علماء "وارجلان" أخذ العلم بـِ"تهرت" على الأئمة الرُّستميين ثمَّ ارتحل إلى "وارجلان" وأقام مُعلِّما بها وتخرَّج على يديه علماء مصلحون منهم: "أبو صالح جنون بن يمريان"، كان يُلقَّب "شيخ الرَّأي النَّاصح". **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص. 474.

[3]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.433. **وينظر أيضاً**، مؤلف مجهول: **المُعلَّقات**، ص.57. **وينظر**: الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.344.

البيت لتساهم في الحياة العامة تاركةً بصمتها في مختلف المجالات، ولقد حفظت لنا المصادر التَّاريخيَّة نماذج لبعض النُّسوة اللواتي كان لهن دوراً بارزاً ومشاركة في صنع تاريخ المغرب ولنا في الكاهنة زعيمة قبيلة "جراوة" خير مثال على ذلك، «**فلمّا دخل حسّان بن النُّعمان إفريقيَّة سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك إفريقيَّة ليسير إليه، فدلوه عن إمرأة بجبل أوْراس يقال لها الكاهنة، وجميع من بإفريقيَّة من الرُّوم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون، فإنْ قتلتها دان لك المغرب كلّه**».[1]

ومن خلال ما وقفنا عليه من بعض المصادر بدا لنا أنَّ المرأة لم تكن مُجرد أداة بيتيَّة بل كان لها حضورها الاجتماعي، وإنْ كانت المصادر المتاحة لنا لم تُسعفنا بالقدر الكافي لرصد دورها بشكل أوضح فلا يزال البحث في مثل هذه المواضيع صعوبة تؤرق الباحث، ولربَّما يعود السَّبب في ذلك لاعتبار الرَّجل أنَّ المرأة حالة خاصة به لا يجوز الكشف عنها أو التَّأريخ لها، إذْ يرى في ذلك انتقاص من رجولته وهذا راجع إلى قيم اجتماعيَّة سائدة لايزال صَداها مستمرٌ لليوم في مجتمعات المغرب الأوسط.[2]

ولقد بدت مكانة المرأة واضحة في مجتمع الواحات وذلك من خلال مشاركتها في العديد من القضايا التي تَهمُّ المجتمع، فقد كان لها حضوراً في مجالس الرِّجال والمشاركة في إبداء الرَّأي، وممَّا يُدلِّل على المكانة التي تبوأتها المرأة في مجتمع الواحات حضورها في مجلس العزَّابة المجلس الذي كان يهتم بشؤون وإدارة البلاد، حيث خُصِّص مجلس ديني للنساء وهذا المجلس كان مُكمِّلا لمجلس العزَّابة، يهتمُّ

[1]– إبن عذارى المراكشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.35.

[2]– خولة عمامرة : «**نسوة المغرب الأوسط الأدوار والوظائف**»، مقال ضمن كتاب جماعي، **طبقات مجتمع المغرب الأوسط قراءة في الموروث والذِّهنيات**، تنسيق،عبد القادر بوعقادة، النَّشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، ط.1، 2020م، ص.45.

بمعالجة القضايا الدِّينيَّة والاجتماعيَّة المتعلقة بحياة العنصر النِّسوي ويضمُّ عدداً من النِّساء المُصْلحات.[1]

ومن ذلك أيضاً ماروي عن زوجة "**أبو العباس أحمد بن علي**" الذي كان بـِ"تماواط" وقد جرت محادثة بينه وبين الشَّيخ "إسماعيل بن علي النَّفزاوي" الذي كان يبيتُ عنده والتقيا على مائدة العشاء التي أثار لحم الجمل الذي زينها نِقاشًا حول حِلِّه من حُرمته، إذ امتنع الشَّيخ عن أكله بحجَّة «**أنَّ الذي بأيْدي العرب ريْبة، فقالت امرأته: كلُّ الذي في أيدي العرب من الجمال هي لنا قد أخذوها منَّا غصبا**»[2].

وإصدار المرأة مثل هذا الرَّأي قد يفيد بأنَّها كانت لها فضاءات ومشاركة فِعليَّة في إدارة الحياة الاجتماعيَّة بـِ"وارجلان".[3]

ولم يقف حضور المرأة عند هذا الحدِّ، بلْ كان لها حضورها أيضاً في المجال الاقتصادي فالمعلوم أنَّ مجتمع الحواضر الصَّحراويَّة مُجتمع زراعي وقد ساهمت فيه المرأة تَمَلُكاً وممارسة حيث مثَّل "الجنان" (البستان) رأس المال عند المرأة فأشارت نوازل "الجنتوري" لوجود بعض النِّساء يمتهنَّ الحراثة والسَّقي كما الرِّجال، كما أشارت إلى أنَّ إحدى النِّساء كانت تقوم على جِنَانِها رعاية وصيانة طيلة فترة حياتها، وعندما حضرتها الوفاة أوْصت بأنْ تُباع من ذلك الجنان نخلتان من أجل دفع تكاليف التَّكفين والدَّفن. كما كان لأخرى فضل من الماء يزيد عن حاجة جنانها فقامت بكرائه لأحد الفلاحين مقابل مبلغ مُعيَّن.[4]

كما كان بعض النُّسوة يقمن على ما يمتلكن من رؤوس الأغنام بأنفسهن أو يُكلِّفن أزواجهن بالخدمة عليها مقابل الاستفادة من لبنها وسمنها، واختصَّت بعض

---

[1]– بكير بن سعيد أعوشب: **وادي ميزاب**، ص.106.

[2]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.551. **وينظر أيضاً**: غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.108.

[3]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.108

[4]– أحمد بوسعيد: المرجع السَّابق، ص.101.

النُّسوة بالأعمال والحرف اليدويَّة داخل البيت كالغزل والنَّسيج، حيث يُساهمن في توفير الملابس الصُّوفيَّة والقطنيَّة لأفراد العائلة ويبعن الفائض من الإنتاج للقصور المجاورة.[1]

ويبدو أنَّ نشاط بعض نساء المجتمع الصَّحراوي قدْ وفَّر لهن وضع مادي مَيْسُور قد مكَّن الكثير منهن من المساهمة في الأعمال الخيريَّة والتَّطوعيَّة، فقد كان الكثير مِنهن يُقمْن بإخراج الزَّكاة والصَّدقات للفقراء والمساكين...، كما قام البعض بتحبيس ما يمتلكن في سبيل أوجه الخير تخصيصاً أو تعميماً.[2]

ولم يقتصر حضور المرأة عند هذا الجانب فحسب، بل كان لها حضور في الجانب العلمي والمعرفي لاسيما بحاضرة "وارجلان" و"أريغ"، هذه الأخيرة التي كانت فيها "ورتنجيل" «**هي وصاحبتها رمضان كلّه إذا أفطرتا في بني وليل رأس الوادي، وصلتا القيام عند أبي عبد الله في غاره... فتبيتان في الحلقة**»[3]، كما اشتهرت "**عائشة ابنة معاذ بن أبي علي**"[4] بعلمها وثقافتها حيث بلغت درجة في العلم يُعزى على نظائرها بلوغها، إذْ تلقَّت العلم علي يد الشَّيخ "تيغورين بن عيسى الملشوطي" فكانت مثال للأسرة المتعلِّمة المستنيرة.[5]

وفي تقديرنا أنَّ المذهب الإباضي حرص على التَّعليم و تعميم المعرفة، فالمعلوم أنَّ الإباضيَّة اهتموا بتعليم وتثقيف المرأة، كَمَا حرص أمراء "بني رُستم" كلَّ الحرص على تعليم المرأة أمور دينها فكانت المرأة على عهدهم تَحضُر الدُّروس والمناظرات التي كانت تقام في المساجد، ففي كلِّ مسجد كان هناك قسم خاص بالنِّساء يجلسن فيه

---

[1]– أحمد بوسعيد: المرجع السابق، ص.101 – 102.

[2]– نفسه.

[3]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.365.

[4] – **عائشة بنت معاذ بن أبي علي:** من أشهر نساء "أجلو" وُلدت في أواسط القرن (5هـ/11م)، أخذت العلوم في بلدتها ثُمَّ تحوَّلت إلى حلقة "أبي العباس أحمد بن مُحمَّد بن بكر"، وكانت تناقش كبار علماء الكلام في أدَقِ المسائل. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.238.

[5]– علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.2، ص.368.

لمتابعة الدُّروس العلميَّة، كما كان لبعض النُّسوة دوراً في النَّشاط السِّري الخاص بالتَّنظيم والدَّعوة الإباضيَّة[1].

ولقد أوردت المصادر نماذج لبعض النِّساء اللواتي كان لهن دور في المجال التَّعليمي كتعليم القرآن ورواية الحديث ودراسة مبادئ المذهب الإباضي فكان منهن مُدرِّسات شغلن مقاعد التَّدريس ومن هؤلاء "**أخت عمروس بن فتح النَّفوسي**" أُشْتُهرت بالعلم والتَّدين، وقد أملت على أخيها مدونة "أبي غانم الخُراساني"[2]، وبرعت أخت الإمام "**أفلح بن عبد الوهاب**" في علم الحساب والفلك والتَّنجيم حتى فاقت الإمام نفسه[3]. كما وُجدت عالمة أخرى كانت من أعظم العالمات بين نساء زمانها، ألاَ وهي العالمة "**مارن**" إحدى العالمات بدقائق المذهب الإباضي بجبل نفوسه.[4]

ولأنَّ البيت الرُّستمي احتوى على علوم كثيرة من فقه وإعراب ولغة وفصاحة وعلم نجوم، فقد اعتنى أئمة "بني رستم" بتعليم الإماء والعبيد أيضاً ولم يقتصر تعليمهم على المرأة الحرَّة فقط، بل شَملَ العبيد والإيماء، وفي هذا الصَّدد يذكر "الشَّماخي" بأنَّ بعضهم كان يقول: «**معاذ الله أنْ تكون عندنا أمة لا تعلم أين بات القمر**»[5].

---

[1]– مُحمَّد عبده سوادي: «**الأحوال الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثَّاني الهجري حتى نهاية القرن السَّابع الهجري**»، كلِّيَّة التَّربية، جامعة البصرة، العراق،(ب س ن)، ص.325. **وينظر أيضاً:** خالد بلعربي: **إضاءات حول تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط (السِّياسيَّة، الاقتصاد، الثَّقافة، المجتمع)**، النَّشر الجامعي الجديد، تلمسان – الجزائر، ط.1، 2018م، ص.177.

[2]– الشَّماخي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.194.

[3]– الشّماخي: المصدر نفسه، ج.1، ص.167.

[4]– مُحمَّد عيسى الحريري: **الدَّولة الرُّستميَّة بالمغرب الإسلامي. حضارتها وعلاقتها الخارجيَّة بالمغرب والأندلس**، دار القلم، الكويت، ط.3، 1987م، ص.238.

[5]– الشَّمَّاخي: المصدر نفسه ، ج.1، ص.142.

فبني رستم «**كانوا يعافون أنْ توجد في عائلتهم أَمَة من إمائهم لا تعرف علم الفلك ولا تدري منازل القمر والنُّجوم**»[1]؛ ولعل هذا ما أتاح للمرأة ومكَّنها من الحضور داخل المجتمع.

2 – 4 – القيم السَّائدة في مجتمع الحواضر الصَّحراويَّة:

2 – 4 – 1 – التَّعاون: على الرُّغم من أنَّ المجتمع كان طبقي في تركيبته ومُتعدِّد الأطياف، إلَّا أنَّ ذلك لم يمنع من وجود مظاهر لروح التَّعاون والتَّضامن بين مختلف شرائحه، فلقد وقفنا على بعض مظاهر التَّعاون التي مَيَّزت مُجتمع الواحات، من بينها ظهور العمل الجماعي بين الأفراد حيث يُعدُّ أهمَّ سِمة لهذه المجتمعات، ومن الأمثلة على ذلك: التَّعاون على تَزْرِيب[2] أطراف البلاد وذلك من خلال وضع مَصَدَّاتٍ تحُول دون زحف الرِّمال على البيوت، وكذا المشاركة في إصلاح قنطرة تَهدَّم بعضها ولأنَّ الزِّراعة هي النَّشاط الغالب بالحواضر الصَّحراويَّة كان لزاماً عليهم التَّعاون في تأمين مواردها والمحافظة على وسائلها وذلك من خلال خدمة "الفُقارة"[3] والسَّواقي وتنقيتها من الرِّمال باستمرار.[4]

وكان أهل "أريغ" يتعاونون في بناء مسكن أوفي حفر خندق أو شقِّ السَّواقي وجني التُّمور وحصاد الزَّرع ودرْسِه، و يبدو لنا أنَّ التَّعاون والعمل بشكل جماعي أصبح مع مرور الزَّمن من الأعْراف، فإنْ احتاج الفلاحين إلى فتح ساقية مشتركة

---

[1]– مُحمَّد علي دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**، ،ج.3، ص.338.

[2] – **تُزْرِيب**: مصدرها "زَرَّب".**زرَبَ** لـ **يَزرُب، زَرْبًا**، فهو **زارب**، والمفعول **مَزْروب**. زَرَبَ لِلْماشِيَةِ : بَنَى لَها زَريبَةً. زرَبَ الرَّجلُ الحظيرةَ: سيَّجها وسوَّرها.**ينظر**: جمال الدِّين ابن منظور: **لسان العرب**، الحرف: زاي، مادة: زَرَبَ، المصدر السَّابق، مج.3، ج.21، ص.1822.**وينظر**، **المعجم الوسيط، الحرف: زاي، مادة:** زَرَّ، مكتبة الشُّروق الدُّولية،القاهرة، ط.4، 2004م، ص391.

[3] – Capitaine Lô: **Les foggaras du Tidikelt**, Travaux de l'Institut de recherches sahari ennes (Alger), T.11, 2éme semestre, 1954, pp.142 – 143.

[4]– أحمد بوسعيد: المرجع السَّابق، ص.87 – 88.

بينهما أو شقِّ خندق أو تنظيفه من الأوحال، يُنادي منادي في القرية فيُسارع الجميع لتلبية النِّداء.[1]

وفي تقديرنا أنَّ طبيعة البيئة الصَّحراويَّة القاسية والتي كانت تتطلب عملاً مستمراً ودائماً ساهمت وعزَّزت من وجود مثل هذه القيم وأصبحت عُرف جاري في المجتمع، فالعمل في مثل هكذا بيئة كان يحتاج إلى التَّعاون والتَّآزر.

2 – 4 – 2 – الأحباس والتَّكافل الاجتماعي: الأحْباس هي الاسم الأكثر شيوعاً في بلاد المغرب، والحُبْس يقعُ على كلّ شيء وقفه صاحبه وقفاً مُحرَّماً لا يُورث ولا يُباع من أرض ونخل وكرم، يُحْبس أصله وقفاً مؤبداً وتُسبَّل ثمرته تقرُّباً إلى الله عزّ وجل.[2] وعند المالكيَّة هو أنْ يَتصَدقَ الإنسان المالك لأمره بما شاء من ربعهِ ونخلهِ وكرمهِ وسائر عَقارهِ لتجري غلاَّت ذلك وخراجهِ ومنافعهِ في السَّبيل الذي سبَّلها فيه ممَّا يُقرِّب إلى الله عزَّ وجل، ويكون الأصل موقوفا لا يباع ولا يُوهب ولا يُورْث أبداً ما بقي شيء منه، فمن فعل هذا لزمه ولم يَجُزْ له الرُّجوع فيه في حياته، ولا يورث عنه إذا حِيز وصَحَّت حيازته.[3]

ولقد انتشر الحُبْس في حواضر الصَّحراء وشكَّل مظهراً من مظاهر التَّكافل الاجتماعي سيما بحاضرة "توات" وشمل أوجه عديدة، وكان يشمل أهمَّ ما يمتلكه إنسان الواحات وهو "**الجنان**" (البستان)؛ ومن أوجه الأحْباس نجد الحُبْس على

---

[1]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.34.

[2]– ابن منظور: **لسان العرب**، الحرف:ح، مادة: حبس، المصدر السابق، مج2، ج9،ص 752. **وينظر أيضاً**، أحمد بوسعيد: المرجع السَّابق، ص89.

[3]– أبو يوسف بن عبد البرّ القرطبي: **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.3، 2002م، ص536.

المساجد، فقد سادت ظاهرة حبْس "الجنان" وما تنتجه من ثروات وغلاَّت على المساجد تجهيزاً وصيانةً وتدريساً، حتى لم يَكد يَخْلُ قصراً من "جنان" يحمل اسم "**جنان الجامع**". وشمل الحبس أيضاً طلبة العلم من حيث إطعامهم وتوفير الإقامة لهم[1]، كما كان هناك الحبس للفقراء واليتامى والمرضى وعابري السَّبيل.

2 – 4 – 3 – الكرم وحسن الضِّيافة: يُعدُّ الكرمُ واستقبال الضُّيوف من أهمِّ القيم التي عُرف بها مجتمع الواحات وشكَّلت جزءاً من شخصيته، ولقد ساهمت جملةً من العوامل في تجلي مثل هذه القيم داخل المجتمع، منها: الموقع الجغرافي للحواضر الصَّحراويَّة حيث شكَّلت حلقة وصل وربط بين الضِّفتين وهو ما جعلها قادرة على تأمين مختلف حاجياتها، ناهيك على ما كانت توفِّره لها حركة القوافل التِّجارية من سلع مفقودة[2]، بالإضافة إلى حالة اليسار التي عرفتها جُلُّ الحواضر، وعلى رأسها حاضرة "وارجلان" التي كان بها «قبائل مياسير وتجار أغنياء»[3]، وهو ما كان عاملا مُساعداً في استبحار عمرانها، فوجود هذه العوامل جعل حواضر الصَّحراء في حالة من اليُسر تتجاوز معها ما هو ضروري إلى الكمالي ويجعلها على مستوى من القدرة على استقبال الضُّيوف والقيام بهم.[4]

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فإنَّنا لا نستبعد حضور تعاليم الإسلام التي تحثُّ على ضرورة إكرام الضَّيف والإحسان له لدى ساكنة الواحات، ويرى أحد الباحثين أنَّ ارتباط المذهب الإباضي بالإرث النَّبوي الدَّاعي بنصوصه لإكرام الضَّيف ساهمت أيضاً في تعزيز وترسيخ هذه القيم[5]، ومن ذلك ما أورده "إبن سلام" عن النَّبي صلى الله

---

[1]– أحمد بو سعيد: المرجع السَّابق، ص.90.

[2]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.109.

[3]– الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.296.

[4]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.109.

[5]– نفسه، ص.109.

عليه وسلم قال: «**ليس المؤمن من يخاف جاره بوائقه، يعني غشّه وظلمه، وحق الصاحب بالجنب ... وحق إبن السبيل، وهو الضيف إذ نزل بك وحقّ ضيافته ثلاث ليال وما فوق ذلك فضيافته صدقة**».[1]

ومن أهمِّ مظاهر الكرم وحسن الاستقبال التي وقفنا عليها في العديد من المصادر استقبال أهل "وارجلان" للإمام "يعقوب بن أفلح" بعد خروجه من "تيهرت" متجها نحو "وارجلان"، حيث استقبله جموع أهلها، فأدخلوه وأكرموه وأحسنوا القيام به ومكث فيهم دهراً طويلا[2]، ولعل عِبارة مكث فيهم دهراً تَحمل دلالة على استمراريَّة أهل "وارجلان" في القيام بتأمين حاجاته، ولربَّما هذا يأتي من باب الوفاء للبيت الرُّستمي ولمذهبهم[3] وكان هذا في زمن الشَّيخ "أبو صالح جنون بن يمريان" الذي عُرف بورعه وسخائه... وهو أحد أقطاب الدِّين وثمال اليتامى والمساكين.[4]

كما أحسن الشَّيخ "أبو صالح" أيضاً استقبال الشَّيخ "**أبو نوح سعيد بن زنغيل**" عند قدومه إلى "وارجلان" فأحسن نزوله وأكرم مثواه غاية الإكرام حيث «**ملأ له الشَّيخ صالح جنون بن يمريان بيتاً إلى السَّقف تمرا، وجرى عليه مائدة بكرة وأخرى عشيَّة**» وجعلوا له إمرأة تصنع طعامه، و منحه صُرَّة بها سبعين ديناراً ذهبا[5].

---

[1]– إبن سَلام الإباضي: **الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية** ، تح: ر. ق. شقارتز وسالم يعقوب، دار اقرأ للنَّشر والتَّوزيع والطِّباعة، بيروت، ط.1، 1985م، ص.99.

[2]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.179.

[3]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.109.

[4]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.341 – 342.

[5]– أبو زكرياء: المصدر السابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.222 – 223. **وينظر أيضاً**، الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.143.

وبهذا يكون الشَّيخ "أبو صالح" قد كرَّس طبوعاً اجتماعيَّة صارت سمة لأهل "وارجلان" الذين وفد عليهم "أبو عبد الله" (ت.440هـ/1049م) مع جملة من أصحابه «**فابتهلوا بتضييفهم**».[1]

وعُرف الشَّيخ "**أبو نوح سعيد بن يخلف المدوني**" أيضاً بكرمه وسخائه وكثرة استقباله للضيوف، فقد كان رجلا سخياً ذا مالٍ إذا نظرت إلى خيامه رأيت تروب الشَّاه منشورة لكثرة ما يذبح للضيوف.[2]

ويبدو لنا أنَّ مشايخ "وارجلان" قد ساهموا في تعزيز وتكريس مثل هذه القِيم داخل المجتمع، فغالبا ما كان المشايخ يُوصُون تلامذتهم بذلك، فقد كان الشَّيخ "**مُحمَّد بن تامر التَّنتاوي**" يوصي كل من يمرُّ عليه بخصال منها: إكرام الضُّيوف حيث يقول: «**... إذا رأيتم الأضياف قاصدين نحوكم فلا يسبقكم كلاب الحيّ إليهم، وإذا أردتم أنّ تذبحوا للأضياف فأذبحوا الكبير...**».[3]

ولم يقتصر الكرم وحسن استقبال الضُّيوف على المشايخ وأهل العلم فقط، وإنَّما شمل كل الغرباء الذين حلُّوا بالواحات سواء بغرض التِّجارة أو غيرها، وقد أشار "العياشي" في رحلته إلى كرم وحُسن ضيافة أهل "وارجلان" لهم حيث استقبلوا الرَّكب أربع ليالٍ.[4]

كما عُرف أهل "أريغ" أيضا بكرمِ الضِّيافة وحُسن الطويَّة في استقبال الوافدين عليهم والنَّازلين بديارهم فيجزلون لهم العطاء ويبذلون قُصارى جهدهم في حسن استقبالهم، وهو ما أشار إليه "الوزان" في معرض حديثه عن "تقرت" قاعدة الإقليم، حيث وصف أهلها بقوله: «**... يُحب أهل تقرت الغرباء جدّا ويستضيفونهم في بيوتهم**

[1]– غرايسة: **المدينة الدولة**، الص.110. **وينظر أيضاً**، الدِّرجيني: المصدر السابق ،ج.1، ص.188.

[2]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.553.

[3]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص.307.

[4]– العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.118.

بالمجان... ومن عاداتهم تقديم هدايا هامّة للغرباء ولو كانوا يظنون أنّهم لا يعودون إليهم أبدا وهذا من حسن طويتهم وسلامة قلوبهم ولفرط كرمهم».[1]

وعلى غرار حاضرتي "وارجلان" و"أريغ" فقد عرفت باقي حواضر الصَّحراء بإكرام الضَّيف والقيام به، ويبدو أنَّ أهل الواحات أولوا هذا الأمر عناية كبيرة، انعكست حتى في الجانب العمراني حيث كان يُخصَّص قسمٌ من البيت أو طابق للضيوف، فقد كان الشَّيخ "**أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل**" يملك منزلين أحدهما له والآخر لضيوفه[2]

ولم يخلُ مسكن من مساكن أهل الواحات من غرفة للضيوف وعادة ما تكون عتبتها مفتوحة على الشَّارع وعلى البيت معاً، وأحياناً كان يُخصَّص قسم كامل يقتطع من البيت للضيوف.[3]

ومن المهم التَّنبيه في هذا الشَّأن إلى خاصية امتازت بها بيوت الأمراء الرُّستميين إذْ أنَّهم اتخذوا دار الضِّيافة وعادة ما تكون متصلة بمساكنهم، فقد ذكر "الشَّماخي" أنَّ الإمام "عبد الوهاب" لمَّا قَدِم إليه وفد "نفوسة" استقبلهم في دار الضِّيافة وأكرمهم بشتى الأرزاق؛ فالظَّاهر أنَّ اتخاذ داراً للضيافة تقليد سار عليه الأئمة الرُّستميون منذ بداية الدَّولة إلى سقوطها، فقد وردت إشارة تؤكد أنَّه وفي مرحلة متأخرة من عمر الدَّولة وبالتَّحديد في عهد "أبا اليقظان" لمَّا استقام ملكه أتته وفود "نفوسة" تطلب منه أنْ يُعيِّن

[1]– الوزان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.135 – 136.

[2]– ليفيتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.121.

[3]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.39.

لهم على أنفسهم أميراً "**فأنزلهم دار الضيافة**"، وهذه الخاصية تُنمُّ على سَجيَّة الكرم التي تَحلَى بها بنو رستم، فصفة الكرم انعكست على العمران حيث خصصوا دار الضِّيافة.[1]

ولقد حافظت مثل هذه القيم على ثباتها واستمراريتها في مجتمع الواحات إلى اليوم وأشار إليها أيضاً عدد من الرَّحالة الفرنسيين الذي زاروا حواضر الصَّحراء عبر فترات مختلفة، فالرَّحالة الفرنسي "كلاماجرون" (Clamagron) خلال حديثه عن القيم الإيجابيَّة التي تَمَيَّز بها مجتمع الواحات أشار إلى كرمهم ووصفه بأنّه «... **كرم يمتاز بنوع من العظمة والفخامة لا يمكن إلَّا أنْ يؤثر في الغريب وهذا لا يعني أنَّه دوما فاخرا باذخا، فالعظمة تكّمُن في سلوكاتهم وحركاتهم وملامح وجوههم المُعبِّرة عن الودِّ والوقا**»[2]، وأشار "دوماس" (Dumas) نقلا عن أحمد دواس إلى وجود سبع أو ثمانية خيام بالصَّحراء تُعْرف "**بقياطين الضِّيافة**" شُيِّدت من طرف الأغنياء ويسهر عليها الخدم ليلاً نهاراً مُكَلَّفون خصيصاً بخدمة الغرباء[3]، كما أثنى "مالستيان" أيضاً على كرم أهل "أريغ" خلال زيارته لها.[4]

وعلى الرَّغم من جهود بعض المشايخ وفي مقدمتهم الشَّيخ "جنون بن يمريان" في تثبيت وترسيخ القيم الاجتماعيَّة، حيث استطاع هذا الشَّيخ تثبيت تقاليد اجتماعيَّة أظهرت "وارجلان" بالأرض المباركة التي إليها ينتسب سبعين من مستجابي الدُّعاء، أمثال: من سلمت عليه **السَّخلة** بلسان فصيح سائرة وراجعة وقالت: »السَّلام عليكم ياوليَّ الله»، ومن دعا على أفعى نهشته «نقضتِ عليَّ الغسل قتلك الله بالنَّفخة»،

---

[1]– الشَّماخي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.137. **وينظر أيضاً**، كمال بركات : «**صور من الحياة الاجتماعيَّة لطبقة خاصة في مجتمع المغرب الأوسط الأئمة الرُّستميون والأمراء الحماديون أنموذجاً**»، مقال ضمن كتاب جماعي **طبقات مجتمع المغرب الأوسط قراءة في الموروث والذهنيات**، المرجع السَّابق، ص.76.

[2] – CLAMAGERAN.J.J: L'Algérie Impressions de Voyage 17 Mars– 4 Juin 1873. Paris. Librairie Germer Bailliere, 1874, p175.

[3] – أحسن دواس: المرجع السابق، 89.

[4]– هاينريش فون مالستيان: المرجع السابق ، ص.143.

فمازالت تنتفخ حتى انقدت إلى نصفين، ومن لو دعا على ماء "وارجلان" أنْ يَجْمد لجمد"[1]. إلَّا أنَّ ذلك لم يمنع من وجود بعض الانحرافات التي نخرت المجتمع وأثارت غضب العديد من المشايخ، ودفعت الكثير من أهل العلم والصَّلاح لمغادرة الأوطان؛ ويرى أحد الباحثين أنَّ انتشار هذه الانحرافات كان نتيجة للتحول الاجتماعي الذي طرأ على الحواضر الصَّحراويَّة، والذي بدا متجلياً بشكل كبير في حاضرة "وارجلان" وهذا من خلال ما وقفنا عليه من روايات، ويبدو أنَّ "وارجلان" دخلت طوراً جديداً في ظلِّ ما عرفته من تحوُّلات اجتماعيَّة جسَّدت معها المنحى الطَّبيعي لحياة الجماعات والكيانات كما لو كانت حركة عُمريَّة للإنسان بمراحل الارتقاء ثمَّ الاستقرار المتبوع ببداية الانهيار والتَّلاشي.[2]

ولعل حديث الشَّيخ "أبو نوح سعيد بن زنغيل" مع جموع أهل "وارجلان" يُلخِّص لنا أهمَّ الانحرافات والمفاسد التي انتشرت في المجتمع، حيث يذكر صاحب "السِّير وأخبار الأئمة" أنَّ "أبا نوح" لمَّا رجع إلى "وارجلان" بعد موت الشَّيخ "أبي صالح جنون بن يمريان"، وجد أحوال أهلها بعد "أبي صالح" قدْ تغيَّرت فمكث فيهم ما شاء وجمع من ينظر إليه من وجوه "وارجلان" وقال لهم : «**إنّي رأيت فيكم ثلاث خصال كلُّها غير مرضيَّة، أمَّا الأولى فنكاح السِّرِّ فيكم ظاهر فإذا مرَّ أحدكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التُّهمة قال له: إنَّا قد تناكحنا، والثَّانية أنَّ أحدكم يُطلِّقُ عبيده ولا يعْبأ بهم ولا يأمرهم بطلب معاشهم فينطلقون في أموال النَّاس ويأخذون جريد النَّخل والليّف والكرانيف فيكاد أحدكم أنْ يصير سارقا وهو في المحراب قاعد، والثَّالثة أنَّكم أظهرتم بينكم التَّفرُّق فطائفة منكم تقول: مسْجدُنا ومسْجدُكم وبعضكم يقولون: حصيرتنا وحصيرتكم ويهودنا ويهودكم...**».[3]

---

[1]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.112. **وينظر أيضاً**، الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.610.

[2]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.112.

[3]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص.234.

ويُعدُّ الشَّيخ "أبا نوح" خيرُ شاهد على هذا التَّحوُّل الذي طرأ على "وارجلان" لكوْنه عاش فيها فترتين مختلفتين جسَّدتا منحى التَّغيير، والمعلوم أنَّه عاش فترة من الزَّمن بـِ"وارجلان" وكان ذلك في عهد الشَّيخ "أبا صالح جنون بن يمريان"، ثمَّ رجع إلى إفريقيَّة فوجد البلاد قد تَغيَّرت والصُّدور قد تنكرت[1]، فآثر العودة إلى "وارجلان" بعد وفاة "أبا صالح جنون بن يمريان" فوجد «**البلاد قد فسدت والأحوال على غير ما عهد**»[2]، ورواية "أبا سعيد بن زنغيل" من الأهمية بمكان كونها جاءت من واقع مُعاش فعلياً ولفترتين متباعدتين، جعلته قادراً على توصيف ورصد ذلك التَّحوَّل الاجتماعي، ولقد تجلَّت مظاهر الانحراف في ثلاث قضايا مُهمَّة تعدُّ الرَّكيزة الأساسيَّة للحياة الاجتماعيَّة.

أولها العلاقات الإثنيَّة بين الرَّجل والمرأة والتي كانت محلَّ الشُّبهة "**نكاح السِّرِ**"، هذه الظَّاهرة التي شَكَّلت تهديداً واضحا للنسيج الاجتماعي وتُنذر بتفكُّكه، أمَّا الثَّانية تعلَّقت بسطو العبيد على ممتلكات النَّاس على اعتبار أنَّ الزِّنجي إذا جاع سرق وخان مولاه[3] ووجود هذه الظَّاهرة في المجتمع يجعلنا نتساءل حول دور خطة الاحتساب خاصة إذا علمنا أنَّ الغرض من وجودها هو حفظ الأمن أمْ أنَّ هذه الفئة كانت خارج دائرة اهتماماتها؟ أمْ أنَّ محاسبتها وعقابها كانت تقع على عاتق مالكها على اعتبار أنَّها فئة مُستجلبة ومملوكة وأمرها بيد مالكها؟!

أمَّا الثَّالثة: فتمثَّلت في ظهور التَّفرقة والتَّحزُّب "أنّكم أظهرتم فيما بينكم التَّحزُّب والتَّفرقة... مسجدنا ومسجدكم وحصيرتنا وحصيرتكم..."، وفي هذا إشارة إلى أنَّ جدرا الوحدة قد طاله الاختراق والانشقاق جرَّاء ما وقع من اختلافات دينيَّة، وهذا ما يحمل نوع من الحياد أو الخروج عن المذهب الرَّسمي المعمول به، والتَّحوَّل إلى مذاهب

[1]– الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.145.

[2]– الدّرجيني: المصدر نفسه،ج.1، ص.154.

[3]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.115.

أخرى وإلى سلوكيَّات مُبتدعة، فـ"الدِّرجيني" أشار في أكثر من موضع إلى افتراق الإباضيَّة، وذات الإشارة نجدها عند "أبا زكرياء".[1]

وعلى غرار ما سبق ذكره من انحرافات برزت ظاهرة أخرى أيضاً في المجتمع تمثَّلت في "**الغشِّ في المعاملات**"، وهذا ما نستشفه من رواية "الوسياني" الذي ذكر بأنَّ "أبو مُحمَّد بن سليمان" جاز على الشَّيخ "أبي عبد الله بن أبي بكر" عند قدومه من "القلعة" فقال له: «**ما بالك لم تبلغ وارجلان فترى النَّاس ويرونك؟**» **فردّ عبد الله قائلاً: «مالي ولرؤية قوم عمدوا إلى مكيال عظيم فجعلوا فيه القدور والمقالي... فأخلطوا ذلك كلَّه ممَّا لا يستقيم اخلاطه وجمعه»**.[2]

ويبدو أنَّ ما آلت إليه "وارجلان" من انحرافات ومفاسد وخروج عن تعاليم المذهب الإباضي كان محلَّ انتقاد لاذع من قبل المشايخ الذين عبَّروا عن مواقفهم وعدم رضاهم على هذا الوضع بطرق مختلفة، كانت أغلبها مواقف سلبيَّة اكتفى فيها الكثير منهم بمغادرة الوطن بدل العمل على إصلاح الأوضاع، فالشَّيخ "أبا زكرياء" عندما كان في "قنطرار" عائدا من زيارة "وارجلان" سُئل من طرف جماعة عن أحوالها فكانت إجابته دالة وواضحة على الحال حيث قال: «**أمَّا ذهب بصري فلم أرى أحدا، وإمَّا رأيت "وارجلان" خلت فما بها أحد**».[3]

ويتَّضِح موقفه أكثر عند ردِّه على أهل حاضرة "وارجلان" الذين طلبوا منه أنْ يُقيم عندهم للاستئناس به، والاسترشاد برأيه ونصحه الدَّائم وتوجيهه السَّديد، فكان

---

[1]– الدّرجيني: المصدر السابق، ج.1، ص. 24 و67 و106 و118. **وينظر أيضاً**، أبو زكرياء: المصدر السَّابق، ص.92 و119 و180، و192.

[2]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.829.

[3]– أبو زكرياء: المصدر السَّابق، ص.24. **وينظر أيضاً**، الوسياني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.845.

جوابه لهم: «**قولوا أقمْ عندنا قليلا يمتْ قلبك**»، «**وهذا لما اطّلع عليه من سوء أحوالهم**».[1]

ويبدو أنَّ "وارجلان" التي كانت قِبلة للمشايخ أصبحت منطقة طَرْدٍ، فهل هذا راجع إلى سوء ما آلت إليه من انحراف وفساد أخلاقي؟ أمْ أنَّه راجع لشدَّة حساسيَّة منتقديها؟ فالشَّيخان النَّفوسيَّان "أبو يعقوب" و"أبو يوسف" تحرَّجا من دخول "وارجلان" تأميناً لسلامة نفسيهما وكأنَّ الشَّيطان قد استوطن تلك البلاد بحسب ما ذكره "**عيسى بن زاروا النَّفوسي**" الذي زار "وارجلان" ومكث فيها وخالطهم وعرف سرائرهم فقال: «**هذا موطن الشَّيطان الذي استوطن فيه وأطلق العمَّال في البلدان**»[2]. ممَّا يوحي وكأنَّ الصَّلاح قد أجتث من تلك البلاد[3]، فهل تبدُّلِ أحوال "وارجلان" وخمود العلم بها جعلها بيئة طاردة لعلمائها؟ أمْ أنَّ "وارجلان" فقدت مكانتها السَّابقة؟

وعلى الرُّغم من التَّحولات الاجتماعيَّة التي عرفتها "وارجلان" والتي كانت محلَّ انتقادات واسعة يبدو لي أنَّ المشايخ قَدَّموا صورة قاتمة على ما آلت إليه "وارجلان" ولربُّما هذا راجع لتشدُّدهم، ثمَّ أنَّ المشايخ والفقهاء غالباً ما يكونوا متأثرين بالمجتمع النَّبوي المثالي، فهم يقيسون مجتمعاتهم وفق ما ترتب في مِخيالهم على المجتمع النَّبوي، ولا يُخفى علينا أيضاً طبيعة الإباضيَّة الملتزمة، كما أنَّ ما آلت إليه "وارجلان" لا يمكن أنْ يكون بأيِّ حال من الأحوال دافعاً ومُبرِّراً لهجرتها أو عدم الدُّخول إليها. إنَّ ما عرفته "وارجلان" من انحرافات يجعلنا نتساءل حول موقف مجلس العزَّابة ومدى فاعليته في مثل هاته الظُّروف ودوره في ضبط السُّلوك الاجتماعي؟ وهل موقف المشايخ السِّلبي زاد من تفاقم الظَّاهرة؟ وكيف لنا أنْ نفسِّر هجرة العلماء منها، أمْ هي خيانة العالم لحاضرته؟

---

[1]– أبو زكرياء: المصدر السابق ،ص.24.

[2]– الوسياني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.844.

[3]– غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.113.

أمَّا الحواضر الأخرى فلم يكن حالها بأحسن حال من "وارجلان" فقد شهدت هي الأخرى بعض الانحرافات والمفاسد التي حرص الفقهاء على احتوائها، ومن بين هذه الانحرافات "**ظاهرة الغشّ في البيع**"، فممَّا روي عن الشَّيخ "عمران بن زيري" أنَّه وجد مع رجل من "بني مصعب" حِمْلُ تمر وكان ممزوجا بتمر قديم وجديد، فلمَّا قَدِم قال يا شيخ بعْت حمل التَّمر وربحت فيه ربحاً جيِّداً فقال له: هل بيَّنْتَ للمشتري أنَّ في التَّمر تمراً قديماً، فقال: لا، فقال له: ادفع إليَّ الأوعية وأمسك ما معك[1]. كما شاع بحاضرة "توات" السَّرقة والاعتداء على أملاك الغير بدون وجه حقٍّ، إذْ تُحيلنا النَّوازل إلى ظهور نوعين من الاعتداءات، أوَّلها خارجي، كانت "توات" تتعرض له باستمرار من قبل الأعراب المجاورين، ومن صورها اعتداء "الغنانمة" و"ذوي منيع" على سُكَّان القصور الشَّماليَّة، والثَّاني داخلي كمسارعة البعض إلى هدم الحيطان وكسر الجريد ليثبَّت بطريقة غير مشروعة حيازته للعقار، أو استغلال أملاك الغير تعدِّياً، وقطع التَّمر من النَّخل ومن المعاملات غير المشروعة التي جرى التَّعامل بها، أنَّ من كانت عنده أرض فإنَّه يدفعها لمن يحفر فيها ويطلب الماء فيها، فما خرج من الماء فله نصفه وثلثه.[2]

وفي تقديرنا أنَّ ما وقع من انحرافات في الحواضر الصَّحراويَّة هو أمر طبيعي، فهذه طبيعة كلُّ الحواضر الإسلاميَّة عند انتقالها من طور البداوة إلى طور التَّرف، تقع بها الانحرافات الاجتماعيَّة، فالانحراف مقرون بالتَّرف وفق النَّظرة الخلدونيَّة، ولِكَوْنِ حواضر الصَّحراء كانت مناطق عبور نحو الضِّفة الأخرى – شمالاً أو جنوباً – فلا نستبعد أنْ يكون اختلاط الأجناس بها عاملاً ساهم في انحرافها خاصة ما يقتضيه الأمر من وجود فنادق للمسافرين، ولقد أشْتُهرت "وارجلان" بكثرة فنادقها، منها: "**فندق**

[1]– مؤلف مجهول: **المعلقات**، ص.86.

[2]– أحمد بوسعيد: المرجع السَّابق، ص.95.

إبن فاطمة"[1] الذي أشار إليه "الوسياني"، والفنادق غالبا ما رُبطت بالفساد والميوعة. أمَّا عن موقف المشايخ السِّلبي من تلك الانحرافات كان مُبرراً لخروجهم منها فحسب خاصة بعد تبدل أحوال "وارجلان" وخمود العلم بها، ما جعلها بيئة طاردة لأبنائها العلماء.

ثالثا– تنظيم العمران بالحواضر الصَّحراويَّة:

منذ أنْ وُجد الإنسان على وجه الأرض وهو يسعى لتطوير ذاته والبحث على ما هو أفضل له والتَّأقلم مع وسطه، والمعلوم أنَّ الإنسان بشمال إفريقيا تطوَّر عبر مراحل مُختلفة خصوصا بعد اكتشاف الزِّراعة وما تبعها من استقرارٍ له، حيث سعى لتطوير مَسكنه والانتقال من سكن الكهوف والمغارات إلى سكن الأكواخ المبنية من أوراق الشَّجر، ومع مرور الزَّمن تطور السَّكن بتطور أحوال الإنسان واختلفت طرق البناء والشَّكل وفقا للظروف البيئيَّة لكلِّ منطقة، والمعلوم أنَّ العمران بالمغرب الأوسط تميَّز بتنوعه وثرائه، فمن أهم خصائص العمارة بالمغرب الأوسط أنَّها كانت عمارة ثرية ومتنوعة، ولعل أهم ما يميز العمران في المناطق الصَّحراويَّة ظُهور نمط القصور، فما هو القصر؟ وماهي أهم مميزاته؟

3 – 1 – مفهوم القصر في عمران الصَّحراء: يُعْرف القصر في المصادر اللغويَّة بأنَّه الحبس، ومنه ما جاء في حديث "أسماء بنت يزيد الأنصاريَّة من بني عبد الأشهل" (الأشهليَّة) عند قدومها على رسول الله ﷺ وافدة عليه من طرف جموع النِّساء المسلمات فقالت: «**إنا معشر النِّساء محصورات مقصورات**»[2].

[1]– الوسياني: المصدر السَّابق،ج2، ص.670.

[2] – أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: **الجامع لشعب الإيمان**، الباب: السُّتون من شعب الإيمان، رقم الحديث.**8369**، تح: مختار أحمد النَّدوي، مكتبة الرُّشد للنشر والتَّوزيع، الرِّياض، ط.1، 2003م، ج.11، ص.177 – 178.

وقَصُرت عن الشَّيء قصوراً بمعنى عجزت عنه ولم أبلغه، والقصر من البناء هو المنزل، وقيل كل بيت من حجر لأنَّه تُقْصَرُ فيه الحُرْمة (أي تحبس)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾.[1]

كما تُعرف لفظة القصر على أنَّها أصول الشَّجر والنَّخل والعِظام إذَا وقع وقُطع وهذا التَّشبيه لما يرفع في القصور من أسقف تحملها جذوع النَّخيل والأشجار والعِظام[2] والملاحظ من التَّعاريف السَّابقة لمعنى القصر(الحبس والمِنعة)، إذْ أنَّهما تتوافقان مع الخصائص المِعماريَّة له، ويقترب هذا المفهوم مع ما هو شائع في المصادر التَّاريخيَّة حيث يُقصد بالقصر مَقرُّ الخليفة وحاشيته.[3]

والقصر في عمارة الحواضر الصَّحراويَّة عبارة عن شكلٍ من أشكال التَّجمعات البشريَّة، وهو يُمثِّل نموذج حيوي لمجموعة من التَّقاليد السَّائدة بين سكَّان تلك المناطق وهو فضاء يميِّزه ثراء معماري، فهو بذلك نسيج معماري متجانس.[4]

ويُعرَّف القصر أو(كسر) أيضاً على أنَّه خَليَّة سُكَّنيَّة تضمُّ العديد من المنازل والأسر يجمعها تقارب وتشابه في أنماط العيش، وأيضاً بعض العلاقات الاجتماعيَّة ذات الأصول القبليَّة المتعدِّدة.[5]

---

[1]– **سورة الرَّحمان:** الآية.72.

[2]– جمال الدِّين ابن منظور: **لسان العرب،** الحرف: قاف، مادة: قصر، المصدر السَّابق، مج.5، ج.40، ص.3645.

[3]– ماجد عبد المنعم: **تاريخ الحضارة الإسلاميَّة في العصور الوسطى،** مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهر، **ط.7،** 1996م، ص.136.

[4]– ASSaLi. M: **Timimoune entre Tradition et modernité, mémoire fin d'étude,** Epau, Alger, juin.1998, p.1.

[5]– نور الدين بن عبد الله: **قصور منطقتي توات الوسطى والقورارة دراسة أثريَّة عمرانيَّة ومعماريَّة أنموذجاً** ، رسالة مُقدَّمة لنيل شهادة الدُّكتوراه تخصص: الآثار الإسلاميَّة، معهد الآثار، جامعة الجزائر (بوزريعة) – الجزائر، 2010م، ص.73. **و ينظر أيضاً:** مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات،** المرجع السَّابق، ص.90.

كما يُعرَّف أيضاً على أنَّه المكان المأهول على هضبات مرتفعة من سطح الأرض وبه مجموعة من المساكن والمنازل الموحَّدة في الشَّكل واللون، محاطة بسور مزدوج ومرتفع تتخلَّله أبوابٌ فوقها بروج مستديرة على جانبي مدخل القصر.[1]

- **أمَّا مفهوم القصر مرفولوجيا:** فيُعْرف على أنَّه كتلة كثيفة متماسكة ومتجانسة تمتد أفقياً، ذات علاقة مباشرة بمساحة خضراء مرتبطة بها وهي الواحة، وهو مرتبط بتوفر الموارد المائيَّة كشرط لاستغلال المجال وإقامة البساتين.[2]

3 – 2 – التَّسلسل الزَّمني لظهور القصور: من الصُّعوبة بمكان تحديد تاريخ واضح لنشأة القصور، وهذا راجع لقلَّة المصادر التي تشير إلى ذلك، وعليه سنحاول معرفة زمن نشأة القصور من خلال ما توفر لنا من آراء.

يرى "مارتان" (Martin) أنَّ القصور بُنيت من قبل القبائل العربيَّة وذلك في نهاية القرن (1هـ/7م) وحُجته في ذلك أنَّ هذه المناطق عَرفت الإسلام منذ القرن الأول الهجري.[3]

أمَّا "إيشالييه" (Échallier) فيرى أنَّ بعض قصور منطقة "قورارة" بُنيت في القرن (4هـ/10م)، ومع بداية القرن 12م قَدم إلى المنطقة قبائل هلالية هم بُناة قصر "الحاج قُلمام"، ويشير "إيشالييه" أنَّ قصر "تاحتايت" بـِ"قورارة" بُني في بداية القرن 13م، وأنَّ قصر "أولاد يعقوب" بـِ"تمنطيط" قد بنيَ في منتصف القرن(6هـ/12م) من قِبل

---

[1]– حنان عطية: «**البعد الأمني للعمارة بإقليم توات**»، مجلَّة الدِّراسات التَّاريخيَّة العسكريَّة، ع.1، تصدر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في التَّاريخ العسكري الجزائري، الجزائر، جانف/2019م، ص. 28 – 29.

[2]– عبد المالك بوقزولة: «**دراسة أثرية واجتماعيَّة تحليليَّة للمجتمع الصَّحراوي من خلال القصور الصَّحراويَّة – تقرت نموذجاً –**»، مجلَّة منبر التُّراث الأثري، مج.3، ع.4، يصدرها مخبر التُّراث الأثري وتثمينه بجامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، ديسمبر/2015، ص.79.

[3]– A.G.P. Martin: **quatre siècle d'histoire marocain au Sahara**, Paris, 1923, P.81

قبائل بربريَّة (لمتونة)، وفي نفس الفترة شُيِّد قصر "علي موسى" بـِ"قورارة" من طرف قبائل عربيَّة.[1]

أمَّا الرَّحالة والمؤرخون العرب فقد كانت كتاباتهم بخصوص هذا الشَّأن مقتضبة جدّاً، فَـ"إبن بطوطة" الذي زار واحة "بوده" في القرن (8هـ/14م) اكتفى بالإشارة إلى أنَّها أكبر قرى "توات".[2]

ويذكر "إبن خلدون" في تاريخه فيقول: «... "**توات**" **فيه قصور مُتعدِّدة، تناهز المائتين آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها من جانب المشرق يسمَّى "تمنطيط"، وهو بلد مستبحر العمران**»، ويضيف متحدثا عن مناطق "قورارة" فيقول: «**ومن هذه القصور، قبلة "تلمسان" وعلى عشرة مراحل منها قصور، "تيكارين" وهي كثيرة تقارب المائة في بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق واستبحر في العمران وغصّت بالسُّاكن**»[3]، أمَّا "الحسن الوزان" فخلال وصفه لـِ"تسابيت" اكتفى بالقول بأنّها: «**إقليم مأهول في صحراء "توميديا"، يضمّ أربعة قصور وقرى عديدة**».[4]

3 – 3 – التَّكوين المعماري للقصر وأدوات بنائه: حازت القصور الصَّحراويَّة على معمار متميِّزٍ ترجم قدرات الرَّجل الصَّحراوي العقليَّة في التَّخطيط العمراني، حيث أمَّن هذا العقل المُخَطِّط مستلزمات حياته وبقائه سليماً معافاً من التَّغيرات المناخيَّة وحوادث الطَّقس التي تقع بين الفينة والأخرى، أو من إي إغارة خارجيَّة قد تسلبه أمنه، فكانت قصوره تحوي فضائن هما: الفضاء المُدنَّس والفضاء المُقدَّس، ولكلٌّ منهما خصوصياته، فما هذين الفضاءين؟

---

[1]– Échallier. (J.C): **Villages désertes et structures agraires ancienne au Touat Gourara**, Paris, 1972 , P.51.

[2]– ابن بطوطة: المصدر السَّابق،ج2، ص 714.

[3]– ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.77.

[4] – الوزان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.133.

3 – 3 – 1 – الفضاء المُدنَّس: ويتكون هذا الفضاء من التَّالي:

2– 3 – 1 – 1 – الأسوار:

لا شكَّ أنَّ الإنسان منذ القديم شعر بالحاجة إلى حماية تجمعه خاصة في أوقات الانصراف للعمل، أو الخلود للراحة ولقد ترجم وسيلة الحماية تلك في السُّور الذي أنشأَ بأشكال مُتعدِّدة، ويُعدُّ من المباني الدِّفاعيَّة التي ظهرت ملامحها كضرورة تهدف لتوفير عنصر الأمن والاستقرار، فكان كل قصر من قصور الواحات يُحاط بسور مزود بأبراج، وبناء السُّور غالبا ما يكون على التَّخطيط المستدير كما هو الحال بقصر "**تماسخت**" بـ"تِوات"[1]، ويبلغ سُمك بعض الأسوار حوالي (1.55م) إلى (1.60م)، أمَّا ارتفاعه فيصل إلى (10أمتار)، ويساعد سُمك السُّور على متانة الإنشاء من ناحية وعدم تمكين العدو من شَقِّه بسهولة من ناحية أخرى وهذه الضَّخامة كانت مُتعمَّدة بغرض تحقيق غايتين أولها: يتعلق بالجانب الدِّفاعي بحيث يصعب تدميره وبالتَّالي يُعيق الدُّخول والتَّقدم، والثَّاني: طبيعي إذْ أنَّه يحبس الحرارة داخله في النَّهار ليجعل الجو بارداً من الدَّاخل، والعكس في الليل.[2]

3 – 3 – 1 – 2 – الأبراج:

تندرج أيضاً ضمن العمارة الدِّفاعيَّة ويري البعض أنَّ ظهورها يعود إلى القرن 12م، ومن خلالها يمكن مراقبة داخل القصر وخارجه، وهي مختلفة الأشكال منها: أبراج ضخمة مخروطيَّة هرمية أو مستطيلة تتكون من طابقين أو ثلاثة يُصعد إليها عبر السُّلم الدَّاخلي، وغالبا ما تكون الأبراج في القصور المربَّعة أو المستطيلة وهذا

---

[1]– مُحمَّد أبو حميدة: «**الجانب التَّاريخي للأسوار**»، مداخلة ضمن النَّدوة الوطنيَّة حول أسوار المُدن العتيقة، مُديريَّة التُّراث الثَّقافي، المملكة المغربيَّة، (د س ن)، ص.27. **وينظر أيضاً**، نور الدَّين بن عبد الله: المرجع السَّابق، ص.80.

[2]– حنان عطية: المرجع السَّابق، ص.32 .

بسبب أرضيتها المستوية، كما هو الحـال في قصر "**أولاد مُحمَّد**" بـِ"توات"، حيث دُعِمَت أسواره بـأربعة أبـراج رُكنيَّة مَزجت بين الشَّكـل الهرمي والمستطيل.[1]

3 – 3 – 1 – 3 – الخندق:

في اللغة يعني الوادي[2]، ويعرف في "توات" باسم(**أحفير**) وتعني البئر الموسعة فوق قدرها، والخندق يُصنَّف ضمن المنشآت الدِّفاعيَّة، ويُقدَّر خندق قصر "**تماسخت**" بثمانية أمتار وهي مسافة الأمان الفاصلة بين السُّور ومباني القصر، وعرضه(1.50م) وعمقه(2.50م)، وهو دائري الشَّكل مَحفور في الصَّخرة مباشرة، يُملأ بالماء أثناء الشُّعور بالخطر.[3]

3 – 3 – 1 – 4 – الأبواب (المدخل الرَّئيسي): وهو باب خشبي كبير جدّاً يُعرف محليا "**بفمّ القصر**" ويُتخذ من جذع النَّخل وبعض القطع الحديديَّة لمسك الجذوع، ويُصنع قفلهُ من أدوات حديديَّة محليَّة الصُّنع في شكل أسنانِ المشط ويُسمى "**أفكر**".[4]

والأبواب عُنصر هامٌّ كونها منافذ المدينة ونوافذها، وعلاوة عن وظيفتها التَّحصينيَّة فإنَّها تُشكِّل نقطة وصل بين خارج وداخل المدينة؛ وكانت أبواب القصور تُغلق ليلاً بعد صلاة العشاء وتفتح بعد صلاة الفجر، ويُراقب الدُّخول والخروج منها طيلة اليوم من طرف البَوَّابُ.[5]

---

[1]– حنان عطية: المرجع السابق، ص 32. ، **وينظر أيضاً**، نور الدِّين بن عبد الله: المرجع السَّابق، ص.79.

[2]– جمال الدِّين ابن منظور: **لسان العرب**، الحرف: خاء، مادة: خندق، المصدر السَّابق، مج.2، ج.15، ص.1273.

[3]– حنان عطية: المرجع نفسه ، ص.117.

[4]– أحمد أبا الصَّافي جعفري: **من تاريخ توات أبحاث في التُّراث**، المرجع السابق، ص.588.

[5]– الصِّديق ثياقة و فاتحي عبد النَّبي: «**النَّمط المعماري للمدينة الصَّحراويَّة ووظائفها الاجتماعيَّة قراءة أنثربومجاليَّة لقصور توات قصر تمنطيط أنموذجا**»، مجلَّة الباحث العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، (ع.خ) بالملتقى الدولي حول: تحولات المدينة الصَّحراويَّة تقاطع مقاربات حول التَّحول الاجتماعي والممارسات الحضريَّة، مج.7،

وللقصر ثلاثة أبواب رئيسيَّة مفتوحة على البساتين والطُّرق المؤدية إلى القصور المجاورة، ومنها باب احتياطي يسمى "**باب الخوخة**" أو "**النَّجدة**" يُستعمل عند الحاجة وبالخصوص عند الغارات والحصار وهذا الباب بمثابة المُتنفَّس وعيناً لمراقبة حركات العدوّ.[1]

3 – 3 – 1 – 5 – الشَّوارع: وصفها الفرسطائي "**بشريان القصر**"[2]، وقد تمَّ إنشاءها وفق التَّشريع الإسلامي المُحدِّد لمقاييس الشَّوارع مصداقا لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «إذا اختلف النَّاس في الطَّريق فَحدُّها سبعة أذرع»[3]، والشَّوارع نوعان بحسب نمط القصر، شوارع مُتَّسعة غالبا ما تكون في القصور ذات التَّخطيط المربع أو المستطيل، وتتسم بالانعراج والظُّلْمة، أمَّا الشَّوارع الضَّيِّقة فنجدها في القصور الدَّائريَّة أو شبه الدَّائريَّة وتتميز بالتَّراص والالتحام.[4]

وارتبط شكل الشَّوارع في القصور الصَّحراوية وفق ما يتلاءم مع الظُّروف المناخيَّة من حرارة ورياح ورطوبة، فقصور "وادي ريغ" خَطَّطت الشَّوارع والأزقَّة والدُّروب فيها بشكل ينكسر عند الزَّوايا للتقليل من شِدَّة الرِّياح وأشعة الشَّمس، وتَزداد الشَّوارع ضيِّقاً كلما توغلنا داخل القصر إلى الدُّروب المغلقة التي قد يصل عرضها إلى(1م) مقدار ما

=

ع.22، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، مارس2015م، ص.116. **وينظر**، مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات**، المرجع السَّابق، ص.91.

[1]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.38 – 39.

[2]– أبو العباس أحمد بن مُحمَّد الفرسطائي: **القسمة وأصول الأرضين**، تح: بكير بن مُحمَّد الشَّيخ بلحاج ومُحمَّد صالح ناصر، منشورات جمعيَّة التُّراث، لقرارة – الجزائر، ط.2، 1997م، ص.170.

[3]– **سنن أبي داود، كتاب الأقضية**، باب: من القضاء، رقم الحديث.**3633**. **وينظر أيضاً: سنن التِّرمذي**، أبواب الأحكام، باب: ما جاء في الطَّريق إذا أختلف فيه، رقم الحديث.**1356**.

[4]– حنان عطية: المرجع السَّابق، ص.33.

يستطيع الإنسان المرور، وبغرض توفير كَمِيَّة كبيرة من الظِّل ترتفع المباني على الجوانب.[1]

كما تزداد الشَّوارع انعراجاً وتغطي نسبة كبيرة منها ما يعرف "**بالسَّاباط**"، وتسمى في "وادي ريغ" **بـِ"السّقايف**" ويراعى في توجيه الشَّوارع اتجاه الرِّياح لهذا فإنَّه يتمُّ توجيهها من الشَّمال إلى الجنوب لكي تعمل على كسر شِدَّة التِّيارات الهوائيَّة الباردة شتاءً، والحارة صيفاً، فتكون بمثابة مِصفاة للتيارات الهوائيَّة الدَّاخلة للقصر، أمَّا في منطقة "قورارة" فيتمُّ تمرير الفُقَّارة داخل شوارع القصر ليتشبع الجوُّ بذرات الماء ممَا يُضفي عليه الرُّطوبة.[2]

3 – 3 – 1 – 6 – الأحياء: توزع الأحياء بحسب الانتماء القبلي وأحياناً تُحاط هي كذلك بأسوار لها أبواب تغلق في حالة حدوث فتن بين القبائل، ويحتوي كلُّ حيٍّ على مُصلى.[3]

3 – 3 – 1 – 7 – الأزقَّة والدُّروب:

هي عبارة عن ممرات منعرجة ومسقوفة وهي بمثابة الشَّرايين التي تتفرع في القصر لربط طرقه الرَّئيسيَّة مع الأحياء السُّكنيَّة وهي نوعان: أزقة عموميَّة نافذة، وأزِقَّة نصف عموميَّة غير نافذة مؤدية إلى الدِّيار المنفتح عليها، ولا يزيد اتساعها عن متر ونصف ما يسمح بمرور حِمَارين مُحمَّلَيْنِ وقد أُنشأت هذه الأزقَّة وفق معايير احترمت فيها الأعراف وروعيَا فيها أخلاقيات الحشمة والحرمة، وغالبا ما تكون هاته الأزقَّة

---

[1]– يمينة بن صغيري حضري: «**العوامل المؤثرة في تشكيل مرفولوجيَّة القصور – قصور منطقة وادي ريغ نموذجاً**»، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج.8، ع.2، معهد العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة غرداية، الجزائر، 2015م، ص.866. ينظر الملحق رقم(01)، ص .504.

[2]– يمينة بن صغيري حضري: المرجع نفسه، ص.867.

[3]– إسماعيل بن نعمان: «**نظرة على القصور الصَّحراويَّة من خلال بعض مقالات الدُّكتور علي حملاوي**»، مجلَّة الدِّراسات الأثريَّة، مج.8، ع.1، تصدر عن معهد الآثار، جامعة الجزائر(2)، الجزائر، ديسمبر2010م، ص.25.

مسقوفة وملتوية بغرض توفير قسطٍ وافرٍ من الظِّل الذي يُضفي على القصر نوعاً من الانتعاش خلال فصل الحرارة[1].

أمَّا الزُّقاق فقط كان شبيها شكلاً وأداء بالسَّباطات الموجودة في القرى المغربيَّة القديمة المنتشرة على طول "وادي درعة" جنوب المغرب.[2]

3 – 3 – 1 – 8 – الرَّحبة أو (السَّاحة):

عِبارة عن ساحة عموميَّة تتموضع وسط القصر، وهي مركز حيوي ومجال عمومي حُرٍّ تُحيط به البنايات المجاورة غير مغطى وتُؤدي جملة من الوظائف، منها: الاجتماعيَّة حيث تُقام فيها مُختلف الحفلات والأعياد الموسميَّة، وتُشكِّلُ أهمَّ مجالات اللقاء والتَّبادل الإعلامي ومكان تلاقيهم اليومي لاسيما بالليل، كما كانت المكان الذي تُجهَّز فيه القوافل التِّجاريَّة المُسْتعدَّة للرحيل، ومحطة لنزولها عند العودة، ومِن وظائفها أيضاً تيسير الحركة في هذه الشَّوارع وتكسير حِدَّة الظَّلام في بعض الأزقة والدُّروب.[3]

3 – 3 – 1 – 9 – تصميم البيوت والمنازل داخل القصر:

تتشكل البيوت من مدخل خشبي ومن ثلاثة إلى أربعة غرف زائد مطبخ وفناء عام يسمى "**الحوش**" أو "**الصَّحن**"[4]، وتتمركز الحياة الاجتماعيَّة في البيت حول الصَّحن الذي تتحلَّق حوله جميع الغرف فهو السَّبيل الوحيد لاستلهام النُّور والتَّهوية لها، كَمَا يُشكِّل "الصَّحن" أو "الحوش" بقعة استقطاب الشَّمس، وقد قيل قديماً أنَّ البيت

---

[1]– الصِّديق ثياقة وفاتحي عبد النَّبي: المرجع السَّابق، ص.116. **وينظر أيضاً**، نور الدِّين بن عبد الله: المرجع السَّابق، ص.79.

[2]– الصِّديق ثياقة و فاتحي عبد النَّبي: المرجع نفسه، ص.116.

[3]– إسماعيل بن نعمان: المرجع السَّابق، ص.25.

[4]– حمزة بن حاج علي: **التَّراث الثَّقافي لمنطقة تيدكلت. دراسة تاريخيَّة أثريَّة**، مُذكِّرة مُقدَّمه لنيل شهادة الماجستير، تخصص: صيانة وترميم الآثار، إشراف: محمد المصطفى فلاح، قسم الصِّيانة والتَّرميم، معهد الأثار، جامعة الجزائر(2)، الجزائر، 2012م، ص.77.

الذي تدخله الشمس لا يزوره الطَّبيب[1]، كما يُساعد "الصَّحن" على تنظيم الحرارة داخل المسكن حيث أنَّ تَجمُّع الهواء البارد طول الليل يؤدي إلى توفير قدر من البرودة خلال النَّهار[2].

أمّا في "وادي ريغ"، فقد كان تصميم البيوت على النَّحو التَّالي:

3 – 3 – 1 – 9 – 1 – السَّقيفة: تكون في مدخل البيت وتُفْضي إلى الفناء إذا كان البناء أرضياً أو إلى البَهو إذا كان المبنى ذا طابقين، ويُحيط بالفناء أو البهو الغرف وباب السُّلم الذي يصعد إلى الدَّور الأوَّل أو السَّطح.

3 – 3 – 1 – 9 – 2 – المخزن: وهو الغرفة الكبيرة التي تُخزَّن فيها العُولةُ[3] والمؤونة من دقيق وتمر وزيت... إلخ، وربما مواعين البيت وأدواته الاحتياطيَّة، بالإضافة إلى خابية التَّمر التي تَعول منها العائلة خلال السَّنة.

3 – 3 – 1 – 9 – 3 – غرف النَّوم: وعددها يتوقف على المستوى المادي للعائلة وبحسب عدد أفرادها المتزوجين.

3 – 3 – 1 – 9 – 4 – غرفة التَّمر: وهي مُخصَّصة للغلة عموما، فبعض الأسر الغنيَّة تُخصِّص دار لهذا الغرض.

3– 3 – 1 – 9 – 5 – غرفة الضُّيوف: وهي حُجْرَةٌ لا يخلو منها بيت، وعادة ما تكون عتبتها مفتوحة على الشَّارع وعلى البيت معاً، وأحيانا يُخصَّص قسم كامل يقتطع من البيت للضيوف.

---

[1]– نور الدِّين بن عبد الله: المرجع السَّابق، ص.83.

[2]– حمزة بن حاج علي: المرجع السابق، ص.77.

[3]– **العُوْلَةُ:** هي الشيء المستعان به. **ينظر**، جمال الدِّين ابن منظور: **لسان العرب**، الحرف: عين، مادة: عول، المصدر السَّابق، مج.4، ج.35، ص.3176.

3 – 3 – 1 – 9 – 6 – الإسطبل: وهو مُخصَّص للحيوانات و البهائم، وبه بيت قضاء الحاجة ويكون دائما على هامش البيت.[1]

3 – 3 – 1 – 9 – 7 – النَّوافذ: تتميَّز البيوت الصَّحراويَّة بانغلاقها على نفسها ولهذا نجد أنَّ واجهاتها صماء إلَّا من بعض الفتحات الصَّغيرة التي تعمل على إدخال النُّور والهواء، في حين نجد النَّوافذ تفتح على الصَّحن، وهذه الظَّاهرة مَردُّها إلى عامل الحياء والمحافظة التي تتحلى به العائلات الصَّحراويَّة، وكذا تأثيرات العوامل الطَّبيعيَّة.[2]

3 – 3 – 1 – 9 – 8 – بئر الشُّرب: ويكون هذا احتياطاً لأوقات الحرب التي يُغلق فيها باب القصر لمدَّة قد تطول أو تَقْصرُ بحسب ظروف الحرب، ومن ثمَّ وجب أخذ الاحتياط من المياه عن طريق هذا البئر الذي يتوسَّطُ القصر.

3 – 3 – 1 – 9 – 9 – المخزن الخارجي: ويُسمَّى "**بالميشار**" ويكون بجانب البيت وأحيانا بعيد عنه، وهو فناء مربع الشَّكل في غالبه مُحاطٌ بجدار طيني نصفه مفتوح والآخر مغطى، وفيه تُحفظ المنتوجات السَّنويَّة من التَّمر والزَّرع والقمح وشتى أنواع المُدَّخرات.[3]

3 – 3 – 1 – 9 – 10 – بيت الحيوانات: هو عبارة عن بناية صغيرة على جانب البيت تتشكل من فُسْحتين أساسيتين، الأولى: مغطاة، والثَّانية دون غطاء، وتُتخذ مأوى للحيوانات الأليفة التي تعيش مع الإنسان ويعيش عليها وعلى ما توفره له من لحم وحليب وبيض وجلد وصوف.[4]

---

[1]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.39.

[2]– نور الدِّين بن عبد الله: المرجع السَّابق، ص.83.

[3]– أحمد أبا الصَّافي جعفري: **من تاريخ توات**، ص.591 – 592.

[4]– نفسه، ص.592.

3 – 3 – 2 – الفضاء المقدّس: ويتكون هذا الفضاء من التَّالي:

3 – 3 – 2 – 1 – المسجد: يُمثّل المسجد المركز الدِّيني والرُّوحي في القصر، ويقتضي اختيار المكان الملائم له بحيث يُراعَى فيه توسطه في قلب القصر ويكون محور تتجه إليه شوارع القرية في شكله المعماري وبرج منارته العالية، ويُشكِّل المسجد نقطة استقطاب وتوحيد لأطراف القصر، وفي هذا الصَّدد تبرزُ أهمية الصَّلاة كممارسة دينيَّة تعمل على جمع الشَّمل وتوحيد الجماعة، وهذا من خلال الوظائف التي يؤديها المسجد في حياة هذه الجماعة من عبادة واجتماع، واتصال وإعلام، ففيه تعقد كل المواثيق التي تؤطر حياة العامة، من زواج وغيرها، ناهيك عن وظيفته التَّربويَّة والعلميَّة.[1]

أمَّا بِخصوص شكل المسجد فغالباً ما يكون مُربع أو مستطيل، يحوِي في جدار قبلته مِحراباً ومنبراً بالإضافة لبعض الحَنيات مثلثه أو نصف دائريَّة توضع فيها المصاحف وبعض الأغراض الأخرى، كقناديل الزَّيت للإنارة.[2]

3 – 3 – 2 – 2 – الأضرحة:

يُشَكِّلُ المقدَّس جوهر الاعتقاد الدِّيني فهو في مظاهره الواقعيَّة مكان وزمان وإنسان، والأضرحة هي أمكنةٌ مُقدَّسة لأنَّها قبور لأناس صالحين يملكون مكانة عند الله خبرها النَّاس فيهم، بلغوها بسلوكاتهم التي كانوا يعيشونها متطابقة مع الشَّرع الإسلامي الحنيف حتى أصبحت حقيقة تُزاوج بين القول والفعل، والنَّاس تلحظها عليهم – كما مرنا معنا أعلاه – فأصبحوا أولياء لله. وتعتبر الأضرحة من العناصر المُهمَّة

[1]– الصِّديق ثياقة و فاتحي عبد النَّبي: المرجع السَّابق، ص.117. **وينظر**، نور الدِّين بن عبد الله: المرجع السَّابق، ص.77.

[2]– نور الدين بن عبد الله: المرجع نفسه،، ص.78.

بالنِّسبة للأهالي وذلك للدور الذي يؤديه الوليّ من خلال خلق فضاء زماني ومكاني لالتقاء الأهالي عنده بسبب الزِّيارات التي تُقام لسنويَّة الوليّ.[1]

ويبدو أنَّ تلك الزِّيارات كانت بمثابة التِّرياق ضدَّ القلق والتُّوتر وتمنحهم الطُّمأنينة المنشودة، لذلك يحيط بالقصر عدد من الأضرحة ذات الشَّكل المخروطي أو المكعب والمتميِّزة بلونها الأبيض النَّاصع، كما كانت الأضرحة تتواجد في عِدَّة أماكن مختلفة فقد وُجدت في المقابر القديمة وفي الحقول وعلى حافة الطَّريق ومنها ما هو مُلحق بالمسجد، وشُيِّدت هذه الأضرحة من مواد مَحلِّيَّة كالطِّين واللبِن وطُليت بالجير، ويُعاد طلاءها مرَّة كلَّ سنة وربما يكون ذلك خلال الزِّيارة السَّنويَّة.[2]

3 – 3 – 2 – 3 – المقبرة: تمتدُّ على مساحة شاسعة وقد تحتوي على مصلى جنائزي، ويوجد بالقصور ذات الحجم الدِّيمغرافي الكبيرة عِدَّة مقابر، كلٌّ مقبرة خاصة بفئة اجتماعيَّة مُعيَّنة، لا ترضى أنْ يُدفن فيها أحد غير موتاها مالم يشترك معها في نفس الجدِّ أو الفئة الاجتماعية في عالم الأحياء، ويبدو لنا أنَّ الفوارق الاجتماعيَّة والتَّمييز لم يَسلم منها حتى عالم الأموات، وموضع المقابر غالبا ما يكون خارج القصر.[3]

3 – 3 – 3 – المواد المستعملة في بناء القصور: أُستعمـل في بناء القصور مواد محلِّيَّة تتوافق مع الظُّروف المناخيَّة والبيئيَّة، منها:

3 – 3 – 3 – 1 – الرَّمل: الذي يحتوي على الطِّين حيث له خصائص ليِّنة سمحت له أنْ يكون بِلاطاً يُستخدم للإتساق، وهو خليط من الجبس التَّقليدي له لون رَمادي يستخرج من المقطع.

---

[1]– الصِّديق ثياقة و فاتحي عبد النَّبي: المرجع السَّابق، ص.118. **وينظر**، نور الدِّين بن عبد الله: المرجع نفسه، ص.78.

[2]– الصِّديق ثياقة و فاتحي عبد النَّبي: المرجع السابق، ص.118.

[3]–نفسه .

3 – 3 – 3 – 2 – الخشب: يطغى على المباني الصَّحراويَّة استعمال جذوع النَّخيل لوفرتها بالمنطقة ويتم اختيار النَّخلة غير المنتجة، ويتمُّ تقسيمها طُولياً إلى قسمين أو أربعة حسب الحاجة، ثمَّ تُغمرُ في ماءٍ مالح لقتلِ الحشرات الضَّارة ولتكتسب القطعة الخشبيَّة متانة أكبر، ثُمَّ تُعرَّضُ لأشعة الشَّمس لبضعة أيَّام حتى تجف، وتستخدم هذه الأخشاب في صناعة السَّقف الأبواب والسَّلالم.[1]

3 – 3 – 3 – 3 – الطُّوب: ويتمُّ الحصول عليه بخلط الطِّين والرَّمل بالماء ويُستخدم في بناء الجدران الدَّاخليَّة، أمَّا الجُدران الخارجيَّة فيتمُ بناؤها بالحجارة لصلابتها ومقاومتها جميع الظُّروف، ناهيك عن مواد أخرى يتم استعماها على حسب الحاجة.[2]

وتلك المواد المستعملة أكثرها مُلَاءَمَةً للبيئة، فهي ذات ناقليَّة حراريَّة ضعيفة حيث تمنع الانتقال الكبير للحرارة من الخارج إلى الدَّاخل صيفاً ومن الدَّاخل إلى الخارج شتاءً، كما لها خاصِّيَّة عالية في تخزين الطَّاقة الحراريَّة من البيئة المحيطة بها، بِحيثُ أنَّ أشعَّة الشَّمس التي تخترق الجدران أو الأسطح لا تمرُّ إلى الفراغات الدَّاخليَّة إلَّا بعد مرورِ ما يُقارب خمسة أو سبع ساعات مما يجعلها تحتفظ ببرودة الليل إلى اليوم الموالي، كما تُعتبر بعض بقايا النَّباتات التي تُضاف إلى الطِّين مثل: التِّبْن من المواد العازلة للحرارة، فتلك المواد تتأقلم مع المناخ السَّائد بالمنطقة من حيث توفير البرودة صيفا والحرارة شتاءً[3].

3 – 3 – 3 – 4 – الألوان: يُحدِّد اللون الخارجي للسطح مدى قُدرته على امتصاص الأشعَّة الشَّمسيَّة المباشرة، وكلما كان اللون فاتحاً كلما زادت قدرته على عكس الأشعَّة وانخفضت النِّسبة التي يُمتصُّها من الأشعة، لهذا فإنَّ معظم المباني

[1]– إسماعيل بن النُّعمان: المرجع السَّابق، ص.28. **ينظر** الملحق رقم (02)، ص .505.

[2]– عبد المالك قزولة: المرجع السَّابق، ص.81 – 82. **ينظر** الملحق رقم (03)، ص .506.

[3]– يمينة بن صغير حضري: المرجع السَّابق، ص.869.

تستعمل الألوان التُّرابيَّة أو اللون الأبيض وإنْ كان هذا اللون غالبا ما خُصَّت به المباني الدِّينيَّة كالمساجد والأضرحة، ولكسر اللون الأبيض والتَّقليل من قُوَّتهِ تُلَبَّسُ الجدران بشكل خشن[1].

3 – 4 – مميزات العمارة الصَّحراويَّة: تَمَيَّز العمران بالحواضر الصَّحراويَّة بجملة من الخصائص أهمُّها:

3 – 4 – 1 – الموقع المرتفع: بُنيت هذه القصور فوق هضبة مُرتفعة بهدف الاستطلاع والكشف، وبتوافق بين ثلاثة عناصر أساسية وهي الطِّين(الأرض)، الماء(المياه الجوفيَّة)، المُقدَّس (والمتمثل في الضَّريح، أو الوليّ الصَّالح، أو الزَّاوية).[2]

3 – 4 – 2 – البساطة:

حيث تَميَّزت المباني بالبساطة والتَّشابه سواءً من حيث الشَّكل أو من حيث مواد البناء، وغالباً ما كانت ذات طابق واحد، كما تَميَّزت بِقلَّة الزَّخرفة التي نادراً ما نجدها، وإنْ وُجدت، فهي مقتصرة على مساكن الأسر الميسورة، بينما تَشابهت مساكن العامة، ولربَّما هذا يعود لتقارب المستوى المادي والمعيشي بين أفرادهم فأغلبهم يُمارس الفلاحة التي وصفها "إبن خلدون" بأنَّها مَعاش المستضعفين، أمَّا مساكن عَلْياء القوم أو الوجهاء فقد تَميَّزت مساكنهم باتساع المساحة وتَعدَّد أقسامها، واستعمال بعض مواد البناء المُكلَّفة(كالحجارة والجصِّ) وبعض العناصر المعماريَّة (كالقبَّة والأعمدة).[3]

3 – 4 – 3 – التَّنظيم المُحكم:

---

[1]– يمينة بن صغير حضري: المرجع نفسه ، ص.870.

[2]– أحمد أبا الصَّافي جعفري: **من تاريخ توات**، المرجع السَّابق، ص.596. **وينظر أيضاً**، عبد القادر خليفة: «**من القصر الصَّحراوي إلى المدينة الحديثة**»، مجلَّة الباحث العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مج.1، ع.1، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، ديسمبر2010م، ص.128. **ينظر**، الملحق رقم (04)، ص .507.

[3]– يمينة بن صغير حضري: المرجع السَّابق، ص.874 – 875.

من أهمِّ المُميِّزات التي يمكن ملاحظتها في تخطيط القصور ذلك التَّنظيم المُحكم في تقسيم مختلف الفضاءات، والتَّدرُّج من العام إلى الخاص، حيث نجد انعزال الأحياء السَّكنيَّة عن العامة، كما تَمَّ إخراج بعض النَّشاطات المُضِرَّة بصحَّة السُّكان كالدِّباغة، وصناعة الفخَّار وغيرها من الأنشطة خارج القصر وهذا لضمان صحَّة وسلامة السَّاكنة، وهذا الأمر نَجده أيضاً في نشأة المدن في الحضارة الإسلاميَّة، فهناك الكثير من الأشياء استمَدَّها المعماري من شروط بناء المدن، فالقصر في حواضر الصَّحراء كان صورة مُصَغَّرة عن المدينة.[1]

3 – 4 – 4 – حضور الدِّين والأعراف:

إنَّ أهمَّ ما كان يَتحكَّم في تخطيط القصور وتنظيمها هي الأعراف(أزقان) التي كانت تَحكم تلك المجتمعات في مختلف المجالات الحياتيَّة، ولنا أنْ نُلاحظ ذلك الحضور في تخطيط القصر، حيث يمنع أيَّ أحدٍ من أهل الدَّرب الغير نافذ أنْ يُحدث ميزاباً، أو كَنِيفاً إلَّا بموافقة أهل الدَّرب جميعاً لأنَّها مِلك جماعي، وعدم مُقابلة أبواب الجيران مُراعاة لحرمة البيوت، كما زُوِّدت مداخل أبوابها بسقيفة لكسر النَّظر ومنع رؤية من بداخلها. ولخلق حريَّة إضافيَّة لحركة المرأة داخل البيت، نلاحظ الحرص على حرمة البيوت في تخطيط القصر في أكثر من موضع، كما لا يحقُ لأحدٍ فتح باب بزقاق إلَّا برضى جميع أهل الزُّقاق[2]، كما يجب أنْ لا يتعدى ارتفاع جُدران المباني الموجودة في الوسط سبعة أمتار، إذْ يُراعى فيه عدم حجب الشَّمس عن الجار إلَّا بمقدار وبشكل لا يسمح بالاطلاع عليه.

3 – 4 – 5 – الخصوصيَّة: وذلك بعدم السَّماح للأجانب بالتَّغلغل داخل القصر إلَّا بقدر ما تسمح به الحاجة، كما جاء تنظيم الشَّوارع مُتدرجاً من الشَّوارع الرَّئيسيَّة التي

[1]– يمينة بن صغير حضري: المرجع السَّابق ، ص.875.

[2]– نفسه، ص.875 – 876.

تسمح بمرور شخص ودابته إلى الأزقَّة الضَّيقة، فالدُّروب الغير نافذة الخاصة بالأسر من نفس العائلة يُمنع على الأجانب دخولها إلَّا بالإذن وغالبا ما تُزوَّدُ بأبواب تغلق ليلاً وتفتح نهاراً زيادة للأمن.[1]

3 – 4 – 6 – حضور القيم الاجتماعيَّة:

جَسَّد العمران بالحواضر الصَّحراويَّة جُملة من القيم السَّامية التي سادت المجتمع، فالمعماري المَحلِي عَمِدَ إلى إعطاء القصر شكلاً مِعمارياً يُراعي فيه الحريَّة الشَّخصيَّة وحُسن الجوار، ويُمكن أنْ نَلمس ذلك في تلاصق البنيان وتداخله، وإنْ كان الهدف من ذلك بيئي بقصد التَّقليل من أشعَّة الشَّمس والحرارة الخارجيَّة، فإنَّه جسَّد في الوقت ذاته قيمة اجتماعيَّة تؤكِّد على الإحساس بالتَّقارب الاجتماعي[2] وحسن الجوار، وتُجسِّد قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَرَاحُمِهِمْ وتَوَادِّهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى**»[3]، وقوله أيضاً: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**».[4]

3 – 4 – 7 – التَّعاون والتَّكافل الاجتماعي: ونلمس هذا التَّعاون من خلال إسهامهم في كل ما يخصُّ شؤون القصر، كالمشاركة في بناء سور القصر وذلك لتوفير عنصر الأمن لهم، ويساهم كلَّ فرد بقدرِ ما لهُ من البيوت والغرف في إنشاء باب القصر وأدواته من قفول ومفاتيح، ويتعاونون في إصلاح البئر التي لم يعرف صاحبها.[5]

---

[1]– عبد المالك بوقزولة: المرجع السَّابق، ص.82. **وينظر أيضاً**، يمينة بن صغير حضري: المرجع السابق، ص.876.

[2]– نور الدِّين بن عبد الله: المرجع السَّابق، ص.77 – 78.

[3]– **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب: رحمة النَّاس والبهائم، رقم الحديث.**6011**. **وينظر أيضاً**، **صحيح مسلم**، كتاب البرُّ والصِّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث.**2586**.

[4]– **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم الحديث.**6026**. **وينظر أيضاً**، **صحيح مسلم**، كتاب البرُّ والصِّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث.**2585**.

[5]– أبو العباس الفرسطائي: المصدر السَّابق، ص.195.

3 – 4 – 8 – استقبال وإكرام الضُّيوف: من القيم السَّامية التي تحلَّى بها المجتمع وتجلَّت هذه القيمة حتى في عِمرانه وذلك من خلال تخصيص غرفٍ خاصَّة بالضُّيوف وأحيانا يُخصَّص جزء كامل من البيت من أجل ذلك.[1]

3 – 4 – 9 – التَّشابه بين تخطيط القصور والمدن الإسلاميَّة: وهذا من خلال توافر نفس الشُّروط في بناء المدن والقصور، مع وجود اختلاف في طبيعة المواد المستعملة في البناء، كما أنَّ العِمران في الصَّحراء جمع بين أنواع العمارة الإسلاميِّة الدِّينيَّة، والمدنيَّة، والدِّفاعيَّة.[2]

3 – 4 – 10 – تحدّي الإنسان لبيئته: مَثّلت تلك القصور صورة حقيقيَّة لتحدّي الإنسان للظروف القاسية، فقد استطاع التَّكيُّفَ مع بيئته من خلال اختراعه لتدابير تتماشى وفق ظروفه، وقد بَرزَ ذلك التَّحدّي في تخطيطه للقصر واستعماله لأنماط وعناصر معماريَّة تتوافق مع البيئة، منها: اعتماده على الجدران السَّميكة، واستخدامه للقبــاب (القبة) بهدف تضليل الجهة الغربيَّة من السَّقف ومنع تراكم الرِّمال أثناء هبوب الرِّياح.[3]

3– 4 – 11 – التَّنوع والثَّراء: ومن أهمِّ ما ميَّزَ عمران الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط هو التَّنوع والثَّراء، فقد كان للعناصر الوافدة والمستقرَّة في تلك الحواضر بصمتها وأثرها في تنوع عمرانه، فإنْ كان الملمح العمراني في كل من: "توات" و"وارجلان" و"أريغ" و"أسوف" حمل نفس الخصائص، فإنَّ الملمح العمراني بحاضرة

[1]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.39.

[2]– بوقزولة عبد المالك: المرجع السَّابق، ص.82.

[3]– عبد الرزاق بوعافية، جمال علقمة: «**عناصر وأبعاد الاستدامة في تخطيط البيئة المحلِّيَّة للتجمعات العمرانيَّة العتيقة (القصور) بالأقاليم الصَّحراويَّة**»، مجلَّة البحوث العلميَّة في التَّشريعات البيئيَّة، مج.7، ع.2، جامعة ابن خلدون، تيارت – الجزائر، جوان2017، ص.105.

"الـزَّاب" كـان عربي بامتياز، حيث استـطاعت العناصـر الهلاليَّة المستقرَّة في "الزَّاب" ولا سيـما الفرع الهلالي منها أنْ يُشيِّـدوا العديد من أشكــال العمران، حيث ساهمـوا في إحداث تغيُّرٍ طُوبونيمي[1] مَلحوظ حتى صارت لكلِّ قبيلة مُتغلِّبَة قصراً، فانتشر عمرانه، وفي ذلك يذكر "ابن خلدون": «... **وغلب الهلاليون قبائل زناته على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزَّاب وما إليه من بلاد إفريقيَّة...** ».[2]

وأبرز هذه القصور قصور "بني رياح" الهلاليون الذين حادوا عن نمط حياتهم القديم (التَّنقل والتِّرحال)، ومالوا إلى الاستقرار بأرياف "الزَّاب" ومن أبرز قصورهم "**قصر باينه البديع**" الذي بناه "سعيد بن موسى بن أحمد الرِّياحي"، و"**قصر القنطرة**" لصاحبه "يعقوب بن علي"، وكذلك "**قصر عثمان بن علي بن أحمد الرِّياحي**" وهو أجلُّهم، وقد جاء وصفه في رحلة "إبن الحاج النُّميري" بأنَّه: «**قصراً عجيباً، منفسح السَّاحة، منخرق المساحة، ارتفعت حيطانه من جهاته الأربع بالحجر المنجور المعروف بالعيسوي... وكان بكل ركن من أركان هذا القصر برج لا يصلح أنْ يكون به أوج إلَّا للنسر، وارتفع على بابه برج خامس باهر اللمح، أبيض منير كعمود الصُّبح قد لحقت به خراجة مُشرفة على الباب، مُعدَّة لدمغ من رام ولوجه بالغَلاب، وكانت بداخل القصر ديار مُحكمة البناء متناسقة السَّك، متَّسعة الأذراء، أجلُّها دار "عثمان بن أحمد"، كانت بديعة الاختطاط معجبة الاستنباط، قد قامت على جهاتها الأربع السَّواري السَّامية من الرُّخام مما اخترعه ملوك الرُّوم قبل الإسلام،... وحُفَّت بهذا**

---

[1] – **الطَّومونيميا** "**Toponymie**": كلمة تأخذ معناها من كلمتين، الأولى "طوبو"(**topos**) التي تعني المكان، و"أنوما" (**onuma**) والتي تعني اسم، والطُّومونيميا علم يهتم بأسماء المواقع الجغرافيَّة، الأعلام الجغرافيَّة، ويهتم بدراسة أسماء الأماكن وأصولها. **ينظر**، مجموعة من الباحثين: **الطُّوبونيميا بالغرب الإسلامي إسهام في ضبط أسماء الأماكن مُقدِّمات في الفهم_والمنهج والعلائق**، مطبعة إفريقيا الشَّرق، الدَّار البيضاء، ط.1، 2012م، ص.14.

[2] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7 ، ص 84.

القصر جنات وحدائق... واجتمعت إليه أفاريق من النَّاس ينقادون لحكمه في الظَّاهر ويأمنون بجواره من معرَّة الجيوش والعساكر...».[1]

ومن خلال وصف "النُميري" يبدو أنَّ القصر شبيه بالقلعة الصَّغيرة وشكله مربع على الأرجح، فهو قصر منخرق المساحة كما جاء وصفه، يشبه على الأرجح ساحة قلعة "زاري" و"زاته"، حتى شكله الخارجي يتشابه مع هاتين القلعتين، وإذ قورنت ساحة القصر مع ساحة قلعة "طُبنة" فنجدها متشابهة، أمَّا أبراجه فتشبه إلى حدٍ كبير الأبراج البيزنطيَّة القديمة.[2]

ولعل العرب استنبطوا ذلك من الفنّ المعماري البيزنطي، خاصة ما تعلق منه بالجانب الدِّفاعي، كما يوحي ذلك أيضاً إلى استمراريَّة الفنِّ المعماري القديم مع وجود بعض التَّعديلات وفق ما يتماشى مع الإسلام.

وما يلفت الانتباه في وصف "النُميري" لقصر "عثمان" هو عدم ذكره لوجود مسجد أو جامع داخل القصر، وهذا ما يدفعنا للتساؤل هل غفل الهلاليون عن ذلك خلال بنائهم للقصر؟ أمْ أنَّ "النُميري" تعمَّد تجاهل ذلك بحكم موقفه من الهلاليون؟ أمْ أنَّ انحيازه لصف المرينيين جعله يتغاضى عن ذلك حين وصفهم: «**بالعرب المنافقون في الصَّحاري والمفاوز**»[3]، ورغم ذلك فقد أشار لوجود رباط داخل القصر حين قال: «**إذا ركب "عثمان الرِّياحي" دخلوا في مصاف المرابطين وكانوا في أمرهم من المغالطين**».[4]

---

[1]– إبن الحاج النُميري: المصدر السَّابق، ص.413 – 414.

[2]– الصَّادق زياني: «**جغرافيَّة العمران ببلاد الزَّاب من خلال رحلة فيض العباب للنميري قصر عثمان الرِّياحي أنموذجاً**»، مجلَّة ميلاف للبحوث والدِّراسات، مج.4، ع.1، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصُّوف، ميلة – الجزائر، جوان2018م، ص.567 – 568.

[3]– ابن الحاج النُميري: المصدر نفسه، ص.410.

[4]– ابن الحاج النُميري: المصدر نفسه، ص.415.

وقد اهتمَّ الهلاليون بتشييدِ العمارة الدِّفاعيَّة حيثُ تجلَّت في بعض القصبات والحصون التي وصفها صاحب "فيض العباب"، ومن أهمُّها:

3 – 4 – 11 – 1 – قصبة طولقة:

وهي لصاحبها "عبد الرَّحمان الطُّولقي" فقد أورد لها وصفاً دقيقاً بقوله: «**قصبة "طولقة" التي اشتهرت في البلاد، وقبضت المنعة يدها إباد عن الانقياد واطمأنت بها مفاصل فصل الجياد وسنَّت مناكبها دروع الاستعداد... موشحة العطفين لكن بالعدد الوافر الأعداد**»[1]. ولربَّما هذا الوصف يبرز لنا التَّطور العمراني الذي طبع عمران "الزَّاب" خلال استيطان العرب؛ أمَّا بخصوص الحصون فنجد "**حصن فلق**" وقد وصفه "النُّميري" قائلا: «**كان عالي البناء، ذاهبا كل مذهب في الآباد، متناسق الأسوار، مستوسع بمجاثم الجدار، قد عمُرت حفائره قد ما رفعت أبراجه، وضيِّقت موالجه قدر ما وسعت مجاجه**»[2]، وواصل "النُّميري" وصفه للجزء الدَّاخلي قائلاً: «**استوى أحسن ما استوى معق أشب، ومعتصر على أهل عصره حدب، واحتوى على دور حسنت بها المواقف والمرافق، ولزمت أياديها الأسباع...، واستقر بها خدام العرب كل خبير خبيث، مغير غير مغيث، معل للمطالع مطامح، نذل لايعرف الفواضل لكن الفواضح**».[3]

3 – 4 – 11 – 2 – حصن فرفر: كان لِـ"يعقوب بن علي" وجماهر "أولاد مُحمَّد" «**الذُّخر الأعظم والملجأ الأكرم والعتاد الأفخر الأفخم، يحميهم من شدائد الحياة**

[1] – ابن الحاج النُّميري: المصدر السَّابق، ص.415.

[2] – ابن الحاج النُّميري: المصدر نفسه، ص 428.

[3] –ابن الحاج النُّميري: المصدر نفسه، ص.428 – 429.

وصعابها، فكان ملاذهم ومأمن نكبتهم وبه كانوا يجمعون مؤنهم، ومجمع منتفعاتهم ومأواهم إذا نابت النَّوائب».[1]

ومن خلال ما تقدَّم يبدو لنا أنَّ العرب قد تمكَّنوا من رسم صورة مغايرة لما رُسمت عنهم بخصوص الدَّور التَّخريبي ومدى الانحطاط الذي حلَّ بالمجالات التي استوطنوها واستقروا بها، فآثارهم العمرانيَّة بِـ"الزَّاب"، خير برهان على دورهم الإيجابي حيث استطاعوا ابراز تحضُّرهم من خلال ما شيَّدوه من عمران في الأرياف، والمعلوم أنَّه في هذه الفترة تحوَّل العرب الهلاليَّة إلى الاستقرار وممارستهم النَّشاط الزِّراعي؛ وفي هذا الصَّدد يقول "ابن خلدون": «**وصار العرب يزدرعون الأراضي في بلدهم بالتُّلول ولا يحتسون لمغارها**»[2]، وقد اعتبر الباحثون ذلك خطوة مُهمَّة نحو تخليهم التَّدريجي عن نشاط النَّهب والسَّلب وإيذاية النَّاس[3].

كما أنَّ بناؤهم للعمران ضرورة اقتضتها التَّحوُّلات التَّاريخيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة آنذاك، فبعد استقرارهم وممارستهم النَّشاط الزِّراعي تطلب ذلك منهم بناء العمران، ومن جهة ثانية تحوُّلهم الرُّوحي أو ما يطلق عليه "**بظاهرة التوبة**[4]" والرِّباط، حيث اندمج العرب في منظومة التَّصوف وتأثروا بالفكر الصُّوفي فأصبح منهم الدُّعاة والأولياء، وأصبحت لهم زوايا ورباطات منذ القرن(7هـ/13م)، وقد وردت نماذج لبعض الصُّوفيَّة العرب بالمغرب الأوسط منهم: "**طاهر المزوغي**"(ت.646هـ/1348م)، و"**ميمون بن عفيف**" وابنه "**فاضل بن ميمون**"[5]، وقد أشار صاحب "العبر" أيضاً لبعض الزُّهاد

---

[1]– ابن الحاج النُّميري: المصدر السابق، ص.446.

[2]– إبن خلدون: **العبر**، ،ج.6، ص577.

[3]– الطَّاهر بونابي: **مظاهر المجال والدِّين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، مطبوعات النَّشر الجامعي الجديد، تلمسان – الجزائر، ط.1، 2020م، ص.122.

[4]– مجموعة من الباحثين: **المغيَّبون في تاريخ تونس الاجتماعي**، تن: الهادي التِّيمومي، المجمع التُّونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، **ط.1**، 1999م، ص.316.

[5]– الطَّاهر بونابي: المرجع السَّابق، ص.123.

والصُّوفيَّة العرب ببلاد "الزَّاب" منهم "سَعَادة " وهو من "مسلم" إحدى شعوب "رياح"، رحل إلى "المغرب" وأخذ العلم وتفقه على يد "**إسحاق التَّسولي**"، وعاد إلى موطنه بعلم وافر، ونزل "طولقة" من بلاد "الزَّاب" وأخذ في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه، وابْتنى بها زاوية نزل بها هو وأصحابه.[1]

[1]– إبن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.51.

الفصـــل الثـــاني: النشـــاط الاقتصـــادي بالحواضـــر الصحراويـــة.

أولا: النشاط الزراعي في الحواضر الصحراوية التنظيم والأثر.

ثانيـا: الصنائع والحرف بالحواضر الصحراوية الخصوصية الصحراوية والتقنيات المحلية.

ثالثـا: النشـــاط التجـــاري بالحواضـــر الصحراويـــــــة.

أرتبط الإنسان منذ القديم بالأرض وجعلها هي مورده الأساسي في تزويده بما يحتاج له من أغذية، فعكف في نشاطٍ حثيث يستخرج خيراتها خاصة الزِّراعيَّة منها، لا سيما إنسان الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط الذي سعى في تنظيم نشاطه الزِّراعي وفق قواعد تضبطه وتلبي حاجياته، باحثاً ومطوِّراً في آليات هذا النَّشاط واستدامة عطائه اللامتناهي بناء على خدمة الأرض. فكيف كان النَّشاط الزِّراعي بالحواضر الصَّحراويَّة؟

أوَّلاً: النَّشاط الزِّراعي في الحواضر الصَّحراويَّة "التَّنظيم والأثر".

تعدُّ الفلاحة النَّشاط الأساسي الذي تقوم عليه حياة الأفراد والمجتمعات، فهي المورد الأساسي الذي يُوفِّرُ لهم غذائهم الذي به تستمرُّ حياتهم، فالإنسان بإمكانه الاستغناء عن الملبس أو المسكن لفتره، ولكن لا يمكنه أنْ يستغني عن الغذاء الذي يضمن له الاستمراريَّة والبقاء وبهذا تُعدُّ الزِّراعة من أقدم الحرف بسبب حاجة الإنسان إليها في كلِّ زمانٍ، ولقد أشار صاحب "المُقدِّمة" لهذا الأمر في قوله: «... وهي أقدم الصَّنائع بما أنَّها مُحصِّلة للقوت المُكمِّل لحياة الإنسان غالباً، إذْ لا يُمكن وجوده من دون القوت».[1]

ولأنَّ الزِّراعة من الأنشطة الأساسيَّة التي تقوم عليها الحياة فقد خُصَّ بهاء البدو دون الحضر، لأنَّ البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، فكانت هذه الصِّناعة بَدَوِيَّة[2] وهذا ما أكده "ابن خلدون" في قوله: «.... فهذه الصِّناعة بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها، لأنَّ أحوالها كُلُّها ثانية عن البداوة، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعه

[1] – عبد الرحمان ابن خلدون: **المقدِّمة**، دار الشرق العربي للطباعة والنشر، بيروت، ط 3، 2017م، ص.368.
ينظر أيضا: عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات والتَّقاليد بمنطقة توات**، أطروحة مُقدَّمة لنيل شهادة الدُّكتوراه علوم تخصص: تاريخ التُّراث اللامادي بالجزائر، إشراف: شعيب مقنونيف، كُلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، قسم التَّاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان، الجزائر، 2018م، ص 218.

[2] – عزُّ الدِّين جعفري: المرجع نفسه، ص 219.

لها».[1] و يُدرج "ابن خلدون" حرفه الزِّراعة من ضمن الصَّنائع إذْ يُشير إلى أنَّ هذه الصِّناعة ثَمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها و زراعتها وعلاج نباتها وتعهده بالسَّقي والتَّنمية إلى بلوغ غايته ثمَّ حصاد سنبله واستخراج حبِّه من غلافه.

وقد جمع "ابن خلدون" في هذا التَّعريف جميع المراحل المرتبطة بالزِّراعة، انطلاقاً من البذر و انتهاءً بالحصاد، مُشيرا إلى ضرورة تعهد أغصان الأشجار بالقصِّ وإزالة الشَّوائب والسَّقي.[2]

ولما كانت حرفة الزِّراعة من اختصاص البدو، دون الحضر كما أشارنا، فإنَّ هذه الحرفة قد عرفت انتشاراً واسعاً في حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، إذ تُعدُّ من الأنشطة الأساسيَّة التي يقوم عليها اقتصادها، حيث ساهمت جملة من العوامل في ازدهار هذا النَّشاط.

1)- المُقوِّمات الزِّراعية:

للزراعة في الحواضر الصَّحراويَّة العديد من المقوِّمات، أهمها:

1 – 1 – المقوِّمات الطَّبيعيَّة: وتتمثل في:

1 – 1 – 1 – وفرة الموارد المَائيَّة: مِمَّا لاشكَّ فيه أنَّ النَّشاط الزِّراعي يتوقَّفُ على مدى وفرة عنصر الماء، فازدهار الزِّراعة مرهون على مدى تواجد هذا العنصر المُهمِّ، ولقد توفَّر هذا العنصر بالواحات حيثُ تُشير المصادر إلى وفرة المياه الجوفيَّة بالصَّحراء، والتي كانت عاملاً مُهمًا شجَّع ساكنة الحواضر الصَّحراويَّة على امتهان حرفة الزِّراعة، فحاضرة "وارجلان" على سبيل المثال قد سمح لها موقعها الجغرافي من

[1] – إبن خلدون: **المقدمة**، المصدر السابق، ص 368.

[2] – نفسه.

استقبال مياه "وادي مَيَّة" (oued mya)[1]، و"وادي إيغارغار" اللذان ينبعان من الجنوب الشَّرقي، ناهيك عن توفُّرها على مخزون هائل من المياه الجوفيَّة ساهم في تكوينه رَافدان آخران هما "وادي النَّساء"[2]، و"وادي ميزاب"، وهما ينبعان من الشَّرق أيضاً.[3]

وتوفَّرت بحاضرة "أريغ" أيضاً طبقة هائلة من المياه الجوفيَّة الموجودة في عِدَّة طبقات جوفيَّة، ويعتبر "وادي ريغ" من أقدم الأودية الصَّحراويَّة منذ العصور الغابرة، حيث ينطلق هذا الواد من واحات "قوق" جنوباً ليصُبَّ في "شطِّ مروان" الذي يصُبُّ بدوره في "شطِّ ملغيغ" شمالاً، وهو يقع في منخفض مستطيل طوله حوالي 160 كلم وعرضه يتراوح بين 30 و 40 كلم، فـ"وادي ريغ" عبارة عن واد مياهه كثيرة جوفية تنساب تحت الأرض.[4]

أمَّا حاضرة "توات" فقد أحيط بها ثلاثة أودية، تصبُ مياهها في رمال مُغذيَّة، وهي: "واد أمقيدن"[5] و "واد مسعود"[6] و "واد قاريت".[1]

---

[1] – **وادي مَيَّة:** ينبعُ من شمال هضبة "تادمايت" بالقرب من "عين صالح" جنوباً، ويتجه ناحية الشَّمال الشَّرقي، وينتهي به المطاف إلى سبخة "سفيون" شمال شرق "وارجلان"، ومنها إلى "شطِّ ملغيغ"، ويعدُّ هذا الوادي من الوديان النَّائمة. **ينظر**، أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة بالسُّودان الغربي**، المرجع السَّابق، ص.15.

[2] – **وادي النِّساء:** ينطلق من الغرب و يصب في سبخة "سفيون" ويعتبر من الأودية النَّشطة بالمنطقة، إذ تصل مياهه إلى أطراف "وارجلان" مرّتين في السَّنة في شهر فيفري ونوفمبر. ينظر، أحمد ذكار: المرجع نفسه، ص.15.

[3] – إلياس حاج عيسى: «**مصادر المياه والنَّشاط الفلاحي في واحات المغرب الأوسط وارجلان أنموذجا**»، المجلَّة الخلدونيَّة، مج.9، ع.2، جامعة ابن خلدون – تيارت، الجزائر، ديسمبر/2016م، ص.97 – 98.

[4] – الوردي طرطاق: «**أنظمة الرَّيَ التَّقليدية في الزِّراعة الصَّحراويَّة إقليم وادي ريغ أنموذجا**»، مجلَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، ع.12، جامعة الحاج لخضر– باتنة، الجزائر، جوان/2015، ص.206.

[5] – **واد أميقدن(أيمكدن):** ينطلق من منبعه بالمنيعة وينتهي بمنطقة "تيكورارين" مكوِّناً سبخة "قورارة" وعرف بغزارة مياهه وكثرة معاطنها، وقد سلك "العيَّاشي" هذا الوادي قاصداً "وارجلان". **ينظر**، أحمد بوسعيد: المرجع السَّابق، ص.14. **وينظر أيضاً**، العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.107.

[6] – **واد مسعود:** هو عبارة عن تلاقي لواد "قير" مع واد "زوز سفانة" بمنطقة "فقيق" ويتجه جنوبا ليطلق عليه اسم واد "السَّاورة". **ينظر**، مُحمَّد الصَّالح حوتية: المرجع السابق، ج.1، ص.83.

وإلى جانب وفرة المياه الجوفيَّة فقد عَرفتِ الواحات وجود العديد من العيون الجارية، وهذا ما أكَّدتهُ عمليَّة الحفريَّات التي قامت بها عالمة الآثار "**مارقريث فان برشم**" بمدينة "سدراته" حيث كشفت عن وجود 1051 عينا[2]، كانت تُستخدم في ريَّ واحات النَّخيل والمزارع الممتدة من "سدراته" إلى "وارجلان" وهذا النَّوع من الاكتشافات أكَّدته بعض الرِّوايات التي ساقتها المصادر، حول وفرة الماء بمدينة "سدراته"، وأنَّه كان يُستعمل في سقي واحات النَّخيل بـِ"وارجلان" و واحات أخرى تقعُ على بُعدِ أميال عن "سدراته"[3].

ومن أشهر هذه العيون "**عين الصَّفا**" وهي عبارة عن بئر تَفَجَّر ماءه فجأة في الصَّحراء وقد سُمِّيَت "بالوادي" لغزارة مياهها حتى أنَّ مجاريها كانت كالخنادق لكثرة المياه المُنْسابة منها[4]، بالإضافة إلى العين المعروفة باسم "**عين القبائل**" وهي بـِ"يفرن" قرب "سدراته"، وعين أخرى تُسمّى بـِ (الحوَّاس) بـِ"نقوصة".[5]

1 – 1 – 2 – وفرة المواد العضويَّة: إلى جانب وَفرة المياه فقد توَفَّرت بالواحات مواد التَّسميد، حيث ساهم وجود الثَّروة الحيوانيَّة في توفير المُخصِّبات العضويَّة من فرثِ الإبل والغنم والبقر، ولربَّما حتَّى البقايا العضويَّة للإنسان التي لاشكَّ في أنَّها كانت

=

[1] – **واد قاريت:** ينطلق من الشَّمال الشَّرقي لمنطقة "تيدكلت" مستفيداً من الانحدارات المتتالية لهضبة "تادمايت" ليصُبَ مياهه في الأخير بالجهة الجنوبيَّة الغربية ليكون رافدا لواد "مسعود". **ينظر**، أحمد بوسعيد، المرجع السَّابق، ص.15. **وينظر أيضاً**، مُحمَّد الصَّالح حوتيه، المرجع نفسه ،ج.1، ص.83.

[2] – رشيد بورويبة: «**الفنّ الرُّستمي بتاهرت وسدراته**»، مجلة الأصالة، مج.16، ع.41، وزارة الشَّؤون الدِّينيَّة و الأوقاف، الجزائر، 2011م، ص.189.

[3] – رشيد بورويبة: **مدن مندثرة. سلسلة فن وثقافة**، الشَّركة الوطنية للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.1، 1981م، ص.45.

[4] – أعزام: المرجع السَّابق، ص.99. **وينظر**، جون غير سيتر: المرجع السَّابق، ص.147.

[5] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.127. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.183.

تُجَفَّفُ قبل أنْ يتمَّ الاستفادة منها في منح المزروعات مزيدًا من القدرة على رفع مَرْدُود الإنتاج[1].

ويُشير " الوزان" بخصوص هذا الشَّأن إلى طريقة حصول أهل "تيكورارين" بـِ"توات" على السَّماد، فيذكر بأنَّهم كانوا يستضيفون الغرباء في منازلهم بدون أجر ليحصلوا على سماد الخيل ورجيع النَّاس حتى أنَّ ما يُسيء به الغريب لمُضيفه أن يتغوط خارج بيته وهذا لحاجتهم إلى السَّماد[2]، وإلى جانب المُقوِّمات الطَّبيعيَّة فقد عرفت الواحات مُقوِّمات بشريَّة ساهمت بدورها في ازدهار الزِّراعة.

1 – 2 – المُقوِّمات البشريَّة: وتتمثل في:

1 – 2 – 1 – وفرة اليد العاملة: لقد ساهمت تجارة القوافل نحو بلاد السُّودان في توفير اليد العاملة والمتمثِّلة أساساً في فئة العبيد، وكما هو معلوم أنَّ هذه التِّجارة كانت رائجة في حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، فـ"ابن سعيد" يصف "وارجلان" بأنَّها: «بلاد نخلٍ وعبيد ومنها يدخل العبيد إلى المغرب الأوسط و إفريقيَّة»[3]

ولقد كانت خدمة الأرض من المَهام المُوكلة لهذه الفئة، التي شكَّلت قاعدة الهرم الاجتماعي بالحواضر الصَّحراويَّة، والعُرف الذي كان سائداً عندهم آنذاك "**استخدم ولا تخدم بنفسك**"[4]، ولقد ساهمت وفرة اليد العاملة في ازدهار النَّشاط الزِّراعي.

1 – 2 – 2 – وفرة رؤوس الأموال: إلى جانب وفرة اليد العاملة، توفَّرت بالحواضر الصَّحراويَّة رؤوس الأموال وهو ما شَجَّعَ أهلُ الواحات على الفلاحة والمعلوم أنَّ النَّشاط الزِّراعي يَحتاج إلى إمكانيات مادية وهذا ما وفَّرته لهم تجارة القوافل، التي كانت تُدرُّ

---

[1] – غرايسة: **المدينة الدولة**، المرجع السَّابق، ص.135.

[2] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.134.

[3] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126.

[4] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.453.

أموال طائلة، فغالبا ما وصف الجغرافيون والرَّحالة أهل الواحات بالغناء وسعة الحال، فـ"الإدريسي" وصف أهل "وارجلان" بأنَّهم: « قبائل مياسير وتُجار أغنياء يكثرون السَّفر لبلاد السُّودان»[1]

ووصف "الوزان" أهل "تيكورارين" بالغناء في قوله: «... وسكان هذه المنطقة أغنياء لأنَّهم اعتادوا الذَّهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السُّودان».[2]

1 – 2 – 3 – إسهامات الأقليات: أشرنا في فصل سابق إلى الهجرات البشريَّة نحو الواحات واستقرارهم بها، وذكرنا بأنَّ البُنية السُّوسيولوجيَّة للحواضر قد عرفت تنوعاً وتعدداً للأجناس، فلا بُد و أنْ يكون لهؤلاء دورهم وإسهاماتهم في الميدان الاقتصادي ولقد امتهن الكثير منهم حرفة الزِّراعة، حيث تُشير المصادر إلى انتشار مِلكيَّة اليهود للحقول والأجنَّة، وهذا ما نستشفه في سؤال أورده "الوسياني"، عن أهل "وارجلان" «في مسألة يهودي اشترى جنانا بوادي آجلو»[3].

ولقد عملت هذه المجموعات إلى جانب السُّكان في زيادة تطوير النَّشاط الزِّراعي وتعميق الاهتمام به من خلال ما تملكه من خُبرات، مستفيدين في ذلك من وَفرة الموارد المائيَّة، لاسيما الجوفيَّة منها.[4]

2)– المنشآت المائيَّة ونُظم السَّقي بالحواضر الصَّحراويَّة بين "التَنظير والمُمارسة":

2 – 1 – طرق استغلال المياه: يعتبر الماء عصب الحياة وعمادها، وبه تستمرُ الحياة، وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿**أولمْ يرَ الذَّينَ كَفَرُوا أنّ السَّماواتِ و الأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَا هُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلاَ يُؤمِنُونَ**﴾[5]. ويحتل الماء أهميَّة

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.121.

[2] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.133.

[3] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.454. **وينظر**، مُحمود إسماعيل: المرجع السَّابق، ص.286.

[4] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ، ص.135.

[5] – سورة الأنبياء: الآية.30.

قُصوى في المناطق الصَّحراويَّة فحياتهم واستقرارهم ومختلف أنشطتهم مرهونة بمدى توفّر هذا العنصر الحيوي، ولهذا وجب على ساكنة الواحات استغلاله والاستفادة منه والاهتداء إلى طرقٍ من شأنها أنْ تحْفَظَ لهم استمراره و بقاءه.

ولهذا عمد سُكَّان الحواضر الصَّحراويَّة إلى حفر الآبار وهذا بغرض الاستفادة من المخزون الهائل للمياه الجوفيَّة التي ساهمت في تكوينها ترسُبات بعض الوديان، ولقد أشاد العديد من الرَّحالة والجغرافيين إلى طرق حفر الآبار بالواحات[1]

كما أشار إلى ذلك أيضا عددٍ من المؤرخين، من بينهم: "ابن خلدون" الذي فصَّل في طريقة حفر تلك الآبار بقوله: «... وفي هذه البلاد الصَّحراويَّة طريقة غريبة في استنباط المياه الجارية لا تُوجَد في تُلُولْ المغرب، و ذلك أنَّ البئر تُحْفر عميقة بعيدة الْمَهوى وتُرْبَط جَوَانبها بِجُذوُع النَّخل وتُطْوى جَوَانبها إلى أنْ يُوصَل بِالْحفر إلى حِجَارة صلْدة فَتُنْحت بِالْمَعاوِلْ والْفُؤوس إلى أنْ يَرِقَّ جُرْمها ثُمَّ يَصْعد الْفَعلة ويَقْذِفوُنَ عَليها زُبُرَة الحديد تُكْسِر طبقها على الماء فَيَنْبَعثّ صَاعِداً فَيَعُمُّ الْبِئر ثُمَّ يَجْرى على وجه الأرض واديَا... و هذه الغريبة مَوْجُودة بِقُصُور "توات" و"تيكورارين" و"واركلا" و"ريغ"»[2]

ويُقدَّر عمق البئر بمائة قامة[3]، ولقد قدَّر عمق بئر "جبل كريمة" بثمانين متراً قياسا على طول طريق جمل النَّزح[4] بينما وصل عمق بعض آبار "وارجلان" إلى (30) ثلاثين مترا.[5]

---

[1] – العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.118. **وينظر**: الأغواطي: المصدر السَّابق، ص.98. **وينظر**، الحميري: المصدر السَّابق، ص.600. **وينظر**، جون غير سيتر: المرجع السَّابق، ص.150. **وينظر أيضاً**: هاينريش فون ماليستان: المرجع السَّابق، ص.142.

[2] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.77 – 78.

[3] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.600.

[4] – **طريق جمل النَّزح**: هو الطَّريق الذي يسلكه الجمل وقت نزح الماء من البئر. **ينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.182، الهامش رقم**3**.

[5] – نفسه.

وعلى الرَّغم من دِقَّة وبراعة هذه الطَّريقة التي ابتكرها أهل الواحات في حفر الآبار والتي تُوحي لنا بمدى مُحاولات إنسان الواحات في تَطويع ظروف بيئيَّة لخدمته، رُغم المخاطر التي قد يتعرَّض لها في سبيل ذلك، فطريقة حفر الآبار تلك التي أشاد بها العديد ممن زاروا المنطقة أو كتبوا عليها لم تكن لتخلو من المخاطر التي قد تؤدي بحياة الإنسان الذي يتولى الحفر، فلرُبَّما أساء العامل تقدير سُمْك الكتلة الصَّخريَّة الذي يجب أنْ يتركه قبل الصُّعود، سَيُفاجئ بانْدفاع الماء وهو في قاع البئر وإنْ كان بطيء الحركة فإنَّ المياه ستُحاصره ورُبّما ينتهي به الأمر إلى الغرق.[1]

ولهذا فإنَّ عمليَّة حفر الآبار كانت تختصُّ بها جماعة مُعيَّنة، لها خبرة ودراية بذلك، وإنْ كانت المصادر المُتاحة لنا لم تُشير لذلك، وما تجدر الإشارة إليه أنَّ عمليَّة حفر الآبار كانت تتطلبُ جهداً عضلياً كبيراً نظراً لصُعُوبة الأرض و طُول عُمْق المياه الذي يصل إلى مائة قامة.[2]

وعلاوة على الجهد العضلي المُضنّي، فإنَّ العمليَّة كانت مُكَلِّفَة أيضاً من النَّاحية المادِّيَّة فـ"الحميري" أشار إلى أنَّ البئر كان يحفر بمائة دينار أو يزيد[3]، ولعل حالة اليسار التي كان يعيشها أغلب ساكنة الواحات قدْ مَكَّنتهم من حفر العديد من الآبار فالمصادر أشارت أنَّ بمدينة "سدراته" ما يزيد عن ألف وإحدى و خمسين عينًا.

وإلى جانب تلك العيون كانت تُقام السُّدُود في المناطق الجافة كـ"وادي ميزاب" على سبيل المثال لحفظ المياه، حيث كان الإباضية يَتَبَرَّعُون بالأموال لإقامة سدود

[1] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.600.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.126.

[3] – الحميري: المصدر نفسه ، ص.600.

صغيرة في مجاري الوديان[1]، وممّا رُوي عن "أبو صالح الياجراني" أنَّه تبرَّع بدينار لقوم كانوا يجمعون المال لبناء سدٍّ.[2]

ولأنَّ الآبار تُشكِّل الْمَورد الأساسي للسكَّان لناحية الاعتماد عليها في عمليَّة السَّقي والشَّرب، وجب عليهم الحفاظ عليها والعمل على صيانتها بشكل دَوري من كلِّ ما من شأنِه أنْ يُعِيق عَمليَّة تَدفُقِ مياهها، مثل: تَراكُمْ الرِّمال والأَوْحال على قاعدتها، وهذا بهدف ضمان استمراريَّة تدفق الماء، وعليه فقد حرص السُّكان على تنظيف وكَنْس الْعُيُون، وغالباً ما يتولى هذا الأمر مجموعة من العُمَّال يُطلق عليهم اسم "**الغَطَّاسة أو الغَطَّاسون**"، وتتلخص مُهِمَتُهُمّ في كنس التُّراب والأوساخ من خزانة الماء، و يَتلقُون مُقابل ذلك قِيمة مُتَفقْ عليها بعادات مَعْرُوفة تُعْطى لهم، ويبدو أنَّ هذه الوظيفة قد خُصَّت بها جماعة مُعيَّنة يتوارثونها خلفٍ عن سلفٍ[3].

كما كان البعض يَّستعين بالعبيد في كنس عين أو حفرها، ومما روي عن الشَّيخ "أبو الرَّبيع سليمان بن موسى" أنَّه لما أراد أنْ يَحْفُر عيْن استعان بالْعُمَّال و الْعَبيد[4]، وإلى جانب تلك الآبار ابتكر أهل الحواضر الصَّحراويَّة تقنيات أخرى لاستخراج واستغلال المياه الجوفيَّة منها انشاء " الفُقَارات"، واستخدمت هذه التَّقنيَّة بحاضرة "توات" على وجه الخصوص.

و**الفُقَّارة**[5] هي عبارة عن سلسلة من الآبار المُتصلة فيما بينها بواسطة قنوات، وبين كل بئر وبئر مثل درجات السُّلم نفقٌ يبدأ العمل فيها من مكان عالٍ، ولا يزال

---

[1] – مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص.127.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.374. **وينظر**، الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.57.

[3] – أعزام: المرجع السَّابق، ص.202 – 203.

[4] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.739. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.184.

[5] – ينظر الملحق رقم (05)، ص.508.

ينحدر من أعلى إلى الأسفل وقد يوجد في عمق بعض الآبار ما يزيد على أربعون متر، ثمَّ ينخفض العمق إلى أنْ تخرج على وجه الأرض فهي غريبة في شكلها وفي تخطيطها وهندستها.[1]

وتباينت الآراء حول مصدر اشتقاق تسمية الفُقَّارة، فالبعض يرى أنَّها من الفقر، وقيل من التَّفجير بتبديل الكاف المعقودة جيماً لأنَّ الماء يتفجر منها، بينما يرى بعض المؤرخين أنَّ اسمها مأخوذ من الفُقَّار أيْ فقاقير الظَّهر لأنَّها تشبه فَقَرات الظَّهر وهناك من يرى أنَّها مُشْتقه من الفَقر وهو الحفر.[2]

ولقد تضاربت آراء المؤرخين بخصوص نشأة وظهور هذا النِّظام بحاضرة "توات"؛ وسنقتصر في هذا المقام على ذكر أهمِّ هذه الآراء ونحاول ترجيح ما هو أقرب منها مع المعطيات التَّاريخيَّة، فالبعض يرى أنَّ الأقباط هم أوَّل من احتفر الفُقَّارات بمنطقة "توات"، وأصحاب هذا الرَّأي لمْ يقدِّموا الأدلَّة الكافية التي تُثبت ما ذهبوا إليه، ثمَّ اننا لا نملك تاريخ مُحدَّد يوضِّحُ لنا تاريخ وصول هؤلاء إلى "توات"، فهذه الرِّواية تحتاج إلى شواهد تُعزِّزها و تؤكِّدها.[3]

في حين يرى فريق آخر أنَّ البرامكة هم الذين خطوا الفَقَاقير بِـ"توات"، ولو دَقَّقنَا في تاريخ دخول هؤلاء إلى المنطقة لوجدناه حديثاً بالنِّسبة للأجناس الأخرى التي استوطنت المنطقة، فالبرامكة حلُّوا بتوات سنة (556هـ\1170م) واستوطنوا بنواحي "أَولُف"، وهذه

---

[1] – مُحمَّد باي بلعالم: المرجع السَّابق، **ج.1**، ص.116.

[2] – مبروك لمقدم: **الفقارة في قصور توات وأحوازها النَّشأة والتَّعريف**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط.1، 2016م، ص.55.

[3] – عبد الرَّحمان بعثمان: «**نظام السَّقي في الجنوب الغربي الجزائري نِظَام الفُقَّارة في منطقة توات أنموذجا**»، مجلَّة كان التَّاريخيَّة، مج.6، ع.22، مؤسسة كان للدراسات والتَّرجمة والنَّشر، القاهرة، ديسمبر2013م، ص.145.

الرِّواية رغم أهمِّيتها إلَّا أنَّها تَعوزها الدِّقة، ناهيك على أنَّ المنطقة التي استقروا بها اشتهرت بِقلَّة الفَقَاقير بها.[1]

ويُرجع آخرون نشأة الفُقَّارة إلى العرب لكونهم قَدِموا من مناطق توجد بها مثل هذا النِّظام، فقد نزحت للمنطقة قبيلة "أولاد بن عبد الجليل" سنة(501هـ/1107م)، وهي من القبائل العربيَّة المُسْتعربة، وأصحاب هذا الطَّرح لم يُقدِّمُوا لنا ما يؤكِّد صحَّة طرحهم، في حين يرى "صاحب الرِّحلة العَلِيَّة" أنَّ الجالية اليهوديَّة التي نزحت إلى "توات" في وقت مُبكِّر هم الذين اختطوا الفُقَّارة، ويَسْتدلُ على ذلك بأنَّ اليهود الذين أُبْعِدوُا من "المدينة المُنوَّرة" قاموا بحفر الفُقَّارة بإقليم "توات" مُشابَهة لما يُعرف بالشَّراج بـ"المدينة المنوَّرة"[2].

ورغم التَّواجد المُبكِّر لليهود بحاضرة "توات" إلاَّ أننا نستبعد ما ذهب إليه صاحب "الرِّحلة العَلِيَّة"، لأنَّ نشاط الطَّائفة اليهوديَّة بـِ"توات" ارتكز في مجال الصِّناعة والتِّجارة حيث احتكر اليهود بعض الصِّناعات، كصناعة الحُليِّ والصَّابون مثلاً، ثُمَّ إنَّ اهتمام اليهود ارتكز على التِّجارة التي سيطروا عليها، كمَا أنَّنا لمْ نقف فيما توفَّر لنا من معلومات عن إشارات تُوضِّح اهتمام اليهود بالنَّشاط الزِّراعي بـِ"توات"، أو المشاركة في حفر الفَقَاقير.[3]

بينما يرى آخرون أنَّ بربر "زناته" هم من ابتكروا هذا النِّظام، وقاموا بحفر الفُقَّارة وبنوا القصور بمعظم نواحي "توات" وهذا بعد نزوحهم إلى المنطقة منذ القرن(4هـ/10م)، فنزلوا بأرض "بودة" فوجدوا مياه "واد قير" قد جَفَّت فبدأوا بالحفر والبحث عن الماء حتَّى تمكَّنوا من استخراجه واتخذوا من مجرى الوادي بساتين وجنَّات

[1] – مبروك لمقدم: المرجع السَّابق، ص.37.

[2] – نفسه.

[3] – مُحمَّد باي بلعالم: المرجع السَّابق، ج.1، ص.116.

وحفروا الفَقَاقير وبنوا القصور[1]، وهذا الرَّأي أقرب إلى الصَّواب إذا ما قُورن بالوقائع التَّاريخيَّة، كما أنَّ المخزون المُصْطلحي للفُقَّارة من حيث (الأسماء، والأقسام، والأدوات، والرُّموز) تعود إلى التُراث الزَّناتي واللغة الزَّناتيَّة، ويرى الباحث "عبد الرَّحمان بعثمان بأنَّ **الفُقَّارة** ابداع زناتي محليّ.[2]

2 – 2 – طرق حفظ المياه: اتسم المناخ في حواضر الصَّحراء بالحرارة وشُحُّ السَّماء بالقطر وهو ما جعل الزِّراعة بها تكون مَرّوِيَّة مُعتمدة على أنظمة سقيٍ قائمة على الطَّرائق التَّقليديَّة الْمُتَفَق عليها اجتماعياً، وتُمثِّل الآبار المصدر الرَّئيسي في عمليَّة السَّقي[3]، فمنها يَسْقُون جَنَّاتهم وزرعهم ونخيلهم[4]، ولهذا وجب التَّفكير في إيجاد طرائق من شأنها أنْ تحفظ المياه، وهذا لا يتمُّ إلاَّ عن طريق انشاء منشآت قاعديَّة كان من أهمها:

2 – 2 – 1 – المواجل: وهي عبارة عن بِركة صغيرة من الماء يختلف حجمها باختلاف مساحة البستان طولاً وعرضاً وعدد المُنْتجات التّي تُسْقى منها وكميَّة الماء المُتوفِّرة لديهم، وتصنع عادة من الطِّين وغالبا ما تكون في مكان مُرْتفع في أعلى البُسْتان ليُسَهِّل عمليَّة تدفُّق الماء بسرعة لأبعد نقطة فيه[5]، وللمحافظة على المواجل يُوضع فيها خاصة من الجير بقصد اصلاحها[6] ويُسْتعمل الماجل في سقي البساتين وتجميع مياه الفُقَّارة الذي ينساب بمقدار مُعيَّن ليُنْتفع به مالم يتم تخزينه، ويحتوي

---

[1] – مُحمَّد الصَّالح حوتيه: المرجع السَّابق، ج1، ص.88.

[2] – مبروك لمقدم: المرجع السَّابق، ص.37 – 38.

[3] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ، ص.136.

[4] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.600.

[5] – عزّ الدين جعفري: المرجع السابق، ص.222.

[6] – الفرسطائي: المصدر السَّابق، ص.546. **وينظر أيضا:** غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.136.

الماجل على صمامة وهي عبارة عن سدَّادة الماء التي تمنع تدفقه منه، وهي للماجل بمثابة باب المدخل للبيت.[1]

2 – 2 – 2 – المساقي: وهي عبارة عن مجاري مائيَّة تكون داخل الأجنَّة والبساتين يتمُّ من خلالها سقي المحاصيل، ويصل إليها الماء عن طريق الماجل وتحتوي هذه المساقي على مغاليق تتحكَّم في منظومة جريان المياه عبرها لضمان توزيع عادل بين المزارعين حسب النُّوبة، ولقد أبدع أهل الواحات في استخراج مياه الآبار واستغلالها، وهذا اعتماداً على الخبرة التي منحتهم العديد من الآلات[2]، أهمُّها ما يطلق عليه أهل المغرب بالخُطَّارة.

2 – 3 – نُظُمْ السَّقي وتوزيع المياه: سبق وأنْ أشرنا سلفاً إلى أنَّ عمليَّة استخراج المياه الجوفيَّة واستغلالها بحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة تتطلب جهداً عضلياً ومادياً خاصة وأنَّ الزِّراعة بحواضر الصَّحراء كانت مَرْوِيَّة، ولهذا بات من الضُّروري على المُزارعين إيجاد نِظام عادل لتوزيع المياه وسقي الأجنَّة يكون محلَّ قبول وتوافق بين الجميع، يضمن للمزارعين الحقَّ في التَّزود من المياه.

هذا النِّظام في السَّقي وتوزيع المياه اختلف بحواضر الصَّحراء من حاضرة لأخرى، وارتبط في الأساس بِعدد الأجنَّة والبساتين، وبكميَّة الماء المتوفرة، وقد اعتمد أهل الحواضر الصَّحراويَّة في عمليَّة توزيع المياه على نوعين أساسيين، هما:

2 – 3 – 1 – التَّوزيع بالدَّوران: حيث يتمُّ من خلاله تقسيم أدوار الماء (بالتَّناوب)[3]، ويمكن أنْ تستمر أو تتغيَّر مُدَّة الرَّي إذا لم يكن هناك أيَّة اتفاقيَّة تُحدِّدّ

---

[1] – عزُّ الدِّين جعفري: المرجع السابق، ص.224.

[2] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ، ص.137.

[3] – **التَّناوب(النَّوبة):** مصدر نابَ، وهي الفرصة والدُّولة مصطلح أيضاً باسم تَاوَلى، وهو مصطلح استعمله المغاربة في تقسيم مياه السَّقي، وتقسيم النُّوبة إلى قسمين من طلوع الشَّمس إلى غروبها، ومن غروبها إلى طلوعها

مدة استعمال المـــاء؛ وبـإمكان المُستعمل التَّخلي عن دوره في السَّقي في حالة عدم حاجته إليه.[1]

2 – 3 – 2 – التَّوزيع المُنْتظم: هذا النَّوع من التَّوزيع يَعتمد على الاتفاق المُسبق بين المُتعاملين ومركز التَّسيير، بطريقة أوسع من الأولى، بالاتفاق على كلِّ شروط السَّقي حيث يوافق مركز التَّسيير على السَّقي لمُدَّة مُعيَّنة حسب الوفرة وحسب الطَّلبات الأخرى.[2]

أمَّا بخصوص عمليَّة تقسيم المياه، ففي حاضرة "وارجلان" على سبيل المثال كانت تُقسَّم مياه العيون على أربعة عشرة يوماً، والنَّهار من طلوع الشَّمس إلى غروبها يُعدُّ يوماً، ومن غروب الشَّمس إلى طلوعها يوماً، واليوم فيه 120 خروبة[3]، والخروبة بها مائة دانق، وبهذا يكون مجموع العين ألفاً و ستمائة وثمانين خروبة، وبحسب هذا التَّقسيم يكون للبعض نهاراً كاملاً، وبعضهم نهاران ولبعضهم نصف نهار ولبعضهم ثمن نهار، ولبعضهم سبعة خراريب ونصف، ولبعضهم ثلاثة خراريب وخمسة و سبعون دانقا، والنَّهار يُقسَّم إلى أربعة فُصُول من طلوع الشَّمس إلى الضُّحى فصل ويُعبَّر عنه بالصَّباح، ومن الضُّحى إلى الزَّوال فصل و يُعبَّر عنه بربع النَّهار، ومن الزَّوال إلى صلاة العصر فصل ويُعبَّر عنه بنصف النَّهار، ومن صلاة العصر إلى غروب الشَّمس فصل ويُعبَّر عنه بالعصر، وهذا التَّقسيم في اليوم الذي هو من طلوع الشَّمس إلى غروبها.[4]

=

في اليوم الموالي. **ينظر**، حسن حافظي علوي: **دراسات صحراويَّة الماء والإبل والتِّجارة**، دار أبي رقراق للطباعة والنَّشر، الرِّباط، ط.1، 2014م، ص.93.

[1] – الوردي طرطاق: المرجع السَّابق، ص.209.

[2] – الوردي طرطاق: المرجع نفسه، ص.210.

[3] – **الخروبة والدَّانق:** هي وحدات لقياس كميَّة الماء. **ينظر**، إلياس حاج عيسى: المرجع السَّابق، ص.104.

[4] – أعزام: المرجع السَّابق، ص.203.

أمَّا بحاضرة "ميزاب" فيُقسَّمُ اليوم الواحد إلى أربع وعشرين خروبة، وتشمل الخروبة ثمانية أثمان و أربعاً وعشرين موزونة، والموزونة تنقسم إلى ثلاثين درهما، والحصص الليليَّة تسمَّى السَّوداء و حصص النَّهار البيضاء[1]، و أعتمد هذا النِّظام بحاضرة "أريغ" أيضا.

2 – 3 – 3 – كيفية تبديل الماء: وقصد فهم آلية توزيع مياه العيون كل بحسب حصته أورد لنـا صاحب "غصن البان" بعض الأمثلة على ذلك، فإذا كانت حصة الفلَّاح مائة وعشرون خروبة فهذا يعني بأنَّ له يوم كامل من السَّقي بحسب العُرْف المعمول به عندهم، كأنْ يكون له يوم الجمعة على سبيل المثال، فيتبدل الماء يوم الجمعة الأولى من طلوع الشَّمس إلى غروبها وتسمَّى خروبة بيضاء لأنَّ حصته بالسَّقي كانت بالنَّهار، وفي الجمعة الثَّانية يُبَدِّل حصة السَّقي من غروب الشَّمس إلى طلوعها و تسمَّى خروبة سوداء، لأنَّ حصته كانت بالليل.[2]

وأمَّا إذا كان للفلاح ستون خروبة يعني نصف اليوم في الجمعة، يُبدِّل هذا الفلاح في الجمعة الأولى من الصُّبح إلى الزَّوال، وفي الجمعة الثَّانية لا يكون له نصيب من الماء، وفي الجمعة الثَّالثة يُبدِّل من الزَّوال إلى الغروب، وفي الجمعة الرَّابعة يُبدِّل الليل كلَّه، وهو من غروب الشَّمس إلى طلوعها، فيجتمع له نصفان ويُعوِّض الجمعة التي لم يَسْقِ فيها، وسبب هذا الاستثناء أنَّ الليل لا يُقسَّم في عرف أهل "وارجلان".[3] و ما تجدر الإشارة إليه أنَّه كُلَّما نقصَ نصيب بُسْتان من البساتين زاد ذلك في تعقيد عمليَّة التَّقسيم، و هناك من البساتين من لها خروبات بيض فقط، بمعنى أنَّ وقت السَّقي يكون بالنَّهار فقط.[4]

---

[1] – يوسف بن بكير الحاج عيسى: المرجع السَّابق، ص.41.

[2] – أعزام: المرجع السابق، ص.205 – 206.

[3] – أعزام: المرجع نفسه ، ص.205 – 206.

[4] – إلياس حاج عيسى: المرجع السَّابق، ص.105.

أمَّا حاضرة "توات" التي استخدمت فيها "**الفُقَّارة**" فقط اعتمدت على طُرق حسابيَّة أكثر تعقيداً لتوزيع مياه الفُقَّارة، وذلك لأنَّ عدد الفلاحين المُشاركين في إنشائها كبير ويتم توزيع المياه بـِ"توات" بطريقة تعرف بـ "**التّكيال أو الكيل**" وكانوا قبل ذلك يعتمدون على التَّقدير بالعين، وهذا حسب ما ذكره صاحب مخطوط "أحداث توات": «كان أهل الصَّحراء يستعملون المكاييل خاصة لتقدير مياه السَّقي فكانوا في البداية يُعِيِّرون بالعين دون مكيال خاص ثمَّ أصبح تقدير الماء يتمُّ بواسطة لوحة نحاسيَّة مثقوبة لتقدير الماء»[1].

وتسمى آلة الكيل في "توات" "**بالشِّقفة و الحلَّافة**"[2]، وتصنع من النُّحاس ويكون شَكلها إمَّا دائري أو تكون مستقيمة وهي ذات ثقوب ونوافذ في كلِّ ثقبة كبيرة حبَّة وفي الثُّقبة الصَّغيرة قيراط أو أكثر، والشَّقفة أو(الشِّكْفة) بـِ"تيديكلت" عبارة عن إناء مفتوح من قاعدتيه فيه ثقوب متفاوتة الحجم و القطر، تمثِّلُ وحدات القياس وأجزائها، وقد كان لكلِّ قبيلة شِكِفَتُها، بحيث وُجد بـِ"تيديكلت" و"توات" ما يَقارِبُ من أربعين شِكْفة.[3]

وأعتمد أهل "توات" على عدد من الوحدات الدَّقيقة في عملية تقسيم المياه ولها أسماء عديدة منها:

- **الحبَّة:** عبارة عن وحدة كيْلٍ قُدْرت بـ: (0.312 ل/دقيقة) وتدعى أحياناً بـــالقيراط الكبير الذي بدوره ينقسم ويتجزأ إلى 24 قيراط صغير، والقيراط الصَّغير يعادل

---

[1] – مؤلف مجهول: **مخطوط أحداث منطقة توات خلال خمسين سنة قبل الميلاد**، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر، ص31، **نقلا عن:** عزُّ الدِّين جعفري: المرجع السَّابق، ص.234.

[2] – **الشِّقفة أو(الشِّكْفة):** عبارة عن أسطوانة معدنيَّة من النُّحاس مفتوحة من الأعلى والأسفل، في جهة منها توجد فتحة كبيرة مستطيلة الشَّكل قابلة للإغلاق والفتح، وفي الوجهة المقابلة توجد ثقوب ما بين كبير وصغيرة قابلة هي أيضاً للفتح والإغلاق. **ينظر،** مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في دراسات مجتمعات الواحات**، المرجع السَّابق، ص.104.

[3] – مُحمَّد باي بلعالم: المرجع السَّابق، ج.1، ص.117. **وينظر أيضاً**، حسن حافظي علوي: **دراسات صحراويَّة**، ص.85.

(0.0135 ل/ثا) ويمكن أنْ يكون للحبَّة الواحدة عِدَّة أقسام تتدرج تحتها مثلا: (نصف حبَّة، ثُلث حبَّة، ربع حبَّة)[1]، وتستعمل الحبَّة بـِ"تيديكلت" و "توات" وتُعرف "**بحبَّة زريك**" ويبلغ صَبِيبُها أربع لترات في الثَّانية[2]، وفي "قورارة" تُعرف بـ "**الصُّبع**" وكُلُّها مفردات تُفيد قُطراً مُعينا، فالحبَّة تُحيل إمَّا على الحبَّة المُسْتعملة في البارود، أو حبَّة الشَّعير أو القمح.

أمَّا الصُّبع فيعني قَطراً بحجم أصبع رجل متوسط، أيْ أنَّ الثُّقب الموجود في الكَيْل يمكن تمرير أُصبعٍ فيه، وتدلُّ هذه التَّقسيمات المُتناهية الصِّغر على ندرة الماء من جهة، وعلى التَّعقيدات التي بلغتها ملكيَّة الماء من جهة أخرى، بحيث قد يصل مالكي ماء الفُقَّارة الواحدة إلى المئتين وأزيد، وقد بَلغ مُلَّاك أحد الفُقارات في واحة "توات" إلى سبعمائة مالك، ومن هنا تنشأ عمليَّة صعبة ومُعقدة تتمثَّل في تقسيم كميَّة ضئيلة من المياه إلى أجزاء صغيرة، ثُمَّ إيصال تلك الكميَّة إلى الرُّقعة الزِّراعيَّة وفقاً لنصيب صاحبها من ماء الفُقَّارة.[3]

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ عمليَّة تقسيم وتوزيع المياه كانت تَعرف تشابه كبير في جميع الأقاليم الصَّحراويَّة لبلاد المغرب، فالبكري في معرض حديثه عن مدينة "توزر"[4]، أشار إلى جداول المياه التي تتشعب منها سواقي كثيرة لا تُحصى، تجري في قنوات مَبْنِيَّة بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئا، كلُّ ساقية سعة شبرين في ارتفاع متر[5] «يُلْزَم كلَّ من يسقي منها أربعة أقداس مثقال في العام وحساب ذلك في الأكثر والأقل، وهو أنْ يعتمد الذي تكون له دُوْلة السَّقي إلى قُدس في أسفله

---

[1] – مبروك لمقدم: المرجع السَّابق، ص.74.

[2] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ا ، ص.92.

[3] – مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات**، ص.104 – 106.

[4] – **تَوْزَر**: بالفتح ثمَّ السُّكون، وفتح الزَّاي، مدينة في أقصى افريقيَّة من نواحي الزَّاب الكبير من أعمال "الجريد" معمورة وأرضها سبخة وبها نخل كثير. **ينظر**، ياقوت الحموي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.57.

[5] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراويَّة**، ص.87.

ثقبة بمقدار ما يسدُّها وتر فوس النَّدَّاب يملوه بالماء ويُعَلِّقُه، ويسقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفد ماء القدس، ثم يملؤها ثانية، وهم قد علموا أنَّ سقي اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قُدساً».[1]

ولابُدَّ أنَّ عمليَّة تقسيم المياه بالحواضر الصَّحراويَّة، كان يُشرف عليها مجموعة من الأشخاص فقد تحدَّث صاحب المعيار عن وُلَّاة المياه[2]، دون أنْ يُشير إلى المهام المُوَكَّلة لهم إلَّا أنَّ في تسْميتهم ما يُوحي بأنَّهم كانوا يُشْرفون على عمليَّة تقسيم المياه ولربَّما كانوا يُفصِّلون أيضاً في النِّزاعات التي قد تحدث بين الأفراد بخصوص قضايا الماء، وقد اختلفت تسمية المُشْرف على الماء من حاضرة إلى أخرى، ففي "وارجلان" و "ميزاب" يُعْرف باسم "**الأمناء**"[3]، وهي التَّسمية ذاتها عند أهل "الجريد" بحسب ما أورده التِّجاني في رحلته[4]. أمَّا بحاضرة "توات" فيُسمّى "**الكَيَّال**"، ويُعْرف في المغرب الأقصى باسم **(عامل الماء، أو شيخ الماء، أو العَيَّار)**، وبِـ "درعه" يُعْرف باسم "**أمْزال**".[5]

وفي الكثير من بلاد المغرب غالبا ما تتولى الجَمَاعَة (لجْماَعْت بالأمازيغية)، أمرَ الإشراف على توزيع المياه، وهي من تختار في غالب الأحيان المُشْرف على القسمة وتُعيَّنُ هذه الجَماعة لمدَّة سنة كما هو الحال بِـ "درعة" و "ميزاب"، أمَّا بحاضرة "توات" و" تيديكلت" فمهنة الكيَّال مهنة متوارثة، وغالباَ ما تكون أجرة والي الماء حصَّة من ماء السَّقي.[6]

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.48 – 49.

[2] – الونشريسي: **المعيار**، ،ج.8، ص.380.

[3] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراويَّة**ص.98.

[4] – أبو مُحمَّد عبد الله مُحمَّد التِّجاني: **رحلة التِّجاني**، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدَّار العربية للكتاب، ليبيا، ط.1، 1981م، ص.157.

[5] – مبروك لمقدم: المرجع السَّابق، ص.76. **وينظر**، حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.98.

[6] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.98 – 99.

و بـِ"تيديكلت" تؤدَّى أجرة الكيَّال بقصعة من التَّمر، وهو ما يعادل قيمة (2 كيلوا غرام من التَّمر)، أو بعدد من "أزْكيْن" أيْ حَفْنَات من القمح تقدر بحوالي (600 غرام)، وبالإضافة إلى الكَيَّال أو الأمناء اقتضت عمليَّة القسمة أيضاً وجود عدد من الموظَّفين، فإلى جانب المشرف على القسمة كان هناك الشَّاهد والموَثِّقين.[1]

3)- الإنتاج الزِّراعي، أنواعه و الأنظمة المساعدة على إدارته:

3 – 1 – التُّمور: أشارت معظم الرِّوايات التَّاريخيَّة إلى وفرة الإنتاج الزِّراعي وتَنوُّعه بحواضر الصَّحراء لتكون بذلك عنوانٌ للخصب رغم طابعها الصَّحراوي، فَـ" الحُميري" يشير إلى أنَّ "وارجلان" «بلد خصيب كثير النَّخل والبساتين... وهي كثيرة الزَّرع والضرع»[2].

وأهمُّ ما ميَّز حواضر الصَّحراء كثرة النَّخيل بها، فكلُّ من تطرَّق إلى وصف الحواضر إلَّا وأشار لكثرة النَّخيل بها، فـا"البكري" يُشير إلى كثرة النَّخيل في كلٍّ من "بسكرة" و"طولقة" و"تهود"[3]، وذات الإشارة نجدها عند "الحميري" و"الاستبصار" و "ابن سعيد"[4]، وتلك الإشارات على كثرتها قد تعطي انطباع على تأكيد اتّساع نطاق زراعة النَّخيل بالحواضر الصَّحراويَّة.

هذه الثَّروة على كثرتها فإنَّها لم تكن على نوع واحد، و لرُبَّما تلك الكثرة كانت في الغالب علامة على ما يَصْحَبُها من التَّعدُّد، وهذا ما يمكن أنْ نلمسه من خلال بعض الإشارات التي ورد ذكرها في كتب السِّير والجغرافيا، فالشيخ "أبو صالح جنون بن

---

[1]– مبروك لمقدم: المرجع السَّابق، ص.76. **وينظر**، حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.99.

[2] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.600.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.52 – 72.

[4] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.113 – 114. **وينظر**، مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.173، **وينظر أيضاً**، ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126.

يمريان" «كان أكثر نخيله وقائع (كذا) متفرقات، إذا ذكَّرها حظر عليها، ولا يدخل حظيرتها أحد إلى وقت صِرامها، فيلقط ما وقع تحتها كلَّ جنس على حدَّته»[1].

وقد أشار "البكري" إلى تَعدُّد أجناس التُّمور بحاضرة "بسكرة"، منها: جنس يُعرف بالكسب، وهو "الصِّيحاني" يضرب به المثل لفضله على غيره، وجنس يُعرف "باللياري" أبيض أملس.. وأجناس كثيرة.[2]

ويعود تنوُّع أجناس هذا المنتوج في تقديري إلى نوع الفصائل المغروسة وإلى العوامل والظُّروف البيئيَّة لكلِّ حاضرة، فحاضرة "أريغ" على سبيل المثال بها أزيد من خمسة عشرة نوع، منها: «دقلة نور، الغرس، الدِّقلة البيضاء...الخ»[3].

وعُرفت حاضرة "أسوف" أيضا بوفرة وتنوُّع هذا المنتوج وكان من أشهرها "دقلة نور" التي تُعدُّ من أجود أنواع التُّمور وأكثرها رواجا في الأسواق الدَّاخليَّة والخارجيَّة.[4]

وأشار "العياشي" في رحلته إلى تنوع و رخص أسعار التُّمور بحاضرة "توات" فقال: «... وبها من التَّمر أنواع كثيرة والتَّمر بها رخيصاً»[5]، وغالب أسماء التُّمور بحاضرة "توات" بربريَّة، منها: «تنعكشن، تنقريوش، تدمام، تناصر..الخ»، وقد جمعها أحد الشُّعراء في قصيدة تَضمُّ عشرة أبيات.[6]

ويبدو أنَّ كثرة نطاق زراعة النَّخيل وتنوع منتوجه دليل على ضخامة الإنتاج، وهذا ما وقفنا عليه في ردِّ الشَّيخ "**أبو صالح جنون بن يمريان**" على كتاب أحد أبناء عمومته يعاتبه على بقاءه في أرض الفقر والقفر بأنْ أجابه بقوله: «يا بن عمِّي فإنَّ

---

[1] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.737.

[2] – البكري: المصدر السابق، ص.52.

[3] – إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.41.

[4] – إبراهيم العوامر: المرجع السَّابق، ص.75.

[5] – العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.79.

[6] – مُحمَّد باي بلعالم: المرجع السَّابق، ج.1، ص.122 – 123.

عندنا أرضاً قعدة الرَّجل يحمل البعير وسقه عسلا»[1]، وفي جوابه إشارة إلى كثرة التَّمر لدرجة أنَّ العسل المنبثق منه يصبح أحمالاً، وهي رمزيَّة أو كِنَاية على كثرة الإنتاج.

وفي ذات السِّياق ممَّا روي أيضاً عن الشَّيخ "**أبو نوح سعيد بن زنغيل**" أنَّه لمَّا وصل "وارجلان" دخل جنان من جنَّات "**أبو صالح**" وهو يقطع ثمره و يجعلها عُرَّمة إلى أنْ صارت عرمة كبيرة إذا وقف رجل من ناحية لمْ يرَ الواقف من النَّاحية الأخرى فعجب "أبو نوح" لكثرة ذلك.[2]

يبدو لي أنْ ضخامة انتاج التُّمور جعلت ساكنه الواحات يتجاوزون الاستهلاك المحلي إلى التَّصدير فـ"الإدريسي" يشير بأنَّه ليس في "بلاد السُّودان" شيء من الفواكه الرَّطبة إلاَّ ما يجلب إليها من التَّمر من بلاد "سجلماسة"[3]، أو "بلاد الزَّاب" يجلبهُ إليهم أهل وارجلان[4] كما أنَّ ضخامة الإنتاج جعلت أهل الحواضر الصَّحراويَّة يقومون بتموين الرُّحل والوسطاء الذين يُتاجرون مع مراكز عمرانيَّة أخرى.[5]

وبالرَّغم من ضخامة وتنوع إنتاج التُّمور بحواضر الصَّحراء، إلَّا أنَّه كان يختلف من حيث الجودة من حاضرة إلى أخرى، فاشتهرت "الزَّاب" بجودة تمورها لاسيما جنس منه يُعْرف "باللياري" أبيض أملس كان "**عبد الله الشِّيعي**" يأمرُ عُمَّاله بمنع بيعه والتّحظير عليه... وبعث ما هنالك منه إليه[6]، في حين يذكر "ابن بطوطة" بأنَّ تمر

---

[1] – مؤلف مجهول: **المعلقات**، ص.55. **وينظر**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.343.

[2] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.555.

[3] – **سِجِلْمَاسة**: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السُّودان، وهي في منقطع "جبل درن" وهي في وسط الرِّمال كرمال "زرُود"، ويتصل بها من شمالها جددٌ من الأرض. **ينظر**، الحموي: المصدر السَّابق، مج.3، ص192.

[4] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.20.

[5] – إسماعيل العربي: المرجع السَّابق، ص.195.

[6] – البكري: المصدر السَّابق، ص.52. **ينظر**، مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص173.

"توات" ليس بطيْب لكن أهلها يفضلونه على تمر "سجلماسة"[1]، ولعل هذا راجع إلى رداءة التُّربة بـ"توات"، فصاحب "كتاب إفريقيا" يُشير بأنْ التُّربة الموجودة بـ"تكورارين" رديئة، وقلَّما يجدُ السُّكان ما يَصْلح الأرض للفلاحة، فالفلاحة عسيرة عندهم[2].

ومن الواضح أنَّ النَّخيل بثماره قد مثَّل المورد الغذائي الأكثر أهميَّة لساكنة الحواضر الصَّحراويَّة، فهم بذلك في مأمن من المجاعات[3]، وهو ما أقرَّه "ابن خلدون" في أنَّ أهل بلاد النَّخيل الذين غالب عيّشهم التَّمر... فإنَّ هؤلاء إنْ أخذتهم السُّنون والمجاعات فلاَ تنال منهم ولا يكثر فيهم الهلاك[4].

وما يُدلِّل لنا على أنَّ التَّمر كان المورد الغذائي الرَّئيسي للسُّكان هو حضوره الكبير على موائدهم، وممَّا رواه "الدِّرجيني" عن الشَّيخ "**عبد الله بن يحي**" «أنَّه استضافه جماعة من العزَّابة وقدَّم لهم تمراً كبيساً مُعسَّلاً ولبناً عجيباً»[5]، ويبدو أنَّ الشَّيخ "**أبي نوح سعيد بن زنغيل**" قد أُدْمج في ذات التَّقليد الاجتماعي عند وصوله إلى "وارجلان" حيث ملأ له الشَّيخ "**صالح جنون بن يمريان**" بيتاً إلى السَّقف تمرا.[6]

ولأنَّ هذا المنتوج شكَّل الغذاء الأساسي لساكنة الحواضر الصَّحراويَّة، كان لابدَّ من الاحتفاظ به لأوقات أطول وعلى مدار السَّنة، وهذا من خلال تهيئة الأسراب والمطامير لاختزانه[7]، وكان لابدَّ أنْ تتوفَّر في تلك المخازن شروط الحفظ كأنْ يكون

---

[1]– ابن بطوطة: المصدر السَّابق،ج.2، ص.713.

[2]– مارمول كربخال: المصدر السَّابق، ج.3، ص.163.

[3]– غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.141.

[4]– ابن خلدون: **المقدِّمة**، المصدر السَّابق، ص.91.

[5] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.507.

[6] – الدِّرجيني: المصدر نفسه ،ج.1، ص.141. **وينظر أيضا:** غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.141.

[7] – ابن خلدون: **المقدِّمة**، ص 451.

المكان ناشفاً وحيطانه وأرضية ناشفة من البلل والنَّداوة[1]، وإلى جانب المطامير فهناك من كان يُخصِّصُ غرفة لهذا الشَّأن، ففي "أريغ" كانت بعض الأسر الغنيَّة تُخصِّصُ غرفة أو تتخذ داراً لهذا الغرض.

3 – 2 – الحنطة و الشَّعير: تُعدُّ المصدر الثَّاني للغذاء بعد التَّمر، ولقد عرفت الحواضر إنتاج الحنطة و الشَّعير، إلَّا أنَّ نطاق زراعته كان محدوداً، ولعل هذا راجع إلى عوامل طبيعيَّة وممَّا ذُكر عن "عبد الله بن توتيست" الذي «وقعت إليه يمامة... فدخل وحمل لها قمحاً فجعله في كفِّة ولزِمه لها حتى لقطته»[2].

أمَّا بخصوص الشَّعير فقد وردت له إشارة عند "الوسياني" فيما اتخذه "علي بن يخلف" مع "أبو مُحمَّد عبد الله بن مانوج"، حيث أتاه بمن اشترى منه قطعة غنم وعبداً أو مطمورة شعير.[3]

3 – 3 – الزَّيتون: إلى جانب أشجار النَّخيل عرفت الحواضر الصَّحراويَّة غراسة أشجار الزَّيتون أيضاً، وإنْ كنا في واقع الأمر نجهل نطاق زراعته وكمِيَّة إنتاجه، إلَّا أنَّ بعض النُّصوص المصدريَّة تؤكد وجوده في الواحات، فقد اشتهرت "وارجلان" بكثرة زيتونها[4]، ولا نستبعد ذلك خاصَّة إذا علمنا أنَّ الزَّيت استعمله أهل "وارجلان" كحيلة لرفع الحصار عليهم بـِ"جبل كريمة"، بحيث وضعوا قصاع كبيرة مملـــوءة زيتاً ليُوهموا العدوَّ بوجود الماء عندهم[5]، كما أشتهرت كل من "بسكرة" و"طولقة" بكثرة الزَّيتون بها.[6]

---

[1] – أبو الفضل جعفر بن علي الدَّمشقي: **الإشارة إلى محاسن التِّجارة ومعرفة جيد الأعراض و رديها وغشوش المُدلس فيها**، مطبعة المؤيد، (د. م. ط)، (د.ط)، 1900م، ص.29.

[2] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.612.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.403.

[4] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.180.

[5] – أبو زكرياء: المصدر ر نفسه ، تح: (عبد الرحمان أيوب)، ص.165.

[6] – البكري: المصدر السَّابق، ص.52 – 72. **وينظر**، الحميري: المصدر السَّابق، ص.113 – 114 و 401. **وينظر أيضاً**، مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.173.

3 – 4 – الحمضيات: واشتهرت حواضر الصَّحراء أيضاً بزراعة الحمضيَّات فـ"ابن سعيد" يصفُ "أريغ" بأنَّها بلاد نخلٍ و مُحمَّضات.[1] وعرفت الحواضر الصَّحراويَّة زراعة بعض أشجار الفواكه، منها" التِّين والرُّمان والمشمش، ويشير "ابن خلدون" إلى أنَّ «فواكه بلاد السُّودان كلُّها من قصور صحراء المغرب مثل: "توات" و "تكورارين" ووركلان».[2]

إلى جانب ذلك كان الفلاحون يزرعون بعض الخضر الموسميَّة بعضها خاص بفصل الشِّتاء وأخرى خاصة بفصل الصَّيف، ففي فصل الشِّتاء كانوا يزرعون البصل والجزر والخسَّ والفول، أمَّا في فصل الصَّيف فيزرعون القرع والطَّماطم والفلفل، وتسقى الخضر الشِّتويَّة مرَّتين أو ثلاثة مرَّات في الأسبوع، أمَّا الصَّيفيَّة فتسقى يومٍ بيومٍ.[3]

ولمساعدة ملّاك الأراضي الفلاحين، وإدارة منتوجاتهم الزِّراعيَّة وتسيِّيرها والرَّفع من مردودها، أوجد أهالي الحواضر الصَّحراويَّة نظاماً مساعداً لهم سمِّيَ بنظام الخمَّاسة فما هو هذا النِّظام؟

3 – 5 – نظام الخمَّاسة: أُشتقُّ مصطلح الخمَّاسة من لفظ "الخُمس"، وخُمْسُ الشَّيء هو جزء من خمسة أجزاء، وهي في العُرف الاقتصادي لسكَّان الحواضر الصَّحراويَّة يعني أنَّ العامل الذي يشتغل في أرض غيره يأخذ خمسَ الإنتاج كمقابل للمجهود الذي يبذله في خدمة الأرض.[4]

والخمَّاسة هي عبارة عن اتفاق أو عقد يُحدَّدُ من خلاله العلاقة بين مالك الأرض والخمَّاس، وفق شروط مُعيَّنة يقع بعضها على عاتق المالك، وبعضها على عاتق

---

[1]– ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126.

[2]– ابن خلدون: **المقدِّمة**، ص.59.

[3]– إلياس حاج عيسى: المرجع السَّابق، ص111.

[4] – إلياس حاج عيسى: المرجع نفسه، ص.111 – 112.

الخمَّاس ولقد أشار صاحب "غصن البان" لبعض تلك الشُّروط، فمن الشَّروط التي تقع على عاتق المالك ما يلي:

- ✓ جلبُ السَّماد إلى الأرض ودفع أجرها.
- ✓ الاهتمام بعمليَّة الغطاسة، كأنْ يتفق مع الغطَّاسين ويمنحهم أجرهم.

أما شروط المالك على الخمَّاس فهي كالتَّالي:

- تحويل السَّماد إلى مكان الزَّرع.
- الاهتمام بعمليَّة السَّقي و تَوْبِير النَّخيل.
- قطع التَّمر ونقله إلى البلد.
- تَسييج البستان بجريد النَّخيل.
- حراسة البستان من اللصوص والمفسدين والحيوانات البريَّة.[1]

ويستفيد الفلَّاح بموجب هذا الاتفاق من خمس الإنتاج، وأحيانا يتبرَّعُ صاحب الأرض (المالك) للخمَّاس بجزء من حصته، خاصة إذا كان الإنتاج ضعيف بفعل عامل من العوامل.[2]

ويُضيف صاحب "غصن البان " بأنَّ الخمَّاسة بهذا الوطن (وارجلان) كانت من المِهَنْ الشَّريفة وغالباً ما يتولَّاها من هو فقير وليس له ما يكفيه من المؤونة له ولعياله وقد كانت الخمَّاسة بالخمس في التَّمر[3]. ويبدو أنَّ هذه المهنة قد اختصَّت بها الفئات الهشَّة من المجتمع.

---

[1]- أعزام: المرجع السَّابق، ص.206 – 207. **وينظر**، إلياس حاج عيسى: المرجع السابق ، ص.112.

[2]- إلياس حاج عيسى: المرجع نفسه، ص.112.

[3]- أعزام: المرجع نفسه، ص.206.

4)- النَّشاط الرَّعوي و تربية الحيوانات:

وبغرض الإلمام بالنَّشاط الزِّراعي في الحواضر الصَّحراويَّة جدير بنا أنْ نلقي نظرة على النَّشاط الرَّعوي، باعتباره مُكمِّلاً للنَّشاط الزِّراعي وجزءاً منه، وإذا نظرنا من النَّاحية التَّاريخيَّة إلى الخصائص الجغرافيَّة لبلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة، والتي تسببت منذ فجر التَّاريخ إنْ لم نقل منذ النيوليتي (الحجري الحديث) في بروز ظاهرة الرَّعي.[1]

وتميَّز أغلب سكَّان بلاد المغرب بالحركة و الانتجاع، ومن أشهر رُعاة التَّاريخ القديم النُّمُوذَجِيين قبائل الجيتول التي امتد انتشارها ما بين المحيط الأطلسي و فزان.[2]

ومع استقرار البربر وتوغُّلهم في البراري وتبدُّدهم في الصَّحاري[3]، كرهوا نزول المدن فكان مذهبهم في ذلك مذهب الأعراب، إنَّما يسكنون الجبال والبراري والدَّهاليز والصَّحاري، أمَّا الرُّحل منهم فيتبعون القَطْرَ وينتقلون في البلاد بمواشيهم و إبلهم كفعل الأعراب.[4]

ويرى أحد الباحثين بأنَّ الرَّعي في بلاد المغرب كان جزءاً من النَّمطيَّة المعيشيَّة والمهنيَّة للسكان بل وجزءاً من ثقافتهم الاجتماعيَّة، بحيث اعتمدت بعض مصطلحاته كمحسنات بديعيَّة[5]، فالإمام "يعقوب بن أفلح" (ت.310هـ/922م) ردَّ على أهل "وارجلان" الذين طلبوا منه أنْ يتولَّى شؤونهم بقوله "لا يستتر الجمل بالغنم"[6].

---

[1]- مُحمد البشير شنيتي: «**التَّوسُّع الرُّوماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة**»، مجلَّة الدِّراسات التَّاريخيَّة، ع.2، معهد التَّاريخ، جامعة الجزائر - الجزائر، 1986م، ص.9.

[2]-نفسه.

[3] - ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.97.

[4] - صالح بن عبد الحليم الإيلاني: **مفاخر البربر**، اص.196.

[5] - غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.142.

[6] - الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.105.

والرَّعي في الحواضر الصَّحراويَّة من أصعب المهن التي قد يَمْتهنها الإنسان، نظراً للظروف المناخيَّة التي تعرفها الحواضر، إذْ يَقل فيها الإنبات وتجفُّ الأحواض وهو ما أدى إلى انحسار مناطق الرَّعي بها، ولهذا كانت القبائل تنتقل إلى العديد من الجهات بحثاً عن الكلأ، فقبائل "مزاته" و"سدراته" كانت تنتقل في فصل الرَّبيع إلى أحواز مدينة "تيهرت" لانتجاع الكلأ.[1]

وكانت رعاية الماشية بالحواضر الصَّحراويَّة تتمُّ في العديد من المراعي التي يبدو أنَّها كانت في البوادي، وتُعتبر بادية "بني مصعب" من أهمِّ المناطق الرَّعويَّة، حيث تُشير الرِّوايات إلى أنَّ "**أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر**" صاحب الحلقة كان "يُشتِّي في "أريغ" و يُربِّع في البوادي عند "بني مصعب"[2]، حيث كان يتَّبعُ مواطن الكلأ والماء كما كان موقع الرُّكبة الضَّالة بين "وارجلان" و "أندرار" من أهمِّ مواطن الرَّعي، لِمَا يتوفر عليه من الكلأ الذي كان وراء تَحسّن حال ما يُرعى فيه من الجمال[3].

وروي عن الشَّيخ "**أبو صالح جنون بن يمريان**" (ق.4هـ/10م) أنَّه كانت له إبلا بنواحي أدْرج، ومكثَ في تلك النَّواحي نحو سبع سنين[4]، ولعل في النَّص ما يُوحي بأنَّ أدرج أيضاً كانت من ضمن المناطق الرَّعويَّة، كما كانت "تالا عيسى" (تلا عيسى) لا تخلو من ذي حافر[5]، و"تماواط" أيضاً كانت الأرجل الحافية تخرجُ من ساقيتها وتمشي بهيئتها على مبارك الإبل والغنم ومُستقى النَّاس والبهائم[6]

---

[1] – مبارك الميلي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.67. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.187.

[2] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.255.

[3] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.142.

[4] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.802. وينظر، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.373.

[5] – **تالا عيسى (تلاعيسى)**: تالا بالبربريَّة هي عين الماء، وعيسى نسبة إلى الشَّيخ "عيسى بن يرصوكسن"، ويبدو أنَّه موضع قريب من "وارجلان". **ينظر**، الوسياني: المصدر نفسه ،ج.1، ص.428، الهامش رقم 10.

[6] – أبو زكرياء: المصدر النفسه ، تح: (عبد الرَّحمان أيوب)، ص301. الوسياني: المصدر انفسه، ، ج.3، ص.788.

وتُعدُّ "أريغ" أيضاً من المناطق الرَّعويَّة حيث كان سكان "أسوف" يتخذونها مرعى لأنعامهم في فصل الرَّبيع.[1]وتتمثَّلُ الثَّروة الحيوانيَّة التي اهتم ساكنة الحواضر الصَّحراويَّة بتربيتها في الإبل والغنم بشكل خاص لكونها تُشكِّل مورد غذائي للسُّكَّان من خلال ما توفِّره من حليب ولحوم، بالإضافة إلى حاجتهم لصُوفها و ووبرها، ولربَّما يعود اهتمام سُكَّان الحواضر بالإبل لكونها الوسيلة الأساسيَّة للنقل إذْ من خلالها يتمُّ نقل السِّلع والمنتجات إلى الحواضر الأخرى، ناهيك على المميِّزات التي يمتاز بها الجمل من تحمُّل العطش ورفع الأثقال والسَّير لمسافات طويلة، وتأقلمه مع الظُّروف المناخيَّة، كما أنَّه كان مَطيَّة الحُجَّاج إلى البقاع المقدَّسة، وعلاوة على ذلك فالإبل في حدِّ ذاتها كانت من ضمن السِّلع التي يتمُّ بيعها ونقلها.

واشتهرت "زناته" بتربيتها وامتلاكها للإبل بصحاري المغرب الأوسط، وليس أدلَّ على ذلك من أنَّ «"**المعزّ لدين الله الفاطمي**"... لمَّا عزم على الرَّحيل إلى مصر أتاه "**بلكين بن زيري**" بألفي جمل من إبل "زناته"»[2]، لحمل ذخائر الفاطميين نحو "القاهرة"

وبالإضافة إلى الإبل اهتمَّ أهل الحواضر الصَّحراويَّة أيضا بتربية الأغنام قصد الاستفادة من لبنها ولحومها، وغالبُ الظَّنِّ أنَّ الأغنام تكون قد جُلبت إليها من بعض حواضر الشَّمال، فقد اشتهرت العديد من مدن المغرب الأوسط بتربية الماشية لاسيما المناطق السَّهبيَّة من الإقليم، حيث اشتهرت مدينة "تيهرت" بكثرة الأبقار والغنم بها فهي كما أشار "ابن حوقل" «أحد معادن الدَّواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهيَّة»[3].

---

[1] – علي غنابزية: «**وادي ريغ من خلال كتاب تاريخ مُحمَّد العدواني**»، مجلَّة الباحث في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مج.2، ع.1، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة ، جامعة الوادي، الجزائر، ديسمبر 2011م، ص.11.

[2] – المقريزي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.100.

[3] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.86. **وينظر**، الإدريسي: **المغرب وأرض السُّودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1863م، ص.87.

ولا نستبعد في أنْ تكون الأغنام من ضمن السِّلع التي يتمُّ استيرادها من بلاد السُّودان نظراً للتشابه البيئي بين الضِّفتين من جهة، ولرخص أسعارها من جهة أخرى فا"البكري" أشار إلى أنَّ مدينة "أودغشت"[1] «كثيرة الأغنام والبقر إذْ بالمثقال الواحد يُشْترى عشرة أكبش»[2].

وقد وُجد بحاضرة "توات" سُلالة من الأغنام المجلوبة من بلاد السُّودان وكانت الأكثر انتشاراً بالمنطقة ويتمُّ تربيتهم في مكانٍ يُسمَّى باللهجة المحليَّة **(التَّقمي)**[3].

وبالإضافة إلى الإبل والأغنام اهتمَّ أهل الحواضر الصَّحراويَّة أيضاَ بتربية الأبقار والبغال والحمير حيث كانت تستعمل هذه الأخيرة في عمليَّة الحرث ونقل الزِّبال والغُضار (الطين) إلى البستان كما أنَّها كانت وسيلة تنقل من بستان لآخر، واستعملت أيضاً في عمليَّة جلب الماء من البئر وذلك بإتباع دربٍ مائل يُخفِّفُ عليها مشقَّة الجذب، وعند إفراغ الدَّلو في الحوض تعود الدَّابة في اتجاه البئر لِتكرِّرَ العمليَّة.[4]

ونظراً لأهميَّة البغال والحمير في النَّشاط الزِّراعي بالحواضر الصَّحراويَّة، ولمنافعها الكثيرة فقد صارت مَضْرباً للأمثال[5]، وهذا مايؤكد على أهمية هذا الحيوان في النشاط الزراعي بالواحات.

وكانت الخيول أيضاً ضمن دائرة اهتمامات أهل الحواضر الصَّحراويَّة، واحتلت المرتبة الثَّانية من حيث الأهميَّة وكانت تُستخدم في دفع غارات العرب[6]، كمااهتمَّ أهل

---

[1] – **أودغشت:** مدينة بين صحراء لمتونة والسُّودان، وهي مدينة عظيمة آهلة، وهي بين جبلين شبيه بمكة في الصِّفة، بينها و بين" وارجلان احدى و ثلاثون مرحلة. **ينظر**، الحميري: المصدر السَّابق، ص.63.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[3] – **التقمي:** عبارة عن حظيرة صغيرة يكون في أوَّل البستان يُخصَّص لتربية الأغنام يُقسَّم لعدَّة غرف صغيرة لفصل الأغنام بعضها عن بعض. **ينظر**، عزُّ الدِّين جعفري: المرجع السَّابق، ص.229.

[4] – يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السَّابق، ص.40.

[5] – عزُّ الدَّين جعفري: **أطلس العادات**، المرجع السابق، ص.228.

[6] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.188.

"وارجلان" أيضاً بصيد النَّعام فقد دلَّت الحفريَّات على وجود بقاياه من بيض مغمور في رمال القرى المندثرة وهياكل عظميَّة له وكانت شحومه تستعمل كأدوية، أمَّا ريشه فيُوضع على مداخل الخيام كعلامة على اليُسْر والرَّخاء واستخدمت عظامه في حفظ التِّبر(الذَّهب الخام)، وبيضه لخزن بعض أنواع الحبوب.[1]

أمَّا عن قُوَّة وحجم هذا النَّشاط فقد ترجمتها لنا بعض المظاهر، كموائد الطَّعام على سبيل المثال والتي غالباً ما كانت تُزيِّنها لحوم الإبل والأغنام[2]، وكذا اللباس حيث غلب على لباس أهل الحواضر الصَّحراويَّة الصُّوف، ويشير "الأغواطي" إلى أنَّ معظم لباس أهل "وارجلان" من الصُّوف.[3]

ويبدو لي أنَّ النَّشاط الرَّعوي بالحواضر الصَّحراويَّة كان في نطاق ضيِّق ومحصور، وهذا راجع لعدم تَوفُّر الظُّروف المناخيَّة المُلائمة لهذا النَّشاط وانحسار مناطق الكلأ والماء، ولهذا لجأ ساكنة الواحات إلى تلبية حاجاتهم من القوافل التي كانت تَصلهم من المدن المجاورة، ولقد أشار "العيَّاشي" إلى القوافل التي وصلت "وارجلان" أثناء إقامته بها وكانت الإبل والأغنام من أهمِّ سلعها فيقول: «... و صادف دخولنا دخول قافلة... قدمت بسمن كثير وغنم وإبل ... وقَدِمَت أخرى بعدها بيوم تحملُ مثلها أو أكثر فتنعَّم النَّاس باللحم والتَّمر والسَّمن».[4]

ويشير "مارمول كربخال" أيضاً إلى قِلَّة وغلاء اللحم بـِ"تيكورارين" ممَّا اضطرهم لأكل لحوم الخيول أو الجمال الهرمة التي كانوا يشترونها من الأعراب، كما كانوا

[1] – بوعصبانة: المرجع السابق ، ص.189.

[2] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.672 – 673.

[3] – الأغواطي: المصدر السَّابق، ص.92.

[4] – العيَّاشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.144.

يعتمدون في غذائهم أيضاً على الشَّحـــم المُملَّحِ الذي يأتيهم به تُّجار "فاس" و"تلمسان".[1]

ولهذا يرى "**بوعصبانة**" أنَّ حرفة الرَّعي بالحواضر الصَّحراويَّة لم يكن يُرتجى منها فائدة كبيرة و إنَّما احتفظ بها أهل هذه الحواضر لتأمين معاشهم واكرام ضيوفهم، وقد يتتبعون بها شعب الجبال فراراً بدينهم من الحواضر إذا فَسدت أخلاق النَّاس فيها.[2]

ومن خلال ما تمَّ ذكره نلاحظ أنَّ النَّشاط الرَّعوي بحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة قد ساهم في تحقيق تكامل اقتصادي إلى جانب النَّشاط الزِّراعي، ورُغم الجهود التي بذلها ساكنة هذه الحواضر في تحدي الظُّروف الطَّبيعيَّة القاسيَّة التي تعرفها المنطقة، وذلك من خلال إحياء أراضي الموات وحفر الآبار والعيون واستحداثهم للأجنَّة والبساتين، إلَّا أنَّ النَّشاط الزِّراعي بالواحات ظلَّ رهن جملة من المُعيقات منها ما هو طبيعي مُتعلِّقٌ بالظُّروف الطَّبيعيَّة والمُناخيَّة للمنطقة، كالقحط والجفاف وندرة المياه، وكثرة الرِّياح وارتفاع درجات الحرارة التي أدَّت في غالب الأحيان إلى اتلاف المنتوج قبل نضجه، كما أدَّى ارتفاع الحرارة إلى انحصار أوقات العمل و صعوبته.[3]

ناهيك على ما تعرَّضت له المحاصيل الزِّراعيَّة من جوائح وآفات، كآفة الجراد التي أصابت بعض المزارع، فلقد أشارت كتب السِّير إلى نزول الجراد ببعض البساتين والضِّياع بـِ"وارجلان" منها: ضيعة الشَّيخ " **أبي عبد الله بن أبي بكر**" بتين يسلي.[4]

بالإضافة إلى ذلك ظهور بعض الأمراض التي تُصيب الزُّروع خاصة النَّخيل التي كانت عُرضة للعديد من الأمراض، كمرض العفرة والسُّوسة والغرم[1]، وكذلك

[1] – مارمول كربخال: المصدر السَّابق، ج.3، ص.163.

[2] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.189.

[3] – بوعصبانة: المرجع السابق ، ص.186.

[4] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.3، ص. 826.

الاعتماد في النَّشاط الفلاحي على وسائل تقليديَّة محلِّيَّة، وهو ما انعكس على مرْدوديَّة الإنتاج.[2]

أمَّا المُعيقات البشريَّة فقد تمثَّلت بالأساس في حالة عدم الاستقرار وانعدام الأمن التي عرفتها حواضر الصَّحراء خلال فترات مختلفة، جرَّاء بعض الحملات العسكريَّة التي طالتها، فقد تعرَّضت الحواضر لعدَّة حملات عسكريَّة انطلاقاً من "**حملة المنصور الحمَّادي**" في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي (405هـ/1014م)[3]، حيث قام بغارتين ضدَّ قبائل "زناته" المُتحالفة مع الهلاليين ناحية "الزَّاب"، كما أرسل جيوشه في حملة على وارجلان لملاحقة الهلاليين[4]، و ما إنْ دخل جيشه المدينة حتى عاث فيها فساداً و تخريباً و قطع أشجار النَّخيل وغوَّر عيونها.[5]

ثمَّ حملة "**يحيى بن غانية الميورقي**" (626هـ/1229م) على "وارجلان" وما انجرَّ عنها من تخريب للمدينة، حيث قام بتخريب وقطع النَّخيل وأحرق الغابات وغوَّر المياه، ويذكر صاحب " **غصن البان**" أنَّ "ابن غانية" نزل على "عين الصَّفا" بـِ"سدراته" و"عين القبائل" بـؤ"يفرن" فأفسدها في ثلاثين يوما.[6]

=

[1] – نفسه.

[2] – ج. كوفي: **غراسة النَّخيل في سوف**، تر: عبد القادر ميهي، إصدارات دار الثقافة، الوادي، الجزائر، ط.1، 2013م، ص.38 – 39.

[3] – عزّالدين جعفري: **أطلس العادات**، المرجع السّابق، ص.217.

[4] – رشيد بورويبة: **الدَّولة الحمَّاديَّة تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط.1، 1977م، ص. 72.

[5] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة**، المرجع السَّابق، ص.34.

[6] – أعزام : المرجع السَّابق، ص.132.

ولقد أشار "ابن خلدون" إلى ما تعرَّضت له المدينة من تخريب على يد "**يحي إبن غانية** " في قوله: «خرَّب عمرانها واجتث شجرها وغوَّر مياهها ويشهد لذلك أثرُ العمران بها في أطلال الدِّيار ورسوم البناء وأعجاز النَّخل المنقعر»[1].

كما تعرَّضت المدينة لحملات أخرى منها: حملة "**أبو زكرياء الحفصي**" (628هـ/1230م)، وحملة "**المنصور المزني**" (673هـ/1274م)، بالإضافة إلى غارات العرب الهلاليَّة على الحواضر من حين إلى آخر، فكلَّما دارت رحى الحرب لا تجد الأرض من يقوم بها وفي غالب الأحيان يلجأ الخصوم إلى هلاك الزُّروع انتقاماً من الخصم وهو ما وقع في حملة "**المنصور الحمَّادي**" و"**يحيى ابن غانية الميورقي**"[2] ولقد ساهمت الحروب والفتن بدور فعَّال في تقلِص المساحات المزروعة وتراجع الإنتاج الزِّراعي[3].

وهوما تفطَّن إليه "**ابن خلدون**" الذي لمْ يتردَّد في اعتبار هذا النَّشاط، "**معاش المستضعفين**" وذلك لما تتناوله أيدي القهر والاستطالة، فأقرَّ بأنَّ العُدْوان على النَّاس في أموالهم ذاهب بآمالهم في اكتسابها وتحصيلها لما يَرُونه من غايتها ومصيرها وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انْقبضت أيديهم عن السَّعي في الاكتساب.[4]

ومجمل القول فإنَّ عمليَّات التَّخريب والنَّهب التي تعرَّضت لها حواضر الصَّحراء جرَّاء الحملات العسكريَّة، كان لها بالغ الأثر على واقع النَّشاط الزِّراعي بها، وهو ما دفع ببعض ساكنة الحواضر الصَّحراويَّة إلى العُزوف وترك النَّشاط الزِّراعي والإقبال

---

[1]– ابن خلدون: **العبر**، ، ج.7، ص.64.

[2] – عبد الكريم جودت: **الأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في المغرب الأوسط خلال القرنيين الثَّالث والرَّابع الهجريين، (9 – 10م)**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، (د.ط)، (د.س.ن)، ص.27.

[3] – حميد تيتاو: **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدَّار البيضاء، 2008م، ص.248.

[4]– ابن خلدون: **المقدِّمة**، ص. 258 – 262. **وينظر**، حميد تيتاو: المرجع نفسه، ص.248.

على النِّشاط الصِّناعي والحرفي الذي لا يقلّ أهمية هو الآخر عن النَّشاط الزِّراعي. فكيف كان واقعه؟

ثانياً- الصَّنائع والحرف بالحواضر الصَّحراوية "الخصوصيَّة الصَّحراويَّة والتَّقنيَّات المحلِّيَّة".

1)- المُقوّمات الصِّناعية:

إنَّ أزليَّة المنطقة المُرتبطة رُبَّما بالعهد (النِّيوليتي)، تفيد بباكورة اتصال الإنسان بها، مما يعني أنَّه ربّما يكون قد[1] ترك آلاته الحجريَّة الدَّقيقة التي كان يستعملها في حياته اليوميَّة[2]، إذْ تُشِير بعض الآثار إلى أنَّ المناطق الصَّحراويَّة قد عرفت استقراراً بشرياً منذ القدم، من ذلك ما كشفت عنه عمليَّات التَّنقيب التي أُجْريت في العديد من المناطق، منها منطقة "**كهف السُّلطان**" الواقعة على بعد حوالي عشرين كيلومتر جنوب غرب ورجلان (ورقلة) أين وُجد بها كهوف يصل عُمْقها إلى ثلاثين متراً وتحتوي على طوابق وغرف مع وجود بعض الكتابات بها.[3]

إضافة إلى ما كُشِف عنه قُرب "وارجلان" من أحواض الصَّالحين محفورة في الصَّخر[4]، وُجد أنَّ الاكتشافات التي ارتبطت ببيض النَّعام ومجالات استخدامه قد أفادت أنَّه خلال آلاف السَّنين وَجَدت الشُّعوب التي سكنت مناطق شمال إفريقيا السَّاحليَّة التَّلِّيَّة والصَّحراويَّة في بيض النَّعام مادة خام صالحة لإنجاز بعض الأدوات الضَّروريَّة.[5]

---

[1] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**ص.143.

[2] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.13.

[3] – أحمد ذكار: «**مدينة ورقلة التَّسمية والتَّأسيس دراسة تاريخية**»، ص.164.

[4] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.144.

[5] – عبد القادر دراجي: «**المظاهر الفنيَّة في المغرب منذ 13000 سنة الزَّخرفة والنَّحت على قشور بيض النَّعام**»، مجلَّة الدِّراسات الأثريَّة، مج.1، ع.2، جامعة الجزائر(2)، الجزائر، نوفمبر1992م، ص.19.

وهذه الخلفيَّة شكَّلت الأرضيَّة أو القاعدة التي إنْبِنَت على أساسها عمليَّة التَّصنيع بالحواضر الصَّحراويَّة، ومع مرِّ العصور عرفت الصِّناعة بالمجال الواحاتي تطوُّراً وازدهاراً كبيراً ساهمت فيه جملة من العوامل، من أبرزها:

الموقع الاستراتيجي للحواضر الصَّحراويَّة وبُعدها على مراكز السَّلطة و جُور الحُكَّام، جعلهـا تعرف نوعاً من الاستقرار والأمن، كما أنَّ وقوعها على الطُرق المُفْضية لبـلاد السُّودان جعلها قـادرة على توفير المواد الأوليَّة اللازمة في عمليَّة التَّصنيـع، حيث شهـدت حركـة تجاريَّـة نشطة امتدت مـع البلدان المجـاورة للمغرب

مثل: (مملكة دانينكوب (شمال السِّنغال) و ومملكة الكانم وبرنو (النِّيجر) وغانا "بلاد السُّودان" التي كان يتوَّفر فيها الذَّهب الخام والعاج وريش النَّعام والجلود والرَّقيق الأسود).[1]

بالإضافة إلى ما وفَّرته الزِّراعة من خامات مختلفة ساهمت بدورها في ازدهار الصِّناعة، ناهيك عن وفرة اليد العاملة المُسْتديمة والمُتمثِّلة أساساً في فئة العبيد، حيث كانت هذه الأخيرة من أهمِّ الواردات من بلاد السُّودان، واشتهرت حاضرة "وارجلان" كونها النَّواة الأولى في تصدير العبيد، ومنها يُنْقل إلى باقي مدن المغرب الأوسط[2]. وهو ما أكَّده "إبن سعيد" في قوله: «بأنَّها بلاد نخل وعبيد ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط»[3]، فوفرة اليد العاملة تُعتبر عاملاً مُهماً في ازدهار في النَّشاط الِّصناعي.

وإلى جانب ذلك فقد استفادت الحواضر الصَّحراويَّة من العناصر المُتِحضِّرة التي لجأت إلى الواحات واستقرت بها، حيث نقلت هذه العناصر معها خِبْرتها ومَعارفها ومن

[1]– عبد العزيز فيلالي: **العلاقات السِّياسيَّة بين الدَّولة الأمويَّة في الأندلس ودُول المغرب**، دار الفجر للنّشر والتَّوزيع، القاهرة، ط.2، 1999م، ص.102.

[2] – مُحمَّد بن عربة و أحلام بوسالم: **دور مدينة وارجلان في تجارة الرَّقيق**، المرجع السَّابق، ص.93.

[3] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126.

أهمّ هذه العناصر: اليهود الذين اشتهروا بالعديد من الحرف، أهمُّها: الصِّياغة و الصَّيرفة[1].

أضف إلى ذلك التَّطور العمراني الذي عرفته حواضر الصَّحراء عبر مراحل مختلفة فقد شهدت تطورا عمرانيّاً كبيراً وهذا بفضل ما وفَّرته لها تجارة القوافل، فـ"ابن خلدون" أشار إلى استبحار عُمْران كل من "تقرت" و"واركلا" و"توات"[2].

ولابُدَّ وأنَّ هذا التَّطوُّر والازدهار العمراني قد صاحبه تأنُّقا في الصَّنائع واجادتها وفقاً للنظرة الخلدونيَّة. فكُلُّ هذه العوامل ساعدت إلى حدٍّ ما في تطوير وازدهار حركة التَّصنيع بالحواضر الصَّحراويَّة، وعليه فقد عرفت الواحات العديد من الصِّناعات.

2)- أنواع الصِّناعات:

قبل أنْ نشرع في الحديث عن أبرز الصِّناعات التي انتشرت في المجال الواحاتي يجْدُر بنا أنْ نُشير إلى أنَّ الصِّناعة بالحواضر الصَّحراويَّة قد تميَّزت ببعض الخصوصيَّات، بحيث أنَّها صناعة اعتمدت على مواد أوَّليَّة محلِّيَّة، أيْ أنَّها اعتمدت على ما وفَّرته لها المنطقة من مواد طبيعيَّة بالإضافة إلى أنَّ هذه الصِّناعة جاءت لتُلبي حاجيات السُّكَّان بالدَّرجة الأولى، وقد تنوَّعت وتعدَّدت وفقا لمُتطلبات السُّكان فهي صناعة موجه للاستعمال اليومي ولتأمين حاجات المنطقة، ولم يكن الغرض من تصنيعها تجاري أيْ بهدف التَّصدير، ناهيك على أنَّها صناعات تَميَّزت بالبساطة في التَّصميم والتَّصنيع، ومن أهمها نجد:

[1] - غرايسة : **المدينة الدولة**، ص 146.

[2]- ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.65 – 69 – 76.

2 – 1 – الصِّناعات النَّسيجيَّة: ازدهرت صناعة النَّسيج في مختلف مناطق المغرب الأوسط و هذا لوفرة المادة الأوليَّة لتصنيعها، فهي صناعة تعتمد أساساً على الصُّوف، وتعتبر الهضاب العُليا بالمغرب أكبر منتج لهذه المادة[1].

ولقد عرفت هذه الصِّناعة حضوراً كبيراً في المجال الواحاتي، ساهم في انتعاشها قوَّة النَّشاط الرَّعوي، وتعدُّ حاضرة "وارجلان" من الحواضر الصَّحراويَّة المُتميِّزة في ميدان المنسوجات، لوفرة مادة التَّصنيع الأولية في عمليَّة النَّسيج من صوف الأغنام ووبر الجمال وشعر الماعز، وقد كان لها جناح خاص بالمنسوجات على مستوى السُّوق المحلِّيَّة[2] وتتمُّ عمليَّة النَّسيج والحياكة بالحواضر الصَّحراويَّة بمناسج تقليديَّة داخل المنازل، فالمرأة هي المُشْرفة على هذه الصِّناعة إمَّا في منزلها أو خيمتها[3].

وفي هذا الشَّأن يشير "الوسياني" إلى أنَّ النِّسوة كن يشتغلن بالغزل عند زوجة "محرز بن ماراث الزُّواغي"[4]، كما وُظِّف لهذا العمل أيضاً الجواري والإماء[5]، وكان أنسب وقت للعمل بالنِّسبة للنسَّاجَاتِ هو فصل الصَّيف حيث النَّهار طويل والعيش مُيسُر.[6]

ومن أبرز المنتوجات النَّسيجيَّة التي ورد ذكرها في بعض المصادر نجد "البرنوس" و"الإزار الحوليَّة" (الكساء)، و"الطَّاقيات" و"العمائم"، و"الحايك التُّواتي"، و"السِّلهام التُّواتي"، وكان الإقبال عليها كبير من قبل قبائل البربر، بالإضافة إلى الخيام المنسوجة

---

[1] – إبراهيم بحاز: **الدَّولة الرُستُمية دراسة في الأوضاع الاقتصاديَّة والحياة الفكريَّة (160– 296هـ/777–909م)**، منشورات جمعيَّة التُّراث – غرداية، الجزائر، ط.1، 1985م، ص.167.

[2] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة**، ص.96.

[3] – نفسه. **وينظر أيضاً**، إبراهيم بحاز: المرجع السابق ، ص.167.

[4] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.750.

[5] – إبراهيم بحاز: المرجع نفسه ص.167.

[6] – إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.42.

من وبر الجمال وشعر الماعز والمعلوم أنَّ البربر منذ القديم قد بَرعوا في هذه الصِّناعة التَّقليديَّة التي كانت قوام لباسهم وفرشهم وأغطيتهم وخيامهم[1].

وهذه المنتجات لا يبدو أنَّها احتفظت بألوانها الأصليَّة أو كانت على ذات اللون، وإنَّما كان البعض منها مصبوغ بألوان مختلفة[2]، وقد ساعدها في ذلك وجود الحجر المُلوَّن بالحُمرة والصُّفرة والبياض الموجود قريبا من "وارجلان"[3] .

على الطَّريق إلى "غدامس"[4]، وهو ما يُفيد بمدى قدرة ساكنة الحواضر الصَّحراويَّة على تطويع الظُّروف البيئيَّة في تحدٍّ عنوانه إرادة البقاء وغالبا ما كانت تنتج هذه الأنواع بالقرى وبقدر الاكتفاء الذَّاتي، وما زاد منها يتم تصديره لبلاد السَّودان.

2 – 2 – صناعة الجلود: تعتمد هذه الصِّناعة على الجلود كمادة أوليَّة، ويتمُّ الحصول عليها عن طريق الحيوانات التي يتمُّ تربيتها كالأغنام والأبقار، كما يتمُّ جلبها أيضاً من البلدان المجاورة لاسيما السُّودان الغربي، فقد كانت الجلود من أهمِّ السِّلع التي يتمُّ استيرادها، ويكثر الطَّلب عليها في الأسواق ويُجلْب منها أنواع عديدة كجلود «الغنم، والإبل و البقر، والماعز المدبوغة، و جلود الحيوانات المفترسة مثل: النُّمور و الأسود، وجلود الأفاعي».[5]

---

[1] – عبد الحميد بكري: المرجع السَّابق، ص.48. **وينظر أيضاً**، مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات**، ص.116.

[2] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.146.

[3] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.600. **وينظر أيضاً**، مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.224.

[4] – **غدامس:** هي مدينة بالمغرب في جنوبيّه ضارية في بلاد السَّودان بعد بلاد زافون، أهلها بربر يقال لهم تناوريَّة، اشتهرت بدباغة الجلود، والجلود الغدامسيَّة من أجود الدِّباغ. **ينظر أيضاً**، الحموي: المصدر السَّابق، مج.4، ص.187.

[5] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.249. **وينظر أيضا:** إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.42. **وينظر أيضاً**، أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقتها التِّجاريَّة**، ص.102.

وتستعملُ هذه الجلود بعد دباغتها بواسطة الملح الممزوج بورق الصَّلاح ويُحضَّر الجلد بإبقائه في الماء لمدَّة ثلاثة أيام، و بعدها يُنْزع منه الصُّوف ثُمَّ يرجع ثانية إلى الماء لمدَّة ثمانية أيامٍ أخرى ثمَّ يُستخرج و تُوضع عليه الدِّباغة[1].

كما يُصنع من الجلود المدبوغة أدوات التَّخزين كالمِزْود الذي يُدَخرُ فيه الدَّقيق والقمح، ويُصْنع منها أيضاً القِرَبُ – جمع قربة – التي يتم فيها تبريد وتخزين ماء الشُّرب، وقد اشتهرت حاضرة "أسوف" بصناعتها[2] .

بالإضافة إلى صناعة النِّعال، والأكياس بأحجامها المختلفة، ولربَّما تكون هذه الأكياس قد استخدمت في نقل بعض السِّلع كالتَّمر وغيره، ووُجدت أيضاً الأكياس ذات الحجم الصَّغير التي تُستخدم لحفظ الأشياء الثَّمينة والنَّفِيسة[3].

واستُعملت الجلود أيضاً في تجليد بعض الكتب والمخطوطات التي اشتهرت بها بعض الحواضر لاسيما حاضرة "توات" التي احتوت على العديد من التُّراث المخطوط، والمعلوم أنَّ الكتب كانت من ضمن السِّلع التي تمَّ نقلها إلى السُّودان الغربي وكانت أثمانها في بعض أسواق السُّودان مرتفعة جداً.[4]

2 – 3 – صناعة الفخَّار: تُعدُّ صناعة الفخَّار من أقدم الصِّناعات التي امتهنها الإنسان نظراً لبساطتها ووفرة المادة الأوليَّة لصناعتها، والفخَّار من أهمِّ الحرف والصِّناعات اليدويَّة في المجتمعات البدائيَّة التَّقليديَّة، وحسْبُنا في ذلك ما دلَّت عليه بعض الحفريَّات القديمة التي تمَّ العثور فيها على أواني فخَّاريَّة كان يستعملها الإنسان في حياته اليوميَّة، و يُشكِّل الطِّين المادة الأساسيَّة لهذه الصِّناعة لكونه يحتوي على

[1] – مُحمَّد حوتيَّه: المرجع السَّابق، ج.1، ص.136 – 137.

[2] – محمد حوتيه: المرجع نفسه،ج.1، ص.137. **وينظر أيضاً**، إبراهيم العوامر: المرجع السَّابق، ص.102.

[3] – مُحمَّد حوتيَّه: المرجع نفسه ج.1، ص.137.

[4] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ، ص.252.

مواد تُساعده على التَّعمير طويلا، وهو على عدَّة أنواع، منها: الطِّين الأبيض وكذا الأحمر، ولكلِّ نوع خصائصه المُمَيَّزة.[1]

وعرفت هذه الصِّناعة انتشاراً واسعاً في حواضر المغرب الأوسط، بما في ذلك حواضر الصَّحراء التي ازدهرت فيها هذه الصِّناعة في كُلٍّ من "توات" و"ميزاب" و"وارجلان" و"أريغ"، وغالبا ما تنشط هذه الصِّناعة في فصل الرَّبيع وهو الفصل الأنسب لصناعتها سواء من حيث اعتدال الجوِّ أو من حيث أوقات العمل.[2]

ومن أهمِّ المَصْنُوعات الفخَّاريَّة بحواضر الصَّحراء نجد "**القُدُورِ**" وهي الآنية الضَّروريَّة في كلِّ بيت، وهي الوعاء الوحيد الذي يُلازم الإنسان في بيته فيحتاج إليه الماكث في البيت والرَّاحل، ولهذه القدور قاعدة مستوية غير مستديرة لذلك يسهل وضعها فوق الموقد، وهي مُزوَّدة بمقبضين قرب الفوهة من الجانبين وكثيراً ما تُستّبدل القدور في ربيع كلِّ سنة، وهذا من باب الوقاية الصِّحيَّة[3] .

ومن أبرز المَصْنوُعات أيضاً "**أواني الشَّرب**" وهي عديدة ومتنوِّعة، منها: القُلل وهي على شكل دائري تستعمل لحفظ الماء وتبريده في الصَّيف ولها دور كبير في التَّخفيف من عناء حرِّ الصَّيف ويُغطِّى مَدْخَلَهَا بغطاء سهل الفتح، وتُسْتعمل أيضاً لحفظ اللبن وفي غالب الأحيان يكون لها مقبضان وتصل سِعتها إلى ثلاثة لترات.[4]

ويُصْنع من الفَخَّار أيضاً أدوات التَّخزين، منها: "**الخابيات المُغَطاة**" وبدون مقبض وتُقدَّرُ سعتها حوالي خمسين كيلوغراماً – وفي السِّعات تُقدَّرُ باللتر – تستخدم لتخزين

[1] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.240.

[2] – مُحمَّد حوتيَّه: المرجع السابق، ج.1، ص.139.

[3] . عزّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.246 – 247

[4] – نفسه . **وينظر أيضاً**: يوسف بكير الحاج سعيد: المرجع السَّابق، ص.47.

التَّمر، بالإضافة إلى وجود الجِرار، وانتشرت بحاضرة "ميزاب" العديد من الأفران التي كانت تُنْتِج فخَّاراً مَطْلياً وفخَّاراً عاديا.[1]

أمَّا بخصوص الجانب الجمالي كالشَّكل والزَّخرفة فقط اختلفت من حاضرة لأخرى فحاضرة "توات" على سبيل المثال امتاز فَخَّارُها بقاعدته المُسْتديرة ومقابضه المُسطَّحة والمفتوحة، كما انفرد باللون الأسود القاتم، أمَّا عن الزَّخرفة فكانت في غاية البساطة وغالباً ما تكون مَوْضُوعة بطريقة عفويَّة و هي عبارة عن خطوط مُنْتشرة فوق الفوهة أو فوق الجسم، وأحيانا تكون على شكل خطوط عموديَّة بالتَّناوب وبتأثيرات صغيرة توحي لنا بشكل النَّخلة.[2]

وبساطة الزَّخرفة هذه تعود إلى عدم اهتمام الصُنَّاع بجماليَّة الإنتاج، وإنْما كان همهم منصبٌ ومرتكز على توفير متطلَّبات العيش، إلاَّ أنَّهم لم يَغفلوا عن الجانب الجمالي والذي يترجم مستوى الذَّوق عند إنسان الحواضر الصَّحراويَّة بالمغرب الأوسط، وسمو نفسيته في رؤية الأشياء أكثر جمالاً وتأنقاً باستعمال ما جادت به الطَّبيعة التي سخرها لخدمته.

2 – 4 – صناعة الحديد: ازدهرت صناعة الحديد بحواضر الصَّحراء، فلبَّت مُتطلَّبات النَّشاط الفلاحي إذْ تُعدُّ مصدر أدواتهم الرَّئيسيَّة، فالحدَّادين يزداد نشاطهم خلال موسم الحرث، والظَّاهرة المُميَّزة بالواحات هي طريقة حفر الآبار وما يتصل بها من عمليَّة شقِّ الحجارة النَّحتية بالمعاول والفؤوس إلى أنْ يَرِّقَ جُرمها...و يقذفون عليها زبرة من الحديد تكسِّر طبقتها على الماء فينْبعث صاعدا ليعُمَّ البئر[3].

[1] – يوسف بكير الحاج سعيد: المرجع السابق ، ص.47.

[2] – مُحمَّد حوتيَّه: المرجع السَّابق، ج.1، ص.140.

[3] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.76 – 77.

وهذا من شأنه أنْ يُفيد بوفرة معدن الحديد بالواحات وهو أمر غير مُسْتبعد في ظلِّ استجلاب أهل "وارجلان" التِّبر الذي يضربونه في بلادهم[1]، وهو ما يُوحي باكتسابهم للخبرة والقُدْرة على تطويع هذا المعدن، كما أنَّ وجود معدن الشَّبِّ بِـ"وارجلان" وتعدُّدِ مجالات استخداماته، حيث استعمل كمادة مَسْحوقه يُدلِّل على وجود آلات تقوم بذلك.[2]

وإنْ كانت صناعة الحديد قد وَفَّرت للسُّكان مُسْتلزمات الفلاحة التي كان يقوم عليها معاشهم فإنَّها وفَّرت في الوقت ذاته، ما يَحمي النَّفس ويصُونها من أيِّ عُدْوان حيث ساهمت هذه الصِّناعة في توفير الأمن وهذا من خلال صناعة بعض الأدوات الحربيَّة، فقد حاول ساكنة الواحات تلبية حاجاتهم الأمنيَّة والدِّفاعيَّة من هذا المعدن وذلك بصناعة "**السَّكاكين**" التي اختلفت من حيث الطُّول والقصر والحجم والسُّمك وطريقة الصُّنع، وهذا راجع إلى الغرض الذي صُنعت من أجله[3].

إضافة إلى ذلك، فإنَّ "**السُّيوف**" التي تُعدُّ من أقدم الأدوات الحربيَّة التي اعتمد عليها إنسان تلك العصور في حروبه، كان السَّيف مُلازما للرجل في حلِّ وترحاله، كما تلازمه الثِّياب في استقراره والزَّاد في سفره[4]، كما كان للسَّيف عدَّة رمزيَّات، فهو رمز للفخر والبطولة، ولهذا كانوا يُبْدِعُون في صناعته وتَزْيينه، ويُعدُّ من الهدايا الثَّمينة التي تُقدَّم للملوك والسَّلاطين، إضافة إلى ذلك فقد صنع من معدن الحديد "**المقاطع**" و"**الرِّماح** "و"**الأقفال**" و"**المسامير**" و"**المناجل**".[5]

2 – 5 – صناعات يدويَّة قائمة على تحويل مُشتقَّات النَّخيل: سبق وأنْ أشرنا إلى انتشار نطاق زراعة النَّخيل بالحواضر الصَّحراويَّة، إلى أنْ أصبح عنواناً لها، فكلٌّ من

---

[1] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.600.

[2] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.144 – 145.

[3] – عزّ الدين جعفري: **أطلس العادات**، ص 258.

[4] – نفسه.

[5] – إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.41.

تطرَّق للحديث عنها إلاَّ وأشار إلى كثرة النَّخيل بها، ومن بقايا أشجار النَّخيل برزت هذه الصِّناعة التي تعتمد على استغلال بقايا أشجار النَّخيل كالسَّعف والليف والجريد واستخدامها في مجالات عديدة، فكان يُتخذُ من جذوع النَّخيل عوارض للتسْقيف وأخشاب لصُنع الأبواب، ومكاييل للتجارة، ويُصْنع منها أيضا: مهاريز لطحن الحبوب ومن ألياف النَّخيل تُصنع الحصائر والأطباق والحبال.[1]

ويصنع من سعفها السِّلال والسَّجاجيد والمراوح[2]، وكان يصنع منها بكميَّات كبيرة تفُوق الحاجة و لهذا كان الفائض منها يتمُّ تصديره.[3]

2 – 6 – صناعة الحُليِّ: شَهدت هذه الصِّناعة رواجاً كبيرا بحواضر الصَّحراء وممَّا ساعدها على ذلك وجود القوافل التِّجاريَّة القادمة من منابع الذَّهب في بلاد السُّودان، فكان الصُّنَّاع يشترون الذَّهب الخام من القوافل ثمَّ يقومون بصياغته بأشكال مختلفة من الحُليِّ، وتُباع في الأسواق الدَّاخليَّة للحواضر، أو في الأسواق الخارجيَّة الشَّماليَّة منها والجنوبية[4].

وعرفت هذه الصِّناعة انتشاراً واقبالاً كبيراً عليها، واختصت بها فئة اليهود الذين عُرِفُوا بإتقانهم لهذه الصِّناعة، وتعدُّ حاضرة "توات" من أكثر الحواضر التي راجت بها هذه الصِّناعة وهذا راجع إلى استقرار عددٍ كبير من اليهود بها، واشتهرت بعض القصور بهذه الصِّناعة كقصر "تمنطيط" الذي ظلَّ يؤوي أحفاد الأُسَر اليهوديَّة الأصل، وتُسْتخدم في هذه الصِّناعة تقنيَّات بسيطة ومُتَفاوتة الجودة والْقِيمة، ويصنعون

---

[1]– يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السَّابق، ص.46.

[2]– إبراهيم قادري: المرجع السَّابق، ص.43.

[3]– مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في تاريخ المجتمعات**، ص.116.

[4] – مُحمَّد قومي: «**دور يهود توات خلال العصر الوسيط**»، مجلة عصور، ع.28 – 29، مخبر تاريخ الجزائر، جامعة أحمد بن بلة (وهران.**1**)، الجزائر، جانفي– جوان2016م، ص.278.

منها "**الأساور**" و"**الخواتم**" و"**الخلاخل**"، وقد ساهم في انتشارا هذه الصِّناعة وفرة الذَّهب والفضَّة.[1]

ويبدو أنَّ الحواضر الصَّحراويَّة قد استفادت من العناصر المُتَحضِّرة التي لجأت إلى الواحات واستقرَّت بها عبر مراحل مختلفة، كالعناصر اليهوديَّة التي كان لها حضُوراً مُبَكِّراً بالمجال الواحاتي، فقد نقل هؤلاء معهم المعارف والتَّقنيَّات الصِّناعيَّة واختصُّوا ببعض الحرف منها "**صناعة الحُليّ**" حيث كانت هذه الحرفة من اختصاص اليهود، فقصور "تمنطيط" لوحدها كان يوجد بها ثلاث وستون صائغاً يهودياً، وهذا الرَّقم يُوحي لنا بمدى رواج هذه الصِّناعة التي كانت تلقى اقبالاً كبيراً.[2]

ومن ضمن الصِّناعات التي نشطت بالمجال الواحاتي وخُصَّ بها اليهود أيضاَ صناعة الصَّابون، حيث عرفت هذه الصِّناعة انتشاراً ملحوظاً بحاضرة "توات"، إذْ تشير المصادر إلى وجُود ما يُقارب خمسون محلٍّ لهذه الصِّناعة، وقد كان اليهود بـِ"توات" يتكتمون على أسرار هذه الصِّناعة رغبةً في احتكارها، فقد كانت من أهمِّ الصَّنائع المربحة.[3]

والجدير بالذِّكر أنَّ النَّشاط الحرفي بحواضر الصَّحراء قد عرف نوعاً من التَّنظيم فقد كان لهذه الأنشطة أماكن مُخصَّصه لها بعيداً عن التَجمُّعات السُّكانيَّة، فداخل القصور توُجد شوارع خاصة لبعض الدَّكاكين والحرفيين وغالبا ما تكون قريبة من المدخل الرَّئيسي والسَّاحة العامة للقصر، أمَّا الحرف التي تُشكِّل ضررًا وخطر على صحة الإنسان كانت أماكنها خارج أسوار القصور، وتُوزَّع الدَّكاكين داخل القصور

[1]– مُحمَّد أعفيف: **توات مساهمة في تاريخ المجتمعات**، ص.116. **وينظر أيضاً**، مُحمَّد حوتيَّه: المرجع السَّابق، ج.1، ص.137 – 138.

[2] – عبد الرَّحمان بعثمان: **حملة المغيلي على يهود توات**، ص.127.

[3] – عبد الرَّحمان بعثمان: المرجع نفسه، ص126.

بحسب نظام السُّوق المَعْمُول به، ففي قصور "تمنطيط" كانت دكاكين سباكة الذَّهب والصِّياغ والنَّحاسين في أوَّل الشَّارع.[1]

3)- أثر الحروب والفتن على واقع النَّشاط الصِّناعي بالحواضر الصَّحراويَّة:

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ تَطوُّرَ وازدهار الصِّناعة مرتبط بمدى توفر عنصر الأمن والاستقرار الذي يُوفِّر المناخ المُلائم لقيام أيَّ نشاط صناعي، وإنْ كان عنصر الأمن قد توفَّر في حواضر الصَّحراء التي عرفت نوعاً من الاستقرار النِّسبي، وهذا لِمَا تميَّزت به من بُعد موقعي وما ارتبط به من مِنْعة وقوَّة اقتصاديَّة، ساعدت على ازدهار النَّشاط الحرفي بها، إلَّا أنَّ هذا النَّشاط قد تأثَّر بشكل غير مباشر بحالة عدم الإستقرار التي مرَّت بها الواحات في بعض الفترات[2].

فمن الطَّبيعي أنْ تتأثَّر الصِّناعة على غرار الفلاحة بالحروب والفتن، ولابُدَّ وأنَّ الضَّررَ الذي لحق بالنَّشاط الصِّناعي لا يقِلُّ عن الضَّررَ الذي أصاب الزِّراعة لأنَّ كلاهما مُرْتبط بالآخر ولأنَّ الثَّاني يستمدُّ مادته الأوليَّة من الأوَّل[3]، وإنْ كانت الحروب والفتن التي طالت الحواضر الصَّحراويَّة قد أثَّرت على النَّشاط الصِّناعي بها بشكل غير مباشر.

---

[1] – يمينة بن صغير حضري: **العوامل المؤثرة في تشكيل مرفولوجية القصور**، المرجع السَّابق، ص.874.

[2] – حتى المتأخِّرة منها، مثل حملة الإمام "المغيلي" التي شنَّها على يهود "توات"، فقد أثَّرت بشكل مباشر على واقع النَّشاط الصِّناعي بحاضرة "توات"، حيث أدَّى إجلاء اليهود من "تمنطيط" إلى اختفاء العديد من الصِّناعات الحرفيَّة، إذْ تلاشت صناعة الحُليّ الذَّهبيَّة والفضيَّة وصناعة الصَّابون، وهو ما أدَّى إلى تراجع مكانة "توات" التِّجاريَّة، فإجلاء اليهود من "توات" قد ألحق ضرراً كبيراً على واقع النَّشاط الحرفي بالحاضرة، ويمكننا أنْ نلمس حجم الضَّرر في بعض الشَّكاوى التي رفعها أعيان قبيلة "أولاد علي بن موسى" إلى شيخهم "عمر بن عبد الرَّحمان " بعد تعطُّل تجاراتهم بسبب غياب الصَّنائع التي كان يتعاطاها اليهود، خاصة صياغة الحُليّ التي كانت تدرّ أرباحاً كبيرة. ينظر، عبد الرحمان بعثمان: **حملة المغيلي على يهود توات**، ص.133 – 134.

[3] – حميد تيتاو: المرجع السَّابق، ص.249.

ثالثا- النَّشاط التِّجاري بالحواضر الصَّحراويَّة.

يعدُّ النَّشاط التِّجاري بالحواضر الصَّحراويَّة الشَّريان المتدفق والقلب النَّابض الذي يُبقيها زاخرة بالحياة حتى في أحلك الظُّروف، فهو حبل وصالها بالحواضر الأخرى شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً وهو القناة الرَّسميَّة التي يمكن من خلالها تصريف كل سلعها ومنتوجاتها وجلب ما تحتاج إليه سوى داخلياً أو خارجياً، فكيف كان الواقع التِّجاري الدَّاخلي؟

1)- التِّجارة الدَّاخليَّة:

تعتبر الحواضر الصَّحراويَّة من المراكز الحضاريَّة القديمة الواقعة على الحواف الشَّماليَّة لصحراء المغرب الأوسط، وهي ملتقى خطوط المواصلات منذ منتصف القرن الثَّامن ميلادي و توسَّعت من بعده[1].

ومن الطَّبيعي أنْ يكون هذا التَّوسع المديني مرفوق بحركة في النُّمو الدِّيمغرافي الذي سَيُساهم بدوره في الازدهار الاقتصادي المرتبط في جانب كبير منه بالحركة التِّجاريَّة التي شكَّلت فيها "وارجلان" كإحدى حواضر الصَّحراء ميناء صحراويًا[2]، تتجمَّع فيهِ مختلف السِّلع والمُنْتجات مُجسَّدة بذلك مبلغ الازدهار كمركز تجاري حقَّقته بفضل ما تمتَّعت به «من الأمن النِّسبي الذي تفرضه أهميَّتها التِّجاريَّة وانعزال موقعها مع قوَّة أهلها واتِسَاع العمران حولها»[3].

---

[1] - غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.146.

[2] - روباربرنشفيك: **تاريخ إفريقيَّة في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م**، تر: حمَّادي السَّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1988م،ج.2، ص.150.

[3] - عمرو خليفة النَّامي: «**ملامح عن الحركة العلميَّة بوارجلان ونواحيها منذ انتهاء الدَّولة الرُّستميَّة حتى أواخر القرن السَّادس الهجري**»، مجلَّة الأصالة، ع.42، وزارة الشُّؤون الدِّينية والأوقاف، الجزائر، 1971م، ص.17.

وهو ما سمح لها أنْ تلعب دور المُحرِّك للنَّشاط التِّجاري ومنطقة لعبور «العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية والسَّفر منها إلى الصَّحراء وإلى بلاد السُّودان كثيراً»[1]، ولعلَّ هذه الوضعيَّة قد جعلت من المنطقة طرفاً في الصِّراع السِّياسي الدَّائرة رحاه منذ زمن الدَّولة الفاطميَّة (297-567هـ/910-1171م) حول "المراكز التِّجاريَّة النَّشطة والحيوِيَّة الواقعة على المسالك الكبرى ولاسيما المسالك الرَّابطة بين الواجهتين الصَّحراويَّة والبحريَّة".[2]

والجدير بالذِّكر أنَّ النَّشاط التِّجاري بحواضر الصَّحراء لم يكن بمعزلٍ عن الحركة القَّبليَّة وما اتَصَل بها من توازنات فرضت مُحدِّدات الحاكميَّة فيه، فقد احتكر بدوُّ المغرب القديم التِّجارة «بحكم معرفتهم بالطُّرق والمسالك ومراكز العمران أقدر من غيرهم على نقل البضائع ومُبادلتها بين الصَّحراء والتَّلِّ»[3]، ومع ظهور الهلاليين وسيطرتهم على طُرُقْ القوافل وتغلُّبهم عليها، ساهم ذلك في توسيع نطاق التِّجارة البينيَّة التَّليَّة الصَّحراويَّة.[4]

وتقوم هذه التِّجارة على التَّبادل حيث كان «التُّجار يحملون إلى وركلة (وارجلان) مُنْتَجات بلاد البربر ويَسْتبدلونها بما يأتي به التُّجار من بلاد السُّودان»[5]، ولم تكن

---

[1] – ابن سعيد : المصدر السَّابق، ص.127.

[2] – عزُّ الدِّين عقيبي: «**صفحات من صراع الدُّول بالمغرب الإسلامي من أجل السَّيطرة على مسالك الاتصالات التِّجاريَّة الصَّحراويَّة**»، مجلَّة علوم الإنسان والمجتمع، ع.21، جامعة مُحمَّد خيضر – بسكرة، الجزائر، ديسمبر 2016م، ص374.. **وينظر**، الحبيب الجنحاني: **دراسات مغربيَّة في التَّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط.1، 1980.، ص.76.

[3] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.147.

[4] – مبارك الميلي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.188.

[5] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.136.

السِّلع المُستَجْلَبَةُ من التَّلِّ مُرْتبط بما تنتجه، بل منها ما هو مجلوب من أوروبا عن طريق تُجار السَّاحل من المغاربة[1]

وتُجلب السِّلع إلى الحواضر الصَّحراوية من المناطق ذات الارتباط بها، إمَّا بحكم التَّقارب الجغرافي أو المذهبي أو الحاجة الاقتصاديَّة المتبادلة.

1 – 1 – حواضر التَّبادل التِّجاري الدَّاخلي مع الحواضر الصَّحراويَّة: تأتي "تيهرت"

في مُقدِّمة المُدن التي تُشكِّل مصدراً مُهماً للتبادل التِّجاري الدَّاخلي مع حواضر الصَّحراء، ولربَّما يكون ذلك من باب توثيق الصِّلات المذهبيَّة القائمة آنذاك، فهي كما وصفها الجغرافيون «**بلد رشيق الأسواق**»[2] «**مشتملة على ضروب الغلاَّت**»[3].

ويعود الطَّريق الذي يربط "وارجلان" بـِ"تيهرت" إلى زمن الدَّولة الرُّستميَّة، فالمصادر تذكر أنَّ الإمام الرُّستمي "**أفلح بن عبد الوهاب**" (190 – 240هـ/805 – 854م) طلب من أبيه السَّماح له بالسَّفر إلى مدينة "**كوكو**" في بلاد السُّودان، ويُشير "إبن الصَّغير" إلى أنَّ "الإمام أفلح" أرسل هديَّة إلى ملك السُّودان مع رجل يُسمّى "**مُحمَّد بن عرفه**"[4].

ولابدَّ أنَّ الطَّريق الذي يربط "**تيهرت** "بمدينة "**كوكو**" يمرُّ على "وارجلان" ولاشكَّ أنَّ هذا الطَّريق هو الذي كان سيسلكه "**أفلح بن عبد الوهاب**". ويوجد طريق آخر مباشر بين "وارجلان" و **تيهرت**، أشار إليه "**أبي زكرياء**" في مُصنَّفه خلال حديثه عن شيخين من شيوخ "نفوسة" وهما "**أبو يعقوب بن مُنيب**" و"**أبو يوسف بن مُنيب**" حيث

---

[1] – J. Lethelleux: op, cit, p.68.

[2] – المقديسي: المصدر السَّابق، ص.228. **وينظر أيضا:** غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.147.

[3] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.86.

[4] – ابن الصَّغير المالكي: المصدر السَّابق، ص.62.

مرَّا على "وارجلان" قادمين من "جبل نفوسة" ومُتجهين نحو "**تيهرت**"[1]. وهذين الشَّخصيتين كانا معاصرين للإمام "**أفلح بن عبد الوهاب**".

ظلَّ هذا الطَّريق مُسْتعملاً إلى غاية زمن غزو "**تيهرت**" من طرف "**أبو عبد الله الشِّيعي**"، ولقد سلك الإمام "**يعقوب بن أفلح**" هذا الطَّريق أثناء خروجه من "**تيهرت**"[2].

وبالرُّغم من أنَّنا نجهل مراحل هذا الطَّريق إلَّا أنَّه لا نستبعد في أنْ يكون الطَّريق قد يمرُّ بواحة "وادي أريغ" التي يصفها الإدريسي بأنَّها «أرض مُتّسعة تكثر فيها البساتين، وتُعْقد بها سوق كبيرة كلَّ يوم جمعة».[3]

بينما يرى "ليفتسكي" أنَّ الطَّريق الرَّابط بين "**تيهرت**" و "وارجلان" يمرُّ على "جبل عمور" "**الأغواط** و "تلغمت" و "بلاد ميزاب" فهو الطَّريق الأكثر استعمالاً خلال القرن(2هـ/8م)، إلاَّ أنَّه تُرك استعماله بعد سقوط الدَّولة الرُّستميَّة(296هـ/909م)[4] .

في حين يرى "**مسعود مزهودي**" أنَّ الطَّريق ظلَّ مُستعملا لكنَّه فقد أهميَّته التي عُرف بها إبَّان الدُّولة الرُّستميَّة.[5]

وإنْ كان "ابن حوقل" قد وصف أحوال "**تيهرت**" خلال(ق.4هـ/10م) «بالمزرية وأنَّ أهلها فقراء نتيجة تواتر الفتن عليهم واستمرار القحط وكثرة الثَّورات»[6]، فإنَّ "تيهرت"

---

[1] – أبي زكرياء: المصدر السابق، تح (عبد الرحمان أيوب)، ص301.

[2] – أبو زكرياء: المصدر نفسه، ص.163. وينظر، الوسياني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.844.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.254.

[4] – Lewicki: **Etudes maghrébines et soudanaises**, editions scientifiques de pologne, pologne, 1983, p.13 – 14.

[5] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.132.

[6] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.93.

قد تغيَّر حالها في زمن "البكري" إذ أُقِيمت فيها الأسواق العامرة وكَثُرت بها الفنادق لإقامة التُّجَّار، واكتظت ارباضها بالبربر بعد استتباب الأمن بها.[1]

وقد حافظت "وارجلان" على نشاطها التِّجاري كوسيط رئيسي بين مدن المغرب وبلاد الْسودان حتَّى بعد سقوط الرُّسْتميين، إذ تَحوَّل النَّشاط التِّجاري إليها بعد توافد الإباضيَّة عليها خاصة أثناء الثَّورات التي قامت بها "زناته".[2]

وإلى جانب "**تيهرت** " برزت "**قلعة بني حمَّاد**" كمركز تجاري هامٍّ بفضل ما امتازت به من موقع حاز على أهميَّة تجاريَّة، فهي «**مقصد التُّجار وبها تَحِلُّ الرِّحال من العراق والحجاز ومصر والشَّام و سائر بلاد المغرب**»[3]، وصلت إلى ذرْوتها في النِّصف الأوَّل من القرن(5هـ/11م) قبل وصول الهلاليين إليها، وبعد الغزو الهلالي انتقل قسمٌ كبير منها إلى الاستقرار بمدينة "**بجاية**" العاصمة الثَّانية للحمَّاديين[4].

وقد أشار "البكري" إلى الطَّريق الذي يربط "**قلعة بني حمَّاد**" أو (قلعة أبي الطَّويل كما أطلق عليها) بحاضرة "وارجلان"، ولم يُزودْنا بأيِّ تفاصيل حول مراحل هذا الطَّريق وإنَّما اكتفى بذكر المسافة الفاصلة بينهما والتي قدَّرها بمسيرة ثلاثة عشر يوماً.[5]

ولعل في نصِّ "الإدريسي" ما يُوضِّحُ مراحل هذا الطَّريق الذي يربط بين "**قلعة بني حمَّاد**" و "وارجلان" و إنْ لمْ يكن هناك وجود للقلعة في زمن "الإدريسي"، إلاَّ أنَّ مدينة "المسيلة" التي أخذت مكان القلعة كمركز تجاري للشرق، كانت على بُعدِ اثنا عشرة ميلاً عن العاصمة الحَمَّاديَّة.[6]

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.68.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.132.

[3] – البكري: المصدر نفسه، ، ص.49.

[4] – Lewicki: op. cit, p.25.

[5] – البكري: المصدر نفسه، ص.182.

[6]– الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.296. **وينظر أيضاً**، Lewicki: op, cit, p.25.

ويُقدِّر "الإدريسي" المسافة بين "المسيلة" و "وارجلان" بمسيرة اثنا عشرة يوماً والطَّريق الأقرب بين المدينتين يكون عبر "**نقاوس**" و"**بسكرة**"، فالمسافة بين "المسيلة" و "وارجلان" عبر هذا الطَّريق تقدَّر بـِ: ثلاثة عشرة يوماً، "المسيلة" "نقاوس" ثلاثة أو أربعة أيَّامٍ، ثمَّ "نقاوس" "بسكرة" يومين، ثمَّ "بسكرة" "وارجلان" ثمانية أيَّامٍ، وهذا ما يتوافق مع المسافة التي أشار إليها "البكري" بين "قلعة أبي الطَّويل" و "وارجلان" والمُقدَّرة بثلاثة عشرة يوماً، ومسافة "المسيلة" و "وارجلان" اثنا عشرة يوماً.[1]

وتعتبر بجاية أيضاً من ضمن المراكز التِّجارية المُهمَّة «**فالسُّفن إليها مُقلعة والقوافل بها مُنحطَّة و الأمْتعة إليها بِرًّا و بحرًا مَجْلوُبة والبضائع بها نافقه، وأهلها مياسير تُجَّار... يُجالسون تُجَّار المغرب الأقصى وتُّجار الصَّحراء**».[2]

وعلى غرار مدينة "**بجاية**"، فقد أشارت المصادر الجغرافيَّة إلى وجود علاقات تجاريَّة بين مدينة "**قسنطينة**" وحواضر الصَّحراء، لاسيما حاضرة "وارجلان" التي يبدو أنَّ نشاطها التِّجاري معها يستحقُّ الوقوف عليه، فـ"الإدريسي" يَصِفُ مدينة "قسنطينة" بأنَّها «**عامرة وبها أسواق وتُّجار وأهلها مياسير ذو أموال وأحوال واسعة**»[3]، وكانت "**قسنطينة**" على مدى أربعة قرون منطلقاً لخط القوافل المُتَجهة إلى جنوب بلاد البربر[4].

ويُشير "الوزان" إلى أنَّ تُجَّارها يتعاطون تجارة الأقمشة الصُّوفيَّة المصنوعة مَحليًّا، وبعضهم يُرْسلون الزَّيت والحرير إلى "نوميديا"، وكلُّ هذه البضائع تُسْتبدل بالتَّمر والدَّقيق، ولا توجد مدينة بإفريقيَّة يُباع فيها التَّمر بثمن بخس كقسنطينة[5].

---

[1] – Lewicki: ibid, p.27.

[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.260.

[3] – الإدريسي: المصدر نفسه، مج.2، ص.56.

[4] – Lewicki: op, cit, p27.

[5] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.56.

أمَّا في الجهة الغربيَّة فقد شكَّلت مدينة "**تلمسان**" معبراً مُهمًّا بموقعها «في أوَّل الصَّحراء... على الطَّريـق إلى "سجـلماسة" و"واركـلان" وغيرها من بلاد الصَّحـراء»[1]

وأشار "البكري" إلى الطَّريق الذي يربط بين "**تلمسان**" و"وارجلان" بحيث ينطلق من «**قلعة ابن الجاهل جنوب تلمسان وهي قلعة منيعة كثيرة الثَّمار... ويتصل بها جبل تارني... إلى تيزيل وهي أوَّل الصَّحراء، ومنها يسافر إلى مدينة "سجلماسة" وإلى "وارجلان" و إلى "القلعة**»[2]، و قد نوَّه "الإدريسي" إلى أهميَّة "**تلمسان**" كمركز للتجارة بقوله: «**ومدينة "تلمسان" قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منها لابُدَّ منها والاجتياز بها**».[3]

وعلاوة على الطَّريق الذي أشار إليه "البكري"، هناك أيضاً طريقاً آخر يربط مدينة "تلمسان" بحاضرة "وارجلان"، هذا الطَّريق ورد ذكره عند صاحب "**بغية الرُّواد**" في معرض حديثه عن غزوة "**أبو حمُّو الثَّاني**" أحد سلاطين "بني عبد الواد"، الذي مرَّ بـِ:"ثنية غانية" الواقعة بين "جبل إياد" و"جبل الأوراس"، ومنها إلى الزَّاب وإلى "واد ريغ" انتهاءً بـِ"وارجلان".[4]

أمَّا بخصوص السِّلع المتبادلة بين مدن التَّلِّ وحواضر الصَّحراء والتي كانت تُنقل عبر شبكة الطَّرق التي تمَّ ذكرها، فإنَّها شملت أصناف متنوعة ومتعدِّدة، وفي مُقدِّمتها "**المُنْتجات الزِّراعيَّة**" حيث اشتهر المغرب الأوسط في العصر الوسيط بتنوع غطائه النَّباتي ووفرة محاصيله الزِّراعيَّة وهذا راجع لخصوبة تربته ووفرة مياهه، ولقد تفاوتت

---

[1] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.135.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.77.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.250.

[4] – أبو زكرياء يحيى إبن خلدون: **بغية الرُّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تح: بوزياني الدَّراجي، دار الأمل للدراسات والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2007م، ج.2، ص.62 – 63.

المحاصيل الزِّراعيَّة، فيما بينها من حيث أهمِّيتها الاقتصاديَّة وقيمتها الغذائيَّة وسدِّها لحاجات السُّكَّان.

ومن أهمِّ المنتجات الزِّراعيَّة التي كانت تُصدَّرُ للحواضر الصَّحراويَّة نجد "**القمح والشَّعير**" حيث كان من أكثر المزروعات المنتشرة ببلاد المغرب الأوسط نظراً لأهميَّته الغذائيَّة فهو لا يتطلب السَّقي وتسهل عمليَّة زرعه، إضافة إلى ذلك فهو يُقاوم التَّعفُّنِ والتَّلف عند ادخاره مع إمكانية[1] تخزينه، ففي بعض المناطق تُقارب أو تتجاوز مُدَّة تخزينه المائة سنة في المطامير تحت الأرض[2] وهذا ما أفادنا به "الإدريسي" خلال وصفه لمدينة "**قسنطينة**"، حيث أشار بأنَّ «الحنطة تُقيم في مطاميرها مائة سنة لا تفسد».[3]

وكذلك "**قلعة بني حمَّاد**" تُخزَّنُ بها الحنطة فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير[4]. ولعلَّ هذه الخصائص جعلت منه مادة مُهمَّة يتمَّ تصديرها لحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة وإلى بلاد السُّودان أيضاً.

ومن أشهر المدن التي يُسْتجلب منها "**الحنطة والشَّعير**" مدينتي "القلعة" و "بجاية"، هذه الأخيرة التي أشار "الإدريسي" إلى أنَّ «الحنطة والشَّعير بها موجودان كثيران».[5]

---

[1] . مُحمَّد بن عربة وأحلام بو سالم: «**ثروات المغرب الأوسط النَّباتيَّة والحيوانيَّة خلال العصر الوسيط من خلال مصنَّفات الرِّحلة والجغرافيا**»، مجلة مدارات تاريخيَّة، مج.2، ع.6، المركز المعرفي للدراسات والبحوث، الجزائر، جوان2020م، ص.335.

[2]. نفسه.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.265.

[4]– الإدريسي: المصدر نفسه، مج.1، ص.261.

[5] – الإدريسي: المصدر نفسه، مج.1، ص.260.

كما اشتهرت "تلمسان" أيضاً بإنتاجها الوفير "**للحنطة والشَّعير**"، فقد وصفها "ابن الخطيب" بأنَّها «**خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفاع**»[1].

ويُزرع بها أجود أنواع القمح والشَّعير، ويصدَّر منها إلى أوروبا وبلاد السُّودان عبر الموانئ والطُّرق البَرِّيَّة التي تربط بينها وبين حواضر الصَّحراء، وبلغ سعر القنطار منه في أسواق "أودغشت" بستة مثاقيل ذهباً خلال القرن(6هـ/12م)[2].

أمَّا سعره في عموم بلاد السُّودان يزيد بمقدار الثُّلثين عمَّا كان عليه في بلاد المغرب، وقد بيع القمح خلال القرن(8هـ/14م) «بحساب عشرين مُدًّا بأوقية ذهب».[3]

وإلى جانب "**القمح والشَّعير**" كان "**الزيت**" أيضاً ضمن لائحة السِّلع التي تُصدِّرُها مدن النَّلِّ نحو حواضر الصَّحراء، ولقد أشار "ابن الصَّغير المالكي" إلى وجود الزَّيت بـ"تيهرت" الرُّستميَّة[4]؛ ويعتبرُ زيت "المسيلة" من أطيب الزُّيوت.[5]

كما كانت اللحوم من بين السِّلع التي يستجلبها أهالي الحواضر الصَّحراويَّة من مُدنِ النَّلِّ، وهذا لقلَّتها وغلاء أسعارها بالواحات، ولقد اشتهرت مدينة "**تيهرت**" بتربية الماشية فالأغنام كانت تُجلب منها إلى سائر مدن المغرب لرخصها وطيب لحومها[6].

---

[1] – لسان الدِّين بن الخطيب: **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والدِّيار**، تح: مُحمَّد كمال شبانه، مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، (د.ط)، 2002م، ص.184.

[2] – عبد القادر زباديَّة: **مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين**، الشَّركة الوطنيَّة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.1، 1971م، ص.204 – 205.

[3] – نفسه.

[4] – ابن الصَّغير المالكي: المصدر السَّابق، ص.36.

[5] – عبد الكريم جودت: **الأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في المغرب الأوسط...**، المرجع السَّابق، ص.47.

[6] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.179.

ويذكر "الإدريسي" بأنَّ تلمسان «**خيراتها شاملة و لحومها شحمِيَّة سمينة وبالجملة إنَّها حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومرابح تجارتها**»[1]، وذات الملاحظة ذكرت عن "القلعة" التي كانت "**لحومها طيّبة سمينة**"[2].

وقد صادفت مُدَّة اقامة "العياشي" بحاضرة "وارجلان" وصول قافلة مُحمَّلة بالسِّلع واللحوم، حيث قال: «وصادف دخولنا قافلة من أعراب الأرباع قدِمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع واشترى النَّاس ما احتاجوا بأرخص الثَّمن، و قدِمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثلها أو أكثر فتنعَّمَ النَّاس في اللحم والتَّمر والسَّمن»[3].

وكان غذاء معظم أهل "توات" الشَّحم المُمَلَّح الذي يأتي به تُجَّار "تلمسان".[4] وعلاوة عن الإنتاج الزِّراعي والحيواني الذي كان يُصدَّر نحو الحواضر الصَّحراويَّة، كانت "**المنسوجات الصُوفيَّة والقُطْنيّة**" ضمن الصَّادرات أيضاً، فالمغرب الأوسط عُرف بإنتاجه الوفير للمنسوجات الصُوفيَّة والقطنيَّة، التي لاقت ازدهاراً و رواجاً كبيراُ، فقد اشتهرت مدينة "**تيهرت**" بها، و كانت هذه المنتوجات من أهمِّ السِّلع التي يتمُّ تصديرها نحو السُّودان الغربي في عهد "بني رستم".[5]

واختصَّ أهلُ "**تلمسان**" بنسج الصُّوف حيث كان «غالب تَكسُّبهم... حُوك الصَّيف يتغايون[6] في أعمال أثوابه الرِّقاق فتلقى الكساء عندهم أو البرنس ثماني أواق والأحرام من خمس... ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقاَ وغرباً»[7].

---

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.250.

[2] – الإدريسي: المصدر نفسه، مج.1، ص.255.

[3] – العيَّاشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.114.

[4] – مارمول كربخال: المصدر السَّابق، ج.3، ص.163.

[5] – مُحمَّد سوادي عبده و صالح عمَّار الحاج: **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، منشورات المكتب المصري، القاهرة، ط.1، 2004م، ص.223.

[6] – **تغايوا عليه**: أيْ اجتمعوا عليه. **ينظر**، ابن منظور: **لسان العرب**، مج.10، ج.19، ص.382.

[7] – يحي إبن خلدون: المصدر السَّابق،ج.1، ص.22.

وأشار "الزُهري" بأنَّه يُعمل بها من الصُّوف كلَّ شيء بديع و يوجد بها كساء كامل وزنه تسع أواق ونحوها[1].

وقد انتشرت بها مصانع للحياكة ودكاكين للخياطة، و اختصَّت بعض الأُسر بهذه الصِّناعة مثل "**أسرة عبد الله بن النَّجَّار**"، حيث كانت لهم معامل ضخمة لحياكة الصُّوف الرَّفيع بمدينة "تلمسان"، وكانت تَرِده التُّجَّار من كلِّ بلاد إفريقيا والسُّودان الغربي بعد أنْ طوَّرَ الصِّناعات النَّسيجيَّة و نَمَّاها.[2]

ولم تكن "بجاية" أقلُّ شُهرة من "**تيهرت**" و"**تلمسان**"، فقد ازدهرت بها هي الأخرى الصِّناعات النَّسيجيَّة، وقد أشار "الإدريسي" بأنَّ بها «**من الصِّناعات كلَّ غريبة و لطيفة**».[3]

وأشار "الغبريني" إلى وجود «سوق الصُّوف ببجاية وهذا خلال نهاية القرن السَّابع الهجري وبداية القرن الثَّامن الهجري»[4]، و يبدو أنَّ نسيج بجاية كان مَرْمُوق وهو ما نستشفُّه من رواية "البيدق"، حيث ذكر «أنَّ "**المهدي بن تومرت**" عند مروره على بجاية نَدَّد بلباس رجال بجاية الذي نظر إليه على أنَّه مرموق و نسوي».[5]

وإلى جانب المنسوجات الصُّوفيَّة والقطنيَّة، كان "**الحرير المصبوغ**" المُتْقن الصُّنع القادم من "أوروبا"، من السِّلع التي يقتنيها تُجَّار الحواضر الصَّحراويَّة وينقل عبرها إلى بلاد السُّودان، ولقد كانت قطعة القماش الأبيض أو الملون طولها ذراع وستة أشبار

---

[1] – الزُهري: المصدر السَّابق، ص.113.

[2] – مُحمَّد بن مرزوق التِّلمساني: **المناقب المرزوقيَّة**، تح: سلوى الزَّاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة بالمملكة المغربيَّة، مطبعة النّجاح الجديدة، الدَّار البيضاء، ط.1، 2008م، ص.188.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.260.

[4] – أبو العباس الغبريني: **عنوان الدِّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجاية**، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.2، 1979م، ص.175.

[5] – أبو بكر بن علي الصَّنهاجي (البيدق): **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدّين**، دار المنصور للطباعة، الرِّباط، ط.1، 1971م، ص.13.

تساوى في "مملكة سنغاي" مثقالاً من الذَّهب، و كذا قطعة الحرير التي طولها ثمانية أشبار.[1]

وإلى جانب السِّلع التي سبق ذكرها، وُجدت سلع أخرى تندرج ضمن باب التَّرف أو الزِّينة كالعطور التي يُقبِل عليها الُّسكان ويشترونها بأثمان مرتفعة ويستعملها في الغالب الملوك والقضاة والوجهاء والأغنياء الذين كانوا يُعطِّرون أجسامهم وثيابهم بها إذ عزموا على الخروج إلى الأماكن العامَّة، بالإضافة إلى "**الحُليِّ**" المَصْنُوعة من النُّحاس أو الفضَّة، ومنها: **القلادات، والأقراط** و**الأساور**، كما كان يصَّدرُ "**المرجان**" خاماً أو على شكل مجوهرات.[2]

أمَّا المعادن فمنها "**النُّحاس**"، وكان الطَّلب عليه كبيراً نظراً لقلَّته ببلاد السُّودان وكان يُنقل إليها عبر "توات"، وكان الأهالي يتخذون منه أدوات للزينة، و كذا السَّلاطين وحاشيتهم.

وكانت "**الحيوانات**" أيضاً من بين السِّلع التي تُصدَّر إلى الحواضر الصَّحراويَّة وتُنْقل منها إلى بلاد السُّودان، وقد اعتنى أهلُ "**تلمسان**" بتربية الخيول وترويضها، وكانت الخيل تصل مع القوافل التِّجاريَّة إلى بلاد السُّودان بعد عشرة أو اثنا عشرة يوماً، تُقدم للملك فيختار منها العدد الذي يريده[3] وكانت غالية الأثمان فالرَّأس الواحدة منها تساوي مائة مثقال.[4]

---

[1] – عبد القادر زياديَّة: المرجع السَّابق، ص.205.

[2] – لطيفة بشاري: **التَّجارة الخارجيَّة لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من (ق 7. 10هـ/ 13. 16م) رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987/1986م،** ص.138– 140.

[3] – لطيفة بشاري: المرجع نفسه، ص.133 – 142.

[4] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.704.

أمَّا "**العقاقير والأعشاب الطِّبية**" فتجلب من مختلف أنحاء بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين و"أوروبا"، وتُنْقل من "تلمسان" إلى بلاد السُّودان عن طريق تُجار الحواضر الصَّحراويَّة (الواحات)[1] .

ويُوجد في المغرب الأوسط العديد من الحشائش البريَّة التي كان السُّكَّان يستخدمونها في علاج بعض المشاكل الصِّحيَّة التي تُصيبهم، ولقد توفَّرت في "**بجاية**" بعض النَّباتات التي كان يُنْتفع بها في صناعة الطِّب، مثل: شجر "الحضض"، و "السَّقولو فندوريون"، و"البرياريس" و"القسطون" و"الإفسنتين"[2].

أمَّا "القلعة" فيكثر فيها نبات "الفوليون" حيث كان أهلها يتحصَّنون به من ضرر لسعات العقارب، فَشُرب وزن درهمين منه كافية بأنْ تَقِي شاربها ألم تلك العقارب[3] وغير مُسْتبعد في أنْ تكون هذه الأعشاب من ضمن السِّلع التي يتمُّ تصديرها لحواضر الصَّحراء رغم ضعف أثرها الاقتصادي.

1 – 2 – الواردات:

من أهم السِّلع التي يتمُّ استيرادها من الحواضر الصَّحراويَّة، التَّالي:

1 – 2 – 1 – الذَّهب: يُعدُّ الذَّهب من السِّلع المُهِمَّة التي يتم جلبها من الواحات، وقد اشتهرت الجهات الجنوبيَّة بكونها بلاد الذَّهب والعبيد، فالذَّهبُ هو الإنتاج الإفريقي الأكثر أهميَّة على الصَّعيدين الاقتصادي والسِّياسي، وتعدَّدَتِ مجالات استخدامه، فهو

[1] – لطيفة بشاري: المرجع السابق، ص.141.

[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.259. **وينظر**، الحميري: المصدر السَّابق، ص.80 – 81.

[3] – الإدريسي: المصدر نفسه، مج.1، ص.255. **وينظر**، الحميري: المصدر نفسه، ص.469.

يُسْتعمل في صكِّ العملة "**الدِّينار**" وفي صناعة الحُليِّ، وكانت أسواقه نشطة وأرباحه طائلة[1].

وقد أشار "المقرِّي" في معرض حديثه عن أجداده الذين كانوا يمارسون هذه التِّجارة بين "تلمسان" والسُّودان الغربي، بأنَّ «**أموالهم خرجت عن الحدّ وكادت تفوق الحصر والحدّ**"[2] .

وكان الذَّهب يُنقل من الواحات إلى مُدنِ التَّلِّ، ومنها يُنقْل إلى "أوروبا" التي كانت تتلهف على جمعه فتطلبه من مدن المغرب الأوسط مقابل ما تصدِّره لها من بضائع.[3]

1 – 2 – 2 – العبيد: تحتل المرتبة الثَّانية بعد الذَّهب من حيث الأهميَّة، ولقد كانت حواضر الصَّحراء لاسيما "وارجلان" مُسْتودع لهذه السِّلع، فـ"ابن سعيد" يشير بأنّها «**بلاد نخل وعبيد ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط و إفريقيَّة**»[4].

وقد كان العبيد من ضمن العناصر المُشكِّلة لمجتمع المغرب الأوسط، وقد حفظت لنا المصادر حضوراً معتبراً لهذه الفئة ضمن العناصر الاجتماعيَّة المختلفة و يبدو أنَّ هذا الحضور كان مُبكِّراً، فالمصادر الإباضيَّة أشارت إلى وجود العبيد والخدم بمدينة "**تيهرت**" منذ عهد مؤسسها الأوَّل "**عبد الرَّحمان بن رستم**"، وقد ذكر " **إبن الصَّغير**" في معرض حديثه عن الزِّيارة الثَّانية للوفد المشرقي لي "**تيهرت**" بأنَّهم «وجدوا الأمور

---

[1] – دومنيك فاليرين: **بجاية ميناء مغربي**، تر: علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربيَّة، الجزائر، ط.1، 2014م، ج.1، ص.283.

[2] – المقرِّي: المصدر السَّابق، ج.5، ص.206.

[3] – لطيفة بشاري: المرجع السَّابق، ص.146.

[4] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.127.

قد تبدَّلت، وأحوال المدينة و الأشياء قد حالت وذلك أنَّهم نظروا إلى قصور قد بُنيت، وإلى بساتين قد غرست... والعبيد والخدم قد كثرت»[1].

وبمدينة "**تلمسان**" كان الرَّقيق الأسود من ضمن عناصر المجتمع وكان أغلبهم من الخِصْيَان الذين يعملون في القصور والحقول والجيش، أمَّا الجواري فكنَّ يسخرن للخدمة في المنازل واسْتُخدمت الإماء أيضاً للفراش ولإرضاع البنين، وارتفع عددهم في عهد الدَّولة الزِّيانيَّة لحاجة المدن و الحقول إلى اليد العاملة المُسْتأجرة، وكان عبيد بلاد السُّودان الغربي مَرْغوب فيهم لإتقانهم للأعمال المنزليَّة[2].

ولا ريب في ذلك فـ"البكري" يشير أنَّ بمدينة "أودغشت" «سودانيات طَبَّاخات محسنات تُباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر، هن تُحسن عمل الأطعمة الطَّيِّبة».[3]

كما أشارت بعض النُّصوص إلى وجود العبيد السُّود بمدينة "**بجاية**" أيضاً "فالغبريني" أشار إلى وجود بعض الجواري السُّود في سوق "باب البحر"[4]، وكان لهم حضور بمدينة "**قسنطينة**" أيضاً فـ"الوزان" يُصرِّحُ بأنَّ «تُجَّار قسنطينة يستبدلون بضاعتهم بالتَّمر والعبيد».[5]

وقد كـــانت أسعارهم مرتفعة تتراوح ما بين 25 إلى 60 دينار، وتصل في "توات" إلى أوقيتين من الذهب[6]، وقد لاحظ "الإصطخري" بأنَّ الأَمَةُ السُّودانيَّة بِيعت في بلاد

---

[1] – ابن الصَّغير المالكي: المصدر السَّابق، ص.33.

[2] – عبد العزيز فيلالي: **تلمسان في العهد الزَّياني** "**دراسة سياسيَّة، عمرانيَّة، اجتماعيَّة، ثقافيَّة**، موفم للنشر و التَّوزيع، الجزائر، ط.1، 2002م، ج.1، ص.185.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[4] – الغبريني: المصدر السَّابق، ص.178.

[5] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.56.

[6] – عبد العزيز فيلالي: المرجع السَّابق،ج.1، ص.185.

المغرب بألف دينار وأكثر[1]، و يخضع سعر العبد إلى عدَّة معايير منها: العمر، والحالة الصِّحيَّة، والقوَّة البدنيَّة والجنس، وحذقه للمهن والصَّنائع.[2]

1 – 2 – 3 – الشَّبُّ: كان من ضمن السِّلع التي يتمُّ استيرادها من الحواضر الصَّحراويَّة وكان التُّجَّار يحملونه من بلاد السُّودان، حيث اشتهرت به بعض مدنها وعلى رأسها مدينة "**كوار**" ويذكر "الإدريسي" بأنَّ «**شبُّ كوار في نهاية الجودة وهو كثير الوجود و يُتَجهز منه في كلِّ سنة إلى سائر البلاد بما لا يحصى كثرة ولا يقاوم وزنا**»[3]، وذات الإشارة نجدها عند "ابن سعيد" الذي أكَّدَ على وجود معدن **الشَّبِّ** في "**كوار**" وكان يُحمل منها إلى سائر البلاد[4].

وقد تمَّ تصدير كَمِيَّات كبيرة منه نحو الشَّمال وخصوصا نحو حاضرة "وارجلان" وعبر هذه الأخير يُنْقل إلى مدن المغرب الأوسط، و يبدو أنَّه كان له مكان مُخصَّص في" القلعة" يُباع فيه وهذا ما نستشفه من رواية "**الدِّرجيني**" إذْ ذكر بأنَّ «"**أبو مُحمَّد عبد الله اللواتي**" (ت.528هـ/1133م)، كان على سفر إلى "القلعة" فرآه رجل منهم في موقف الشَّبِّ وهو مكان معروف بأهل "وارجلان" فقال لي وارجلاني و الله».[5]

1 – 2 – 4 – التُّمور: اشتهرت الحواضر الصَّحراويَّة بكثرة وجودة التُّمور، ومنها كانت تُسوَّقُ إلى مدن المغرب الأوسط حيث استوردت مدينة "**بجاية**" هذا المَنْتوج من بلاد الزَّاب، فهي الجهة الأقرب التي ارتبطت بها، أمَّا مدينة "**قسنطينة**" فكان يُجْلب إليها من "تقورت" التي اشتهرت بوفرة انتاجه[6]، ويبدو أنَّ أسعار هذا المنتوج كانت

---

[1] – الإصطخري: المصدر السَّابق، ص.23.

[2] – عبد القادر زبادية: المرجع السَّابق، ص.202.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.118.

[4] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.114.

[5] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.472.

[6] – دومنيك فاليرين: المرجع السَّابق، ج.1، ص.269.

زهيدة، فـ"الوزَّان" يشير بأنَّ «التَّمر بمدينة "**قسنطينة**" بثمن بخس، إذْ يمكن الحصول على ثمانية أرطال أو عشرة من التَّمر بثلاث بايوتشيات».[1]

كما كانت التُّمور تُسوَّق من مدن المغرب الأوسط نحو "أوروبا"، حيث كان لها حضوراً على موائد ملوكهم التي لا تخلو من هذه الفاكهة، وقد احتكر "الأرغوانيون" كمِّيَّات كبيرة من التَّمور المصدَّرة.[2]

وممَّا سبق ذكره يتضح لنا أنَّ الحواضر الصَّحراويَّة لاسيما "وارجلان" قد أدت دور الوسيط التِّجاري الرَّئيسي بين مدن بلاد المغرب الأوسط وبلاد السُّودان، فمن خلالها وصلت سلع المغرب الأوسط إلى بلاد السُّودان، ووصلت سلع بلاد السُّودان إلى مُدن المغرب وانتقلت عبر موانئها إلى "أوروبا".

1 – 3 – الأسواق:

رغم ما تُمثِّله الأسواق من أهميَّة اقتصاديَّة كونها نقطة تصريف وتأمين المُنْتجات ومختلف الاحتياجات، فإنَّها لمْ تحضَ بالقدر الكافي من الدِّراسة إذْ لم تُزوِّدنا المصادر المُتاحة بأيِّ تفاصيل يمكننا الوقوف عليها بخصوص ما يتصل بأسواق الحواضر الصَّحراويَّة من حيث طبيعتها ونُظمها وكيفيَّة تسييرها وأهمُّ أقسامها وكلُّ ما توفَّر لنَا من معلومات مُقْتضبة لا تسمح لنا باستكمال المشهد أو الصُّورة الاقتصاديَّة للحواضر الصَّحراويَّة.[3]

ويُشير (lethelleux) بأنَّ سُكَّان "وارجلان" كانت لهم الأولويَّة والأحقِّيَّة في إدارة التِّجارة بحاضرة "وارجلان"[4]، ولرُبَّما هذا راجع إلى خبرتهم في تعاطي هذه المهنة،

[1] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.56.

[2] – لطيفة بشاري: المرجع السَّابق، ص.132.

[3] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.148.

[4] – Lethelleux: op, cit, p.168.

فـ"وارجلان" خلال هذا العهد تُعدُّ بوَّابة رئيسيَّة للتجارة مع بلاد السُّودان[1]، وقد سمحت قوَّة هذا النَّشاط بوجود عناصر خارجيَّة لاسيما التُّجَّار الوافدين من "**قسنطينة**"[2]، والذين شكَّلوا أحد أهمِّ حلقات التَّواصل والحراك التِّجاري على مستوى "وارجلان" وعلاقاتها خاصة مع الجهات الشَّماليَّة.[3]

وباعتبار أنَّ "وارجلان" همزة وصل بين بلاد السُّودان وعددٍ من مختلف الجهات فإنَّها ستكون محطَّ رحال القوافل القادمة من "**القيروان**"، و"**قسنطينة**" و"**بجاية**" و"**سكيكدة**" و"**ميلة**" والمُتجهة صوب بلاد السُّودان[4]، وهو ما يؤكد وجود مخازن لإيداع السِّلع قبل تصريفها لتأخذ مسالكها، ولابُد أنْ يكون جزءاً منها قد وُزع على مستوى "وارجلان" والتي تكون قد اشتملت على نقاط بيع كالحوانيت التي أشار "الوسياني" لوجودها.[5]

وقد كان لحاضرة "وارجلان" سوق مركزي في وسط المدينة القديمة مُحاط بأقواس وبداخله دكاكين تبيع بعض المُنْتجات المُسْتوردة من "أوروبا" مثل العطور والأقمشة[6] ولهذا السوق شهرة كبيرة يقصده التُّجار من كلِّ حدب وصوب، وينقسم إلى عدَّة أجنحة كلٌّ جناح متخصِّصٌ في بيع سلعة معينة منها.

1 – 3 – 1 – جناح العبيد: وتُجْمع فيه العبيد التي جُلبت من السُّودان الغربي وتُباع عَلانيَّة وفي أغلب الأحيان يشتريها تجُّار "قسنطينة" و"سكيكدة" و "بجاية".

---

[1] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.126.

[2] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص136. **وينظر**، مارمول كربخال: المصدر السَّابق، ج.3، ص.166.

[3] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.148.

[4] – الوزَّان: المصدر السابق، ج.2، ص.136. **وينظر**، مارمول كربخال: المصدر السابق،ج.3، ص.166. وينظر، أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة**، ص.83.

[5] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.149.

[6] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية**، ص.84 – 85.

1 – 3 – 2 – جناح اللحوم: يُباع فيه لحم الإبل الطازج والجاف، ولحم الغنم فيه نادراً.

1 – 3 – 3 – جناح التُّمر: تُعرض فيه مختلف أنواع التُّمور الطَّريِّ منها والجاف وحتّى الغير صالح للاستهلاك، والذي يُسوَّقُ علفًا للحيوانات.

1 – 3 – 4 – جناح المنتجات النَّسيجيَّة: تُباع فيه المنتوجات التي تنسج محليًّا في البيوت بطريقة تقليديَّة من صوف الأغنام ووبر الماعز والإبل، مثل: البرانس و العباءات، والأغطيَّة و الأكياس.[1]

كما كانت ببلاد ريغة (أريغ) أسواقٌ نشطة، منها: سوق تقام كلَّ يوم "جمعة" يقصدها التُّجَّار من مختلف المدن[2]، وبحكم الطَّبيعة الصَّحراويَّة لتلك الحواضر وما كانت عليه المسالك والمسافات المقطوعة خلالها، فقد تكون هاته الأسواق مُتباينة بين ماهو "**يومي**" موجَّهٌ للتسوُّقِ المحليّ، و بين ما هو " **أسبوعي**" موجَّهٌ للتسوُّقِ الخارجي، سواء للحواضر أو للجهات ذات الصِّلة بأسواق "وارجلان".[3]

أمَّا عن المعاملات التِّجاريَّة داخل الأسواق، فلم تسعفنا المصادر المُتوفِّرة بالمعلومات الكافية بخصوص هذا الشَّأن، و يبدو لي من خلال ما هو متوفِّر من مادة خبريَّة، أنَّها كانت متنوعة منها: الدِّينار الذَّهبي، فالمعلوم أنَّ أهل "وارجلان" كانوا «يجلبون التِّبر ويضربونه في بلادهم»[4]، ويؤكِّدُ "الحميري" على أنَّ ما يُضربُ «**ببلد واركلان دنانير على نوع المرابطيَّة وهي مشهورة**»[5]، والحقيقة ذاتها يؤكدها صاحب

---

[1] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية**، ص.85.

[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.254. **وينظر**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.158.

[3] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.149.

[4] – المقريزي: **جنى الأزهار من الرَّوض المعطار**، تح، مُحمَّد زينهم، الدَّار الثَّقافيَّة للنشر، القاهرة، ط.1، 2006م، ص.73.

[5] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.600.

الاستبصار بقوله: «**ما يضرب ببلد وارجلان دنانير على نوع المرابطيَّة... و الدَّنانير الوارجلانية مشهورة**».[1]

ويبدو أنَّ العملة المُسمَّاة بالمرابطيَّة قد عرفت انتشاراً واسعاً، وسجَّلت حضورها على موائد الفقهاء، حيث ورد ذكرها عند "الونشريسي" في أمثلة "**القِراض**" حيث سُئل عمَّن «دفع دنانير مرابطيَّة لبحري على أساس القراض»[2].

ولا نستبعد وجود مثل هكذا عملة بحاضرة "وارجلان" فمن غير المعقول أنْ تكون "وارجلان" مُجرَّد جالبة للذهب دون أنْ يكون لها نصيب من ذلك، فبعض الرِّوايات توضِّح لنا وجود قوَّة ماليَّة فالشَّيخ «**أبو صالح جنون بن يمريان**" (ق.4هـ/10م) طلب من "**أبي نوح سعيد بن زنغيل**" **أنْ** يُدْخِل يده في جيبه، فوجد فيه صُرَّة و فكَّها فوجد فيها سبعين دينارا»[3]، و أشار "الدِّرجيني" بأنَّها «سبعون ديناراً ذهبياً».[4]

وإلى جانب إلى الدَّنانير الذَّهبيَّة فقد اسْتُخْدِمَت أيضاً الدَّراهم الفضيَّة والنُّحاسيَّة[5]، كما تمَّ التَّعامل بالمُقايضة أيضاً، حيث أشار صاحب "وصف إفريقيا" بأنَّ «تجار قسنطينة كانوا يستبدلون منتجاتهم النَّسيجيَّة بالعبيد والتَّمر عن طريق المقايضة».[6]

---

[1] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.224.

[2] – أبو العباس أحمد الونشريسي: المصدر السَّابق، ج.8، ص.207. **وينظر**، مُحمَّد زنبير: **المغرب في العصر الوسيط – الدَّولة– المدينة– الاقتصاد**، منشورات كلِّيَّة الآداب و العلوم الإنسانيَّة، الرِّباط، ط.1، 1999م، ص.394.

[3] – أبي زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.223.

[4] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.144.

[5] – موريس لومبار: **الإسلام في مجدِه الأوَّل**، تر: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط3، 1989م، ص.156.

[6] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.56.

2)- التِّجارة الخارجيَّة:

ارتبطت الحواضر الصَّحراويَّة بعلاقات تجاريَّة مع الكيانات السِّياسيَّة المجاورة لها، فقد أهَّلَها موقعها الجغرافي لتكون قطباً تجارياً مُزْدهراً.

2 – 1 – القيروان:

أشار "أبو زكرياء" في مُصنفه " السِّير" إلى وجود طريق يربط بين مدينة "القيروان" وحاضرة "وارجلان"، في معرض حديثة عن تفاصيل هروب "**عبيد الله المهدي**" من "مصر" إلى **سِجْلماسة** فيقول: «.. فأقبل من المشرق ولمَّا وصل "توزر" حسب أنَّها هي التي تقوم دولته، فنظر إلى رجالها وليس معهم زينة الملك ولا هيئَة السُّلطان... فخرج "عبيد الله" منها متوجِّها إلى سِجلماسَة فجاز في طريقه بـِ"وارجلان"... وسأل عن شيخ أهل "وارجلان" فقيل له "**غيار**"، فقال أين منزله؟ فقيل له "**بتغيارت**"... ثمَّ خرج من "وارجلان" إلى سجلماسَة وأقام بها مدّة طويلة».[1]

ومن الواضح أنَّ الطَّريق الرَّابط بين المشرق الإسلامي و"سجلماسة" والذي كانت "توزر" و "وارجلان" ضمن محطاته الرَّئيسيَّة، كان مستعملاً منذ السَّنوات الأولى للقرن (4هـ/10م).

ومن المُحْتمل أنْ يكون هذا الطَّريق هو نفسهُ الذي نُوقِش في موضع آخر من كتاب "أبي زكرياء"، وذلك خلال حديثه عن سيرة العالم الإباضي "**أبو الرَّبيع سليمان ابن زرقون النَّفوسي**" فيتحدَّث عن مرحلة شبابه في قوله: «... أصله من "نفوسة" من قرية "تنْيوت" وبها مولده ومسكنه... وكان تعلُّمه في سجلماسة عند "**ابن الجمع**" وكان رجلاً من أهل الدَّعوة أقبل من المشرق تاجراً وهو من أصحاب المذهب الإباضي و كان غزيراً في العلم فقدِمَ "توزر" وكان "**أبا الرَّبيع**" آنذاك شاباً حدث السِّنِّ، و اختبره

[1] – أبي زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.158 – 160.

"ابن الجمع" في أمور كثيرة فوجده حاذقا ذكيا... فطلب منه... أنْ يسير معه إلى سجلماسة و يعلِّمه ما أراد من العلوم، فسار "أبو الرَّبيع" و "ابن الجمع" يريدان "سجلماسة "».[1]

وعلى ما يبدو أنَّ العلاقات التِّجاريَّة بين "القيروان" و"وارجلان" قد بلغت ذرْوتها خلال القرنين الثَّالث والرَّابع الهجريين، واستمرت كذلك إلى غاية النِّصف الأول من القرن (5هـ/11م)، وما يؤكِّد لنا حجم النَّشاط التِّجاري بين "القيروان" و"وارجلان" هو حضور السِّلع القيروانيَّة بمخازن "وارجلان" كالعطور و العمائم والطَّاقيَّات، غير أنَّ هذا النَّشاط عرف نوعاً من التَّراجع منذ منتصف القرن (5هـ/11م) وذلك بسبب التَّخريب الذي تعرضت له "القيروان" على يد القبائل الهلاليَّة التي احتلت المدينة ودمَّرتها، وفي وصف "الإدريسي" ما يُوضح الوضع الذي آلت إليه المدينة، حيث قدَّم لنا وصفاً موجزاً لمدينة "القيروان" فيذكر: «**... بأنَّ بها أقوام قليلون تجاراتهم يسيرة ومنافعها نزرة**».[2]

وما تجدر الإشارة إليه أنَّه بخراب "القيروان"، وبعد استيلاء الموحدين على بلاد المغرب، برزت مدينة "**تونس**" كعاصمة للإقليم بعد "القيروان" واستمرت في دورها كمدينة إفريقيَّة تحت حكم الحفصيين خلال القرن (7هـ/13م)، وكانت "تونس" في هذا العهد مركزاً للحرف اليدويَّة والتِّجارة وهذا بشهادة "الحسن الوزَّان" الذي أشار أنَّ «**جُلَّ سكان "تونس" نسَّاجون يصنعون فيها كمِّيَّة عظيمة من القماش البالغ حدَّ الإتقان، يُباع في إفريقيا كلَّها بأثمان باهضه لأنَّه رفيع ومتين**».[3]

ويذكر "**روبار برنشفك**" أنَّه كان يصنع بمدينة "تونس" أقمشة جيِّدة تعرف باسم الأقمشة "**الإفريقيَّة**" وهي مصنوعة من القطن والكتَّان، كما كانت تنسج لصنع ملابس

---

[1] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.182– 183. **وينظر**، Lewicki: op, cit, p.15.

[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.284.

[3] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.74.

كبار رجال الدَّولة قماشاً من الحرير والقطن أو من الحرير والصُّوف مُخَتَّم وغير مُختَّم يعرف باسم "**السَّفساري**"».[1]

ويشير الرَّحالة "الحسن الوزَّان" صاحب "وصف إفريقيا" إلى وجود سوق مُعيَّنة بـ"تونس" يقصدها عددٌ كبيرٌ من تُجَّار القماش الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة، كما تضمُّ غيرهم من التُّجار والصُّنَّاع كالعطارين.[2]

ولقد نشطت حركة العبور بمدينة "تونس" أثناء الفترة الحفصيَّة وذلك للتدفُّق القويِّ للتِّجارة بين "إفريقيا" وبلاد السُّودان، فغالباً ما كان يذهب تُجَّار مدينة "تونس" نحو "وارجلان" لاستبدال مُنْتجاتهم بِمَنْتُوجات قادمة من السُّودان، ويبدو أنَّ القوافل القادمة من "تونس" إلى "وارجلان" كانت تأخذ نفس المسار الذي يأخذه التُّجَّار من "القيروان" إلى "وارجلان"، ومنها إلى "تادمكة" مروراً بـ"قفصة" و "توزر".[3]

ولقد أشار "البكري" إلى هذا الطريق بقوله: «**فإنْ أردت من "تادمكة" إلى "القيروان" فإنَّك تسير في الصَّحراء خمسين يوما إلى "وارجلان"**»[4]، أمَّا عن المسافة بين "القيروان" و"تونس" فقد حدَّدها "البكري" بمائه ميل.[5]

والجدير بالذِّكر أنَّ علاقات "وارجلان" التِّجاريَّة بـ"إفريقيَّة" لم تقتصر على مدينتي "القيروان" و"تونس" وإنَّمَا شملت مناطق ومدن أخرى منها "**بلاد الجريد**" التي ارتبطت بعلاقات تجاريَّة مع "وارجلان"، نظراً لما اشتهرت به من انتاج صناعي، فصوف "**جربة**" على سبيل المثال، كان يُحظى بسمعة لا مثيل لها في شمال إفريقيا بفضل

[1] – روبار برنشفك: المرجع السَّابق، ج.2، ص.241.

[2] – الوَّزان: المصدر السابق، ج.2، ص.75.

[3] – Lewicki: op, cit, p.26

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.182.

[5] – البكري: المصدر نفسه، ص.37.

نوعيته الرَّفيعة[1]، وتُصنع "**بقفصة**" الشِّيلان والملابس والعمائم، وقد أشار "الوزَّان" إلى تألق لباس أهلها، قائلاً: «**... يرتدي السُّكان لباسا لائقا جدًّا**».[2]

أمَّا مدينة "**توزر**" فقدُ عُرفت بوفرة انتاجها للتمور، ويذكر "البكري" «**بأنَّها أكثر بلاد إفريقيَّة تمراً و يخرج منها في أكثر الأيَّام ألف بعير موقورة تمراً**»[3]، ويُحمل منها إلى سائر بلاد المغرب.

2 – 2 – جبل نفوسة:

ارتبطت "وارجلان" بعلاقات مُبكِّرة مع مدينة "طرابلس" خاصة مع إباضيَّة "جبل نفوسة" فقد شكَّل هذا الجبل أهمَّ مركز تجاري للدَّولة الرُّسْتُميَّة خصوصاً عاصمة الجبل "**مدينة جادوا**" التي يسكنها البربر الإباضيَّة[4]، وقد وصفها "البكري" خلال حديثه عن مدينة "طرابلس" بأنَّها: «**مدينة كبيرة لها أسواق ويسكنها يهود كثير**»[5]، ويقدِّرُ "البكري" طول الجبل بمسيرة ستة أيَّام من الشَّرق إلى الغرب ويبعد عن مدينة "طرابلس" مسيرة ثلاثة أيَّامٍ.[6]

وارتبط "جبل نفوسة" بعلاقات تجاريَّة نشطة مع العديد من المناطق، منها: مدينة "فزَّان"، ومدينة "غدامس" الواقعة على الطريق المؤدية لبلاد "الكانم"، ولقد اشتهرت هذه المدينة «**بجلدها المفضل وإليها ينسب**» وارتبط أيضاً بعلاقات تجاريَّة مع بلاد "الكانم" في السُّودان الأوسط، فالموقع الاستراتيجي للجبل جعل منه منطقة استقطاب للتِّجارة

---

[1] – روبار برنشفيك: المرجع السَّابق، ج.2، ص.234.

[2] – روبار برنشفيك: المرجع نفسه، ج.2، ص.242. **وينظر**: الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.145.

[3] – البكري: المصدر السابق، ص.48.

[4] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.133.

[5] – البكري: المصدر السَّابق، ص.9. **وينظر أيضا**: الحموي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.92.

[6] – البكري: المصدر نفسه، ص9.

الدَّوليَّة من أطراف العالم الإسلامي المختلفة شرقاً و غرباً، ومن بلاد السُّودان والبلاد المتوسطيَّة من جهة أخرى.[1]

أمَّا عن العلاقات التِّجاريَّة بين حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة و"جبل نفوسة"، فلم تُسعفنا المصادر المُتاحة عن جذور وبداية التَّواصل التِّجاري بينهما، وإنْ كُنَّا لا نشك في أنَّ العلاقات كانت وثيقة بين "وارجلان" و"جبل نفوسة" نظراً للوحدة المذهبيَّة فـ"جبل نفوسة" كان له دورٌ كبيرٌ وفعَّالٌ في نشر المذهب الإباضي، حيث كانت "قبيلة نفوسة" السَّند القويِّ للإباضيَّة في المغرب الأوسط طيلة القرن (الثَّاني والثَّالث الهجريين، الثَّامن والتَّاسع الميلاديين).[2]

ويُعدُّ "الإدريسي" أوَّل من أشار إلى الطَّريق الذي يربط "جبل نفوسة" بـِ"وارجلان" وحدَّده بمسيرة اثنتا عشرة مرحلة في قوله: «ومن "جبل نفوسة" إلى "وارقلان" اثنتا عشرة مرحلة»[3].

ولم يُفيدنا "الإدريسي" بأيِّ تفاصيل حول مراحل هذا الطَّريق، ويرى "**ليفتكسي**" «أنَّ هذا الطَّريق يمرُّ بواحة "أسوف" متجهاً إلى "نفزاوة" ومنها إلى الجبل».[4]

ولربَّما في نصِّ "أبو زكرياء" ما يؤكِّد ما ذهب إليه "ليفتسكي" حين أشار إلى أنَّ «"**أبا يعقوب يوسف بن الوالي**" أحد شيوخ الإباضيَّة لما أراد مغادرة "تين يسلي" إلى "نفزاوة" سار على "أسوف" وهذه الأخيرة لا تبعد كثيرا عن منطقة "نفطة" و"إفريقيَّة" ومنها يبدأ الطَّريق المتجه إلى "نفزاوة"».[5]

---

[1] – صالح معيوف مفتاح: **جبل نفوسة وعلاقته بالدَّولة الرُّستميَّة من منتصف القرن الثَّاني الهجري إلى أواخر القرن الثَّالث الهجري**، منشورات مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، ط.1، 2006م، ص.50.

[2] – مسعود مزهودي : المرجع السَّابق، ص.134.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.279.

[4] – Lewicki: Etudes, p.29.

[5] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.330.

ومن المحتمل أنَّ (طريق نفزاوة – جبل نفوسة) يمرُّ على مدينة "شروس" هذه المدينة التي كـــانت تمثِّل مرحلة من مراحل القوافل التي تمرُّ بطريق "وارجلان" وطريق التَّكرور (السُّودان الغربي) وغاية هذه القوافل الوصول إلى طرابلس التي تبعد عن "شروس" مسيرة خمسة أيَّامٍ.[1]

وقد اشتهر "جبل نفوسة" بصناعة الأكسية والملابس الصُّوفيَّة، وهذا لوفرة الأغنام بالجبل، بالإضافة إلى شهرته في صناعة الفخَّار المُسْتعمل في حفظ الزُّيوت، مثل: الجرار، والخوابي، وهي السِّلع التي كان يدخل بها إلى بلاد السُّودان.[2]

2 – 3 – غدامس:

ارتبطت مدينة "غدامس" أيضاً بعلاقات تجاريَّة مع حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، وقد وصفها "البكري بأنَّها «مدينة لطيفة كثير النَّخل والمياه وأهلها بربر مسلمون»[3]، واشتهرت "غدامس" بدباغة الجلود، حيث يذكر "الحموي" بأنَّه «تُدبغُ فيها الجلود وهي أجود الدِّباغ لا شيء فوقها في الجودة كأنَّها ثياب الخز في النُّعومة والإشراق»[4].

وتعتبر الجلود الغدامسيَّة من أهمِّ السِّلع التي تصدِّرُها "غدامس" إلى حواضر المغرب، وفضلاً عن شُهرتها بصناعة الجلود، فـ"غدامس" كانت مركزاً تجارياً مُهمًّا بحيث كانت تَفِدُ على أسواقها سلع مدينة "تونس" و"القيروان"، و"طرابلس"، و"أسوف" مُمثَّلة في التُّمور والقمح والشَّعير والزَّيت وفي المقابل يُحمَلُ منها الجلود التي كانت تصنع منها القِرَبُ، وكذا الحرير والأقمشة بكمِّيَّات كبيرة ومن كل الألوان، وكذا

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.9. **وينظر أيضا:** مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.136.

[2] – صالح معيوف مفتاح: المرجع السَّابق، ص.52.

[3] – البكري: المصدر السابق، ص.182.

[4] – الحموي: المصدر السَّابق، مج.4، ص.187.

المصنوعات الزُّجاجيَّة، والسَّكاكين، بالإضافة إلى العبيد الذين كانوا يُباعون علنًا في أسواق "غدامس".[1]

ويبدو أنَّ التَّواصل التِّجاري بين "غدامس" وحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة قد استمرَّ إلى غاية القرن 19م، وهذا ما نستشفه من رحلة "**بونمان فرنسوا**" التي قادته إلى مدينة "غدامس" رفقة قافلة تجاريَّة انطلقت من "أسوف"، ولقد قدَّم لنا "**بونمان**" وصفا دقيقا للقافلة من حيث (نظام السَّير، وفترات الرَّاحة، وعددها، والمخاطر التي تعترضها)، كما نوَّه "**بونمان**" إلى أنَّ أهميَّة "غدامس" لا تكمن في منتجاتها بل في التَّبادل التِّجاري معها، فهي تعتبر مخزن لسلع السُّودان.[2]

2 – 4 – سِجِلْمَاسَة:

تُعتبر "سِجلماسة" منْ أهمِّ المحطَّات المغربيَّة التي تنطلق منها القوافل التِّجاريَّة صوب الجنوب ولها اتصال وثيق بحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، لاسيما حاضرة "وارجلان" من الجانبين الاقتصادي والسِّياسي[3]

يصفها الإدريسي بأنَّها «... مدينة كبيرة، كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصَّادر، كثيرة الخضر والجنَّات، ولا حصن عليها وإنَّما هي قصور وديار و عمارات متَّصلة على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصَّحراء».[4]

ولقد عرفت مدينة "سجلماسة" نشاط تجاري كبير وهذا خلال القرن (7هـ/13م) بحيث استطاعت هذه المدينة أنْ تُوَفِّر للخليفة "**الرَّشيد الموحدي**"[1]، الدَّعم المادي الذي

---

[1] – سميرة دعاشي: «**رحلة بونمان فرانسوا لويس من تقرت إلى غدامس ودورها في الكشف التِّجاري للصحراء**»، مجلَّة المعارف للبحوث والدِّراسات التَّاريخيَّة، ع.11، جامعة حمَّه لخضر – الوادي، الجزائر، ص.153 – 159.

[2] – سميرة دعاشي: المرجع نفسه، ص.157.

[3] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، مج.2، ص.163.

[4] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.226.

مكَّنه من استرجاع مُلْكِه الضَّائع بـِ"مراكش"، ولا ريب فالمدينة أصبحت قبلة لعدد كبير من التُّجار الذين قَدموا إليها من مختلف مناطق المغرب، فـ"سجلماسة" كانت بمثابة سوق دوليَّة تجمع تُجُّار بلاد المغرب و "أوروبا" عبر وُكالائهم من اليهود.[2]

وبخصوص ارتباط "وارجلان" بـِ"سِجلماسة"، فقد أوردت بعض المصادر إشارات إلى الطَّريق الذي كان يربط "وارجلان" بـِ"سجلماسة"، وأقدم ذكرٍ للطريق المباشر الرَّابط بينهما كان من طرف صاحب كتاب "سير الأئمة" فقد أشار إلى هذا الطَّريق في معرض حديثه عن أخبار "**عبيد الله المهدي**"، وقد سبق وأنْ تطرَّقنا لهذا الطَّريق في العلاقات التِّجاريَّة التي ربطت بين "وارجلان" و"القيروان".[3]

كما يوجد مسلك آخر يربط بين حاضرة "وارجلان" و"سِجلماسة"، كانت تسلكه القوافل التِّجاريَّة حيث تتجه القوافل أوَّلاً إلى الجنوب الغربي، إلى مدينة "**القليعة**" حيث المحطَّة الهامة، ثمَّ تتجه غرباً وتمرُّ بواحة "قورارة" وقصور "توات"، ثمَّ تتجه إلى الشَّمال الغربي حيث مدينة "سجلماسة" وتكون القوافل بهذا قد تحاشت العرق الغربي الكبير متبعة مجرى "وادي السَّاورة"، وبعد وصولها إلى "سجلماسة" يتجه هذا الخط مَرَّة أخرى نحو الجنوب إلى "تاغزة" و "ولاتن".[4]

=

[1] – **أبو مُحمَّد عبد الواحد: ملقَّبٌ بالرشيد** بُويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المأمون سنة (630هـ/1232م) كانت بيعته خاصة، تولى الحكم وعمره أربعة عشرة سنة، استمرت دولته عشرة أعوام وأربعة أشهر، توفى سنة (640هـ/1242مـ). **ينظر**، ابن عذاري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.359. **وينظر أيضاً**، النَّاصري: المصدر السَّابق، ج.2، ص.216.

[2] – حسن حافظي علوي: **سجلماسة وإقليمها في القرن الثَّامن الهجري الرَّابع عشر الميلادي**، مطبعة فُضالة، الرّباط، **ط.1**، 1997م، ص.367 – 370.

[3] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.158 – 159.

[4] – فرج محمود فرج: **إقليم توات خلال القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط.1، 1984م، ص.78.

وعلى ما يبدو أنَّ الطَّريق الرَّابط بين "وارجلان" و"سجلماسة" قد عرف نوع من الحركيَّة، بحيث كان التُّجار الإباضيون ينطلقون من "وارجلان" إلى "سجلماسة"، أو من "سجلماسة" إلى "وارجلان" فـ"الشَّماخي" يُخبرنا من خلال نصوصه عن الشَّيخ "**أبو زكرياء بن صالح اليراسني**"، رواية عن أحد المشايخ قال: «وصل **أبو يحيى زكرياء** ذات مرَّة من "سجلماسة"، إلى "وارجلان" وخرج يريد "جربة" مع أصحابه ومعهم قرب مائتي ألف و خمسين ألفاً ذهباً تبراً أعني مِثقالا».[1]

وقد تكون لعلاقة الصَّداقة التي جمعت بين الدَّاعيتين "**سلمة بن سعد**" و"**عكرمة مولى ابن عباس**" عاملاً مُهمًّا ساهم في وجود تقارب وتواصل بين الحاضرتين، فالأوَّل نشر المذهب الإباضي بالمغرب الأوسط، والثَّاني نشر المذهب الصُّفري بالمغرب الأقصى.[2]

لتتعزز تلك العلاقة أكثر بزواج "**مدرار بن اليسع**" "**بأروى بنت الإمام عبد الرَّحمان بن رستم**" فكانت لهذه العلاقة المُبكِّرة بين "تيهرت" و"سجلماسة"، سبباً واضحاً في ربط "وارجلان" بـِ"سجلماسة".[3]

وإنْ كان الغرضُ من هذا الزَّواج ربط علاقات صداقة بين الدَّولة الرُّستميَّة ذات المذهب الإباضي، والدَّولة المدراريَّة ذات المذهب الصُّفري، فإنَّه لا يمكن أنْ يُغيِّب الدَّافع الاقتصادي من هذا الزَّواج، ولربَّما كان غرضُ "بني رستم" من إقامة علاقة مصاهرة مع البيت المدراري هو ضمان سير قوافلهم التِّجاريَّة على الطَّريق المار بمدينة "سجلماسة" عاصمة المدراريين باتجاه "غانة".

---

[1]– الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.109. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.164.

[2] – بوعصبانة: المرجع نفسه، ص.164.

[3] – الباروني: **الأزهار الرياضية**، ص.95.

ويبدو أنَّ دور "سجلماسة" التِّجاري قد عرف نوع من التَّراجع والتَّدهور منذ بداية القرن(8هـ/14هـ) وهذا راجع إلى التَّحوُّلات والتَّطورات التي طرأت على محاور التِّجارة بما في ذلك انعدام الأمن على طول الطَّريق التِّجاري الغربي الرَّابط بين المغرب الأقصى وبلاد السُّودان الغربي بالإضافة إلى المنافسة المصريَّة التي حَوَّلت اهتمام الماليين نحو الشَّرق، ودفعت بهم إلى التَّعامل أكثر من أيِّ وقت مضى مع هؤلاء الزَّبائن الجُدُد[1].

ولنا أنْ نلاحظ حجم تراجع دور "سجلماسة" في مضمون الرِّسالة التي أوردها "ابن الخطيب" إلى الفقيه "**أبي عبد الله مُحمَّد الكناني**"، هذا نصها: «إذا كانت "سجلماسة" قبل اليوم... يجلب منها التِّبرُ إلى دار الملك فقد رُدَّ إليها الذَّهب الإبريز من بعد السَّبك، ولابدَّ أنْ يعود الحقُّ على الشَّك، فتعود الأمور إلى مُعتادها، وتحلك العلياء محلَّ فؤادها، فإنَّها هو تجميم وراءه إنعام عميم...».[2]

2 – 5 –السُّودان الغربي:

يعود أوَّل اتصال بين بلاد المغرب والسُّودان الغربي إلى زمن الفتوحات الإسلاميَّة فالمصادر التَّاريخيَّة أشارت إلى توغُّل "**عقبة بن نافع الفهري**" عام (46هـ/666م) في بلاد السُّودان الأوسط، وهذا ما كشف عنه "ابن عبد الحكم" في نصه «... ثمَّ مضى على جهته من فوره ذلك إلى قصور "فزَّان"، فافتتحها قصراً قصراً، حتى انتهى إلى أقصاها فسألهم: هل من ورائكم أحد؟ قالوا: نعم أهل "خاوار" وهو قصر عظيم على رأس المفازة في عورة على ظهر جبل، وهو قصبة "كوار"... فسار إليهم خمس عشرة

[1] –حسن حافظي علوي: **سجلماسة و إقليمها**، المرجع السَّابق، ص.164.

[2] – لسان الدِّين بن الخطيب: **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تح: السَّعديَّة فاغية، مطبعة النَّجاح الجديدة، الدَّار البيضاء، ط.1، 1989م، ص.148.

ليلة، فلما انتهى تحصَّنوا فحاصرهم شهراً فلم يستطع لهم شيئا، فمضى أمامه على قصور "كوَّار فافتتحها... وفرض عليهم ثلاثمائة وستين عبدا».[1]

ويبدو أنَّ النَّشاط التِّجاري برز مع أولى الحملات العسكريَّة عبر الطَّريق الغربي التي قادها "**عقبة بن نافع**" على المغرب الأقصى عام (62هـ/682م)[2]، والتي مكَّنت العرب من الوصول إلى "وادي درعة" لأوَّلِ مرَّة، وقد أشار "ابن عذاري" إلى ذلك بقوله: «ونزل من "درعة" إلى بلاد "صنهاجة"»[3]، حيث جلبوا معهم أعداداً كبيرة من الرَّقيق والمال، وهذا ما أوضحه صاحب "**معالم الإيمان**" في قوله: «وغنموا أموالهم وسبُوا نسائهم فبلغنا أنَّ الجارية منهم بلغ ثمنها بالمشرق ألف دينار»[4].

وخلال ولاية "**هشام بن عبد الملك**" لأفريقيَّة وصلت طلائعه إلى مناطق السُّوس الأقصى أين جُلبت أعداد كبيرة من الرَّقيق[5]، وفي ولاية "**عبيد الله بن الحبحاب**"[6] وجَّه هذا الأخير حملة بقيادة "عبيد الله حبيب بن أبي عبيدة الفهري" إلى بلاد السُّودان وقد أشار "ابن عبد الحكم" إلى هذه الحملة بقوله: «وغزى عبيد الله حبيب بن أبي عبيد

---

[1] – ابن عبد الحكم: المصدر السَّابق، ج.1، ص.222 – 223.

[2] – صباح إبراهيم الشَّيخلي: «**النَّشاطات التِّجاريَّة العربيَّة عبر الطَّريق الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري**»، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التَّاسع عشر، المنظَّمة العربيَّة للتربية والثَّقافة والعلوم، بغداد، 1984م، ص.30.

[3] – ابن عذاري المراكشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.27.

[4] – عبد الرَّحمان بن مُحمَّد الأنصاري الأسيدي الدَّبَّاغ: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تع: أبو القاسم بن عيسى بن تاجي التَّوخي و إبراهيم شبُّوح، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.1، 1968م، ج.1، ص.51.

[5] – صباح إبراهيم الشَّيخلي: المرجع السابق، ص.30.

[6] – **عبيد الله بن الحبحاب:** كان واليا على "مصر" لـِ"هشام بن عبد الملك" فكتب إليه يأمر بالمسير إلى إفريقية وذلك سنة 116هـ/734م، وكان "عبيد الله بن الحبحاب" يحكم "مصر" من العريش في عمله و"إفريقيَّة"، و"الأندلس" وما بين ذلك. وكان كاتبا بليغا حافظا لأيَّام العرب ووقائعها وأخبارها، وهو من بنى الجامع بـِ"تونس" ودار الصِّناعة، **ينظر**، ابن الآبَّار: **الحُلة السَّيراء**، تح، حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط.2، 1985م، ج.2، ص.336 – 337.

الفهري السُّوس وأرض السُّودان، فظفر بهم ظفرًا لم يُرَ مثله وأصاب ما شاء من ذهب».[1]

ولقد أولى وُلَّاة بني أمية على "إفريقيَّة" اهتمام كبير بالطُّرق التي تربط المغرب ببلاد السُّودان لاسيما الطَّريق الغربي منها الذي أُجْريت عليه تحسينات أساسيَّة، من حيث التَّنظيم وتوفير المياه به، إذ يُشير "البكري" إلى أنَّ والي "إفريقيَّة" "**عبد الرَّحمان بن حبيب**"[2] (130 – 138هـ/747 – 755م) قد أمر بحفر ثلاثة آبار جديدة للقوافل التِّجاريَّة المارَة بالطُّريق الذي يربط "تامدلت" و"جنوب المغرب الأقصى" ومدينة "أودغشت".[3]

إنَّ اهتمام والي "إفريقيَّة" بإصلاح الطَّريق الغربي وتزويده بنقاط مياه معلومة لدى القوافل التِّجاريَّة تجعلنا نتساءل حول الدَّافع الحقيقي وراء هذا الاهتمام؟ هل كان الدَّافعُ سياسي يتمثَّل في الرَّغبة في التَّوغُّل داخل بلاد السُّودان وتوسيع رقعة الإسلام، أمْ أنَّه دافع اقتصادي يهدف لضمان تدفق الرَّقيق ومن ثمة السَّيطرة على تجارته.

---

[1] – ابن عبد الحكم: **فتوح مصر والمغرب**، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،(د ط)، 2001م،ج.1، ص.293.

[2] – **عبد الرَّحمن بن حبيب:** ابن أبي عبيدة بن عقبة، بن نافع الفهري، كان مع أبيه "حبيب" في العساكر القاصدة لقتال خوارج البربر بنواحي "طنجة"، وهرب في جملة المنهزمين ودخل "الأندلس" وكانت له في الحروب بها أخبار، خرج من "الأندلس" إلى "إفريقيَّة" بعد سنة (125هـ/742م)، **ينظر**، أبو عبد الله مُحمَّد بن أبي نصر (الحُمَيْدي): **جُذوة المقتبس في ذكر ولَّاة الأندلس**، الدَّار المصريَّة للتأليف والتَّرجمة، القاهرة، ط.1، 1966م، ص.271 – 272.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.156. **وينظر**، حسين سيد عبد الله مُراد: «**الصِّلات بين بلاد المغرب والسُّودان الغربي من(ق.2 إلى 8هـ/8 إلى 12م)**»، أعمال المؤتمر الدُّولي حول: الإسلام في إفريقيا المنعقد أيام: 26 – 27 نوفمبر2006م، جمعيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة (ليبيا)، وزارة الإرشاد والأوقاف، طرابلس، 2006م، ص.376.

ولعل في نصّ "الحموي" إجابة لتساؤلنا، حيث صَرَّح بأنَّ المراكز التِّجاريَّة السُّودانيَّة التي تقع على النِّهاية الجنوبيَّة لهذا الطَّريق كانت محاورة لمصادر الذَّهب والرَّقيق[1].

وهذان البضاعتان قِوَامُ اقتصاد دُول المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ولهذا فقد واصلت الكيانات التي ظهرت بالمغرب الإسلامي بما فيها المغرب الأوسط اهتماماتها بالطُّرق المؤدية لبلاد السَّودان مصدر الذَّهب والرَّقيق، وقد ارتبطت الدُّولة الرُّستميَّة أولى الكيانات السِّياسيَّة بالمغرب الأوسط بعلاقات تجاريَّة واقتصاديَّة مع السُّودان الغربي، حيث عرفت نشاطاً اقتصادياً مُنظَّماً ومُزْدهراً.

ويُعزى ذلك إلى السِّياسة التي انتهجها أمراء "بني رستم"، فكلٌّ من أرَّخ لهذه الدَّولة يُشيد باهتمامها بالتَّجارة. ويخبرنا "**ابن الصَّغير**" أحد مؤرخي الدُّولة عن اهتمام أئمتها بتأمين المسالك وتوفير كلُّ متطلباتها، خاصة ما تعلق منها بحفر الآبار باعتبار الماء أكثر من ضرورة، فيقول: «... و استعملت السُّبل إلى بلاد السُّودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتِّجارة وضروب الأمتعة... والنَّاس والتُّجار من كلِّ الأقطار تاجرون».[2]

ولقد واصلت الكيانات السِّياسيَّة التي ظهرت بالمغرب الأوسط بعد الدَّولة الرُّستميَّة علاقاتها التِّجاريَّة مع السُّودان الغربي، حيث شكَّلت حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة أهمَّ المراكز التِّجاريَّة الرَّابطة بين الضِّفتين، لاسيما حاضرة "وارجلان" التي كانت المركز التِّجاري الأوَّل للرُّستميين باعتبارها قاعدة الدُّولة الرُّستميَّة بالصَّحراء حيث أشتهر أهلها بقيادة القوافل لبلاد السُّودان واستمرَّ نشاطها الحيوي إلى ما بعد سقوط

[1] – الحموي: المصدر السَّابق، مج.4، ص.184.

[2] – ابن الصَّغير المالكي: المصدر السَّابق، ص.32.

الرُّستميين، ويمكننا القول بأنَّ «"وارجلان" كانت تحتكر تجارة المغرب الأوسط مع بلاد السُّودان».[1]

وممَّا ساهم في ازدهار التِّجارة هو ارتباط الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط بشبكة كبيرة من المسالك المُفضية لبلاد السُّودان، كانت تسلكها القوافل التِّجاريَّة لما يزيد عن عشرة قرون من الزَّمن من القرن(2 – 13هـ/9 – 19م) منها مسالك رئيسيَّة وأخرى فرعيَّة؛ وسنقتصر في هذا المقام على الوقوف على أهمِّ المسالك الرَّئيسيَّة التي ربطت حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة ببلاد السُّودان.

3)- الطُّرق التِّجارية ووسائل النَّقل:

تعدَّدت الطُّرق التِّجاريَّة التي تربط الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط بغيرها من الأمصار والتي نشَّطت التَّواصل التِّجاري، وجعلت من هذه الحواضر الصَّحراويَّة همزة وصل بين كلِّ الحواضر شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، فماهي أهم تلك المسالك؟

3 – 1 – المسالك التي تربط حاضرة وارجلان بالسُّودان الغربي[2]:

3 – 1 – 1 – وارجلان– تادمكة– كوكو: يُعدُّ هذا الطَّريق من أقدم الطُّرق التِّجارية التي تربط "وارجلان" وكل مدن المغرب الأوسط ببلاد السُّودان، وهذا المسلك من أقدم الطُّرق التِّجاريَّة التي كانت تربط عاصمة الرستميين "**تيهرت**" بمملكة "**كوكو**" مرورا بـِ"وارجلان"[3]، وقد أشار "البكري" إلى الجزء الشَّمالي من هذا الطَّريق والذي يربط "وارجلان" بـِ"تادمكة"، فقال: «من أراد الطَّريق من "تادمكة" إلى "القيروان" فإنَّه يسير في

---

[1] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.144.

[2] – ينظر الملحق رقم (06)، ص .509.

[3] – مُحمَّد العيد تيته: **العلاقات بين الإقليم الصَّحراوي للمغرب الأوسط وبلاد السودان خلال الفترة (3هـ–9م/9هـ–15م)**، أطروحة مُقدَّمة لنيل شهادة الدُّكتوراه(**L.M.D**) تخصص: تاريخ المغرب الأوسط وحضارته في العصر الوسيط، إشراف: يوسف عابد، كلِّيَّة الآداب والحضارة الإسلاميَّة، قسم التَّاريخ، جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة، الجزائر، 2020. 2021م، ص.108.

الصَّحراء خمسين يوماً إلى مدينة "وارجلان" ومنها إلى "القيروان" سبعة أيّام»[1]. ويرى "ليفتسكي" أنَّ هذا المسلك «الأكثر أقدمية والطَّريق المباشر الذي يربط "وارجلان" و بواسطتها كامل المغرب الأوسط ببلاد السُّودان ويرجح بأنَّه كان يمرُّ بمدينة "**القليعة**" و"**قلعة البكري**" ثمَّ يتجه إلى مدينة "**عين صالح**" ومنها إلى جبال "مويدير" بالهقار ثم "أبلسة" و"تين زاواتين" وصولا إلى تادمكة.[2]

تنزل القوافل التَّجاريَّة في مدينة "تادمكة" بعد خمسين يوما مُوغلة في القِفار والمفازات، وتقع "تادمكة" في شمال شرق "كوكو" في الجهة الجبليَّة لأدرار "أفوغاس" في الموضع المُسمّى "**بخراب السُّوق**"[3]، ويذكر "البكري" بأنَّها «**أحسن بناء من مدينة "غانة" ومدينة "كوكو" ودنانيرهم تسمَّى الصَّلع لأنَّها ذهب محض غير مختومة**»[4] ويضيف "ابن حوقل" أنَّه في النِّصف الثَّاني من القرن (الرَّابع الهجري) كانت مدينة "تادمكة" يحكمها ملوك من "بني تانماك" وهم فرع من قبيلة "صنهاجة" أصلهم سُودان ابْيَضَّتِ بشرتهم وألوانهم لقُرْبهم من الشَّمال وبُعدهم عن أرض "كوكو".[5]

ومن الواضح أنَّ "تادمكة" قد أدَّت دوراً كبيراً ومُهمّاً في الحركة التِّجاريَّة منذ وقت مبكر ربما قبل القرن(3هـ/9م) نظراً لوقوعها على الطَّريق الأوسط عبر الصَّحراء الكبرى، لذلك استقرَّ بها العديد من التُّجَّار المغاربة[6].

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.182.

[2] – Lewiciki: : op, cit, p.32 – 35.

[3]– Maumy (R): **Tableau géographique de l'ou est africain au moyem age d'après les sources écrites**, tradition et l'ar chéalogie, ifam dakar, 1961, pp117–118.

نقلا عن: مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.109.

[4] – البكري: المصدر نفسهص.181.

[5] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.105.

[6] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.146.

فأغلب سكَّانها كانوا برابرة مسلمون وهذا وفق ما صرَّح به "ابن" سعيد بأنَّ «أهلها برابرة مسلمون يكثرون من التِّجارة والسَّفر إلى بلاد السُّودان»[1].

ويبدو لي أنَّ "تادمكة" كانت مركزاً لاستقطاب التُّجَّار الإباضيَّة، بحسب ما أفادتنا به كتب التَّراجم الإباضيَّة عن سفر عدد من المشايخ الإباضيَّة من "وارجلان" إلى "تادمكة"، منهم" **أبو صالح الياجراني**"، الذي صنَّفه الدِّرجيني من علماء الطَّبقة الثَّامنة، كانت له تجارة مع "تادمكة"، وذكر عنه «أنَّه جلب من إبله أبعرة إلى "وارجلان" للبيع فاشترى وارجلاني منها بعيراً، فلمّا أراد أنْ ينقده الثَّمن قال له: إنَّ ثمن جملك في "تادمكة"».[2]

وأشار "الوسياني" إلى تاجر إباضي آخر من أهل "قسطيلة" يُسمَّى "**تملي الوسياني**" كان كثير السَّفر إلى "تادمكة" للتجارة، فكان يرسل إلى "قسطيلة" كل سنة ستَّة عشر كيسا من المال يحتوي كل كيس على خمسمائة دينار ذهبي لتنفق على المحتاجين.[3]

أمَّا عن مدينة "كوكو" فيرى "اليعقوبي" «بأنَّها من أعظم ممالك السُّودان وأجلَّها قدراً وأعظمها أمراً لذلك فإنَّ كلُّ الممالك تُدين لملكها بالطَّاعة، وأنَّ مملكة "كوكو" اسم المدينة ذاتها وتوجد عدَّة ممالك أخرى يخضعها ملوكها لملك "كوكو" منها مملكة "**المرو**" ومملكة "**مردية**"».[4]

---

[1] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.115.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.374 – 375.

[3] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.552.

[4] – أحمد بن أبي يعقوب: **تاريخ اليعقوبي**، تق: مُحمَّد صادق، منشورات المكتبة الحيدريَّة، النَّجف، ط.1، 1964م، ج.1، ص.168.

ويذكر "الزُّهري" في كتابة "الجغرافيا" بأنَّ مدينة "كوكو" «تدخل إليها القوافل من أرض "مصر" ومن وارجلان، و يدخل قليل من المغرب على مدينة "سجلماسة"».[1]

وفي نصِّ "الإدريسي" ما يؤكِّد وجود أهل "وارجلان" بمدينة "كوكو" خلال القرن(6هـ/12م، حيث قال: «في أرض "كوكو" العود المسمى بعود الحيَّة ومن خاصته إذا وضع على جُحْر الحَيَّة خرجت إليه مُسْرعة ثمَّ إنْ ماسك هذا العود يأخذ من الحيَّات ما شاء بيده من غير أنْ يدركه شيء من الجزع... والصَّحيح عند أهل المغرب الأقصى وأهل وارجلان أنَّ ذلك العود إذا أمسكه ماسك بيده أو علَّقه في عنفه لا تقربه حيَّة البته».[2]

هذا الكلام يُوضِّح لنا أنَّ مدينة "كوكو" سجَّلت حضوراً للتُّجار المغاربة من أهل "وارجلان" و"المغرب الأقصى"، ولعل في إشارة "ليفتكسي" ما يؤكد هذا الحضور إذ يشير «بأنَّ "ابن البيطار" عثر أيضاً على نفس النبات ينمو بوفرة جنوب مدينة "قسنطينة"»[3]، فلا بُدَّ أنَّ تُجَّار "وارجلان" الذين كانوا على تواصل مع تُجَّار "قسنطينة" قد نقلوه إلى المنطقة فأصبح عود الحَيَّة ينبت لديهم.

ويحدِّد "البكري" المسافة بين "تادمكة" و"كوكو" بتسع مراحل[4]، ويشير "**الزُّهري**" إلى مسلك آخر يربط بين مدينة "كوكو" والبلدان الواقعة أعالي جنوب المغرب، منها: مصر، سجلماسة، وارجلان، غانة.[5]

ومن الواضح أنَّ مدينة "كوكو" قد حافظت على مكانتها كمركز تجاري مُهمٍّ خلال القرن (10هـ/ 16م) بحيث يصف لنا "الوزَّان" المدينة بقوله: «"كاغو" مدينة عظيمة...

---

[1] – الزُّهري: المصدر السَّابق، ص.123.

[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.29.

[3] – Lewicki: op, cit, p.33.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.183.

[5] – الزُّهري: المصدر انفسه ، ص.137.

سُكَّانها تُجَّار أغنياء يتجوَّلون دائما في المنطقة بسلعهم، يأتي إليها عددٌ لا يُحصى من السُّود حاملين معهم كميَّة وافرة من الذَّهب ليشتروا به أشياء مُسْتوردة من بلاد البربر و "أوروبا"...».[1]

3 – 1 – 2 – وارجلان – غانة: إلى جانب مسلك "وارجلان" إلى "تادمكة" إلى "كوكو"، هنالك مسلك آخر يربط "وارجلان" بأسواق السُّودان الغربي وهو مسلك "وارجلان" إلى "غانة" والذي يَتزامن في حركته التِّجاريَّة مع المسلك الأوَّل، ولقد وُصِف هذا الطَّريق بطريق الذَّهب لكونه ينتهي عند "**ونقارة**" التي تبعد عن "غانة" بمسيرة أيَّام[2]، أين يتمُّ جمع الذَّهب في شهر "أغشت" أيْ "أوت" بعد جفاف ماء الفيضان ويشتري أكثره أهل "وارجلان"[3]، وظلَّ هذا الطَّريق مُستعمل حتى بعد سقوط امبراطوريَّة "غانة" سنة(638هـ/1240م)[4]، واستمر نشاطه إلى القرن(13هـ/19م)، وينطلق في مساره من "وارجلان" إلى "**المنيعة**" ومنها إلى "**تنجورارين**" ثمَّ "**تمنطيط**"، و منها إلى "**تغازة**" ثمَّ "**ولاته**"، ومنها إلى "**أوداغشت**" أين تلتقي بقوافل "سجلماسة" المغربيَّة وتقطع خلالها واحد و ثلاثين مرحلة[5]، و يقدِّر "البكري" المسافة بين "سجلماسة" و"أودغشت" بإحدى وخمسون مرحلة، وفي موضع آخر يذكر أنَّ المسافة بينهما مسيرة شهرين[6]

أمَّا المسافة بين "أودغشت" و"غانة" فهي ثلاثة عشرة مرحلة، وبين "أودغشت" و"وارجلان" إحدى وثلاثون مرحلة.[7]

---

[1] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.169.

[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.24. **وينظر**، أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان**، ص.69.

[3] – الإدريسي: المصدر نفسه، مج.1، ص.24.

[4] – عبد القادر زباديَّة: المرجع السَّابق، ص.20

[5] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان**، ص.69.

[6] – البكري: المصدر السَّابق، ص.159.

[7] – البكري: المصدر نفسه، ص175.

ولم تمكِّننا المصادر المتاحة من تحديد تاريخ واضح لظهور التُّجَّار المغاربة الإباضيَّة في "غانة"، و أوَّل إشارة بخصوص هذا الشَّأن نجدها عند "الشَّمَّاخي" في "**السِّير**" حيث أشار إلى أنَّ الشَّيخ "**أبا موسى هارون بن أبي عمران الوسياني**" قد مرَّ على "وارجلان" قاصدا "غانة"، ويضيف "الشَّمَّاخي" في موضع آخر إلى تاجر إباضي آخر يدعى: "**عمران بن مُحمَّد بن رستم**"، سافر إلى "غانة" مروراً بـِ"وارجلان"[1]

ولم تُفْصح لنا المصادر الجغرافيَّة على طبيعة المبادلات التِّجاريَّة بين "وارجلان" و"غانة" على الرُّغم من إشارتها إلى علاقة المدينتين، فـ"البكري" يُشير إلى أنَّ مُعظم سُكَّان "أودغشت" إحدى مراحل الطَّريق الذي يربط "وارجلان" بـِ "غانة"، من أهل "إفريقيَّة" و"برقجّانة" و"نفوسة" و"زناته" و"نفزارة".[2]

ومن المُحْتمل أنْ يكون هؤلاء قد وصلوا إلى "أودغشت" عبر الطَّريق الذي يمرُّ على "وارجلان" ويبدو لي أنَّ الرَّقيق هو البضاعة التيّ يُمْكن لأهل "وارجلان" الحصول عليها عبر "غانة" خاصة إذا علمنا أنَّ الطَّريق يمرُّ على مواطن قبيلة(**أميمة**) التي كانت تتعرض كلَّ سنة للهجوم من طرف "غانة" لاقْتِناص أهلها وبيعهم في سوق "الرَّقيق"، ومن الممكن أنْ يكون الرَّقيق هو البضاعة الوحيدة التي تقدِّمها قبائل(**أميمة**) مُقابل الحصول على البضائع المغربيَّة[3]، فهم أفقر سُكَّان السُّودان الغربي، وصفهم "ابن خلدون" قائلاً: «هم كفار يَكْتَوون في وجوههم وأصْداغِهم، وأهل "غانة" و"التُّكرور" يُغِيرون عليهم، ويَسْبُونهم ويبيعونهم للتُّجَّار فيجلبونهم إلى "المغرب" وكلُّهم عامة رقيقهم، وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلاَّ أناس أقرب إلى الحيوان العجم من المناطق».[4]

---

[1] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.127.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[3] – مسعود مزهوري: المرجع السَّابق، ص.150 – 151.

[4] – إبن خلدون: **المقدِّمة**، ص.59.

أمَّا مدينة "غانة" فهي ملتقى للطرق التِّجاريَّة الصَّحراويَّة، وصفها "الحموي" في معجمه «بأنَّها مدينة كبيرة في جنوب بلاد التِّبر ولولاها لتعذَّر الدُّخول لأنَّها في مَوْضِع مُنْقَطع عن الغرب عند بلاد السُّودان فمنها يتزودون بالمؤن».[1]

3 – 1 – 3 – وارجلان – غيارو: يبدو أنَّ رغبة التُّجَّار المغاربة في الحصول على الرِّبح الوفير قد دفعتهم إلى التَّوغُّل داخل السُّودان الغربي والوصول إلى أقصى مكان فيه، خصوصاً وأنَّ نقل السِّلع إلى الأماكن البعيدة يكون ذا فائدة أكبر للتُّجَّار وهذا ما أقرَّه "ابن خلدون" في قوله «إنَّ نقل السِّلع من البلد البعيد المسافة أو في شدَّة الخطر في الطُّرقات يكون أكثر فائدة للتُّجُّار وأعظم أرباحاً وأكفل بحوالة الأسواق لأنَّ السِّلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزَّة لبُعِد مكانها أو لشدَّة الغرر في طريقها فيقلُّ حاملوها ويعزُّ وجودها وإذا قلَّت وعزَّت غلت أثمانها...»[2]، ولهذا لم يكتفِ التُّجَّار المغاربة بما فيهم تُجَّار الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط بالوصول إلى "غانة" وإنَّما تجاوزوها إلى داخل السُّودان وتحديداً إلى مدينة "غيارو"؛ التي بها أجود أنواع الذَّهب بحسب رواية "البكري" «أفضل الذَّهب ما كان في مدينة غياروا»[3]، ومن أبرز التُّجَّار الذين وصلوا إلى مدينة "**غيارو**" الشيخ "**أبو موسى هارون بن أبي عمران الوسياني**" الذي أشرنا إليه سابقاً، ومدينة "**غيارو**" تُدين لمملكة "غانة" ويُقدِّر "البكري" المسافة بينهما بمسيرة ثمانية عشر يوماً في بلاد معمورة بقبائل السُّودان ومساكن مُتّصلة، أمَّا عن مسار الرِّحلة فيقول: «أمَّا الطَّريق من "غانة" إلى "غياروا"، فإلى مدينة "سامقندى" أربعة أيّام... ومنها إلى بلد يسمَّى "طاقة" يومان... ومنها إلى بلد يقال له "غرتيل"... ومن "غرتيل" إلى "غياروا")».[4]

---

[1] – الحموي: المصدر السَّابق، مج.4، ص.184.

[2] – إبن خلدون: **المقدِّمة**، ص.360.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.176.

[4] – البكري: المصدر نفسه، ص.176 – 177.

ويُزوِّدنا "الإدريسي" بتفاصيل أكثر حول مسار الرِّحلة التي أقرَّها "البكري" فيذكر « أنَّ مدينة "سامقندة" هذه مدينة لطيفة على ضفة البحر الحلو، ومنها إلى مدينة "غربيل" تسعة أيام... ومدينة "غربيل" هذه على ضفة البحر الحلو وهي مدينة لطيفة القدر... ومن مدينة "غربيل" مع "المغرب" إلى مدينة "غيارة" إحدى عشرة مرحلة، ومدينة "غيارة" هذه على ضفَّة النِّيل وعليها حفير دائرٌ بها، وبها خلق كثير وفي أهلها نجدة ومعرفة وهم يُغِيرُون على بلاد "**لملم**" فيسبونهم ويأتون بهم ويبيعونهم من تُجَّار "غانة" وبين "غيارة" وأرض "**لملم**" ثلاث عشرة مرحلة... وجملة هذه البلاد التي ذكرناها في طاعة صاحب "غانة" وإليه يُؤدون لوازمهم وهو القائم بحمايتهم».[1]

وقد إمتهن أهلُ "غيارو" السَّبْيَ على غرار تُجَّارة الذَّهب حيث كانوا يُغِيرون على بلاد "**لملم**"، وهذه البضاعة تحتل المرتبة الثَّانية من حيث الأهميَّة بعد الذَّهب، بالنِّسبة لتُّجَّار المغرب الأوسط.

وعلى غرار حاضرة "وارجلان" التي عَرفت حركة تجاريَّة نشطة مع بلاد السُّودان الغربي، فقد عرفت حاضرة "توات" هي الأخرى نشاطاً تجارياً مُزْدهراً مع بلاد السُّودان إذْ تعدُّ من أهمِّ المراكز التِّجاريَّة التي يقصدها التُّجَّار، ولقد ساهم في ازدهارها التِّجاري التَحوُّلات التي طرأت على محاور التِّجارة، بفعل انعدام الأمن على طول الطَّريق التِّجاري الغربي الرَّابط بين المغرب الأقصى وبلاد السُّودان، وعليه فقد شهد مسلك "توات" باتجاه مدن السُّودان الغربي ازدهاراً ونشاطاً منذ القرنين(8 – 9هـ/14–15م)[2]، وقد برزت عِدَّة مراكز تجاريَّة سُودانيَّة كانت قبلة للتُّجَّار التُّواتيين ينزلون بها وسنتطرق فيما يلي إلى أهمِّ المسالك إلى بلاد السُّودان انطلاقا من "توات"[3].

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.25 – 26.

[2] – حسن حافظي علوي: **سجلماسة واقليمها**، ص.371.

[3] – ينظر الملحق رقم (07)، ص.510.

3 – 2 – 1 – توات – تاكدة: سلك هذا المسلك "ابن بطوطة" خلال عودته من مملكة "مالي" بعد أنْ اجتمع بسلطانها، فـِ"ابن بطوطة" أثناء تواجده بـِ"تاكدة" أتاه الأمر من العاهل المغربي بالوصول إلى حضرته فجهزَّ نفسه، واتخذ طريق "تاكدة" إلى "توات" للوصول إلى "فاس" وذكر "ابن بطوطة" في رحلته تفاصيل مُهمَّة حول محطَّات هذا الطَّريق في قوله «خرجت من "تكدا" يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين في رفقة كبيرة... فوصلنا إلى "كاهر" من بلاد السُّلطان "الكرْكرى"... وهي مسيرة ثلاثة أيَّام... ثمَّ سرنا بعد ذلك مسيرة خمسة عشرة يوما... وصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق "غات" الآخذ إلى ديار "مصر" وطريق "توات"... وسرنا من هناك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد "هكار"... وسرنا في بلاد "هكار" شهراً... ووصلنا بلاد "برابر"... ثمَّ وصلنا إلى "بُودا" وهي أكبر قرى "توات"».[1]

وتعتبر بلاد "الهقار" مفترق طرق حيث كانت واحة "عين صالح" المُتحكِّم الرَّئيسي للقوافل التِّجاريَّة الآتية من "وارجلان" عبر "**القليعة**" والوصول إليها، والقوافل الآتية من "توات" عبر بلاد "البرابر"[2]، وفي احدى محطَّات هذا الطَّريق المُسمَّاة "كاهر" أشار "ابن بطوطة" بأنَّها «أرض كثيرة الأعشاب، يشترى النَّاس من برابرها الغنم، ويُقدِّدون لحمها، ويحمله أهل "توات" إلى بلدانهم»[3] ويبدو أنَّ "كاهر" كانت سوق رائجة للحوم الغنم، ومنها يَتزوَّدُ أهل "توات" باللحوم المُقدَّدة إلى بلادهم.

3 – 2 – 2 – توات – ولاته: تعدُّ "ولاته" من أبرز المراكز التِّجاريَّة بالسُّودان الغربي حيث اتخذها مؤسسو شركة "**المقرِّي**" التِّجاريَّة مركزاً تجارياً لمعرفة أحوال السُّوق والسِّلع المطلوبة وأسعارها في بلاد السُّودان.[4]

---

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.713.

[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.127.

[3] –ابن بطوطة: المصدر نفسه، ،ج.2، ص.712.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع نفسه، ص.127.

ولقد سجل لنا "**لسان الدِّين بن الخطيب**" كيفيَّة العمل في هذه الشَّركة التِّجاريَّة وعنه نقل "المقرِّي" مادّته بخصوص هذا الشَّأن مع بعض الإضافات التي لا تخلو من فائدة والمقرِّيُون في نصِّ "الإحاطة" خمسة أخوة شركاء في العمل التِّجاري انقسموا على المحطَّات التِّجاريَّة الكبيرة على طريق (تلمسان – مالي) عبر سجلماسة. ويتضحُ ذلك في قول "ابن الخطيب": «و كان ولد يحيى الذي كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال فعقدوا الشَّركة بينهم فيما مَلكوه، وفيما يملكونه على السَّواء بينهم والاعتدال وكان أبو بكر ومُحمَّد وهما أورمتا النَّسبي من جميع الجهات الأمُّ والأبُّ بِـ"تلمسان" وعبد الرَّحمان وهو شقيقهما الأكبر بِـ"سجلماسة"، وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهما الصَّغيران بِـ"إيوالاتن"[1]، ويتمُّ الاتصال بينهما عبر المُراسلات لأنَّ المُقيم بِـ"سجلماسة" كان يبعث إلى إخوانه في "تلمسان" و"ايوالاتن" قائمة بأسماء السِّلع المرغوب جلبها، وقائمة السِّلع غير المرغوب فيها».[2]

3 – 2 – 3 – توات – تغازى – تمبكتو: تعتبر "تمبكتو" من أهمِّ حواضر السُّودان الغربي التي يقصدها تُجَّار المغرب، لاسيما تجار المغرب الأوسط، فهي ملتقى القوافل البريَّة، وعن نشأتها يذكر "**السَّعدي**" في تاريخه «بأنَّها نشأت على أيدي "توارق مقشرن" في أواخر القرن(5هـ/11م) فنزلوا فيها راتعين... ثمَّ أخذ النَّاس يسكنون فيها بقدرة الله تعالى وارادته في العمارة ويأتيها النَّـــاس من كلِّ جهة و مكان، حتى صارت سوقاً للتجارة».[3]

و"ابن خلدون" خلال حديثه عن حاضرة "توات" أشار «بأنَّها على ثلاثة مراحل قبلة "سجلماسة" و يُسمَّى وطن "توات"، وفيه قصور مُتعدِّدة تُناهز المائتين، آخذة من

---

[1] – لسان الدِّين بن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح: مُحمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.1، 1974م، مج.2، ص.192.

[2] – حسن حافظي علوي: **سجلماسة وإقليمها**، ص.369.

[3] – عبد الرَّحمان السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.127.

المشرق إلى المغرب وآخرها من جانب المشرق يُسمَّى "تمنطيط" وهو بلد مستبحر العمران وهو محطُّ ركاب التُّجَّار المُتردِّدين من "المغرب" إلى بلد "مالي" من السُّودان لهذا العهد، ومن بلد "مالي" إليه».[1]

أمَّا عن "تمبكتو" فيذكر التَّاجر الجنوي "مالفنتي" بأنَّها: «عبارة عن محطَّة تجاريَّة في بلاد البربر تحتوي على خمسين مائة إلى مائتين قرية... المُسافرون الذين يمرُّون يُصْبحون على الفور زبائن عند رؤوساء الأحياء... وكذلك السِّلع تكون مَحْميَّة بكاملها ويمكن القول وبكلِّ أمانة هي من كُبْريات الدُّول الملكيَّة مثل: "تلمسان" و"تونس"».[2]

أمَّا "الوزَّان" فقد وصف "تمبكتو" بأنَّها «عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوكة بالطِّين ومسقوفة، بالتِّين وبها دكاكين كثيرة للصُّنَّاع والتُّجار، لاسيما دكاكين نسَّاجي أقمشة القطن، وتصلها أيضا أقمشة "أوروبا" يحملها تجار بلاد "البربر"»[3]، ولابُد وأنَّه كان لتُّجَّار "توات" نصيبٌ وافر في هذه التِّجارة خاصة وأنَّ هذه الأخيرة كانت تربطها علاقات تجاريَّة مع "**تلمسان**" التي اشتهرت بصناعة الصُّوف حيث كان «يُعمل فيها من الصُّوف كلَّ شيء بديع ويوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواقٍ و نحوها».[4]

كما انتشرت بها أيضاً معامل ضخمة لحياكة الصُّوف، وقد اشتهرت أسرة "عبد الله بن التُّجَّار" بامتلاكها لمعامل ضخمة لحياكة الصَّوف الرَّفيعة بـِ"تلمسان" و كانت ترده التُّجَّار من كلِّ بلاد "أفريقيا" والسُّودان الغربي بعد أنْ طوَّر الصِّناعات النَّسيجيَّة ونمَّاها.[5]

---

[1] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.76 – 77.

[2] – De la romciere (CH): **Découverte D'une Relation De voyage Datée Dutouat et Décrivant en 1447 le Bassin Du Niger**, imprinerie matio males paris,1918, p.29.

[3] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.165 – 166. .

[4] – الزُّهري: المصدر السَّابق، ص.113.

[5] – مُحمَّد بن مرزوق التِّلمساني: المصدر السَّابق، ص.188.

وإلى جانب ذلك فقد إمتهن سُكان مينائها البحري "هُنين"[1]، تجارة القطن والمنسوجات وقد سجَّلت "تمبكتو" حضوراً معتبراً للجالية المغربية بهـــا، خـاصة التُّواتيين منهم، وهذا ما أشار إليه "**السَّعدي**" في تاريخه[2]، فإقبال المغاربة عليها يُوحي بأنَّها كانت مركزاً تجارياً مُهمًّا وسوق رائجة.

أمَّا "تغازى" فهي محطَّة يُجلب منها الملح إلى بلاد السُّودان، حيث يستخرج منها الملح بكميَّات كبيرة، وهذا ما أشار إليه "البكري" قائلاً: «من غرائب تلك الصَّحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى بينه وبين "سجلماسة" مسيرة عشرين يوما... ويُقطع كما تقطع الحِجارة و يُسمَّى هذا المعدن "**تاتنتال**" وعليه حصن مبني بحجارة الملح وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كلٌّ ذلك ملح، ومن هذا المعدن يُتَجهَّزُ بالملح إلى "سجلماسة" و"غانة" وسائر "السُّودان"».[3]

3 – 2 – 4 – توات – كوكو: تعتبر "كوكو" من المدن السُّودانية التي تقصدها قوافل تُّجار المغرب الأوسط القادمون إليها من "توات"، وعرفت هذه المدينة حركة تجاريَّة نشطة حيث مكَّنَها موقعها الجغرافي من ذلك، إذْ تقع على الطَّرف الجنوبي من طرق تجارة الصَّحراء، وهو ما سمح لها بأنْ تكون حلقة وصل لتبادل سلع الغرب الافريقي وجنوب الصَّحراء مع شماله، وهذا ما أشار إليه "الإدريسي" بقوله: «**وهي في رصيف طريق الوارد عليها والصَّادر كثير**».[4]

---

[1] – **هُنين:** مدينة صغيرة قديمة بناها الأفارقة، وهي أنيقة للغاية، لها ميناء صغيرة محروس ببرجين كلٌّ واحد منهما في جهة، وتحيط بها أسوار عالية متينة لاسيما من جهة البحر. **ينظر**، الحسن الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.15.

[2] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.127.

[3] – البكري: المصدر السَّباق، ص.171.

[4] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.312.

وفي نصِّ "الوزَّان" ما يؤكد قول "الإدريسي"، حيث أقرَّ بوجود سلع مستوردة من قبل تجَّار بلاد "البربر" و"أوروبا" بقوله: «ويأتي إليها عدد من السُّود حاملين معهم كميَّة وافرة من الذَّهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد "البربر" و"أوروبا"».[1]

ويبدو أنَّ هؤلاء التُّجَّار الذين أشار لهم "الوزَّان" بـِ"البربر" والتُّجَّار الأوروبيين، قد مَرُّوا بـِ"توات" حتَّى وصلوا "كوكو"، خاصة وأنَّ هذا المسلك قد عرف نشاطاً ملحوظا خلال القرنين (الثَّامن والتَّاسع الهجريين) بعد أنْ تراجع دور "سجلماسة" الحضاري.

أمَّا عن مراحل الطَّريق فإنَّه ينطلق من "توات" عبر "تغازى" ثمَّ "ولاته" وبعض القرى حتى يصلوا إلى "مالي" ثمَّ "تمبكتو"، ولقد أشار "ابن بطوطة" أنَّه ركِب النِّيل – يقصد نهر النَّيجر حالياً – في مركب صغير من تمبكتو حتّى وصل إلى مدينة "كوكو" حيث يقول: «ومن "تمبكتو" ركبت النِّيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة، و كنَّا ننزل كلَّ ليلة بالقرى ثمَّ وصلت إلى بلد نسيت اسمه... ثمَّ سرت إلى مدينة "كوكو"».[2]

وقد التقى "ابن بطوطة" بالعديد من المغاربة الذين استقرُّوا بـِ"كوكو" منهم "**مُحمَّد بن عمر**" من أهل "**مكناسة**"، والفقيه "**مُحمَّد الفيلالي**" إمام مسجد البيضان[3]. ولا نستبعد في أنْ يكون هناك تواجد للجاليات من صحراء المغرب الأوسط، خاصة التُّواتيين منهم، وإنْ كانت المصادر لم تفصح عن ذلك، إلاَّ أنَّ ازدهار ونشاط مسلك "توات" باتجاه مُدن السُّودان الغربي خلال القرنين (الثَّامن والتَّاسع الهجريين/الرَّابع عشر والخامس عشر الميلاديين) يجعلنا لا نستبعد ذلك .

[1] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.169.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق،ج.2، ص705.

[3] – ابن بطوطة: المصدر نفسه ،ج.2، ص709.

4)- المبادلات التِّجاريَّة "الصَّادرات والواردات":

بما أنَّ التِّجارة كانت تتمُّ عبر الصَّحراء، والتي بها مفازات غفار، فلا شكَّ أنَّ طُرقها محفوفة بالمخاطر والعوائق الطَّبيعيَّة منها والبشريَّة، والتي قد تؤدي أحيانا لهلاك القافلة بأكملها، فكان لزاماً على سالكي تلك الطُّرق أنِ تكون سلعهم المنقولة تتلاءم مع ظروف السَّير وأنْ تتوفَّر فيها جملة من المعايير والشُّروط أشار إلى بعضها "**ابن خلدون**" في "**مقدمته**" «**كأنّ تكون تلك السّلع المنقولة قليلة العوز نظرا لبعد مكانها و شدَّة الغرر في طريقها، فيقلُّ حاملوها ويعزُّ وجودها، فإنْ قلَّت وعزَّت غلت أثمانها**»[1].

كما يجب أيضاً أنْ تكون السِّلع المنقولة خفيفة الوزن ولا تكون سريعة التَّلف وغالية الثَّمن[2]، فهل توفَّرت تلك المعايير في السِّلع التيّ كان يَنْقلها التُّجَّار المغاربة لبلاد السُّودان، وماهي أهمُّ صادراتهم و واردتهم؟

4 – 1 – صادرات حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة نحو بلاد السُّودان:

تنوَّعت وتباينت السِّلع والمُنْتَجات التي ينقلها التُّجَّار المغاربة نحو بلاد السُّودان، فمنها ما هو مغربي ومنها ما هو مشرقي، بالإضافة إلى السِّلع والبضائع القادمة من وراء بحر الرُّوم، وفيما يلي: أهمُّ السِّلع التي كانت تُصدَّر نحو بلاد السُّودان.

4 – 1 – 1 – الملح: يُسمَّى بالمعدن الأبيض، ويعدُّ من أهمِّ السِّلع التي يكثُر عليها الطَّلب في بلاد السُّودان، لكون هذه المادة الحيويَّة عنصراً أساسياً في نمو جسم الإنسان والوقاية من بعض الأمراض[3]، فهو يعمل على موازنة كميَّة الماء في الجسم

---

[1]- ابن خلدون: **المقدّمة**، ص.360.

[2] – مادهو يانيكاز: **الوثنية والإسلام تاريخ الامبراطوريَّات الزِّنجيَّة في غرب إفريقيا**، تر: فؤاد بلبع، منشورات المجلس الأعلى للثَّقافة، القاهرة، ط.2، 1998م، ص.377.

[3]- موريس لومبار: **الجغرافيَّة التَّاريخيَّة للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى**، تر: عبد الرَّحمان حميدة: دار الفكر، دمشق، ط.1، 1998م، ص.248.

والخلايا التي يتكون منها أعضاء الجسم فهو مُهِمٌّ لعمليَّة التَّمّثيل الغذائي في الخليَّة بالإضافة إلى أنَّه مادة أساسيَّة ومُهِمَّة في حفظ اللحوم و الأسماك فهو أفضل حافظ غذائي، وإلى جانب أهميَّته، فالملح له دوراً بارزاً في تشكيل ميثولوجيا الشُّعوب قاطبة ويميل كثير من شعوب الأرض إلى الاعتقاد بأنَّ الأرواح الشِّريرة لا تتحمَّل الملح الذي يقدر على طرد تلك الأرواح.[1]

ونظرا لأهميته فقد كان في مُقدِّمة السِّلع التي يتمُّ تصديرها للسُّودان، حيث تعكف القوافل على جلبه من مَلَّاحة "**أوليل**" الواقعة على مسافة شهر واحد من "**أودغشت**" وشهر ونصف من مدينة "سجلماسة"[2].

وسبق وأنْ أشرنا إلى حضور تُّجَّار حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة بـِ"أودغشت" وبما أنَّ هذا المنجم يبعد مسافة شهر عن "أودغشت"، فإنَّه من الممكن حضورهم في المنطقة ومُتاجرتهم بالملح نحو "**غانة**" وبلاد "**كوكو**" القريبة من موقع "**أوليل**"، بالإضافة إلى وقوع ملح أوليل في الطَّريق الغربي، فـِ"البكري" يُشير إلى وجود معدن "**تانتال**" وهو عبارة عن حصن مبني بحجارة الملح، ويُتَجهز به إلى "**سجلماسة**" و"**غانة**" وسائر بلاد السُّودان، والعمل فيه مُتَّصل والتُّجَّار إليه مُتَسايرون وله غلَّة عظيمة[3]، ويصل وزن قطع الملح المصدرة إلى بلاد السُّودان بين 85 و 90 كلغ.[4]

---

[1] – ابتهال عادل إبراهيم وهشام سوادي هاشم: «**من صور التواصل الاقتصادي لطرق الحج بين العرب المسلمين وسكان افريقيا "تجارة الملح أنموذجا**»، طرق الحجِّ إلى إفريقيا، مركز البحوث والدِّراسات الإفريقيَّة، الخرطوم،2016م، مج.6، ص.4.

[2] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.91. **وينظر**، مُحمَّد بن عميرة: «**معدن ملح أوليل واستغلاله في العصر الوسيط**»، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، ع.9، صادرة عن الاتحاد العام للآثاريين العرب، القاهرة، 2008م، ص.115.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.171.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.171.

كما برزت مَلّاحة "**تغازى**" كمحطّة هامَّة يَشْحن منها التُّجَّار المغاربة الملح إلى بلاد السُّودان، خاصة بعد تراجع دور "سجلماسة" التِّجاري وبروز "توات" كمركز تجاري وتحوُّل المسلك التِّجاري نحوهاَ. كما أنَّنا لا نستبعد في أنْ تكون السِّباخ الموجودة بـِ"**وارجلان**[1] و"**أريغ**" نفسها أماكن تجميع الملح وبيعه أو تصديره إلى بلاد السُّودان ولرُبَّما في فتوى "**الشَّيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني**" ما يؤكِّدُ ذلك فالفتوى صدرت في حقِّ من سرق الملح من "وارجلان" وهو في السُّودان أنَّ عليه بردِّ قيمته أو إرجاعه إلى المَوْضِع الذي أخذه منه ونص الفتوى «**من غصب مالا قيمة له كمن غصب ملحاً في "وارجلان" فَقُدْر على الغاصب في بلاد السُّودان استأديناه الملح أو قيمته هنـــا فـــي هذا الموضع الذي قدر عليه فيه**».[2]

ولقد كانت قيمة الملح الشِّرائيَّة في بلاد السُّودان مُرْتفعة جدّاً إذ يُباع بوزنه ذهباً، وربَّما باعوه بوزنين أو أكثر[3]، وأشار "**ابن حوقل**" بأنَّ حِمل الملح في دواخل بلاد السُّودان وأقاصيه ربمَّا بلغ ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار[4]، وبلغت قيمته في القرن(7هـ/13م) مائة دينار[5]، وبلغ حمل الملح بـِ"إيولاتن" زمن "ابن بطوطة" من ثمانية إلى عشرة مثاقيل، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً.[6]

---

[1] – يشير "أحمد ذكار" وفقا لوكالة حوض الهيدروغرافي بـِ"ورقلة" التَّابعة لوزارة الموارد المائيَّة، إلى وجود عدَّة سبخات محيطة بها، وهي: بامنديل، الشَّط، الرّقب، وسيفون. **ينظر**، أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان** و**علاقاتها التِّجاريَّة**، ص.13.

[2] – أبو يعقوب يوسف الوارجلاني: المصدر السابق، ج.2، ص.103. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.172.

[3] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصَّحراء**، منشورات الدَّار المصريَّة اللبنانية، القاهرة، ط.1، 1999م، ص.328.

[4] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.98.

[5] – زكرياء بن مُحمَّد بن محمود القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ط.1، (د.س.ن)، ص.26.

[6] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.687.

ونظراً لندرة معدن الملح وصعوبة وصول الموجود منه إلى الدَّاخل، فقد عمد بعض ملوك السُّودان إلى وضع ضريبة عليه، فملك "غانة" فرض على تُجَّار الملح ضريبة تُقدَّرُ بدينار ذهب لكلِّ حمل يدخلُ مملكته، ودينارين لمن يريد إخراجه، وفي هذا الشَّأن يقول "البكري": «ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد ودينارن في إخراجه».[1]

ويتمُّ استخراج معدن الملح بحفر سراديب في الأرض بعمق قامتين أو دونها، ويقطع كما تقطع الحجارة[2]، و له عدَّة ألوان، منها: الرَّمادي والأبيض والأحمر.[3]

4 – 1 – 2 – التُّمور: تعتبر من أهمِّ السِّلع التي يتمُّ تصديرها نحو بلاد السُّودان وقد اشتهرت حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة بوفرة إنتاجه، وقد عمد تجار كلٍّ من "أسوف" و"أريغ" و"وارجلان" و"الزَّاب" إلى شراء كمِّيَّات كبيرة من التُّمور من الواحات القريبة "**كبلاد الجريد**"[4]، ثمَّ يقُومُون بتجميعها و من ثَمَّ تصريفها إلى أسواق بلاد السُّودان عبر المسالك التِّجاريَّة، منها: "تادمكة" و"كوكو" و"غانة"[5].

وعلى غِرار التُّمور فقد صدَّر التُّجار عسل التُّمور أيضاً، حيث عُثِر على بعض القُلَلِ التي كانت تستعمل في جمع العسل[6]، ولقد أشار "**ليثيو**" إلى اهتمام سكان "سدراته" بـِ"وارجلان" بصناعة الفخَّار.[7]

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.176.

[2] – البكري: المصدر نفسه، ص.171. **وينظر**، مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.214. **وينظر أيضاً**، الهادي مبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، المرجع السَّابق، ص.288.

[3] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.280.

[4] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.161.

[5] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.161.

[6] – مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.162.

[7] – Letheilleux: op, cit, p.54.

وفي رَدِّهِ عن كتاب ابن عمِّه الموجود بالمغرب في أنْ يترك "وارجلان" لأنَّها أرضُ فقر، أجاب الشَّيخ "**أبو صالح جنون بن يمريان**" بقوله: «يا ابن عمِّي أنت فعندنا أرض قَعدةُ رجلٍ تُحمِّل الجَمل عسل»[1]، وقد سجلَّ "الإدريسي" في مُصنَّفِه بأنَّ تُجَّار "وارجلان" كانوا يجلبون التَّمر إلى بلاد السُّودان بقوله: «وليس في بلاد السُّودان شيء من الفواكه الرَّطبة إلَّا ما يُجلب إليها من التَّمر من بلاد "سجلماسة" أو بلاد "الزَّاب" يجلبه إليهم أهل "وارجلان».[2]

4 – 1 – 3 – الأقمشة والمنسوجات القُطنيَّة والصُّوفيِّة والحريريَّة: كانت من ضمن السِّلع التي يصدرها التُّجار المغاربة، وكانت الأقمشة من أهمِّ السِّلع التي يَكثر عليها الطَّلب من قبل السُّودانيين، ولقد كانت تصل إلى "وارجلان" السِّلع القادمة من الشَّرق ومن "أوروبا"، ومن مُدن الشَّمال عبر شبكة الطُّرق التي تربطها، بالإضافة إلى القوافل القادمة من القيروان[3]، فـ"البكري" أشار إلى وجود طريق يربط "القيروان" بـِ"تادمكة" مرورا بـِ"وارجلان"[4]، ويُحمل من "وارجلان" الثِّياب المُصْبُغة بالحُمْرَة والزُّرْقة فـ"البكري" خلال حديثه عن أهل "تادمكة" يُشير إلى لباسهم بقوله: «يلبسون الثِّياب المُصْبُغة بالحُمْرة من القطن والنَّولى... وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصاً أصفراً وسراويلاً زرقاء»[5]، كما كان يُتَجَهَّزُ إلى أسواق "أودغشت" «بالثِّيات المُصْبُغَة بالحُمْرة والزُّرْقة مَجنَّة».[6]

4 – 1 – 4 – المصنوعات النُّحاسيَّة والحديديَّة: يتمُّ تصديرها من "وارجلان" إلى السُّودان وتضمُّ مجموعة من الأدوات الحديديَّة ذات الاستعمال الواسع، وكان يُصنع معظمها مَحلِّياً من قبل الحدَّادين والصُّنَّاع التَّقليديين وتشمل السَّكاكين، والسُّيوف،

[1] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.435.
[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.20.
[3] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.174.
[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.182.
[5] – البكري: المصدر نفسه، ص.181.
[6] – البكري: المصدر نفسه، ص.159.

والألجمة الخاصة بالأحصنة والدَّواب وأقفال المنـازل والفُؤوس والمَعَـاوِل[1]، بالإضـــافة إلى النُّحـــاس حيث كـان يُحمل إلى "**كوغة**" مُعظم النُّحاس المسبوك[2]، ويُتَّجهز إلى "أودغشت" بالنُّحاس المصنوع.[3]

4 – 1 – 5 – الجمال و الخيول: لم تكن وسائلاً للنقل فحسب وإنَّمَا كانت من ضمن السِّلع التي يتمُّ تصديرها إلى بلاد السُّودان، فكان بعض التُّجار الإباضيَّة يُتاجرون بالإبل وكانت أسعارها رخيصة حيثُ بلغ سعر الجمل ثمانية دنانير، وبيع في بعض الأحيان بأربعة وعشرين دينارا[4]، وكانت "تادمكة" سوقاً رائجاً لبيع الجِمال، وفي رواية "أبو زكرياء" ما يُوضح بأنَّها كانت سوق نافقة تُباع فيها الجمال بكثرة حيث روى قصَّة رجل لم يتمكن من بيع جمله بقوله: «**ما سمعنا بجمل رجع من "تادمكة" قطُّ إلى "وارجلان"**».[5]

أمَّا الخيول فكان الطَّلب عليها كبير وأثمانها باهضه، إذْ يَصل ثمن الحصان الواحد ما بين خمسة عشرة وعشرين عبدا، وفي "**جاو**" بلغ ثمنه خمسين مثقالاً وكانت "**جاو**" سوقاً رائجا لتجارة الخيول الأصليَّة مع سروجها.[6]

4 – 1 – 6 – الكتب: مثَّلت الكتب نوعاً من أنواع التِّجارة وكانت مناطق تصديرها الأساسيَّة "المغرب"، و"مصر"، و"الحجاز"، حيث كانت أثمانها مرتفعة[7].

فـ"الوزَّان" أشار في معرض حديثه عن مدينة "تمبكتو" «بأنّها تباع بها مخطوطات كثيرة يأتي من بلاد "البربر"، وتَدُرُّ أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع»[1]، وكانت تجارة الكتب

---

[1] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجارية**، ص.99.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.169.

[3] – البكري: المصدر السابق، ص.159.

[4] – مسعود مزهودي: المرجع انفسه، ، ص.162.

[5] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.313.

[6] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، ص.333.

[7] – الهادي المبروك الدالي: **التَّاريخ السِّياسي و الاقتصادي**، ص.329.

تلقى رواجاً ملحوظاً في المنطقة نظراً لانتشار العلم بها، ووجود منارات علميَّة[2] وقد ضَمَّت مدينة "تنبكتو" عدد كبير من القضاة والفقهاء والأئمة[3] .

ويذكر الباحث "**الهادي المبروك الدَّالي**" بأنَّه عثر على فتوى "**لمحمود بغيغ**" موجهة إليه من أحد أبناء السُّودان تقول: «من مات وخلَّف كُتباً هل يُجبر ورثته على بيعها إنْ لم يكن فيهم من يَصلُح لطلب العلم؟»، و كـــان الجواب أنَّهم لا يُجبرون على ذلك.[4]

4 – 1 – 7 – سلع أخرى: بالإضافة إلى ما سبق ذكره منَ السِّلع التي يتمُّ تصديرها إلى بلاد السُّودان، هناك سلع أخرى كماليَّة تَدخل ضمن باب التَّرف منها الفخَّار المطْلي والمُزخرف وأصناف الزُّجاج والأصْداف، والحُلِيِّ الذَّهبيَّة والفضيَّة، وعطور وبخور وأفاويح[5].

وبعض الأحجار الكريمة التي اشتهرت بها منطقة "فزَّان"، كما كانت الصَّحراء الفاصلة بين "غدامس" و"تادمكة" مصدراً للأحْجَار المُلوَّنة المختلفة الأحجام والألوان، وكانت تُباع في بلاد السُّودان بأغلى الأثمان[6]، وقد أشار إليها البكري بقوله: «... وبها معدن لحجارة تسمى "تاسى التسمت" وهي حجارة تشبه العقيق وربَّما كان في الحجر

=

[1] – الوزَّان: المصدر السَّابق،ج.2، ص.167.

[2] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، ص.330.

[3] – الوزَّان: المصدر السابق، ج.2، ص.167.

[4] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، ص.330.

[5] – مُحمد الطَّمار: **الرَّوابط الثَّقافيَّة بين الجزائر والخارج**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط.1، 2007م، ص.97. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.176.

[6] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، ص.331.

الواحد ألوان من الحُمرة والصُّفرة والبياض،... فإذا وصل به إلى أهل "غانة" غالوا فيه وبذلوا فيه الرَّغايب...».[1]

وتُعدُّ الفواكه المجفَّفَة، والودع، والمسابح، وأدوات الزِّينة، من السِّلع المطلوبة في الأسواق السُّودانيَّة وكانت تُوزَّع في جميع أرجاء بلاد السُّودان[2]، ناهيك على ما كَشفت عنه الحفريَّات التي تَمَّتِ في "أودغشت" وعُثِرَ فيها على بعض الأواني الزُّجاجيَّة كالكؤوس والمِزْهريَّات والمصابيح الزَّيتيَّة والتي صُنفت ضمن قائمة البضائع الكماليَّة التي جلبها أهل السُّودان من الشَّمال[3]، وكان الإقبال عليها كبير من قبل الطَّبقات الثَّريَّة.

4 – 2 – واردات حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة من بلاد السُّودان:

اشتهرت بلاد السُّودان بوجود بعض السِّلع والبضائع التي لا يمكن الحصول عليها إلَّا من مراكزها التِّجاريَّة وأسواقها، وقد اختَصَّت بوجود بضاعتين أساسيتين شكَّلتا عمود الاقتصاد في المغرب خلال الفترة محلُّ الدِّراسة، وهما: "**الذَّهب**" و"**الرَّقيق**"، ناهيك عن بعض السِّلع الأخرى التي لا تتوفَّر عليها حواضر الصَّحراء ويكثر عليها الطَّلب من قبل تُّجَّار مُدن التَّلِّ.وفيما يلي أهمُّ السِّلع التي كانت تُستوردُ من بلاد السُّودان:

4 – 2 – 1 – الذَّهب: احتلَّ معدنُ الذَّهب المراتب الأولى في حركة تجارة القوافل بين حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة وبلاد السُّودان[4]، وكـــان الذَّهب البضاعة

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.182.

[2] – إبراهيم علي طرخان: **امبراطوريَّة غانة الإسلاميَّة**، الهيئة المصريَّة العامة للتأليف والنَّشر، القاهرة، ط.1، 1970م، ص.65.

[3] – جميلة بن موسى: **تِجارة الذَّهب بين المغرب الإسلامي والسُّودان الغربي من القرن الثَّالث إلى الخامس الهجري، (9م–11م)**، رسالة مُقدَّمة لنيل شهادة الماجستير تخصص: تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف: إبراهيم فخار، قسم التَّاريخ، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة، جامعة الجزائر، الجزائر، 2001م، ص.180.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.176.

الأولى التي جذبت إليها التُّجَّار منذ عهد الفينيقيين والقرطاجيين، حيث تاجروا في الذَّهب مع بلاد السُّودان.[1]

وقد جذبت هذه التِّجارة انتباه الجغرافيين والرَّحَّالة العرب منذ القرن (الثَّالث الهجري التَّاسع الميلادي) وجمعوا عنها معلومات غزيرة، والمُلْفت للانتباه فيما جاء في المصادر العربيَّة هو حصرُ مصادر الذَّهب في منطقة السُّودان الغربي والتَّركيز على روافد نهري "السِّنغال" و"النِّيجر"[2]، ولقد عرفت العديد من مناطق السُّودان بتوفُّرها على كميَّات كبيرة من الذَّهب منها جزيرة "**ونقارة**" التي تبعد عن "مالي" بثمانية أيَّامٍ[3]. ومدينة "**غياروا**" التي وصف "البكري" ذهبها بأنَّه أفضل الذَّهب[4]، وكان لملك "غانة" وحدهُ اثني عشر معدناً يستخرج منها التِّبر، ويصف "ابن حوقل" أحوال "غانة" بقوله: «"وغانة" أيسرُ من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال المُدَخَرة من التِّبر المُثار على قديم الأيَّام للمتقدِّمين من ملوكهم».[5]

ويصفُ لنا "البكري" مجلس ملك "غانة" وتحلِّيَهُ بالذَّهب ما نصُّه: «و ملكهم يتحلَّى بِحُليِّ النِّساء في العنق والذِّراعين ويجعل على رأسه الطَّراطير المُذهَّبة عليها عمائم القطن الرَّفيعة وحتَّى الكلاب المنسوبة على باب القبَّة في أعناقها سواجير الذَّهب والفضَّة ويكون في السَّاجور(قلادة) عددٍ من رُمَّانات ذهب وفضة»[6]، وتحت يد ملك "غانة" عدَّة ملوك وممالك كلُّها فيها الذَّهب[7].

---

[1] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.169.

[2] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، ص.319.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.23. **وينظر**، شهاب الدِّين بن يحي العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2010م، ج.4، ص.60.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.176.

[5] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.101.

[6] – البكري: المصدر نفسه، ص.175 – 176.

[7] – علي بن الحسين بن علي المسعودي: **أخبار الزَّمان**، المكتبة الحيدريَّة، بغداد، ط.2، 1966م، ص.88.

وأغلب الذَّهب المَوجُود في أسواق "أودغشت"، و"كوكو"، و"غانة"، و"ونقارة" كان يُجلب إلى "وارجلان"[1]، ولعلَّ في رحلة حجّ سلطان "مالي" "**منسى موسى**" ما يؤكِّد لنا كثرة الذَّهب ببلاد السُّودان، فقد كان مع الملك "**منسى موسى**" ثلاثة آلاف شاب كلُّ واحد منهم يحمل منقاراً من الذَّهب، وهو الذي أنزل سعر الذَّهب في "القاهرة" بما حمله معه من ذهب وما أهدى منه، فقد خرج من بلده بمئة وسقِ جمل من الذَّهب.[2]

وقد كتب عددٌ من الجغرافيون والرَّحالة العرب عن ذهب السُّودان وعن طرق جمعه في روايَّـــــات عديدة تصل إلى درجة المبالغة في الكثير من الأحيان.[3]

ولقد أشارت بعض المصادر إلى احتكار ملوك السُّودان للذهب فهو مِلكٌ للسُّلطان تجمعه الرَّعيَّة ولا يُسمح لهم بأخذ شيء منه إلاَّ بإشرافه، وبخصوص هذا الشَّأن يذكر "البكري" «أنَّ ملك "غانة"... إذا وجد في جميع معادن بلاده النُّدرة من الذَّهب استصفاها الملك وإنَّما يترك منها للنَّاس التِّبر الرَّقيق و لولا ذلك لكثر الذَّهب بأيدي النَّاس حتى يهون».[4]

4 – 2 – 2 – الرَّقيق: تأتي تجارة الرَّقيق في المرتبة الثَّانية بعد تِجارة الذَّهب، ويجْنِي أصحابها أموالاَ طائلة، ويشير "موريس لومبار" إلى أنَّ هناك ثلاثة مستودعات كبرى لجلب الرَّقيق وهي: «"**بلاد الصَّقالبة** " وتحتلُّ الدِّرجة الأولى، وهي بلاد غابات "أوروبا

---

[1] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.168.

[2] – العمري: المصدر السابق، ج.4، ص.56.

[3] – تَعدَّدت روايات الجغرافيين والرَّحالة العرب حول الذَّهب ببلاد "السُّودان"، فـ"**ابن حوقل**" يذكر: «أنَّ الذَّهب ينبت ببلاد "غانة" في الرَّمل كما ينبت الجزر، ويقطف حين بزوغ الشَّمس». أمَّا "**العمري**" فقد أورد في رواية عن الملك "منسى موسى" ملك "مالي" بأنَّ الذَّهب يوجد على نوعين في زمن الرَّبيع عقب نزول الأمطار ينبت في الصَّحراء وله ورق شبيه بالنَّخيل أصوله التِّبر، والنَّوع الآخر يوجد في جميع السَّنة في أمكان معروفة على ضفاف مجاري النِّيل فتحفر هناك حفائر فتوجد أصول الذَّهب كالحجارة والحصى فيؤخذ، وكلاهما المسمَّى بالتِّبر، والأوَّل أفضل في العِيار و أفضل في القيمة **ينظر**، ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.87. **وينظر**، العمري: المصدر نفسه، ج.4، ص.68.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.177.

الوسطى" و"الشَّرقيَّة"، ثمّ "**بلاد الأتراك**" أو "**التُركستان**"، أيْ بلاد سهوب "آسيا الوسطى" وأخيرا "**بلاد السُّودان**" في مناطق السَّافانا وحافة، الإفريقيَّة».[1]

وقد استفادت حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة من هذه التِّجارة، حيث شكَّلت "وارجلان" و"توات" أحد أسواقه جراء الطَّلب المُتزايد عليها من طرف دول الشَّمال ولربَّما تكون الأراضي الزِّراعة الواسعة المحتاجة إلى الأيدي العاملة، وقصور الملوك ودُور الأغنياء وراء تزايد الطَّلب عليهم[2]، بالإضافة إلى الحروب والصِّراعات التي دارت رحاها على أرض المغرب الأوسط والتي كانت عامل مُهم وراء تزايد الطَّلب عليهم، وترى الباحثة "**جميلة بن موسى**" أنَّ العبد الافريقي قد جُعل عنصراً أساسياً في العديد من الحروب التي خاضها أمراء المغرب داخل المغرب وخارجه حيث استخدمهم الزِّيريون، والصَّنهاجيون، والمرابطون كرماة في حروبهم.[3]

أمَّا بخصوص مصدر هؤلاء العبيد، فقد شكَّلت مدينة "**كوار**" سوقاً رائجة لتجارة الرَّقيق، بهـا قوم من المسلمين من سائر الأحياء أكثرهم "بربر" يأتون إلى السُّودان[4]، وهذا "**أبو يعقوب يوسف الوارجلاني**" مع جماعة من بني "وارجلان" قادمون من "**كوّار**" في قافلة بها زُهاء ثلاثمائة رأس من الرَّقيق أو ينقص قليلا[5]، وكانت "**بلاد لملم**" مصدراً أيضاً لجلب الرَّقيق حيث يذكر "الإدريسي": «بأنَّ أهل "بريسي" وأهل "سلى" و"تكرور" و"غانة" يُغِيرون على "**بلاد لملم**" ويسْبُون أهلها ويجلبُونهم إلى بلادهم، فيبعونهم للتُّجَّار الدَّاخلين إليهم، ويخرج منهم في كلِّ عام إلى المغرب الأقصى أعدادٌ كثيرة».[6]

---

[1] – موريس لومبار: **الجغرافية التَّاريخيَّة**، ص.260.

[2] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.173.

[3] – جميلة بن موسى : المرجع السَّابق، ص.174.

[4] – اليعقوبي: **البلدان**، ص.183.

[5] – أبو يعقوب يوسف الوارجلاني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.282.

[6]– الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.19.

ويبدو أنَّ تجارة الرَّقيق كانت من أصعب أنواع التِّجارة، لما فيها من مسؤوليَّة كُبرى فصاحب هذه التِّجارة يتعب في أكلهم وسقائهم وإيوائهم وحمل المُتعب منهم، ومراقبة الآبق منهم، ومُداوة المريض منهم إذا اشتدَّ مرضه، وهذا ما نستشفه من رواية "الوسياني"، خلال حديثه عن الشَّيخ "**أبي مُحمَّد عبد الله بن مُحمَّد السِّدراتي الوارجلاني**" حينما سافر إلى السُّودان «جعل تجارته صامتا وحملها على جمل ودخل خباءه وانشغل بالعبادة، وكان معه حضريٌّ جعل تجارته عبيداً فشقُّوا عليه، فإذا نظر إلى الشَّيخ وهو في هناء وراحة قال سبحان الله من خلَّص عبد الله من هذا البلاء وأراحه».[1]

ومن النُّصوص التي تُشير إلى وجود العبيد في "وارجلان" ما ذكره "**الدِّرجيني**" في "**طبقاته**" «وغارت غارة لبعض العرب على "وارجلان" فساقوا عدد من الإماء وَتَبِعَهُم الشَّيخ "ماكسن" فلحقهم في الدَّرمون، في بئر الكاهنة، فطلبهم أنْ يردُّوا له ما أخذوا من أموال المسلمين... فردُّوا إليه الإماء كلَّهم».[2]

ولقد كانت "وارجلان" و"زويلة" و"سجلماسة" من أكبر المراكز التي تُورِّدُ العبيد، وهذا لرخص أسعارهم في بلاد السُّودان، خاصة عبيد "**قبائل لملم**"، أمَّا أسعارهم في بلاد المغرب، فإنَّها اختلفت حسب الأزمات وحسب الأعمار، فالشَّاب القويُّ أغلى من الضَّعيف والأمة الحاذقة بفنون الأعمال أغلى من الجاهلة[3]، وهذا ما يؤكِّده نص "البكري" في قوله: «وبـِ"أودغشت" سودانيَّات طبَّاخات مُحسِنات تباع الواحدة منهن

---

[1] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.446.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.434. **وينظر**، الوسياني: المصدر نفسه، ج.1، ص.391. **وينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السّابق، ص.174.

[3] – بوعصبانة: المرجع نفسه، ص.175.

بمائة مثقال وأكثر»[1]، وقد عرفت أسعار الرَّقيق الأسود ارتفاعاً كبيراً، مقارنة بالرَّقيق الأبيض، وهوما تحكَّمت فيه آليات السُّوق من عرض وطلب، فخلال القرن(6هـ/12م) كان (يباع بيضاوان من الرُّوم بسوداء من الوخش[2]...).[3]

أمَّا بخصوص أعدادِ الرَّقيق الذي يتمُّ استجلابه من بلاد السُّودان فلم تُفصح المصادر على ذلك، إلاَّ ما وقفنا عليه من إشارات في بعض النُّصوص، فـِ"ابن بطوطة" في رحلة عودته من "تاكدة" نحو "فاس" مرورا بـِ"توات" أشار إلى أنَّ القافلة التي رافقها جلبت معها «نحو ستمائة خادم».[4]

4 – 2 – 3 – الدُّرق اللمطيَّة: تعدُّ الدُّرق اللمطيَّة[5] من أهمِّ السِّلع التي يُتجهَّزُ بها إلى بلاد المغرب، وتصنع من جلد حيوان اللمط وتمتاز بالخفَّة واللين ولا يُنفذ منها النِّشَّاب ولا يؤثِّر فيها السَّيف[6]، فقد كانت من عوامل قوة جيوش المنطقة خاصة خلال

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[2] – **الوخش:** مُصْطلح أطلقته المصادر المغربيَّة والأندلسيَّة على أراذل العبيد، ويدخل ضمنهم الخدم والعبيد المُكلَّفون بالأعمال الوضيعة التي استنكف السادة القيام بها. **ينظر،** عبد الإله بنمليح: **الرِّقُّ في بلاد المغرب والأندلس،** مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط.1، 2004م، ص.424.

[3] – الغبريني: المصدر السَّابق، ص.45. **وينظر،** عبد الإله بنمليح: المرجع نفسه، ص.424.

[4] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.712.

[5] – **الدُّرق اللمطيَّة:** تعتبر من أكثر أسلحة بلاد المغرب شهرة في فترتي المرابطين والموحدين، تتخذ من الجلود ليس فيها خشب ولا عقب وجمعها "درق" و"أدراق" وتكون في الغالب بيضاوية الشَّكل، تُنسب إلى "لمطة" من قبائل المغرب. ينظر، جمال الدِّين بن منظور: **لسان العرب،** تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط.1، 1979، ج.2، حرف الدَّال، مادة: درق، مج.2، ص.1363. **وينظر أيضاً:** أحمد المقري: المصدر السَّابق، ج.6، ص.461.

[6] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.167.

فترتي المرابطين والموحِّدين، ولهذا الغرض يعمل تُجَّار الحواضر الصَّحراويَّة على جلبها إلى أسواق المغرب، وقد أشار "البكري" إلى جودتها وغلاء ثمنها بقوله: «و أجود الدُّرق وأغلاها ثمناً ما صنع من جلود العوائق منها، وهي التي طال قرناها لكبر سنِّها فمنع الفحل علوِّها».[1]

4 – 2 – 4 – الشَّبُّ: تُستورد هذه المادة من مدينة "**كوار**" التي اشتهرت بهذا المعدن، والشَّبُّ الكوَّاري لا يعادله شيء في الطِّيب، وهو ما أشار إليه "الإدريسي" في قوله: «... وهذا الشَّبُّ الذي يكون في بلاد "كوار" بالغٌ في نهاية الجودة، وهو كثير الوجود ويُتجهَّز منه في كلِّ سنة إلى سائر البلاد بما لا يحصى كثرة ولا يقاوم وزنًا»[2]

ويُقبل أهل "وارجلان" على استيراد النَّوع الممتاز منه ذو اللون الأبيض، ويتم استخدامه في مجالات عديدة، منها: تثبيت الألوان على الثِّياب، وفي الدِّباغة وفي المجالات الطِّبيَّة التَّقليديَّة فهو من البضائع التي يكثرُ الطَّلبُ عليها.[3]

4 – 2 – 5 – منتوجات أخرى: بالإضافة إلى السِّلع التي سبق ذكرها والتي كان التُّجَّار المغاربة يتجهَّزون منها بكمِّيَّات كبيرة، فهناك منتوجات أخرى تُستورد من أسواق السُّودان الغربي بعضها يُستخدم في المجالات العلاجيَّة الطِّبيَّة، "**كالصَّمغ**" الذي يُستخرج من شجرة تسمى "آيروار"[4] يستخدم دواء للعين، وهو ما يخبرنا عليه "الدِّرجيني"

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.171.

[2] – الإدريسي: المصدر السَّابق: مج.2، ص.118.

[3] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة**، ص.104.

[4] – **آيروار**: هو شجر العلك (الصَّمغ العربي، يصمغ في أكتوبر ويستمرُ إلى ماي إلاَّ أنَّه يقل في (الكريس) (الأربعون ليلة الوسطى من الشِّتاء)، وصمغه أهمُّ ما في القبلة، وهو سلعة تجاريَّة رئيسيَّة. ينظر، المختار ولد حامد: **حياة موريتانيا الجغرافيا**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1994م، ص.13.

بقوله: «لمَّا أصيب "**أبو معروف**" ببصره وجَّه كتاباً إلى الشَّيخ "**عبد الحميد الفزَّاني**" وكان عالمًا من أهل الدَّعوة، وكان قاطنا ببلد السُّودان يستمدُّ منه دواء العين».[1]

ويرى "عبد الكريم جودت" أنَّ دواء العين هو كحل "**البِشْمَة**"[2] الذي ذكره "**إبن البيطار**" في مُصنَّفِه تجلبه القوافل من بلاد السَّودان من "كوار".[3]

إضافة إلى ذلك نجد "**جوز الشَّرك**"[4] الذي يؤتى به من بلاد السُّودان ويُستخدم في أوجاع الوركين و الرُّكبتين والظَّهر، وكذلك مَنْتُجات النَّعام منها "**بيض النَّعام**"، ويُعتبر بيض النَّعام من السِّلع العابرة إلى الضِّفَّة الشَّماليَّة، حيث يُعدُّ مُخُّهُ عُنصراً مُهماً في صناعة الأدوية وتحضير العقاقير لمعالجة بعض الأمراض[5]، ويُستعمل أيضاً في أغراض أخرى، منها: حفظ الحبوب كالقمح والشَّعير، ولقد أشار "الدِّرجيني" إلى ذلك[6] وفي تزيين أبواب المنازل[7].

كذلك "**ريش النَّعام**" الذي يعتبر من أرقى أنواع الرِّيش وأكثره انتشاراً في العالم، وقد لَقِيت تجارته رواجاً كبيراً لدي سكَّان المغرب عامة، حيث اشتدَّ الطَّلب عليه من قبل أهل الطَّبقات العليا في المجتمع المغربي واتخذوا منه مراوح للتهوية أو للزِّينة في

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.327.

[2] – **البشمة:** اسم حجازي للحبَّة السَّوداء المستعملة في علاج العين... يستعملونها في أمراض العين ضماداً وذروراَ وتستعمل للجلاء وإخراج القذى من العين والغشاوة. **ينظر**، عبد الكريم جودت: **الأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في المغرب الأوسط**، ص.230. **وينظر أيضاً**، إبن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1992م، ج.1، ص.131.

[3] – إبن البيطار: المصدر نفسه، ج.1، ص.131.

[4] – **جوز الشَّرك:** هو جوز الحبشة، وهو ثمرٌ في قدر جوز الأكلِ، إلاَّ أنَّه أطول قليلاً وطرفاه مُحدَّدان، ولونه أحمر إلى السَّواد قليلاَ، وطعمه كطعم الزَّنجبيل ورائحته طيبة يؤتي به من بلاد السُّودان ويستعمل في الجوارشنات المُسَخَّنة، ينظر، ابن البيطار: المصدر نفسه، ج.2، ص.243.

[5] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة**، ص.103.

[6] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.434.

[7] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.177.

البيوت والقاعات، لذا عَمِل تُجَّار الشَّمال الإفريقي على تهيئة وجمع ما تيسَّر مِنه، كما جلب تُجَّار "المغرب" من "غانا" "**الأبنوس**" الجيِّد وصنعوا منه الأقواس والنِّشاب والدَّبابيس، وحملت القوافل الغانيَّة "**العنبر**" من سواحل البحر المحيط منطلقة به من "أودغشت" إلى بلاد "المغرب"، ونقلت قوافل التُّجار "التوابل" من "غانا" حيث صنعت منه جميع العقاقير التي تحتويها وصفات الأطباء، وكانت أثمانها شديدة الارتفاع في الوقت الذي كان الإقبال عليها كبير وحقَّق التُّجَّار من ورائها أرباحاً طائلة.[1]

ومن خلال ما تقدَّم يمكننا تقديم قراءة حول أصناف المواد المتبادلة بين حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة والسُّودان الغربي والتي شملت صنفين أساسين، هما:

الصِّنف الأوَّل: والمُتمثل في احتياجات الدَّولة الضَّروريَّة كالملح، والذَّهب، والرَّقيق، وهذه السِّلع كانت تقوم بدور جوهري في الحفاظ على الهياكل الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة للدولة، فالذَّهب مثلاً كان يشكِّل عُملة رئيسيَّة، أمَّا الرَّقيق فيمثل اليد العاملة والقوَّة العسكريَّة، في حين مَثَّلَ الملح ضرورة غذائيَّة.

الصِّنف الثَّاني: يُمثل سِلَعاً كماليَّة تتعلق بالأساس في أصناف للترف، كالأقمشة الغالية الثَّمن والعاج، والمصنوعات الجلديَّة، والعطور، وريش النَّعام... وبعض الرَّقيق للترف "**الجواري الحسان**"[2]، ولربما كان استعمال هذا النَّوع من السِّلع بهدف ترقية الذَّوق وإشاعة نوع من الأناقة في اللباس، لا سيما الطَّبقات الميسورة.

---

[1] – حمد مُحمّد الجهيمي: «**العلاقات التِّجاريَّة بين مملكة غانا وبلاد المغرب فيما بين القرنين الثَّالث والخامس الهجريين/ التَّاسع والحادي عشر الميلاديين**»، كلِّيَّة الآداب والعلوم، قسم التَّاريخ، جامعة عمر المختار، ليبيا، (د.س. ن)، ص.12 – 13.

[2] – أ.ج. هوبكنز: **التَّاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربيَّة**، تر: أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثَّقافة، القاهرة، ط.1، 1998م، ص.162.

5)- المراكز التِّجاريَّة بالسُّودان الغربي:

إنَّ من نتائج حملة "**حبيب بن أبي عبيدة**" وابنه "**عبد الرَّحمان**" سنة (116هـ/734م) فكّ العزلة عن السُّودان الغربي وباقي بلاد السُّودان وإلحاقه ببلاد الإسلام تدريجياً وتعزَّزت تلك الرَّوابط بالتِّجارة القوافليَّة من خلال إحياء المسالك القديمة عبر الصَّحراء أو شقّ مسالك جديدة[1]، وكان من نِتاج هذا الحراك الاقتصادي لاسيما التِّجاري منه، أنْ برزت عدَّة مراكز وحواضر أسهمت في تنوع الرَّصيد الحضاري للمنطقة وربطها بمدن بلدان المغرب الإسلامي، ونخُصُّ بالذِّكر مُدن صحراء المغرب الأوسط[2]، ومن أهمِّ هذه المراكز التِّجاريَّة السُّودانيَّة التي ارتبطت تجارياً بمدن الواجهة الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط، نجد:

5 – 1 – أودغست (أودغشت): تعدّ "أودغشت" أوَّل مُدن السَّودان، وهي أوَّلُ محطَّة في المسلك الغربي الذي شكَّلت فيه "سجلماسة" مَحطَّة تتجمَّع فيها الرِّفاق وتنطلق منها للدخول إلى المراكز التِّجاريَّة السُّودانيَّة وهي تنتمي إلى حوزة "موريتانيا" الحاليَّة[3]. أشار صاحب "الاستبصار" إلى موقعها الجغرافي بقوله: «و بين صحراء لمتونه وبلاد السُّودان، مدينة "أودغشت"»[4].

أمَّا "الحموي" فقد حدَّدَ لنا معالمها وموقعها في ما نصه «وفي شرقيهم بلاد السُّودان، وفي غربيها البحر المحيط، و في شماليهم منفتلا إلى الغرب بلاد "سجلماسة"، وفي جنوبهم بلاد السُّودان... وهي تقع منحرفة محاذاة عن السُّوس

---

[1] – أحمد مولود ولد أيده: **الصَّحراء الكبرى مدن وقصور**، دار المعرفة، الجزائر، ط.1، 2009، ج.1، ص.61.

[2] – محمد العيد تيته: المرجع السابق، ص153.

[3] – أحمد مولود ولد أيده: المرجع نفسه، ص.62.

[4] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.215.

الأقصى كأنَّهما مع "سجلماسة" مثلث طويل السَّاقين أقصر أضلاعه من السُّوس إلى "أودغشت"».[1]

لم تفصح المصادر المتاحة لنا عن زمن اختطاط هذه المدينة ولا عن ملوكها، إلاَّ بعض الإشارات المقتضبة وجدناها عند صاحب "**الأنيس المطرب**" مفادها، أنَّ أحد ملوك صنهاجة "**يتلوتان بن تلا كاكين**"(ت.222هـ/836م) قد حكم "أودغشت" ما يقارب خمس وستين عاما[2]، وإنْ صحت رواية صاحب "**الأنيس المطرب**"، فإنَّ هذه المدينة ضاربة في القِدم.

ويُعدُّ "اليعقوبي" أوَّلُ من أشار إلى هذه المدينة وأطلق عليها اسم "**غسط**"، وهي تقعُ في واد عامر فيه المنازل، وفيه ملك لهم لا دين له ولا شريعة، يغزو بلاد السُّودان وممالكهم كثيرة[3]، في حين يُشير "البكري" بأنَّ ملك "أودغشت" من "صنهاجة" بقوله: «... وكان صاحب "أودغشت" تين بروتان رجلاً من "صنهاجة" يُدين له عشرين ملكاً من ملوك السُّودان».[4]

وبخصوص حجم النَّشاط التِّجاري بالمدينة، فقد صوَّره لنا "ابن حوقل" خلال نزوله بها، حيث يذكر بأنَّه «رأى فيها صكًّا فيه ذِكرٌ لحق بعضهم على رجل من تجار "أودغشت"، وهو من أهل "سجلماسة" باثنين وأربعين ألف دينار»[5]، وفي إشارة "ابن حوقل" ما يُوحي بأنَّ "أودغشت" مركزاً تجارياً نشطاً، لدرجة أنَّ سُكَّانها أصبحوا يتعاملون فيما بينهم بالصُّكوك وبمبالغ ضخمة، وهي سابقة لم يُرَ مثلها في المشرق

---

[1] – الحموي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.276 – 277.

[2] – علي بن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرِّباط، ط.1، 1972م، ص.120 – 121.

[3] – اليعقوبي: المصدر السَّابق، ص.199.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.159.

[5] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.96.

الإسلامي بحسب ما عبَّر عنه "ابن حوقل"، وهذا دليلٌ على عظم التَّبادل التِّجاري بها وفي نصِّ "البكري" ما يؤكِّدُ حقيقة ما أورده "ابن حوقل" حيث وصف أهلها بأنَّهم: «أرباب نعم جزلة وأموال جليلة وسُوقها عامرة الدَّهر كلَّه لا يُسمع الرَّجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه و ضوضاء أهله...»[1]، و في كلا النَّصين ما يؤكِّد على الحركة التِّجاريَّة الدَّؤوبة بـِ"أودغشت".

أمَّا عن السِّلع التي كان يُتجهَّزُ بها التُّجَّار المغاربة إلى "أودغشت" الحبوب والثِّمار والزَّبيب والنُّحاس المصنوع، والثِّياب المُصبغة بالحُمرة والزُّرقة، وهذا ما أشار إليه "البكري" في قوله: «يجلب إليها القمح والتَّمر والزَّبيب من بلاد الإسلام وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك التَّمرُ والزَّبيب... ويُجَهَّز إلى "أودغشت" بالنُّحاس المصنوع وبالثِّياب المصبغة بالحُمرة و الزُّرقة...»[2]، ويُجلَبُ منها «العنبر المخلوق الجيِّد لقرب البحر المحيط منهم والذَّهب الإبريز الخالص خيوطاً مفتولة، وذهب "أودغشت" أجود ذهب الأرض و أصحَّهُ».[3]

ويبدو أنَّ الدَّور التِّجاري لمدينة "أودغشت" قد عرف نوعاً من التَّراجع خلال زمن "الإدريسي" في القرن(6هـ/12م). وهذا ما نستنتجه من وصفه لها في قوله: «و هي مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل وهي في ذاتها بين جبلين شبه "مَكَّة" في الصِّفة وعامرها قليل وليس بها كبير تجارة ولأهلها جِمَالٌ و منها يتعيشون».[4]

إنَّ ما آلت إليه "أودغشت" خلال(ق6هـ/12م) يعود إلى التَّطوُّرات السِّياسيَّة التي عرفتها المنطقة منها سيطرة المرابطين عليها وتخريبها، الأمر الذي دفع بأهلها إلى

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[2] – نفسه.

[3] – البكري: المصدر نفسه، ص.158 – 159.

[4] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.108.

الهجرة وترك المدينة، ولقد سكن "أودغشت" الكثير من الجاليات المغربيَّة على غرار أهل "إفريقيَّة" و "برقجانة"، و"نفوسة" و"لواته" و"زناته" و"نفزاوه"[1].

ويذكر صاحب "الاستبصار" أنَّ «أهلها أخلاط من جميع الأمصار، وقد استوطنوها لكثرة خيرها، ونفاق أسواقها وتجارتها».[2]

5 – 2 – تادمكة:

وهي أهمُّ وأقدمُ سوق بربري، تقع على التُّخوم الجنوبيَّة للصحراء في المنطقة الجبليَّة لِـ"أدرار أفوغاس"، حيث يطلق على خراب المدينة بالسُّوق، وهي شمال "جاو" على بعد تسعة أيَّامٍ منها[3]، وعلى بعد خمسين يوما إلى "وارجلان"[4]، أصل تسميتها مشتق من قبيلة "بني تانماك" مُلوك حاضرة تادمكة[5]، ويرى الباحث "حماه الله ولد السَّالم" بأنَّها «قلب الحضور الإباضي في بلاد الصَّحراء والسُّودان وبها وجدت مملكة قويَّة يرأسها "بنو تانماك" الإباضيون».[6]

وهي من أهمِّ المحطَّات التِّجاريَّة في العصر الوسيط، وقد ساهم موقعها الجغرافي في أهمِّيتها الاقتصاديَّة، فهي تقع بين سلسلتين جبليتين، وهو ما أشار إليه "البكري" في قوله: «مدينة كبيرة بين جبال و شعاب».[7]

تُعدُّ "تادمكة" مركزاً تجارياً وملتقى القوافل التِّجاريَّة التي تتردَّدُ عليها من كلِّ الجهات خاصة التُّجَّار الإباضيَّة من "جبل نفوسه"، و"غدامس"، و"وارجلان" لتصريف

---

[1]– البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[2] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.215.

[3] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.159.

[4] – البكري: المصدر نفسه ص.181.

[5] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.101.

[6] – حماه الله ولد السَّالم: **تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2017م، ص.90.

[7] – البكري: المصدر نفسه ، ص.181.

سلعهم ومنتوجاتهم، مقابل الحصول على الذَّهب والرَّقيق الذي يُجلب إليها من "غانة"[1]

ويصف لنا "البكري" حالة المدينة بقوله: «**وهي أحسن بناء من مدينة "غانة" و"مدينة كوكو"**»[2]، و هو ما يُوحي بأنَّ "تادمكة" كانت تعيش حالة من الرَّخاء انعكست على حال العمران بها، ولعل هذا راجع إلى اتصالها بتُجَّار الشَّمال وتُجَّار بلاد السُّودان، حيث تمكَّنت من التَّفوق على "غانة" و"كوكو"، ولم يظهر رخاءها وقوَّة اقتصادها في الجانب العمراني وحسب، و إنَّما ظهر أيضاً في امتلاكها عملة خاصة بها تُسمّى "**الصَّلع**" «**من الذَّهب المحضّ غير مختومة**»[3]، كما أسلفنا الذِّكر.

ولقد عرفت "تادمكة" استقطاباً كبيراً للتُّجَّار الإباضيَّة، ويرى الباحث "مسعود مزهودي" أنَّ سبب ذلك راجع إلى العائد المادي الكبير الذي تَدرَّه التِّجارة فيها[4]، ويبدو لي أنَّ ارتباط "تادمكة" بمسلك تجاري مباشر مع "وارجلان" ساهم بشكل كبير في اقبال التُّجَّار عليها، و لقد أشار "البكري" لهذا المسلك بقوله: «فإنْ أردتَ من "تادمكة" إلى القيروان فإنَّك تسير خمسين يوماً إلى "وارجلان"».[5]

ولقد ارتبطت "تادمكة" بعلاقات تجاريَّة منتظمة مع المدن المغربيَّة خاصة مدينة "وارجلان"[6]، فمعظم التجار الذين كانوا يسافرون إلى "تادمكة" من "زناته"، ولا بُدَّ أنْ هؤلاء الزَّناتيين وعائلاتهم هم الذين كوَّنوا الجالية الإباضيَّة في مدينة "تادمكة".[7]

---

[1] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السابق، ص.159.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.181.

[3] – نفسه.

[4] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.171.

[5] – البكري: المصدر نفسه، ص.182.

[6] – مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.171.

[7] – نفسه.

5 – 3 – غانة (كومبي صالح):

شكَّلت مملكة "غانة" أوَّل نظام سياسي متطوِّر عرفته بلاد السُّودان خلال العصر الوسيط، حيث تعتبر أقدم دولة عُرفت في غرب إفريقيا[1]، وقد بلغت امبراطوريَّة "غانة" ذروة مجدها وعظمتها منذ حوالي القرن التَّاسع الميلادي إلى منتصف القرن الحادي عشر، واستمر وجودها حتى القرن السَّابع الهجري/الثَّالث عشر ميلادي حيث سقطت عاصمتها على يد قبائل "الصُّوصو" ودمَّرها "الماندنجو" سنة(638هـ/1240م) وقامت على انقاضها مملكة "مالي".[2]

اقتبست "غانة" اسمها من المدينة التي كانت حاضرة الدَّولة قبل أنْ تصبح مملكة[3] بينما يرى "البكري" أن «**غانة سمة لملوكها**» بمعنى القائد العسكري[4]، أمَّا "الحموي" فيشير إلى أنَّ «غانة مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السُّودان».[5]

اشتهرت "غانة" بتجارة الذَّهب، فمعدن الذَّهب كانت متوفِّر بكثرة في أراضيها، وقد صرَّح "ابن الفقيه" خلال (ق.4هـ/10م) ما نصُّه: «أنَّ بلاد "غانة" ينبتُ فيها الذَّهبُ نباتاً في الرَّمل، كما يُنبت الجزر ويُقطف عند بزوغ الشَّمس»[6]، و يذكر "ابن حوقل" بأنَّ «"غانة" أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بها، لديهم من الأموال المُدَّخرة من التبر المثار على قديم الأيَّام للمتقدمين من ملوكهم».[7]

---

[1] – الحسن بن الشَّيخ سليمان: **تاريخ ملوك بني صالح شرفاء كومبي صالح ملوك غانة ومالي من بلاد السُّودان**، دار يوسف ابن تاشفين، (د. م. ط)، ط.1، 2009م، ج.2، ص.11.

[2] – إبراهيم علي طرخان: المرجع السَّابق، ص.15 – 16.

[3] – الحسن بن الشَّيخ سليمان: المرجع السَّابق، ج.2، ص.11.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.173.

[5] – الحموي: المصدر السَّابق: مج.4، ص.184.

[6] – ابن الفقيه الهمذاني: **البلدان**، تح: يوسف الهادي، منشورات عالم الكتب، بيروت، ط.1، 1996م، ص.138.

[7] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.98.

ارتبطت "غانة" بعلاقات تجاريَّة مع المدن الصَّحراويَّة لبلاد المغرب الأوسط، خاصة "وارجلان" التي تعدُّ في هذه الفترة بوَّابة الولوج إلى بلد السُّودان، لأنَّ جميع الطُّرق الآتية من شمال المغرب الأوسط أو إفريقيَّة تحطُّ بها، حيث حُظيت بطريق تجاري يربط المدينة بأسواق السُّودان الغربي وكان لهذا الطَّريق أهميَّة كبيرة باعتبار أنَّ "غانة" كانت بَوَّابة دخول التُّجَّار المغاربة إلى منطقة "ونقارة" مصدر الذَّهب.[1]

وقد كانت هناك حركة انتقال للمشايخ و التُّجار من "وارجلان" نحو "غانة"، وهو ما وقفنا عليه من خلال بعض كتب "السِّير" و "التَّراجم" الإباضيَّة، مثل: "الشَّمَّاخي" الذي أثبت انتقالهم إلى غانة مرورا بوارجلان".[2]

وقد تمكَّنت "غانة" بفضل موقعها الاستراتيجي والمُتميِّز، أنْ تُشكِّل احدى المحطَّات والمراكز التي تتحكم في منافذ الصَّحراء، حيث يقصدها تجار بلاد "المغرب" و"إفريقيَّة" و"سجلماسة" و"وارجلان" و "القيروان" بقوافلهم التِّجاريَّة، بُغية الحصول على منتوجاتها وفي مقدِّمتها معدن الذَّهب والرَّقيق، وبيض النَّعام وريشه، فالسِّلع الواردة من "غانة" يكثر عليها الطَّلب وأثمانها في الأسواق الخارجيَّة مرتفعة[3].

ويبدو لي أنَّ ما توفره "غانة" من سلع للتُّجَّار المغاربة جعلها منطقة استقطاب واستقرار الكثير منهم بها، فقد استقرَّ بها عدد من البيض وتحكَّموا في التِّجارة السُّودانيَّة، أهمها: الذَّهب والرَّقيق منها، وقد أقرَّ "إبراهيم علي طرخان" بارتباط "غانة" بعلاقات تجاريَّة نشطة مع جميع المدن الهامَّة بشمالي "إفريقيَّة" مثل: "طرابلس"

[1] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.149.

[2] – الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص372،373.

[3] – حمد مُحمّد الجهيمي: المرجع السّابق، ص 12.

و"أوجلة" و"ورجلان" و"سجلماسة"، واعتبر المدن الثَّلاثة الأخيرة ثغوراً للصحراء الكبرى حيث أمدَّت هذه الثُّغور بلاد البحر المتوسط بسلع "غانة" وفي مقدِّمتها الذَّهب.[1]

5 – 4 – كوكو:

تقع "كوكو" ضمن إقليم السُّودان الغربي الذي تمتاز رقعته بمساحات واسعة من سهول "السَّافانا"[2]، وقد تباينت المصادر الإخباريَّة في رسمها، فـِ"اليعقوبي" يشير لها «مملكة كوكو»[3]، أمَّا صاحب "الإستقصا" ذكرها "**كاغو**"[4] بينما يحذف "الولاتي" حرف الواو لتصبح "**كاغُ**"[5]، ولفظ "كوكو" مدلوله بلغة السُّودانيين هو اسم يدل على شعب ذلك الإقليم ومملكتهم وعاصمتهم[6]، أمَّا عن موقعها فقد أشار "ابن سعيد" بأنَّها «**في شرقي النَّهر المنسوب إليها**».[7]

إنَّ موقع "كوكو" على ضفاف "نهر النِّيجر" لاسيما جزؤه الذي يصلُح للملاحة، جعلها منطقة انطلاقة للملاحة التِّجاريَّة النَّهريَّة لمعظم مدن السُّودان من الجنوب والغرب، وقُربها من مناجم الذَّهب جعلها أكبر أسواق السُّودان لتجارة الذَّهب، وتُمثِّل نقطة التقاء وربط التِّجارة من جهة الشَّرق "كانم" و "برنو"، و"الغرب الأوسط، "فزّان" و"المغرب الأوسط"، ومن جهة بلاد المغرب قادمة من "توات" و "القيروان" و"مراكش" عن طريق "جني" و"تمبكتو"[8].

---

[1] – إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق، ص65.

[2] – محمد العيد تيته: المرجع السابق، ص 160.

[3] – اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص168.

[4] – الناصري: المصدر السابق، ج5، ص123.

[5] – أبوعبد الله البرتلي الولاتي: **فتح الشّكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تح: محمد حجي و محمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981، ص29.

[6] – محمد العيد تيته: المرجع السابق، ص160.

[7] – ابن سعيد: المصدر السابق، ص95.

[8] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع نفسه، ،ص.161.

وهذا ما جعلها منطقة حيويَّة لها أهميتها الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة، ويبدو أنَّ الرُّستميون قد أدركوا أهميَّة مدينة "كوكو"، ولهذا حرص أمراء "بني رستم" على ربط علاقات وُدِّيَّة معها، حيث بادر الإمام "**أفلح بن عبد الوهاب**" بإرسال سفارة إلى بلاد السُّودان برئاسة "**ابن عرفة**" ويشير "ابن الصَّغير" لهذه السَّفارة في قوله: «وكان "**مُحمَّد بن عرفة**" قد وفد على ملك السُّودان بهدية من قبل "**أفلح بن عبد الوهاب**"...»[1]

وإن كان الغرض من هذه السَّفارة هو مدُّ أواصر العلاقة بين الدَّولتين وتنميتها فإنَّه لا يمكن الإغفال أو التَّغاضي عن أهدافها الاقتصاديَّة، كالحصول على تسهيلات للقوافل التِّجاريَّة الإباضيَّة، المُتجهة إلى تلك البلاد، وبالتالي الحصول على المزيد من الذَّهب الذي يعدُّ السِّلعة الأهمُّ بين السِّلع السُّودانيَّة.

وفي نصِّ "اليعقوبي" ما يُوحى بقوَّة "مملكة كوكو" حيث عدَّدَ الممالك التي تُقرُّ لها بالرِّئاسة، منها: «"**مملكة المرو**"، وهي مملكة واسعة، وللملك مدينة يقال لها الحيا، و"**مملكة مردنة**" و"**مملكة الهبر**"، **ومملكة** "**صنهاجة**"، و"**مملكة تذكرير**"، و"**مملكة الزَّيانير**"، و"**مملكة أرور**" و"**مملكة نقاروت**"، فهذه كلُّها تنسب إلى "مملكة الكوكو"».[2]

ويصف لنا "البكري" مدينة "كوكو" في قوله: «وهي مدينتان مدينة للملك ومدينة للمسلمين وتجَّارة أهلها الملح وهو نقدهم، يجلب إليهم من بلاد البربر يقال "توتك" تبعد عن "تادمكة" بست مراحل.[3]

وقد استمرَّ نشاط الحركة التِّجاريَّة بين "كوكو" والإقليم الصَّحراوي للمغرب الأوسط، إلى غاية (ق. 6هـ/12م) وهذا بشهادة "الإدريسي" الذي أشار إلى مجالسة أهلها للتُّجار الوافدين إليها من بلاد المغرب الأقصى و"وارجلان" بقوله: «... وهم

[1] – ابن الصَّغير المالكي: المصدر السَّابق، ص.62.

[2] – اليعقوبي: المصدر السَّابق، ص.168.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.183.

يداخلون التُّجَّار ويجالسونهم ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقارضة... عند أهل "المغرب الأقصى" وأهل "وارجلان"»[1].

ويُشيد "الإدريسي" بمكانتها التِّجاريَّة وذلك من خلال توافد الرِّفاق إليها من كلِّ حدب وصوب في قوله: «وبلاد "كوكو" وهي في رصيف طريق والوارد عليها والصَّادر كثيرا»[2]، والإشارة ذاتها نجدها عند "ياقوت الحموي" حيث ذكر بأنَّ «بهـا أسواق ومتاجر والسَّفر إليها من كلِّ بلد مُتصل».[3]

ويبدو أنَّ مدينة "كوكو" قد حافظت على نشاطها التِّجاري الذي امتدَّ إلى زمن "الوزَّان" حيث أمدَّنا هذا الأخير ببعض المعلومات حول النَّشاط التِّجاري لمدينة "كوكو" والتي أطلق عليها اسم "**كوغو**" في النَّص التَّالي: «وسكَّانها تُجَّار أغنياء يتجوَّلون دائما في المنطقة بسلعهم ويأتي إليها عددُ لا يُحصى من السُّود حاملين معهم كمِّيَّة وافرة من الذَّهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد "البربر" و "أوروبا"... وهناك ساحة يباع فيها أيَّام السُّوق عدد لا يُحصى من الرَّقيق ذكوراً وإناثاً، تساوي الفتاة بنت خمس عشرة سنة نحو ستَّة مثاقيل، وكذلك الفتى تقريبا...».[4]

5 – 5 – تمبكتو:

تقع مدينة "تمبكتو" على الحافة الجنوبيَّة للصَّحراء الكبرى، بما يعرف اليوم بمنحى "نهر النِّيجر"[5]، حيث تقع على بعد اثني عشرة ميلا من أحد فروعه[6]، وهو ما جعلها

---

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.27 – 28.

[2] – الإدريسي: المصدر نفسه، مج.2، ص.312.

[3] – الحموي: المصدر السَّابق، مج.4، ص.492.

[4] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.169.

[5] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، ص.117.

[6] – الوزَّان: المصدر السابق، ج.2، ص.165.

تستفيد من مزاياه في النَّقل النَّهري، وكانت بعيدة عنه بما فيه الكفاية بحيث تتجنب الفيضانات الكبيرة التي اشتهر بها هذا النَّهر[1].

وتعتبر "تمبكتو" بمثابة حلقة وصل بين السُّودان الغربي والصَّحراء الكبرى، مارسَ أهلها التِّجارة إلى جانب الثَّقافة والعلوم، وقد مثَّلت التِّجارة في "تمبكتو" المصدر الرَّئيسي لحياة أهلها، وتوافد عليها التُّجار من بلاد السُّودان، وبلاد "المغرب" و"مصر" في حركة دؤوبة يحملون معهم بضائعهم و يعودون مُحَمَّلين بالذَّهب والرَّقيق وغيرها من السِّلع التي تلقى رواجاً في الضِّفة الشَّماليَّة لبلاد السُّودان.[2]

ونظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يُعدُّ ملتقى لطرق القوافل التَّجاريَّة البريَّة العابرة للصحراء والقوافل النَّهريَّة التي اتخذت من "نهر النِّيجر" مرتعاً لها حيث ميناء "كابرا" الذي لا يبعد عن المدينة سواء سبعة كيلومتر برّاً.[3]

أصبحت المدينة مركزا تجاريّا وملتقى التُّجار وأصحاب رؤوس الأموال، وهو ما صرَّح به "السَّعدي" قـائلاً: «وإليها يَردُ الرِّفاق من الآفاق وسكن فيهـــا الأخيار... وذوي الأموال من كـــلِّ قبيلة ومن كـــلِّ بلاد».[4]

عُرفت "تمبكتو" بكثرة حوانيتها التي تبيع المنتوجات القطنيَّة والأقمشة المجلوبة من قبل تجَّار بلاد "المغرب" و"أوروبا"، وأشار "الحسن الوزَّان" إلى ذلك بقوله: «... وبها دكاكين كثيرة للصُّنَّاع والتُّجار لاسيما دكاكين نسَّاجِي أقمشة القطن، وتصل إلى "تمبكتو" أقمشة "أوروبا" يحملها تجار بلاد "البربر»».[5]

---

[1] – إسماعيل العربي: المرجع السَّابق، ص.312.

[2] – عبد الله مُحمَّد سالم بازينة: **انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصَّحراء**، منشورات جامعة 7أكتوبر، طرابلس، ط.1، 2010م، ص141.

[3] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.168.

[4] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.127.

[5] – الوزَّان: المصدر نفسه، ج.2، ص.165 – 166.

ويبدو أنَّ النَّشاط التِّجاري الذي جعل من "تمبكتو" مراكزاً تجارياً يؤُمُّه الرِّفاق من كلِّ حدب وصوب قد مكَّنها من أنْ تتبوأ مكانة مرموقة لدى أمم السُّودان، وهذا بشهادة "ابن خلدون" الذي صرَّح بذلك قائلاً: «واعتزَّ سُلّطانهم وهابتهم أمم السُّودان، وارتحل إلى بلادهم التُّجَّار من بلاد المغرب و إفريقيَّة»[1].

ولقد شهدت "تمبكتو" على غرار باقي المدن السُّودانيَّة الأخرى، إقبالاً مُعْتبراً عليها من قبل التُّجَّار المغاربة لاسيما تُجار الإقليم الصَّحراوي للمغرب الأوسط وفي مُقدِّمتهم تُجَّار حاضرة "توات"، و في هذا الشَّأن يقول "السَّعدي": «وسكن فيها الأخيار... وذوي الأموال من كلِّ قبيلة ومن كلِّ بلاد، من أهل "مصر" و"وجل" و"فزَّان" و"غدامس" و"توات" و"درعة" و"تفلالة" و"فاس"... ثمَّ انتقل الجميع إلى "تمبكتو" قليلا قليلا حتى استكملوا فيه عمارة مع جميع قبائل "صنهاجة" بأجناسها».[2]

6)- نُظم المُعاملات التِّجاريَّة بين السُّودان الغربي و حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة:

ممَّا لاشكَّ فيه أنَّ ازدهار النَّشاط التِّجاري بين تُجَّار الضِّفتين، فرض عليهم إيجاد وسيلة للتَّعامل يمكن من خلالها إتمام عمليَّة البيع والشَّراء، ولقد تنوَّعت نُظمُ المعاملات التِّجاريَّة في بلاد السُّودان واختلفت من مملكة إلى أخرى، ومن بين أهمِّ الطُّرق التي كان معمولاً بها نجد:

6 – 1 – التَّعامل بالمقايضة:

كانت المقايضة إحدى الوسائل التي تعاملَ بها تُجَّار السُّودان الغربي، مع تُجَّار الشَّمال الإفريقي، منذ أقدم العصور[3]، والمقايضة هي بيع سلعة بسلعة[1]، وهي تعتمد

[1] – ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.267.

[2] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.127 – 129.

[3] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**، ص.339.

على الاتفاق بين الطَّرفين فيما يَعْرِضُونه من سلعٍ، ولأنَّ الملح من السِّلع المهمَّة والضَّروريَّة لدى السُّودانيين ولحاجتهم الماسة له، لم يُبالوا في مبادلته بالذَّهب وزناً بوزنٍ وأكدَّ "البكري" ذلك بقوله: «يتبدَّلُ الملح فيها بالذَّهب»[2] ويُضيف صاحب "الاستبصار" «أنَّ بلاد "الفرويين" المجاورة لبلاد "زافون" ببلاد السُّودان يتمُّ فيها مقايضة الملح بالذَّهب»[3] ، ويبدو أنَّ عمليَّة المقايضة قد تعدَّت مقايضة الملح بالذَّهب لتشمل سلع أخرى، فقد كشف "الإدريسي" عن هذا النَّوع خلال حديثه عن أهل "كوكو" قائلاً: «... وهم يداخلون التُّجَّار ويجالسونهم و يُبضعونهم البضائع على جهة المقايضة»[4]، وكان "ابن بطوطة" أثناء تنقُّلاته في بلاد السُّودان، يحمل قطع الملح وحُليِّ الزُّجاج وبعض العطور ليشتري بها ما يحتاج إليه من الطَّعام والسَّمن.[5]

6 – 2 – التِّجارة الصَّامتة:

اتَّسمت المُعاملات الماليَّة بين تُجَّار الإقليم الصَّحراوي للمغرب الأوسط وتُجَّار بلاد السُّودان بما يُسمَّى بالتِّجارة الصَّامتة، حيث أشارت المصادر إلى هذا النَّوع من التِّجارة "فالمسعودي" في مُصنَّفه "أخبار الزمان"، وضَّح عمليَّة البيع في "غانة"، فقال: «... ولهم خطٌّ لا يُجاوزه من صدَّر إليهم فإذا وصلُوا إلى ذلك الخطِّ جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا، فيأتون أولئك السُّودانيون ومعهم الذَّهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون، ويأتي أصحاب الأمتعة فإنْ أرضاهم وإلاَّ عادوا ورجعوا فيعود السُّودانيون، فيزيدونهم حتَّى تتمُّ المبايعة».[6]

=

[1] – أحمد الشَّرباصي: **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، دار الجيل، بيروت، ط.1، 1981م، ص.435.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.183.

[3] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.219.

[4] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.28.

[5] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.708.

[6] – المسعودي: المصدر السَّابق، ص.88.

6 – 3 – التَّعامل بالقماش:

تُفْصح المصادر على أنَّ القماش أصبح من السِّلع التي لها قوَّة النَّقد في المبادلات التِّجاريَّة بالأسواق السُّودانيَّة عوضاً عن النُّقود خاصة المنتوجات القطنيَّة، ويبدو أنَّ أهالي مدينة "سلى" تعاملوا بالقماش في عمليَّة التَّبادل التِّجاري، وهذا القماش كما يشير "البكري" كان عبارة عن أُزر لطاف من قطن يُسمُونها "الشَّكِيَّاتِ".[1]

6 – 4 – الودع:

كان التَّعامل بالودع كثيراً في بلاد السُّودان الغربي، وقد أشار الجغرافيون والرَّحالة إلى ذلك، فالودع من العُمُلات الكثيرة التَّداول في مراكز السُّودان الغربي، فأهل "كوكو" كانوا يتعاملون بالودع، وقد أشار "ابن بطوطة" قائلاً: «وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع»[2].

6 – 5 – المُعاملات النَّقديَّة:

أمام تضاعف نشاط الحركة التِّجاريَّة، لم تعد تلك الطُّرُق المعمول بها في التَّبادل التِّجاري تلقى رواجاً كبيراً، فبدأ ظهور العُمُلات الذَّهبيَّة والنُّحاسيَّة التي صارت لها قوَّة النَّقد، ومن بين العُمُلات التي تمَّ تداولها في المعاملات التِّجاريَّة نجد:

6 – 5 – 1 – الدَّنانير الذَّهبيَّة: استعمِلَت النُّقود الذَّهبيَّة كعُمْلة تعامل في الحياة اليوميَّة لدى السُّودانيين حيث عَمدت بعض الممالك السُّودانيَّة إلى صكِّ دينار ذهبي يتعاملون به، وقد رصد "البكري" ذلك في قوله: «بأنَّ أهل "تادمكة"، كانت لهم عُمْلتهم الخاصة وهي عبارة عن دنانير ذهبيَّة تُسمّى "**الصَّلع**" وهي من الذَّهب الخالص وغير

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.173.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السابق ، ج.2، ص.709.

مختومة»[1]، وكان الدِّينار الذَّهبي هو العملة التي يتعامل بها التُّجَّار المغاربة في عمليَّة البيع والشِّراء.[2]

6 – 5 – 2 – التَّعامل بالنُّحاس: على الرُّغم من أنَّ الرَّحالة والجغرافيُّون قد أشادوا بكثرة ووفرة الذَّهب ببلاد السُّودان الغربي، إلاَّ أنَّ التَّعامل به كان محدوداً، لذا تمَّ اعتماد النُّحاس كعملة في التَّبادل التِّجاري، وقد أشارت المصادر إلى وفرة هذا المعدن في الصَّحراء، ففي مدينة "نول" التي تقع على مشارف بلاد السُّودان الغربي، كان النُّحاس من ضمن صادراتها، ويُخبرنا "البكري" «بأنَّ النُّحاس المسبوك يُتجهَّزُ به إلى بلاد الشَّرك»[3]، واستخدم أهل "كوغة" و"سلى" النُّحاس كعُملة في عمليَّة التَّبادل التِّجاري، واشتهرت مدينة "تكدة" بمعدن النُّحاس، وقد أفادنا "إبن بطوطة" بمعلومات حول كيفيَّة سَكِّهِ واستعماله كعملة للتَّبادل التِّجاري، فقال: «... ومعدنُ النُّحاس بخارج "تكدا" يحفرون عليه الأرض و يأتون به إلى البلد فيسبكونه في دوُرِهم... فإذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً من طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرِّقاق بحساب ستمائة وسبعمائة مثقال وهي صرفهم، يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذُّرة والسَّمن والقمح»[4]، وقد خَلُص "**شيخ الرُّبوة**" في مُصنَّفِه "**نخبة الدَّهر**" إلى أنَّه على الرُّغم من وفرة الذَّهب في بلاد السُّودان إلاَّ أنَّهم يستخدمون النُّحاس كعملة بقوله: «و الذَّهب في بلادهم كثير لا يستعملونه وإنَّما يستعملون النُّحاس».[5]

---

[1] – البكري: المصدر السابق، ص.181. **وينظر**، مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.223.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.188.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.174.

[4] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.711.

[5] – مُحمَّد أبي طالب الأنصاري (شيخ الرَّبوة): **نخبة الدَّهر في عجائب البرِّ والبحر**، تص و ط: اغسطس بن يحيى، مطبعة الأكاديميَّة الملكيَّة، بطربورغ، ألمانيا، ط.1، 1865م، ص.268.

6 – 5 – 3 – التَّعامل بالصُّكوك والسَّفتجات: لقد كان للصكوك حضوراً في المعاملات الماليَّة في بلاد السُّودان منذ وقت مُبكر، والصَّكُّ في الأصل سند الدَيْن[1]، وكانت هذه الصُّكُوك تُكتب على شكل عقود بين التُّجَّار في الدِّيون[2]، وقد شاهد "ابن حوقل" حضور الصُّكوك في المعاملات الماليَّة بين التُّجار أثناء نزوله بـِ"أودغشت" بقوله: «ولقد رأيت بأودغشت صكًّا فيه ذكر لبعضهم على رجلا من تُجَّار أودغشت وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار».[3]

كما تعتبر السَّفاتج احدى مظاهر التَّعامل المالي الذي حُظيت به ضفتي الصَّحراء، نظراً للمعاملات الضَّخمة التي كانت تشهدها المنطقة، فقد فرضت الظُّروف إيجاد وسيلة للدفع مأمونة من الضِّياع و خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص[4] والسَّفاتج هي عبارة عن أوراق ماليَّة، أو خطابات ضمان تُستعمل في المُعاملات التِّجاريَّة الكبيرة خشية اللصوص وقُطَّاع الطُّرق لأنَّها خفيفة الحمل.[5]

وقد أشار بعض الباحثون إلى «استخدام السَّفاتج في المعاملات التِّجاريَّة بين بلاد المغرب وغيرها من البلاد المجاورة، و قد عُثر على سفنجة بمبلغ مائتي دينار أرسلها تاجر من "طرابلس" إلى أحد تُجَّار مدينة "الفسطاط" في "مصر"»[6]، وبما أنَّ استعمال السَّفاتج كان معمول به في بلاد "المغرب" فلاَ نستبعد استخدامه من طرف التُّجَّار في معاملاتهم التِّجاريَّة مع بلاد السُّودان الغربي.

---

[1] – آدم متز: **الحضارة الإسلاميَّة خلال القرن الرَّابع الهجري أو عصر نهضة الإسلام**، تر: مُحمَّد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.5، (د.س.ن)، مج.2، ص.379.

[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.184.

[3] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.96.

[4] – آدم متز: المرجع السَّابق، ص.379.

[5] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.189.

[6] – نفسه.

7)- حركة القوافل التِّجاريَّة:

تَميَّزت الطُّرق الواصلة لبلاد السُّودان بكونها مفاوز مُقفرة مُعطِشة شديدة الحرِّ وليس لسالكها من المخاطر مفرٌّ، فهي كما وصفها "ابن حوقل" عبارة عن «مفاوز وبراري مُنْقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي»[1]، اجتاز "ابن بطوطة" بعضها واصفاً إيَّاها بشدَّة الحرِّ[2]، ومثل هكذا وضع يفرض على سالكيه ضرورة الاستعداد وتحديد الوقت الملائم للسيْر، ولهذا فقد كانت القوافل المتجهة صوب السُّودان يستغرق تحضيرها وتجهيزها بعض الوقت، وتنطلق القافلة إلى وجهتها بعد أنْ تمرَّ بمرحلتين وهما: (مرحلة التحضير والاستعداد، ثمَّ مرحلة الانطلاق).

7 – 1 – مرحلة التَّحضير والاستعداد:

يُشرع في التَّحضير لهذه الرِّحلة بعد أنْ تتجمَّعُ السِّلع في مخازن "وارجلان" باعتبارها أكبر ميناء بريّ في صحراء المغرب الأوسط[3]، وبعدها يبدأ الوسطاء والمُؤجِّرون لقيادة القوافل إلى السُّودان الغربي في التَّحضير الجاد لانطلاق القافلة، وهذا بعد عقد اجتماع تضبط فيه مجموعة من الأمور، كاختيار مسؤول الرِّحلة والطَّبيب والمؤذن والكاتب، كما يُحدَّدُ في هذا الاجتماع وجهة القافلة ومسلكها الذي يشترط فيه وجود نقاط الماء، واستئجار الخبير الذي له معرفة و دراية بالمسالك الصَّحراويَّة وأماكن الآبار والمراعي الخاصة بالإبل.[4]

---

[1] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.100.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.689.

[3] – روبار برنشفك: المرجع السَّابق،ج.2، ص.265.

[4] – أحمد ذكار: **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التِّجاريَّة**، ص.60 – 61.

7 – 2 – مرحلة الانطلاق:

تبدأ هذه المرحلة بعد شراء أو كراء العدد الكافي من الإبل القويَّة القادرة على حمل السِّلع، وقد تَجَهَّزَ "ابن بطوطة" في رحلة عودته من السُّودان حيث أشار لذلك في قوله: «واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث... ورفعت زاد سبعين ليلة»[1]، ثمَّ يُحدَّدُ موعد الانطلاق كما قال "ابن حوقل" «بفصل الشِّتاء»[2]، بينما جعله "الإدريسي" زمن الخريف[3]، ورغم التَّقارب بين الرَّأيين إلاَّ أنني أميل إلى رأي "الإدريسي" لعدَّة اعتبارات، منها: أنَّ فصل الخريف هو موسم جني التُّمور التي كانت من ضمن البضائع التي يتمُّ نقلها للسودان، ثمَّ إنَّ فصل الخريف يكون عقب الصَّيف الذي تتعسَّر فيه الحركة، أمَّا فصل الشِّتاء فيعقبه الرَّبيع الذي تشتدُّ فيه الرِّياح التي تُصعب معها حركة السَّير.

أمَّا بخصوص نظام سير القافلة فـ"ابن بطوطة" يُصرُّح بأنَّ الرِّحلة تبدأ بعد صلاة العصر والتَّسري طوال الليل، ومن ثمَّ النُّزول عند الصَّباح[4]، بينما يُزوِّدُنا "الإدريسي" بتفاصيل أدقُّ، تُوضح الفواصل الزَّمنيَّة للمسير في قوله: «أنَّهم يُوقِرُون جمالهم في السَّحَرِ الأخير ويمشون إلى أنْ تطلع الشَّمس ويكثر نورها في الجوِّ ويشتدُّ الحرِّ على الأرض، فيحُطُّون أحمالهم و يُقيِّدون جمالهم ويعرسون أمتعتهم ويُخيِّمون على أنفسهم ظلالاً تَقيهم حرَّ الهجير وسموم القائلة ويُقيمون كذلك إلى أوَّل وقت العصر، وحينما تأخذ الشَّمس في الميل والانحطاط في جهة المغرب يرحلون من هناك ويمشون بقية

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق،ج.2، ص.712.
[2] – ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.100.
[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.107.
[4] – ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.2، ص.689.

يومهم ويواصلون المشي إلى العتمة ويعرسون أينما وصلوا ويبتون بَقيَّة الليل إلى أوَّل الفجر الأخير ثمَّ يرحلون، وهكذا سفر التُّجار الدَّاخلين لبلاد السُّودان».[1]

ويبدو أنَّ وقت سير القوافل يختلف باختلافه وجهة القافلة والأشخاص المُشرفين عنها، ولقد أشار "**بونمان فرنسوا**" في رحلته من "تقرت" إلى "غدامس" إلى فترات سير القافلة التي تبدأ سيرها بعد شروق الشَّمس ثمَّ تستريح في مكان يُخيِّم فيه كلَّ تاجر مع سلعة و إبله حولها، حتَّى العصر ثمَّ تواصل سيرها، كما يفيد في هذا الصَّدد بوجود مدَّة استراحة للقافلة صباحاً لا تدوم أكثر من خمس وعشرين دقيقة.[2]

وعلى ما يبدو فإنَّ المسافة التي تقطعها القافلة بشكلٍ يومي كانت طويلة، وأيّاً كانت وجهة وحركة القافلة فإنَّها ستجد نفسها عُرضة للعديد من المخاطر، وهذا ما استوجب وجُود نظام أو هيكل مُحكم يُسيِّرُ القافلة ويحفظ سلامتها، ويتكون هيكل القافلة ممَّا يلي:

7 – 3 – هيكل القافلة:

7 – 3 – 1 – مُقدَّم القافلة: وهو المسؤول الأوَّل عن القافلة، ويُفوَّض له مُهمَّة تسيير القافلة، وقد أشار "ابن بطوطة" إلى ذلك بقوله: «ثمَّ سافرتُ في غرَّة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة مقدَّمها "**أبو مُحمَّد بند كان المسُوفي**"»[3]، وغالبا ما يكون من أبناء القبيلة التي تمرُّ القافلة بأراضيها ولابُد أنْ يكون له باع وخبرة في ميدان قيادة القوافل.[4]

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.107.

[2] – سميرة دعاشي: المرجع السَّابق، ص.156.

[3] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.686.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.135.

7 – 3 – 2 – دليل القافلة: يأتي في المرتبة الثَّانية بعد مُقدَّم القافلة، ولابُدَّ أنْ يكون له دِراية كبيرة بالمسالك وذو معرفة دقيقة بالبراري والقفار، ويجب أنْ يكون على مستوى من الحذق والدِّراية بالمناطق التي تنتشر فيها الآبار والمراعي[1]، وللدليل مسؤوليَّة كبيرة، فهو المسؤول الأوَّل عن أيِّ مكروه يصيب القافلة، وإذا بقي على قيْد الحياة بعد تعرُّضِ القافلة لحادث فإنَّه يُحاسب على أخطائه و يدفع دِيَّة الأموات.

7 – 3 – 3 – التَّكشيف (الكشاف): هو شخص تكتريه القافلة مُقابل مبلغ مُتفقٌ عليه، مهمَّته إيصال تعليمات الدَّليل إلى مختلف أطراف القافلة، ويبدو أنَّ التَّكشيف كان محصوراً في قبيلة "مسوفة" وفقاً لما أشار إليه "ابن بطوطة"، «والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة»، ويبدو أنَّ التَّكشيف زمن "ابن بطوطة" (ق.8هـ/14م) كان يُكترى بمائة مثقال، وهذا ما أفادنا به في قوله: «**و اكترينا التَّكشيف في هذه السَّفرة بمائة من الذَّهب**».[2]

7 – 3 – 4 – فقيه القافلة: شخص له دِراية بالأمُور الشَّرعيَّة، مُهمَّته تتلخص في إقامة الصَّلاة و إمامة النَّاس وتدوين المعاملات التِّجاريَّة، التي تَحْدُث بين أفراد القافلة وفق الشَّريعة الإسلاميَّة و يَفُضُّ النِّزاعات التي قد تحدث في القافلة، ويُشرف أيضاً على تجهيز موتى القافلة.[3]

7 – 3 – 5 – التُّرجمان: وَلِكَوْنِ هذه القوافل تجتاز إطارها الحضاري إلى مناطق وحضارة مجتمعات أخرى تتكلم لغة غير لغة سُكَّان الصَّحراء لذلك فهي بحاجة إلى أنْ يكون ضمن هيكلها مترجمٌ يعرف لغة الأقوام الذين سيتعاملون معهم، خاصة بأرض

---

[1] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.77.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.704.

[3] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السابق ، ص.137.

السُّودان[1]، ويشير "الوزَّان" «أنَّ القافلة التي كان فيها وصلت أرض السُّودان وقام أميرها بإكرامهم، رغم أنَّه لا يفهم لغتنا ولا نفهم لغته وإنَّما كانت محادثتنا معه بواسطة ترجمان»[2]، ويذكر "ابن خلدون": «أنَّ الوفادة التي أرسلها ملك "مالي" "**منسى موسى**" إلى السُّلطان "**أبي الحسن**" بـِ"تلمسان" كان يرافقها تُرّجمان من الملثمين المجاورين لممالكهم من "صنهاجة"».[3]

7 – 3 – 6 – خفارة القافلة: مجموعة من الأشخاص يستعين بهم أهل القافلة في الحراسة، أطلق عليهم "خفارة القافلة"، وأهل القافلة هم من يُوفِّرون لهم الأسلحة مقابل أجور يتمُّ الاتفاق عليها مُسبقاً[4]، وكان بعض التُّجَّار يَسْتعين بالعبيد لحراسة القافلة، وهذا ما أشار إليه "الحسن الوزَّان" قائلا: «ولكل تاجر عدداً كبيراً من العبيد يستخدمهم كَحُراس له في الطَّريق...».[5]

وغالبا ما تتكون القافلة المتجهة نحو السَّودان من ثلاثة آلاف إلى اثنى عشرة ألف جمل، ويُشير "ابن خلدون" إلى ذلك بقوله: «اجتاز بنا هذا العام سفر تجَّار المشرق إلى بلد "مالي" كانت ركابهم اثنى عشرة ألف راحلة»[6]، ويرافقها أكثر من أربعمائة نفر وتقطع الآلاف من الكيلومترات في مدَّة تزيد عن الثَّلاثة أشهر كلُّها في الفيافي والقفار.

---

[1] – عبد الرَّحمان بلاغ: «**الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط**»، مجلَّة النَّاصريَّة، مج.4، ع.1، مخبر البحوث الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، جامعة مصطفى اسطنبولي–معسكر، الجزائر، جوان/2013م، ص.514.

[2] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.1، ص.61.

[3] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.353.

[4] – محمد العيد تيته: المرجع السابق، ص137.

[5] – الوزَّان: المصدر السابق، ج.2، ص.172.

[6] – ابن خلدون **العبر**، ج.7، ص.70.

على الرَّغم من الأخطار التي كانت تتعرض لها القوافل إلاَّ أنَّ التُّجار المغاربة كانوا "مُولعون بالدُّخول إلى بلاد السُّودان" معتمدين في ذلك على الجمل، إذْ تعتبرُ الجمال من أهمِّ الدُّعَامَات الأساسيَّة المحرِّكة لاقتصاديَّات دول العصر الوسيط عموما والصحراء الكبرى على وجه الخصوص، وهذا بانخراطها الفعلي والمباشر في كافة أشكال التَّحركات الأخرى كالسِّياسي والاجتماعي والثَّقافي والعسكري[1]، وقد نوه القرآن الكريم بالدَّور المنوط بها لحملها السِّلع والأشخاص في قوله تعالى:﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[2].

ويرى "جورج غير ستر" أنَّ البعير ذو السِّنام الواحد كان عجلة الانتقال الأولى في الصَّحراء منذ دخوله في فترات مُتقدِّمة من تاريخها، أيْ الصَّحراء الكبرى حيث كان طرفاً مهمًّا في عمليَّة التَّواصل الحضاري بين حواضر الإقليم الصَّحراوي للمغرب الأوسط وبلاد السُّودان، ونظراً لسهولة تكيُّفه مع مناخ الصَّحراء المُضْطرب والذي يتميَّزُ بندرة المياه والمراعي، والارتفاع الشَّديد لدرجات الحرارة[3].

فالجمل لا يتأثَّر بالتَّفاوت الحراري للبيئة التي يعيش فيها إذ تنخفض درجة الحرارة في جسمه ليلاً لتبلغ 33.70 مئويَّة وترتفع في الحرِّ نهاراَ إلى أنْ تصل 40.50 مئويَّة، فضلاَ عن قدرته على حمل الأثقال مدَّة أربعين أو خمسين يوماَ.[4]

ويبدو أنَّ المتداول في بلاد المغرب والسَّودان الغربي نوعين من الإبل، وهما: المهاري، وهي جمال مُخصَّصة لركوب الأشخاص، وقد سُمِّيت بالمهاري نسبة إلى

---

[1] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السابق، ص.138.

[2] – سورة النحل: الآيات.05 – 06 – 07.

[3] – جورج غير ستر: المرجع السَّابق، ص.10.

[4] – حسن حافظ علوي: **دراسات صحراويَّة**، ص.138.

قبيلة "مهرة بن حيدان اليمنيَّة"[1]، وتميَّزت بسرعة العَدْوِ يقطع بعضها أكثر من مائة كيلو متر في اليوم[2]، وتُستخدم لنقل الرَّسائل إلى المراكز التِّجاريَّة التي تتجه إليها القافلة والعودة بأجوبتها[3]، ويذكر "الوزَّان" «بأنَّ ملك "تمبكتو" إذ أراد ابلاغ أمر هام إلى تُجَّار بلاد المغرب كان يبعث إليهم برسائل مع جَمَّالَيْنِ يمتطون إبل سريعة تقطع المسافة بين "تمبكتو" و"سجلماسة" في ظرف سبعة أيَّام أو ثمانية».[4]

وجِمَال الحمل مُخصَّصة لنقل البضائع[5]، ويسير الجمل بمُعدَّل ستُّ ساعات في اليوم في الظُّروف العادية ويقطع خلالها مسافة تتراوح ما بين 25 و 30 كلم، ويستطيع السَّير في الظُّروف الاستثنائيَّة ما بين 10 و 15 ساعة في اليوم ويقطع خلالها ما بين 50 و 60 كلم[6]، ويذكر "جورج غير ستر" الذي ركب الجمل في سفرياته بـِ"ورقلة" ومناطق الجنوب أنَّ الجمل إذا سار سيرًا عاديا قطع ميلين في السَّاعة[7].

وتصل حمولة الجمل في الحالات العادية إلى ما بين 125 و 150 كلغ، ويمكن أنَ تتجاوز ذلك في الحالات الاستثنائيَّة لتصل ما بين 170 و180كغ.[8]

---

[1] – عمرو بن بحر الجاحظ: **كتاب الحيوان**، تح: عبد السَّلام مُحمَّد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط.2، 1967م، ج.6، ص.216.

[2] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.260.

[3] – النَّاني ولد الحسين: **صحراء الملثمين دراسة في تاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف ق.2هـ/8م إلى نهاية ق.5هـ/11م**، تق: مُحمَّد حجي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط.1، 2007م، ص.261.

[4] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.260 – 261.

[5] – النَّاني ولد الحسين: المرجع السابق، ص.261.

[6] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.152.

[7] – جورج غير ستر: المرجع السَّابق، ص.11.

[8] – النَّاني ولد الحسين: المرجع السَّابق، ص.209.

وكان لحوافر الخيل أيضاً أثر في تلك القفار والفيافي؛ يذكر "الدِّرجيني" أنَّ: «"**أبا نوح سعيد بن يخلف**" (350-400هـ/961-1009م) كان له أربعون فرسا، وكان يصطفي منها فرساً عتيقا يعدُّه للشدائد... وعليه سافر إلى "تادمكة"»[1]، و تشير المصادر إلى وجود الحمير أيضاً، بحيث كانت تستخدم في نقل البضائع والسِّلع بين القرى والمدن، و"البكري" خلال وصفه لمملكة "غانة" قال: «أنَّ لملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله إلى البلد».[2]

8)- المخاطر التي تتعرض لها القوافل خلال الرَّحلة:

بمَّا أنَّ رحلة القافلة كانت تستغرق ثلاثة أشهر أو أزيد، فإنَّه لا مناص من وقوعها في العديد من المشاكل والمخاطر، وقد تعدَّدتِ مخاطر تنقل القوافل في القفار بين العوامل الطَّبيعيَّة كالحرِّ و شدَّة القيظ والزَّوابع الرَّمليَّة، وعدم وضوح معالم الطريق وقلَّة الماء وفساد طعمه ولونه ورائحته وتبخره في القِرَبِ والأسقيَّةِ بسبب الارتفاع الكبير لدرجة الحرارة، وكذا لسع العقارب ولدغ الأفاعي ونهش الهوام[3].

وعوامل أخرى مصدرها الإنسان كالحرَابة، والاعتداء على القوافل بالإضافة إلى عوامل ثقافيَّة لها علاقة بالمُتخيَّل، كاستهواء الجنِّ والشَّياطين للمسافر المنفرد، وما ترسَّب في الذَّاكرة الوسيطيَّة من صور مُذْهلة عن الغُول والقُطرُب والطَّامة، وعن التَّطيّر من بعض الأمارات والتَّشاؤم بسوء الطَّالع والإحجام عن السَّفر في الأيَّام النَّحسات[4].

---

[1] - الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.367.

[2] - البكري: المصدر السَّابق، ص.176.

[3] - حسن حافظ علوي: **دراسات صحراوية**، ص.157. **وينظر**، ابن حوقل: المصدر السَّابق، ص.65. **وينظر**، الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.107. **وينظر**، ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.689. **وينظر**، الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.1، ص.61. **وينظر أيضاً**، ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.113.

[4] - حسن حافظ علوي: المرجع نفسه، ص.157.

وقد أوحت هذه الأخطار الطَّبيعيَّة والثَّقافيَّة التي أحدقت بـــالمسافرين في القفر إلى أحد الباحثين بالحديث عما سمَّاه «بعدوانيَّة هذا المجال المجهل تجاه الإنسان»[1] ودعا إلى ضرورة أخذ الصَّحراء كمُعطى جُغرافي وثقافي بعين الاعتبار كلَّما جرى الحديث عن علاقات "المغرب" ببلاد "السُّودان" في العصر الوسيط، وسنقف في هذا المقام على أهمِّ المخاطر التي تتعرض لها القوافل:

8 – 1 – كثرة الحرِّ: تتميَّزُ تلك القفار بارتفاع درجة الحرارة وبشدَّة الإشعاع الشَّمسي وقلَّة التَّساقطات، ولا مراء أنَّ المسافرين كانوا يُعانون من شدَّة ارتفاع درجة الحرارة بالقفر ولم يَسلموا من تأثير أشعة الشَّمس[2]، وذكر "الحموي" أنَّ رجلا من أهل "تيهرت" سافر إلى بلاد السُّودان «فأتى عليه يوم له وهج وحرٌّ شديد وسموم في تلك الرِّمال، فنظر إلى الشَّمس راكدة على قمم الرُّؤوس وقد صهرت النَّاس فقال مشيرا إليها: "أمَا والله لئن عزَّزْتِ في هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتيهرت" لأنَّ تيهرت كانت كثيرة الضَّباب والمطر»[3]. وقد يتعرَّض المُسافر في هذه القفار إلى ضربات الشَّمس، فقد أكَّد العلم الحديث أنَّ الجسم لا يقوى على مقاومة الحرارة الشَّديدة.[4]

8 – 2 – الرِّياح: تُعدُّ من أهمِّ المخاطر التي تتعرض لها القوافل، ولعلَّ أخطرها تلك التي تهبُّ من الجنوب والجنوب الغربي وتُعرف عند علماء المناخ "بالسيريكو"(siroco)، وتُعرف بالمغرب الأوسط باسم (الشِّيهلي، أو الكبلي، أو القبلي) بمعنى الجنوبي، وتتسبَّب في ارتفاع درجة الحرارة لأنَّها جافة مُحْرقة تتجاوز حرارتها 40°، وقد يصل ارتفاع زوابعها إلى 2000متر فتتعذر الرُّؤية على بعد عشرين متراً

---

[1] – أحمد الشُّكري: «**مقاربات تقييميَّة لدور الصَّحراء في علاقات بلاد المغرب ببلاد السُّودان خلال العصر الوسيط**»، مجلَّة المناهل، ع.58، ، 1998م، ص.62.

[2] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.158.

[3] – الحموي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.7 – 8.

[4] – جميلة بن موسى: المرجع السَّابق، ص.57.

وهي من أخطر الرِّياح المُحدِقة بالمسافرين في القفر نظراً لملازمتها لهم في رحلتهم تمنعهم من نصبِ الخيام وإعداد الطَّعام فلا يجدون ما يقتاتون به[1].

وقد تُرْغِمُ بعضهم على الإفطار في "رمضان" وهذا ما حدث مع "العياشي" حين منعته الرِّيح من إيقاد النَّار فأصبح مُفطرا[2]. ناهيك على ما تُسبِّبه هذي الرِّياح من حجب للرؤية وطمسٍ لمعالم الطَّريق، وفي هذا يُشير "ابن سعيد" «أنَّ الطَّريق التِّجاري الرَّابط بين "المغرب" و"غانا" إنَّما هو رمال سائلة وطُرق مُضَلِّلة طامسه».[3]

8 – 3 – العطش: ينعدم الماء في الصَّحراء الفاصلة بين بــلاد المغرب والسُّودان الغربي لمسافات طويلة تتراوح بين يومين وأربعة عشرة يوماَ، وينجرُّ عن فُقدان الماء هلاك الأشخاص بسبب شدَّة العطش وجفاف الجسم، وقد يتناول المسافرون مياه فاسدة مُهلكة ليس لها صفات الماء، إلاَّ التَّميع لأنَّ غالب مياه الآبار مالحه زُعاق[4]، وأشار "إبن بطوطة" «أنَّ ماء "تغازى" زُعاق أقمنا بها عشرة أيَّامٍ في جهد».[5]

8 – 4 – التِّيه في الصَّحراء: غالباً ما تتعرَّضُ القوافل لفقدان بعض الأشخاص بظلِّ الطَّريق أو بسبب كثرة الرِّياح التي تحجبُ الرُّؤية، ولقد أشار "ابن بطوطة" إلى ضياع رجل يعرف بـِ"ابن زيري" في القافلة التي صَحِبَتْهُ إلى بلاد السُّودان.[6]

8 – 5 – تعرُّض القوافل للنهب والسَّطو وإلى غارات القبائل الصَّحراويَّة: بمَا أنَّ الطُّرق كانت عبارة عن مفاوز قليلة الماء والمرعى، فغالباً ما تُشكِّل مرتعاً ومأوى للمعتدين الذين يُغِيرون على القوافل ويكون ذلك أثناء العودة، فتكون القوافل مُحمَّلة

---

[1] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.163.

[2] – العياشي: المصدر السَّابق، ص.411.

[3] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.113.

[4] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.169.

[5] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.687.

[6] – نفسه .

بالتَّبر، وتلك الغارات تتمُّ باختفاء المُغِيرين داخل البئر وقطع حبل الدَّلْوِ ليحرمُوا القوافل من التَّزود بالماء، وبالتَّالي هلاكها بالعطش ثمَّ يتمُّ السَّطو على ممتلكاتها.[1]

فالتَّاجر كثيراً ما كان يُعاني من خطر النَّهب والسَّلب والاعتداء، فـ"العبدري" يصفُ لنا المفازة الواقعة جنوب غرب "تلمسان" أنَّها: «من أضرَّ بقاع الأرض على المسافرين لأنَّ المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدَّهم أذية لا يسْلمُ مِنهم صالح ولا طالح».[2]

8 – 6 – عوامل ثقافيَّة كاستهواء الشَّياطين للمُسافر المُنْفرد: لم تقتصر مخاطر القوافل على ما هو مادي طبيعي بل تجاوزتها لما هو ثقافي، ومالهُ علاقة بالمُتخيَّل والمعتقدات وبما ترسَّخ في الذَّاكرة من مفاهيم حول الصَّحراء، فقد ظلَّت الصَّحاري تُثير في النُّفوس الهيبة والرَّهبة واستعصى على الإنسان تطويع جبروتها، وما يُدلِّلُ على ذلك أنَّ صحراء بلاد المغرب لم تكنْ معروفة بالقدر الكافي لدى ساكنة الواحات، ولهذا حفل هذا المجال بالأساطير والخرافات[3].

ويذكر صاحب "تحفة الألباب": «أنَّ في "السُّودان" أمَّة لا رؤوس لـــــهم، وأنَّ في صحراء بلاد المغرب أمَّة من ولد آدم كلهم نساء لا رجل بينهم، وأنَّهم يدخلن في ماء عندهن فيحملن من ذلك الماء وتلد كل إمراة بنتاً لاتلد ذكراً البته».[4]

ومن الأخطار ذات الصِّلة الوثيقة بالمُتخيَّل والمعتقدات وبالثَّقافة العربيَّة العامة، ما ذُكر عن الهواتف والجنِّ والشَّياطين بالصَّحاري، ويذكر "ابن بطوطة" في هذا الشَّأن

---

[1] – جميلة بن موسى: المرجع السَّابق، ص.58.

[2] – أبو عبد الله العبدري: **رحلة العبدري**، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدِّين للطِّباعة والنَّشر، دمشق، ط.2، 2005م، ص.45.

[3] – حسن حافظ علوي: **دراسات صحراوية**، ص.181.

[4] – أبو حامد الغرناطي: المصدر السَّابق، ص.43 – 44.

«أنَّ صحراء "إيوالاتن" كثيرة الشَّياطين فإنْ كان التَّكشيف مُنْفرداً لعبت به واستهوته حتَّى يضلُّ عن قصده فيهلك».[1]

وهي من الظَّواهر التي استعصى تفسيرها على عامة النَّاس، في حين فسَّرها البعض بالتَّوحُّدِ في القفار والتَّفرُّدِ في الدِّيار لأنَّ الإنسان إذا تَوَحَّد توحشَّ وإذا توحشَّ فكَّر، وإذا فكَّر وَجِلَ فداخلته الظُّنون الكاذبة والهُموم السَّوْدانيَّة الفاسدة فوهمته المُحال من الأصوات والأشخاص[2].

وقد عَزَى صاحب كتاب "الاستبصار" خلاءَ صحاري إفريقيَّة إلى الجنِّ الذين كانت نيرانهم تُرى بالليل ويُسمع عَزفُهم وغِناؤهم بها، وذكر أنَّهم كانوا يختطفون النَّاس ويحملونهم معهم وربَّما يُفلت الإنسان منهم ويعود إلى أهله وهذا مُتعارف، ويُقال أنَّهم يُبدِّلون أولاد الإنس، ولذلك يقول: أهل إفريقيَّة يا مَبْدُول[3].

وتزخرُ الثَّقافة العربيَّة بروايات كثيرة عن أهوال القفرِ وأخطار الجنِّ على الإنسان، ومن ذلك ماحُكي عن العُذار والغُول والقُطْرُب.[4]

يبدو لي أنَّ هذه المخاطر قد شكَّلت هاجساً كبيراً لمرْتدي تلك المسالك، الأمر الذي دفع بالكثير منهم لاتخاذ جملة من التَّدابير لتفادي الوقـوع في تلك المخـاطر وحماية الأرواح والأملاك، ومن جملة الإجراءات التي تمَّ اتخاذها:

- تجنُب السَّفر في مواسم الرِّياح واللجوء إلى السَّيْر في المَمرَّات الضَّيِّقة وتجنُّب مفاوز الرِّمال المُتحرِّكة، وفي نصِّ "البكري" ما يؤكد تجنُّب القوافل لطريق الرِّمال الواسعة، فخلال وصفه لطريق "تامدلت" "أودغشت"، يقول: «ومن "تامدلت" إلى بير الجمَّالين

---

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.788.

[2] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.181.

[3] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.149.

[4] – حسن حافظي علوي: **دراسات صحراوية**، ص.182.

مرحلة، وهذه البير عُمقها أربع قامات من أنباط "عبد الرَّحمان بن حبيب"، ومنها شُعبٌ ضيِّقة لا تسير فيه الإبل إلاَّ متتابعة».[1]

- اختيار دليل القافلة من قبائل البدو الرُّحل، وهذا لِمَا لهم من جرأة وشجاعة ودراية بأحوال الصَّحراء أكثر من غيرهم، مثل: قبائل "مسوفة" التي كان لها الاحتكار الشِّبه الكُلِّيُّ للطُّرق المُتوجِّهة من "سجلماسة" جنوبا.
- عقد اتفاقيَّات مع البدو الرُّحلِ أسْياد الصَّحراء من أجل حماية القوافل طول الطَّريق من الاعتداءات ونقص الماء، ومن هذه القبائل "مسوفة"، "لمته"، و "جزولة".[2]
- دفع بعض الإتاوات لشيوخ القبائل التي يجتازون عنها، وقد قُدِّرت تلك الإتاوات زمن "الوزَّان" بقطعة قماش قيمتها "دوكا" واحدة على حمولة الجمل.[3]

- الاستعانة بكرامات الأولياء، أثناء عزمهم على السَّفر يقصدون الأولياء لالتماس الدُّعاء منهم[4] ونيل بركتهم، كإجراء احترازي يَجدون نفعه أثناء سفرهم، وهو ما تؤَكِدُه إحدى روايات "ابن الزَّيَّات" التي حدَّثه بها أحد أبناء الولي "أبو القاسم بن أبي الفضل"، مفادها أنَّ: أحد تُجَّار "سجلماسة" أخبر والده أنَّه وجد بركة دعائه فرغم خروج

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.156.

[2] – جميلة بن موسى: المرجع السَّابق، ص.58.

[3] – الوزان: المصدر السَّابق، ج.2، 148.

[4] – حديث "صفوان بن عبد الله بن صفوان"، قال: قَدِمْتُ الشَّامَ، فأتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ في مَنْزِلِهِ، فَلَمْ أَجِدْهُ وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، فَقالَتْ: أَتُرِيدُ الحَجَّ العَامَ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ لَنَا بخَيْرٍ، فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ كانَ يقولُ: «**دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لأَخِيهِ بظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّما دَعَا لأَخِيهِ بخَيْرٍ، قالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بهِ: آمِينَ وَلَكَ بمِثْلٍ**». ينظر، **صحيح مسلم**، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب: فضل الدُّعاء للمسلم بظاهر الغيب، رقم الحديث:**2733**. **ينظر**: كمال بركات، عبد القادر بوعقادة: " **الأولياء والتصدي للجريمة في مجتمع المغرب الإسلامي من خلال التشوّف للتادلي . قراءة في آليات المجابهة وسبل التخفيف**" ، مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية، مج19، ع1، جامعة سطيف 2، سطيف، (الجزائر)، 2022م، ص 90.

اللصوص عليهم سلمت بضاعته التي خبَّأها في سدرة[1]؛ وهذه الرَّواية تظهر فضل "**الدُّعاء**" التي وظفَّها الأولياء لتأمين السَّاكنة أثناء سفرهم كما تُظهر جانباً ذهنيًّا لمجتمع المغرب الإسلامي، وهو اعتقادهم في قدرات الولي فكان دعاؤه يمثّل ضمانا للسلامة[2].

وعمل بعض الأولياء على مرافقة المسافرين بهدف تأمين الطَّريق لهم، فقد كان الوليُّ "**أبو يعقوب تصولي المحاسبي**" "«يرافق قوافل المسافرين لتأمين طرقهم»[3] وإذا تعذَّر حضور الوليِّ مع القافلة كان يكفي اصطحاب شيء يخصَّه فتأمن ببركته القافلة من اللصوص، كما هو والد "مُحمد الموهوب" الذي تعوَّد على مرافقته القوافل التي تمرُّ على منطقة "زواوة" فيؤمِّنهم من لصوصها، وإذا غاب هو استصحبوا أحد أغراضه سواءً بغلته أو كتابا له أو شملته.[4]

إنَّ لجوء المسافرين لمثل هذه الإجراءات يُوضِّح لنا حجم المخاطر التي كانت تَعترض المسافرين ومرْتادي تلك المسالك.

إنَّ ما يمكن الانتهاء إليه مما سبق تناوله بالدِّراسة والتَّحليل، أنّ َبُنية اقتصاد الحواضر الصَّحراويَّة كان يُراهن على عنصر التِّجارة الذي بدا عُنصراً حيويًّا أحدث انقلاباً هيكليًّا في البنى الاجتماعيَّة على مستوى المعاش والحركيَّة، ومن هنا حُقَّ لنا أنْ نتساءل فيما إذا كانت هذه التَّحوُّلات البنيويَّة التي أحدثها الحراك الاقتصادي والتِّجاري منه بالخصوص، قد تؤدي معها نفس الأمر بأنّ أحدثت انقلاباً على المستوى الثَّقافي أمْ أنَّ الامر ظلَّ رهن التَّرف المادي؛ وإذا كانت الظُّروف السُّوسيو اقتصاديَّة الجديدة

---

[1] – أبو يعقوب يوسف بن يحي التَّادلي(ابن الزَّيات): **التَّشوُّف إلى رجال التَّصوف وأخبار أبي العباس السَّبتي**، تح: أحمد التَّوفيق، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، الرِّباط، ط.2، 1997م، ص.380.

[2] – كمال بركات، عبد القادر بوعقادة: المرجع السابق، ص90.

[3] – ابن الزَّيات: المصدر السابق، ص.131.

[4] – عبد الكريم الفكون: **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1987م، ص.201.

قد مسَّت القطاع الثَّقافي هو الأخر، **فماهي تجليَّات ذلك وانعكاساته على واقع الحواضر الصَّحراويَّة؟**

الفصل الثالث: النشاط العلمـــي والثقــافي بالحواضر الصحراويـــة.

أولا: ملامح المنظومة التعليمية و العلمية بالحواضر الصحراوية.

ثانيـا: العلـــوم السائدة بالحواضـــر الصحراويـــــة.

ثالثـا: العلمـــاء و انتـــاجهـــم الفكـــــري.

رابعـا: المراكـــز العلميـــة بالحواضـــر الصحراوية.

خامسا: التواصل المعرفي بين الحواضر الصحراوية و البلدان المجاورة.

طلب العلم والتَّعلُّم ترجمان الفكر الذي يحمله الإنسان أينما كان وأينما حلَّ، ولأنَّ إنسان بلاد المغرب الأوسط في حواضره الصَّحراويَّة كان تواقاً للعلم والثَّقافة سعى جاهداً لوضع منظومة تعليميَّة علميَّة تَضَعُهُ ضمن الرَّكب الحضاري لبني البشريَّة جمعاء، تعليما وتعلُّماً تأثيراً وتأثُّراً، فما ملامح هذه المنظومة التَّعليميَّة والعلميَّة؟

أوَّلاً: ملامح المنظومة التَّعليميَّة والعلميَّة بالحواضر الصَّحراويَّة.

1)- عوامل ازدهار الحركة العلميَّة في الحواضر الصَّحراويَّة:

ساهمت العديد من العوامل في ازدهار الحركة الثَّقافيَّة بحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة ومن أبرز هذه العوامل:

1 – 1 – العامل الجغرافي:

ساهم الموقع الجغرافي للحواضر الصَّحراويَّة بشكل غير مباشر في ازدهار الحركة الثَّقافيَّة بها، إذْ أنَّ بُعدها وانعزالها عن مراكز السُّلطة قد وفَّر لها الأمن والاستقرار النِّسبي، وجعلها مقصداً وملاذاً للفارين من بطش وجُور الحُكام أو لمن أدبرت عليه مقاليد الحكم[1] و قد أوردت لنا المصادر العديد من النَّماذج لعلماء وأمراء كانت تلك الحواضر ملجأ و ملاذاً لهم ومن الأمثلة على ذلك، لجوء آخر أئمة البيت الرُّستمي الإمام "**يعقوب بن أفلح**" إلى "وارجلان" بعد سقوط دولته على يد العُبيديين، ويُشير الدِّرجيني لذلك بقوله: «... وأقبل الإمام يعقوب بن أفلح بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان وذلك على عهد الشَّيخ أبو صالح جنون بن يمريان»[2] فحاضرة "وارجلان"

---

[1] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.239. **وينظر**، عمر خليفة النَّامي: المرجع السَّابق، ص.17. **وينظر أيضاً**، مُحمَّد زقاوي وعمر بلبشير: «**الحركة العلميَّة بورجلان من خلال نظام حلقة العزَّابة ما بين القرن (4-6هـ) علم الكلام نموذجا**»، مَجلَّة النَّاصريَّة للدراسات الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، مج.8، ع.1، جامعة معسكر، جوان/2017م، ص.203.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.105. **وينظر أيضاً**، علي يحيى معمر: المرجع السَّابق، ج.1، ص.158.

كانت ملجأ للعائلة الرُّستميَّة، ولجأ إلى "وارجلان" أيضاً: الشَّيخ "**سعيد بن زنغيل**" وذلك بعد فشل ثورته التي خاضها مع شيخه "**أبو خزر يغلا بن زلتاف**" ضدَّ الفاطميين سنة (358هـ/969م) حيث قصد "وارجلان" هروبا من مَكْرِ وكيد العبيديين؛ وبخصوص هذا الشَّأن يذكر الشَّمَّاخي: «... ولمَّا فرَّ من أبي تميم لحق ببلاد وارجلان ومعه أهله ومن يختصُّ به وجميعهم تحت خوفٍ واختفاءٍ، فتلقاه شيخ وارجلان أبو صالح جنون بن يمريان و أكرم وفادته».[1] ولم يكن الهروب من الاضطهاد والبطش هو الدَّافع الوحيد الذي جعل الكثير من العُلماء يلجؤون للواحات.

فقد كان لاضطراب أوضاع المغرب السِّياسية وكثرة الفتن والحروب[2] عاملاً مُهماً للهجرة إضافة إلى جُور بعض الحكَّام ومفاسدهم، والتي كانت دافعا لهجرة الكثير منهم لاسيما العلماء فالإمام "**عبد الكريم المغيلي**" كان ساخطاً على الوضع القائم بتلمسان من جور الحُكَّام ومفاسد اليهود وسكوت العلماء، فخرج منها مُتَّجهاً نحو "توات" ونزل "تمنطيط" واستقر بها مُدرِّساً وفقيها وفي ذلك يقول: «ودخلنا توات فوجدناها دارُ علم وأكابر فانتفعنا بهم وانتفعوا بنا»[3]؛ ناهيك عن الظُّروف والتَّقلُّبات المناخيَّة التي كانت

---

[1]– الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.41. **وينظر**، أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.235. **وينظر أيضاً**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.143.

[2] – ساهمت بعض الحوادث السِّياسيَّة التي شهدها المغرب في لجوء الكثير من العلماء والمشايخ إلى واحات "أسوف" و"وارجلان" و"أريغ" ومن أهمّ تلك الحوادث: **واقعة مانو**(283هـ/896م) بين النَّفوسيين والأغالبة، وانتهت بهزيمة النَّفوسيين ومقتل إثنا عشرة ألف قتيل من الإباضيَّة، منهم أربعمائة عالم فقيه. ومنها: "**معركة باغاي**" التي هزم فيها الفاطميون الإباضيَّة بقيادة الشَّيخين "أبو خرز يعلا بن زلتاف" و"أبو نوح سعيد بن زنغيل" سنة(358هـ/969م). وكذا "**تخريب قلعة درجين**" من طرف الصَّنهاجيين خلال حربهم ضدَّ "زناته" وفرار العديد من العلماء إلى "آجلو" بـِ"أريغ" سنة(440هـ). **ينظر**، الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.89. **وينظر**، أبو زكرياء: المصدر نفسه، ص.157. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.107. **وينظر**، علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.1، ص.159.

[3] – زينب سالمي: **الحياة العلميَّة في إقليم توات خلال القرون(8 – 10هـ)**، مُذكِّرة مُقدَّمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص: تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف: بودواية مبخوت، قسم التَّاريخ وعلم الآثار، كُلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، 2012م ، ص.44.

من ضمن عوامل الهجرة وأيًّا كانت ظروف وأسباب الهجرة نحو الواحات، فإنَّ استقرار تلك الوفود بها خاصة العلماء منهم قد ساهم في بعثِ الحركة العلميَّة والثَّقافيَّة بتلك المجالات، وذلك من خلال اسهاماتهم ونشاطاتهم العلميَّة بها، فقد مكث الإمام "**يعقوب بن أفلح**" بوارجلان ينشرُ العِلم والدِّين وذلك لِمَا أشتهر به من غزارة علم وقوَّة ذاكرة ومِمَّا ذُكر عنه في سؤال وجهَ له: «أتحفظ القرآن؟، فأجاب: معاذ الله أنْ ينزل على موسى و عيسى مالم أحفظه وأعرف معناه، كيف بكتاب الله الذي أنزل على نبينا مُحمَّدﷺ»،[1]و في النَّص دلالة واضحة على سِعة علمه وتبحره فيه، ولاريب في ذلك فهو سليل البيت الرُّستمي الذي وصفه "الدِّرجيني" بأنَّه «بيت العلوم وجامعا لفنونها من علم التَّفسير والحديث والفقه والأصول والفروع وعلم اللسان وعلم النحو».[2]

كما كان للشيخ "**سعيد بن زنغيل**" مجلس علمي بمسجد الشَّيخ "أبو صالح جنون بن يمريان"، و كان أهل "وارجلان" يجتمعون عنده «فمنهم المستفيد من علمه، ومنهم المُستبرك بمشاهدته والمشارك فيما يعرض من أمور دنياه و دينه، والمُقتني خُلقا يتحلّى به، والمُسْتزيد من معرفة السِّير فكلُّهم منقلب بخير و فضل».[3]

ولعل أعظم الاسهامات العلميَّة لهؤلاء المشايخ هو ما قام به الشَّيخ "**أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي**" بتأسيسه لِمَا يُعرف "**بنظام العزَّابة**" وكان ذلك بعد استقراره بـِ"أريغ"، إذْ يُعدُّ هذا النِّظام ابداعاً أريغياً بامتياز، ويندرج ضمن ابتكارات فكر وثقافة الواحات الصَّحراويَّة، حيث ضبط فيه مؤسِّسه قوانين وأنظمة صارمة لتسيير الحَلقة،

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.105. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد بن موسى بابا عمّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.473.

[2] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.56.

[3] – الدرجيني: المصدر نفسه،ج.1، ص.144.

فكانت حلقة العزَّابة بمثابة الشَّرارة الأولى في انبعاث الحركة العلميَّة بالحواضر الصَّحراويَّة.[1]

كما برزت اسهامات وجهود الإمام "المغيلي" في محاربة يهود "توات" حيث أفتى بعدم جواز استحداث اليهود للكنائس، وظهور ما يُعرف "**بنازلة اليهود**" التي أحدثت جدلاً واسعاً وسط فقهاء ذلك العصر، كما كان لتلك النَّازلة دورا في إثراء النَّشاط العلمي بالحاضرة.[2]

1 – 2 – العامل الاقتصادي:

ساهم الازدهار الاقتصادي الذي عرفته الحواضر الصَّحراويَّة في تنشيط الحركة العلميَّة والثَّقافيَّة بها، فقد شكَّلت تلك الحواضر مَحطَّة رئيسيَّة لحركة القوافل التِّجاريَّة التي تنطلق منها: إلى الجنوب وإلى الشَّرق والغرب والشَّمال.[3]

فقد ارتبطت حاضرة "وارجلان" بشبكة من الطُّرق التِّجاريَّة، فهي على صلة بالشَّرق نحو بلاد "مصر" عن طريق "جبل نفوسة" و"بلاد الجريد"، كما أنَّها على صلة بمدن المغرب الأوسط لاسيما السَّاحليَّة منها، التي شكَّلت سواحلها شبكة من الموانئ التِّجاريَّة نحو "صقليَّة"، فـ"وارجلان" احدى حلقات هذه السِّلسلة في طريق تجاريَّة تمتد من السُّودان الغربي إلى الأندلس، ولقد كانت صلتها التِّجاريَّة ببلاد السُّودان أكثر أهميَّة بدليل رواج المبادلات التَّجاريَّة بينهما، وكثرة تردُّد القوافل التِّجاريَّة عليها.[4]

وعلى غرار "وارجلان"، احتلت حاضرة "الزَّاب" موقعاً هاماً نظراً لوقوعها في ملتقى الطُّرق التِّجاريَّة، ونتيجة لذلك فإنَّها شكَّلت إحدى المحطَّات الرَّئيسيَّة للقوافل التِّجاريَّة الرَّابطة بين شمال وشرق الصَّحراء وجنوبها، إضافة إلى الطَّريق الرَّابطة بين

---

[1] – مُحمد بن موسى بابا عمّي وآخرون: المرجع السابق، ج.2، ص.368.

[2] – حول محاربة المغيلي لليهود، **ينظر**: الفصل الثَّاني من هذا العمل.

[3] – عمرو خليفة النَّامي: المرجع السَّابق، ص.17.

[4] – محمد العيد تيته: المرجع السابق، ص 144.

هذه المناطق والشَّمال ومن ثمَّ بلاد أوروبا، فكانت بذلك مَمَرًّا لابُدَّ من اجتيازه من أجل التَّنقل في هذه الاتجاهات المختلفة، وقد كانت منطقة "الزَّاب" سوقا تجاريَّة رائجة يقصدهـا التُّجار من كافة أنحاء العالم الإسلامي[1].

كمـــا شكَّلت حاضرة "توات" حلقة وصل بين الشَّمال والجنوب، والشَّرق والغرب عبر الصَّحراء الكبرى. إنَّ حيويَّة النَّشاط التِّجاري بتلك الحواضر جعل المنطقة تُعرفُ برخائها ورخص أسعارها وتنوع سلعها، حتى أصبحت مقصداً للتجار من كلِّ حدب وصوب.[2]

وقد جذبت إليها أيضاً قوافل الحجيج العابرة للصحراء في طريقها إلى الأراضي الحجازيَّة فقد كانت تلك القوافل تمرُّ على "وارجلان" و"توات"، ومن أسواقها تقتني حاجياتها من المؤن ويؤكد "العياشي" ذلك في قوله: «... ودخلنا أوَّل عمالة "توات"... وكان وصولنا إليها ضحى يوم الخميس آخر يوم من ربيع الثَّاني، وأقمنا بها ستة أيام، وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا واشترينا ما يحتاج إليه من التَّمر، و وجدنا التَّمر بها رخيصا... وسبب اقامتنا في هذه البلاد في هذه المدَّة أنَّ كثيراً من الحُجَّاج لمَّا غلا صرف الذَّهب في "تافيلالت" أخَّروا الصَّرف إلى "توات" فإنَّ الذَّهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزَّرع والتَّمر».[3]

ففي هذا النَّص ما يؤكد حالة الرَّخاء التي كانت تعيشها حاضرة "توات"، كما يوضح أنَّ أسواقها نافقة، ولقد زادت أهميَّة "توات" التِّجاريَّة بعد تقلص دور "سجلماسة" التِّجاري وتحوُّل المسلك الغربي نحو "توات"، وهو ما جعلها منطقة جذب واستقطاب للقوافل التِّجاريَّة. فحيويَّة النَّشاط التِّجاري وحالة الرَّخاء التي شهدتها حواضر الصَّحراء ستنعكس حتماً على الواقع الاجتماعي والثَّقافي بها، وقد بدت ملامح اليُسر والغنى

[1] – عبد القادر بوباية: «**الحركة العلميَّة في منطقة الزَّاب على عهد بني مزني**»، المجلَّة الخلدونيَّة، ع.9، تصدر عن الجمعيَّة الخلدونيَّة للأبحاث والدِّراسات التَّاريخيَّة، بسكرة – الجزائر، 2011م، ص.88.

[2] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.32.

[3] – العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.79.

واضحة على ساكنيها فالإدريسي خلال حديثه عن "وارجلان" ذكر بأنَّ «... بها قبائل مياسير وتُجّار أغنياء»[1] كما وصف "الوزان" أهل "وارجلان" بالغني في قوله: «و سُكَّانها أغنياء جداً، لأنَّهم في اتصال مع مملكة أكدز»[2].

والأكثر من ذلك فإنَّ لأهل "وارجلان" عُمْلَة خاصة بهم وهو ما أشار إليه "الإدريسي" بقوله: «... مدينة بها قبائل مياسير وتجَّار أغنياء يتجوَّلون في بلاد السُّودان إلى غانة وبلاد ونقارة، فيخرجون منها التِّبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية إباضيَّة»[3]؛ والإشارة ذاتها ذكرها صاحب الاستبصار في قوله: «ببلد وارجلان تضرب دنانير على نوع المرابطيَّة... والدَّنانير الوارجلانيَّة مشهورة».[4]

وممّا لاشك فيه أنَّ حالة اليُسر التي يعيشها أغلب ساكنة الحواضر الصَّحراويَّة، قد مَكَّنتهم من استقبال العلماء و طلبة العلم، والانفاق عليهم و إكرامهم والإحسان إليهم ولقد وقفنا في المصادر الإباضيَّة على العديد من الأمثلة التي تُوضِّح كرم واهتمام ساكنة الحواضر بالعلماء وطلبة العلم ومن أمثلة ذلك ما تداول ذكره في المصادر حول إكرام الشَّيخ "**أبو صالح جنون بن يمريان**" إلى العالم "**أبو نوح سعيد بن زنغيل**" عند نزوله بوارجلان إذْ: «ملأ له بيته إلى السَّقف تمراً، وأجرى عليه كلَّ يوم مائدة وأخرى عشية، ثمَّ قال في نفسه ولعل له مآرب لا أعلمها أو به خاصة لا يُعلنها أو مفاقرة لا يسُدّها إلاَّ المال فانفرد به... ثمَّ قال له: أدخل يدك في جيبي فما وجدت فاغسل به ثيابك، فأدخل يده فوجد صرَّة فيها سبعون دينارا ذهبيا».[5]

---

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.2، ص.296.

[2] – الوزان: المصدر السَّابق، ج.1، ص.136.

[3] – الإدريسي: المصدر نفسه ،مج.2، ص.296.

[4] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.224.

[5] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.143.

وأشار الشَّمَّاخي أيضاً إلى إكرام أهل "وارجلان" للشيخ "**أبو نوح سعيد بن زنغيل**" بقوله: «ولمَّا استقرَّ بها أكرمه أهلها ورفعوا قدره و واسوه بمالهم».[1]

كما أوْقفَ بعض التُّجار جزءاً من ممتلكاتهم على طلبة العلم وبناء المساجد التي كانت من أهمِّ المؤسسات التَّعليميَّة آنذاك، و ممَّا ذكر عن الشَّيخ "**أبو صالح جنون بن يمريان**" أنَّه كان عالماً غنياً يُنفق على طلبة العلم والشُّيوخ وعلى بناء المساجد.[2]

ومن المؤكد أنَّ الازدهار الاقتصادي للحواضر الصَّحراويَّة قد صاحبه تطوراً عمرانياً وقد أشار صاحب "العِبر" إلى استبحار العمران في كل من "وارجلان" و"تقرت" بقوله: «و هو بلد مستبحر عمرانها»[3]؛ وأشار في موضع آخر إلى استبحار عمران "توات" في قوله: «... وآخرها من جانب الشَّرق يُسمّى تمنطيط و هو بلد مستبحر العمران»[4] فتطور العمران سيؤدي حتماً إلى كثرة العلوم، وهو ما يؤكده "إبن خلدون" الذي يرى أنَّ العلوم تكثرُ حيث يكثر العمران و تعظم الحضارة.[5]

وإذا أسقطنا نظريَّة " ابن خلدون" في العمران وعلاقته بتطور العلوم على مُجتمعات الحواضر الصَّحراويَّة، فإنَّنا سنجدُ أنَّ مُعظم مدن الواحات استفحل عمرانها بعد أنْ قصدها العديد من الإباضيَّة بمختلف أطيافهم الاجتماعيَّة – علماء وفقهاء وعامَّة – وجعلوها مراكزاً لوجودهم حيث أدَّى ذلك كلَّه إلى الحاجة للمصنفات التي من شأنها أنْ تُنظم حياة العامة، و تُلبِّي حاجات الفرد والمجتمع في مختلف مناحي الحياة وبخصوص هذا الشَّأن صنف "**أبو العباس أحمد الفرسطائي**" كتاب "**القسمة و أصول**

---

[1] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.41.

[2] – مُحمَّد زقاوي وعمر بلبشير: المرجع السَّابق، ص.204.

[3] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.64 – 69.

[4] – إبن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.77.

[5] – ابن خلدون: **المقدِّمة**، ، ص.396.

الأرضين" و قد تناول فيه الأحكام الفقهيَّة المرتبطة بالعمارة الإسلاميَّة، و جاء تأليفه هذا بغرض تسهيل حياة النَّاس.[1]

1 – 3 – العامل السِّياسي:

كان للأمن والاستقرار النِّسبي الذي عرفته حواضر الصَّحراء دوراً بارزاً في تنشيط الحركة العلميَّة بها، إذْ عملت السُّلطة الحاكمة فيها على ازدهار النَّشاط العلمي فقد عمل أمراء أسرة بني مزني الذين حكموا "الزَّاب" على تشجيع العلماء على الاستقرار بإقليمهم و تحفيزهم على بذل الجهد من أجل نشر العلم والمعرفة بحاضرة "الزَّاب"، مُسْتغلِّين في ذلك حالة الرَّخاء الاقتصادي الذي عرفته الحاضرة على عهدهم، و يعدُّ "ابن خلدون" من أبرز العلماء الذين احتضنتهم حاضرة "الزَّاب" حيث أقام بـِ"بسكرة" زُهاء خمس سنوات.[2]

وقد أورد في كتابه العديد من النُّصوص التي تؤكد اقامته بـِ"الزَّاب" لمدّة طويلة ومن ذلك قوله: «ثمَّ ارتحلت من أحياء "يعقوب بن علي" شيخ عرب، وقصدت بسكرة لصحابة بيني وبين شيخها "أحمد بن يوسف بن مزني وبين أبيه»[3]. وقوله أيضاً: «اتصل مقامي ببسكرة، والمغرب الأوسط مضطربٌ بالفتنة المانعة الاتصال بالسُّلطان "عبد العزيز" و"حمزة بن علي بن راشد" ببلاد مغراوة».[4]

إنَّ مكوث "ابن خلدون" هذه المدَّة في "بسكرة" قد ساهم في تنشيط الحركة العلميَّة بها وذلك من خلال الدُّروس التي كان يُلقيها في مساجدها، وبذلك يكون قد

---

[1] – صلاح الدِّين شعباني: **التَّربية والتَّعليم عند الإباضيَّة بالمغرب الإسلامي بين القرنين الثَّالث والخامس الهجريين (9–11م)**، رسالة مُقدِّمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص: التَّاريخ الإسلامي، إشراف: مختار حساني، قسم العلوم الإنسانيَّة، كُلِّيَّة التَّاريخ، جامعة الجزائر، 2004م، ص.173.

[2] – عبد القادر بوباية: المرجع السَّابق، ص.90 – 91.

[3] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.561. **وينظر أيضاً**، عبد الرَّحمان بن خلدون: **رحلة ابن خلدون**، تع، مُحمَّد بني تاويت الطَّنجي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2004م، ص.96.

[4] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.562. **وينظر أيضاً**، ابن خلدون: **رحلة ابن خلدون**، ص.98.

ساهم في تكوين عدد من الطُلاّب الذين سيكون لهم شرف حمل لواء العلم في إقليم "الزَّاب".[1]

كما ساهم شيخ وارجلان "**أبو صالح جنون بن يمريان**" في إثراء الحركة الثَّقافيَّة بـ"وارجلان" وذلك بتشجيعه للعلماء على الاستقرار والإقامة بـ"وارجلان"، حيث كان يُكرمهم وينفق عليهم من خاصَّة ماله، و يُيسِّر لهم كلَّ سبل الاستقرار، وسبق وأنْ أشرنا إلى استقباله وتكريمه للإمام "**يعقوب بن أفلح**"، وكذا الشَّيخ "**سعيد بن زنغيل**" الذي أجرى عليه الأرزاق الكثيرة وأمدَّه بكل ما يحتاج إليه من أموال، ويسَّر له كلَّ سبل الاستقرار التي تجعله يأنس إلى "وارجلان" كقاعدة جديدة لنشاطه العلمي[2].

إنَّ حرص الشَّيخ "**أبو صالح جنون**" على استقبال المشايخ وطلبة العلم وإكرامهم والإنفاق عليهم، دفع بعض الباحثين إلى اعتباره المسؤولة في المقام الأوَّل على ازدهار الحركة العلميَّة بـ"وارجلان" وذلك بما كان يبذله من المال الطَّائل في دعم الحركة العلميَّة.[3]

1 – 4 – العامل الدِّيني:

ويتمثَّل أساساً في رحلات الحجِّ، فقد كانت الحواضر الصَّحراويَّة محطَّات رئيسيَّة لحجيج المغرب الأقصى وبلاد السُّودان الغربي، كحاضرة "توات" على سبيل المثال، و الحجُّ كما هو معلوم فرصة سنويَّة مُناسبة للكثير من العلماء والمشايخ لزيارة المناطق والالتقاء بأهلها و نقل عُلومهم ومعارفهم لها[4]، وقد زار "العياشي" حاضرة "توات" خلال رحلته لأداء فريضة الحجِّ، أين مكث بها عِدَّة أيام، و كانت له مناقشات علميَّة مع

---

[1] – عبد القادر بوباية: المرجع السَّابق، ص.91.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.104 – 143.

[3] – عمرو خليفة النَّامي: المرجع السَّابق، ص.19 – 20.

[4] – مبارك جعفري: «**الدَّور التَّعليمي للزوايا والطُّرق الصُّوفيَّة في إقليم توات بالجنوب الغربي الجزائري خلال القرن 12هـ/18م**»، مجلَّة الواحات للبحوث والدِّراسات، ع.15، تصدر عن جامعة غرداية – الجزائر، 2011م، ص.401.

بعض مشايخها وأجاب على بعض النَّوازل التي طرحت عليه من قبل "**سيدي مُحمَّد بن مُحمَّد بن علي بن أبي بكر**"، منها: نازلة حول الأحباس، وأخرى في البيوع، و ألزمه بكتب هذه الأخيرة.[1]

ومن جملة العوامل الثَّانويَّة التي ساهمت أيضاً في ازدهار الحركة العلميَّة والثَّقافيَّة بحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، نجد:

1 – 5- الحُظوة والمكانة التي احتلَّها المشايخ والعلماء في نفوس ساكنة الحواضر:

حيث ساهمت تلك الحظوة بشكل كبير في الازدهار العلمي والثَّقافي بتلك الحواضر، فقد كان للعالم والشَّيخ حظوة ومكانة معتبرة في المنظومة القيميَّة للمجتمع الصَّحراوي، ولعل هذا الأمر شجَّع بعض المشايخ في الإقبال عليها والاستقرار بها ولقد وقفنا في المصادر على العديد من النَّماذج التي توضِّح عظمة العالم في نفوس أهل تلك الحواضر، ومن ذلك ما ذكره "الدِّرجيني" حول استقبالهم للإمام "**يعقوب بن أفلح**" بقوله: «...فأقبل بمن معه حتى نزل وارجلان وذلك على عهد الشَّيخ أبي صالح جنون بن يمريان فتلقاه أهلها، وعرضوا عليه أنْ يُولوه على أنفسهم... فمكث فيهم دهراً»[2]؛ فمكوث آخر الأئمة الرُسْتميين بينهم وفقا لما ذُكر يوحي بأنَّه وجد ما يُسعده و يُريحه من أهلها، كما أحسن أهل "وارجلان" أيضاً إلى الشَّيخ "**أبو نوح سعيد بن زنغيل**" أثناء نزوله وإقامته بينهم، ويذكر "الشَّمَّاخي" في هذا الشَّأن بأنّه: «لمَّا وصل وارجلان أنزله الشَّيخ و جماعة أهل وارجلان، وأحسنوا نزوله، وتجاوزوا الحدَّ في الإعظام، و أحسنوا القيام به وأكرموا مثواه غاية الإكرام».[3]

---

[1] – العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.81 – 82.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.104.

[3] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.41. **وينظر**، أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.235. **وينظر أيضاً**، الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.144.

كما أحسن أهل "أسوف" إلى الشَّيخ "**سعيد بن زنغيل**" عندما حَبَسَهُ عامل "توزر"، فلمَّا وصل "أسوف" خرج إليه أهلها يتلقونه فرحين مسرورين وهم يعلمون ما نزل به، فصاروا يُناولون له وكلٌّ بمقدرته، ويدفعون إليه الأموال من الحيوان والصَّامت وما تيسر لهم[1] – منهم من مُعطي دنانير ومن معط حُلياً، و من معط جملاً، فجمع منها مالا و جمالا –.[2]

ولربما كانت تلك المعاملة هي السَّبب وراء اختيار "**أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي**" **لأريغ**، وهذا ما نستشفه من الحوار الذي دار بينه وبين طلبته والذي نقله لنا "الدِّرجيني في قوله: «... و الشَّيخ في ذلك يستخير الله فيما يقدِّمه من أموره، حتى فتح الله عليه برأي فشاور أصحابه فقال لهم: "**هاهنا ناساً رُقاق القلوب أرجو أنْ ينتجع فيهم الإسلام و يتلقوا ما نحن عليه بالقبول و يكونوا لهذا الخير أهلاً وهم مغراوة ريغ، فما رأيكم في الانتقال إلى جهتهم**"».[3]

فمحبَّة وإجلال السُّكَّان للعلماء وإحسانهم لهم، كانت عاملاً مُهماً ساهم في نجاح مشروع "**أبو بكر الفرسطائي**" الإصلاحي التَّربوي، وقد أشار بعض الرَّحالة الذين زاروا المنطقة إلى إكرام ومحبَّة أهل الواحات لرجال الدِّين، فالرَّحالة الألماني "**جيرهارد روهلفس**" وصف أهل "توات" «بالمسالمين وأنَّهم يُحبون الغرباء و رجال الدِّين».[4]

1 – 6 – طبيعة التَّركيبة القبليَّة للحواضر الصَّحراويَّة:

والتي تكون قد ولَّدت نوعاً من المنافسة المُثمرة، من خلال ما برز من أعلام نوابغ في مختلف صنوف المعرفة يُضاف لذلك ما قد يكون مرتبطاً بطبيعة التَّقليد الاجتماعي

[1] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.244.

[2] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.43.

[3] – الدَّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.170.

[4] – مبارك جعفري: المرجع السَّابق، ص.401.

القائم على اعتبار الاهتمام بالمعرفة وفنونها أساساً البروز الاجتماعي، خاصة في ظلِّ المعرفة أنَّ سلطان إدارة الحاضرة وحُكْمِها كان بيد المشايخ.[1]

1 – 7 – الإرث المذهبي الذي تعاظم مع وصول قاصدي وارجلان:

من الفارِين إليها عقب سقوط دولة بني رستم(296هـ/908م)، وما رافقه من ظهور لرموز المعرفة والثَّقافة.[2]

كلُّ هذه العوامل ساهمت في ظهور حركة علميَّة نشطة بالحواضر الصَّحراويَّة تجلَّت مَظاهرها في ظهور العديد من المؤسسات التَّعليميَّة التي احتضنت هذا النَّشاط العلمي المعرفي.

2)– المؤسَّسات التَّعليميَّة:

تنوَّعت وتعدَّدت المؤسَّسات التَّعليميَّة بحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، ومن أبرزها:

2 – 1 – الكتاتيب:

قبل أنْ نشرع في الحديث حول هذه المؤسَّسة فلا بأس أنْ نَقف على تعريفها عند اللغويين، الذين اختلفوا في اشتقاقات هذه الكلمة ودَلالة كلَّ اشتقاق، فعند "إبن منظور" لها مَعْنيان: الكُتَّاب موضع التَّعليم ومكانه، كما تعني أيضاً الصِّبيان وجمعها كتاتيب ومكاتب، أمَّا "**المُبرد**" فيخالفه في الأولى إذ يقول: «ومن جعل الموضع الكتاب فقد

[1] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.216.

[2] – نفسه.

أخطأ»[1]؛ ويُعرِّفها "أحمد الأزرق" بأنَّها «ذلك المكان الذي يتلقى فيه التِّلميذ دروسه الأولى والتَّربية الأساسيَّة على يد الشَّيخ».[2]

برزت الكتاتيب كمؤسَّسة تعليميَّة ثقافيَّة منذ عهد الرَّسولﷺ[3]، وكان الغرض من إنشاءها هو تحفيظ صغار المسلمين القرآن الكريم وتعليمهم القراءة والكتابة ومُتون الشِّعر وأنظمته وقواعد النَّحو و اللغة، بالإضافة إلى الحديث النَّبوي الشَّريف[4].

وقد دخل هذا النَّوع من النِّظام التَّعليمي لبلاد المغرب مع الفاتحين الأوائل[5]، وقد تميَّزت كتاتيب القرون الأولى للإسلام ببساطة بنائها، ولقد أشرف على بناء هذه المؤسَّسة التَّعليميَّة الميسورين.[6]

وتعتبر الكتاتيب في المغرب الأوسط بمثابة المدارس الابتدائيَّة التي يتلقَّى فيها المُتعلِّم العلوم الأولى[7]، واختلفت تسمِيَّات هذه المؤسسة بحواضر الصَّحراء، ففي حاضرة "توات" على سبيل المثال: كانت تُعرف باسم "**أقريبش**" وهو لفظ زناتي الأصل، ويطلق عليها بـ"ميزاب" لفظ "**المحضرة**" أو **الجامع**.[8]

---

[1]– إبن منظور: **لسان العرب**، حرف الكاف، مادة: كتب، المصدر السَّابق، مج.5، ج.42، ص.3817.

[2] – أحمد الأزرق: **الكتاتيب القرآنيَّة في الجزائر ودورها في الحفاظ على وحدة الأمَّة وأصالتها**، دار الغرب للنشر والتَّوزيع، وهران، ط1 ،2002م، ص.27.

[3] – بشير رمضاني التَّليسي: **الاتجاهات الثَّقافيَّة في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرَّابع الهجري العاشر الميلادي**، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص.365.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.241.

[5] – إبراهيم حركات: **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتى القرن9هـ/15م**، دار الرَّشاد الحديثة، الدَّار البيضاء، ط1، 2000م، ج1، ص.15.

[6]– مُحمَّد بن سحنون: **آداب المُعلِّمين**، تح: محمود عبد المولى، الشَّركة الوطنيَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط1981،1م، ص.95.

[7] – زينب سالمي: المرجع السابق، ص.52.

[8] – زينب سالمي: المرجع نفسه، ص.52. **وينظر أيضاً**، يحيى بن عيسى بوراس: «**الحياة الثَّقافيَّة في منطقة مِزاب خلال العصرين الوسيط والحديث**»، مجلَّة الواحات للبحوث والدِّراسات، ع.17، تصدر عن جامعة غرداية – الجزائر، 2012م، ص.137.

وكان الكُتَّاب في أوَّل أمره مكاناً في المسجد في زاوية من زواياه، أو أمام المحراب وذلك لما بين المسجد والكُتَّاب من علاقة دينيَّة تعليميَّة وثيقة، ثمَّ ما لبث أنْ اسْتقلَّ بمكان خاص به حيث كرَّهَ عدداً من علماء المسلمين وجود الصِّبيان في المسجد لما في ذلك من كثرة التَّشويش على المُصلِّين، وعلى حلقات الدَّرس[1]، وأصبحت تقام الكتاتيب بجوار المسجد. ففي حاضرة "ميزاب" أُقيمت إلى جانب كلِّ قصر من القصور الخمسة كتاتيب لتعليم الصِّبيان مبادئ علوم الشَّريعة الإسلاميَّة واللغة العربيَّة[2]، أمَّا حاضرة "توات" فقد برزت الكتاتيب بها مع ظهور مسجد "تمنطيط" عام(106هـ/725م) أيْ أوائل القرن الثَّاني الهجري/الثَّامن الميلادي، هذا وفق ما صرَّح به "مارتان" **(Martin)** في مصنفه أربعة قرون في تاريخ الصَّحراء المغربيَّة، حيث تمكَّن هذا الأخير من معاينة مسجد في "تمنطيط" مكتوب على محرابه سنة تشييده بقوله: «في تمنطيط عند أولاد ميمون مسجد في محرابه يحمل تاريخ 106هـ/725م».[3]

2 – 2 – المساجد والجوامع:

شكَّلت المساجد والجوامع منذ صدر الإسلام أحد أهمِّ روافد العلم و التَّبادل الثَّقافي، حيث لم تكن أماكن لإقامة الصَّلوات الخمسة أو ما يتصل بها فحسب، بل كانت أيضاً مقرّاً ينظر فيه لشؤون الرَّعيَّة، كما كانت تُعرض فيها المسائل المُستعصية فيجتمع لحلِّها «العلماء العظماء من جميع القرى فيفصلون فيها بمقتضى الكتاب والسُّنة وآثار السَّلف»[4]، ومن الأمثلة على ذلك ما تمَّ تداوله حول أجرة القرآن بمسجد "وارجلان" حيث أشار "الدِّرجيني" إلى ذلك بقوله: «واجتمعت بوارجلان بالمسجد الكبير جماعة

---

[1] – التِّليسي: المرجع السَّابق، ص.366. **وينظر أيضاً**، يوسف بن عبد الهادي: **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، المعهد الأفرنسي بدمشق، بيروت، ط1، 1994م، ص.171.

[2] – يحيى بن عيسى بوراس: المرجع السَّابق، ص.137.

[3] – Martin: Op.cit, P.108.

[4] – أعزام: المرجع السَّابق، ص.104. **وينظر أيضاً**، مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.222.

فيها من أهل الدَّعوة... فسألهم رجلٌ عن مسألة وهي الأجرة هل تؤخذ على تعليم القرآن أم لا؟».[1]

ومن أشهر مساجد الحواضر الصَّحراويَّة مسجد الشَّيخ "**أبو صالح جنون بن يمريان**" الذي أحرقه **المُعزُّ** خلال هجومه على "وارجلان" بحسب رواية أبي زكرياء[2]، و يبدو أنَّ هذا المسجد قد أُعيد بناؤه لأنَّ "الدِّرجيني" يذكر أنَّ الشَّيخ "سعيد بن زنغيل" عندما كان مُقيماً بِـ"وارجلان" كان مقرُّ حلقته بهذا المسجد[3]، وعلى غرار مسجد الشَّيخ "صالح جنون بن يمريان" فقد عرفت "وارجلان بكثرة المساجد والمُصلَّيات كما تشير لذلك رواية "أبو زكرياء يحيى" على لسان "أبي الرَّبيع" ما نصه: «قال لي خالي عبود بن منار[4]، اتبعت الشَّيخ "أبا صالح" ذات ليلة فقد ذكر عنه أنَّه يُصلِّي في ليلة الجمعة في مساجد "وارجلان" أجمع، واتبعته ليلة أنظر ما يصنع، فكلَّمَا دخل مسجداً صلى فيه ما قدَّر الله و أصلِّي أنَا أيضاً حتى ينصرف انصرفت أتبعه في مساجد عدَّة يصلي فيها...».[5]

ولقد أشار "العياشي" في رحلته إلى مساجد "وارجلان" بقوله: «وصلينا بجامع يُسمى جامع المالكيَّة وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ...» وأشار في موضع آخر إلى أحدى مساجد الإباضيَّة بقوله: «... وهو مسجد مُتقن الصَّنعة مُجصَّص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفي جوانبه مُعدَّة للوضوء و قضاء الحاجة، ومكان لتسخين الماء فأعجبني غاية، فلمَّا دخل المؤذن كبر في أذانه أربعة

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.399.

[2] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح، (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.165.

[3] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.144.

[4] – **عبود بن منار المزاتي (النَّصف الثَّاني من ق 5هـ/11م)**: رجل صالح من أهل "وارجلان"، عُرف بالزُّهد والعبادة "عامر أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر"، و"عبود" خال الشَّيخ "أبي الرَّبيع سليمان بن يخلف المزاتي"، مات في غارة شنَّها "منصور فلذين بن أبي علي". **ينظر**: مُحمَّد موسى بابا عمِّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.286. **وينظر أيضاً**، تاديوس ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.13.

[5] – أبو زكرياء: المصدر السابق، (تح: عبد الرَّحمان أيوب)، ص.310.

"أوَّل الآذان وأربعاً آخراً، فأنكرت ذلك في نفسي إذْ القوم مالكيَّة في ظنِّي، فلمَّا دخل النَّاس إلى الصَّلاة ابتدروا إلى زوايا المسجد يَتيمَّمون... فوقع في نفسي أنَّهم عزَّابة روافض ثمَّ سألنا بعد ذلك فإذا المسجد مسجدهم يصلُّون فيه وهو معروف بهم وهم طائفة من الإباضية»[1].

ويبدو لنا من خلال نصِّ "العياشي" أنَّ المساجد بِـ"وارجلان" كانت على نوعين مالكيَّة واباضيَّة وتختلف كلٌّ منهما عن الأخرى من حيث البناء، هذا وقد وُجد بِـ"وارجلان" "**المسجد الكبير**" أو ما يُعرف "**بالجامع**" ومهمته هي مُدارسة القضايا العلميَّة خاصة ذات الطَّابع الفقهي منها أو المتصلة بالقضايا الاجتماعيَّة، و قد ارتبط اسم بعض المساجد بما شهدته أو عُرفت به بدراستها لمسائل عمليَّة، التي تؤثِّر لما كان يُدار بمساجد "وارجلان" من مسائل أصبحت عنوانا لها[2]، ومن الأمثلة على ذلك مسجد مسائل صومعة تماواط الذي أخذ تسميته من المسائل التي عُرضت فيه وهو ما صرَّح به "الوسياني" في قوله: «... و قال: فأخذتهما وكتبتهما وعلقتهما، بصومعة مسجد تماواط، فدُعيت مسائل صومعة تماواط».[3]

ومن أشهر مساجد حاضرة "ميزاب"، مسجد "**بايحمد بن سليمان بن نوح**" (ت.431هـ/1039م) بقصر "مليكة" وقد بُني وفق تصميم "**أبي عبد الله الفرسطائي**"، وكذلك مُصلَّى "بوعميْد" بجبال "بني مصعب لصاحبه "**أبي العباس الوليلي**".[4]

ومن مساجد "أريغ" المسجد الكبير بِـ"أجلو" الذي بناه الشَّيخ "**تزوراس بن يوسف**" حينما رجع من الحجِّ سنة إحدى وأربعين وأربعمائة[5]، وعُرفت حاضرة "الزَّاب" أيضاً

[1] – العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص. 115 – 116.

[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.223. **وينظر**، غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.219.

[3] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.413 – 414.

[4] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السَّابق، ص.131.

[5] – الوسياني: المصدر السابق ، ج.1، ص.211.

بكثرة مساجدها، وفق لما ذكره الجغرافيين خلال وصفهم لها وفي مُقدمتهم "البكري" الذي وصف "بسكرة" «بأنّها مدينة كبيرة... وبها جامع و مساجد كثيرة»[1]، فكثرة المساجد بالمدينة دليل واضح على الإقبال الكبير لطلبة العلم كما أشار "البكري" إلى وجود «جامع جليل و مساجد كثيرة» بـِ"تهودة" وهي إحدى مدن "بسكرة" وأشار بأنَّ أهلها على مذاهب أهل العراق.[2]

كما كانت مساجد "توات" من أكثر المؤسسات التَّعليميَّة والعلميَّة شأناً عند السُّكَّان حيث يعقد فيها حلقات الدَّرس وكان الطُّلَّاب يتحلَّقُون في المساجد حول العلماء ويستمعون إلى ما يُلقيه هؤلاء من علوم و آداب.

2 – 3 – الزَّوايا:

يطلق هذا المصطلح على مكان ذو طابع ديني وثقافي وتعليمي و كانت تنظم فيها حلقات الدَّرس، كما كانت مكان لاستقبال عابري السَّبيل واطعام الفقراء والمساكين، فضلاً على أنَّها اتخذت مكانا من طرف بعض الزُّهاد للانقطاع للعبادة و الابتعاد عن الدُّنيا وزَخارفها[3]

وقد أشار "ابن مرزوق" في مسنده إلى أنَّ الزَّوايا عندنا في المغرب هي: «المواضع المُعدَّة لإرفاق الواردين و اطعام المحتاجين من القاصدين».[4]

وقد عَرفت الزَّوايا انتشاراً كبيراً ببلاد المغرب الإسلامي منذ القرن(7هـ/13م) وكان لها فضل كبير في انعاش الحركة الثَّقافيَّة والتَّوعويَّة والدِّينيَّة خصوصاً بالبوادي

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.52.

[2] – نفسه.

[3] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.54.

[4] – مُحمد بن مرزوق: **المسند الصَّحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن**، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، الشَّركة الوطنيَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط1، 1981م، ص.413.

والمناطق البعيدة عن العواصم[1] و غالبا ما كان يتمُّ بناؤها من قبل أهل الخير، وهي تتمتع بالاستقلاليَّة ولها أوقافها الخاصة، ولقد عُرف هذا النَّوع من المؤسَّسات التَّعليميَّة انتشاراً كبيراَ بحاضرة "توات" التي أشتهرت بكثرة زواياها والتي كانت تؤدي دوراً دينياً روحياً و اجتماعياً، وتنقسم الزَّوايا في "توات" إلى قسمين:

2 – 3 – 1 – زوايا مُخصَّصة للإطعام: نظراً لانتشار القصور بـِ"توات" وبُعد المسافات فيما بينها وازدهار التِّجارة ومرور قوافل الحجيج بها من جهة، وعدم توفر الفنادق والمطاعم والحمَّامات بها من جهة أخرى، فقد انخرطت الزَّوايا في استقبال عابري السَّبيل والضُّيوف قصد التَّكفل بهم فكان المسافر لا يحتاج إلى الزَّاد معه، فإنْ كان في القصر زاوية...، يقصد دار الزَّاوية، فيجد فيها كلُّ ما يحتاج إليه[2]، حتى عَلفُ الدَّواب... وإن لم تكن، فإنَّ أهل القصر لهم عادة، ونوبة لكلِّ واحد منهم، في استقبال الضُّيوف ولا يختلف هذا النِّظام و لو أقام الضَّيف مدَّة طويلة...[3]

2 – 3 – 2 – زوايا العلم: شكَّلت هذه الزَّوايا مركزاً للإشعاع العلمي والثَّقافي، يقصدها طلبة العلم والشُّيوخ من كل حدب وصوب قصد الاستزادة وتلقي مختلف العلوم، ومن أشهر الزَّوايا العامرة بالنَّشاط العلمي والثَّقافي والتي استقطبت طلبة العلم والشُّيوخ والعلماء، وكان لها دوراً فعَّالاً في تنشيط الحركة الثَّقافيَّة بـِ"توات" "**زاوية أولاد أوشن**"[4]، التي تأسست على يد العالم الجليل "**مولاي سليمان بن علي**"[5] عام

---

[1] – إبراهيم حركات: المرجع السَّابق،ج.1، ص.24.

[2] – تعتبر **زاوية سيدي عبد الله بن طمطم** بمنطقة "أوقرت" بـِ"توات" التي ذكرها "العياشي" في رحلته خلال القرن (11هـ/17م) واصفا صاحبها في قوله: «... وقد أثنى أصحابنا عنه كثيراً وأنَّه من أهل الخير والدِّين، يُطعم الواردين عليه، في بلاد كاد الطَّعام أنْ يكون فيها دواء»، **ينظر**، أبو سالم العياشي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.80.

[3] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.243. **وينظر**، مبارك جعفري: المرجع السَّابق، ص.402.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع نفسه، ص.243.

[5] – **مولاي سليمان بن علي:** ولد حوالي عام (549هـ/1154م)، ينتسب إلى أهل بيت الرَّسول صلى الله عليه سلم، كان من تلامذة الشَّيخ سيدي علي بن حرزهم دفين "فاس"، حلَّ بـِ"توات" سنة(580هـ/1185م) واستقر بقرية

(593هـ/1196م)، أين باشر تلقينه وتعليمه للطلبة الوافدين عليه قبل تأسيس زاويته بداية من عام (583هـ/1186م)، ومن بين المقرَّرات التي انتهجتها هاته الزَّاوية تعليم القرآن الكريم، والسُّنة النَّبويَّة، والفقه بالإضافة إلى إطعام الطَّعام وإيواء الضُّيوف، كما احتوت الزَّاوية على مكتبة تنوَّعت عناوينها وتعدَّدت محتوياتها فكان فيها العديد من الكتب الفقهيَّة والنَّحويَّة، وعلوم اللغة، وعلوم القرآن، والرَّحلات، والسِّير والتَّراجم، وحتى الطِّب والحساب وعلم الفلك.[1]

وإلى جانب "زاوية أولاد أوشن"، ظهرت بتوات زوايا أخرى كزاوية "**أبي يحي مُحمَّد بن مُحمَّد المنياري**" التي تأسست في أوائل القرن (9هـ/15م) بـِ"تمنطيط"، وزاوية "**أبو عبد الله مُحمَّد بن عبد الكريم المغيلي**" التي بدأت نشاطها العلمي والثَّقافي عقب تأسيسها عام (885هـ/1480م).[2]

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ جُلُّ زاويا حاضرة "توات" لها أملاك خاصة بها تتمثل في الأراضي و البساتين والحيوانات، ومختلف أنواع العقار مُحبسة وقفاً لها، كما تمتلك بعض الزَّوايا مقادير مَحددة من مياه الفقارة التَّابعة للقصر، وتُشكِّل هذه الأملاك المصدر الرَّئيسي الذي تعتمد عليه الزَّوايا في تمويل نفسها للإنفاق على الطَّلبة وعابري السَّبيل.[3]

=

"أولاد عمور يتيمي" عام(593هـ/1196م) و بنى بها زاويته، توفي عام(670هـ/1271م)، **ينظر**، إدريس بن خويا و فاطمة برماتي: «**خزانة الشَّيخ سيدي سليمان بن على بأدرار و دورها في الحفاظ على المخطوطات**»، مجلَّة الذَّاكرة، مج.2، ع.2، تصدر عن مخبر التُّراث اللغوي والأدبي في الجنوب الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، ديسمبر/2014م، ص.47 – 48.

[1] – ادريس بن خويا و فاطمة برماتي: المرجع السابق، ص.52. **وينظر**، مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.244.

[2] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.58 – 59.

[3] – زينب سالمي: المرجع نفسه، ص.58.

وبالإضافة إلى تلك المؤسسات التي تمَّ ذكرها والمُتعارف عليها في بلاد المغرب الإسلامي، برز نوع آخر من المؤسَّسات التَّعليميَّة بحواضر الصَّحراء، ويبدو لي أنَّ ظهورها قد ارتبط بظروف سياسيَّة وأمنيَّة متعلِّقة بالمنطقة، ومن أهمِّ هذه المؤسسات:

2 – 4 – الغيران:

برزت الغيران كمؤسسة تعليميَّة لما حُظيت به من تحقيق للخلوة والتَّفرُّد والانعزال عن الخارج بُغية التَّزوُّد بالمعرفة[1]، وكان ابتداؤها ببلاد المغرب الإسلامي الأوسط مع الغار التَّسعي الذي كان به نزول "**أبو عبدالله مُحمَّد بن بكر النَّفوسي الفرسطائي**" (ت.440هـ/1049م)[2]، فلمَّا عزم الشَّيخ "مُحمَّد بن بكر" مؤسس الحلقة على الرَّحيل إلى "وارجلان" بعث إلى من يهيئ له غاراً يجتمع فيه بالتَّلاميذ للحلقة[3].

وهو ما أشار إليه "الوسياني" في قوله: «أنَّ غاره الذي حفره له أبو القاسم في قصر بني نونة يُدعى التِّسعي... حفره وهو في ناحية الشَّمال من القصر، على قبالته مُصلى يُزار مستجاب»[4].

ومن أهمِّ الغيران التي ذاع صيتها وكان لها حضوراً علمياً ما عُرِفَ "**بغار بني أجاج**" و هو الذي أشار إليه "الدِّرجيني" على لسان "عيسى بن يرزكشن" بما قال فيه: «مَررنا بأبي صالح في الغيران المعروفة "**ببني أجاج**" بخارج وارجلان»[5] وهي ذات الرِّواية التي أوردها "أبو زكرياء" الذي أطلق عليه اسم "**أجاج**" في قوله: «جزنا على أبي صالح بجماعة من العزَّابة في الغيران المعروفة بغيران أجاج فبتنا عنده»[6]. ولقد

---

[1] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.221.

[2] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.217.

[3] – مُحمَّد زقاوي وعمر بلبشير: المرجع السَّابق، ص.206.

[4] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.580.

[5] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.373.

[6] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.311.

عَكَفَ كبار المشايخ بِـ"وارجلان" على اتخاذ الغيران ملجأً للدراسة و تلقي العلوم المختلفة وقد أكَّدَ "الشَّماخي" في سيره «بأنَّ "مُحمَّد بن سليماني النَّفوسي" و"مُحمَّد بن غمرة" اليروتني" كانا يُدَرِّسان الكتب في غيران بني أجاج... و أجوبة الأئمة مُخ الفقه».[1]

ومن خلال بعض الرِّوايات يبدو لي أنَّ تلك الغيران كانت تتوفَّر فيها شروط التَّعليم، فقد كانت على مستوىٍ من القدرة في أنْ تستوعب أعداداً كبيرة من الطُلاَّب، وممَّا ذكر على "أبَّان" وأخيه "أبي سعيد" اللذين مرضا ذات مرَّة في غارٍ «فكان مضجع "أبي مُحمَّد سعيد" في آخر الغار و"أبَّان" في بابه... فإذا جاز الشُّيوخ والعُواد فيدخلون ويجُوزون على "أبَّان" ولا يقولون له شيئا ويمضُون إلى أبي سعيد»[2].

وكان من الغيران ما يتسع لإقامة صلاة الجماعة، كما كانت تلك الغيران محلَّ اهتمام ورعاية وذلك من خلال تأمين نظافتها وهو ما يؤكده الشَّيخ "أبو زكرياء يحيى" بن الشَّيخ "جعفر الوسلاتي المزاتي" في قوله: «كنت عند أبي عبد الله و كان العُزَّاب يكنِسُون الغار، ويكنس أبو عبد الله معهم، ويرفع الأتربة»[3]، ولقد اتُخذت الغيران كأماكن لتلقي العلم منذ عهد "أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة" بِـ"البصرة"[4]، ومن الواضح أنَّ الغيران اتُخِذَت كمؤسسات للتعليم بالحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط بعد سقوط الدَّولة الرُّستميَّة ودخول الإباضيَّة في مرحلة الكتمان وساهم في وجود الغيران طبيعة الأرض الصَّخريَّة للحواضر لاسيما حاضرة "وارجلان".

---

[1] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.576. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص378.

[2] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.208.

[3] –الوسياني: المصدر نفسه، ج.2، ص.211.

[4] – نفسه.

2 – 5 – الحلقة:

يُعرِّفها "الدِّرجيني" بقوله: «اسم لجماعة يُمثِّلها التَّلاميذ المُلتفين حول شيخ يُبلغهم السِّير ويُبصِّرهم في الدِّين بحسب ما يفتح الله على كلِّ واحد منهم»[1].

ويعرِّفُها "روبيرتو روبيناتشي" على أنَّها «عبارة عن حلقة من الطُلاَّب والذين ليسوا عامة يَدرسُون عِلماً واحداً بعينه، يجتمعون حول أحد المُعلمين للاستماع لتعاليمه».[2]

ظهرت هذه المؤسسة التَّعليميَّة في القرن(5هـ/11م) وارتبط ظهورها بالشَّيخ "**أبي عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي**" فهو صاحب الفضل في التَّأسيس لها بعد استقراره بـِ"أريغ" أين أثمرت جهوده المتواصلة بترتيب حلقة علم خاصة بالطَّلبة العزَّابة، فأحيا من خلالها حسب "الدِّرجيني" مَعْلَم الدِّين، وتبيَّن العاجزون من المجتهدين.[3]

والهدف الأساسي من وراء نشأة هذا الصَّرح الثَّقافي العلمي هو إقامة معالم الدِّين والمحافظة على المذهب الإباضي واستمراريته[4]، وتميَّز نظام الحلقة في بادئ أمره بالاستقرار في مكانٍ معلوم، ثمَّ ما لبث أنْ اتخذ نظاماً آخراً أُطلق عليه نظام "**الحلقات المتنقِّلة**"[5] ويتمثل في انتقال بعض العلماء والشُّيوخ برفقة طلبتهم أحيانا يطوفون القرى والمدن بـِ"وارجلان"، ويُعدُّ الشَّيخ "**أبو الرَّبيع سليمان المزاتي**" (ت.471هـ/1079م) أحد المشايخ الذين اتخذوا "حلقة متنقلة" بين مواطن الإباضيَّة في السُّهول والجبال

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.4.

[2] – روبيرتو روبيناتشي: **العزَّابة حلقة الشَّيخ مُحمَّد بن بكر (وثيقة قديمة عن حياة نُسَّاك الصَّوامع في الإسلام)**، تر: لميس الشَّجني، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، طرابلس، ط1، 2006م، ص.28.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص208. **وينظر**، غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.218.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.222.

[5] – مُحمود حسين كوردي: **الحركة العلميَّة في جبل نفوسة وتأثيرها على بلاد السُّودان الغربي خلال القرون(2–8هـ /8– 14م)**، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، طرابلس، ط1، 2008م، ص.79.

والأودية والجُزر، حيث كان يبقى في كلِّ بلدة مع تلامذته مدَّة للتعلُّم والتَّعليم، ويجتمع عليهم أهلها وكثيراً من طُلَّاب العلم[1].

كما كان "**أبو عبد الله بن أبي بكر**" ينتقل بحلقته في فصل الشِّتاء إلى "أبي سليمان" فيقيمون حتى يسمعوا طنين البعوض فينزل إلى ضيعته، كما كان ينتقل إلى بادية "بني مصعب" في الرَّبيع حيث الهواء المنعش فراراً من تَعكُّر الجوِّ، والهدف من هذه الحلقات المُتنقِّلة هو تعقُّب المشايخ في مزارعهم وأماكن رعيهم للاستفادة من علمهم، ومن جهة أخرى أرادت هذه الطَّريقة أنْ تُبرهن أنَّ الدِّراسة لا ترتبط في ذهن الطَّالب بالجدران والأماكن المعروفة.[2]

ومن أشهر الحلقات بحاضرة "وارجلان" حلقة الشَّيخ "**أبي صالح جنون بن يمريان**" إذْ إليه يعود الفضل في ازدهار الحركة العلميَّة بِـ"وارجلان"، وكذلك حلقة الإمام "**يعقوب بن أفلح**" الذي زاد قدومه إلى "وارجلان" من نشاط الحركة العلميَّة بها وهذا لِمَا يتمتَّع به من مكانة علميَّة وسياسيَّة كونه آخر أفراد البيت الرُّستمي، ناهيك عن حلقة الشَّيخ "**سعيد بن زنغيل**"، وحلقة "**أبو نوح سعيد المدوني**"، وحلقة "**أبو زكرياء يحيى بن يجمن الهوّاري**" التي كان مقرُّها "تين زارتين" بـ"أريغ" وحلقة تلميذه "**أبو مُحمَّد العاصمي**" المتنقلة بين "أريغ" و "الزَّاب" و "وغلانة".[3]

2 – 6 – دُور المشايخ:

على الرَّغم من أنَّ المسلمين كانوا يعتبرون المنازل مكاناً غير صالح للتعليم أو المناظرة العلميِّة لافتقارها إلى الهدوء والرَّاحة، إضافة إلى كونها مكاناً للسكن[4]، إلاَّ أنَّ الحاجة دعت في بعض الأحيان إلى اتخاذها دوراً للعلم، فقد اتخذ عدد من المشايخ

---

[1] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.215.

[2] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.119.

[3] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السَّابق، ص.135.

[4] – التِّليسي: المرجع السَّابق، ص.421.

والعلماء الميسورين من دورهم ومنازلهم أماكن لاستقبال طلبة العلم، فكان الشَّيخ "**أبي سليمان أيوب بن إسماعيل**" من بين المشايخ الذين اتخذوا من دورهم أماكن للتعليم، وقد أشار "الدِّرجيني" إلى ذلك في قوله: «...كانت له داران بوارجلان متقابلتان، يفصل بينهما طريق وفوق الطَّريق ساباط[1] واصل بين الدَّارين من علوٍّ فإحدى الدَّارين، دار لسكناه، والأخرى مطلقة للتلاميذ والأضياف».[2]

ولعل الظُّروف السِّياسيَّة التي مرَّ بها أصحاب المذهب الإباضي خاصة بعد سقوط الدُّولة الرُستميَّة ودخولهم في مرحلة جديدة "**مرحلة الكتمان**" دفعتهم لاتخاذ دُورهم أماكن للتعليم وذلك لتجنُّبِ بطش الفاطميين الذين كانوا يُتابعون ويضيِّقون على كلِّ من خالفهم، فكانت تُعقد بدور المشايخ المناظرات العلميَّة، وهذا بهدف المحافظة على مذهبهم و ضمان استمراريته.

ولم يقتصر اتخاذ دور ومنازل المشايخ أماكن لتدريس الطَّلبة وعقد المناظرات على اتباع المذهب الإباضي فحسب، بل اتخذ المالكيَّة أيضاً منازلهم أماكن للمناظرات وطرح المسائل حتى غَدت تلك المنازل معروفة بلقاء كبار العلماء بها، كما فتح علماء آخرون منازلهم لتدريس طلَّاب العلم الوافدين من بلاد المغرب وبلدان أخرى ومن أشهر تلك المنازل، منزل: "أبي إسحاق السَّبائي(ت.356هـ)، ومنزل: "أبي بكر مُحمَّد بن مُحمَّد بن اللبَّاد (ت.333هـ)، ومنزل: "أبي العباس الأبياني"(ت.352هـ أو 361هـ).[3]

---

[1] – **ساباطٌ:** هو سقيفة بين حائطين تحتها ممرٌّ نافذ. **ينظر، المعجم الوسيط**، مكتبة الشُّروق الدُّوليَّة، القاهرة، ط4، 2004م، ص.413.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.460.

[3] – التِّليسي: المرجع السَّابق، ص.422 – 423.

3)- مراحل التَّعليم:

3 – 1 – المرحلة الأولى "مرحلة الكُتّاب":

وهي أوَّل مراحل التَّعليم وتشمل الصِّبية و صغار السِّنِّ وهم المبتدئين، اختلفت آراء الباحثين حول السِّنِّ المحدَّدة لدخول الصِّبيان لهذه المرحلة، وإنْ كانت أغلبها تُجمع على أنَّ ذلك يكون في سنِّ السَّابعة من عمر الصَّبي، ويرى الإمام "سحنون" أنَّ هناك حالات كان يدفع فيها الصِّبية إلى المعلمين في سنِّ الخامسة والسَّادسة، وذلك تبعا لاختلاف نضجِ الصِّبيان وتقدُّمهم في الفهم والتَّمييز، فالأمر هنا كان متروكاً لتقدير آباء الصِّبيان.[1]

فأهل "توات" على سبيل المثال كانوا يُرسلون أبناءهم للكُتّاب في سنِّ الخامسة فذلك يتوقف على حرص الطِّفل وأسرته.[2]

- وتعتبر هذه المرحلة أساسيَّة في حياة الطِّفل التَّعليميَّة فيتلقى فيها العلوم الأساسيَّة التي يحتاجها في عبادته ومعاملاته مع غيره من أفراد المجتمع، كما أنَّها تمهيداً لاندماج الطَّفل في التَّعليم فيما بعد[3]، و يتلقى المُتعلِّم في هذه المرحلة تَعلُّم القرآن والقراءة والكتابة، ومبادئ اللغة العربيَّة.

- ولقد أشار صاحب المُقدِّمة إلى طريقة التَّعليم في الكُتَّاب عند أهل المغرب في قوله: «**... فأمَّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أنْ يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون**

[1] – مُحمَّد بن سحنون: المصدر السَّابق، ص.63 – 64.

[2] – عزّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، المرجع السَّابق، ص.176.

[3] –نفسه. .

انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة و هذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب و من تبعهم من قرى البربر...».[1]

ويتميَّز التَّعليم في هذه المرحلة ببساطة أثاثه و وسائلة، فكان الكُتَّاب مفروش بالحصير المصنوع من الحلفاء أو الدُّوم، يتربع فوقه التَّلاميذ ويعلوهم المعلِّم واقفاً يحمل في يده قضيباً يستخدمه المعلم في تخويف أو ضرب كلِّ من تهاون في حفظ لوحه من القرآن.[2]

أمَّا بخصوص وسيلة الكتابة في الكُتَّاب هي الألواح والتي تكون عادة من صفيح ومن ألواح الخشب المطلي بطلاء أبيض أو أحمر، وكان على الصَّبي ألَّا يستخدم المصحف في القراءة إلَّا عند استذكار الماضي المحفوظ أو تثبيته، أو عند نقل الجزء المُقرَّر حفظه في اللوح، وهو الدَّرس الجديد اليومي فيكتب الولد في أحد وجهي اللوح الجزء الذي يريد حفظه، نقلاً عن المصحف ثمَّ يدعه جانباً ويستخدم اللوح في القراءة والحفظ حتى يسمعه آخر النَّهار، فإذا جاء اليوم التَّالي، وأتقن حفظه أدار الوجه الثَّاني وكتب فيه درساً أو لوحاً ثانياً، فإذا أتمَّ حفظه في اليوم الثَّالث، وأراد حفظ لوح جديد محا الوجه الأوَّل و كتب فيه لوحا جديداً.[3]

وتكون الكتابة على تلك الألواح بالصَّمغ العربي الذي كان يصنعُ من صمغِ البُطم الأسود وكان الصِّبيان في الكُتَّاب طبقات «"طبقة الصِّغار" الذين يتعلمون الحروف الهجائيَّة، و"الطَّبقة المتوسطة" الذين يكتبون ألواحهم بالإملاء، و"الطَّبقة العليا" تكتب ألواحها في المصاحف»[4]

---

[1] – ابن خلدون: **المقدِّمة**، ، ص.529.

[2] – إبراهيم بحاز: المرجع السَّابق، ص.277.

[3] – عبد الرَّحمان حجازي: **تطور الفكر التَّربوي الإباضي في الشَّمال الافريقي من القرن الأوَّل حتى القرن العاشر هجري(95هـ-713م/928هـ-1520م)**، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 ،2000م، ص.212 – 213.

[4] – حجازي: المرجع نفسه، ص.213.

ويُضاف للمُتعلِّم في هذه الطَّبقة كتابة ما تيسَّر من المتون الفقهيَّة والنَّحوية كـ"ألفية ابن مالك" في النَّحو و"متن ابن عاشر" في الفقه[1]، وهذا الأمر كان معمولاً به عند أهل "توات". وما تجدر الإشارة إليه أنَّ طريقة التَّعليم في مرحلة الكُتَّاب ظلَّ معمولاً بها في حواضر الصَّحراء إلى عهد قريب.

وبخصوص أوقات الدِّراسة في هذه المرحلة فإنَّها لم تختلف عمَّا كان سائداً في معظم الكتاتيب الإسلاميَّة وهي أنْ يُلازم تعليم الصِّبيان بعد صلاة الصُّبح إلى الضُّحى الأعلى ثمَّ من الظُّهر إلى صلاة العصر و يسرِّحهم بقية النَّهار.[2]

أمَّا عن أسلوب الدِّراسة في هذه المرحلة فقد شاع فيها القراءة الجماعيَّة حيثُ يُردِّدُ الصِّبيان آيات القرآن الكريم مضبوطةً صحيحةً خلف مُعلمهم ويُكرِّرها المُعلِّمُ عِدَّة مرات ومن خلفه الصِّبية حتى يحفظوها على ظهر قلب، ويرى أغلب المُربِّين المسلمين أنَّ القراءة الجهريَّة أفضلُ من غيرها في حفظ القرآن «حيث الجهرُ يوقظ القارئ و يجمع همَّتهُ و يصرف سمعه إليه، ويزيد نشاطه، ومن هنا كانت قراءة الصِّبيان لأحزابهم قراءة جهريَّة».[3]

ومن المُتعارف عليه في عُرف أهل الواحات أنَّه عند بلوغ الصَّبي إلى مستوى أعلى في التَّعَلُمِ يُقيم أهله وليمة لأعضاء الحلقة والتَّلاميذ بمناسبة نجاح ابنهم، وتسمَّى عند أهل "توات" "**بالسَّلُوك**" أو "**السِّلكة**"، ويُدعى لها السُّكَّان والضُّيوف والأقارب من القرى المجاورة تكريماً للصبي الذي سلك على القرآن، وأثناء الاحتفال يُحْضر الصَّبِيُّ لوحه ويرسم عليه صورة مسجد ويكتب فيها الثُّمن الأوَّل من حزب من القرآن الكريم، وبعد ذلك يرتدي الطِّفل أجمل الثِّياب وعليها برنوسٌ أبيض يضع تحته لوحه حيث لا

[1] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات** ، ص.181.

[2] – حجازي: المرجع السابق، ص.182.

[3] – حجازي: المرجع نفسه، ص.183.

يراها أحد ويطوف بالقصر والصِّبية يطوفون معه، ويُقدِّم له السُّكان ما جادت به أيديهم.[1]

وعندما يُتِمُّ الطَّالب حفظ كتاب الله يُقام له حفل كبير يُعرف عند أهل توات بحفل "**الحَفوظ**" أو "**الختم**"، ولقد رغب في هذا الأمر الكثير من العلماء المسلمين ومنهم الإمام الغزالي في كتابه الإحياء بقوله: «**ويُمدح الصَّبي المُتأدب ومهما ظهر منه من خلق جميل وفعل محمود فينبغي أنْ يُكرم عليه ويُجازى بما يفرح به، ويمدح بين أظهر النَّاس**».[2]

وكما كُوفئ الصَّبيُّ على اجتهاده، يُكَافَؤُ المُعلِّم أيضاً على مجهوده فيُقدِّم له وليُّ الصَّبيِّ كلما حفظ ولده جزء من القرآن الكريم مقداراً من المال أو ما يُعادله، وقد غلبت على هدايا أهل "توات" الخضر والفواكه التي ينتجونها بأنفسهم[3]، ولربَّما هذا راجع لغلبة الطَّابع الفلاحي على المنطقة.

وإنْ كُنَّــا نجهل المغزى الحقيقي وراء هذه العــادات إلاَّ أنَّنا نعتقد أنَّ ذلك يندرج كنوع من أنــواع التَّحفيز والتَّشجيع للصبية على مواصلة اجتهادهم في حفظ كتاب الله ومكافأة المُجْتهدين ليستمروا ولا يكلُّوا.

وإذا كان أمر التحاق الصِّبيان بالكتاتيب محلُّ اختلاف بين العلماء، فإنَّ السِّنَّ المُحدَّدَةُ لترك هذه المرحلة كانت محلُّ اتفاق وإجماع على ما يبدو، والمعمول به أنَّ الصَّبيَّ يستمرُّ بالكُتَّاب حتى سنِّ البلوغ، فإذَا بلغ الصَّبيُّ سنَّ البلوغ دون أنْ يحفظ

---

[1] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.182.

[2] – أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدِّين**، تح: زين الدِّين أبي الفضل عبد الرَّحيم، دار القلم، بيروت، ط1، 1989م، ج 3، ص.220.

[3] – عزُّ الدِّين جعفري: المرجع السابق، ص.183.

القرآن الكريم فإنَّه يتركُ الكُتَّاب ليحلَّ مكانه صبيٌّ آخر، وغالبا ما كانت أعمار التَّلاميذ في هذه المرحلة تتراوح ما بين «ستَّ سنين إلى الثَّالثة عشرة»[1].

ويتمُّ انتقال التِّلميذ إلى المرحلة الثَّانية من التَّعليم بعد اجتيازه لاختبار وبناءً عليه يُقرَّرُ انتقال الصَّبيُّ للمرحلة الثَّانية من عدمه، وهذه الطَّريقة يستخدمها الإباضيَّة أين يسمح من خلالها شيخ العزَّابة بعد أخذ رأي أعضاء المجلس بانتقاله إلى المرحلة الثَّانية.[2] وهذا ما كان معمول به في كلٍّ من "وارجلان" و"أريغ" و"ميزاب".

3 – 2 – المرحلة الثَّانية:

يُسمى فيها التَّلاميذ في نظام العزَّابة "**طلبة العلوم و الآداب**". وهؤلاء الطَّلبة يمثِّلون المرحلة الثَّانية من مراحل التَّعليم، إذْ ينتقلُ التِّلميذُ إليها بعد حفظ القرآن الكريم ويُقسَّم الطَّلبة في هذه المرحلة إلى مجموعات بحسب ميل كلِّ طالب ورغبته، فالمجموعة الأولى يطلق عليها "**أصحاب اللويحات**": و هم الطَّلبة الذين انتقلوا من المرحلة الأولى إلى الثَّانية.[3]

– والمجموعة الثَّانية يطلق عليهم "**أصحاب الكُتب**": وهم الطَّلبة الذين حصلوا على درجة مُتقدِّمة من العلوم، ولهذه المجموعة من الطَّلبة امتيازات لا تعطى لغيرهم، منها:

- ✓ تخصيص دارٍ لهم لا يحقُّ دخولها لغيرهم من التَّلاميذ.
- ✓ مكتبة خاصة بهم.
- ✓ ندوات تعقد في دُورهم.
- ✓ دروس خاصة يُلقيها عليهم الشَّيخ أو بعض العزَّابة.
- ✓ يستقبلون بعض الشَّخصيَّات ليستفيدوا منها، ولا يحقُّ لغيرهم حضورها[4].

---

[1] – حجازي: المرجع السَّابق، ص.212.

[2] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.53.

[3] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.53.

[4] – حجازي: المرجع نفسه، ص.205. **ينظر أيضا**: مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.230.

ويُشترط في طُلاَّب المرحلة الثَّانية من التَّعليم أنْ تتوفَّر فيهم جملة من الشُّروط أهمُّها:

- ✓ أنْ يكون قد مرَّ بالمرحلة الأولى، وحفظ القرآن غيباً – على ظهر قلب –.
- ✓ أنْ تكون سيرة الطَّالب حسنة وسُلوكه جيداً، وسمعته طيِّبة بين المعلمين وزملائه من التَّلاميذ.[1]
- ✓ أنْ يكون محافظاً على دين الله، معمِّراً للمسجد، ملتزماً بلبس الزَّيِّ الرَّسمي الموحدِّ للطُّلاب.

ويَدرسُ هؤلاء الطَّلبة في دار العلم، وهو بناء بجانب المسجد ويسمَّى في "ميزاب" "**دار التَّلاميذ**"، يُشرف عليها العزَّابة، فيُعيِّنون لها مديراً حازماً من العلماء، ومُدرِّسين مُخلِصين؛ وتُدرَّسُ في دار العلم العلوم الشَّرعيَّة من فقه، وأصول فقه، وتوحيد، وتفسير، وكذا الحديث النَّبوي الشَّريف وعلومه، وعلوم اللغة العربيَّة، من: نحو وصرف وبلاغة وعروض، وبعض العلوم العقليَّة كالمنطق والحساب، ولا يدخل دار التَّلاميذ إلاَّ من حفظ القرآن حفظاً جيداً و استظهره كلَّه على إمام المسجد وكان حسن السِّيرة.[2]

أمَّا بحاضرة "توات" فكانت الزَّوايا هي من تحتضن المرحلة الثَّانية من التَّعليم إذْ تُشرف على متابعة دروس الطُلاَّب، وتُعَدُّ هذه المرحلة بمثابة الطَّور الثَّانوي أين يكون التَّعليم فيها أكثر تخصُّصاً وانضباطاً، ويجتمع فيها الطَّلبة حول الشَّيخ فيما يُعرف "**بحلقة المجلس**" أو "**الوقفة**" أو مجموعة الفقه كما يُسميها البعض، وينفرد بهم الشَّيخ عن أصحاب القرآن الكريم بُغية التَّعمق أكثر في مختلف العلوم من تفسير وحديث وفقه، وكذا مختلف العلوم الخادمة لها من لغة وأدب ومنطق وحساب بمنهج مواد

[1] – حجازي: المرجع السابق ، ص.203.

[2] – مُحمَّد علي دبوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، عالم المعرفة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط2013،1م، ج 1، ص.212.

المُتون، فيعرِضُ الطَّالب بمفرده عبارة من المتن[1] على الشَّيخ فيشرح الشَّيخ النَّص مع تقوية ذلك بالاطلاع على الشُّروح الخاصة لتلك المتون، ومن أهم الكتب التي يتدارسها الطَّلبة في هذه المرحلة "صحيح البخاري"، "شمائل التِّرمذي"، كتاب "الشِّفا بمعرفة حقوق المصطفى" للقاضي عياض، "الرِّسالة" لابن أبي زيد القيرواني، "ألفيَّة ابن مالك". وفي نهاية هذه المرحلة يتحصلُّ الطَّلبة على إجازات تؤهلهم للقيام بمهام التَّدريس والإمامة في القصور والزَّوايا.[2]

3 – 3 – المرحلة الثَّالثة:

يُعرف طُلاب هذه المرحلة في نظام العزَّابة "**بالعجزة**"، وهم التَّلاميذ القاصرون والغير قادرون على الاستمرار في الدِّراسة لأسباب عقليَّة أو جسميَّة، مثل: عدم قدرتهم على الحفظ أو عدم استطاعتهم الحضور للحلقة[3]، ويطلق على هؤلاء الطَّلبة مصطلح العجزة أو القاصرون، و هم ثلاثة أنواع:

- ✓ قسم فاتته مراحل الدِّراسة.
- ✓ قسم قد ابتلى بالعجز عن كسب التَّعليم منهم: "الطُرش والعميان".
- ✓ قسم ابتلى بالعجز العقلي وهم "الزِّمنى، و الهارمون، و ذوو الأفهام القاصرة".[4]

ولهذا فقد أُعفي هؤلاء من الحضور إجبارياً إلى الدُّروس، وتُركت لهم حُريَّة المشاركة في الدُّروس و سبب قبول هؤلاء في مدارس العزَّابة هو أنَّ «الزِّمنى والعميان قد نطق بعذرهم القرآن وأمَّا قاصرو الفهم فمنهم القانط التَّارك للعلوم، ومنهم من الأياس

---

[1] – عبد الخالق قصباوي: «**المنهج التَّعليمي للمدارس والزَّوايا الدِّينيَّة بحاضرة توات**»، أعمال الملتقى الدُّولي "الوسطيَّة في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوربا"، معهد العلوم الإسلاميَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي – الجزائر، ديسمبر/2017م.

[2] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.61. **وينظر أيضاً**، عبد الخالق قصباوي: المرجع نفسه ،ص.549.

[3] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.230.

[4] – حجازي: المرجع السَّابق، ص.206.

عنده معدوم»[1]، ويستخدم العزَّابة هؤلاء الطَّلبة في تقديم بعض الخدمات لمدراس العزابة منها:

1/- حِراسة الأموال وحفظ الطُّرقات من اللصوص والقيام بما يطلبه منهم شيخ العزَّابة وأعضاء مجلس العزَّابة والعرفاء.

2/- أنْ تكون خدمة الطَّعام من هؤلاء الذين لم يفتح الله عليهم ولا شرح للعلم صدورهم لينفعهم بخدمة أهل الخير ويُوفيهم أجورهم.[2]

وقد وقف "الدِّرجيني" على نماذج من هذه الفئة عند دخوله "وارجلان" سنة(616هـ/1219م) وهو حديث السِّنّ، فكان يزْدري بمعظمهم، إذْ كان شعاره في العلم آنذاك كما ورد على لسانه: «وكنت أعجب ممن ينفرد فلا يجتهد، ومن يخلو بالمفيد كيف لا يستفيد»، وأفادنا صاحب "طبقات المشايخ" بشهادات قيِّمة حول هذه الفئة، إذْ ذكر رجل منهم يُسمى "**أبو دُوناس**" من بعض قُرَّاء "نفزاوة"، فيقول في شأنه: «**سبقني إلى الحلقة بأعوام، وجدت لوحه في سورة الفيل، ومات في سنة (617هـ/ 1220م) و لم يستكمل سورة أخرى**».[3]

ويقول عن شخص آخر يُدعى "**يزمر المصعبي**": «كنت سمعت به قبل دخولي "وارجلان" فوجدته فيها وفي لوحه ﴿**أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى**﴾[4]، يُكرَّرها أيَّاماً كثيرة، وأقمت بـِ"وارجلان" حولين كاملين وشهرين، ثمَّ انصرفت، وتركتُ في لوحه سورة الضُّحى، و قد سبقني إلى الحلقة بستة أعوام، أو ثمانية»[5] و ذكر شخص آخر يدعي "**سليمان**

---

[1] - أبو القاسم إبراهيم البرادي: **الجواهر المنتقاة فيما أخلَّ به كتاب الطَّبقات**، طبعة حجرية، القاهرة، ط1 ،(د. ت.ن)، ص.214.

[2] - الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.180.

[3] - الدرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.180 - 181.

[4] - سورة العلق: الآية.12.

[5]- الدرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.180 - 181.

بن حريز" قائلا عنه: »لم يزل يُكرِّرُ سورة الأنبياء مُدَّة إقامتي بـِ"وارجلان"، و خرجت و لوحة فيها»، ولهذا النَّوع من الطَّلبة الحقُّ في المأوى و المأكل.

ومن الواضح أنَّ نظام العزَّابة قد أولى اهتماماً لهذه الفئة، وقام بعزْلها عن بقيَّة الطَّلبة بتخصيص أماكن خاصة بهم، ولربَّما تكون تلك الأماكن شبيهة بما يُعرف عندنا اليوم بمدارس الصُمُّ البُكم إلاَّ أنَّها تفتقر إلى الوسائل التي تساعد على التَّعليم، فكان يُسْتعاض عن ذلك بترك حريَّة الاستماع والحضور للطلبة، ويبدو أنَّ العزَّابة قد أدركوا أهميَّة دمج المُعاقِ في المجتمع لما لها من أهميَّة وقد أدَّت عمليَّة الاندماج تلك دوراً بارزاً في خدمة المجتمع.

والجدير بالذِّكر، أنَّ عمليَّة التَّدريس وإعداد الطَّلبة في هذه المراحل عند العزَّابة كان يتولاه ثلاثة شيوخ، وهم: "**أبو يعقوب محمد بن بدر**" للمبتدئين، يُعلِّمهم السِّيَر وآداب الصَّالحين، ثمَّ ينقلهم إلى "**مُحمَّد بن سودرين**" فيجرون قراءة القرآن الكريم ويتعلَّمون اللغة العربيَّة والإعراب، ثمَّ ينتقلون إلى "**مُحمَّد بن أبي بكر الفرسطائي**" فيُعلمهم أصول الدَّين والفقه، وكان العزَّابة في ذلك الزَّمان يُشبِّهون الشُّيوخ الثَّلاثة بثلاثة نجارين، أحدهم يُحسن قطع الخشب، والثَّاني يَشقُّها وينشرها[1]، والثَّالث يُركِّب الألواح و يُسمِّرها فيها ويصلح بين الأدوات.

أمَّا حاضرة "توات" فكان التَّعليم بها في هذه المرحلة أكثر تَخصُّصاً وتعمُّقاً وغالبا لا يحصل عليه إلاَّ ثُلَّةً من الطَّلبة، فهي مرحلة التَّنقل وشدِّ الرِّحال لطلب العلم بالحواضر العلميَّة الأخرى مثل: "تلمسان" و"فاس" و"القاهرة"، والتَّضلُّع في مختلف العلوم ومعرفة الغريب والنَّادر منها، كعلم القراءات وعلم الكلام.[2]

[1] – الدرجيني: المصدر السابق ،ج.2، ص.397 – 398.

[2] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.62.

وبخصوص إدارة العمليَّة التَّعليميَّة، وضمان التَّحصيل العلمي الجيِّد للطُلاَّب، عملت العزَّابة على إيجاد نظاماً تعليمياً خاصاً بمدارسهم يتَّسم بالصَّرامة والتَّنظيم ويتجلَّى هذا التَّنظيم في إنشاء الهيئة التَّالية:

4)- الهيئة الإداريَّة والتَّعليميَّة:

وتتألَّفُ هذه الهيئة من صِنفان آمرٌ و مأمور، والآمر اثنان: شيخُ الحلقة أو نائبه والعريف. والعريف صنفان: عريفٌ منفرد، وعريف غير منفرد، فالمنفرد عريفان: عريف أوقات الختمات والنُّوم، وعريف العرفاء وهو الذي يُعلِّم التَّلاميذ القرآن الكريم، أمَّا العريف غير المنفرد فهو العريف الذي يُشرف على أوقات الدِّراسة، وقد يكون عريفاً واحداً أو أكثر حسب الاحتياج.[1]

أمَّا المأمور: فهو من يتلقَّى الأوامر، وهؤلاء ثلاثة أصناف: طلبة القرآن، طلبة العلوم والآداب، و العاجزون[2]. ويُشكِّل الآمرون الهيئة التَّدريسيَّة في نظام الحلقة، ولكلٍّ واحد منهم مهامٌ خاصةٌ به سنتطرق لها فيما يلي:

4 – 1 – الشَّيخ:

هو المسؤول الأوَّل عن التَّعليم في مدارس العزَّابة وهو الذي تنتهي إليه المسائل العويصة للفتوى، وهو المرجع الوحيد والأخير لدى كلِّ الأمور التَّنظيميَّة، وهو وحده الذي يستطيع أنْ يُصدر العفو بعد الخطَّة والهجران، ولا يصل إلى هذه المرتبة إلاَّ بعد أنْ يبلغ مبلغاً عظيماً في العلم و الورع والتَّقوى[3]، وتتلخَّص مهامه التَّربويَّة فيما يلي:

- ✓ يتولَّى تعيين العرفاء وفصلهم و تحديد مهامِّهم.
- ✓ تقرير المناهج الدِّراسيَّة للطبقات العليا من التَّلاميذ.

---

[1] – حجازي: المرجع السَّابق، ص.156. **وينظر أيضاً**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.223.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.171 – 172. **وينظر أيضاً**، البرادي: المصدر السَّابق، ص.207.

[3] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.111.

✓ الإشراف على قبول التَّلاميذ في الحلقة ولا يحقُّ لأحد غيره التَّدخل في قرار القبول.[1]

✓ الجلوس لطلبة فنون العلم في وقت معلوم ليأخذوا عنه الدَّرس، منها الجلوس بأثر الختمات للجواب على الأسئلة في أيِّ فنٍّ كان، و يُذاكر تلاميذه فيما حصلوه قبل ذلك.

✓ الاستفتاح وهو قيامه في الثُّلث الأخير من الليل أو الرُّبع الأخير فيفتتح التِّلاوة حيثما وصلوا ليلة البارحة.[2]

✓ عقد النَّدوات الثَّقافيَّة لطلبة الدِّراسات العليا في وقت معلوم، حيث يقوم بطرح الموضوعات الصُّعبة والمعمَّقة التي يعجز غيره عن القيام بها.

✓ يجتمع بتلاميذ المدرسة مرَّتين في الأسبوع يوم الاثنين والخميس، يُقدِّم لهم فيها نصائح و توجيهات ومواعظ خاصة بالدِّراسة أو بالدِّين والحياة.

✓ الفصل في المنازعات والمشاكل التي تقع بين الطَّلبة، وقراراته غير قابلة للمناقشة.

✓ يتصرَّف بأموال العزَّابة والأوقاف للإنفاق على المدرسة، و لا يُشترى شيء أو يُباع إلاَّ بإذنه.

✓ زيارة المرضى من الطَّلبة و مواساتهم.

✓ تقسيم الأرزاق بين أعضاء العزَّابة من العرفاء و التَّلاميذ.[3]

وإذا أمْعنا النَّظر في المهام المنوطة بالشَّيخ فإنَّنا نجدها قد جَمعت بين المهام التَّربويَّة والتَّعليميَّة في آن واحد، وهو ما يُوحي بأنَّ هذا النِّظام قد جمع بين التَّربية والتَّعليم.

---

[1] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السَّابق، ص.121. **وينظر**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.224. **وينظر أيضاً**، حجازي: المرجع السَّابق، ص.157.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السابق ، ج.1، ص.172.**وينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السابق، ص.112.

[3] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع نفسه، ص.123. **ينظر أيضاً**: حجازي: المرجع السَّابق، ص158.

4 – 2 – العُرفاء:

تتلخَّص مُهمّة العرفاء في الإشراف على التَّلاميذ حيث يقومون برعايتهم و مراقبتهم في أوقات الدِّراسة، وأوقات الرَّاحة أيضاً، وينقسم العرفاء إلى أربعة أصناف، هم:

4 – 2 – 1 – عريف تحفيظ القرآن الكريم: هو المعلِّم المكلَّف بتحفيظ القرآن الكريم للطلاب و بما أنَّ هذه هي مُهامه فيشترط عليه أنْ يكون "حافظا لكتاب الله حفظاً جيداً عارفاً برسم المصحف"[1] فاهماً لمعانيه، لأنَّه المسؤول الأوَّل عن تحفيظ القرآن الكريم، وفي الغالب يكون عدد التَّلاميذ الذين يُحفِّظهم القرآن ويُصحح ألواحهم عشرة تلاميذ فقط وإلى جانب تحفيظ القرآن يُعلِّمهم الأخلاق الحسنة.[2]

ويمكن لعريف القرآن أنْ يختار من بين تلاميذه تلميذاً مجتهداً و ذكيًّا يُساعده في مهامه ويسمَّى هذا التلميذ "**بالنَّقيب**" وهو الذي يُشرف على تطبيق التَّكاليف التي يُقدِّمها العريف للطلبة ويحثُّهم على ذلك، وتتلخَّص مهام عريف تعليم القرآن الكريم فيما يلي:[3]

- ✓ يُملي على تلاميذه الآيات التي يكتبونها في ألواحهم.
- ✓ يُصحِّح للتلاميذ الألواح.
- ✓ يطلب منهم حفظ ما كتبوه غيباً لليوم التَّالي.
- ✓ يضع تقريرا مفصَّلا عن كل تلميذ، وعن الحالات المستعصية التي لا يمكنه حلَّها إلاَّ الشَّيخ عند الاجتماع به أسبوعياً.
- ✓ معاقبة التَّلاميذ المقصِّرين في دروسهم، والذين لا يحفظون دروسهم جيِّداً.[4]

---

[1] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.225. **ينظر أيضاً:** حجازي: المرجع السابق، ، ص.170.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع نفسه ، ص.226.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.177. **ينظر أيضاً:** مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.226.

[4] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.177. **ينظر أيضاً،** حجازي: المرجع نفسه، ص.171 – 172.

4 – 2 – 2 – عريف أوقات الدِّراسة: هو بمثابة النَّاظر أو المراقب في مدارسنا المعاصرة الذي يُراقب التَّلاميذ أثناء حفظهم، ويساعدهم على استغلال وقتهم أحسن استغلال[1]، ويمكن أنْ يكون واحداً أو أكثر بحسب الحاجة، وتتلخَّصُ مهامه فيما يلي:

- ✓ يتفقد أصحاب الألواح بين الظُّهر والعصر، ويُعاقب الطَّلبة الذين لا يحملون ألواحهم للدرس إلاَّ بعذر.
- ✓ يشرف على انتظام الطَّلبة في الحلقات الدِّراسيَّة، كما يقوم بتسجيل الحاضرين.
- ✓ مراقبة الطَّلبة أثناء وقت الاستفتاح، فمن نام منهم عاقبه، كما يمنع الطَّلبة من الأكل في أوقات الدِّراسة.[2]

4 – 2 – 3 – عريف الختمات وأوقات النَّوم: يجمع عريف الختمات وأوقات النَّوم مهام النَّاظر الأوَّل في المدرسة، أثناء الدِّراسة النَّهاريَّة، ومهام النَّاظر الليلي، ويتَّبع نظاماً أشبه ما يكون بالنِّظام العسكري في تأمين سير العمل التَّربوي في المدرسة؛ وعمل عريف الختمات وأوقات النَّوم مُحدَّدٌ وواضح، وهو أقوى شخصيَّة بعد الشَّيخ وأهمُّ عنصر في العمليَّة التَّربويَّة إذْ يُشرف عريف الختمات وأوقات النَّوم على الأمور التَّالية:[3]

- ✓ ارتصاد حزب الغد وفي المجلس الذي تكون فيه المذاكرة.
- ✓ أنّ يُنادي بنوم الهاجرة، و يُلزم من لا عذر له على النَّوم.
- ✓ يُنادي إلى الختمة عند غروب الشَّمس.
- ✓ يُنادي بالدُّعاء بعد صلاة العشاء و قراءة القرآن.

---

[1] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السَّابق، ص.123.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.1، ص.177.

[3] – حجازي: المرجع السابق، ص.159.

✓ يترك الطُّلاب بعد صلاة العشاء في مذاكرة حرَّة مدَّة ليست طويلة.[1]

4 – 2 – 4 – عريف أوقات الطَّعام: هو النَّاظر المشرف على أوقات الطَّعام، له حدود يقف عندها وأشياء متع فيها، وتتمثل مهامه فيما يلي:[2]

✓ يُنظِّم جلوس التَّلاميذ والطَّلبة سواء في الحلقة أو خارجها، ويأمرُ بالماء ليغسلوا، وبعد الطَّعام يُنادي بالدُّعاء.

✓ يتفقد بعد جلوس الطُّلاب، الغائبين منهم، ويسأل عنهم فإنْ غاب أحدهم لعذر ذكَّرهم بأنْ يستوصوا به، و إنْ كان في غير عذر فالخطَّة.

✓ يحرص على قدوم الطُّلاَّب بلباسهم الرَّسمي الخاص بهم.

✓ مراقبة التَّلاميذ والطَّلاب في مدى تطبيقهم لآداب الأكل خاصة إذا كانوا خارج الحلقة حيث يجب عليهم التزام التُّحفُظ وإفراط الحذر حتى لا يُعابوا.

✓ يُعلن العريف على انتهاء الطَّعام بعد أنْ يتأكد أنَّهم انتهوا من تناول طعامهم ولا يحقُّ للطالب الذي أنهى طعامه، أنْ يقومَ من مكانه أو الانصراف إلاَّ إذا أعلن العريف ذلك.

✓يشرف على توزيع الهدايا التي يتصدق بها الأغنياء المحسنون على الطلاَّب.[3]

- ومما سبق ذكره حول الهيئة التَّعليميَّة والمهام المُوكلة لها يبدو لي أنَّ مجلس العزَّابة لم يعمل على تكوين الطَّلبة من النَّاحية العلميَّة فحسب وإنَّما حرص كلَّ الحرص على تكوينهم تربوياً أيضاً، وهذا لإدراكهم لأهميَّة عنصر التَّربية في الجانب التَّعليمي فأغلب مهام أفراد الهيئة كانت تربويَّة أكثر منها علميَّة، ولهذا فقد حرص نظام العزَّابة من

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.174. **ينظر أيضا:**، البرادي: المصدر السَّابق، ص.209. **وينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.113.

[2] – حجازي: المرجع السابق، ص.162.

[3] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.175. **ينظر**، البرادي: المصدر نفسه، ص.210. **وينظر**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.227. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.114. **وينظر أيضاً**، حجازي: المرجع نفسه، ص.163 – 169.

خلال هذه الهيئة على تكوين الطَّلبة دينياً وخُلقياً وعلمياً وحتى نفسياً وذلك بغرس جملة من القيم والسُّلوكيات منها:

- ✓ قُوّة الشَّخصيَّة التي يكتسبها الطَّالب من شيخه ومن المشرفون عليه، والشُّعور بقيمة الذَّات وذلك من خلال حُسن المعاملة، والمساواة بين جميع الطَّلبة.
- ✓ الشُّعور بالمسؤوليَّة والتَّدرُّب على فنون القيادة وهذا من خلال تكليف الطَّلبة ببعض المهام كتعيين أحد الطَّلبة مساعداً لعريف تحفيظ القرآن الكريم.[1]
- ✓ تعلُّم الانضباط والجديَّة في طلب العلم وهذا بتحديد أوقات للدراسة و الانتهاء منها.
- ✓ تعلُّم ضبط النَّفس والتَّحكم في الذَّات من خلال الحياة الجماعيَّة كالنَّوم الجماعي والصَّلاة الجماعيَّة والدُّعاء الجماعي.
- ✓ الالتزام بالمواعيد والأوقات، كموعد الختمة والدعاء وأوقات الأكل والرَّاحة.

- أمَّا الأهداف الخُلقيَّة فتتمثل في:

- ✓ احترام من هم أكبرهم سنًّا، وتعظيم أهل العلم (الشُّيوخ والعُرفاء).
- ✓ التَّواضع في الهيئة.
- ✓ بثُّ روح التَّعاون والتَّضامن بين الطَّلبة.

ولأنَّ المعلم جزء مهمٌّ في العمليَّة التَّعليميَّة فقد اهتم العزَّابة بإعداد من يصلح لهذه المهمَّة فالمعلم هو العَبَّارة التي يعبرُ عليها التِّلميذ إلى الاهتداء بالنَّموذج الإسلامي، وتكمُن خطورة دور المعلِّم في استمراريَّته مع الصِّبيان طيلة مرحلة التَّعليم، والتي قد تمتدُّ لبضع سنين ممَّا يكسب الصِّبيان عادات و مواقف وسلوكيَّات، إمَّا تقليداً للمعلم أو نتيجة ممارسات يأمرهم بها، ولذا وجب الحرص في اختيار النَّموذج والقدوة وفقاً لشروط و معايير معيَّنة، منها:

[1] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السَّابق، ص.125.

- أنْ يكون المعلِّم الإباضي داعية، يُرَغِّبُ الطَّلبة في المذهب، ويُبيِّنُ ريادة المذهب الإباضي.[1]
- أنْ يكون المعلِّم عاملاً بعلمه، فيجب عليه أنْ يعمل بما يُعلِّم، ولا يقول مالا يفعل، فإذا خالف فعل العالم قوله سقطت حكمته وامتنع النَّاس عن قبولها.
- الشَّفقة على المُتعلِّمين، حيث يجب على العالم اعتبارهم أبناؤه، فيقدِّم لهم النَّصيحة ويرفق بهم ويُساعدهم.
- أنْ يقصد العالم بتعليمه وجه الله تعالى ويقتدي بصاحب الشَّريعة صلوات الله عليه، في أنْ يطلب ثواب الله في تعليم من علَّم، ولا يطلب بذلك في الدُّنيا عوضاً و لا أجراً.[2]

- النَّصيحة للمتعلمين والرِّفق بهم، وتسهيل السَّبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومَعونتهم، فإنَّ ذلك أعظم لأجرهم وأسنى لذكرهم، وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلوماتهم.[3]
- ينبغي على العالم أنْ يكون عالماً بمختلف العلوم، و أنْ لا يقبِّحَ في نفس المتعلِّم مالم يُحطْ به من العلوم.
- عدم البخل في إفادة التَّلاميذ، أيْ يجب عليه إذا سأله متعلِّمٌ أنْ يجيبه ويفيده.[4]
- يجب أنْ يكون العالم واسع الصَّدر، وأكثرهم صبراً وأجملهم لقاءً وأحسنهم أخلاقاً، لأنَّ المتعلِّمين منه يحذون خَلائِقَهُ، ويتَّخذون طريقه.

---

[1] – حجازي: المرجع السَّابق، ص.191 – 195.

[2] – إسماعيل بن موسى الجيطالي: **قناطر الخيرات**، تح، سيّد كسْروي حسن و خلاَّف محمود عبد السَّميع، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2001م،ج1 ص.109 – 113. **وينظر**، أبو حامد الغزالي: المصدر السَّابق، ص.68 – 71.

[3] – الجيطالي: المصدر السابق،ج.1، ص.109 – 113.

[4] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السَّابق، ص.139 – 140.

- ينبغي على المعلِّم ألاَّ يُعنِّفَ مُتعلِّما، ولا يُحقِّرنَا شيئا، ولا يستصغر مُبتدئا فإنَّ ذلك أدعى إليه وأعطف للمسترشدين إليه، وأحثُّ على رغبتهم في ما لديه.[1]
- ينبغي للعالم أنْ تكون له فَراسة يتوسَّم بها أحوال تلامذته وغيرهم من المتعلِّمين من النَّاس، فيعطي كلَّ واحد منهم مبلغ طاقته، وقدر استحقاقه، فيعطيه مَالَا يجهله بذكائه ولا يضعف عن بلادته.[2]

وممَّا سبق ذكره من شروط اختيار المعلِّم، يبدو لي أنَّ العزَّابة قد شَدَّدوا في مسألة اختيار **المُعلِّم** باعتباره **القدوة** والنَّموذج الذي يَحتذي به الطَّلبة، ولم يَتوَقفُ حرص العزَّابة على اختيار المُعلِّم فحسب و إنَّما شمل طالب العلم أيضاً، أينْ حرصوا على تَوفُّر جُملة من الشُّروط في طالب العلم ليكون قادراً على تحمُّلِ أعباء الدَّعوة ويعمل على نشر المذهب عندما يستوفي علومه، ولقد لخَّص "الجيطالي" شروط المُتعلِّم في النِّقاط التَّالية:

✓ أنْ يكون علمه لله عزَّ وجلَّ ولما عنده طالباً وفيه مجتهداً، صابراً، متواضِعاً، حريصاً، خفيف المئونة على مُعلِّمه، راغباً في ساعات نشاطه، صابراً لصولته وضيق صدره.

✓ أنْ يكون راغباً في طلب العلم، ويرغب فيه رغبة مُتحقِّق لفضائله واثق بمنافعه، ولا يُلهيه عن طلبه كثرة مالٍ، و جدَّةٍ، ولا نفوذ أمر وعلوَّ منزلةٍ.[3]

✓ ينبغي لطالب العلم أنْ يُقدِّم أوَّلا طهارة النَّفس من دناءة الأخلاق ومذموم الأوصاف، لأنَّ العِلم عمارة القلب، وصلاة السِّرِّ، وقربة الباطن إلى الله تعالى.[4]

✓ أنْ يُقلِّل طالب العلم علائقه من أشغال الدُّنيا، ولا يُسوِّفُ نفسه بالمواعيد الكاذبة.

---

[1] – الجيطالي: المصدر السابق، ج.1، ص.121 – 124.

[2] – الجيطالي: المصدر نفسه، ج.1، ص.119.

[3] – نفسه.

[4] – الجيطالي: المصدر نفسه ، ج.1، ص.95 – 96.

✓ أنّ لا يتكبر عن العلم ولا يتأمَّر على المُعلِّم، بل يُلقي إليه زمام أمره و يُذْعن لنصحه، فبذلك ينال مطلوبه بمأموله.

✓ أنْ يحذر المتعلِّم الإذلال على من يعلِّمه، و إنْ أنسه وطالت صحبته معه، لأنَّ الإذلال على العلماء من فعل الجُهال و فيه فساد الأحوال.

✓ أنْ لا يدع طالب العلم فنًا من العلوم المحمودة إلاَّ وينظر فيه، نظراً يطَّلِع منه على مقصده و غايته.[1]

4 – 3 – أوقات الدِّراسة:

ممَّا لاشكَّ فيه أنَّ للزمن دوراً مهمًّا في عملية التَّحصيل العلمي فكلَّما كان الوقت أكثر ملاءمة انعكس ذلك بالإيجاب على الإنتاج ومستوى ورغبة التَّلاميذ في التَّحصيل، والعكس صحيح، ولابُدَّ وأنْ يُراعى في مسألة تحديد أوقات الدِّراسة الخصوصيَّة الجغرافيَّة للمناطق كالحرارة الشَّديدة، والبرودة الشَّديدة.

يبدأ الأسبوع الدِّراسي في الحواضر الصَّحراوية بعد عصر يوم الجمعة وينتهي صباح يوم الأربعاء، وفي بعض المناطق تكون البداية صباح يوم السَّبت، وتنتهي عصر يوم الأربعاء[2] وينقسم فيهـــا اليوم إلى فترتين أو ثلاثة، فالأمر يختلف من حاضرة إلى أخرى ويكون كالتَّالي:

4 – 3 – 1 – الفترة الصَّباحية: لم تكن بداية ونهاية هذه الفترة مُوحَّدة في حواضر الصَّحراء إنَّما يختلف من منطقة لأخرى، فالمناطق التي كانت على المذهب الإباضي يبدأ اليوم فيها باستيقاظ المشايخ والطَّلبة في الهزيع الأخير من الليل وبه يبدأ التَّوقيت، حيث يُشرع أوَّلاً في الاستفتاح فيستيقظ التَّلاميذ من النَّوم، فيتوضَّؤون ويقرأون القرآن الكريم، سواء مع الشَّيخ أو كل واحد يقرأ بمفرده، و يستمرُّون في قراءة القرآن الكريم

[1] – الجيطالي: المصدر السابق، ج.1، ص.95 – 100.

[2] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.190.

حتى أذان الفجر، حيث يتوقَّفون عن القراءة فيدعون ويستغفرون، ثمَّ يقومون لصلاة الفجر.[1]

- وبعد الانتهاء من صلاة الفجر يتناول التَّلاميذ والطَّلبة وأعضاء العزَّابة طعام الفطور ثمَّ يُواصلون الدُّروس، فيشرع العريف في تحفيظ التَّلاميذ ما أخذوه في الدُّروس السَّابقة وبعدها يُملى عليهم ما يجب حفظه في الدَّرس القادم، ومَنْ لم يقم بواجبه يُعاقب.[2]

- ويشير "البرادي" إلى درجات العقوبة في قوله: «إذا توقف أحدهم حين الحفظ، فإنْ كان مبتدئاً أقبل له خمس عشرات، فإذا كان فوقه إلاَّ أنَّه في أوَّل قلم أقيل له ثلاثة، وإنْ كان في الإعادة فعشرةٌ واحدة، فإنْ زاد فعلى ما يجتهد فيه العريف».[3]

- ويُضيف "الدِّرجيني" «أنَّه إذا كان التِّلميذ صغيراً فإنَّه يُجلَدُ في الزَّاوية عِقابًا له على عدم القيام بواجبه، أمَّا إذا كان كبيراً فالخطَّة والطَرد».[4]

- وإذا كان تقصير التِّلميذ في الحفظ راجع لأسباب أخرى، كعدم قدرته الذِّهنيَّة على سبيل المثال، فإنَّ العريف لا يعاقبه، وفي حالة اليأس من قدرة التِّلميذ على الحفظ يتمُّ إعفائه ويُدْرَجُ في صنف العجزة، و هذا بعد إبلاغ الشَّيخ بوضعه وحالته.[5]

- وعند انتهاء الدُّروس الصَّباحيَّة، يقوم عريف الختمات بجمع الطَّلبة لتلاوة دعاء الختمة الصَّباحيَّة معلنا بذلك انتهاء الدُّروس الصَّباحيَّة التي يقوم بها العرفاء.[6]

- وبعد ذلك يجتمع الطَّلبة إلى شيخ العزَّابة حيث يُلْقون عليه بعض الاستفسارات ليُجيب عليها، ولا تقتصر هذه الاستفسارات على موضوع مُعيَّن بل تكون شاملة

---

[1] – البرادي: المصدر السَّابق، ص.208. **وينظر**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.122. **وينظر أيضاً**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.231.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.231.

[3] – البرادي: المصدر نفسه، ص.212.

[4] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.177.

[5] – مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.231.

[6] – حجازي: المرجع السَّابق، ص.176.

للنواحي العلميَّة والفقهيَّة والاجتمـــاعيَّة وغيرها من المسائل التي تلفت انتباه الطَّلبة وتُثير فضولهم.[1]

- وتخضع عمليَّة طرح الأسئلة إلى نظامٍ مُعيَّن كأن يبدأ الطَّلبة أسئلتهم الاستفساريَّة، إمَّا من الموالي للشيخ، أيْ ابتداء من الطَّالب الجالس إلى يمين الشَّيخ، وإمَّا أنْ يتداولوا وضع السُّؤال فيبتدئون بالسُّؤال يوماً، فمن أفضت إليه النَّوبة وغاب اجتهد فيه، وإمَّا أنْ يسأل أفصحهم لساناً وأكثرهم بياناً، أو أنْ يسأل أشدَّهم احتياجاً لإسراع ضرورات دعت، أو لنازلة وقعت.[2]

- وعندما ينتهي الطَّلبة من طرح الأسئلة، يقوم الشَّيخ ومن معه فيصلُّون نافلة الضُّحى ثمَّ ينصرف الشَّيخ لتُقدَّم للطلبة وجبة من الفواكه أو البلح، والأمر الغريب والمُلفت للنظر أنَّ هذه الوجبة تخضع أيضاً لشروط، منها: أنْ يُسأل الطَّالب ثلاثة أسئلة فإذا لم يُجب يُمنع من الأكل تأديباً له، فإنْ نَسي قُبل منه لكنَّه يجب عليه أنْ يتذكر الإجابة، فإنْ تذكَّرها قبل انتهاء الوجبة سُمح له بأخذ نصيبه من الفواكه أو البلح[3]. و لربَّما الهدف من ذلك التَّأديب، هو حثُّ الطَّالب على الاجتهاد أكثر والجدّ في طلب العلم.

وبعد الانتهاء من تناول الوجبة يدعو العريف التَّلاميذ إلى نوم الهاجرة "أيْ نوم القيلولة" ولا يُمكن لأحد التَّخلُّف عنه إلاَّ بعذر مقنع، وعلى التَّلميذ ضرورة المحافظة على الهدوء حتى لا يزعج غيره وهو ما أشار إليه "الدِّرجيني" في بقوله: «فإذا كان الضُّحى نادى العريف بنوم الهاجرة فينامون، فإذا ناموا وتكلَّم أحد أو تحرَّك بحيث يؤذي أحد النَّائمين فالخطَّة، بل إنْ أبى أنْ ينام بغير عذر، وكان تركه للنوم ذريعة إلى امتناع القيام بالليل، حُتِّم عليه نوم القائلة، فإنْ امتنع فالخطَّة».[4]

---

[1] – حجازي: المرجع السابق، 176.

[2] – نفسه . **وينظر أيضاً**، مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص.232.

[3] – مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.233. **وينظر**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.176. **وينظر أيضاً**، البرادي: المصدر السَّابق، ص.211.

[4] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.174.

وقد حافظ شيوخ العزَّابة على هذا النِّظام حتّى في سفرهم، فـ"الدِّرجيني" يذكر: «أنَّ الشَّيخ "أبا نوح سعيد بن يخلف المزاتي" إذا سافر وحان وقت نوم الهاجرة نزل من فرسه و نام».[1]

4 – 3 – 2 – الفترة المسائيَّة: تنطلق الفترة الدِّراسيَّة المسائيَّة بعد صلاة الظُّهر وتستمرُّ حتى موعد صلاة العصر، ويُدعى بعدها الطَّلبة لتناول وجبة خفيفة كوجبة الضُّحى وبالطَّريقة نفسها ليعودوا بعدها إلى مراجعة الدُّروس لفترة قصيرة، ثمَّ ينصرف بعدها الطُّلاَّب إلى القيام بأعمال أخرى أو الاستراحة، وتستمرُّ فترة الاستراحة إلى صلاة المغرب حيث يجتمع التَّلاميذ والطُّلاَّب لأداء صلاة المغرب ثمَّ تُقام الختمة المسائيَّة، وتعتبر هذه الختمة نهاية اليوم الدِّراسي، وفي هذه الختمة يجلس الطَّلبة والتَّلاميذ في هيئة حلقة، يتلون القرآن الكريم إلى أنْ ينادي المُؤذن إلى صلاة العشاء.[2]

فيدعون دعاء الختام ثمَّ يُصلُّون العِشاء، ويتناولون العَشاء، وبعد استراحة قصيرة تُقام الختمة النِّهائيَّة وتُتبع بدرس في الوعظ والارشاد ثمَّ ينصرفون للنوم، ويعتبر الحضور لهذه الختمة غير اجباري[3].

ولم تسعفنا المصادر المتاحة بتفاصيل حول مواضيع الدُّروس أو دعاء الختمات، ومن المرجَّح أنْ تكون تلك الدُّروس في الفقه والأحكام الإباضيَّة، لأنَّ الهدف من هذا النِّظام هو الحفاظ على استمراريَّة المذهب فـ"أبو الرَّبيع: يقول: «العلم كثير من أنْ يحصى لكن خذوا من كلَّ شيء أحسنه و قيل: تعلَّموا قبل أنْ يرتفع وارتفاعه ذهاب أهله».[4]

---

[1] – الدّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.368.

[2] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.120.

[3] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.181 – 182. **وينظر أيضاً**، البرادي: المصدر السَّابق، ص.216–217.

[4] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.234 – 235.

وقد سمح هذا النِّظام لفئة من الطَّلبة من "أصحاب الكُتب" بنوع من الحريَّة حيث تكون حلقاتهم العلميَّة على شكل حوار ومناقشة، وعلى الرُّغم من تمتعهم بقسط من الحريَّة إلاَّ أنَّهم يُمنعون من مطالعة الكتب غير المرغوب فيها، والتي تطلق عليها المصادر الإباضيَّة مصطلح "كتب المخالفين"، فقد يتعرض إلى الخُطة والهجران كل من سوَّلت له نفسه الاطلاع على هذه الكتب ومن الأمثلة على ذلك أنَّ "يحيى بن زكرياء الزَّواغي" أحد شيوخ الإباضيَّة وجد "يوسف بن موسى مصارمين" يقرأ كتاب "الإشراف على نكث مسائل الخلاف" فأخبر المشايخ بما رآه، فبعثوا إليه بالخطَّة والهجران فأسرع إليهم و تاب.[1]

أمَّا حاضرة "توات" فاليوم عندهم مُقسَّم إلى ثلاث فترات، وهي: "**الفترة الصَّباحية**" بها يُبتدئ من السَّاعة السَّادسة صباحاً وتنتهي مع تمام العاشرة، وهذا بخصوص الكتاتيب، أمَّا زوايا التَّعليم التي يتعلَّم فيها الكبار فيبتدئ فيها وقت الدِّراسة من بعد صلاة الصُّبح إلى وقت الزَّوال

أمَّا "**الفترة المسائيَّة**" فتَبدأ بعد صلاة العصر وهذا بسبب الحرارة الشَّديدة التي تعرفها المنطقة ولم يُحدَّدُ وقت معلومُ لنهاية هذه الفترة، ولربَّما ذلك يتوقف على مدى حفظ الصِّبية لألواحهم، "**الفترة الليليَّة**" ومُدَّتها قصيرة جدًّا والغرض منها تدعيم وتمكين الطَّالب، فلا يستعمل الأطفال الألواح وإنَّما يعتمدون على القراءة من الكُتب أو من حفظهم، وينقسم الأطفال فيها إلى ثلاثة فئات: الفئة الصُّغرى، والفئة الكبرى، وفئة تلاميذ الفقه و الحديث.[2]

[1] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.123.

[2] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.191.

أمَّا بخصوص أوقات الرَّاحة والعطلة، فمنها سويعات تتخلَّل الدِّراسة، واليومين المُتعارف عليهما في آخر الأسبوع (الخميس، والجمعة)، أو الأيَّام التي تصادف بعض المناسبات كالأعياد.[1]

وقد خضعت فترات الرَّاحة في نظام العزَّابة لآداب وضوابط فما كان هذا النِّظام ليغفل عن أوقات الاستراحة وأماكنها فقيَّد لها شروطاً من شأنها أنْ تعود بالنَّفع والفائدة على أخلاق طالب العلم، إذْ أنَّ الطَّالب من دون شكٍّ يتأثَّر بالمحيط الذي يعيش فيه، ففي أوقات الرَّاحة وعطل المواسم والأعياد لا يحقُّ للطالب أنْ يقضيها في الأماكن المشبوهة أو الأماكن العامة، حيث يمنع العزَّابة ذهاب الطَّلبة إلى الأسواق والمرور أو الجلوس في الطُّرقات خاصة المسدودة منها إلاَّ إذا ألجأت الضَّرورة لذلك أو كان الطَّريق نافذا،[2] وإنَّما يجب على الطُّلاَّب أنْ يقضوا أوقات الرَّاحة في الأماكن الغير آهلة كالجنان و مواضع المياه والأشجار لما فيها من هدوء وراحة، وأشار "الدِّرجيني" إلى ذلك بقوله: «وقت الرَّاحة و التَّصرُف هو آخر النَّهار يتصرَّف إلى المواضع التي لا ينكر التَّصرف فيها كموضع المياه ومواضع الأشجار، وأمثالها من الأماكن التي تنفرج فيها النُّفوس، وتنفسح فيها الصُّدور فإنَّ في ذلك اجماعاً للخواطر، وجلاء للنواظر».[3]

4 – 4 – طرق التَّقييم (الامتحانات و الاختبارات):

لم تتطرَّق المصادر لمسألة الامتحانات الدَّوريَّة التي يُمتحن فيها الطَّالب من مرحلة لأخرى، خلال الحديث عن نظُم التُّربية في مدارس العزَّابة، ومن خلال ما ذكرته

---

[1] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.192.

[2] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.120.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.181 – 182. **وينظر**، البرادي: المصدر السَّابق، ص.216 – 217. **وينظر أيضاً**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.235.

المصادر حول سَير الدِّراسة في مدارس العزَّابة استخلصنا بعض الإشارات حول الاختبارات، والتي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع، هي:

4 – 4 – 1 – الاختبارات اليوميَّة: ويُشرف عليها العريف، حيث يقوم باختبار التَّلاميذ ثلاث مرَّات في اليوم، إذ يمتحنهم مع بداية الدَّرس كلَّ يوم فيما أخذوه من معارف في الدَّرس السَّابق، كما يمتحنهم أثناء الوجبتين الإضافيتين عند الضحى وبعد العصر، وكلُّ تلميذ يُخطئ في الإجابة يُحرَمُ من الوجبة.[1]

– كما يقوم شيخ العزَّابة بامتحان الطَّلبة عند ختمة الغذاء وختمة المساء، ففي هذه الأوقات يَقوم الشَّيخ بالإجابة عن أسئلة الطَّلبة واستفساراتهم، واختبار معلوماتهم العامَّة ودرجة تحصيلهم العلمي، ويُوبِّخُ الشَّيخ العريف إذا وجد أنَّ مُعظم تلاميذه كُسالى ولا تُرقى معلومـــــاتهم إلى المستوى المطلوب منهم، وفق للمرحلة الدِّراسيَّة التي ينتظمون فيها.[2]

4 – 4 – 2 – الاختبارات الأسبوعيَّة: يقوم بها عادة الشَّيخ أو مُستنابه (من ينوبه) يومي الاثنين والخميس من كلِّ أسبوع، حيث يجمع الشَّيخ الطَّلبة فيسأل عن أحوالهم.

4 – 4 – 3 – الاختبارات السَّنويَّة: وتُجرى في آخر العام الدِّراسي، والتي بموجبها يُرقَّى التِّلميذ من مرحلة دراسيَّة مُعيَّنة إلى المرحلة العليا التي تليها.[3]

4 – 5 – أشكال التَّأديب في النِّظام التَّعليمي:

لم تغفل الهيئة التَّنظيميَّة المشرفة على نظام التَّعليم بمجلس العزَّابة عن إيجاد وسائل وطرق يمكن من خلالها تأديب وردع الطَّلبة، وذلك بهدف ضبط سلوكياتهم، وقد

[1] – حجازي: المرجع السَّابق، ص.250. **وينظر أيضاً**، مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص.236.

[2] –حجازي: المرجع نفسه، ص.251.

[3] – مسعود مزهودي: المرجع نفسه، ص.236. **وينظر أيضاً**، حجازي: المرجع نفسه، ص.251.

تدرَّجت تلك العقوبات تبعاً لكبر الذَّنب أو صغره، ويلجأ المعلِّمون غالبا إلى العقوبات في الحالات التَّالية:

- ✓ التَّأخر في الحضور إلى الدَّرس و التَّغيُّب.
- ✓ التَّقصير في تحصيل الدُّروس.
- ✓ عدم الالتزام بالواجبات التي يطلبها العريف.
- ✓ إثارة الفوضى أثناء إلقاء الدُّروس، أو إزعاج زملاءه أثناء أوقات النَّوم أو الاستفتاح أو في الختمات.
- ✓ عدم تطبيق آداب الأكل وكثرة التِّجوَل في الأسواق وعدم ارتداء الزَّي الرَّسمي[1].

وتنوَّعت أشكال العقوبات، و منها:

4 – 5 – 1 – العقوبات المعنوِيَّة (النَّفسيَّة): وبها ثلاثة أنواع، هي:

4 – 5 – 1 – 1 – وتتمثَّل في التَّوبيخ البسيط إذا كان الذَّنب صغيراً و من غير قصد ويكون التَّوبيخ بعيداً عن أعين زملاءه، إذا كان الذَّنب صدر منه لأوَّل مرة، وإذا تكرَّر الخطأ فإنَّ الطَّالب يُعزَّرُ أمام زملاءه[2]، وكذلك حرمانه من الوجبات الإضافيَّة بعد وقتي الضُّحى و العصر.

- ومن ضمن العقوبات المعنويَّة أيضاً حبس التِّلميذ في ركنٍ من أركان المسجد أو الزَّاوية وهذا ما يؤكده "البرادي" في قوله: «**و يختارون زاوية تكون موضعا لتأديبهم**».[3]

4 – 5 – 1 – 2 – الهجران: و هو من ضمن العقوبات المعنويَّة التي انتهجها الشُّيوخ في تأديب الطَّالب وهو البراءة المؤقَّتة حتى يتوب التِّلميذ عن الذَّنب الذي ارتكبه، و يبدو لي أنَّ هذا النَّوع من العقوبات كان الأكثر شيوعا عند المشايخ، وهو ما وقفنا عليه في كتب السِّير والتَّراجم وقد تكون قراءة كتب المخالفين سبباً كافي في أنْ

[1] – حجازي: المرجع السابق، ص.271.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.237.

[3] – البرادي: المصدر السَّابق، ص.208.

يتعرَّض الطَّالب للهجران وسبق وأن أشرنا إلى أمثلة على ذلك[1]. وقد وردت في كتب السِّير العديد من الأمثلة حول تحذيرات العزَّابة من مطالعة كتب أهل الخلاف وتعرَّض كل من يطَّلع عليها للعقاب، ولا ندري إنْ كان هذا المنع من باب المحافظة على المذهب وخوفاً من كثرة الانشقاق، أمْ أنَّه نوع من أنواع الاضطهاد الفكري؟

4 – 5 – 1 – 3 – البراءة: و هي طرد التَّلميذ إذا ارتكب ذنباً كبيراً مثل ترك الصَّلاة.

4 – 5 – 2 – العقوبات الجسديَّة: أهمَّها "**الجلد**"، ولا يقصد بالجلد هنا تطبيق الحدِّ الشَّرعي، و إنَّما يكون الجلد طبقاً لنوع الخطأ وعدد الغلطات التي ارتكبها[2]، ولم تختلف أشكال العقوبات بحاضرة توات عمَّا كان معمول به عند العزَّابة.

ومما سبق ذكره حول نظام التَّعليم الذي تبناه العزَّابة في المناطق التي تتبنى المذهب الإباضي بما في ذلك بعض حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة: كَـ"أريغ، و وارجلان، وميزاب، وأسوف" يتضح لنا مدى دقّة وصرامة هذا النِّظام حيث اعتمدت فيه المتابعة الدَّقيقة اليوميَّة والأسبوعيَّة للتلاميذ و الطَّلبة مع دوام التَّقييم المُسْتمرِّ، ومن الواضح أيضاً أنَّ هذا النِّظام كان يسعى إلى تنشئة الفرد تنشئة دينيَّة وخُلقيَّة، من خلال غرس قيَّم الأخوة والتَّرابط بين طُلاَّب العلم، وقد نجح هذا النِّظام في تجسيد ما يُعرف اليوم بمصطلح "**الأسرة التَّعليميَّة**" لما بين أفراده من التَّرابط والودِّ فنستشعر أبُوَّة الأب الحاني في الشَّيخ والمُعلِّم، وبنوة الابن البارِّ والجادِّ في طلب العلم والأخوَّة الصَّادقة فيما بين الأنداد من الطَّلبة، فقد تعدَّت علاقة الشَّيخ بطلبته حدود الدِّراسة وحلقة العلم، إلى ما هو أعظم من ذلك كالإنفاق على طلبة من خاصَّة ماله، مثلما فعله "أبو إسماعيل أيُّوب".[3]

---

[1] – حجازي: المرجع السابق، ص.275. **وينظر أيضاً**، مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص.235.

[2] – حجازي: المرجع نفسه، ص.276.

[3] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.123. **وينظر أيضاً**، عمرو خليفة النَّامي: المرجع السَّابق، ص.26.

وهذا الأمر له شبيه بما كان يفعله علماء "نفوسة" من الجود على طلبتهم في ذلك الحين، بل يتجاوزون ذلك إلى كسْوتهم صيفاً وشتاءً بكساء جديد.[1]

وقد يتجاوز الإبْرَار من الغذاء المادِي إلى الرُّوحِي فنستشعر حرص المشايخ في نصح وإرشاد طلبتهم ولعل في نصيحة الشَّيخ "**أبو الرَّبيع سليمان بن يخلف المزَّاتي**" لطلبته ما يُؤكِّدُ قولنا إذ نصحهم قائلا: «إذا وصلتم منازلكم فإيِّاكم أنْ تستقبلوا الدُّنيا بوجوهكم لئلاَّ تغُرَّنَّكم، وعليكم بالألفة و النَّصيحة والتَّزاور، وحفظ مجالس الذِّكر، وإيَّاكم وأمور النَّاس وإيَّاكم والتَّقصير فيمن يرد من أهل دعوتكم»[2].

ونصح "أبو عبد الله" أحد طلبته «بقراءة القرآن والمواظبة عليه والرَّغبة إلى الله والرَّأفة بالضُّعفاء»، كما قال له أيضاً: «احمل نفسك على مالك يحملك».[3]

وعلى الرُّغم من أَنَّ نظام التَّعليم في حلقة العزَّابة قد جمعَ ما بين التَّعليم والتَّكوين وبين التَّدريب و التَّوجيه، وبين الشَّكل والرُّوح، والجوهر والمخبر، كما أشار إلى ذلك "خليفة النَّامي"، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنع من وجود جملة من السِّلبيات ضمن هذا النِّظام قد تدفع ببعض الطَّلبــة إلى العُزوف عن مواصلة الدِّراسة، وقد وقـف عدد من الباحثيــن على بعض هذه السِّلبـيات ونحن نتفق معهم فيما ذهبوا إليه ومن جمـلة سلبيــات هذا النِّظام:

- كثرة ارهاق التِّلميذ بأوقات الدِّراسة والعبادة والمراجعة، فمعظم أوقات التَّلاميذ ما بين الدِّراسة و العبادة والمراجعة وهذا ما يجعل التَّلميذ يشعر بالملل، خاصة تلاميذ المرحلة

[1] – **منهم:** الشَّيخ "**أبو عبد الله مُحمَّد بن سليمان**"، كان يحنو على التَّلاميذ حنو أبيهم دون قرابة ويجتبيهم ويطعمهم و يكسوهم من ماله، وكان إذا أقبل الشِّتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها دفء، فإذا أقبل الصَّيف اشترى لهم أكسية خفيفة برسم الصَّيف، ويخرج لهم كل يوم ما يُقيم طعامهم وإدامهم، **ينظر**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.418.

[2] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.82. **وينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.124.

[3] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، (تح: عبد الرَّحمان أيوب)، ص.360.

الأولى "**مرحلة الكتاب**" التي يكون الصَّبيُّ فيها بحاجة إلى أوقات للعب واللهو، فواضعو هذا النِّظام لم يأخذوا بعين الاعتبار حصص التَّرفيه عن النَّفس المُجدِّد للنشاط.

- ويرى الباحث "بشير التِّليسي" أنَّ هذا النِّظام ركَّز على الحفظ أكثر من إعمال العقل في مواد التَّعليم، وهو ما من شأنه أنَّ يحدَّ ويُقلِّلُ من قدرة التَّلميذ على الابتكار والابداع.[1]
- الشِّدَّة والصَّرامة في التَّعليم وتطبيق العقوبات يجعلُ التَّلميذ يُقدِّم على التَّعلُّم رهبة لا رغبة فبعض أشكال التَّأديب تؤدي إلى قتل المواهب[2]، ولقد أشار "ابن خلدون" في مقدِّمته إلى مضرَّة الشِّدَّة على المتعلِّمِين لما فيها من سوء المَلَكَة وقتل المواهب وطمس المَلَكَات كما أنَّها مدْعاة للكسل وتحمله على الكذب والخبث.[3]

وما تجدر الإشارة إليه هو أنَّ التَّعليم في حواضر الصَّحراء كان متاحاً للجميع بحيث لم يقتصر على طائفة من الولدان دون البقيَّة، فالجميع لهم الحقُّ في التَّعلُّمِ دون تمييز بين أبناء الأغنياء والفقراء، كما أنَّ المرأة حَظيت هي الأخرى بنصيبٍ وافر من التَّعليم فلم يقتصر التَّعليم على الفتية فحسب، وإنْ كان تعليم المرأة في حاضرة "توات" لم يتجاوز مرحلة "الكُتَّاب" في حين واصلت المرأة تعلُّمها في الحواضر الأخرى كـ"وارجلان" على سبيل المثال، أين بلغت فيها المرأة مبلغاً عظيماً في العلم، وأصبح بعضهنّ عالمات، ولنا في "عائشة بنت معاذ" خيرُ شاهد على ذلك.[4]

- وقد كان التَّعليم بحواضر الصَّحراء مجانياً، ويتمُّ الإنفاق عليه من مداخيل الأوقاف التي أوقفها أصحابها على طلبة العلم، فمن العادات الحسنة التي دآب عليها الأغنياء والميْسوري الحال بحاضرة "توات" وقف جزء من منتوج بساتينهم على طلبة العلم

[1] – التِّليسي: المرجع السَّابق، ص.398.

[2] – التِّليسي: المرجع نفسه، ص.398.

[3] – ابن خلدون: **المقدِّمة**، ص.531.

[4] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.157 – 158.

وحفظة القرآن الكريم، فبعد الحصاد يُخصِّص جزءٌ لكلٍّ من يحفظ نصيباً من القرآن الكريم وفي الغالب يُحدَّدُ ببلوغ "سورة الرَّحمان" وهذه الأوقاف جاءت في وقت اشْتدَّ فيه الفقر وغلا فيه القوت[1]، بالإضافة إلى الأموال التي كان يحصل عليها العزَّابة من الأحباس والأوقاف الخاصة بالمسجد.

- كما شكَّلت الزَّكاة مورداً ثابتاً لبيت مال العزَّابة وكان الإباضيون يتسابقون لأدائها دون إكراه أو إجبار، وقد كان القسم الأكبر منها يُسلَّم للعزَّابة فيودعونه بيت مال الحلقة ليُصرف على المسجد و شؤون الجماعة الإباضيَّة المختلفة، ومنها التَّعليم[2] ناهيك عن التَّبرُّعات التي كان يتبرع بها أفراد المجتمع إلى العزَّابة، فمنها: النَّقديَّة والعينيَّة، ففي كلِّ مسجد كانت هناك حجرات واسعة نظيفة فيها خوابي واسعة مُخصَّصة، تَسَعُ عشرات القناطير، لخزن التَّمر للفقراء في المسجد وعلى العزَّابة[3] .

كما شكَّلت الهبات والعطايا مورداً هاماً في الإنفاق على التَّعليم، حيث يذكر "الدِّرجيني" في هذا الشَّأن أَنَّ قبائل البربر كانت تُساعد طلبة العلم بتقديم العطايا لهم، حيث يُصرِّحُ بأنَّ "قبائل زنزفة" و "لُمَّاية" و "مزاتة"، وممَّا حولهم من القبائل يبتذلون الجهد في معونة الطَّلبة بالهدايا والعطايا واللطف، فكانوا في أبرّ حال[4] كما وهب الشَّيخ: "أبا باديس أبخت بن باديس" ثلاثمائة بقرة للعزَّابة.[5]

---

[1] – عزُّ الدِّين جعفري: **أطلس العادات**، ص.184.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.237. **وينظر أيضاً**، حجازي: المرجع السَّابق، ص.233.

[3] – مُحمَّد علي دبوز: **نهضة الجزائر**، ص.220.

[4] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.193.

[5] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق،ج.2، ص.60. **وينظر أيضاً**، علي يحيى معمر: المرجع السَّابق، ج.1، ص.146.

إضافة إلى ذلك فقد ساهم بعض المشايخ الميسوري الحال في الإنفاق على تلامذتهم من مالهم الخاص كما فعل الشَّيخ: "أبي عبد الله مُحمَّد بن سليمان النَّفوسي".[1]

- ومن تلك التَّبرُّعات كان يُخصَّصُ جزءًا من المال "**كأجرة للمعلِّم**" التي يبدو أنَّها كانت مَحلُّ جدل واسع بحاضرة "وارجلان"، إذ طُرحت بإحدى مساجدها مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن الكريم، وقد أورد "الشَّمَّاخي" فتوى "**لأبي عبد الله مُحمَّد بن أبي بكر**" تدعو لضرورة أخذ الأجرة على تعليم القرآن الكريم حتى لا يكون ذلك ذريعة إلى ترك العلم فيفضي ذلك إلى تمام الجهل وتصير النَّاس أميين[2]. ويبدو لي أنَّ مجانيَّة التَّعليم قد ساهمت بشكل كبير في ازدهار الحركة العلميَّة، إذ مَكَّنت أبناء الفقراء من الولوج إلى مؤسسات التَّعليم وتفوُّقهم فيه.

ثانياً- العلوم السَّائدة بالحواضر الصَّحراويَّة:

سادت بالحواضر الصَّحراويَّة عدَّة علوم تمَّ طرق أبوابها من طلبة العلم، أهمُّها:

1)- علم التَّفسير:

وقد ظهر فيه ضَربين من ضروب التَّفسير، هما: التَّفسير الشَّفوي للقرآن الكريم ويتمُّ عادة في المساجد وفي الحلقات العامة والخاصة، وكثيراً ما يُستعان عليه بالبربريَّة، ويعدُّ الإمام "**يعقوب بن أفلح**" من المؤسِّسين الأوائل لهذا العلم.[3]

أمَّا الضَّرب الثَّاني من ضروب التَّفسير، فهو التَّفسير عن طريق التَّأليف، وفيه يُنسب تفسير لـِ"عبد الرَّحمان بن رستم" تنافس النَّاس على اقتنائه، وتشير الرِّوايات بأنَّ أحد المشايخ لمَّا سمِعَ عن هذا التَّفسير يُباع في أسواق "بني حماد"، شدَّ الرِّحال إليه،

[1] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.418. **وينظر أيضاً**، الشَّمَّاخي: المصدر السابق ،ج.2، ص.78.

[2] – الشَّمَّاخي: المصدر انفسه، ، ج.2، ص.70.

[3] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السَّابق، ص.175.

فلمَّا وصلها ولم يجده كان أسفه كبيراً[1]. ومن أشهر العلماء الذين برزوا في هذا العلم الشَّيخ "**أبو يعقوب الواجلاني**"، ويذكر "البرادي" بأنَّه رأى سفراَ منه في بلاد "أريغ" ووصفه قائلا: «لم أرى ولا رأيت قط سفراً أضخم منه ولا أكبر منه حزَّرت أنَّه يجاوز سبعمائة ورقة أو أكثر أو أقل». أمَّا بخصوص محتواه فيقول: «فيه تفسير فاتحة الكتاب و البقرة وآل عمران». ويرى "البرادي" «أنَّه فسَّر القرآن الكريم كلَّه في سبعة أسفارٍ، وأشادَ إلى بلاغته و استطاعته إبراز النَّاسخ والمنسوخ»[2].

ويرى الباحث "صلاح الدِّين شعباني" بأنَّ التَّفسير كان مُنظَّمًا حسب ترتيب السُّور والآيات مثلما كان عليه الحال بالمشرق، وأنَّ ذلك النَّوع من التَّفسير لم يظهر في بلاد المغرب إلاَّ في القرن(6هـ/12م)، وما ينبغي الإشارة إليه أيضاَ أنَّ إباضيَّة المغرب كانوا مُجرَّد ناقلين عن العلماء المشارقة، أو مُنقِّحين لمؤلفاتهم.[3]

واهتم علماء حاضرة "توات" أيضاً بتدريس ومدارسة التَّفسير، ويعتبر تفسير الفاتحة للمغيلي أوَّلُ تأليفٍ في هذا العلم بالحاضرة وذلك خلال القرن(9هـ/15م)، ومن أشهر كتب التَّفسير التي كانت تُدرَّس في حاضرة "توات" تفسير "الشَّاطبي" للقرآن الكريم "شرح الجزولي على ابن عبد البرّ" تفسيرات "ابن الجوزي"، وتفسير "ابن عطية".[4]

2)- علم الحديث:

ومن أشهر الكتب التي اعتمدها الإباضيَّة في هذا العلم كانت "مُسند الرَّبيع بن حبيب الفراهيدي"، و"ديوان جابر بن زيد الأزدي"، و"مدوَّنة أبي غانم الخراساني" التي قام

---

[1] – صلاح الدين شعباني: المرجع السابق، ص.174. **وينظر أيضاً**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.471.

[2] – البرادي: المصدر السَّابق، ص.220. **وينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.139.

[3] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع نفسه ، ص.182.

[4] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.71 – 82.

بتدوينها "عمروس بن أفلح النَّفوسي"، وقد عُرف عن الإباضيَّة بروايتهم للحديث عن شيوخ بالمشرق، منهم: حملة العلم الخمسة، وقد ظلَّت كتب "أبي غانم الخراساني" التي أشتهرت في المصادر الإباضيَّة باسم (الغانميَّة أو المدوَّنة الصُّغرى)، و"مسند الرَّبيع بن حبيب" المشهور في المصادر الإباضيَّة باسم (الجامع الصَّحيح)، الذي قام الشَّيخ "أبو يعقوب الوارجلاني" بتنظيمه تحت عنوان: "ترتيب المسند"، من أهم الكتب اعتماداً عند الإباضيَّة في هذا العلم.[1]

ومن أشهر الكتب التي درسها أهل "توات" في علم الحديث "شرح التَّرمذي للثعالبي" و"الشِّفا للقاضي عياض"، وكتاب في علم الحديث لـِ"إبن زكرياء"[2]، وقد ألَّف "المغيلي" في هذا العلم كتاب "مفتاح النَّظر في علم الحديث".[3]

3)- الفقه:

ازدهر هذا العلم ازدهاراً كبيراً، ولعل السَّببُ في ذلك يعود لشدَّة التَّنافس بين الفرق و الاحتكاك الدَّائم بينهم لاسيما بعد سقوط إمامة الظُّهور، وهو ما سمح للفقه أنْ يَعرف تطوراً ملحوظاً خاصة خلال القرنيين(3- 5هـ/9- 11م)، وهو من أهم العلوم وأكثرها انتشاراً لاتصاله بالحياة العامة للمجتمع وما يظهر به من مستجدات[4] ولربَّما يكون التَّأسيس لهذا العلم قد ارتبط بالشَّيخ "**أبو يوسف يعقوب بن سيلوس الطَّرفي السَّدراتي**"(ق3هـ/9م)[5].

---

[1] – صلاح الدِّين شعباني: المرجع السابق، ص.184. **وينظر أيضاً**، البرادي: المصدر السَّابق، ص.219.

[2] – زينب سالمي: المرجع انففسه، ، ص.72.

[3] – ابن مريم: المصدر السَّابق، ص.255.

[4] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.221.

[5] – الوسياني: المصدر السَّابق،ج.3، ص.468. **وينظر أيضاً**، غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص. 221.

ليتطوَّر مع ظهور فقه النَّوازل الذي كان من أشهر رموزه الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف بن سهلون** (400- 450هـ/1009 - 1058م) من خلال ما أشتهر به من فتوى في قصة المرأة التي ادعى تزوجها رجلين.[1]

واستمر هذا العلم وتعدَّدت مجالاته بظهور عدد من المشايخ الأكفاء، وفي مُقدِّمتهم الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف بن خلفون الوارجلاني**"(550- 600هـ/1155-1203م) الذي أشتهر بنبوغه العلمي في علم الفقه والأصول وله في ذلك تآليف كثيرة[2]، منها أجوبته الفقهيَّة، ورسالة إلى أهل جبل نفوسة.[3]

واهتم أهل "توات" "**بعلم الفقه**" لحاجتهم إليه في المسائل اليوميَّة كالعبادات والمعاملات والفصل بين النَّاس، وقد اعتمد أهل "توات" المذهب المالكي، فانكبوا على دراسة وتحليل كتبه، منها: "مختصر خليل"، و"كتاب الرِّسالة لأبي زيد القيرواني"، و" تحفة الأحكام لابن عاصم"، و"المرشد المعين لابن عاشر.[4]

4)- علم الكلام:

من أبرز رموز هذا العلم الشَّيخ "سليمان بن إبراهيم باموج السَّدراتي" (كان حيّاً بين 293- 412هـ/905- 1021م)، وانفرد ليثيو (**Lethelleux**) بذكر مؤلفه الموسوم: "**البراهيمي في سلوك المذهب الإباضي**"، وهو عبارة عن خمسة مجلَّدات[5]، ولكن هذا المؤلف لم يرد ذكره في المصادر الإباضيَّة القريبة من تلك الفترة، وهوما يجعل هذه الرِّواية مَشكوكاً فيها[6].

---

[1] - مُحمَّد بن موسى بابا عميّ وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.489.

[2] - مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع نفسه، ج.2، ص.487.

[3] - مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع نفسه ، ج.2، ص.488.

[4] - زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.71.

[5] - Lethelleux : op. cit, p.24.

[6] - غرايسة: **المدينة الدولة**، ص.222.

وقد يكون "**سليمان بن يعقوب بن أفلح**" بما ابتدعه من "**الفرقة الفرثيَّة**"[1] أوَّل من أسَّس لهذا العلم، على الرُّغم من دحض آرائه من قبل الشَّيخ "أبو صالح جنون بن يرمان"[2]، كما أشتهر الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف بن خلفون الوارجلاني**" بكثرة مطالعته لكتب أهل الخلافة.[3]

ويُعتبر الشَّيخ "**أبو عمار عبد الكافي**" عُمدة هذا العلم وطوده الشَّامخ بما أبدع فيه، من خلال مصنفه: "**كتاب الموجز**" الذي وصفه "الدِّرجيني بأنَّه قد: «أزرى بموجزه على الماضين وأتعب الحـاضرين والآتين»[4]، ولا يُستثنى في هذا الميدان الجهد الـذي أفـاد به "أبو عمر وعثمان بن خليفة السُّوفي (ق6هـ/12م) من خلال كتاب "السَّؤالات" ورسالته في بيان كل فرقة.[5]

5)- علم الفلك:

وهو علم يُدرس من باب معرفة واقع النُّجوم وحساب حركة الفلك في الفضاء اتصل بذلك ما عرف بالتَّنجيم[6]، واشتهر أفراد البيت الرُّستمي بدراسة هذا العلم حيث توارثوه أباً عن جدٍّ، إذ يذكر "أبو زكرياء" أنَّ رستم جدُّ الإمام "عبد الرَّحمان" أوَّل أمراء الدَّولة الرُّستميَّة كان يعلم أنَّ سلالته ستلي أمر المغرب.[7]

---

[1] – **الفرقة الفرثيَّة:** تنتمي إلى أحد أفراد البيت الرُّستمي "سليمان بن يعقوب بن أفلح" إذْ خرج من رأي الإباضيَّة وأفتى في سبع مسائل، منها: أنّ فرث الأنعام نجس وإلى هذه المسألة نُسب، فكان يقال له الفرثي ولأتباعه الفرثية **ينظر**، أبي زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.191– 192. **ينظر أيضاً**، حجازي: المرجع السَّابق، ص.56.

[2] – أبو زكرياء: المصدر نفسه ، تح (اسماعيل العربي)،ص.191 – 192. **ينظر أيضاً**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.106 – 107.

[3] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.487.

[4] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.485.

[5] – البرادي: المصدر السَّابق، ص.220. **ينظر أيضاً**، غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.222.

[6] – غرايسة: المرجع نفسه، ص.223.

[7] – أبو زكرياء: المصدر السابق، ص.54.

ولقد كان شَغفُ الرُّستميين بهذا العلم كبيرٌ لدرجة قول أحدهم: «معاذ الله أنْ تكون عندنا أَمَةٌ لا تعرف منزلة القمر»[1]، ولقد أوردت كتب السِّير العديد من القصص التي تتعلق بالحساب والتَّنجيم كُلُّها خاصة بالبيت الرُّستمي، منها ما أورده "الدِّرجيني" خلال حديثه عن الإمام "يعقوب بن أفلح" أنَّه لمَّا كان متجها إلى "وارجلان" نظر في بعض الطَّريق إلى النَّجوم فقال لأصحابه: «انَّكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر إلاَّ كان عليهم الطَّلب افترقوا فقد انقطعت أيامكم وزال ملككم».[2]

ويذكر "الشَّمَّاخي" أنَّ الإمام "أفلح بن عبد الوهاب" جلس ليلة مع أخته فتذاكرا ما أوَّلُ ما يذبح غداً في السُّوق فقال أفلح: «بقرة صفراء في بطنها عجل أغرُّ»؛ فقالت أخته: «ذلك البياض في طرف ذنبه، وكان الأمر كما قال».[3]

واستمر هذا العلم عند الإباضيَّة حتى بعد انقضاء دولتهم، ويُعدُّ الشَّيخ "أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السَّدراتي" (ت.570هـ/1171م) أحد أقطابه.[4]

6)- الرَّحلات الجغرافيَّة:

وقد جَسَّدها عملا ميدانيا العالم الموسوعي الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف إبراهيم السَّدراتي**" الذي قادته الرَّغبة العلميَّة في خوض غمار الرِّحلة[5] حيث سافر إلى أواسط افريقيا، ويتحدث عن رحلته في قوله: «وقد وصلت أنَا بنفسي إلى قريب من خطِّ الاستواء و ليس بيني وبينه إلاَّ مسيرة شهر، وكاد أنْ يستوي الليل والنَّهار فيه أبداً، وإنَّمَا وصلنا

[1] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.166.
[2] – الدِّرجيني: المصدر السابق ، ج.1، ص.105.
[3] – الشَّمَّاخي: المصدر نفسه ، ج.1، ص.166.
[4] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ، ج.2، ص.463 – 464.
[5]– غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.223.

إلى قريب منه وأطول يوم السَّنة إنَّمـــــا يفضل أقصر يوم منه بساعة واحدة، فالنَّهار الطَّويل ثلاثة عشرة ساعة والنَّهار القصير احدى عشرة ساعة و لياليها كذلك».[1]

7)- علم اللغة العربيَّة:

كان الاهتمام بدراستها كبيراً، بالرُّغم من أنَّ اللسان البربري هو السَّائد، غير أنَّ دراسة العلوم التي سبق ذكرها كان يستوجب ضرورة المعرفة باللغة العربيَّة، بالقدر الذي يُتيح حسن تناولها والتَّعامل معها، وتشير أغلب المصادر التَّاريخيَّة إلى أنَّ أبرز أعلام "وارجلان" كانت لهم رحلات قصد طلب العلم و الاستزادة من معين اللغة العربيَّة، فقد رحل الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني**" إلى قرطبة لتعلُّم اللغة العربيَّة إذ حصَّل فيها بضاعة وافرة وتبحَّر في علوم اللغة و القرآن الكريم والحديث النَّبوي الشَّريف والتَّنجيم[2].

ولذات الغرض ارتحل "**أبو عمَّار الكافي**"(ت. قبل570هـ/1171م) إلى "تونس" بهدف صقل لسانه باللغة العربيَّة وابتعاده عن البيئة البربريَّة فاستفاد من تلك البيئة الزَّاخرة وأخذ علوم اللسان العربي وآدابه.[3]

وانكبَّ أهل "توات" أيضاً على تعلُّم اللغة العربيَّة كونها المفتاح لفهم القرآن الكريم والعلوم الدِّينيَّة ومن الكتب التي كانت متداولة في حاضرة "توات" "شرح الخزرجيَّة" في علم العروض والقافية "الألفيَّة ولاميَّة الأفعال لابن مالك"[4]؛ أمَّا من جانب التَّأليف فكان شحيحاً، ويعتبر "المغيلي" أوَّل من ألف في اللغة كتابه "**مُقدِّمة في اللغة**".[5]

---

[1] – أبو يعقوب: المصدر السَّابق، ج.3، ص.216.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.494.

[3] – عمَّار طالبي: **آراء الخوارج الكلاميّة " الموجز لأبي عمّار الكافي"**، موفم للنشر، الجزائر، (د ط)، 2013م، ج1، ص.217.

[4] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.73.

[5] – ابن مريم: المصدر السَّابق، ص.295.

ثالثاً- العلماء وانتاجهم الفكري.

1)- أعلام وارجلان: رصدت المصادر التَّاريخيَّة العديد من الأسماء، منهم:

1 – 1 – أبو صالح جنون بن يمريان اليهراسني الوارجلاني (ق.4هـ/10م):

أجمعت المصادر الإباضيَّة على أنَّ شخصية "أبو صالح"، كانت المسؤولة الأولى على ازدهار الحركة العلميَّة وانتظام الحياة الدِّينيَّة والاستقامة الخُلقيَّة بـِ"وارجلان"، وتجلَّت تلك المسؤوليَّة من خلال نفوذه الواسع وتأثيره المباشر والسِّعة في المال وبذله في دعم الحركة العلميَّة والنَّفقة على الشُّيوخ والطَّلبة.[1]

وصفه "الدِّرجيني" بقوله: «ذو الورع والسَّخاء، وبركات الدُّعاء، وهو أحد الأبدال، وأصحاب الكرامات والأحوال، وأحد أقطاب الدِّين، وثمال اليتامى والمساكين، إنْ لم يكن مُقدَّماً في العلوم فَمُقدَّمٌ في المعارف، وإنْ لم يكاشف أجسام الدَّواوين فهو لأرواحها مكاشف»[2]، وذكره "الشَّمَّاخي" بقوله: «كان عالماً ورعاً سخياً، ذا كرامات وهو أحد أقطاب الدِّين».[3]

- وقد كان ملجأ العلماء والأخيار إذْ إلتجأ إليه الإمام "**أبو يوسف يعقوب بن أفلح**" فاراً من "تيهرت"، ولجأ إليه أيضاً الشَّيخ "**أبو نوح سعيد بن زنغيل**" فاراً من الفاطميين[4]، وقد استطاع الشَّيخ "أبو صالح جنون" بحزمه وعلمه وبصيرته أنْ يُؤمِّن "وارجلان" ممَّا أحدق بها من خطر مع اظهار "سليمان بن يعقوب أفكاره الفرقيَّة[5] وكان الشَّيخ «"أبو صالح" ممن يغضب لله ويقوم في تغيير المنكر، فَكَّر أنْ يُنشر ذلك في العوام فيعتقدون

[1] – عمرو خليفة النَّامي: المرجع السَّابق، ص.19.
[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.341 – 342.
[3] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.45.
[4] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.126.
[5] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.225.

صواباً فتضع الفتنة والاختلاف»[1]، ترك وصيَّة ذات قيمة اجتماعيَّة بالغة تظهر كيف يَحافظُ المرء على مكانته في الوسط الاجتماعي المنتسب إليه ويؤمِّن سلامة وجوده فيه، ويمكن اجازها في النِّقاط التَّالية:

✓ تأمين الوضع المعيشي والمحافظة على القدرة الشِّرائيَّة لضمان تفادي الأزمات وما يتصل بذلك من مصاعب الحصول على المؤنة.

✓ الدَّار سترٌ لصاحبها بحيطانها على الفقر والغنى والسَّلامة من المُلاسنة

✓ الظُّهور عند كلِّ حال بما يليق، واستغلال كلُّ ما هو متوفِّرٌ في كلِّ ما فيه افادة وما يعود بالنَّفع العميم.[2]

ومع ما له من حضور قوي اجتماعياً وعلمياً، فقد ترك الشَّيخ "أبو صالح" آثارٍ مكتوبة قد أتلفتها الفتن العمياء، ويذكر "أعزام" أنَّ «له تآليف كثيرة أعدمتها الفتن»[3] وقد روت له كتب السِّير آراء عديدة في العقيدة والفقه، كما نقلت له قصيدة مطلعها:

بِاسْمِ الإِلَهِ الَّذِي أَمْضَى عَلَى الْبَشَرْ أَحْكَامَهُ فَجَرَتْ فِي الْخَلقِ بِالْقَدرْ[4]

كانت وفاته بسدراته وقبرهُ مشهور بالمقبرة المنسوبة إليه[5]، وبوفاته تراجعت الحركة الثَّقافيَّة بـِ"وارجلان" ودخلت في مرحلة ركود علمي استمر إلى غاية تأسيس نظام العزَّابة.

1 – 2 – أبو سليمان بن يعقوب بن أفلح (حيٌّ بعد311هـ/923هـ): وَفدت أسرته لـِ"وارجلان" التي كانت بها ولادته ونشأته[1]، اشتهر بمطالعاته الواسعة التي زادت من

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.1، ص.107.

[2] – نصُّ وصية الشَّيخ "أبو صالح جنون بن يمريان"، **ينظر**، الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.343. **وينظر**، الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.433 – 434. **وينظر**، الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.45. **وينظر**، مؤلف مجهول: **المعلقات**، ص.54. **وينظر أيضاً**، غرايسة: **المدينة الدَّولة**، المرجع السَّابق، ص.225.

[3] – أعزام: المرجع السَّابق، ص.301.

[4] – نفسه.

[5] – نفسه.

مَدَراكه وتَحرُّرِه من عقدة الالتزام المذهبي، وكانت له اجتهادات خالف فيها جمهور الإباضيَّة[2] كما أسلفنا الذِّكر. وقد حذَّرَ والده أهل "وارجلان" من توجُهاته الفكريَّة التي استقاها من كتب المخالفين للمذهب الإباضي، وإليه تنسب الفرقة الفرثيَّة التي خالفت الإباضيَّة في عدد من المسائل.[3]

وعلى الرُّغم ممَّا أثارته آرائه الفكريَّة من معارضة من قبل أهل "وارجلان" حيث تصدى الشَّيخ "أبو صالح جنون بن يمريان" لها، إلاَّ أنَّ هذا الاختلاف ساهم في انتاج جدل فكري ساهم بدوره في اثراء الحركة العلميَّة وتحرير العقل من القيود المذهبيَّة.[4]

1 – 3 – أبو موسى هارون بن موسى بن أبي عمران(ق.4هـ/10م): يرتفع نسبه إلى الوسيانين، وهو عالم ذو مقام معتبر بين أضرابه وآثار باقية في سيَّرِ الإباضيَّة[5]، كان معاصراً للشيخ "أبو صالح جنون" الذي رغب إليه بالبقاء لجواره، مكث بـِ"وارجلان" وعقد على التَّدريس بمسجد الشَّيخ "جنون"، إلاَّ أنَّه أصرَّ على السَّفر إلى "غانة" ببلاد السُّودان مما دفع بالشَّيخ "أبو صالح" ليطلب منه أنْ يضع له مصنَّفاً في مسائل التَّوحيد للردِّ على المخالفين[6]، فألَّف لهم كتاباً في الألواح، وأعجله السَّفر فلم يعرضْه، ولذلك كانت فيه مسائل فيها مقال[7].

=

[1] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.195.

[2] – مُحمَّد زقاوي وعمر بلبشير : المرجع السَّابق، ص.204.

[3] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.191.

[4]– مُحمَّد زقاوي وعمر بلبشير : المرجع السابق، ص.204 – 205. **وينظر أيضاً**، غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.226.

[5] – مُحمَّد موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السابق ، ج.2، ص.441.

[6] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.567.

[7] – نفسه. **ينظر أيضاً**، مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السابق، ج.2، ص.441.

مما يفيد بتبحره في القضايا العقديَّة والعقليَّة، ولاشكَّ أنَّ رحيله إلى بلاد السُّودان سيكون له الأثر في تمكينه من توسيع نشر الإسلام وتعاليم المذهب الإباضي مما يزيد من اسهاماته الفكريَّة.[1]

1 – 4 – يجمن الهواري(ق.4هـ/10م): يرتبط نسبه بعاصم السَّدراتي، أصله من "تاغرويت" استقرَّ به المقام بـِ"وارجلان"، ذُكر عنه أنَّه كان حاكماً عادلاً وشيخاً مقدَّماً[2] ممَّا يفيد بتوليه مُهمَّة القضاء وحُسن أدائه فيه بفضل ما أوتيه من المعرفة والدِّراية بفنون العلم، وهو ما جعل منه مُتولياً ربَّما مشيخة "وارجلان" لما كان عليه من مهابة ومكانة في أوساط عامة أهل المدينة.[3]

1 – 5 – العزُّ بن تاغيارت (350–400هـ/961–1009م): أخذ العلم عن مشايخ "وارجلان" في زمانه، ويبدو أنَّه نهل منهم الكثير ما أهَّله لتولي القضاء بإحدى حواضر "وارجلان" وهي "تين وال".[4]

1 – 6 – أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني (ت بعد 474هـ/1081): نشأ بـِ"وارجلان"،ودرس بـِ"أريغ" على يد الشَّيخ "سليمان بن يخلف المزاتي" (ت.471هـ/1078م)[5] ينسب "الوسياني" أخاه "أبا يحي زكرياء بن أبي بكر" إلى "بني يهراسن"، فهو إذن "**يحي بن أبي بكر سعيد اليهراسني الوارجلاني**" جَدَّ في تحصيل العلم حتى برع في الفقه و التَّاريخ، وكانت له حلقة علم، ربَّما كانت تُعقدُ في المَحضرة القديمة بـِ"آجلو" بـِ"وادي ريغ"[6].

---

[1] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.226.

[2] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السابق، ج.2، ص.447.

[3] –غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.227.

[4] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.357.

[5] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (عبد الرَّحمان أيوب)، ص.15.

[6] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السابق ، ج.2، ص.451.

وصفه "الدِّرجيني" رفقة أخوه بقوله: «كانا من الأفاضل، المقتفين آثار الأوائل... بأدلَّة ذات اقناع، وحُجج تملأ القلوب والأسماع، تغني عند المحاضرة ما تغني المشرفيَّة عند القراع، فكانا مراد الفارين، على تباعد الدَّارين».[1]

1 – 7 – أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السَّدراتي الوارجلاني(ت.570هـ/1175م):

يُرجِّح "ليفتسكي" أنَّه قد يكون هو نفسه "أبو يعقوب يوسف إبراهيم بن الطَّاق السَّدراتي"،[2] ويُسميه "نويهض" بـِ"أبي يعقوب يوسف بن مياد السَّدراتي الوارجلاني"[3]، تولى القضاء والإفتاء بـِ"وارجلان" وكـان رجلاً صالحاً مُستجاب الدُّعاء[4]، من أُفق "سدراته" لاح نجمه السَّـــاطع، حيث حصـــل تعليمه الأوَّل على يد مشايخ، منهم: "**أبو سليمان أيوب بن إسماعيل**" الذي خصَّه برثاء في قصيدته البائيَّة.[5]

يعدّ من أبرز علماء الإباضيَّة في بلاد المغرب، كان مهتمًّا بالتَّاريخ وعلوم أخرى، سافر كثيراً من أجل التَّحصيل العلمي وتوسيع مداركه وحقل معرفته، انتقل إلى "قرطبة" لدراسة اللغة العربيَّة و الحساب[6]، وحصل منها على مختلف العلوم النَّقليَّة والعقليَّة، وكان من بين طلاَّبها النُّجباء الذين امتازوا بالنُّبوغ، وكان الأندلسيون يلقبونه بالجاحظ.[7]

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.448.

[2] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.129.

[3] – عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثَّقافيَّة للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، بيروت، ط2، 1980م، ص.341.

[4] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.481.

[5] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.227.

[6] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.129.

[7] – عمار طالبي: المرجع السَّابق، ص.174. **ينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.137.

زار بلاد المشرق العربي ولربَّما ارتبطت هذه الزِّيارة بأدائه فريضة الحجِّ التي كانت انطلاقتها الأكيدة من "وارجلان" بحسب ما ذكره بنفسه في القصيدة الحجازيَّة المنسوبة إليه.[1]

وصفه "الدِّرجيني" بأنَّه «بحر العلم الزَّاخر، المُسخَّر للنفع فترى الفلك فيه مواخر، الرَّفيع القدر و الهِمَّة، الجامع لفضائل كلِّ أمَّة، والمحتوى على علوم جمَّة».[2]

ساهمت هذه الشَّخصيَّة في إثراء الحركة العلميَّة، والثَّقافيَّة بِـ"وارجلان" خلال القرن(6هـ/12م) وقد شهدت "وارجلان" خلال هذا القرن أوجَّ عطائها وازدهارها العلمي والثَّقافي، حيث جلس للإقراء في مجالس العلم وتلقين الطَّلبة أصناف العلوم، وأخذ يُقدِّم عصارة علمه وفكره، وخلاصة تجاربه وأسفاره لطلبته في دروسه.

وقد صوَّر لنا "الدِّرجيني" في طبقاته جانبا من حياته بقوله: «... وذكروا عنه أنَّه أقام سبعة أعوامٍ ملازماً داره لا ينصرف، فكان متى زاره أحد من الزُّوار وجده إمَّا ينسخ وإمَّا يُدرِّس وإمَّا يُقابل، وإمَّا يبرئ الأقلام، وإمَّا يطبخ الحبر، وإمَّا يُسفِّر كتاباً لا يعدل عن هذا الفن إلاَّ ما سواه إلاَّ إنْ قام لأداء فريضة»[3]، ولعلَّ ما تركه من مؤلفات كثيرة دليلٌ على غزارة علمه الذي جعل منه أحد الأعلام المرموقين ومن أبرز تآليفه نذكر:

- ✓ كتاب "الدَّليل والبرهان": وهو بحث في علم الكلام يقارن فيه بين الإباضيَّة والفرق الإسلاميَّة الأخرى، و يهتمُّ بمسائل البدع المتعلِّقة بالآذان في "جبل نفوسة".
- ✓ كتاب "العدل والإنصاف" في أصول الفقه (ثلاثة أجزاء).
- ✓ مُسند الرَّبيع بن حبيب البصري (في علم الحديث).[4]

---

[1] – بوعصبانة: المرجع السابق، ص.137.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.491.

[3] – الدّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.492.

[4] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.130. **وينظر**، عمَّار طالبي: المرجع السَّابق، ص.174. **وينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.139 – 140.

- ✓ برج البحرين في الفلسفة والمنطق والحساب.
- ✓ القصيدة الحجازيَّة (360 بيتا).
- ✓ كتاب في الفقه.
- ✓ وينسب له مؤلف في تفسير القرآن الكريم به سبعين جزءاً، وجد "البرادي" الجزء الأوَّل منه في عام(766هـ/1364م) في محلهِ بـِ"وادي ريغ".[1]
- ✓ فتوح المغرب وهو مؤلف تاريخي.[2]

ويُرجِّح "ليفتسكي" وفاته بـِ"وارجلان" سنة(570هـ/1174م)، وبها مَدْفَنُه حسب التَّقاليد المحليَّة على ما ذكر.[3]

1 – 8 – أبو عبد الله بن بكر(ت.440هـ/1049م): لم يكن أصيل "وارجلان" وإنَّما كان نزيلاً عليها، إلاَّ أنَّهُ حاز على الانتساب للمنطقة التي لم تتنكَّر له يوما بفضل ارتباطه الوثيق بها لِمَا كانت تمثِّلهُ من كونها قطباً مُهمًّا في الحركة المذهبيَّة ومصدراً لإشعاع التَّعاليم الإباضيَّة.[4]

وصفه "الدِّرجيني" بأنَّه «الطَّود الذي تضاءلت دونه الأطواد والبحر الذي لا تُقاس به الثِّماد»[5] وتعود نسبته(الفرسطائي النَّفوسي) إلى فرسطاء بـِ"جبل نفوسه".[6]

نزل عام(409هـ/1018م) بـِ"وادي ريغ" لأجل مشروع إصلاحي كبير، أين اتخذ له فيها غاراً[7] ارتحل رفقة أهله إلى "وارجلان" ونزل بقرية "ايفران" جرَّاء فتنة وقعت

---

[1] – البرادي: المصدر السَّابق، ص.220.

[2] – بوعصبانة: المرجع السابق، ص.140.

[3] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.129.

[4] – غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.231.

[5] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.377.

[6] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.368.

[7] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.389.

بـِ"أريغ"[1]، كان "أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر" كثير التَّنقل في البوادي يدعو النَّاس للمذهب الإباضي، وأوعز إلى تلامِذته بالانتشار في الأحياء الإباضيَّة بهدف التَّعليم والإرشاد والوعظ، وكان يُشجِّعهم على دراسة الكتب و تأليفها.[2]

تخرَّج على يده عدد من العلماء منهم "**أبو الرَّبيع سليمان بن يخلف المزاتي**" صاحب كتاب السِّير، توفي رحمة الله سنة(440هـ/1049م) ودفن بمقبرة قريبة من غاره بـِ"آجلو" بـِ"وادي ريغ" تاركاً من بعده جيلاً من الفطاحل الذين مثَّلوا الأصقاع يعلمهم، ولا تزال منظومة العزَّابة التي كان له فضل ابتدارها شاهدة له على أعاظم الأمور.[3]

1 – 9 – أبو سليمان أيوب بن إسماعيل اليزماتي المزاتي(ق.6هـ/12م): من أشهر علماء "وارجلان" وهو شاعر بربري شهير[4]، كان مبعث حركة علميَّة مُزدهرة ومُجدِّد لها بعد وفاة الشَّيخ "أبو صالح جنون بن يمريان"، ذكره "الدِّرجيني" في طبقاته و"الشَّمَّاخي" في سِيَرِه ما نصه: «بحر تتقاذف في غواريه السُّفن، وبدر يقتفى به من اقتدى من المقتفين، إنْ سُئل في العلم أجاب فأقنع... شيخ شيوخ أكثرهم ساد، وقلَّ من روى من تلامذته إلاَّ استفاد».[5]

امتاز بعلمه الغزير، وسخَّرَ ماله لخدمة العلم، فقد خصَّص داراً لتلامذته متَّصلة بدار سكناه كانت له حلقة علم جمع بها تلاميذه وطلاَّبه من كلِّ حدب وصوب، تخرَّج على يديه العديد من العلماء أثْرُوا بإنتاجهم العلمي الحركة العلميَّة بـِ"وارجلان"، منهم: الشَّيخ "يخلف بن يخلف التِّيمجاري" جدُّ "الدِّرجيني" صاحب "كتاب الطَّبقات"، والشَّيخ

---

[1] – علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.1، ص.176.

[2] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.240.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.392.

[4] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.73.

[5] – الدِّرجيني: المصدر السابق ،ج.2، ص.459. **ينظر أيضاً**، الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.98.

"أبو عمرو عثمان بن خليفة السُّوفي الذي كان له صيت بـِ"أسوف"، والشَّيخ "أبو عمَّار عبد الكافي".[1]

1 – 10 – أبو العباس أحمد بن مُحمَّد بن بكر(ت.504هـ/1110م): هو أبو العباس أحمد بن مُحمَّد بن بكر أبو هود أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي صاحب نظام العزَّابة،[2] من أشهر علماء المغربين الأدنى والأوسط، ترك مؤلفات عديدة يصعب حصرها، تفرَّغ للمطالعة والدِّراسة في مكتبة قصر "وَلَّم"، لم يذق فيها طعم النَّوم إلاَّ ما بين أذان الصُّبح إلى طلوع الفجر.[3]

ترك هذا العالم تراثاً قيِّماً وضخما من الكتب في شتى الاختصاصات، فقهيَّة، أخلاقيَّة، العمارة الإسلاميَّة، ومن أشهر مؤلفاته، التَّالي:

- ✓ "كتاب في مسائل التَّوحيد"، "كتاب القسمة وأصول الأرضين"، "كتاب الألواح".
- ✓ كتاب "تبيين أفعال العباد"، "كتاب مسائل الأموات"، "كتاب الجنائر"، "كتاب السِّيرة في الدِّماء".[4]

- 1 – 11 – أبو عمَّار عبد الكافي التَّناوتي الوارجلاني(ت. قبل750هـ/1171م):

اختلف في تسلسل نسبه، حيث يرى "الدِّرجيني" أنَّه "ابن يعقوب التَّناوتي"[5]، بينما يُحدِّدُ "ليفتسكي" نسبه بأنَّه "ابن أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل بن أبي يعقوب يوسف بن مُحمَّد يوسف بن مُحمَّد التَّناوتي"[6] بينما ذُكر في "معجم أعلام الإباضيَّة" بأنَّه "ابن أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن مُحمَّد التَّناوتي"[7] وأيًّا كان هذا

---

[1] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي: المرجع السَّابق، ج.2، ص.466.

[2] – بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.130.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق،ج.2، ص.444 – 445.

[4] – بوعصبانة: المرجع نفسه، ص.131 – 132.

[5] – الدَّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.485.

[6] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.132.

[7] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.258.

الاختلاف فإنَّ ما هو محلُّ اتفاق نسبته إلى قبيلة "تناوت" بـ"وارجلان" التي كان فيها مولده وتعلُّمه، أين تتلمذ على مشايخها، أمثال: الشَّيخ "أبو سليمان أيُوب بن إسماعيل"[1]، و هو ما جعل منه "مؤلف كتاب علم الكلام ومؤرخ وفقيه"[2].

ظهر نشاطه الدَّعوي بـِ"وارجلان" أينَ تصدَّى لإحياء الدِّين بحلقات العلم، التي قصدها الطَّلبة من مختلف المواطن الإباضيَّة بالمغرب، واستطاع بجهده أنْ يُحْيِ تعاليم المذهب الإباضي، وقد أشاد "الدِّرجيني" بفضله في ذلك قائلا: «تدارك المذهب قد أقبر فأنشره نشورا، ونوَّه به وقد أتى عليه حيناً من الدَّهر لم يكن شيئا مذكورا، فأحيا الله به رُفاته وجمع ببركته شتاته».[3]

ولقد كان "أبو عمار" موسَّعاً عليه في الرِّزق، ما ساعده على الاستزادة العلميَّة فولَّى وجهه شطر تونس «إذ رأى أنَّ أهمَّ ما يقدِّمه اصلاح اللسان... فهاجر إلى "تونس" ومكث فيها أعواماً... وكانت تأتيه من بلده في كل عام ألف دينار»[4].

وإلى جانب اللغة العربيَّة درس مواضيع أخرى، ثمَّ حجَّ إلى مكَّة[5]، عُرف بين أقرانه من الطَّلبة المتمدرسين معه في "تونس" بأرفع الأخلاق وأجلِّ الصِّفات إذْ كانوا «يذكرون طالبا من أهل "وارجلان"... يتعجَّبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه وسخائه ودلالة نفسه وسعة خُلقه».[6]

تصدَّر للتدريس في مساجد "وارجلان"، وخلَّف تراثاً فكرياً يُدلِّلُ على انتاجه الفكري و حرصه على تثبيت دعائم تعاليم المذهب واسهامه في نشر الإسلام وتعاليمه ببلاد السُّودان، ومن جملة آثاره ما يلي:

---

[1] – محمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.258.

[2] – ليفتسكي: المرجع السابق، ص.65.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.485.

[4] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.486. **ينظر أيضاً**، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.134.

[5] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.65.

[6] – الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.486.

✓ كتاب "الموجز في علم الكلام"، الذي ذكره "الدِّرجيني".[1]

✓ كتاب "الاستطاعة"، "شرح الجهالات"، "كتاب الفرائض"، كتاب مراسلات مع علماء الإباضيَّة في "ميزاب" و"بلاد غانة"، "ثبت بأسماء شيوخ الإباضيَّة"، "السِّيرة في نظام العزَّابة" و يذكر "الدِّرجيني" بأنَّ له «تصانيف يشفى هُيام النُّفوس الهيم».[2]

توفى رحمه الله بـِ"وارجلان"، التي كان له بها على قبره مَقامٌ يُزار أعلى جبل "بامنديل"[3] ويُشير"الدِّرجيني" إلى أنَّه «خدم العلم دهراً حتى وعاه، وأوعى منه الأوعية، ثمَّ أخذ يفتيه ويُعلِّمُه فسالت منه الأودية في تصنيف كتاب، أو تهذيب جواب، أو تدرب متكلم، أو افادة مُتعلِّم».[4]

ومن خلال ما سبق عرضه حول أهمِّ المشايخ بـِ"وارجلان" يبدو لنا أنَّ "وارجلان" عَرفت حركة علميَّة نشطة، بلغت أوجَّ عطاءها وازدهارها العلمي في القرن(6هـ/12م) ويرى الباحث "عمرو خليفة النَّامي" أنَّ "وارجلان" برزت كبديل لتيهرت من النَّاحية الثَّقافيَّة[5]. وأصبحت تضاهي المراكز العلميَّة الكبرى بالمغرب الأوسط، وما يُدلِّل على ذلك تلك الدِّراسة الإحصائيَّة التي قام بها الباحث "علاوة عمارة" لعدد من التَّخصُّصات العلميَّة في "بجاية الحماديَّة" التي احتلت الصَّدارة فيما بين سنوات(395-547هـ/1004-1152م)، حيث احتلت "وارجلان" المرتبة الثَّالثة من حيث الأهميَّة

---

[1] – راجع عنصر **علم الكلام**، ما قيل في حقِّه. **ينظر**، الدِّرجيني: المصدر السابق، ج.2، ص.485.

[2] – الدِّرجيني: المصدر نفسه،ج2، ص 486. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.259. **ينظر أيضاً**، عمَّار طالبي: المرجع السَّابق، ص.219 – 220.

[3] – عمَّار طالبي: المرجع السابق، ص.219. **وينظر**، ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.65. **ينظر أيضاً**، مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع نفسه، ج.2، ص.259.

[4] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.485.

[5] – عمرو خليفة النَّامي: المرجع السَّابق، ص.17.

بأكثر من ثمانية عشرة شخصيَّة علمية[1]، وهي الفترة التي تتناسب مع أوجِّ نشاط حلقة العزَّابة بـ"وارجلان".

فمن مجموع ما ذكر "البرادي" من تآليف الإباضيَّة ببلاد المغرب 46 تأليفاً في مختلف فروع الدِّين، منها 16 مؤلَّفاً، بما يوافق (34.78%) تأليفاً صريحاً في علم الكلام، ومنها 10 بما يوافق (21.73%) في الفترة ما بين منتصف القرن(5هـ/11م) حتى نهاية القرن(6هـ/12م)، ولربَّما هذا ما يعطي صورة ناصعة حول الوضع الثَّقافي والفكري المزدهر بحاضرة "وارجلان".[2]

2)- أعلام أريغ:

تعتبر "أريغ" المركز الثَّقافي الثَّاني بعد "وارجلان"، وذلك للدور الفعَّال الذي تؤديه في الحياة الثَّقافيَّة والعلميَّة، حيث احتضنت هي الأخرى العديد من العلماء والمشايخ وطلبة العلم، الذين استقرَّ بهم المقام فيها، نظراً لما امتاز به أهلها من حُسن أخلاق وهذا بشهادة الشَّيخ "**أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي**" مؤسس نظام الحلقة والذي اختار العيش بها والاستقرار فيها.[3]

ولقد أقرَّت كتب السِّير والطَّبقات بازدهار "أريغ" ثقافياً وعلميا منذ القرن(4هـ/10م) وأكَّدت على رواجها بمجالس العلم وكثرة حلقات العزَّابة، إضافة لاحتوائها على حواضر علمية كـ"آجلو"، و"تاجديت"، و"تينيسلي"، فَـ"أريغ" مثَّلت مركز الدَّعوة في الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط ومن أشهر علماءها:[4]

---

[1] – عمارة علاوة: **دراسات في التَّاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط1، 2008م، ص.106.

[2] – البرادي: المصدر السَّابق، ص.219 – 220. وينظر، مُحمَّد زقاوي وعمر بلبشير: المرجع السَّابق، ص.211.

[3] – لمُحمَّد بن بكر الفرسطائي كلام في حقِّ أهل "أريغ". **ينظر**، الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.170.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.231.

2 – 1 – الشَّيخ سال(عاش أواسط ق.5هـ/11م): من العلماء الذين ضاع صيتهم وكان لهم وقعٌ في الحياة الثَّقافيَّة والفكريَّة، وصفه "الشَّمَّاخي" بأنَّه «الشَّيخ التَّقيُّ الورع ذو الكرامات والفضائل السَّاطعة، خاف مقام ربِّه فرفع درجته».[1]

2 – 2 – الشَّيخ معاذ بن أبي علي (ق.5هـ/11م): يُعدُّ بيت الشَّيخ معاذ بن علي وأبنائه من البيوتات العلميَّة التي كان لها دوراً نشطاً في الحياة الثَّقافيَّة، قال فيه "الشَّماخي": «خير شيوخ "آجلو" معاذ، و خير فتيان "آجلو" ابنه إبراهيم، و خير نساء "آجلو" عائشة بنت معاذ».[2]

2 – 3 – إبراهيم بن مُحمَّد ابن إبراهيم الوغلاني(ت.508هـ/1114م): كان عالماً من علماء اللغة، كانت داره مأوى للأخيار، ينقلون عنه علوم الدِّين وعلوم اللغة العربية[3]، وصفه "الشَّمَّاخي بقوله: «كان ركنًا من أركان أهل الدِّين، ومأوى وحصنا للأخيار».[4]

وبخصوص المكانة العلميَّة لحاضرة "أريغ" فيكفي أنْ نُلْقي نظرة على المصادر الإباضيَّة التي رصدت الحركيَّة التي تميَّزت بها "أريغ" لاسيما خلال القرن(5هـ/11م) حيث عجَّت بحلقات العلم و مجالس الذِّكر، خاصة ونحن نعلم أنَّ تلك الفترة قد تزامنت مع تأسيس نظام العزَّابة، فكانت "أريغ" حينها مقصداً للطُلاَّب والعلماء الإباضيَّة من الحواضر الأخرى، أمَّا الطَّلبة فبهدف التَّتلمذ على شيوخها، أمَّا زيارة الشُّيوخ والعلماء

[1] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.130.

[2] – الشَّمَّاخي: المصدر انفسه، ،ج.2، ص.88. **ينظر أيضاً:** الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.592.

[3] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.31.

[4] – الشَّمَّاخي: المصدر نفسه، ج.2، ص.177.

فبغرض زيارة إخوانهم في المذهب وتثبيت الفكر الإباضي بها، فقد زار الشَّيخ "أبي إسماعيل إبراهيم بن ملال" "أريغ" و"أسوف" ليطمئن على أرواحهم وليبث فيهم علماً.[1]

ومن المشايخ الذين كانت له مجالس وحلقات علم بـِ"أريغ"، نذكر: الشَّيخ "**أبو عمران موسى بن زكرياء المزاتي الدَّمريني**"(في النِّصف الأوَّل من القرن 5هـ/11م)، كان صاحب حلقة للعلم، تخرج منها العديد من الطَّلبة، وصفه "الدِّرجيني" قائلا: «رأس من رؤوس المذهب، وأعلم علمائه، وشمس من الشُّموس الكاشفة لظلمائه، العلم والأدب حلْيته، والكرم والصَّبر سجيَّته».[2]

وكذا الشَّيخ "**أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي**"(ت.440هـ/1048م)، كذلك الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف بن نفاث القنطراري النَّفوسي**"(ت.440هـ/1048م)، والشَّيخ "**ماكسن بن الخيّر**"(ت. 491هـ/1097م).[3]

أمَّا عن الإنتاج الفكري لعلماء "أريغ" فقد ظهر في الدِّيوان الذي أُلِّف في "أريغ" بمشاركة عدد من العلماء الإباضيَّة ببلاد المغرب، فكان منهم أربعة من أريغ، و هم: «يوسف بن عمران بن أبي عمران المزاتي، وهو من تيجديث، عبد السَّلام بن أبي سلاَّم، وجابر بن جمو، وإبراهيم بن مصكوداسن».[4]

3)- أعلام أسوف:

تتدرج "أسوف" ضمن المناطق التي عُرفت بانتمائها إلى الجماعات الإباضيَّة، إذْ كان أهلها سنداً للعديد من الثَّورات الإباضيَّة التي أحيكت ضدَّهم، وقد أشار إلى ذلك

---

[1] - علال بن عمر: «**حاضرة أسوف وأريغ ومكانتها في الفكر الإباضي من القرن(2هـ-8م/6هـ-12م)**»، مجلَّة المعارف للبحوث والدِّراسات التَّاريخيَّة، مج.4، ع.3، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي - الجزائر، جوان/2018م، ص.364.

[2] - الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.409.

[3] - مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.354 و 368 و 494.

[4] - الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.153.

"أبو زكرياء يحي" أثناء حديثه عن مسيرة الشَّيخ "أبو نوح سعيد" بعد معركة "باغاي" بقوله: «... وسارا حتى وصل أسوف»، فخرج إليه النَّاس يلتقونهم فرحين مسرورين بِمَقْدَمِهِ وهم يعلمون ما نزل به، فصاروا يجمعون له ما أمكنهم وكلٌّ بمقدرته – بحسب الاستطاعة وما هو متوافر – ويدفعون إليه الأموال من الحيوان والصَّامت ومـا تيسر لهم».[1]

شكلَّت "أسوف" من خلال موقعها همزة وصل بين الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط وحواضر المغرب الأدنى، لوقوعها بين العديد من الحواضر الإباضيَّة، حيث كانت سبباً في تطوُّر الحركة العلميَّة[2]، وتشير المصادر الإباضيَّة إلى زيارة العديد من العلماء والمشايخ إليها، حيث كانوا طرفاً في نشر العلم بين أهلها، ويعتبر الشيخ "**أبو نوح سعيد بن زنغيل**"(ق.4هـ/10م) أحد العلماء الذين كان لهم ارتباط بـِ"أسوف".[3]

ولم تسعفنا المصادر المتاحة بالكثير عن علماء "أسوف"، وإنَّما تمَّ التَّطرق لهم بنوع من الاقتضاب الشَّديد، فـ"الشَّمَّاخي" ذكر عالمين من علماء "أسوف" خلال القرن(5هـ/11م)، واكتفى بوصفهما بالخير والصَّلاح والتَّقوى، وهما: الشَّيخان "**جلداسن و ابنه يدّر**".[4]

وإذا كانت حاضرة "أسوف" لمْ تحظ بقدوم كبار علماء الإباضيَّة إليها على غرار "**أبي عبد الله الفرسطائي**" فتزدهر بهم الحركة الثَّقافيَّة، فإنَّ ذلك لم يمنع طلبتها من الانتقال بأنفسهم حيث أماكن العلماء، ليأخذوا عنهم وينهلون من علومهم، ويرجعون

[1] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.244.
[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.236.
[3] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.152.
[4] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.165.

إلى "أسوف" ليُعلِّموا أهلهم ويفقِّهوهم في المذهب؛ ولقد كان طلبة "أسوف" يقصدون الحواضر القريبة منهم، كـ"وارجلان"، و"أريغ"، و"بلاد الجريد".[1]

وتشير المصادر إلى أنَّ حلقة "**أبو الرَّبيع سليمان بن يخلف المزاتي**" كانت تضمُّ أعداداً من طلبة "أسوف"[2]، وتكتسي "أسوف" مكانتها في المذهب الإباضي من مكانة علمائها الذين وصلوا درجة المشيخة عند الإباضيَّة، ومن أشهرهم:

3 – 1 – أبا عمرو عثمان بن خليفة المارغني السُّوفي: وهو عالم وراوٍ إباضي أصيل "أسوف"، ولد قبل سنة(471هـ/1078م)[3]، أخذ العلم عن "أبي زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني" بـ"وارجلان"، وعن "أبو العباس أحمد بن مُحمَّد بن بكر"(ت.504هـ/1110م)، وعن "سليمان بن يخلف المزاتي"(ت.471هـ/1078م).[4]

كانت للعلاَّمة "**أبا عمرو عثمان بن خليفة المارغني السُّوفي**" جولات وصولات بين "وارجلان" و "بلاد الجريد" و"طرابلس" لتلقي العلم من معدنه، اشتهرت هذه الشَّخصيَّة بالمجادلة وعلم الكلام وله تآليف عديدة، منها: "**كتاب السُّؤالات**" الذي اختصه في العقيدة، ورسالة في الفِرَقِ، يردُّ فيها على كلِّ الفرق المخالفة للإباضيَّة الوهبيَّة، معتبراً إيَّاها فرقاً ضالَّة، خاصة منها: النُّكاريَّة والنَّفاثيَّة والسَّكاكيَّة والفرثيَّة، وفرق الخوارج[5] وصفه "الشَّماخي" بقوله: «إماماً في العلوم لاسيما علم الكلام»[6]

---

[1] – علال بن عمر: المرجع السَّابق، ص.369.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.428.

[3] – علال بن عمر: المرجع نفسه، ص.369. **ينظر أيضاً**: ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، المرجع السَّابق، ص. 69.

[4] – علي عشي: «**أبعاد الحضور المغرب أوسطي في افريقيا جنوب الصحراء الجانب الثقافي (ق5–9م)**»، مجلَّة حروف للدراسات التَّاريخيَّة، ع.1، دوريَّة إلكترونيَّة تصدر عن حروف منثورة للنشر الإلكتروني، الجزائر، أوت/ 2014م، ص.27.

[5] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.237. **ينظر أيضاً**: علال بن عمر: المرجع نفسه، ص.372.

[6] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.103.

كانت له حلقات علم تخرَّج على يده علماء أفاضل، وقد حاول بمنهجه في الحوار والإقناع إلى إعادة أهل الحامَّة بـ"بِلاد الجريد" إلى المذهب، بعد أنْ تولُّوا عنه، لكنه لم يُوفَّق في ذلك، قدَّمه "الدِّرجيني" على أنَّه: «هو في أهل المذهب أحد الأعلام، الكاشف بحسن بيانه ونور منطق لسانه دياجي الظَّلام، المفتى في العلوم لاسيما علم الكلام المجاحش المدافع عن كلمة الإسلام، حتى أنَّ له في مواطن اللين قراعا بلسان مِخدام و ربَّما كان في محلِّ هدنه فاشتغل الأضرام، و لم يعبأ بمن قال كلَّ مقال له مقام».[1]

3 – 2 – الشَّيخ أبو عبد الله مُحمَّد بن علي السُّوفي: وهو علم من أعلام إباضيَّة "أسوف" كان بحسب ما ذكره "الشَّمَّاخي": «عالماً سخياً، عابداً تقياً، مستجاب الدَّعوة حازماً لأموره، لا تأخذه في الله لومة لائم»[2]، قال عنه "الدِّرجيني" وهو المعاصر له: «ذو السَّخاء والفتوة، والدِّين والمروءة، والقيام والصِّيام، والسَّهر إذا النَّاس نيام، المُتحرّي الأورع، الوقور الأروع، الحازم ولم يفرط، الزَّاهد ولم يفرِّط، سلمت له دنياه مع سلامة الدِّين، وكان يذكر في الهادين المهتدين، وممَّن تجري الصَّالحات على يديه، ويُفزع في العظائم إليه فإنَّه لحليم أوَّاب، ذو دعاء مستجاب، وله يد في مسائل المذهب، وفي المواعظ إذا رغَّب أو رهَّب».[3]

كـان كسابقيه في مجال الدَّعوة ونشر العلم، إذْ تجاوز حدود "أسوف"، ليتعداها إلى "بلاد الجريد"، حيث يذكر "الدِّرجيني" أنَّ فتنة وقعت بـ"درجين" السُّفلى الجديدة أفضت إلى التَّقاتل بينهما فما كان من العلماء أمثال: الشَّيخ "أبي عبد الله السُّوفي" إلاَّ أنْ انتفض لإنهاء الخلاف وإيقاف القتال الذي كاد أنْ يُفضي إلى إنهاء الطَّرفين، فقدم الشَّيخ إلى "درجين"، ولمَّا وصلها تمادى إلى ربض "نفطة" ولما يدخل "درجين" حتى

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.483.
[2] – الشَّمَّاخي: المصدر السابق، ج.2، ص.108.
[3] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.499.

خرج إليه من بربض "نفطة" من الفقهاء والعزَّابة، منهم: الشَّيخ "يخلف بن يخلف" و "مُحمَّد بن سعيد" ورغَّب إليه في النُّزول إلى الضِّيافة فامتنع وقال: «جئت لمُهمٍّ ولا أشغل بغيره، وأريد معونتكما فيه بأنْ تحضرا لي كل مهاجر إليكما مفارق لوطنه».[1]

فأحضروا من طاوعهم من أضيافهم من أهل "درجين"، فذهبوا إلى خارجها، فنزلوا حول مسجد "قنطرار العليا"، فخرج إليه أهل "درجين" من كلا الفرقين، فيهم الواتر والموّتُور، والوارث والموروث، و رغب إلى أولياء الدِّماء، فعفوا عنها، وندب جميعهم إلى الصُّلح، فأجابوا، وعقده بينهم.[2]

ولمَّا تمَّمَ ما جاء من أجله أتى بسبع حُصيَّات وأخذها من أيدي سبعة رجال حُجَّاج استلمت الحجر الأسود، وحفر في الرِّمال حتى غاب عنقه، فأخذ الحُصيَّات من أيديهم و رمى بها في الحفرة ودفنها و قال: «هذه فتنة أهل "درجين" قد دُفنت، فمن آثارها جعل الله بأسه برأسه فأمَّنوا لدعائه وقطعها الله إلى اليوم».[3]

وفي رواية "الدِّرجيني" ما يُوضِّح المكانة المرموقة التي وصل إليها علماء "أسوف" في المجتمعات الإباضيَّة ببلاد المغرب، حتى أصبح لصوتهم صدى ولكلمتهم مسمع، واستفاد منهم المجتمع الإباضي أيَّما استفادة، فمن طالبٍ لفتوى، إلى طالبٍ لصلحٍ، إلى طالب لعلم وبين هذا وذاك تجد علماء "أسوف" سباقين للخير، خادمين للمذهب، ناشرين للفكر.[4]

وقد أشارت كتب السِّير الإباضيَّة إلى مكانة الشَّيخ "**أبو عبد الله مُحمَّد علي السُّوفي**"، حيث قال فيه "الشَّمَّاخي": «وكان أبو عبد الله عظيم القدر في أهل المذهب

[1] – الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 499. **ينظر أيضاً**: الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص. 108.

[2] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.500.

[3] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.500 – 501.

[4] – علال بن عمر: المرجع السَّابق، ص.375.

بحيث لا يجهل موضعه ولا يجحد حقّه ولا يُنكر فضله، فممَّا يشهد بذلك قصيدة الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الحجازيَّة إذْ قال:

خَرَجْنَا نَوْمُ الشَّرْقَ مِنْ حَيِّزِ وَارْجَلاَنَ بِفِتْيَةِ صِدْقٍ مِنْ وُجُوهِ العَشَائِرِ

ثمَّ قال:

وَ مَغْرَاوَةَ عَلِيًّا زَنَاتَة كُلَّهَا وَ غَيْرِهُمْ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْجَزَائِرِ[1]

ولم يكن معهم من "مَغراوة" إلاَّ "أبوعبد الله السُّوفي"، فكأنَّه جعل جُلَّ قبيلة "مغراوة" التي تقطن "أسوف" في شخص "أبي عبد الله" وذلك لمكانته.[2]

ويقول "الدِّرجيني": «قد حضرت الفقيه "أبا العباس أحمد الفرسطائي" مِراراً وفي يده القصيدة الحجازيَّة، فإذا شرح لنا القصيدة ووصل إلى تلك الأبيات قال "وناهيك بواحد يقوم مقام جماعة في مثل تلك القصيدة التي بقيت تاريخا».[3]

وأشارت بعض المصادر إلى الحضور العلمي للمرأة السُوفيَّة في الحركة الثَّقافيَّة ومساهمتها فيها، ومن الأمثلة على ذلك "**سارة اللواتية**"(ت.5هـ/11م): حيث ذكرها كلاً من "الوسياني و"الشَّمَّاخي" في قولهما: «وسارة إمرأة لواتية مسكنها أسوف، صالحة عابدة»[4]، وأضاف صاحب معجم أعلام الإباضيَّة بأنَّها: «كانت تروي أشعاراً بالبربريَّة... وكانت تأوي الشُّيوخ، وتزورهما طلبا للعلم وسؤالا في أمور الدِّين».[5]

---

[1] – الشِّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.108 – 109.

[2] – علال بن عمر: المرجع السابق، ص.375.

[3] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.501 – 502.

[4] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.760. **وينظر أيضاً**، الشَّمَّاخي: المصدر نفسه، ج.2، ص.164.

[5] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.166.

وعموما فإن حاضرة "أسوف" قد خرَّجت علماء كُثر أدُّوا دورهم في الفكر الإباضي من بينهم" أبو عبد الله مُحمَّد بن علي" المذكور آنفا، وهكذا فإنَّ مكانة الحاضرة إنَّما نستقيها من مكانة علمائها الذين يُسهمون بإنتاجهم الفكري في تبلور الآراء وتطويرها، وقد أحرز "**أبو عمرو السُّوفي**" قصب السَّبق في ذلك، إذْ كان مُنَظِّراً لاَ مُقلِّدًا، مُبدعًا لا مُبْتدعًا، ناقدا لا مُتَّبعاً.[1]

4)- أعلام الزَّاب:

شهدت بلاد "الزَّاب" حركة ثقافيَّة نشطة نظراً لموقعها الجغرافي الذي يقع في ملتقى القوافل التِّجاريَّة واحدى أهمِّ المحطَّات الرَّئيسيَّة لها، وطريق الحجِّ، التي تربط بين شمال وشرق الصَّحراء وجنوبها، أيْ بلاد السُّودان «ففيها تجتمع الرِّفاق ومنها تخرج إلى جميع البلاد».[2]

ومن العوامل التي ساهمت في تفعيل الحركة الثَّقافيَّة بحاضرة "الزَّاب" هو وجود العديد من المؤسَّسات التَّعليميَّة التي ساهمت في نشر العلوم الشَّرعيَّة ومختلف العلوم الأخرى ويعتبر المسجد من أهمِّ تلك المؤسَّسات التَّعليميَّة، فـ"البكري" يشير إلى أنَّ مدينة "بسكرة" «مدينة كبيرة... وبِّها جامع ومساجد كثيرة»[3].

فوجود الجامع بـِ"بسكرة"، يُؤكِّدُ على وجود حراك ثقافي بالمنطقة فالجامع كما هو معلوم هو بمثابة الجامعة في عصرنا الحالي، حيث يُدرِّسُ به النُّخبة من طلبة العلم مختلف العلوم، كما أنَّ كثرة المساجد إشارة واضحة إلى الإقبال الكبير لطلبة العلم

[1] – علال بن عمر: المرجع السابق، ص.376.

[2] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.175.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.52.

وبخصوص هذا الشَّأن يذكر "البكري" بأنَّ «ببسكرة علم كثير وأهلها على مذهب أهل المدينة».[1]

وعلى غرار مدينة "بسكرة" فقد أُشتهرت "تهوده"، احدى مدن "بسكرة" بكثرة مساجدها فـ"البكري" أشار إلى وجود «جامع جليل ومساجد كثيرة بها»[2]، ومن المؤكد أنَّ تلك المؤسسات التَّعليميَّة كان يؤطِّرها علماء ومشايخ لهم الفضل في تنشيط الحركة الثَّقافيَّة بالمنطقة سواء كانوا من أصلي المنطقة، أو مِمَّن استقرَّ بهم المقام بها، وفي ما يلي نماذج لأهمِّ علماء الزَّاب:

4 – 1 – أحمد بن مكي بن أحمد بن قمود البسكري(كان حيّاً سنة 516هـ/1223م): من الشَّخصيَّات البارزة من أهل "بسكرة" حفظ القرآن الكريم على يد شيوخ بلدته، ثمَّ أراد الاستزادة في طلب العلم فتوجه إلى "مصر" التي دخلها سنة(516هـ/1223م)، فدَرَس بها حتّى أصبح فقيها مشاركاً في بعض العلوم.[3]

4 – 2 – أبو الفضل البسكري (ت.568هـ/1172م): ولد ببسكرة عام (496هـ/1103م) حفظ بها القرآن الكريم وتعلَّم علوم اللغة العربيَّة وبعض المتون بعدها اتصل بالشَّيخ "أبو الفضل النَّحوي التُّوزري" (ت.513هـ/1119م)، وكان من بين طلبته النُّجباء، وقد أشار "الورتلاني" إلى ذلك بقوله: «أبو الفضل هذا هو تلميذ أبي الفضل النَّحوي»[4] .

---

[1] – البكري: المصدر السابق، ص52.

[2] – نفسه.

[3] – عادل نويهض: المرجع السَّابق، ص.42.

[4] – الحسين بن مُحمَّد الوارتلاني: **نزهة الأنظار في فضل علم التَّاريخ والأخبار**، تح: مُحمَّد ابن أبي شنب، مطبعة بير فونتانا الشَّرقيَّة، الجزائر، ط1، 1908م، ص.91.

وصفه "أحمد البختري" بأنَّه: «شيخ العلماء الأستاذ البسكري المشهور بـــالزُّهد والعبادة»[1] تخرج على يده العديد من طلبة العلم من بينهم "أبو علي حسن النَّفطي" و"أبو عبد الله البسكري"، توفي عام(568هـ/1172م) ودفن بـِ"قداشة" بمدينة "بسكرة".[2]

4 – 3 – أبو مُحمَّد عبد الله البسكري (ت. أوائل القرن9هـ/15م): هو "أبو مُحمَّد عبد الله بن عمر بن موسى البسكري"، كان على قيد الحياة سنة 765هـ، وهو من علماء المالكيَّة فضلاً عن كونه أديباً شاعراً، رحل إلى المشرق فأدَّى فريضة الحجِّ واستقر بالمدينة المنوَّرة[3]، وهناك اتصل بالحافظ المُحدِّث المؤرخ "**عبد الله بن مُحمَّد المطري**"[4](ت.765هـ/1363م) وأخذ عنه ولازمه، ذكر "ابن سحنون الرَّاشدي" في كتابه "الأزهار الشَّقيقة" بأنَّ «البسكري معاصر لإبراهيم بن علي بن فرحون»[5] (ت.799هـ/1396م) مؤلف كتاب "الدِّيباج المُذَهَّب".[6]

4 – 4 – عبد الله بن إبراهيم البسكري المالكي(ت.829هـ/1425م): كان من كبار المُقْرئين ومن فضلاء فقهاء المالكيَّة، ولد في "بسكرة" وبها نشأ وتعلَّم ثمَّ رحل إلى المشرق ونزل ببيت المقدس بـ"فلسطين"، وتولى مشيخة دار القرآن[7] "**بالمدرسة**

---

[1] – رابح خدوسي وآخرون: **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2014م، ج1 ،ص.316 – 317.

[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.250.

[3] – عبد القادر بوباية: المرجع السَّابق، ص.95.

[4] – ابن حجر العسقلاني: **الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة**، تح: مُحمَّد عبد المعين خان مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة، الهند، ط2، 1972م، ج 3 ص.65 – 66.

[5] – ابن القاضي: **درَّة الحجال في أسماء الرِّجال**، تح: مُحمَّد الأحمدي أبو النُّور، مكتبة دار التُّراث، القاهرة، ط1، 1978م،ج 1، ص.182 – 183.

[6] – رابح خدوسي و آخرون: المرجع السابق، ج.1، ص.317 – 318.

[7] – عبد القادر بوباية: المرجع السَّابق، ص.94.

السُّلاميَّة"[1]، بها كان يُقرئ النَّاس على قاعدة "إبراهيم الأموي الصُّوفي" فانتفع به الخلق، وكان يعرف القراءات وغيرها ويستحضر كثيراً من "المُدونة"[2]، توفى سنة(829هـ/1426م) بعدما قارب التَّسعين أو جازها.[3]

4 – 5 – عيسى بن سلامة البسكري (ت.860هـ/1456م): هو "عيسى أبو مهدي بن سلامة بن عيسى البسكري"، عالم فقيه صوفي، مؤرخ ومؤلف[4]، نشأ وتعلَّم القرآن الكريم بمسقـــط رأســـه، تتلمذ على يـد الشَّيخ "عبـد الرَّحمان الثَّعالبي (ت.875هـ/1470م)[5]، أين اتصل به في "جزائر بني مزغنة" ثم انتقل إلى "تلمسان" وأخذ عن الشَّيخ "ابن مرزوق الحفيد" (ت.842هـ/1438م)[6]، ثمَّ رحل إلى "تونس" وأخذ عن "أبو الحسن على القلصادي "(ت.891هـ/1487م)[7]، ثمَّ رجع إلى مسقط رأسه وجلس للتدريس، تخرَّج على يده العديد من طلبة العلم، وتوفى عام (860هـ/1456م)، ومن مؤلفاته: "**اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار**" و"**فتح المغرب**"، و"**رسالة في التصوف**"، و"**حزب الحفظ والسَّلامة في الحياة الدُّنيا و يوم القيامة**".[8]

---

[1] – **المدرسة السُلاميّة:** نسبة إلى الخواجا مَجد الدِّين السَّلامي من كبار التُّجار في عهد "النَّاصر بن قلاوون" الذي أوقفها بعد 700هـ. **ينظر**، أحمد سامح خالدي: **المعاهد المصريَّة في بيت المقدس**، مؤسسة هنداوي للنشر،القاهرة ، ط1، 2014م، ص.8.

[2] – مُحمَّد بن عبد الرَّحمان السَّخاوي: **الضّوء اللاّمع لأهل القرن التَّاسع**، دار الجبل، بيروت، ط2، 1992م، ج5 ، ص.4.

[3] – نفسه. **وينظر أيضاً**، عادل نويهض: المرجع السَّابق، ص.42.

[4] – رابح خدوسي وآخرون: المرجع السابق، ج.1، ص.319.

[5] – عادل نويهض: المرجع السابق، ص.90 – 91.

[6] – السَّخاوي: المصدر السابق، ج.7، ص.50.

[7] – خير الدِّين الزَّركلي: المرجع السَّابق، ج.5، ص.10.

[8] – رابح خدوسي وآخرون: المرجع السابق، ج.1، ص.319.

5)- أعلام ميزاب:

برزت الحركة العلميَّة والثَّقافيَّة بـِ"وادي ميزاب" مع قدوم الشَّيخ "**أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي**" وذلك خلال القرن(5هـ/11م)، حيث اختار الشَّيخ "أبوعبد الله مُحمَّد" موقع "تجنينت"[1] مقراً للدعوة ولتدريس طلبته، وقد اتخذ بها مُصلى وبنى فيه مقاماً تُعقدُ فيه مجالس العلم وتقام فيه حلقات تلاوة القرآن الكريم[2]، وبعد اعتناق "بني مُصعب" للمذهب الإباضي، انطلقت نهضة علميَّة وثقافيَّة بـِ"ميزاب" وذلك من خلال توافد العلماء والشُّيوخ إليها، والذين أثمرت جهودهم العلميَّة في تكوين نخبة من العلماء الذين ساهموا في اثراء الحياة الثَّقافيَّة بالحاضرة، ومن أبرز العلماء نجد:

5 – 1 – الشَّيخ بابه السَّعد الدَّاوي(ت.442هـ/1050م):[3] من علماء "ميزاب" الأوائل، أصله من "زناته"، وأخذ العلم بـِ"أريغ" عن مؤسس نظام العزَّابة "أبي عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي" و درس عنده هذا النِّظام، ووصل إلى "وادي ميزاب" سنة (438هـ/1046م) فانتهج تعاليم شيخة وسار على دربه.[4]

5 – 2 – الشَّيخ أبو جعفر مسعود الزَّناتي(ت.563هـ/1167م): من الشَّخصيَّات التي وفدت على "وادي ميزاب" من "فْساطو" بـِ"جبل نفوسه" سنة(470هـ/1078م) وفي

---

[1] – **تجنينت:** تأسَّست حوالي(402هـ/1012م) على قمَّة جبل، بُنيَ مسجدها في المركز ومن حوله نشأت المباني المتعدِّدة، جاءت المساكن في تدرج مستمر مُتبعة تضاريس الأرضيَّة المنحدرة للهضبة وصولاً إلى التَّحصينات التي تحيط بالقصر على شكل سور دفاعي تتخلله أبوابٍ رئيسيَّة وفرعيَّة وتعلوه أبراج المراقبة **ينظر، سلسلة قصور غرداية قصر العطف – تجنينت –**، جم: حمو علي حاج داود، **ط.1**، ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته، غرداية، 2014م، ص.4.

[2] – صالح بن عمر أسماوي: **العزَّابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب**، ، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ط1، 2006م، ص.371.

[3] – اختلف في تاريخ وفاته اختلافاً كبيراً فنجد من ذكر أنَّه سنة(442هـ)، ونجد من جعلها (542هـ). يصعب تحديد التَّاريخ الأصح وذلك لوجود ثلاثة حوادث في حياته، **أوَّلها:** أنَّه أخذ العلم عن "أبي عبد الله مُحمَّد بن بكر". **ثانياً:** ذكرت المصادر وفوده إلى "ميزاب" سنة 438هـ. **ثالثاً:** أنَّه عاصر أعلام القرن السَّادس، منهم: "أبا عبد الرَّحمان الكرثي"، و"أبا جعفر مسعود". **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.69.

[4] – صالح عمر أسماوي: المرجع السابق، ص.372 – 374.

سنة(475هـ/1084م) طلب منه أهل "العطف" أنْ ينزل بينهم واعظاً ومُعلِّماً فمكث بينهم سنتين[1]، ثم غادرها نحو "غرداية" أين سكنها، وكان ينتقل بين المدن المجاورة لعرض تعاليم المذهب ويُعلِّم الطَّلبة فنون العلم[2]، وفي سنة (485هـ/1092م) خلف الشَّيخ "أبو عيسى" في المشيخة العلميَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة لبلدة **مليكة**.[3]

5 – 3 – الشَّيخ إبراهيم بن مناد التَّاجنينتي(النِّصف الأوَّل من القرن6هـ/12م):

من علماء "تجنينت" عاش خلال القرن(6هـ/12م)، كان الشَّيخ "إبراهيم بن مناد" على الاعتزال ثمَّ تحوَّل إلى المذهب الإباضي وأصبح من نجباء الشَّيخ "أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي"، وقد أصبح الشَّيخ "إبراهيم بن مناد" من رجال الدَّعوة، وإليه يَعودُ الفضل في نشر المذهب الإباضي في بادية "بني مصعب"، وقد أشار الباحث "صالح بن عمر أسماوي" إلى أنَّه كانت له مواقف معتبرة في الدَّعوة و دحض حُجج الخصوم.[4]

5 – 4 – الشَّيخ عبد الرَّحمان الكرتي المصعبي(النِّصف الأوَّل من القرن6هـ/12م):

من علماء "ميزاب" في القرن(6هـ/12م) ومن المعمّرين الأوائل لها كان ينشط في "ملِيكة" حتَّى صارت مناراً للعلم يقصدها الطَّلبة من جميع قرى "وادي ميزاب"، كانت له مراسلات مع علماء "وارجلان" يستفتيهم في مسائل العقيدة كاليقين، والقدر، وأشراط السَّاعة[5]، وقد أورد "الدِّرجيني" نص رسالته التي أرسلها إلى علماء "وارجلان"، فأجابه عنها "أبو عمَّار عبد الكافي" وهذا نصُّ الرسالة: «وذكر "عيسى بن أحمد" أنَّ "أبا عبد الرَّحمان الكرتي" كتب إلى جماعة الشُّيوخ بِـ"وارجلان" كتابا يسألهم سؤال مسترشد، قال:

---

[1] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السابق، ج.2، ص.415.

[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.239.

[3] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع نفسه، ، ج.2، ص.415.

[4] – صالح بن عمر أسماوي: المرجع السَّابق، ص.373.

[5] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع نفسه، ج.2، ص.246.

فلمَّا ورد عليهم كتابة لم يروا نفوسهم أهلاً لمجاوبته إلاَّ "أبا عمَّار"، فجاوبه عن جميعها حسبما يفسر».[1]

بينما حصرها "الوسياني" في خمس مسائل بقوله: «و ذكر الشَّيخ "عيسى بن حمدان" أنَّ الشَّيخ عبد الرَّحمان الكرتي المصعبي" كتب إلى شيوخ "وارجلان" رحمة الله عليهم، بخمس مسائل فردَّ "أبو عمَّار جوابها مع جملة الشُّيوخ».[2]

5 – 5 – الشَّيخ عبد الله بن يحيى(ق.7هـ/13م): من علماء القرن السَّابع الهجري، قضى شبابه في طلب العلم ويُعتبر من الشَّخصيات التي كان لها حظاً في تنشيط الحركة الثَّقافيَّة والعلميَّة[3]، وصفه الباحث "يوسف بن بكير الحاج عيسى" بأنَّه: «قاوم الجهل بعزيمة وتخرَّج عنه علماء كثيرون».[4]

جلس للوعظ والتَّدريس أينما حلَّ، وكان كثير التَّردُّد على "أريغ" بُغيه نشر العلم بين أهلها، عُرف بزهده؛ ويروى أنَّه أهدى له سُكان "العطف" (تاجْنينت) أرضاً بالقرب من المدينة حتى يتسنى له أنْ ينتفع بها فرفضها خشية أنْ تشغله عن الجهاد في سبيل الله بالعلم وقال: «إنِّي تصدَّقتُ بها على المسلمين ليتَّخذوها مقبرة»، فكانت مقبرةٌ عامة لأهل البلدة.[5]

6)– أعلام توات:

حظيت "توات" كغيرها من واحات المغرب الأوسط الصَّحراويَّة بحركة علميَّة وثقافيَّة موازية للنشاط التِّجاري الذي برز للعيان بعد تحوُّل المسلك الغربي من "سجلماسة" إليها، وأصبحت تُمثِّلُ همزة وصل بين الشَّمال والجنوب، والشَّرق والغرب

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.488 – 489.
[2] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.772.
[3] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.279.
[4] – يوسف بن بكير الحاج عيسى: المرجع السَّابق، ص.38.
[5] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع نفسه، ، ج.2، ص.279.

عبر الصَّحراء الكبرى، إلاَّ أنَّ هذا النَّشاط الثَّقافي بها قدْ مرَّ بفترة من الرُّكود خلال القرنيين السَّابع والثَّامن الهجريين، الثَّالث عشر والرَّابع عشر الميلاديين، وذلك بسبب الاضطرابات السِّياسية وظهور بعض الفتن التي سادت بالمنطقة، منها: ما يُعرف بحرب يَحْمَدْ وسفيان، واكتسحت البلاد فتن كثيرة حصدت الأخضر واليابس، منها: هجـوم أهــل "أقبـور" على مدينــة "تمنطيط" سنة(620هـ/1232م)[1]، ناهيـك عن الهجومات الأخرى التي لا يسعنا المقام لذكرها.[2]

وبحلول القرن التَّاسع الهجري الخامس عشر ميلادي، بدأت الأوضاع بحاضرة "توات" تعرف نوعاً من الاستقرار الأمني، والازدهار التِّجاري الذي انعكس بدوره على الواقع الثَّقافي بـالمنطقة، حيث عرف هذا الأخير نشاطاً ملحوظاً كان العلماء والشُّيوخ وطلبة العلم المُحرِّك الأساسي له.[3]

وبرزَ خلالها العديد من العلماء والفقهاء والمُفتون، تعدَّى صيّتهم ربوعهاَ إلى مختلف حواضر المغرب الإسلامي والسُّودان الغربي، وتطوَّر منهج تدريس العلوم بها من التَّلقين والتَّلقي إلى النِّقاش و البحث، وانكبَّ كثير من الطَّلبة على دراسة مختلف العلوم كالمنطق، وعلم الكلام والطِّب، كما رَغِب العديد من العلماء في اتخاذ حاضرة "توات" دار هجرة، فكانت وجهة للعديد منهم، وقد صرَّح بذلك صاحب "دُرَّة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام" نقلاً عن "أبا الصَّافي جعفري" بِخصوص "توات" ما نصه:

---

[1] – مُحمَّد الصَّالح حُوتيَّه: المرجع السَّابق، ج.1، ص.50. **ينظر أيضاً**: زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.23.

[2] – تعرضت "توات" لعدَّة هُجومات خلال القرنيين السَّابع والثَّامن الهجريين تعطلت على إثرها الحركة الثَّقافيَّة بها، من بينها: هجوم "أهل واد الجنة" من "أرش أتشيت" "قصر المنصور" و "تاسمت" و"قصر مكيد" سنة(675هـ/1276م)، و غارة "جيش بن عبدة" على أهلها سنة(690هـ/1290م)، وفي سنة(705هـ/1305م)، هاجم "أولاد الطَّالب" القادمون من "وادي ريغ" "أهل تاورير". **ينظر**، زينب سالمي: المرجع نفسه، ص.23 – 24.

[3] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.241.

«أضعف بلاد المغرب قاطبة، غالب أهلها ضعفاء مستضعفين، ولقلة ضعف أهله وهضم قوة النُّفوس، كثر فيه الصَّالحون والزُّهاد وأرباب القلوب».[1]

ومن أشهر علماء حاضرة "توات" نجد:

6 – 1 – الشَّيخ مولاي سليمان الادريسي(ت.670هـ/1271م): من علماء القرن السَّابع الهجري، ولد حوالي عام(549هـ/1154م)، تعلَّم على يد ثُلَّة من الفقهاء، من بينهم الشَّيخ "علي بن حرزهم"[2]، الذي أمره بشدِّ الرِّحال إلى "توات"، فتوجه نحوها عام(580هـ/1184م) فنزل بـِ"تيليلان" ثمَّ انتقل إلى "أولاد عيسى" فسكن بها مُدَّة من الزَّمن، ثُمَّ ارتحل نحو قرية "أوشن" أين أسَّس بها زاويته.

قام الشَّيخ "مولاي سليمان" بتأسيس زاويته عام(593هـ/1197م)، والتي أصبحت تُمثِّل منارةً للعلم و قبلة لطلبته، وممَّا زاد من أهميتها احتوائها على مكتبة تنوَّعت عناوينها وتعدَّدَت محتوياتها فكان فيها العديد من الكتب الفقهيَّة والنَّحويَّة وغير ذلك من الطِّب والفلك والحساب.[3]

6 – 2 – الشَّيخ عيسى بن مُحمَّد البطوي(ت. بعد714هـ/1314م): يعتبر من الشّخصيات التي حلَّت بـِ"توات" عام(714هـ/1314م) نزل بـِ"تمنطيط" بحي "أولاد أَمْحَمَّد" عُرف بسيرته المحمودة، وأخلاقه المشهودة وإقامة العدل والإنصاف بين النَّاس،

---

[1] – أحمد أبا الصَّافي جعفري: **الحركة الأدبيَّة**، ج1، ص.30.

[2] – **الشَّيخ علي بن حرزهم:** هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم الفاسي، الشَّيخ الفقيه المحدث الحافظ المُحقِّق العالم العامل، أخذ عن عمه "أبي مُحمَّد صالح" و"ابن العربي" وغيرهم، توفى في: شعبان 559هـ/جويلية 1164م، **ينظر:** مُحمَّد بن عمر قاسم مخلوف: **شجرة النُّور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة**، تح: عبد المجيد خيالي دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2003م، ج1، ص.234.

[3] – عبد الحميد بكري: المرجع السَّابق، ص.96.

فذاع صيته بين البلدان والأقطار، وانتشر خبر علمه بين النَّاس، فَوُلِّي منصب قاضي الجماعة.[1]

قام بتشييد مسجدٍ جامعٍ، كانت له صومعة كبيرة بحي "أولاد أَمِحَمَّد" بِـ"تمنطيط" أين أصبح هذا الصَّرح الدِّيني منارة للعلم وقبلة لطلبته لمن أراد الفقه واكتساب مختلف العلوم[2].

وقد ازداد توافد العلماء على حاضرة "توات" خاصة خلال القرن(9هـ/15م) وقد أشارت المصادر إلى ذكر العديد منهم، و من أهمِّ الشَّخصيات العلميَّة التي وفدت إلى الحاضرة خلال تلك الفترة نجد:

6 – 3- الشَّيخ أبو يحي مُحمَّد المنياري(ت.840هـ/1436م): هو الرَّجل الفقيه الصَّالح، والعالم النَّابغة "أبو يحي بن مُحمَّد المنياري"، ينتسب إلى قبيلة "بني منيار" المعروفة بأرض التُّلول توجد حاليا في ضواحي "سعيدة"[3]،نزل "توات"(815هـ/1412م) بِـ"تمنطيط" وولِيَّ القضاء بها من نفس السَّنة التي نزل بها، بعد أنْ شهد له أهله المنطقة بالعلم الواسع، وقد صار في ذلك على قدر عظيم من العدل والصَّلاح[4]، وافته المَنيَّة سنة(840هـ/1437)، وقد ترك بصمته في المشهد الثَّقافي والعلمي بِـ"توات" وإنْ غفل عن ذكرها الذين أرَّخوا للمنطقة.[5]

6 – 4 – الشَّيخ مُحمَّد بن عبد الكريم المغيلي(ت.909هـ/1503م): يُعدُّ أعظم شخصيَّة علميَّة عرفتها "توات" خلال القرن(9هـ/15م)، يُنسب إلى قبيلة "مغيلة" بمدينة

---

[1] – رابح خدوسي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.1، ص.322.

[2] – رابح خدوس وآخرون: المرجع نفسه، ج.1، ص.322. **ينظر أيضاً**: عبد الحميد البكري: المرجع السابق، ص.80.

[3] – محفوظ بن ساعد بوكراع السّطيفي: **الفرقد النَّائر في تراجم علماء أدرار المالكيَّة الأكابر**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1،2016م، ص.352.

[4] – عبد الحميد البكري: المرجع نفسه، ص.80.

[5] – زينب سالمي: المرجع السَّابق، ص.38.

"تلمسان"، ذكره ابن القاضي بأنَّ مولده كان سنة(820هـ/1417م)[1]، بينما يرى "مبروك لمقدم" أنَّ مولده يعود إلى عام (831هـ /1427م)، حيث استند في ذلك إلى المطابقة لمراسلاته وتنقلاته في افريقيا الغربيَّة.[2]

نشأ الشَّيخ "مُحمَّد بن عبد الكريم المغيلي" في بيت علم وشرف، حفظ القرآن الكريم على يد الشَّيخ "مُحمَّد بن أحمد بن عيسى المغيلي" الشَّهير بالجلَّاب[3]، حيث أخذ عليه بعض أمَّهات الكتب الفقهيَّة المالكيَّة[4]، كما أخذ تفسير القرآن الكريم والتَّصوف والقراءات عن شيخه "عبد الرَّحمان بن مخلوف الثَّعالبي"(ت.875هـ/1470م)[5]، ثم سافر إلى "بجاية"، و"فاس" لمواصلة تحصيله العلمي ومن "فاس" اتجه صوب "توات" التي نزل بها سنة865هـ/1460م، وأخذ عن الشَّيخ "يحي بن يدير" ما كان يجهله من علم الفقه، وقد صرَّح بذلك في قوله: «حللنا بتوات فوجدناها دار علم وتقى فانتفعوا بنا وانتفعنا بهم».[6]

---

[1] – ابن القاضي: **دُرَّة الحجال في أسماء الرِّجال**، المصدر السَّابق، ج.2، ص.285.

[2] – مبروك لمقدم: **الإمام مُحمَّد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس الإمارة الإسلاميَّة بإفريقيا الغربيَّة خلال القرن التَّاسع الهجري الخامس عشر للميلاد**، دار الغرب للنشر والتَّوزيع وهران، ط1،2006م، ص.27. وينظر أيضاً، عبد الرَّحمان بعثمان: **حملة المغيلي على يهود توات**، المرجع السَّابق، ص.128.

[3] – **مُحمّد بن احمد بن عيسى المغيلي:** أحد فقهاء تلمسان الحافظين لمسائل الفقه، توفى عام 875هـ/1471م، نَقل عنه المازوني في نوازله. ينظر، ابن مريم التِّلمساني: **البستان**، المصدر السابق، ص.236.

[4] – من بين أمَّهات الكتب الفقهيَّة المالكيَّة التي أخذها "المغيلي" نذكر: "الرِّسالة"، و"مختصر خليل" و"ابن الحاجب"، و بعض كتب "بن يونس". **ينظر**: مبروك لمقدم: المرجع السَّابق، ص.27.

[5] – **عبد الرَّحمان بن مخلوف الثَّعالبي:** هو عبد "الرَّحمان بن مُحمَّد بن مخلوف الثَّعالبي الجزائري المغربي المالكي"، أخذ عن "أبي القاسم العبدوسي"، و "حفيد ابن مرزوق"، و"البرزلي" و"الغبريني"، كان إماماً علاَّمة حجةً مصنفاً، اختصر "تفسير ابن عطيَّه" في جزأين، وشرح "ابن الحاجب الفرعي" في جزأين. توفى سنة 875هـ/1470م. ينظر، شمس الدِّين السَّخاوي: المصدر السَّابق، ج.4، ص.152.

[6] – أحمد بابا التُّبكتي: **نيل الابتهاج**، تح: علي عمر ،مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، ط1، 2004م ،ج1، ص.234.

استقر ببلاد "توات" من الصَّحراء ونشر العلم هناك، وبلغت دعوته إلى "بلاد السُّودان"[1]، ونظراً لمكانته العلميَّة التي عُرف بها تصدَّر"المغيلي" للتعليم بـِ"أولاد سعيد"، وبنى مسجداً في قصر "أولاد رون" ومُصلَّى العيدين بـِ"قصر أولاد موسى"[2]؛ تخرَّج على يده العديد من طلبة العلم، منهم: الشَّيخ "مُحمَّد بن أحمد بن أبي مُحمَّد التَّازخني" (ت.936هـ/1529م)، والشّيخ "مُحمَّد بن عبد الجبَّار الفجيجي" (ت.954هـ/1547م).

أمَّا عن آثاره الفكريَّة فهي كثيرة، منها: "**مصباح الأرواح في أصول الفلاح**"، "**رسالة إلى كلِّ مُسلم ومُسلمة**"، "**الرَّدُ على المعتزلة**"، "**المفروض في علم العروض**"، "**تفسير سورة الفاتحة**".[3]

وممَّا سبق ذكره حول العلماء وإنتاجهم الفكري، يَتضح لنا أنَّ جُلَّ الإنتاج الفكري لعلماء الحواضر الصَّحراويَّة كان في مجمله لعلماء الإباضيَّة، فمنهم: من كان منكباً على الاهتمام بتأليف الكُتب الفقهيَّة، فالكتب الفقهيَّة التي أُلِّفت في الفترة التي تَلت سقوط الدَّولة الرُستميَّة تعدّ بالآلاف[4] وامتازت بعض تلك المُنتجات المعرفيَّة بغلبة الطَّابع الموسوعي الشُّمولي، خاصة في ميدان الفقه وأصوله، من ذلك مـــــا عُرف بكتاب "**ديوان العزَّابة**" أو "**ديوان الأشياخ**"، واللذين يعتبرهما "ليفتسكي" مؤلفاً واحداً.[5]

بينما يفصلهما "الدِّرجيني" الذي يبدي جزمه بمعرفتهما الدَّقيقة، حيث أشار لِما نُقل عن المشايخ: «أنَّ جميع الطُّلبة العزَّابة لما اجتمعوا على تأليف كتاب في المذهب يَسْهُل على المبتدئين حفظه، وجعلوه خمسة وعشرين جزءاً... وأمَّا الذين ألَّفوا كتاب

---

[1] – مُحمَّد بن عسكر الحسني الشِّيفشاوني: **دوحة النَّاشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تح: مُحمَّد حجِّي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، الرباط، ط1، 1977 م، ص.131.

[2] – عبد الرَّحمان بعثمان: **حملة المغيلي على يهود توات**، المرجع السَّابق، ص.129.

[3] – عبد الحميد البكري: المرجع السَّابق، ص.102.

[4] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.248.

[5] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.152. **ينظر أيضاً**: غرايسة: **المدينة الدَّولة**، ص.215 – 216.

العزَّابة فهم ثمانية شيوخ عزَّابة طُلبة مخلصون... ولست أدري هل الأجزاء المُتقدِّمة الذِّكر داخلة في تكميل الخمسة والعشرين أمْ زائدة عليها».[1]

وأكدَّ على تصنيفه بـِ"غار أمجاج" بقوله: «وسبب نسبتهم إلى "غار أمجاج" أنَّهم اجتمعوا به وصنَّفوا تصنيفاً في الفقه مشهوراً في اثنى عشر جزءاً».[2]

ويبدو لي أنَّ اهتمام علماء الإباضيَّة بمثل هذا النَّوع من التَّأليف كان بهدف الحفاظ على استمراريَّة مذهبهم وتراثهم الثَّقافي، خاصة بعد عمليَّة التَّخريب والحرق التي طالت مكتبة المَعصومة بـِ"تيهرت" على يد "عبد الله الشِّيعي"، وإتلاف معظم المصادر التي يرتكز عليها المذهب الإباضي كـِ"ديوان تيهرت" الذي لم يبقى له أثرٌ يذكر، وقد أشار "الدِّرجيني" إلى ذلك بقوله: «... وكان دخوله المدينة بالأمان فلمَّا دخلها غدر وقتل أهل بيت الإمام من الرُّستميين... وذكر أنَّه وجد صومعة مملوءة كتباً وهي المشتملة على "ديوان تاهرت" الذي يذكره العزَّابة، فانتقى منه ما انتقى وأحرق الباقي، فلم يبقى لشيء من الدِّيوان أثر أصلاً»[3]، وهو ما يؤكده صاحب "الأزهار الرِّياضيَّة" بقوله: «... وقصد المكتبة المعروفة بالمعصومة وأخذ ما فيها من الكتب الرِّياضيَّة والصَّنائع وغيرها من الفنون الدُّنيويَّة وأحرق الباقي كُلَّه ومن هناك فُقدت أغلب مؤلفات المذهب إذْ كانت المكتبة عظيمة جامعة»[4]. أمَّا الذي نجى منها فقد ضاع في الطَّريق لاشتغال الفارِين بالدِّفاع عن أنفسهم وتأمين حياتهم[5]، ولهذا فقد اهتمَّ الإباضيَّة بتأليف كُتبهم في الجانب الفقهي حفاظاً على مذهبهم.

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.455 – 456.

[2] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.409.

[3] – الدّرجيني: المصدر انفسه، ،ج.1، ص.94 – 95.

[4] – الباروني: **الأزهار الرِّياضيَّة**، المصدر السَّابق، ج.2، ص.293.

[5]– موسى لقبال: «**من قضايا التَّاريخ الرُّستمي مكتبة المعصومة بتاهرت هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراته**»، مجلة الأصالة، ع.41، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينية والأوقاف، الجزائر،(ط.خ)، 2011م، ص.55.

رابعاً- المراكز العلميَّة بالحواضر الصَّحراويَّة.

1)- آجلو: شكَّلت "آجلو"[1] عاصمة ثقافيَّة كبيرة، إذْ كان فضلها على المنطقة والمناطق المجاورة لـها كـِ "وارجلان" وباديــة "بنــي مصعب" كبيراً جـداً، وقـد أشتهرت "آجلو" بالصَّلاح والعلم وكثرة الصَّالحين، فسُمِّيت ببلدة الصَّالحين.[2]

ونظراً لما تمتعت به من أمن واستقرار في أوضاعها، كانت قبلةً وملجأ لكثير من العلماء والشُّيوخ مِمَّن يعيشون في بلدانهم الاضطرابات والفتن، فكان يَلجأ إليها كلُّ من يخشى الفتنة أو يثور بين رجليه دُخانها فيفِرُّ إليها ليعيش هناك آمناً مطمئناً، فقد مثَّلت لدى الجمــاعات الإبـاضيَّة مـوطن السَّلامــة في الدِّيــن[3]، لجأ إليها الشَّيـخ "**أبو الخطاب عبد السَّلام بن منصور**"[4] بعد الفتنة والقحط في "طرابلس" وبعد محاصرة "قلعة درجين" و تهديمها.[5]

وإلى جانب أمنها واستقرار أوضاعها فقد احتوت "آجلو" على العديد من المرافق التَّعليميَّة التي كان لها الفضل في احتضان طلبة العلم ومُدرسيهم، منها: مسجد آجلو الكبير الذي بناه الشَّيخ "**تزوراس بن يوسف**" سنة(441هـ/1150م) وفقاً لما أشار إليه

---

[1] – **آجلو:** مدينة تقع بالقرب من "بلدة عمر" ولاية "تقرت"، و"آجلو" كلمة أمازيغية مشتقة تعني المكان الذي تمَّ الجلاء إليه، **ينظر**، علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.2، ص.364. **ينظر أيضاً:** عبد القادر نوحه: **ستارة بين أمجاد الماضي وحواضر المستقبل تاريخ وحضارة**، مطبعة مزوار، الوادي – الجزائر، ط1، 2011م، ص.22.

[2] – علي يحي معمر: المرجع السابق، ج.2، ص.364.

[3] – نفسه.

[4] – **عبد السَّلام بن منصور ابن أبي وزجون المزابي(أبو الخطاب):** أحد أعلام الإباضيَّة الذين أسهموا في وضع نظام العزَّابة، أصله من "نفوسة" بـ"ليبيا"، تلقَّى علمه بها، ثمَّ استقر به المقام في بلاد "درجين"، بعدها رحل عنها بسبب هجوم جيش من صنهاجة عليهاسنة 440هـ/1049م وسكن "أسوف"، من أبرز شيوخه "أبو عبد الله الفرسطائي"، كما كان من أنجب تلاميذ "أبي نوح سعيد بن زنغيل" الذي رحل معه إلى "تين يسلي" ببلاد "أريغ"، كان كثير الاجتهاد، فانتفع به كثيراً من العباد. **ينظر**، مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون، المرجع السابق، ج.2، ص.254.

[5] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.557.

"الوسياني" في قوله: «... وجاء الشَّيخ "نزوراس بن يوسف" من الحجِّ سنة احدى وأربعين فوجد النَّاس يُصلُّون في الغار في "آجلو الغربي"... فبنى "مسجد آجلو الكبير"»[1].

كما كان لـِ"آجلو الشَّرقيَّة" غاراً يتدارسون فيه العزَّابة وطلبة العلم مختلف العلوم، وقد أشار "الوسياني" إلى ذلك فقـال: «و ذكر أنَّ تعلا سمع قراءة العُزَّاب في غار "آجلو الشَّرقيَّة" عُزَّاب أبي عبد الله»[2] وقد بلغت "آجلو" ذروة مجدها وعظمتها من النَّاحية العلميَّة عندما اختارها "أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر الفرسطائي" موطناً له و لطُلاَّبه.[3]

ومن العلماء الذين ضاع صيّتهم بـِ"آجلو" وكان لهم وقعاً في الحياة الفكريَّة والثَّقافيَّة الشيخ "**سال**" عاش أواسط القرن(5هـ/11م)، وصفه "الشَّمَّاخي بقوله: «الشَّيخ التَّقي الورع ذو الكرامات والفضائل السَّاطعة، سال خاف مقام ربّه فرفع درجته».[4]

وقد حظيت "آجلو" أيضاً ببعض البيوتات العلميَّة التي كان لها حضوراً نشطاً في الحياة الثَّقافيَّة منها بيت العالم "**معاذ بن أبي علي**"(ق.5هـ/11م) وأبنائه من بعده.[5]

ومن العلماء الذين أدلو بدلوهم في الحياة الثَّقافيَّة بـِ"آجلو" وآثروا المكوث بها "أبو الخطاب عبد السَّلام المزاتي" (ق.5هـ/11م)، والشَّيخ "ماكسن بن الخير" (ت.491هـ/ 1097م) الذي أسَّسَ حلقة للعلم فتخرَّج منها جمعٌ من الأفذاذ[6].

---

[1] – الوسياني: المصدر السابق، ،ج1،ص.368.

[2] – الوسياني: المصدر نفسه، ج1،ص.368..

[3] – علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.2، ص.365.

[4] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.130.

[5] – الوسياني: المصدر السابق، ج.2، ص.592. **ينظر أيضاً**: الشَّمَّاخي: المصدر نفسه، ج.2، ص.88.

[6] – ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، ص.52 – 53. وينظر أيضاً، مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي و آخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.354.

وكذا الشَّيخ "أبو مُحمَّد عبد الله اللواتي"[1] الذي آثر المكوث في "آجلو" و مرافقة الشَّيخ "ماكسن"، فكان يُقرئ الطَّلبة آثار "الرَّبيع بن حبيب" عن "ضِمَام" عن "جابر" برواية "أبي صفرة عبد الملك بن صفرة"، وكان يُفسِّرُ ويشرح لهم بالبربريَّة.[2]

2)- تاجديت (تجديت): شكَّلَت "تجديت"[3] عاصمة للعلم، ومركزاً من مراكز الثَّقافة الإسلاميَّة التي تشدُّ إليها الرِّحال ويؤمُّها الطُلاَّب من كلِّ مكان، وسُميَّت "تجديت" بهذا الاسم لأنَّ الاباضيَّة أرادوا من خلالها انعاش "تيهرت" القديمة(تاقدمت)، باسم البلد الجديد "تاجديدت" وهو مرمى بعيد وهدف سياسي له مغزى يرمي إلى تجديد "تيهرت" في الجنوب.[4]

أشار عددٌ من المؤرخين إلى هذه المدينة، وكتب عنها "الوسياني" في سيره ما نصه: «اجتمع في "تجديت" خلقٌ كثير، اجتمع فيها من أهل الفضل والعدل والخير والصَّبر والعلم والزُّهد والعبادة والأدب والورع والسِّيادة مالم يجتمع في سائرها من بلدان أهل الدَّعوة في تلك الأوان»[5].

وقد كانت "تجديت" خاصة بسكنى العلماء تقريباً فقد وصفها صاحب "رسالة العامَّة" بقوله: «إنَّه كان فيها من أهل الدَّعوة والعلماء والطَّلبة مالم يوجد في غيرها»[6]،

---

[1] – **أبو مُحمَّد عبد الله بن مُحمَّد بن ناصر بن ميال بن يوسف اللواتي:** شاعر ومؤرخ ومحدِّثٌ إباضي، من بلاد "برقة" حفيد ميال اللواتي عامل "أفلح" على "نفزاوة"، تحوَّل إلى "آجلو" وعمره 58 سنة(450هـ/1058م)، توفى بها سنة (528هـ/1133م)، له تآليف في تاريخ الاباضيَّة اعتمد عليه "الدِّرجيني" و"الشَّماخي". **ينظر**، ليفتسكي: **المؤرخون الإباضيون**، المرجع نفسه ، ص.50 – 51.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.416.

[3] – **تاجديت:** تعرف في الوقت الحالي بـ"تقديدين"، تقع بالقرب من مدينة "جامعة" جنوب شرق الجزائر، عُرفت بالعلم و العلماء والصالحين، و"تجديت" كلمة بربريَّة تعني "الجديدة". **ينظر**، علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.2، ص.371.

[4] – علي يحي معمر: المرجع نفسه، ج.2، ص.371.

[5] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.645.

[6] – عبد الله بن يحي الباروني: **رسالة سلْم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدِّين**، مطبعة النَّجاح، القاهرة، ط1، 1907م، ص.24.

كما ذكرَ أنَّ مقبرة "تجديت" من المقابر التي أشتهرت عند الإباضيَّة بمقبرة الشُّيوخ البررة لكثرة من دفن بها منهم، ولذلك فقد كان يبدو عليها الجَمال والنِّظام والنَّظافة وكانت مساجدها ومدارسها عامرة باستمرار، وقد بلغت "تجديت" شهرة عالميَّة في العلم والعمران والنِّظام العجيب وفق ما صرَّح به "علي يحي معمر" على لسان الشَّيخ أبي اليقظان.[1]

ولقد أورد لنا "الوسياني" بعض الصُّور التي تُدلِّل على صلاح وتقوى أهلها، منها قوله: «... و يحضرُ الصَّلاة ثلاثمائة فارس وإذا كبَّرُوا تكبيرة الإحرام نَفَرت المواشي من مرابطها لشدَّة أصواتهم و كثرتها»[2]، وذكر أنَّ عامل "صنهاجة" رأى فيها كثرة العزَّابة وكثرة الخَلق وضيق الموضع فاعتقد أنَّهم يُدنِّسون وجه الأرض بالخلاء والسَّماد فدار فيها وحولها فلم يظفر بشيء ممَّا تكرهه عينه وتعافه نفسه، فقال وقد مدَّ يده بسيفه: «... ما يخاف النَّاس إلاَّ من هذا أو من الله، فهذا(يعني السَّيف) ليس هذا موضعه وما منعهم من ذلك إلاَّ خوف الله».[3]

ويبدو لنا من خلال ما ذكره المؤرخين أنَّ "تجديت" كانت مدينة علميَّة نظراً لما احتوته من العلماء و الطُّلاَّب والمعاهد، فصاحب "الرِّسالة العامة" يشير العامَّة يشير إلى أنَّ الطُّلاَّب فيها كانوا بالمئات بقوله: «حتى غدو في الحلقة من الطَّلبة ثمانين توأماً ومائتي طالب يحفظون مائتي كتاب وغيرهم من الطَّلبة ما يعدُّ بكثرة»[4]، وهؤلاء الطَّلبة يُصنَّفون إلى أصناف وفقاً لميولاتهم واتجاهاتهم فنجد منهم: من يستعمل التَّفكير ويعتمد عليه فيميل إلى كثرة الدِّراسة وسعة الاطلاع، ويتناقش ويتنافس هذا الصِّنف في عدد من الكتب التي يدرسونها، وتجد منهم: من يميل إلى الحفظ والاستظهار ويتنافس

[1] – علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.2، ص.371.

[2] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.645. **ينظر أيضاً**: عبد الله يحي الباروني: المصدر السابق، ص.24.

[3] – الوسياني: المصدر نفسه، ج.2، ص.663.

[4] – عبد الله يحي الباروني: **رسالة سلْم العامة**، ص.24.

ويتناقش هذا الصِّنف في عددِ الكتب التي يحفظونها ويستظهرونها على ظهر قلب[1]؛ ولقد أورد لنا "الوسياني" مجموعة من كبار علماء "تجديت" الذين كان لهم دوراً فعَّالاً في إثراء وتنشيط الحركة العلميَّة والثَّقافيَّة بالمنطقة، ومن هؤلاء:

2 – 1 – الشَّيخ أبو عمران موسى بن زكرياء المزاتي الدَّمريني(النِّصف الأوَّل من القرن 5هـ/11م): كانت له حلقة علم تخرَّج منها العديد من الطَّلبة، وهو «رأسٌ من رؤوس المذهب وأعلم علمائه»[2]، وهو أحد العلماء الذين ألَّفوا الموسوعة الفقهيَّة الجماعيَّة المعروفة "ديوان العزَّابة".[3]

2 – 2 – الشَّيخ أبو يعقوب يوسف بن سهلون البرياني(ق.5هـ/11م): من العلماء الذين كانت لهم في بعض مجالسهم العلميَّة حوارات ومُناقشات مع علماء عصره في النَّوازل والقضايا العصيبة، وقد خالف الشَّيخ "أبو عبد الله مُحمَّد بن بكر في بعض منها.[4]

ومن الواضح أنَّ "تجديت" قد استطاعت أنْ تفتك لنفسها مكانة مرموقة ضمن المراكز العلميَّة والثَّقافيَّة بالحواضر الصَّحراويَّة، التي أصبحت ملجأً وقبلة للعلماء والشُّيوخ وطُلاَّب العلم، تُشَدُّ إليها الرِّحال بُغية الاستزادة من معين علمائها ومشايخها.

3)– تينيسلي: من المراكز العلميَّة بـِ"أريغ"، فهي البلدة التي اتخذَها " مُحمَّد بن بكر الفرسطائي" مستقراً له، وبها بدأ نشاطه العلمي الذي أشعَّ على كلِّ المنطقة فشمل كلاً من "أريغ" و"أسوف" و"وارجلان"، لينتقل بعد ردحٍ من الزَّمن إلى "بلاد ميزاب"، وبـِ"تينيسلي" رتَّب "أبو عبد الله الحلقة التي مهدت لنظام العزَّابة.[5]

---

[1] – علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.2، ص.372.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.409.

[3] – علال بن عمر: المرجع السَّابق، ص.366.

[4] – أعزام: المرجع السَّابق، ص.312 – 314.

[5] – علال بن عمر: المرجع نفسه، ص.367.

وفي ذلك يقول "الدِّرجيني": «... ثُمَّ انتقل "أبو عبد الله" وتلامذته إلى "تينيسلي" فرتَّب بها الحلقة و شَيَّدَ من كريم البُنيان ما يتشبه بها العزَّابة ويتشبهون به الآن، وإنْ كان النَّاس قد فَسدوا، وفسد الزَّمان فهذا سبب قعود الحلقة المباركة».[1]

وقد أدَّى انتقال مؤسس نظام العزَّابة وتلامذته إلى "تينيسلي" إلى ازدهارها ثقافيّاً وعلميّاً، وكثرت بها مجالس التَّدريس وحلقات العلم، واستقطبت بذلك العلماء وطلبة العلم من كلِّ حدب وصوب.[2]

4)- أوغلانة (وغلانة): وإلى جانب تلك القرى والمدن التي سبق ذكرها، نَذكر بلدة "أوغلانة"[3] أيضاً التي خَصّتها كتب السِّير والتَّراجم الاباضيَّة بالإشارة إلى اسهاماتها الفكريَّة بـِ"أريغ"، وهذا من خلال شيوخها وعلمائها الكبار، وفي مقدّمتهم الشَّيخ "**فلفول بن يحي**"(حتى عام 430هـ/1038م)، و"**أبو إسحاق إبراهيم الواغلاني**"(ت.508هـ/1114م)، وصفه "الشَّماخي" بأنَّه: «ركنا من أركان أهل الدِّين».[4]

5)- تيغورت: التحقت بلدة "تيغورت" بركب الحواضر العلميَّة وبدأ نجمها يسطع منذ القرن(7هـ/13م) لتصبح فيما بعد عاصمة "وادي ريغ"[5]، ومن علمائها الكبار الشَّيخ العالم "**أبوزيد عبد الرحمان بن المعلّى**" و هو أوَّل من أسَّس الحلقة بمسجد "تيغورت" في النِّصف الأوَّل من القرن(6هـ/12م) وقصده طُلَّاب العلم من جميع الآفاق[6]، وقد

---

[1] – الدَّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.170.

[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.235.

[3] – **أوغلانة:** وتُسمَّى "**وغلانة**"، مدينة قرب "جامعة" لا تزال خرائبها موجودة إلى الآن قرب "وغلانة الحالية". **ينظر:** الوسياني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.350 هامش رقم(**4**).

[4] – الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.177.

[5] – علال بن عمر: المرجع السَّابق، ص.368.

[6] – الشَّمَّاخي: المصدر نفسه، ج.2، ص.97.

تجاوزت حلقته مَهامها التَّربويَّة والتَّعليميَّة حتى نُصِّبت كسلطة سياسيَّة تدير شؤون البلد.[1]

6)- تمنطيط: تعتبر حاضرة "تمنطيط" من أقدم المراكز العلميَّة والثَّقافيَّة الصَّحراويَّة التي قصدها العلماء وتردَّد عليها طلبة العلم، تقع هذه الحاضرة جنوب "قصر تيمي"[2] وتبعد عنه بحوالي اثنـا عشر كيلو متر و هي في منخفض مُوازي لِـ"واد مسعود" وتبعد عنه بحوالي 25 كليو متر، وتضمُّ خمسة عشرة قصراً ثلاثة منها: عبارة عن حصون مُتصلة فيما بينها، وتعدُّ من مدن "توات" القديمة اجتمع فيها العلم و الإمارة والرِّئاسة.[3]

و"تمنطيط" اسم بربري أعجمي مركب من اسمين هما "**أتما**" و"**تط**"، فالأوَّل: يعني النِّهاية أو الحاجب، والثَّاني: معناه العين أيْ "حاجب العين"[4]، في حين تَناقلت الذَّاكرة الجماعيَّة معناً آخر للفظ، ويعني أنَّ اللفظ مركب من كلمتي(**أمان**) وتعني "**الماء**" و "**تيت**" وتعني "**العين**" بمعنى عين الماء.[5]

ورد ذكرها في عددٍ من كتب الرَّحالة والمؤرخين، وصفها "ابن خلدون" بكثرة عُمرانها وحيويتها التِّجاريَّة بقوله: «... وآخرها من جانب الشَّرق يُسمَّى "تمنطيط" وهو بلد مستبحر العمران، وهو ركاب التِّجارة المتردِّدين من الغرب إلى بلاد "مالي" من "السُّودان"».[6]

---

[1] – يوسف بن بكير: **تاريخ ميزاب**، ص.26.

[2] – **تيمي:** وهي منطقة مأهولة بالسُّكان مقارنة بقصور "توات"، بها 39 قصراً أهمها "تيمي" الذي تلتقي فيه معظم الطُّرق القادمة من الشَّمال والشَّرق والغرب. **ينظر**، مُحمَّد الصَّالح حوتيَّه: المرجع السَّابق، ج.1، ص.27.

[3] – مُحمَّد الصَّالح حوتيَّه: المرجع نفسه، ج.1، ص.33.

[4] – المهدي البوعبدلي: «**أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط و دور الإمام المغيلي بها في قضية اليهود**»، مجلَّة الثَّقافة، ع.94، تُصدرها وزارة الثَّقافة والسِّياحة، الجزائر، جويلية، أوت/1986م، ص.83 – 84.

[5] – أحمد أبا الصَّافي جعفري: **من تاريخ توات**، ص.396 – 397.

[6] – ابن خلدون: **العبر**، ج.7، ص.77.

ووصفها صاحب "القول البسيط في أخبار تمنطيط" بقوله: «... "تمنطيط" اسم لمدينة في إقليم "توات" وبها قاعدة اجتمع فيها العلم والإمارة والدِّيانة والرِّياسة، وابتنت بها الأسواق والصَّنائع والتِّجارات والبضائع، وكاد لا يستغني عنها غني ولا زاهد لما فيها من الدِّين والبركات والمنافع والحاجات، فهي مورد الرُّكبان ومحشر العُربان ورئيسة البلدان».[1]

ازدهرت الحركة العلميَّة بها وذلك لتنوع العلوم فيها، فصارت قطراً تُشدُّ إليه الرِّحال، فَكثر فيها الزُّهَّاد والصَّالحون وأرباب العقول، ومن أهم العلماء الذين نزلوا بها نذكر: الشَّيخ "**أبو يحي مُحمَّد المنياري**" دخلها سنة(815هـ/1413م)، والشَّيخ "**يحي بن يدير التَّدليسي**" نزل بها سنة(845هـ/ 1442م)، والشَّيخ "**عبد الله العصنوني**" دخلها سنة(875هـ/1471م)، والشَّيخ "**عبد الكريم المغيلي**" سنة(882هـ/1478م)، والذي كانت له ثورة ضدَّ اليهود و أجلاهم منها.[2]

إضافة إلى الشَّيخ "**ميمون بن عمرو بن محمد الباز**" سنة(890هـ/1485م) الذي أسَّس بها الزَّاوية البكريَّة التي أصبحت منارة للعلم في هذه الحاضرة، إذْ يقول صاحب "نسيم النَّفحات": «ولمَّا أجلى الله اليهود عن أرض "توات"، صار مركز الإشعاع للعلم والمعرفة والاقتباس، الهدى والفصل بين النَّاس بالحق والعدل، عندما استقرَّ أولاد الوليِّ الصَّالح والقطب الفاتح سيدي مُحمَّد البكري»[3] حيثُ تخرَّج منها علماء كان لهم الفضل الكبير والباع العلمي الوفير، خاصة من العائلة "**البكريَّة**" التي برز منها علماء تَفنَّنوا في شتى أنواع المعرفة من فقه وحديث وأدبٍ وسيرٍ وتاريخ،

---

[1] – مُحمَّد بن بابا حيدة: **القول البسيط في أخبار تمنطيط**، تح: فرج مُحمَّد فرج: ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط1977،1م، ص.4. نقلاً عن: أحمد أبا الصَّافي جعفري: المرجع السَّابق، ص.397.

[2] – مولاي مُحمَّد و أحمد الحمدي: «**الحواضر العلميَّة بتوات خلال القرنين(11 – 12هـ/17 – 18م)**»، المجلَّة الجزائريَّة للمخطوطات، مج.12، ع.1، جامعة أحمد بن بله، وهران – الجزائر، جانفي/2016م، ص.103.

[3] – أحمد الطَّاهري الإدريسي: **نسيم النَّفحات**، ص.28. **نقلاً عن:** مولاي مُحمَّد وأحمد الحمدي: المرجع نفسه، ص. 103 – 104.

إضافة إلى القضاء الذي اشتهرت به "تمنطيط" بمركزيتها له في "توات"، فكان علماء من البكريين تولوا هذا المنصب، أمثال: "عبد الكريم بن أَمْحَمَّد بن أبي مُحمَّد التُّواتي" وابنه "عبد الحقِّ بن عبد الكريم البكري".[1]

كما اشتهرت "تمنطيط" بعلماء كتبوا في التَّاريخ، أهمُّهم: "مُحمَّد الطَّيب عبد الرَّحيم" المشهور "بابن بابا حيدة"، كتب كتاب في تاريخ "تمنطيط" سمَّاه "القول البسيط في أخبار تمنطيط"، أرَّخ فيه لتاريخ هذه المدينة عبر فتراتها المختلفة.[2]

خامساً- التَّواصل المعرفي بين الحواضر الصَّحراويَّة والبلدان المجاورة لها.

لم يكن التَّواصل بين الحواضر الصَّحراويَّة والبلدان المجاورة لها تواصلاً تجارياً فحسب وإنَّما شَمِل الجانب المعرفي أيضاً، فتلك المسالك لم تكن ناقلة للسلع فقط وإنَّما عَبرت من خلالها أفكارُ وثقافة الآخر أيضاً، وقد بَدت لي تجلِّيَات التَّواصل المعرفي بين حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة والبلدان المجاورة لها في صور عديدة أبرزها: الرَّحلات العلميَّة، حركة التَّأليف، وبعض المراسلات، ولقد أشارت معظم المصادر الإباضيَّة إلى العلاقات الثَّقافيَّة التي ربطت حواضر الصَّحراء ببعض البلدان المجاورة لها، منها:

1)- جبل نفوسة:

اشتهر بالعلم منذ عهد الدَّولة الرُّستميَّة، فقد كان الإمام "عبد الوهاب بن رستم" يستعين بهم في الفتوى وفي تسيير بعض الخُطط الشَّرعيَّة كالقضاء والحسبة والشُّرطة، كما

[1] - مولاي مُحمَّد وأحمد الحمدي: المرجع السابق، ص.104.

[2] - المهدي البوعبدلي: المرجع السَّابق، ص.84.

كانوا يستجلبون بعض حُذَّاقهم للردِّ على الفئات المعارضة ولإدارة حركة الجدل لدحض آراء المخالفين لهم مثل الواصليَّة.[1]

فقد فشى العلم في أهله حتى قيل: «بأنَّه لا تحتاج فيها دار إلى أخرى في العلم»، ومن أشهر علمائه "**ابن مغطير الجناوني**" و"**أبو زكرياء التَّوكيتي**"[2]، فـ"جبل نفوسة" كان مركزاً علمياً له حضوره ومكانته العلميَّة منذ العهد الرُّسْتمي، ولعلمائه دوراً بارزاً في الحفاظ على المذهب الإباضي ونشر الثَّقافة، فالمصادر الإباضيَّة أشارت إلى العديد من مشايخ "نفوسة" في مواطن الإباضيَّة وفي مُقدِّمتها "وارجلان"، التي احتضنت أعظم مشايخ "نفوسة" الشَّيخ "**أبو عبد الله بن بكر الفرسطائي**" إذْ إليه يعود الفضل في إثراء وازدهار الحركة الثَّقافية بـ"وارجلان" و"أريغ" و"أسوف" و"ميزاب"، وقد أشادت المصادر الإباضية إلى دوره في الحياة الثَّقافيَّة، ولعل "**نظام العزَّابة**" الذي أسَّسهُ وضبط قوانينه خيرُ شاهدٍ على ذلك إذْ لا يزال أثره مستمراً لليوم بـ"حاضرة ميزاب".

وإليه يعود الفضل أيضاً في إعطاء دفعة قويَّة للحركة العلميَّة بـ"وارجلان" بِفعل قواعد نظام تربية و تعليم كان لها الأثر البالغ في نشر التَّعليم والأخلاق، وتمكَّن من تحقيق الهدف المنشود في حفظ الوجود الإباضي من الزَّوال[3].

انطلقت حلقته من "تينيسلي" سنة (409هـ/1019م) مع أنصاره من "آجلو" و"أريغ" تخرج على يده عدداً كبيراً من المشايخ.[4]

---

[1] – موسى لقبال: «**من قضايا التَّاريخ الرُّستمي مكتبة المعصومة بتاهرت هل أحرقت؟...**»، المرجع السابق ص.56.

[2] – عوض الشَّرقاوي: **التَّاريخ السِّياسي والحضاري نفوسة في القرنين الثَّاني والثَّالث الهجريين**، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، طرابلس، ط1، 2011 م، ص.149.

[3] – مُحمَّد زقاوي وعمر بلبشير: المرجع السَّابق، ص.203.

[4] – أعوشت: المرجع السَّابق، ص.95.

وبفضل جهوده نشطت حركة التَّأليف الفرديَّة والجماعيَّة وأصبح للمغاربة مصادرهم المحلِّيَّة خاصة العقديَّة، منها: والفقهيَّة والكلاميَّة، ومن ذلك اجتماع مشايخ العزَّابة على تأليف كتاب في المذهب يسهل على المبتدئين حفظه وجعلوه خمسة وعشرين جزء.[1]

كما كان له الفضل أيضاً في ردِّ قبيلة بني مصعب البربريَّة التي كانت تُجاهر بالعقيدة المُعتزليَّة إلى المذهب الإباضي، فرجعوا إلى دين الحق والطَّريق المُرضية[2] وإلى جانب الشَّيخ "**أبو عبد الله الفرسطائي**" برزت شخصيَّة أخرى من مشايخ "جبل نفوسة" لها أثرها في الحركة الثَّقافيَّة بحواضر الصَّحراء مُتمثِّلة في الشَّيخ "**أبو جعفر الحاج مسعود**"**(ت.563هـ)** أصله من "فستاطو" بـِ"جبل نفوسة"، مكث بـِ"العطف" احدى قرى "ميزاب" سنتين واعظاً ومُعلِّماً، ثمَّ تَوَجَّه صوب "غرداية" وكان كثير الانتقال بين المدن المجاورة لعرض تعاليم المذهب ويُعلِّمُ الطَّلبة فنون العلم، استلم المشيخة العلميَّة و الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة لبلدة "مليكة" خلفاً للشيخ "أبو عيسى".[3]

ويعتبر الشَّيخ "أبو الخطاب عبد السَّلام بن منصور" من أبرز مشايخ "نفوسة" استقرَّ بـِ"آجلو"، وكان كثير الاجتهاد، حيث انتفع به كثير من العباد.[4]

ولأنَّ الجبل أُشتهر بمكانته العلميَّة فلا عجب في أنْ يكون مقصداً للكثير من الطَّلبة رغبة في العلم، فقصده عدداً من طلاَّب العلم، منهم: الشَّيخ "**أبو العباس أحمد بن مُحمَّد بن بكر**" الذي رحل خصيصاً إلى "جبل نفوسة" للمطالعة في مكتبة "**قصر**

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.456.

[2] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح(إسماعيل العربي)، ص.266. الدَّرجيني: المصدر نفسه، ج.1، ص.183.

[3] – مُحمَّد بن موسى بابا عميِّ وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.415.

[4] – مُحمَّد بن موسى بابا عميِّ وآخرون: المرجع نفسه، ج.2، ص.254.

ولم" أين مكث في تلك المكتبة أربعة شهور لم يذق فيها طعم النَّوم إلاّ ما بين أذان الصبح إلى طلوع الفجر واختار من الكتب ثلاثة وثلاثين ألف جزءٍ أكثرها فائدة.[1]

وبالإضافة إلى تنقلات علماء "نفوسة" نحو حواضر الصَّحراء وإسهاماتهم العلميَّة التي شكَّلت صورة من صور التَّواصل الثَّقافي، نجد أيضاً المراسلات المُتبادلة بين علماء "نفوسة" والحواضر الصَّحراويَّة حول مسائل وقضايا عقديَّة، ولقد وقفنا في عدد من المصادر على نماذج من هذه الرَّسائل، منها: ما ذكره "الشَّماخي" عن رسالة وردت إلى الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف الوارجلاني**" من عالم من جبل "نفوسة" يودُّ معرفة بعض الأمور في الدِّين ويفتيه فيها[2] وممَّا لاشكَّ فيه أنَّ هذه المراسلات قد عزَّزت التَّواصل الثَّقافي بين جبل "نفوسة" وحواضر الصَّحراء.

2)- مع إفريقيَّة(المغرب الأدنى):

وردت العديد من الإشارات في المصادر الإباضيَّة التي تُبرز التَّواصل المعرفي بين الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط وإفريقيَّة خاصة منها "بلاد الجريد"، و"جربة"، و"تونس"، ولا ريب في ذلك فتلك المناطق كانت مواطن للإباضيَّة وكان لها حضورها العلمي الذي يُضاهي جبل "نفوسة" في الكثير من الأحيان، خاصة إذا علمنا أنَّ عدد من مشايخ الجبل تتلمذوا على يد مشايخ من "بلاد الجريد"، وعلى رأسهم مؤسس حلقة العزَّابة "**أبو بكر الفرسطائي**" الذي تلقَّى تعليمه الأوَّل على يد الشَّيخ "**أبي نوح سعيد بن زنغيل**" و "**أبي زكرياء فيصل بن أبي مسور**" رحمهما الله" وفي ذلك يقول صاحب "سِير الأئمة": «... وكان تعليمه على الشَّيخ "أبي نوح سعيد بن زنغيل" و"عند أبي زكرياء فيصل بن أبي مسور"».[3]

---

[1] - بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.131.

[2]- الشماخي: المصدر السابق، ج2، ص105.

[3] - أبو زكرياء: المصدر السَّابق، تح (إسماعيل العربي)، ص.263.

وعليه فقد كانت تلك المناطق مقصداً للعديد من طُلاَّب العلم، ولعل زيارة مشايخ "جربة" و"بلاد الجريد" إلى "وارجلان" وتَصدُرهم لحلقات العلم بها، شجَّع الطَّلبة على الانتقال إليها والأخذ عن شيوخها، فقد أشارت المصادر إلى مجلس الشَّيخ "**أبو سعيد بن زنغيل**" بمسجد الشَّيخ "**أبو صالح جنون بن يمريان**" و كان «جماعة أهل "وارجلان" تجتمع عند مسجد الشَّيخ "جنون" فمنهم المستفيد منه علماً، ومنهم المُتبرك بمشاهدته والمشارك فيما يعرض من أمور دنياه و دينه».[1]

وإلى جانب مجالسه العلميَّة، كانت له فتاوى في بعض المسائل التي شغلت أهل "وارجلان" منها: المسألة التي طرحها رجل من "قصر بكر" يدور موضوعها حول أخذ الرَّجل المحتاج زكاة زوجته.[2]

إضافة إلى الشَّيخ "**أبو سعيد بن زنغيل**"، فقد استقرت شخصية علميَّة أخرى بـِ"وارجلان" أصلها من البلاد التَّونسيَّة ممثلة في الشَّيخ "**أبو مُحمَّد ماكسن بن الخير**" الذي كانت له دروس علميَّة يُلقيها للخاصة والعامة، وغالبا ما كانت مواضيع تلك الدُّروس ضد الانحراف والبدع والتَّهاون فالشَّيخ "ماكسن" كان مرجعاً من مراجع العلم وشخصية من الشَّخصيَّات المرموقة في المجتمع.[3]

كما كانت لبعض المشايخ زيارات عديدة لإخوانهم من أهل الدَّعوة من ذلك ما ذكره "الدِّرجيني" من زيارة ثلاثة من فقهاء "جربة" إلى إخوانهم بـِ"وارجلان" و"أريغ"، وهم: «**أبو صالح بكرين قاسم، و الثاني أبو موسى عيسى بن السمح، و الثالث أبو زكرياء فيصل بن أبي مسور**».[4]

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.1، ص.143.

[2] – الدّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.343.

[3] – علي يحي معمر: المرجع السَّابق، ج.1، ص.188 – 190.

[4] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.342.

وإلى جانب ذلك فقد أشارت المصادر أيضاً إلى انتقال عَددٍ من طُلَّاب العلم إلى افريقيَّة بهدف الاستزادة العلميَّة، ومن جملة هؤلاء الشَّيخ "**أبو سليمان يخلف المزاتي**" الذي رحل إلى "جربة" لاستكمال تعليمه هناك، حيث اتصل بالشَّيخ "أبي مُحمَّد ويسلان بن أبي صالح" وهناك عقد حلقة لتدريس أصول الدِّين ووفد عليه الطَّلبة من كلِّ ناحية.[1]

بالإضافة إلى الشَّيخ "**أبو عمَّار الكافي**" الذي هاجر إلى "تونس" للتفرغ للدراسة، حيث مكثَ بها أعواماً تعلم فيها اللغة العربيَّة ودرس مواضيع أخرى، عرفه أقرانه من الطَّلبة المُتمدرسين معه في "تونس" بأرفع الأخلاق وأجلِّ الصِّفات إذ كانوا «... يتعجبون من فهمه وحفظه و مواظبته وورعه و سخائه،... وسعة خلقه»[2]؛ كما رحل الشَّيخ " **أبو عمرو عثمان بن خليفة المارغني السَّوفي**" إلى "بلاد الجريد" لتلقي العلم، ورحل "**أبو الفضل البسكري**" إلى "توزر" وهناك اتصل بالشَّيخ "**أبو الفضل النَّحوي التُّوزري**" وكان من طلبته النُّجباء.[3]

وارتحل أيضاً عدداً من طلاب إفريقيَّة إلى "وارجلان" للتعلُّمِ، ومن بين الذين التحقوا بحلقات العلم بـِ"وارجلان" "**أبو العباس أحمد سعيد الدِّرجيني**" صاحب كتاب "طبقات المشايخ"، وهذا ما نستشفه من حديثه عن نفسه في قوله: «دخلت حلقة "وارجلان" حرسها الله وذلك في ربيع الأخير سنة ستّ عشرة و ستمائة في أوَّل ما وجب عليَّ الصَّوم والبال خال من الهمِّ».[4]

ولقد أثمر التَّواصل العلمي والثَّقافي بين حواضر المغرب الأوسط الصَّحراوية وإفريقيَّة إلى بروز تعاون مُشترك في مجال التَّأليف، منها: "**ديوان العزَّابة**" الذي ألَّف

---

[1] – خليفة النَّامي: المرجع السَّابق، ص.23. **ينظر أيضاً**: بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.127.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السابق ، ج.2، ص.486.

[3] – الوارتلاني: المصدر السَّابق، ص.91.

[4] – الدِّرجيني: المصدر انفسه، ج.1، ص.180.

في "أريغ" بمشاركة علماء الإباضيَّة بالمغرب، وقد شارك في تأليفه ثمانية مشايخ أربعة منهم من حاضرة "أريغ"، وهم: «يوسف بن عمران بن أبي عمران المزاتي"، "عبد الله بن أبي سلام الرَّمولي"، "جابر الزَّنزفي" "إبراهيم بن مطكوداسن بن يخلف الدَّجمي المزاتي"»[1].

وهذا ما يُدلِّل على مدى عمق التَّواصل المعرفي بينهما، كما شارك أيضاَ الشَّيخ "**أبا عمران موسى بن أبي زكرياء المزاتي**" في تأليف "ديوان غار أمجاج" بـ"جربة"، وهو من كتب "ديوان عزَّابة أمجاج" السَّبعة حتى نسبه البعض إليه، كتبه في اثنى عشرة كتابا في الفقه.[2]

وإذا كانت هذه المؤلَّفات تُبرز عمق التَّواصل بين إفريقيَّة والحواضر الصَّحراويَّة، فإنَّهـــا توضح في الوقت ذاته المكانة العلميَّة التي بلغتها حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة لاسيما "أريغ" و"وارجلان"، إذ انتقلت من طوْرِ التَّلقين والاستيعاب إلى طور التَّأليف والإنتاج.

3)- مع المشرق:

بعد سقوط مدينة "تيهرت" عاصمة الرُّستميين، ودخول الإباضيَّة في مرحلة الكتمان عرفت العلاقات بين إباضيَّة المغرب والمشرق نوع من الضَّعف والفتور، ولعل هذا بسبب ظاهرة الانغلاق والتَّمركز في المناطق النَّائية بالنِّسبة لتجمعات إباضيَّة المغرب الأوسط وظهور علماء إباضيَّة مغاربة اضطلعوا بمُهمَّة التَّأليف رُغم قِلَتهم في القرن(4هـ/10م).[3]

---

[1] – علال بن عمر: المرجع السَّابق، ص.366.

[2] – علال بن عمر: المرجع نفسه، ص.367.

[3] – صلاح الدِّين شعباني : المرجع السَّابق، ص.185.

ورغم ذلك فإنَّ العلاقات لم تنقطع بشكل نهائي، وإنَّما بقي هناك نوع من التَّواصل العلمي بينهما وإنْ كان ضعيف، وهو ما وقفنا عليه في بعض المصادر الإباضيَّة فأبي زكرياء أشار إلى "ابن الجمعي" الذي قدم من المشرق، ثمَّ توجهَ إلى "سجلماسة" ماراً بـِ"وارجلان"، وقد جلب "ابن الجمعي" معه مكتبته التي أهداها لِـ"ابن زرقون" عند وفاته، وفي ذلك دلالة واضحة على استمرار انتقال الكتب من المشرق إلى المغرب، خاصة إذا علمنا أنَّ مرحلة الضَّعف التي مرَّ بها اباضيَّة المغرب في القرن (4هـ/10م) تُشبه إلى حدٍّ كبير وضعيَّة الإباضيَّة في طور الكِتمان الأوَّل السَّابق لتأسيس الدَّولة الرُّستميَّة.[1]

لقد عزَّزت مواسم الحجِّ التَّواصل المعرفي بين اباضيَّة المشرق والمغرب فالحجُّ يعتبر أهم وسيلة لربطت المغرب بالمشرق، وقد تجاوب أهل المغرب بما فيهم ساكنة الواحات مع هذا الرُّكن من الدِّين و تحمسوا له، فكانت أُمنية الواحد منهم منذ أنْ حَسُنَ إسلامه أنْ يقوم بهذه الرِّحلة الدِّينيَّة العلميَّة[2].

فمواسم الحجِّ ظلَّت تمثِّلُ فرصة هامة للقاء بين الإباضيَّة، وينقل لنا "الوسياني" روايات مُهمَّة بخصوص هذا الشَّأن، منها: رواية "أبي طاهر التَّاوتي" الذي سافر إلى الحجِّ وجاور فيها حتى حجَّ الأيام السَّبعة، وكتب منها ديواناً كبيراً.[3]

ومن أبز علماء الحواضر الصحراويَّة الذين رحلوا إلى المشرق لأداء فريضة الحجِّ وللاستزادة العلميَّة "**أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني**"، الذي توجَّه إلى المشرق قصد أداء هذه الفريضة فاستفاد من العلوم الشَّرعيَّة أثناء مروره بالعواصم الإسلاميَّة وقد خلَّد رحلته الحجازيَّة هذه بقصيدة عدد أبياتها عدد أيَّام السَّنة، بدأها بغزل رقيق، ثمَّ الرِّحلة من "وارجلان" والتَّنبيه عمن صَحبهم في ذلك الرَّكب، وذكر

[1] – أبو زكرياء: المصدر السَّابق، ص.182 – 183.

[2] – إبراهيم بحاز: المرجع السَّابق، ص.390.

[3] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص301.

الطَّريق منزلة منزلة والبقاع المقدَّسة مَنسكًا منسكاً إلى أنْ رجع إلى "وارجلان" مسقط رأسه، وكان من مرافقيه في رحلته هذه الشَّيخ "**أبو عمّار عبد الكافي**".[1]

ورحل إلى المشرق أيضاً الشَّيخ "**أبو مُحمَّد عبد الله البسكري**" (ت. أوائل القرن.9هـ) حيث استقرَّ بالمدينة المنوَّرة وهناك اتصل بالحافظ المُحدِّث "**عبد الله بن مُحمَّد المطري**" وأخذ عنه ولازمه[2] وكذلك "**عبد الله بن إبراهيم البسكري**" المالكي(ت.829هـ/1426م) الذي نزل ببيت المقدس وتولى مشيخة دار القرآن بالمدرسة السُّلاميَّة[3]، كما أسلفنا سابقاً.

4)- مع بلاد السُّودان:

لم تكن العلاقات التِّجاريَّة الواسعة التي ربطت السُّودان الغربي بحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، لتمرَّ دون أنْ تُخَلِّف آثاراً ثقافيَّة، أقلَّ ما يمكن أنْ يُقال عنها أنَّها كانت عميقة ومُهمَّة بعمق وأهميَّة النَّشاط التِّجاري الذي كان الوسيلة في وصول الإباضيَّة إلى تلك المناطق النَّائية.[4]

وقد ذكرت المصادر الإباضيَّة عدداً من العلماء الذين زاروا تلك المناطق وقطنوا بها فاستفادت منهم، ومن بين هؤلاء العلماء الشَّيخ "**أبو موسى هارون بن موسى بن أبي عامر**"، الذي سافر إلى "غانة" ومكث فيها، وكان له دور في نشر الإسلام وتعاليم المذهب الإباضي بتلك المناطق.[5]

وتعتبر مدينة "تادمكة" من المدن التي ضمَّت تجمُّعاً إباضياً كبيراً، ولعلَّ استقرار الإباضيَّة في "تادمكة" راجع إلى العائد المادي الكبير الذي تَدُرُّه التِّجارة فيها، خاصة

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.494. **ينظر أيضاً**: بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.137.

[2] – العسقلاني: المصدر السَّابق، ج.3، ص.65 – 66.

[3] – السَّخاوي: المصدر السَّابق، ج.5، ص.4.

[4] – إبراهيم بحاز: المرجع السَّابق، ص.387.

[5] – مُحمَّد بن موسى بابا عمِّي وآخرون: المرجع السَّابق، ج.2، ص.441.

وأنَّ المدينة أصبحت في القرن الخامس الهجري(الحادي عشر الميلادي) أحسن من مدينة "غانة" و "كوكو"، وأصبحت لها علاقات تجاريَّة منتظمة مع المدن المغربيَّة خاصة "وارجلان" وهذا وفقاً لما أشار إليه البكري.[1]

وممَّا لاشك فيه أنَّ تُجار الحواضر الصَّحراويَّة لم ينقلوا إلى بلاد السَّودان منتوجاتهم التِّجاريَّة فحسب، وإنَّما نقلوا معهم انتاجهم الفكري والثَّقافي أيضاً، خاصة إذا علمنا أنَّ معظم التُّجار الذين يَرِيدُونَ إلى بلاد السودان كانوا من العلماء، وبهذا فقد نقلوا فكرهم إلى تلك الأصقاع التي لمْ يتوان ساكنيها، في تقبل تلك الأفكار وسعوا جاهدين في التَّعلّم.

ومن صور التَّواصل المعرفي بين بلاد السَّودان وحواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، تلك الرِّسالة التي وردت من "غانة" إلى "وارجلان" يستوضح فيها صاحبها عن إشكالات عقديَّة يختلف حولها الفكر الإباضي مع الفكر الأشعري في بلاد السُّودان.[2] هذه المسائل تتعلق بمسألة خلق القرآن، رؤية الله في الآخرة، الوعد والوعيد، وغيرها من الأمور العقديَّة، والتي هي في مجملها أمورٌ غيبيَّة.

هذه الرِّسالة التي توجه بها الفقيه "**عبد الوهاب بن مُحمَّد بن غالب بن نمير الأنصاري**" إلى الشَّيخ "**أبو عمار عبد الكافي التَّناوتي الوارجلان**"، ولكن صادفت وفاة "أبو عمَّار الكافي"، فتولى الإجابة عليها تلميذه وزميله الشَّيخ "**أبو يعقوب يوسف**

---

[1] – مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.170 – 171. **ينظر أيضاً**: البكري: المصدر السَّابق، ص.181 – 182.

[2] – عبد الواحد العسري: «**أجوبة مغربية على إشكاليات عقدية وردت من بلاد السودان الغربي خلال القرن (6هـ/12م)**»، أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقيَّة على خلال الصَّحراء، تنظيم كلِّيَّة الآداب (تطوان) المغرب، وكلِّيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة(طرابلس)، أيام:12 – 14، 1998م،منشورات كلِّيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة الجماهريَّة العظمى، طرابلس، ط.1، 1999م، ص.466.

الوارجلاني"، وقد احتفظ هذا الأخير بمضمون هذه الرِّسالة في كتابة **(الدَّليل لأهل العقول لباغي السَّبيل بنور الدليل)**.[1]

وبغضِّ النَّظر على مضمون الرِّسالة والجهة التي أرسلتها، فإنَّها تحمل عِدَّة دَلاَلاتٍ وإشارات في غاية الأهمية، منها:

- ✓ استقرار جماعة من الإباضيَّة ببلاد السُّودان.
- ✓ وصول الفكر الإباضي والأشعري لبلاد السُّودان.
- ✓ عمق التَّواصل بين الضِّفتين لدرجة أنْ تُعقد مناظرات علميَّة بهذا الحجم.
- ✓ المكانة العلميَّة التي بلغتها حاضرة "وارجلان" وعلمائها، ففي الرِّسالة ما يؤكد مكانة "وارجلان" العلميَّة، وإلاَّ فما الدَّافع الذي يجعل صاحب الرِّسالة يختص "وارجلان" والشَّيخ "**أبو عمَّار الكافي**" تحديدا دون غيرهم.

ولربَّما يرجع ذلك إلى الدَّور السِّياسي، والتِّجاري والعلمي الذي اضطلعت به "وارجلان" لاسيما بعد سقوط الدَّولة الرُّستميَّة، لتصبح كبديل عن "تيهرت" إضافة إلى ازدهارها العلمي، فـ"وارجلان" حظيت بازدهار ثقافي كبير أكثر من غيرها من الحواضر، فأغلب علماء اباضيَّة المغرب خلال القرون (4هـ-10م/5هـ-11م/6هـ-12م) كانوا ينتسبون إليها، واشتهر عدد من علمائها بالجدل وعلم الكلام.[2]

ومن مظاهر التَّواصل المعرفي بين الضِّفتين، انتقال العلماء إلى السُّودان الغربي واستقرارهم هنـاك، حيث ساهم هؤلاء في نشر الإسلام والثَّقافة العربيَّة، وهذا من خلال تَصدُرهم للتدريس والإمامة، و انشاء العديد من المدارس والرِّباطات، وبذلك أسهموا في إرساء نهضة علميَّة بمختلف المناطق التي زاروها بالسُّودان الغربي.[3]

---

[1] – عبد الواحد العسري: «**أجوبة مغربية على إشكاليات عقدية وردت من بلاد السودان الغربي خلال القرن (6هـ/12** وينظر أيضاً، بوعصبانة: المرجع السَّابق، ص.135.

[2] – عبد الواحد العسري: المرجع السابق، ص.466

[3] – عبد الله مقلاتي ومحفوظ رموم: **دور منطقة توات**، المرجع السابق، ص.136 – 137.

وقد نشطت حركة انتقال العلماء نحو بلاد السُّودان الغربي خلال القرنيين(8 – 9هـ/14 – 15م)، حيث ذكر صاحب كتاب "فتح الشَّكور" أزيد من أربعين شخصيَّة تواتيَّة من أهل الصَّلاح والفقه كان لهم تأثيراً بارزاً في بلاد التَّكرور، منهم العالم "**سيدي مولاي الزَّيدان**"، والعالم "**الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب بالتواتي**".[1]

بالإضافة إلى الإمام "**عبد الكريم المغيلي**" الذي أقام في "غاوو" مُدَّة يمارس التَّدريس وألَّف لِـ"أسكيا مُحمَّد" كتابا أجاب فيه عن عدد من المسائل، وكتاب آخر أجاب فيه عما يجب على الحاكم نحو المحكومين، بالإضافة إلى الإمام "**أبو القاسم التُّواتي**" الذي كان "أسكيا مُحمَّد" يصلي وراءه ويطلب دعاءه.[2]

[1] – أبي عبد الله الطالب البرتلي الولاتي: **فتح الشَّكور في معرفة أعيان علماء التّكرُور**، تح: مُحمَّد إبراهيم الكتَّافي ومُحمَّد حجِّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،1981م، ص.97. **وينظر أيضاً**، عبد الله مقلاتي ومحفوظ رموم: المرجع نفسه ص.138.

[2] – مُحمَّد حمد كنان ميغا: «**مظاهر الثَّقافة الإسلاميَّة العربيَّة في تنبكتو وغاو وجنّي في عهد الأساكي**»، **مجلَّة قراءات إفريقيَّة**، ع.3، مجلَّة ثقافيَّة فصليَّة مُتخصِّصة في شؤون القارة الإفريقيَّة تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن، ديسمبر/2008م، ص.29.

الفصل الرابع: الدّور الحضاري للحواضر الصّحراوية وتأثيراته على بلاد السـودان الغربـي

أولا: الدّور والأثـر الاجتمـاعي

ثانيـا: دورها في التأثير العقدي والسلوكي

ثالثـا: دورها في التأثيـر الثقافي والعلمـي

رابعـا: التأثيـر العمرانـي

التَّأثير والتَّأثُّر بين الأمم والممالك والأشخاص، هو قاعدة كونيَّة لا ينفكُّ أنْ يقع فيها اثنان قد تخالطا وربطت بينهما مصالح، وبناء على القاعدة الخلدونيَّة التي تجعل المغلوب مُولع بالغالب[1]، فإنَّ رُسل الحواضر الصَّحراويَّة الممثلين في التَّجار والعلماء، قد كان لهم نصيبٌ في التَّأثير على قاعدة الولع بهم، لكون اليد الطَّولى كانت لهم بسبب مظهرهم الدِّيني الإيماني الجذَّاب الذي تُقدِّمِهُ ملابسهم، وسلوكهم الرَّاقي مع كلِّ من تخالطوا معهم؛ فكيف كان أثرهم في المجتمعات التي زاروها؟

أوَّلاً: الدَّور والأثر الاجتماعي.

1)- أثر فئة التُّجار في النَّسيج المجتمعي السُّوداني:

من خلال اطلاعنا على ما رصدتْهُ كتب الجغرافيا والرِّحلة التي عُنيَ أصحابها بوصف المدن، نلاحظ أنَّ فئة التُّجار المغاربة استطاعت أنْ تحتلَّ مركزاً مُهمًّا ضمن الهرم الاجتماعي للمجتمع السُّوداني، وشكَّلت طبقة مُتميِّزة ضمن نسيجه المجتمعي، وإنْ كان هذا الحُضور مُتبايناً من مدينة إلى أخرى، فنلاحظ الحضور القوِّي والتَّواجد المكثَّف لهذه الفئة في المراكز التِّجاريَّة الكبرى التي تَعرف حركة اقتصاديَّة دؤوبة وتوافد كبير للتُّجار المغاربة كمدينة "**أودغشت**" على سبيل المثال، التي أشار "البكري" إلى سكَّانها بأنَّهم: «من أهل إفريقيَّة وبرقجانة ونفوسة ولواته وزناته ونفزاوة»[2]، بينما وصفها "الحميري" «بأنَّ أهلها أخلاط من جميع الأمصار استوطنوها لكثرة خيرها ونفاق أسواقها وتجارتها»[3] وفي كلا النَّصين إشارة واضحة إلى توافد واستقرار التُّجار بهما.

[1] – ابن خلدون: **المقدِّمة**، ص.149.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[3] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.64.

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ أغلب تلك القبائل التي ورد ذكرها في نص "البكري" هي قبائل إباضيَّة المذهب، مما يوحي لنا بأنَّ "أودغشت" كانت مركزا تجاريًّا يَؤُمُّهُ الإباضيَّة[1].

ويعود سبب توافد واستقرار الإباضيَّة في بعض مدن السُّودان إلى العلاقة الجيِّدة التي ربطت أمراء بني رستم بملوك السُّودان، فالإمام "**أفلح بن عبد الوهاب**" كانت له مع أغلب الملوك مودَّةً، لا سيما ملك "**الصُّوصو**" أو "**الكوكو**"، فتلك العلاقة من شأنها أنْ تُمكِّن التُّجار الإباضيَّة للمغرب الأوسط من العبور والاستقرار بالسُّودان.

ولا نستبعد أيضاً من أنْ تكون سفارة الإمام "**أفلح بن عبد الوهـــاب**" لملك "**الصُّوصو**" كـــانت بدافع تعزيز العلاقات والتَّعاون بين الضِّفتين وتوفير كلِّ التَّسهيلات للتُّجار وإنْ كنَّا نجهل حقيقة دوافعها إلاَّ أنَّه لا يمكن استبعاد الدَّافع الاقتصادي، ولقد أشارت بعض كتب السّير والتَّراجم إلى التَّواجد المُبكر للإباضيَّة في تلك المناطق، ومن أمثلة ذلك "**أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي**"[2]، و "**أبو صالح الياجراني**"[3]، و"**علي بن يخلف**"[4]، و"**هارون بن عمران**"[5]، و"**فلحون بن اسحاق**"[6].

وأشار "ابن بطوطة" في رحلته التي قادته إلى بلاد السُّودان إلى وجود جماعة من البيضان بقرية "زاغري" بمملكة "مالي" يذهبون مذهب الإباضيَّة[7]، وقد ساهم تمرْكُز معاقل الإباضيَّة في أطراف الصَّحراء كـ"**وارجلان**" و"**جبل نفوسة**" و"**غدامس**" في كثرت

---

[1] – إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص.213.

[2] – الشَّمَّاخي: المصدر السابق،ج.2، ص.54.

[3] – الشَّمَّاخي: المصدر نفسه، ج.2، ص.58. **ينظر أيضاً**: الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.802.

[4] – الشَّمَّاخي: المصدر نفسه، ج.2، ص.115.

[5] – مُحمَّد صالح ناصر: **دور الإباضيَّة في نشر الإسلام بغرب إفريقيا**، منشورات وزارة العدل والأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة، مسقط، ط.1، 1992م، ص.22.

[6] – مُحمدّ صالح ناصر: المرجع نفسه، ص.23.

[7] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق،ج.2، ص.693.

تردُّدِهم على السُّودان الغربي، وليس الإباضيَّة فقط من عُرفوا بتنقلاتهم نحو بلاد السُّودان، فقد انتقل أيضا العديد من تُجَّار مدن "**المغرب الأوسط**" نحو بلاد السُّودان، وقد أشار " إبن بطوطة" لوجود تُجار تلمسانيين في القافلة التي إصطحبته إلى بلاد السُّودان[1].

وعلى غرار مدينة "**أودغشت**" فقد شهدت المدن الأخرى حضوراً مُعتبراً ومُتميِّزاً للتُّجار المغاربة، ويبدو لي أنَّ هذا التَّواجد قد أخذ في التَّزايد منذ(ق.5هـ/11م) لدرجة أصبح فيها للمسلمين أحياء ومدن خاصة بهم، ونصُّ "البكري" الذي يصف فيه مدينة "غانة" أبرز نموذج على ذلك، حيث يقول: «غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة بها إثنا عشرة مسجداً أحدهما يجتمعون فيه المسلمون ويؤدون صلاة الجمعة ولها الأئمة والمؤذنون والرَّاتبون وفيها فقهاء وحملة علم... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى الغابة»[2].

ويبدو أنَّ القسم الخاص بالمسلمين هو القسم الذي يُمثِّلُ مركز الثِّقل بالنِّسبة لغانة ولهذا بدأ "البكري" وصفه به، كما أنَّ وجود إثنا عشرة مسجداً بها يوحي بأنَّ عدد الوافدين كان كبيراً وأنَّ "غانة" تُشكِّلُ مركز استقطاب كبيرٍ للتّجار المغاربة، ويبدو أنَّ غانة قد حافظت على مكانتها تلك حتّى القرن(6هـ/12م)، ولعلَّ في نصِّ "الإدريسي" ما يؤكِّد حقيقة ذلك حيث يقول: «غانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السُّودان قطراً وأكثرها خَلقاً وأوسعها متجراً وإليها يقصد التُّجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب وأهلها مسلمون»[3].

---

[1]- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.2، ص.689.

[2]- البكري: المصدر السَّابق، ص.175.

[3] - الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.23.

وإنْ كان في نصوص "البكري" و"الإدريسي" إشارة واضحة لتواجد واستقرار الجالية المغربيَّة في "غانة"، فإنَّ هناك بعض الباحثين ذهبوا لأبعد من ذلك وأشاروا إلى أَنَّ أوَّل حكومة حكمت "غانة" كانت من البيض المهاجرين من الشَّمال الإفريقي، ويرجع ذلك إلى حوالي القرن الأوَّل الميلادي حيث أشار "السَّعدي" "بأنّهم بيضان في الأصل"[1] غير أنَّ هذا الطَّرح بحاجة إلى قرائن وأدلَّة تُثبت صحَّة أصولهم ومواطن قدومهم، وإنْ كان النَّص في ظاهره يحمل دلالات وإشارات حول قِدم التَّواصل بين الشَّمال والجنوب.

وإنْ كان للنَّص المصدري أهمِّيَته وقيمته في استقراء الوقائع، فإنَّ للشواهد الأثريَّة قيمتها أيضاً في تأكيد وبرهنت تلك الوقائع التَّاريخيَّة، وبخصوص هذا الموضوع كشفت عمليَّات الحفر والتَّنقيب التي قام بها بعض الأثريين الأوربيين وفرق بحثهم، صحَّة ما ذكرته النُّصوص المصدريَّة حول "غانة"، حيث تمَّ العثور على آثار لبقايا القسم الإسلامي من مدينة "غانة"، كما دلَّت تلك الآثار على ازدهار المدينة التي تَشغل نحو ميل من الأرض وسكَّانها مالا يقل عن ثلاثون ألف نسمة[2].

ولم تكن "غانة" هي المدينة الوحيدة التي انفردت بجزء خاص للمسلمين، بل ظهر هذا الأمر في العديد من المدن التي ورد ذكرها في كتب الرَّحلة ومنها: مدينة "**يرسني**" الواقعة غرب مدينة "**غياروا**" حيث أشار "البكري" بأنَّ سُكَّانها كانوا من المسلمين وأمَّا ما حولها فَهم مُشّركون، والأمر ذاته ينسحب على مدينة "**كوغة**" التي تبعد عن "**غانة**" مسيرة خمسة عشرة يوما[3].

---

[1] – إبراهيم علي طرخان: **إمبراطوريَّة غانة الإسلاميَّة**، منشورات الهيئة المصريَّة العامة للتأليف والنَّشر، القاهرة، (د. ط)، 1970م، ص.21. **ينظر أيضاً**: عبد الرَّحمان السَّعدي: **تاريخ السُّودان**، تح: حماه الله ولد سالم، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2012م، ص.81.

[2] – إبراهيم علي طرخان: المرجع نفسه، ص.35.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.179. **ينظر أيضاً**: الحميري: المصدر السَّابق، ص.504.

ومن خلال استقرائنا للنصوص التَّاريخيَّة يتبيَّن لنا أنَّ الجالية المغربيَّة قد شكَّلت فئة معتبرة ضمن النَّسيج الاجتماعي لمجتمع السُّودان الغربي، وفرضت نفسها داخل الهرم الاجتماعي، وما يؤكد ذلك هو وجود مُمثل لهذه الفئة، أطلق عليه لقب "**شيخ المغاربة**" يقوم مقام القنصل أو السَّفير؛ اليوم فالجالية المغربيَّة اعتادت على اختيار من يُمثِّلها أمام السُّلطات السُّودانيَّة، وإنْ كُنَّا في واقع الأمر نجهل الكثير حول طبيعة هذا المنصب كطريقة تعيينه، ومعايير اختياره وهل كان هذا الاختيار يتمُّ وفق مؤهلات علميَّة أم على أساس المكانة الاجتماعيَّة؟ وهل تلك المهمَّة كانت دائمة أو مؤقَّتة؟ ومن خلال تَتَبُعِنَا لمناطق تواجد واستقرار الجالية المغربيَّة بدا لنا أنَّ المغاربة لم يُمثِّلهم شيخ واحد ومعطيَات رحلة "إبن بطوطة" تؤكِّد ذلك، فالشُّيوخ المغاربة تواجدوا أينما تواجدت الجالية المغربيَّة ففي مملكة "**مالي**" على سبيل المثال كان كبير جماعة البيضان هناك الفقيه "**إبن الجزولي**". وفي "**تكدا**" كان شيخ المغاربة "**سعيد بن علي الجزولي**"[1].

وفي تقديري أنَّ تواجد "شيخ المغاربة" ارتبط بأعداد الجالية الموجودة في المدن، ولهذا نرى تواجدهم كان في المناطق التي عرفت حضورا مكثفاً للمغاربة، وغالباً ما تكون تلك المناطق مراكز تجاريَّة أو تشهد حركة اقتصاديَّة دؤوبة بحكم أنَّ معظم أصناف الجالية كانوا تجَّاراً.

أمَّا عن مهام "**شيخ المغاربة**" فإنَّها تمثَّلت بالأساس في استقبال أفراد الجالية الوافدين على بلاد السُّودان وتوفير سبل الإقامة المريحة لهم، وقد جرت العادة في مملكة "**مالي**" عند وصول أيَّ عربي إلى المدينة أنْ يُقدِّمه رئيس الجالية البيضاء رسمياً إلى البلاط[2] بالإضافة إلى الإشراف على مصالح الجالية المغربيَّة عند السُّلطات

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.710.

[2] – ك. مادهو يانيكار: المرجع السَّابق، ص.472.

المحليَّة فهو الوسيط بين السُّلطان والجالية، وفي غالب الأحيان كان المسؤول عن تَرِكة المغربي المتوفِي هناك[1].

ومما سبق ذكره يتَّضِحُ لنا أنَّ توافد المغاربة على بلاد السُّودان كان بشكل كبير، وأغلبهم كان من فئة التُّجار الذين استطاع أنْ يسجِّلوا حضورهم داخل المجتمع كفئة مُهمَّة وفاعلة في المجتمع السُّوداني، ستكون حاضرة بفكرها ومعتقدها وقيمها وعاداتها وتقاليدها خاصة إذا علمنا أنَّ الجاليات المغربيَّة التي تواجدت في مدن السُّودان كانت مُتميِّزة من حيث النَّوع، وتمثّلت في أسر تجاريَّة، أو علميَّة سكنت مدن السُّودان مؤقتا أو بصفة دائمة[2]؛ فالتّجَّار كانوا علماء وفقهاء يُمارسون التِّجارة، ومن طبيعة التِّجارة أنَّها تصل البائع بالمشتري فهي جِسْرٌ للثقافة ومدِّ جسور التَّواصل في شتى الميادين، فالسُّوق كما هو معلوم مكان للقاء والحديث وتبادل الأخبار ونسج العلاقات، الخاصة منها وكذا العامة – "فالتَّواصل الاجتماعي وتبادل الأخبار خلال عمليَّة البيع والشِّراء هي أشيـــاء لا تقلُّ أهمية عن الصَّفقة التِّجاريَّة ذاتها"[3] وهذا الحضور الفاعل لفئة التُّجار فرض على أهل السُّودان الغربي طريقة راقية في استقبال هؤلاء، منها:

1 – 1 – حسن و حفاوة استقبال الوافدين على المنطقة: فقد جرت العادة في "مملكة مالي" عندما يصلُ أيَّ عربيٍّ إلى المدينة يقدِّمه رئيس الجالية البيضاء رسمياً إلى البلاط، كما إعتاد السُّلطان أنْ يُقدِّم للزائر هديَّة رمزيَّة تعبيراً عن التَّرحيب بقدومه،

---

[1] – مُحمَّد الشَّريف: «الجالية المغربية ببلاد السُّودان(ق8هـ/14م). ملاحظات حول دورها في التَّفاعل الحضاري بين ضفتي الصحراء»، **أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقيَّة على جانبي الصَّحراء**، تق: عبد الحميد الهرامة، كلية الدَّعوة الإسلاميَّة، طرابلس، ط.1، 1999م، ص441 – 442.

[2] – مُحمَّد الشّريف: المرجع نفسه، ص 435.

[3] – مُحمَّد المنصور: «**الوجه الآخر للتِّجارة. التَّبادل التِّجاري كوسيط ثقافي**»، **الذَّاكرة والهوِّيَّة**، منشورات كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الدَّار البيضاء، ط.1، 2013م، ص.50.

ولنا في "إبن بطوطة" خير مثال على ذلك، فقد أَمر لهُ السُّلطان "منسى سليمان" «بحصان ومنحه كلَّ ما يلزمه لإقامة مريحة، كما أنعم عليه بهديَّة مقدارها 33 دوكة»[1]

وإنْ كانت تلك الهدية في ظاهرها تُعبِّرُ على حسن الضِّيافة والكرم، إلاَّ أنَّنا لا نستبعد حضور الهدف الاقتصادي من ورائها، ولربَّما تكون نوعاً من التَّحفيز للتُّجار على التَّوافد لتحريك دواليب النَّشاط الاقتصادي، كما قد يوحي ذلك على أنَّ الهديَّة مُجرد استراتيجيَّة اقتصاديَّة انتهجها ملك "مالي"، وهي تَنمُّ على الذِّهنيَّة البراغماتيَّة للملك.

1 – 2 – توفير كل سبل الراحة والاستقرار للتجار المغاربة الوافدين من الشَّمال: والتي من شأنها أنْ تحفظ لهم استمراريَّة التَّبادل التِّجاري، كما عملت السُّلطة المحليَّة على ضمان حمايتهم ومعاقبة كلَّ من أضرَّ بمصالحهم وأمنهم، وسهَّلت حريَّة تنقلاتهم[2].

كما وَفَّرَ حُكَّام "مالي" الأمن في البلاد لتشجيع التِّجارة بين الشَّمال والجنوب، فعمِلوا على نشر الأمن في ربوع دولتهم «فلا يَخاف المسافر في "مالي" ولا المقبل سارقاً ولا غاصباً»[3].

وقد نال التُّجار المغاربة حظوة كبيرة عند الملوك والأمراء وكانوا يُقيمون في بلاطاتهم حتى أنَّ السُّلطان يُزوِّج بعضهم ببنات البلد؛ ولقد ارتبطت أسرة "المقري" بالطَّبقة الحاكمة فَيشر إلى ذلك صاحب "نفح الطِّيب" بقوله: «.. ثمَّ اتصل بملكهم

---

[1] – ك. مادهو يانيكاز: المرجع السَّابق، ص.472. **ينظر أيضا:** ابن بطوطة: المصدر السَّابق، مج.4، ص.256.

[2] – الهادي مبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصَّحراء**، المرجع السَّابق، ص.79. **وينظر أيضا:** مُحمَّد الشَّريف: المرجع السابق، ص.437.

[3] – لطيفة بشاري: المرجع السابق، ص 76، **ينظر أيضا:** ابن بطوطة: المصدر السَّابق، مج.4، ص.264.

فأكرم مثواه ومكَّنه من التِّجارة بجميع البلاد وخاطبه بالصَّديق الأحبُّ والخلاصة الأقرب»[1]، ويؤكِّد "إبن بطوطة" أنَّ ملك "مالي" كان «يُحِبُّ البيضان ويحسن إليهم»[2] بعد هذا الأثر الواضح والجليِّ في حضور تجَّار المغرب الأوسط وغيرهم من المغاربة في مجتمع السُّودان الغربي، يمكننا طرح سؤالٍ: أين تجلَّت مظاهر هذا التَّأثير؟

2)- مظاهر تأثير فئة التُّجار في النَّسيج المجتمعي السُّوداني:

2 – 1 – الزَّواج وبناء الأسرة: غلب على الزَّواج في مجتمع السُّودان الغربي الطَّابع الوثني، فالزَّواج في نظرهم لا يزيد عن كونه وظيفة للإنجاب والتَّكاثر، ولهذا شاع عندهم تعدُّد الزَّوجات بلا حدود والعلاقات الزَّوجية في نظرهم لا تزيد عن كونها علاقة غريزيَّة لا أكثر، وظلَّ مفهوم الزَّواج عندهم بعيداً عن معناه الحقيقي الأصلي[3].

فمصادر الفترة تؤكِّد على وجود حالة من المُشايعة الجنسيَّة وغياب تنظيم اجتماعي صارم يحكم العلاقات بين الرِّجال والنِّساء، فالإدريسي يُشير إلى أنَّ أهل "**ملل**" أمم كثيرة يتناكحون بغير صدقات ولا حقٍّ ولذلك كثر نسلهم، أمَّا أهل "**زغاوة**" فقد اعتبرهم أكثر النَّاس فساداً ونكاحاً وأغْزرهم أبناء وبناتا، وقلَّما توجد منهم المرأة إلاَّ ويتبعها أربعة أولاد وخمسة، وشبههم في ذلك بالبهائم لأنّهم لا يُبالون بشيء من أمور الدُّنيا إلاَّ ما تعلق بالبطن والجنس[4].

---

[1]- أحمد بن مُحمَّد بن أحمد المقري التِّلمساني: **نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب**، تح: إحسان عباس، **ج.5، ط.1**، دار صادر، بيروت لبنان، 1968م، ص.205 – 206.

[2]- أبن بطوطة: المصدر السَّابق، ص265.

[3]- رضوان هواري: **التَّحولات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في السُّودان الغربي من القرن7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م**، أطروحة دكتوراه تخصص: تاريخ المغرب الإسلامي، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، قسم التَّاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، 2020م، ص.94.

[4] – الإدريسي : المصدر السَّابق، مج.2، ص.110.

ومن الواضح أنَّ هذه الظَّاهرة ظلَّت متواصلة في المجتمع السُوداني إلى غاية (ق.10هـ/16م)، لدى بعض القبائل التي لم يصلها إشعاع الثَّقافة الإسلاميَّة، "فالوزان" أشار إلى استمراريَّة هذا الشَّكل من الإباحية ويشير إلى وجود قبائل لا يمتلكون نظاماً للأسرة، فليس للرجل امرأة خاصة به بل يجتمعون في الليل نساء ورجالاً ويضاجع كلٌّ واحد من تعجبه أكثر من غيرها[1].

ولم تقتصر هذه الممارسات على السُّودانيين المُتمسِّكين بتقاليد المجتمع القديم فحسب، بل شملت حتّى بعض القبائل الصَّحراوية، فصاحب "الاستبصار" يزعم أنَّ أهل "تادمكة" لم يكونوا يتحرَّجون من العلاقات الجنسيَّة المُحرَّمة فكانت نسائهم تتلقين التُّجار إذا أقبلوا إلى بلدهم، ويتقارعن على الرَّجل الجميل منهم أيَّهن تحمله إلى منزلها[2]، ومع ما يحمله النَّص من مبالغة في تصوير مجتمع "تادمكة" الذي يبدو أنَّه مُتقبِّلاً لهذا السُّلوك، في الوقت الذي انتشر فيه الإسلام بينهم؛ وقد تكون هذه المُمارسات محصورة في قبائل مُعيَّنة دون غيرها، ولرُبَّما تكون هذه الصُّورة نوعاً من أنواع الانحرافات التي لا يخلو منها مجتمع.

ولم يعرف المجتمع السُّوداني قبل الإسلام صداقاً ولا عَقداً[3]، ولم يضع حدّاً لعدد النِّساء اللواتي يمكن للرجل الواحد الزَّواج منهن، ولذلك استقلَّ أحد ملوكهم الذي كان تحته عدد كبير من النِّساء بما شرعه الإسلام من عدم الزَّواج بأكثر من أربع نسوة[4]،

---

[1] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.175.

[2] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.223.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.22.

[4] – المسعودي: **أخبار الزَّمان**، ص.87. **وينظر**، حسين بوبيدي: **التَّغيُّرات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في السُّودان الغربي من (ق.5– 10هـ/11– 16م). دراسة في تفاعل المؤثِّرات السُّودانيَّة المغربيَّة**، أطروحة مُقدَّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم تخصص: العلاقات الإقتصادية والثقافية للمغرب الإسلامي بإفريقيا جنوب الصحراء،كلِّيَّة الآداب والحضارة الإسلاميَّة قسم التَّاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة، قسنطينة – الجزائر، 2021م، ص.333.

ولربَّما يكون الدَّافع السِّياسي وراء تكثير الزَّوجات بالنِّسبة للملوك وشيوخ العشائر، وهو الرَّغبة في مُصاهرة عدد كبير من القبائل بهدف إقامة تحالفات اجتماعيَّة وسياسيَّة، بينما ينظر له العامة على أنَّه وسيلة لوفرة اليد العاملة لاسيما الأسر المعاشيَّة[1]

ومن طرق الزَّواج الأكثر شيوعاً عند السُّودانيين هو التَّبادل (رأس برأس) فالرَّجل الخاطب يعطي هو الأخر بالمقابل أخته أو قريبته لقبيلة خطيبته فتتمُّ المبادلة[2].

وغالباً ما كان الزَّواج يشوبه نوعاً من الاستعباد، وصور الزَّواج تلك تدفعنا للتَّساؤل حول مكانة وصورة المرأة في المجتمع السُّوداني باعتبارها عنصراً فاعلا وأساسياً في الأسرة وفي المجتمع؟

2 – 2 – مكانة المرأة في المجتمع السُّوادني: من خلال اطلاعنا المتواضع على ما وفَّرته لنا مصادر الفترة من معلومات بخصوص هذا الشَّأن، نلاحظ أنَّ مكانة المرأة في المجتمع السُّوداني لم تكن على درجة واحدة من حيث الأهميَّة والحقوق، بحيث اختلفت أوضاعهن باختلاف الوسط الاجتماعي و الجغرافي، فكان لبعضهن كامل الحريَّة في تسيير شؤونهم الخاصة، واستطاع البعض الآخر منهن التَّأثير حتّى في الحياة السِّياسية[3]، ومن الأمثلة على ذلك زوجة السُّلطان "**منسى سليمان**" "**قاسا**" فقد كانت شريكته في الملك على عادة أهل السُّودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر[4]، كما أسهمت أمُّ الملك المالي "**منسى موسى الثَّاني**"(775 – 789هـ/1374 – 1387م) في تنصيب زوجها "صندكي" الوزير ملكاً خلفاً لابنها المتوفي[5].

---

[1] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.333.

[2] – بشار أكرم الملَّاح: **التَّحوُّلات التي أحدثها الإسلام في المجتمع الإفريقي**، دار غيداء للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ط. 1، 2013م، ص.88.

[3] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.337.

[4] – ابن بطوطة : المصدر السَّابق، ج.2، ص.701 – 702.

[5] – ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.269.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت المرأة السُّودانية فاعلة في التِّجارة المحلِّيَّة حيث كنَّ يستقبلن التُّجار ليبعن لهم مختلف الحبوب وأنواع المأكل والمشرب[1]، كما كان للمرأة دورٌ مركزيٌّ في النِّظام الاجتماعي يفوق أحيانا دور الرَّجل، ففي بلاد "**برادامة**" الواقعة بين "**غاو**" و"**تادمكة**" تجاوزت مكانة المرأة الرَّجل ومن تزوَّج من نساء هذه القبيلة عليه أنْ يسكن بهن قريباً من دار أهلهن ولا يمكنه أنْ يتجاوز بهن "**كوكو**" و"**ولاته**"[2]، كما كان نساء "ولاته" لا يسافرن مع أزواجهن بل يبقين عند قبائلهن وإنْ أرادت إحداهن ذلك منعها أهلها، في حين ظلَّت صورة المرأة في بعض المناطق الأخرى، مجرَّد خادمة للزوج ومُهمَّتها محصورة في الإنجاب، أمَّا بالنِّسبة لذويها فهي تُمثِّلُ ثروةً تجاريَّة عليهم الاستفادة منها، فكان يُنظر لها بمنظور مادي تتلخص مهامُّها في خدمة الأرض وخدمة الزَّوج ومهمَّة الإنجاب، ولهذا كان بعض الشُّيوخ الأثرياء يقتنونا عدداً كبيراً من النِّساء الجميلات ليلدن لهم أولاداً ليسوا من صُلبهم يشتغلون فيما بعد في حقولهم مقابل توفير طعامهم اليومي[3].

فهي إذن عبارة عن آلة منتجة لليد العاملة ومجرَّد ثروة لابُدَّ من استغلالها ناهيك على أنَّه لم يكن للمرأة أيِّ حقوق تُذكر فلم يكن هناك مُهُور أو صداق أو شيء يحفظ ويَصُون كرامتها، فهي مُجرَّد مصدر للثَّروة فقط ويبدو لي أنَّ المرأة قد خضعت لتلك الأعراف التي فرضها عليها مُجتمعها وعُمِلت على أنَّها خُلقت لأجل مُهمَّة الإنجاب ومُتعة الرُّجل، ولهذا لم يكترث الكثير منهن في المحافظة على عفافهن، إذْ يُسلمن أنفسهن لمن يزور بلادهم من الأغراب[4].

---

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق،ج.2، ص.689.

[2] – ابن بطوطة: المصدر نفسه ،ج.2، ص.709.

[3] – نعيم قدَّاح: **إفريقيا الغربية في ظلِّ الإسلام**، مُرا: عمر الحكيم، وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط.1، 1960م، ص.179.

[4] – بشار أكرم الملاح: المرجع السَّابق، ص.86.

ومع انتشار الإسلام بينهم واحتكاكهم بالجاليات المغربيَّة، بدأت تلك الصُّور الوثنيَّة للزواج تختفي تدريجياً داخل المجتمع، وحلَّ محلُّها نمط ومفهوم آخر للأسرة، خاصة بعد توافد عدد كبير من التُّجار إلى هناك، واتخاذهم لزوجات سُودانيَّات لاسيما أولئك الذين استقروا هناك، أو كانوا كثيري التَّردُّد على السُّودان، فقد أجبرتهم ظروف العمل على ذلك؛ والمعلوم أنَّ التَّاجر المسلم «لم يرسم خطاً لونياً بين الأبيض والأسود فهو يأكل ويتزوَّج من ذوي البشرة السَّوداء ومن ثمَّ فلا نَعجب إذا نظر الزُّنوج للإسلام على أنَّه دين السُّود»[1]، ولا نستبعد في أنْ تكون لشهرة نساء بعض مناطق السُّودان عاملاً مهمّاً ساهم في إقبال التُّجار المغاربة على الزَّواج منهن، فقد أشتهر نساء "**تادمكة**" و"**إيوالاتن**" بجمالهن الفائق[2]، وعُرف عن نساء "**أودغشت**" بأنَّهن «طباخات مُحسنات يحسنَّ عمل الأطعمة الطَّيبة... وأصناف الحلويات»[3]، ومن بين الأسر المغربيَّة التي اتخذ أفرادها زوجات سودانيات "**أسرة المقري**"، حيث أشار صاحب "نفح الطِّيب" لذلك بقوله: «اتخذوا الحوائط والدِّيار وتزوجوا النِّساء واستولدوا الإيماء»[4]، كما زوَّج سلطان مدينة "تمبكتو" بعض تُجار البربر من بنات بلاده[5].

ولقد شكَّلت تلك الزِّيجات البذور الأولى لميلاد أسرة جديدة وفق المنهج الإسلامي، أسرة قوامها المودَّة والرَّحمة، وزواج مُكتمل الأركان يحفظ للمرأة كرامتها، وأصبح المَهرُ حقٌّ من حقوقها ومُنِحَ للزَّوج حقٌّ تَعدُّد الزَّوجات شريطة أنْ يلتزم بما نصَّ عليه الإسلام في أنْ لا يتزوج بأكثر من أربعِ نساء، وساهمت تلك الزِّيجات في ظهور جيل جديد يحمل صفات مشتركة، كما كان لتلك المُصاهرات دورٌ واضحٌ على

---

[1] – زيد بن مُحمَّد الرُّماني: «**التُّجار الدُّعاة**»، **شبكة الألوكة، ينظر الموقع الإلكتروني: http://cp.alukah.net/sharia/0/24062/**. تاريخ الاطلاع: يوم 2020/9/20م، على الساعة: 10:06.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.182. **وينظر**، ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.690.

[3] – البكري: المصدر نفسه، ص.158.

[4] – أحمد بن مُحمَّد المقري: المصدر السَّابق، ج.5، ص.205.

[5] – مارمول كربخال : المرجع السَّابق، ج.3، ص.202.

الأسرة بحيث ظهر في المجتمع نموذج للأسرة البسيطة المكوَّنة من الأب والأم والأبناء، بعد أنْ كانت بعض القبائل مثل: "**الباغان**" و"**الهوسا**" تعيش في أسرٍ تتكون من ثلاثين إلى مائة فرد، فبهذا التَّأثير أصبحت الأسرة السُّودانيَّة المسلمة مستقلَّة[1].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّه إعادة بناء الأسرة السُّودانيَّة وفق القواعد الإسلاميَّة لم يتمَّ بشكل سريع وشامل بل كان تدريجياً وببطيء شديدة، كما أنَّها ظلَّت محصورة في الحواضر الكبرى التي عرفت استقطاب كبيرا للجاليات المغربيَّة المسلمة، فهي في الحواضر الكبرى أنجح منه في الضَّواحي والأرياف والمناطق النَّائية، وفي المدن التي ضمَّت أسراً مغربيَّة أسرع من المناطق التي تطورت فيها الأسر السُّودانيَّة؛ وانطلاقا من هذا يتضح لنا أنَّ مُدُناً مثل مدينة التُّجار المسلمين "**بغانة**" و"**غاو**"، ومحلَّة البيضان "**بمالي**" و"**تنبكت**" مثَّلت المراكز الحضاريَّة الأساسيَّة التي أعادت تشكيل بُنية الأسرة السُّودانيَّة، ومن خلالها توسَّعت هذه المؤسسة في صورتها الجديدة لتشمل مناطق أخرى بحسب إشعاع هذه الحواضر وفاعلية سُكَّانها في ترسيخ هذه القيم وتبيان مناقضة الممارسات القديمة لقواعد الشَّريعة الإسلاميَّة[2].

وعلى الرُّغم من ذلك فقد ظلَّ نموذج الأسر الوثنيَّة منتشراً في العديد من مناطق السُّودان الغربي ولربَّما يرجع ذلك لضعف الحضور المغربي في بعض المناطق، أو إلى تجذُّر العادات الوثنيَّة بينهم؛ ويمكننا ملاحظة ذلك بشكل جليٍّ في الطَّبقة الحاكمة التي استمرَّ عدد من أمرائها في الزَّواج بعدد غير مُحدَّد من النِّساء، كما استمرت عادة تقديم الفتيات الجميلات للملوك دون تزويج. ولنا في السُّلطان "**منسى موسى**" خير

---

[1] – بشار أكرم الملَّاح: المرجع السَّابق، ص.129. **وينظر**، نور الدِّين شعباني: **علاقات ممالك السُّودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضاريَّة بين القرنيين الخامس والتَّاسع الهجريين**، رسالة مُقدَّمة لنيل شهادة الماجستير تخصص: تاريخ المغرب الإسلامي، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة الجزائر(2)، الجزائر، 2006م، ص.206.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.334.

مثال على ذلك، فعلى الرُّغم مما أشتهر به من تديُّن والتزام بالصَّلاة إلاَّ أنَّه لم يكترث إلى ذلك، ولقد أنكر عليه ابن أمير حاجب "**مصر**" ذلك مُنبهاً إيَّاه إلى عدم جواز هذا الأمر، ولا يحلُّ لمسلم ذلك حتّى لو كان من الملوك[1].

فهل استمرار مثل هذه العادات راجع إلى ضعف التَّأثير الإسلامي بينهم أمّ لقوة حضور الأعراف والتَّقاليد الوثنيَّة؟

وبخصوص هذه المسألة يرى الباحث "أحمد الشّكري" أنَّ ظاهرة تعدُّدِ الزَّوجات في المجتمع السُوداني لا ترتبط بحاجات جنسيَّة بقدر ما ترتبط بضرورات اقتصاديَّة واجتماعيَّة أملتها الرَّغبة في إبراز مظاهر الأبَّهة وتأكيد سعة النُّفوذ[2].

ويبدو لي أنَّ هذا الأمر راجع للمكانة والحضور الذي يتبوَّأه الملك في مخيال السُّودانيين، فقد عُرف عنهم تقديسهم للملوك باعتبارهم واسطة بين النَّاس والآلهة، ولهذا كان بعضهم لا يزوِّجون بناتهم إلَّا بعد عرضهن على الملك الذي كان بدوره يعاقب كلَّ من لم يفعل ذلك بفقدان كلَّ أسرته[3].

ومن المُتعارف عليه أنَّ مؤسَّسة الأسرة لا تتكوَّن من الأب والأمِّ فحسب وإنَّما تشمل الأبناء أيضاً باعتبارهم جزء فاعل و مُهمٌّ في هذه الخليَّة، وهذا ما يدفعنا للتَّساؤل عن وضعية الأبناء داخل الأسرة السُّودانيَّة؟

في واقع الأمر لم تُسْعفنا المصادر المتوفِّر بمعلومات كافية بخصوص هذا الشَّأن فكُلُّ ما توفَّر بخصوص هذا الجانب كان عبارة عن إشارات مُقْتضبة لا تسمح لنا برسم صورة شاملة حول وضعيَّة الأبناء داخل الأسرة، ومن أهمِّ الظَّواهر التي

[1] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.69.

[2] – أحمد الشّكري: المرجع السَّابق، ص.231.

[3] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.336.

طَبعت المجتمع السُّوداني الوثني تلك الحالات الكثير للوأد، التي كانت تطال المواليد الجُدد بسبب بعض المعتقدات الأرواحيَّة التي تربط بينه وبين ما قد يحلُّ على الأسرة أو القبيلة من الضَّرر كالتَّخلُّص من الطَّفل المشوَّه أو المولود من امرأة لاتحلُّ الأعراف المحلِّيَّة الزَّواج بها، أو ذلك الذي يُولد قبل أنْ يتمَّ فطام سابقه، وكانت عمليَّة الوأد تتمُّ بطرق بالغة الوحشيَّة[1] .

وقد تراجعت هذه الظَّواهر وبدأت بالاختفاء تدريجياً بعد انتشار الإسلام، حيث تغيَّرت وضعيَّة الطِّفل بتأثير الإسلام وفعاليَّة الجالية المغربيَّة المسلمة القاطنة هناك، بحيث أصبح السُّودانيون يحتفون بالمولود الجديد، وعملوا على العناية بأبنائهم وبتعليمهم وذلك بإدخالهم إلى الكتاتيب بهدف تعلُّم وحفظ القرآن الكريم، وبلغ الأمر ببعضهم إلى معاقبة أولادهم على عدم الحفظ؛ ولقد أشار "ابن بطوطة" إلى هذا الأمر خلال حديثه عن الأفعال الحسنة للسُّودانيين[2].

وبهذا يكون السُّودانيون قد مزجو بين أعرافهم المحلِّيَّة وبين ما تعلَّموه من أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة وتلقَّوه من الجاليات المغربيَّة، لإعادة بناء أسرهم وتنظيم علاقات أفرادها وبدأت التَّقاليد القديمة تَعرف تراجعاً وانحسار بسبب تغيُّر نظرة المجتمع لها، إلاَّ أنَّ هذا التَّغيير ظلَّ متفاوت من منطقة إلى أخرى، فالأطراف البعيدة عن مراكز الإشعاع العلمي بقيت محافظة على أعرافها [3].

2 – 3 – اللِّباس والزِّينة: إنَّ المتأمِّل في وضعيَّة اللِّباس ببلاد السُّودان من خلال ما رصدته كتب الجغرافيا والرِّحلة التي اهتمَّ أصحابها برصد ثقافات وعادات الشُّعوب في

---

[1] – محمود سلام زناتي: **الإسلام والتَّقاليد القبليَّة في إفريقيا**، دار النَّهضة العربية، بيروت، **ط.1**، 1969م، ص.120 – 122.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، **ج.2**، ص.704. **وينظر**، بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.340.

[3] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.341.

جميع النَّواحي، يُلاحظ أنَّ الغالب على أهل السُّودان سِمَة التَّعرِّي، إلى الحدِّ الذي صار صفة ملازمة لهم، فوصفوا في بعض المصادر "**بالسُّودان العراة**"[1]، واستمرَّت ظاهرة التَّعرِّي تلك حتى بعد احتكاكهم بالمسلمين فقد رُصدت هذه الظَّاهرة في مناطق مُتعدِّدة فأهل "**سامة**" مثلاً «كانوا يمشون عراة إلَّا أنَّ المرأة تستر فرجها بسيور مضفورة"[2] في حين اقتصر لباس بعضهم على أوراق الشَّجر وجلود الحيوانات يسترون بها عوراتهم[3]

ولقد تمكَّن الحضور المغربي في العديد من المراكز السُّودانيَّة من التَّخفيف من هذه الظَّاهرة لاسيما بعد المُصاهرات التي تمَّت بين الكثير منهم ومخالطتهم للتُّجار، فقد كان زَيُّ التَّاجر المسلم الجميل وملابسه البيضاء محلَّ اهتمام وجذب وتأثير لدى السُّودانيين، ولا ريب في ذلك فالزَّيُّ المغربي كان محلَّ إعجاب ملوك السُّودان أيضاً، فقد عبَّر ملك "**الصُّوصو**" عن إعجابه بهيئة سفير الإمام "**أفلح بن عبد الوهاب**" بقوله: «أنت حسن الوجه، حسن الهيئة والأفعال»[4].

ومِمَّا شَجَّع السُّودانيين على التَّشبُّه بزيِّ المغاربة هو وفرة المنسوجات القُطنيَّة والصُّوفيَّة في الأسواق السُّودانيَّة، حيث كانت تلك المنسوجات من أهمِّ السِّلع التي يتمُّ نقلها لبلاد السّودان، "فالمغرب الأوسط" عُرف بإنتاجه الوفير للمنسوجات القطنيَّة والصُّوفيَّة واشتهرت العديد من مدنه بالصِّناعة النَّسيجيَّة التي عرفت رواجاً وازدهاراً كبيراً، منها: مدينة "**تيهرت**" التي اشتهرت «بصناعة المنسوجات الصُّوفيَّة والكتانيَّة

---

[1] – مؤلف مجهول: **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، تح: يوسف الهادي، الدَّار الثَّقافية للنشر، القاهرة، ط.1، 1999م، ص.148. **وينظر**، المسعودي: المصدر السَّابق، ص.87. **وينظر أيضاً**، المهلبي: المصدر السَّابق، ص. 54.

[2] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.299.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.28. **وينظر**، أبو العباس أحمد القلقشندي: **صبحى الأعشى في صناعة الإنشا**، المطبعة الأميريَّة، القاهرة، ط.1، 1915م، ج.5، ص.285.

[4] – الباروني: **الأزهار الرياضية**، ج.2، ص.223.

والقطنيَّة والحريريَّة وكانت المنسوجات الصُّوفيَّة والكتانيَّة من أهم السِّلع التي يصدِّرها الرُّستميون إلى السُّودان الغربي[1]. واشتهرت مدينة "**تلمسان**" أيضاً بصناعة الصُّوف حيث كان «يُعمل فيها من الصُّوف كلَّ شيء بديع ويُوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواقٍ ونحوها»[2]، وانتشرت بها أيضاً معامل ضخمة لحياكة الصُّوف، وقد اشتهرت أسرة "**عبد الله بن النَّجار**"«بامتلاكها لمعامل ضخمة لحياكة الصُّوف الرَّفيعة بتلمسان وكانت تَرده التُّجار من كلِّ بلاد إفريقيا والسُّودان الغربي بعد أنْ طوَّر الصِّناعات النَّسيجيَّة ونَمَّاها»[3]؛ ولقد كانت هذه المنسوجات تلقى رواجاً وإقبال كبيراً في العديد من المدن والمراكز التِّجاريَّة ببلاد السّودان الغربي.

2 – 3 – 1 – لباس أهل غانة: شكَّل اللِّباس في مملكة غانة أحد أهمِّ مظاهر التَّمايز الطَّبقي، فلم يَكن يلبس المخيط من الثِّياب سوى الملك ووليِّ عهده، وهذا ما أشار إليه "البكري" في قوله: «... ففي مملكة "**غانة**" كان لا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير وليِّ عهده، وكان الملك يرتدي إزارَ حرير يتوشَّح به، أو بُردة يلتفُ بها وسراويل في وسطه، ونعل شركي في قدمه، وله زيٌّ كامل... وكان يجعل على رأسه الطَّراطير المذهَّبة، عليها عمائم القطن الرَّفيعة»[4].

ولربَّما هذا يُحيلنا إلى التَّقاليد المشتركة بين الصَّحراويين والسُّودانيين، أو إلى التَّأثير المغربي الإسلامي المبكِّر على الألبسة السُّودانيَّة حيث نظر هؤلاء إلى الأزياء المغربيَّة على أنَّها علامة للرُّقي والتَّحضُّرِ فتشبَّهوا بالتُّجار المسلمين[5].

---

[1] – مُحمَّد عبده سوادي، صالح عمَّار الحاج: **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، منشورات المكتبه المصريَّة، القاهرة، ط.1، 2004م، ص.223.

[2] – الزُّهري: المصدر السَّابق، ص.113.

[3] – مُحمَّد بن مرزوق التِّلمساني: المصدر السَّابق، ص.188.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175. وينظر، الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.24.

[5] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.344.

أمَّا الوزراء فكانوا يلبسون ملابس فضفاضة ومآزر، بينما يلبس عامة النَّاس ملاحف القطن والحرير والدِّيباج مصبَّغة بالحمرة كلٌّ على قدر هِمَّتِهِ وأحواله[1]. وتشابه لباس أهل "**تادمكة**" بما تلبسه قبائل المُلثَّمين باعتبار المنطقة ضمن مجالاتهم الصَّحراويَّة رغم عدِّها من بلاد السُّودان، فقد كان الملك يلبس "عمامة حمراء وقميصا أصفر وسراويل زرقاء" ويلبس العامة الثِّياب المُصْبغة بالحُمْرة من القطن وغيره[2].

2 – 3 – 2 – لباس أهل مالي: أمَّا مملكة "**مالي**" فكان لباس الملوك فيها أكثر تأنُّقاً من غيرهم، ولباس الملك كان عبارة عن جُبَّة حمراء مُوبَّرة من الثِّياب الرُّوميَّة التي تسمَّى "**المطنفس**"، ويضع على رأسه شاشيَّة ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السَّكاكين رقاق، طولها أزيد من شِبر[3].

أمَّا الأعيان فكانوا يرتدون الملابس الفاخرة المزخرفة بالذَّهب فالتُّرجمان على سبيل المثال: كان يرتدي ثياباً من الزَّردخانة ويضع على رأسه عمامة ذات حواشي، كما كان يضع في رجله خفا ومهاميز[4]، أمَّا العلماء فكان لباسهم أبيض اللون مع عمامة زرقاء وفي المناسبات كان القاضي والفقيه والخطيب يرتدون الطَّيلسان[5].

---

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.24. **وينظر**، البكري: المصدر السَّابق، ص.176.

[2] – البكري: المصدر نفسه، ص. 176 – 181.

[3] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.698. **وينظر**، ك، مادهو ينيكار: المرجع السَّابق، ص.467.

[4] – ابن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.697.

[5] – مُحمَّد غربي: **بداية الحكم المغربي في السُّودان الغربي** " **نشأته وآثاره**" ، إش: نقولا زياده، مؤسسة الخليج للطباعة والنَّشر، الكويت، ط.1، 1982م، ج.1، ص.609.

ولعل تأنُّقِ اللِّباس في مملكة مالي يعود إلى التَّأثيرات المشرقيَّة في الحضارة السُّودانيَّة خاصة، وأنَّ السُّودانيين قد عادوا منذ القرن 8هـ/14م إلى استخدام طريق مصر عبر الواحات اللِّيبية، وهو مـا أدى إلى ازدياد التَّأثير المشرقي[1].

أمَّا العامة فكان لباسهم شبيه بزيِّ المغاربة، وفقاً لما ذكره "العمري" وهو عبارة عن «عمائم تُحنَّك مثل العرب وجباب ودراريع بلا تفريج أو تخريج، وقماش ملابسهم لونها أبيض من ثياب القطن الذي يكثر عندهم، وتعرف عندهم "**بالكميصا**"، وتنسج في غاية الدِّقة واللطف»[2].

أمَّا التُّجَّار فكانوا يرتدون الدَّراريع والسَّراويل على اختلاف طولها واتساعها مع عمامة كبيرة يلبسها الرَّجل والمرأة تسمى "**ديالاموكو**"[3] .

ويرتدي عامة أهل "التَّكرور" الملابس الصُّوفيَّة ويضعون على رؤوسهم "**الكرازي**" المصنوعة من الصُّوف، أمَّا لباس النُّبلاء فهو أكثر تأنُّقاً ويتمثل في ارتداء الملابس القطنيَّة والمآزر، خاصة من خالط البيض منهم، وهو ما أشار إليه "ابن سعيد" بقوله: «الغالب على لباس سودان التُّكرور وغيرهم الجلود، ومن خالط البيض منهم وتخصَّص اتخذ لباسه من الصُّوف والقطن وذلك مجلوب إليهم»[4].

أمَّا لباس عامة أهل "**كوكو**" جلود الحيوانات يسترون بها عوراتهم، أمَّا تُجَّارهم فكانوا «يرتدون القداوير والأكسية وعلى رؤوسهم الكرازي وحليِّهم الذَّهب وجُلُّهم يلبسون الأزر وهم يُداخلون التُّجَّار ويجالسونهم ويبضعونهم البضائع»[5].

---

[1] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.344.

[2] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.65. **وينظر**، القلقشندي: المصدر السَّابق، ج.5، ص.299.

[3] – مُحمَّد غربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.609.

[4] – ابن سعيد المغربي: المصدر السَّابق، ص.91.

[5] – الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.28.

ومن الألبسة المغربيَّة التي شاع انتشارها في بلاد السُّودان "**البرنس**" وهو اللباس التَّقليدي الخاص بفصل الشِّتاء[1]، وانتشر "البرنس" بين أهل السُّودان وأستُعمل من الصُّوف الخشن وكان ذا لونين "البني" و"الأزرق"، ويبدو لي أن استعماله كان مقتصراً على طبقة الفقهاء والقضاة دون غيرهم، ولعل في إشارة "السَّعدي" عن الفقيه "**مُحمَّد ساقوا الونكري**" ما يؤكد ذلك، فقد ذكر بأنَّه عندما أدركته صلاة المغرب في سفره بسط برنُسه يصلي عليه[2]، ولاشكَّ في أنَّ تقليد السُّودانيين للمغاربة في زيِّهم كان حصيلة قرون طويلة من التَّعايش والتَّأثير والمُثاقفة.

أمَّا بخصوص لباس النِّساء فلم نَقف في المصادر المتاحة لنا ما يشير إلى ذلك ماعدا بعض الإشارات العابرة التي وردت عند بعض الرَّحالة، "فابن بطوطة" أشار إلى زيِّ نساء التُّرجمان في مملكة "مالي" وذكر: «... بأنّ عليهن اللباس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذَّهب والفضة فيها مفاتيح ذهب وفضة»[3]، أمَّا نساء "تمبكتو" و"ولاته" فقد انتشر بينهم لبس الحجاب، فيشير الرَّحالة "مارمول" إلى أنَّ نسوة "تمبكتو" و"ولاته" مُحجَّبات مُلثَّمات باستثناء الإيماء منهم، ويرتدي نساء "**جني**" اللِّثام المصنوع من القطن باللون الأزرق والأسود[4].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ اللِّباس كان أكثر تأنُّقاً في المراكز التِّجاريَّة التي يقصدها التُّجار كثيراً ويختلف باختلاف المجموعات البشريَّة والثَّقافيَّة والمناطق والفصول، وإذا كان أهل السُّودان قد تأثَّروا بالمغاربة في لبس الصُّوف والقطن والحرير، فإنَّهم قد حافظوا على خصوصيتهم الثَّقافيَّة التي نلمسها في طبيعة الألوان

[1] – المقديسي: المصدر السَّابق، ص.239.

[2] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.118.

[3] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.699.

[4] – مارمول كربخال: المرجع السَّابق، ج.3، ص.193.

المُتخذة، كالأحمر، والأصفر والأزرق؛ فسلطان "**تاكده**" عند لقاءه "بابن بطوطة" كان يرتدي ملحفة وسراويل وعمامة كلُّها زرق[1].

ولربَّما تُحيلنا تلك الألوان إلى رمزيَّة الطَّبيعة التي ينتحي منها الإنسان لباسه أو لما توفِّره البيئة الإنتاجيَّة من قماش؛ ولايزال استعمال تلك الألوان شائع لليوم في تلك المناطق؛ ويمكننا ملاحظة عمق التَّأثير المغاربي في المناسبات التي يبرز فيها تأثيرهم بشكل واضح وجليٍّ لاسيما في الأعياد ويوم الجمعة حيث حرص أهل السُّودان الغربي فيها على التَّأنق ولبس النَّظيف وارتداء الملابس ذات اللون الأبيض وهذا ما أكَّده "ابن بطوطة" الذي شهد يوم الجمعة ومناسبة العيد في مملكة "مالي"[2].

وعلى الرُّغم من انتشار وتنوُّع الألبسة في مجتمع السُّودان الغربي، فقد ظلَّ الحجاب أمراً غير مُسْتساغ ومقبول في العديد من المناطق، **فهل هذا راجع إلى عدم تقبل بعض السُّودانيين لهذا الأمر أمْ أنَّ العادات والأعراف المَحليَّة كانت أكثر قوَّة وحضوراً من تعاليم الإسلام؟**

ففي القرن 8هـ/14م رصد لنا "ابن بطوطة" استمرار ظاهرة التَّعرِّي في المجتمع السُّوداني وهذا من خلال ظهور الخدم والجواري والبنات الصِّغار عاريات باديات العورات كما كان النُّسوة يدخلن على السُّلطان عاريات غير مستترات، ولم يتحرَّجن عن ذلك حتَّى في شهر رمضان وهنَّ يقمن بإفطار الصَّائمين[3].

ويرى أحد الباحثين أنَّ سبب ذلك راجع إلى تعامل السُّودانيين مع جسد المرأة، حيث تعاملوا معه كمُعطى اجتماعي عـادي، ولم يُحاولوا أنْ يصبغوا عليه حُرمة أو قدسيَّة تمنحه تميُّزاً مُعيَّناً في نظر المجتمع، ومع تلاحق القرون اكتسبت الظَّاهرة

[1] – ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.2، ص.712.

[2] – إبن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.703.

[3] – إبن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.704.

مِصداقيَّة اجتماعيَّة، صَعُبَ على التَّعاليم الإسلاميَّة مقاومتها في فترة وجيزة، فكان على الإسلام أنْ ينتظر طويلاً حتّى يتمكَّن المجتمع السُّوداني من إحداث قطيعة جذريَّة مع عادة التَّعرِّي[1].

وهو ما وقع حقيقية في بلاد السُودان بعد خمسة قرون من حضور الإسلام بالمنطقة، حيث يُطلعنا صاحب "تاريخ الفتَّاش" على قصة تُمكِّننا من رصد المؤشِّرات الدَّالة على الانقلاب الجذري لنظرة السُودانيين إزاء التَّعرِّي، ومفاد القصَّة يُخبرنا أنَّ السُّودانيين قد أصبحوا يَعُدُّون تلك العادة بمثابة خطيئة[2].

وفي تقديري أنَّ هذا الأمر يَعود لسببين رئيسيين، يتعلَّق الأوَّل: بغياب تصوُّر ومفهوم واضح حول السِّتر لدى السُّودانيين، والثَّاني: يتعلَّق بالمنظومة القيميَّة التي كانت تؤطِّر المجتمع والتي لم ترى أيَّ حرج في خروج المرأة عارية.

2 – 3 – 3 – الحليُّ والزِّينة: اهتمَّ أهلُ السُّودان بالزِّينة واشترك في ذلك النِّساء والرِّجال، الخاصة والعامة، وتفيدنا بعض النُّصوص المصدريَّة بأنَّ بعض الرِّجال يضعون فوق رؤوسهم قرونا من عظام الدَّواب ويتحلَوْنَ بخرز الزِّجاج والأساور والخواتيم والحلق النُحاسيَّة[3]، ويذكر "البكري" أنَّ من أفضل الحُليِّ الذي كان يفضِّله أهل "غانة" ويبذلون فيها الرَّغايب ما كان من حجارة تسمَّى "**تاسي النَّسمت**" ويتوفَّر هذا المعدن في المُجابة الثَّانية على الطَّريق الرَّابط بين "**تادمكة**" و"**غدامس**". وربَّما كان في الحجر الواحد منه ألوان من الحُمرة والصُّفرة والبياض[4].

---

[1] – أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.233.

[2] – محمود كعت: المصدر السَّابق، ص.73. **ينظر**، أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.233.

[3] – المسعودي: المصدر السَّابق، ص.88. **ينظر**، القزويني: المصدر السَّابق، ص.19.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.182.

وكان لملك "**غانة**" حليَّه الخاصة به أيضاً، حيث أشار "البكري" إلى أنَّه كان يتحلَّى بحُليِّ النِّساء في العنق والذِّراعين[1].

ويعتبر الوشم إحدى مظاهر الزِّينة لدى السُّودانيين، فأهل "بربرة" كما ذكر "الزُهري" كانوا مَوسومون رجالاً ونساء بتشاريط في وجوههم لكي يمتازوا بها عن غيرهم[2]، وكذلك أهل "لملم" كانوا إذا بلغ أحدهم الحُلم وُشِّمَ وجهه وصدغاه بالنَّار[3]، وإذا كان الوشم يُشكِّل مظهراً من مظاهر الزِّينة فإنَّه وسيلة أيضاً لتأكيد هُويَّة المجموعات القبليَّة وتمييز بعضها عن بعض وتعزيز الانتماء، بحيث كان لكلِّ قبيلة وشمٌ مُعيَّنٌ تتميَّز به عن غيرها[4].

ومن عادات أهل "غانة" الوثنيَّة أنْ يحلِّق الرِّجال لحاهم، أمَّا النِّساء فمنهن من تحلِّق شعرها ومنهن من تحافظ عليه وترسله، ويظفر الفتيان من أبناء الطَّبقات الموسرة رؤوسهم بأنواع الذَّهب[5] .

ومع انتشار الإسلام أولى السُّودانيون عناية أكثر بزينتهم ففي القرن 6هـ/12م وصف ملوك "**غانة**" و"**كوكو**" بأنَّ لهم حلية حسنة، ولبس الأغنياء في "**كوكو**" و"**تكرور**" حلية الذَّهب، أمَّا العامة فظلُّوا يتزيَّنون بالخواتم النُّحاسيَّة والزُّجاجيَّة والخرز

---

[1] – البكري: المصدر السابق، ص.175.

[2] – الزُهري: المصدر السَّابق، ص.126.

[3] – الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص.19.

[4] – آدم بمبا: «**المرأة في إفريقيا قراءة في العادات**»، **مجلة قراءات، ع.23**، يصدرها المنتدى الإسلامي، الرِّياض، يناير – مارس/2015م، ص.91.

[5] – البكري: المصدر السابق، ص.175. **ينظر**، بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.351.

والأساور التي كانت تَصلهم من بلاد المغرب[1]، وفي القرن 8هـ/14م تُزيِّن نساء الطَّبقة الخاصة والأثرياء بعصائب على رؤوسهن فيها مفاتيح من ذهب وفضة[2].

وفي مملكة "مالي" كانت حلية الأمراء أساور من الفضَّة تُشبه ركاب السِّرج، وكانت حلية الذَّهب تُعبِّر على رتبة ودرجة الفروسيَّة، إذ يلبس الأبطال أساور من الذَّهب وإذا زادت فروسيَّته أضاف لها أطواقا، ثمَّ خلاخل من ذهب[3].

وعلى الرُّغم من وفرة الذَّهب ببلاد السُّودان، إلاَّ أنَّ حُليَّ العامة كان من النُّحاس والزُّجاج وبعض الأحجار الكريمة، أمَّا الذَّهب فيبدو أنَّه كان مُقتصراً على الطَّبقة الخاصة والأثرياء فقط. **فهل هذا يعني أنَّ الذَّهب كان محتكراً من حيث البيع والاستخدام على هذه الفئة فحسب؟**

وعلى غرار الحُليِّ فقد اهتم السُّودانيون باستعمال العطور والحناء التي كانت تُسْتخرج من ثمار شجرة تسمى "تادموت"، حيث مثَّلت الحناء في اليدين والقدمين إحدى مظاهر تأثُّر السُّودانيين بالتَّقاليد البربريَّة والعربيَّة، كما كانوا يدهنون شعورهم بأنواع من الزُّيوت المحلِّيَّة، واستعمل السُّودانيون الصَّابون حيث كانوا يستخرجونه من ثمار شجرة " قارتي"[4].

2 – 4 – المأكل: من البديهي أنْ يحتلَّ الطَّعام مكانة هامة في حياة الإنسان إذْ أنَّه به قوامه واستمراره والطَّبيعة البشريَّة مجبولة على حُبِّ التَّنوُّع، ولعل الطَّعام من أبرز الأمور التي لا يسع الإنسان أنْ يصبر على نوع واحد منها، **قال الله تعالى:** ﴿**وَإِذْ**

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، ج.1، ص. 24 – 28. **وينظر**، القزويني: المصدر السَّابق، ص.19.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.699.

[3] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.65.

[4] – العمري: المصدر نفسه، ج.4، ص.62 – 63.

قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[1]، لذلك سعى الإنسان في إحداث هذا التَّنويع من خلال تنقلاته في البيئات المختلفة «فالطَّعام حاجة بيولوجيَّة يسعى الإنسان لإشباعها في كلِّ الثَّقافات بالعالم تبعا لما يتوفَّر في البيئة من موارد»[2].

ولقد أمدَّتنا المصادر بمعلومات في غاية الأهمِّيَّة حول أطعمة السُّودانيين وأشارت إلى تميُّز المطبخ السُّوداني، وبراعة السُّودانيَّات في الطَّهي وصناعة مختلف الحلويَّات، ولعل هذا ما جعل التُّجار المغاربة يُقبلون على شراء هؤلاء الجواري الماهرات في هذا الفنِّ بالرَّغم من ارتفاع أثمانهن[3].

والغالب على موائد أهل السُّودان أكل الذُّرة، والسَّمك، والألبان، فطعام أهل "**سلى**" و "**التُّكرور**" كان من السَّمك والذُّرة والألبان، بينما كان أكثر معايش أهل "**لملم**" و"**مداسو**" من الحوت، أمَّا المناطق البعيدة أو التي لا يمرُّ عليها النِّيل – نيل السُّودان – فقد اختلف طعامهم عن المدن الأخرى، فطعام سائر أهل "**أودغشت**" على سبيل المثال كان من الذُّرة، باستثناء الملك وأهل اليسار منهم فإنَّ طعامهم كان من القمح، بينما كان عيش أهل "**تادمكة**" على اللحم واللبن وحبٌّ تنبته الأرض من غير اعتمال[4].

وقد يكون هذا راجع إلى الظُّروف المُناخيَّة التي تؤثِّر على النِّظام الغذائي للإنسان وتتحكَّم فيه؛ وكما هو معلوم أنَّ «النِّيل يجري في هذه الأرض من المشرق

---

[1] – سورة البقرة: الآية.61.

[2] – توفيق الحسيني عبده: «**الطّعام، الثّقافة، السُّكان، دراسة في أنثروبولوجيا الطّعام**»، مجلَّة الدِّراسات الإفريقيَّة، ع.16، معهد البحوث والدِّراسات الإفريقيَّة، القاهرة، 1994م، ص.44.

[3] – وردت هذه الإشارة عند البكري خلال وصفه لمدينة "أودغشت". **ينظر**، البكري: المصدر السَّابق، ص.158. **وينظر أيضاً**، بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.360.

[4] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.63 و 128.

إلى المغرب وفيه أنواع السَّمك وضروب من الحيتان الكبار والصِّغار ومنه طعام أكثر السُّودان يتصيدونه ويملحونه وهو في غاية الحسن والغلظة»[1].

أمَّا مملكة "**مالي**" فقد اختلف فيها الطَّعام عن بقيَّة المدن الأخرى وهذا راجع إلى طبيعة مُناخها حيث يَصفها "العمري" بأنَّها "شديدة الحرِّ، قشفة المعيشة، قليلة أنواع الأقوات»[2] ولهذا كان أغلب أقواتهم تعتمد على الأرز، وأشتهر عندهم نوع من الحبوب يسمَّى "**الفوني**"، حيث كان يُعجن ويعمل منه الخبز، ومن أنواع المأكولات عندهم "**القطانيا**" و"**القافي**"، هذا الأخير كان من الأطعمة المُفضَّلة عندهم عن سائر الطَّعام، وعرفت مملكة "**مالي**" زراعة أنواع عديدة من الخضروات منها: اللِّفْتُ والقرع والبصل والثُّوم والباذنجان واللُّوبيا، وإلى جانب الخضروات اشتهرت "**مالي**" أيضاً بكثرة فواكهها منها "الجُمِّيز" وهو كثير عندهم، كما كانت تطلع عندهم أشجار بريَّة ذوات ثمار مأكولة مستطابه[3]، وانتقلت إليهم بعض الفواكه عبر تُجَّار الحواضر الصَّحراويَّة ولاقت إقبالاً كبيراً عليها، منها: "**التَّمر**" الذي كان يُجْلب إليهم من بلاد "**سجلماسة**" أو بلاد "**الزَّاب**" يجلبه إليهم أهل "**وارجلان**"[4].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ الطَّعام في بلاد السُّودان اختلف باختلاف طبقاتهم، فموائد العامة غلب عليها استهلاك السَّمك والأرز والذُّرة، أمَّا موائد الخاصة فقد استعاضت عن ذلك بلحوم الغنم والإبل وقلّما تتناول الأسماك، ولم يظهر الأرز في موائدهم إلَّا بشكل ثانوي[5].

---

[1] – الإدريسي: المصدر السّابق، ج.1، ص.20.

[2] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.59.

[3] – العمري: المصدر نفسه، ج.4، ص.62.

[4] – الحميري: المصدر السَّابق، ص.64.

[5] – مُحمّد الغربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.612.

وعلى الرُّغم من وفرة وتنوُّع الطَّعام ببلاد السُّودان إلَّا أنَّ البعض لم يستسغه ولم يروق للأجانب خاصة المغاربة منهم، فقد مرض "ابن بطوطة" وهو في مملكة "**مالي**" بسبب تناوله لإحدى الأطعمة المشهورة عندهم ودام مرضه لمدَّة شهرين، وعبَّر في موضع آخر عن عدم إعجابه بإحدى الأطعمة المشهورة هناك حين دعاه مشرف "**إيوالاتن**" بقوله: «**ألهذا دعانا الأسود**»، كما استصغر الضِّيافة التي بعثها له سلطان مملكة "**مالي**" "**منسى سليمان**" والمتمثِّلة في «ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلوٍّ، وقرعة بها لبن رائب»، وقد أبدا "ابن بطوطة" تعجُّبه من تعظيم القاضي والفقيه لها[1].

فلا غرو إذن بأنْ تتمسك الجالية المغربيَّة بمأكولاتها التي شاعت وسط أهل السُّودان وسجَّلت حضورها القويّ على موائدهم، لاسيما لدى الطَّبقة الخاصة والمتوسِّطة، ومن أبرز تلك المأكولات "**الكسكسي**" وكان الغذاء المُفضَّل لدى الفئة المُترفة، وعرفوا أيضاً أكل لحم الغنم المطبوخ أو المشوي أو الملفوف في شرائح العجين المتناهي الدِّقة، كما عرف أهل السُّودان من الجالية المغربيَّة أكل لحم الضَّأن والطُّيور كالدَّجاج والإوز[2].

ونجدهم عرفوا أيضاً أنواعاً عديدة من الحلويات، مثل: القطايف والمُربى، أمَّا المشروبات فقد شاع عندهم مشروب يعرف بـِ **عرق البلح**"[3].

---

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.696.

[2] – مسعود خالدي: «**أثر الجاليات العربيَّة والبربريَّة على الحياة الاجتماعيَّة في السُّودان الأوسط والغربي بين القرنيين الخامس والعاشر الهجريين/الحادي عشر والسَّادس عشر الميلاديين**»، مجلَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، **مج. 11، ع.1**، تُصدرها كلِّيَّة الآداب والحضارة الإسلاميَّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة، قسنطينة – الجزائر، جوان/2018م، ص.184.

[3] – ك. مادهو يانيكار: المرجع السَّابق، ص.486.

ويبدو لي أنَّ هذا التَّأثير قد اقتصر على الطَّبقة الخاصة والميسورة، ولا يمكن أنْ يكون قد طال عامة السُّكان نظراً لتكلفته، ولهذا من الممكن أنْ يكون قد شاع ضمن فئة مَحدُدة دون سواها كما أنَّ هذا التَّأثير لم يقف عند ظهور أطباق وأصناف جديدة من الطَّعام بل ذهب لأبعد من ذلك، حيث أدخل المغاربة تقليداً فيما يخصُّ وجبات الطَّعام اليوميَّة، تمثَّل في تناول طعام العشاء الذي لم يختلف عن طعام الغذاء من حيث الدَّسامة والتَّنوُّع[1].

وبما أنَّ موائد أهل السُّودان قد تَنوَّعت وتعدَّدت من حيث الأنواع والمُصنَّفات، فلا نستبعد أنْ يكون هناك تنوُّع أيضاً في الأواني التي قُدِّمت فيها تلك الأطباق، لاسيما وأنَّ عمليَّات التَّنقيب الأثريَّة قد كشفت عن استخدام السُّودانيون لمختلف أنواع الفخَّار في حفظ الطَّعام وتخزينه وطهيه، وقد تمَّ العثور على أواني فخاريَّة بمدينة "**أودغشت**" تعود إلى عهد الدَّولة الرُّستميَّة، كما كشفت حفريَّات أجريت في مدينة "**كومبي صالح**" و"**نياني**" عن وجود أنواع مختلفة من الأواني الفخَّاريَّة منها ما هو مُزيَّن

بالزُّجاج الأخضر والأصفر[2] .

وورد في المصادر ما يُشير إلى استعمال السُّودانيين للموائد للاجتماع عليها عند تنظيم الولائم؛ ويبدو أنَّ استعمالها كان محصوراً على طبقات معيَّنة فحسب[3].

ولا يمكننا استبعاد ذلك خاصة وأنَّ القوافل التِّجاريَّة مع مرور الزَّمن شهدت نقل سلع كماليَّة، وقد كانت بعض الأواني الفخاريَّة والطِّين من ضمن السِّلع التي نقلها

[1] – مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.612.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.366.

[3] – محمود كعت: المصدر السَّابق، ص.106 و 218.

التُّجار نحو السُّودان، خاصة أنَّ المغرب الأوسط قد اشتهر بالصِّناعات الطِّينيَّة والفخاريَّة.

وإلى جانب ذلك فقد التزم السُّودانيون بآداب الأكل خاصة بعد انتشار الإسلام بينهم وتأثير الحضور المغربي فيهم، فقد أصبح الملوك يأذنون في الأكل معهم للشخصيَّات ذات المكانة الاجتماعيَّة، وعلى رأسهم الفقهاء والشُّرفاء، وكانوا قبل هذا لا يتناولون طعامهم إلاَّ سرًّا وبعيداً عن الأعين. لقد أظهر السُّودانيون في ثقافتهم الغذائيَّة تجاوزهم للمرحلة البدائيَّة التي تنظر للطعام مُجرَّد سدٍّ للرمق ودفعاً للجوع فقط، واستحضروا دلالاته الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة باعتباره شكلاً من أشكال التَّضـــامن الجمعي والتَّكـاتف الأسري والشُّعور بالوحدة، لذلك كانوا يأكلون جماعة وليس منفردين في الولائم المَلكيَّة والمناسبات الدِّينيَّة، وكذا في الحقول[1].

2 – 5 – الاحتفالات: يرى "ابن خلدون" أنَّ أخلاق السُّودانيين تتميَّز عموماً بالخفَّة والطَّيْش وكثرة الطَّرب، فهم كما أشار مُولعون بالرَّقص على كلِّ توقيع وأسرع للفرح والسُّرور، وفسَّر ذلك بتأثير الهواء في أخلاقهم، وهذا لأنَّ الحرارة مُفشية للهواء والبخار؛ وعليه يجد المُنتشي من الفرح والسُّرور مالا يُعبَّر عنه[2]، ويضيف "القزويني" في هذا الشَّأن بأنَّه لا يرى زنجي مغموماً، والغمَّ لا يدور حولهم، والطَّرب يشملهم كُلُّهم، والسَّبب في ذلك لاعتدال دمِّ القلب[3]، ولربَّما يكون توصيف "مارمول كربخال" لهم هو الأفضل اعتماداً، حيث وصفهم بالظَّرافة واللُّيونة واللطف[4]، فملاحظته مما أشارت لها مختلف المصادر، فتعليل ذلك يتجاوز الحرارة والهواء إلى ترسخ هذه العادات عند السُّودانيين خاصة وأنَّها ارتبطت في أغلب الأحيان بالطُّقوس الاحتفاليَّة ذات الأبعاد

[1] – بوبيدي: المرجع السابق ، ص.368.

[2] – ابن خلدون: **المقدمة**، ص.87.

[3] – القزويني: المصدر السَّابق، ص.23.

[4] – مارمول كربخال: المرجع السَّابق، ج.3، ص.203.

الدِّينيَّة، حيث يتمُّ الاتصال بأرواح الأسلاف واستدرار عطف الآلهة عبر أشكال مُحدَّدة من الرَّقص[1].

وما يُميِّزُ احتفالات السُّودانيين خلال هذه الفترة أنَّها طبعت بالطَّابع الإسلامي والتَّأثير المغربي، حيث ظهر جليًّا الحضور الدِّيني والتَّأثير المغربي في العديد من احتفالاتهم منها:

2 – 5 – 1 – حفلات الزَّواج: تَبَوَّأَ الزَّواج مكانة مرموقة عند السُّودانيين، لِكونه ظاهرة مرغوب فيها في المجتمعات الإفريقيَّة على اختلاف ثقافتها ومعتقداتها، ولأنّه يُحقِّق للزوجين نوعاً من التَّكامل الاجتماعي ويضفي عليهما نوعاً من الاعتراف، يُضاف إلى ذلك المكانة الكبيرة التي تُوليها ثقافة المجتمع الإفريقي للإنجاب؛ فعند "الماندينغ" على سبيل المثال يُشار لمن مات وقد خلَّف أولاداً وذُريَّة بأنَّه قد اختفى، أمَّا من مات ولم يُخلِّف فيُشار إليه بأنَّه قد انتهى، ولقد شاعت العديد من الأمثال المُعبِّرة على ذلك[2].

ولقد عرفت مؤسسة الزَّواج في السُّودان الغربي نوعاً من الاستقرار، وذلك بعد انتشار الإسلام بينهم واحتكاكهم بالمغاربة، حيث قَلَّد السُّودانيون المغاربة في مراسيمها خاصة ما تعلَّق منها بتجهيز العروسين وإقامة الولائم[3]، فالمصادر تُفيدنا ببعض الإشارات التي تُبرزُ مدى التَّشابه الكبير بين التَّقاليد والأعراف المغربيَّة والسُّودانيَّة في الحواضر الكبرى، فمن الأشياء المُتعارف عليها في الزَّواج عند السُّودانيين، أنَّ عائلة الزَّوج مطالبة بتوفير السَّكن وقطعة أرض للبستنة، والكسوة ممثلة في القميص والقلنسوة

[1] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.354.

[2] – من بين تلك الأمثال: "لا دواء للموت إلاَّ الإنجاب"، "من أنجب لم يضع اسمه". ينظر، آدم بمبا: «**المرأة في إفريقيا قراءة في العادات**»، ص.92.

[3] – بوبيدي: المرجع نفسه، ،ص.353.

والعمامة، والفرس والبرذون والبقر الحلوب، في حين تُوَّفِرُ عائلة الزَّوجة الفُرش والإماء للخدمة وألبسة الزَّوجة[1].

وفي يوم الزَّفاف تُقام الولائم وهي من العادات التي تَميَّز بها السُّودانيين المسلمين عن غيرهم، ويستمر الاحتفال بالنِّسبة للمتزوِّج للمرة الأولى أو المتزوج من عذراء سبعة أيَّامٍ، فتُحيَى اللَّيالي بمظاهر الفرح والرَّقص والغناء، وانتقلت إليهم من بلاد المغرب عادة وضع العروس للحناء في هذا اليوم[2]، ومن العادات التي تأثَّر فيها السُّودانيون بالمغاربة، عرض دليل البكارة في حفل الزَّواج، وقد اختصَّت به الأسر المسلمة دون القبائل الوثنيَّة التي لم تكترث في الحفاظ على عفة الفتاة[3].

2 – 5 – 2 – الختان: يُعتبر الختان في منظور السُودانيين، بأنَّه عمليَّة تطهير للفرد، تُزيل عنه غشاوة الجهالة والقوَّة الشِّريرة التي تجُرُّه نحو الرَّذيلة وتحُولُ بينه وبين القيم الإنسانيَّة، فعند "**الماندينغ**" لا يحاسب الفرد على أخطائه وتصرُّفاته محاسبة حقيقيَّة ولا يُكلَّف تكليفاً مُلزماً إلاّ بعد اجتيازه هذه المرحلة[4].

فالختان في عُرف بعض القبائل مرحلة انتقاليَّة بين حياة الطُّفولة وحياة الشَّباب والرُّجولة، باعتباره إيذاناً بالتَّأهيل للزواج وتكوين أسرة جديدة تدعم القبيلة بالأولاد[5]، وقد أصبح الختان في بلاد السُّودان علامة بارزة على إسلام الشَّخص أو وثنيته، حتَّى صارت بعض العائلات ترفض تزويج بناتها لمن لم يُختن، وأشارت المصادر البرتغاليَّة إلى أنَّ "**الولوف**" يختتون أولادهم مُتشبِّهين في ذلك بالمغاربة[6].

---

[1] – محمود كعت: المصدر السَّابق، ص.163.

[2] – آي إم لويس: المرجع السَّابق، ص.155.

[3] – بوبيدي: المرجع السابق ، ص.353.

[4] – آدم بمبا: المرجع السَّابق، ص.90.

[5] – محمود زناتي: المرجع السَّابق، ص.238.

[6] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.353.

ولأنَّ المجتمع السُّوداني أصبح من ضمن المجتمعات الإسلاميَّة خلال هذه الفترة، بعد اعتناق الكثير من أهله للإسلام؛ فقد أولى السُّودانيون اهتماماً واضحاً بالمناسبات الدِّينيَّة حيث شكَّلت الاحتفالات الدِّينيَّة مظهراً من مظاهر تجلِّي الإسلام وتأثيراته في مجتمعات السُّودان، فكانت هذه المناسبات بمثابة البرهان على مدى إنتشار الإسلام وبيَّنت في الوقت ذاته مدى تراجع الاحتفالات الوثنيَّة، ومن أبرز المناسبات الدينية التي أحياها السُودانيين نذكر:

2 – 5 – 3 – إحياء ليالي رمضان: حُظي هذا الشَّهر بكثير من الإجلال والتَّعظيم عند السُودانيين، وكانت الطُّقوس والشَّعائر الدِّينيَّة تُقام وفق المذهب المالكي وقد سجَّل لنا "إبن بطوطة" الذي شهد هذا الشَّهر في مملكة "**مالي**" جانباً من تلك الاحتفالات، وإنْ كانت مشاهداته قد اقتصرت على الطَّبقة الخاصة فحسب، فيذكر: «أنَّ سلاطين مالي كانوا يُحْيُونه بالذِّكر الحكيم وذلك بحضور القاضي والخطيب والفقهاء والأمراء، وكانت ليلة القدر تحظى بإجلال وتكبير عظيمين وفيها يُفرَّقُ المال على الحاضرين ويسمونه الزَّكاة»[1].

وقد صادف "ابن بطوطة" أنْ حضر "ليلة القدر" من رمضان في بلاط "**منسى سليمان**" فأعطاه السُّلطان ثلاثة وثلاثين مثقال، وكان يحضر لمجلس السُّلطان فراريته وحاشيته يرافقهم الجواري وهنَّ يحملن الطَّعام ويصطحب كلَّ فراري عشرون جارية معه[2].

وفي أرض "**كياك**" التَّابعة لمملكة "**مالي**" كان من عادة حَاكِمَهَا أنْ يزور علماء المنطقة وقاضيها في شهر رمضان من كلِّ سنة ويتقدَّم لهم بالصَّدقات والهدايا، وفي "ليلة القدر" «يأمرُ الحاكم بطبخ الطَّعام ثمَّ يجعل المطبوخ في المائدة ويحملها فوق

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.696.

[2] – ابن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.696. **ينظر أيضاً**، بشَّار أكرم: المرجع السَّابق، ص.197.

رأسه وينادي قُراء القرآن وصبيان المكتب يأكلونها والقدح على رأسه يحملها وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظيما لهم»[1].

وهذا كرمزيَّة على تبجيل أهل القرآن الكريم وخاصته، وجعل السُّلطة الدّينيَّة أشرف وأعلى قدراً من السُّلطة الزَّمنيَّة في ظاهره، ويرمز إلى مدى احترام أهل "**مالي**" لشهر رمضان وتقديسهم للإسلام.

كما عبَّرت العامة أيضاً عن تعظيمها لهذا الشَّهر بطريقتها الخاصة، فقد كان لهذا الشَّهر مكانة كبيرة في نفوسهم فَعُرف عندهم بأنَّه "**شهر العبادة والصَّدقات**"، فكان النَّاس يأتون لأبواب المساجد قبل الغروب ومعهم التَّمر والخبز والحساء ويوزعون ذلك على الفقراء[2].

ويذكر صاحب "تاريخ السُّودان" بأنَّ «**أحد أئمة المساجد في تمبكتو كان يتبرع بخمسمائة مثقال ذهب من رمضان إلى رمضان كما كان يحثُّ الأغنياء على التَّصدق**"[3].

والجدير بالذِّكر أنَّ تلك الاحتفالات لم تقتصر على المدن التي دخلها الإسلام وأسلم أهلها، بل شملت حتّى المدن التي لم يسلم أهلها، حيث أبدى مُلوكها الوثنيون نوعاً من التَّسامح مع الأقليَّة المُسلمة المُقيمة هناك، فَسُمِح لهم بأداء فروضهم الدِّينيَّة والقيام بشعائرهم، بل ذهبوا لأبعد من ذلك إذْ ساهموا في تقديم الهدايا والهبات للعلماء خلال شهر رمضان، ومثل هذه الأعمال تَنِمُّ على التَّعايش الذي كان يسود المجتمع وعلى مدى احترامهم لحريَّة المعتقد، ولربَّما دَلَّت أيضاً على بداية تقبل هؤلاء الملوك للإسلام.

---

[1] – محمود كعت: المصدر السَّابق، ص.296. **ينظر أيضاً**، أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.205.

[2] – مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.619.

[3] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.204. .

ومن الواضح أنَّ الاحتفالات بشهر رمضان قد بدأت منذ منتصف القرن(8هـ/14م) تَتَطبع بالطَّبوع المغربيَّة وتُحاكيها وتحاول تَمَثُّلها وتجسيدها، ففي مدينة "**تمبكتو**" عمل المغاربة على نقل الطَّابع المغربي في استقبال رمضان، فحرص العلماء على حضور صلاة التَّراويح في المسجد مع المُصلِّين، وكان يقوم أحدهم بشرح "صحيح البخاري" في الجامع وقاعة السُّلطان التي أطلق عليها تسمية المشور طيلة ذلك الشَّهر[1].

2 – 5 – 4 – الأعياد: تكتسي الأعياد في مختلف الأديان أهمِّيَّة قصوى فهي تُحقِّقُ الكثير من الوظائف الاجتماعيَّة، كتعزيز تماسك المجتمع أو المجموعة المُعيَّنة وشعور كلَّ فرد داخل المجموعة بالانتماء والتَّمايز، والتّرويح عن النَّفس، وغير ذلك من الدَّلالات الرُّوحيَّة والأخلاقيَّة والإنسانيَّة التي يؤمن بها الدِّين المُعيَّن[2] .

وقد حظيت الأعياد في بلاد السُّودان باهتمام كبير؛ فهي من المناسبات التي أقَرَّها الإسلام وتتجسد فيها شعائر الدِّين، فبعد أنْ كان السُّكان يحتفلون بأعيادهم الوثنيَّة بطريقة عشوائيَّة تَحْضُرُ فيها كلُّ الطُّقوس الوثنيَّة، أخذت احتفالاتهم تعرف نوعاً من التَّنظيم وفقاً للتقويم الإسلامي فحلَّت الأعياد الدِّينيَّة محلَّ الأعياد الوثنيَّة، وحلَّ الفقهاء والعلماء محلَّ الكهنة والسَّحرة، وعمَّ هذا الأمر كلَّ مدن السُّودان الإسلاميَّة، ففي مدينة "**تمبكتو**" على سبيل المثال، حال رؤية هلال العيد يتسارع النَّاس عبر الشَّوارع المضاءة بالفوانيس لشراء لوازم العيد من طعام ولباس وهدايا، وكان على من يشاهد الهلال الذَّهاب للمشور للشَّهادة، فتهتز المدينة بالزَّغاريد والتَّهليل[3].

---

[1] – بشار أكرم الملاح: المرجع السَّابق، ص.197 – 198.

[2] – آدم بمبا: «**عيد الأضحى في المجتمع الإفريقي رصد لبعض مضامينه الحضاريَّة**»، مجلَّة قراءات إفريقيَّة، **ع.26**، يصدرها المنتدى الإسلامي، الرِّياض، أكتوبر – ديسمبر/2015م، ص.75.

[3] – مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.619.

ويعتبر "ابن بطوطة" المصدر الوحيد الذي قدَّم لنا صورة شاملة حول مظاهر العيد بالسُّودان الغربي، باعتباره شاهد عيان على ذلك، ويلبس السُودانيون يوم العيد أحسن ما لديهم من الثِّياب ويختارون لهذه المناسبة اللون الأبيض دلالة على النَّقاء والصَّفاء والفطرة، وإذا كان السُّلطان والخطيب والفقهاء يختصون في سائر الأيّام بلبس الطُّلسان فإنَّ العامة يلبسونه أيضاً في هذه المناسبة، ويُحيط بالملك موكب يرفع الأعلام الحمراء يصل معه إلى الخباء المنصوب له لإصلاح شأنه، ثمَّ يتقدَّم الجميع إلى المُصلَّى مُهلِّلين مُكبِّرين، وتُلقى خطبة العيد باللُّغة العربيَّة مع وجود تُرجمان يشرح للنَّاس ما يقوله الخطيب، وبعد الصَّلاة ينزل الخطيب فيقعد بين يدي السُّلطان ليُذكِّرهُ ويعظُه ويحثُّ النَّاس على طاعته وأداء حقّه[1]، حيث يعدُّ السُّلطان حامي الدِّين والقائم على رعاية المملكة، وفي المقابل يُطالب الرَّعيَّة بحفظ مَقامه وطاعته ضماناً لاستمرار الدَّولة وحمايتها[2]

وتستمر احتفالات العيد حيث يجلس السُّلطان في أيَّام العيدين بعد العصر ويحرص في مجلسه على إبراز عظمة مملكته من خلال جنده وغلمانه وما يحملونه من أنواع التُّحف، فيحمل الجند رماح الذَّهب والفضَّة ودبابيس البلور، ويتحلَّى الأمراء الذين يقفون على رأس السُّلطان بحُليِّ الفضَّة، وفي هذا المجلس يحضر قادة الجيش والقاضي والخطيب ويجلسون بالقرب من المنسى بحسب مرتبتهم[3].

ويؤدِّي التُّرْجمان دوراً كبيراً في احتفالات العيد؛ فهو بمثابة الشَّاعر والموسيقي والمُغنِّي، ويبدو أنَّ هذا المركز هو تطوير لدور تقليدي قديم وُجد عند السُّودانيين قبل الإسلام يقوم به شعراء القبائل السُّودانيَّة التي تتغنَّى بأمجادها، حيث يتقدَّم التُّرْجمان

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.699.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.309.

[3] – ابن بطوطة: المصدر انفسه، ج.2، ص.699. **ينظر**، بوبيدي: المرجع نفسه، ص.309.

بحريمه وغلمانه وعليهم الثِّياب والحُليَّ الغالية ليرقص النَّساء على تغنِّية بأمجاد السُّلطان وغزواته، ويلعب الغلمان بالسُّيوف ويضربون الطُّبول.

ويظهرون مهاراتهم بحركات رياضيَّة، ويُكْرِّمه السُّلطان بمثاقيل التِّبر أمام النَّاس، ثمَّ يقوم قادة الجيش لأداء التَّحيَّة للسلطان من خلال نزع قسيِّهم[1].

أمَّا الجولة الثَّانية من الاحتفالات فيتصدرها الشَّعراء وكانوا يُسمُّون "**الجُلا**" حيث يتنكَّرون في ألبسة من الرِّيش وأقنعة خشبية تجعلهم في صورة الطُّيور، ليُقدِّموا الوصلة الهزليَّة؛ إذ يتقدَّمون نحو السُّلطان في هذه الهيئة الطَّريفة وتكون أشعارهم بمثابة تغنِّي بأمجاد السَّلاطين السَّابقين والتَّذكير بعظمتهم، قبل أنْ يصعد كبيرهم نحو مجلس السُّلطان فيضع رأسه على حجره ثمَّ كتفه الأيسر فالأيمن، وهو تقليد كان قديم عندهم قبل إسلامهم فاستمروا عليه وفقاً لما ذكره "ابن بطوطة"[2].

ومن خلال وصف "ابن بطوطة" لمظاهر الاحتفال بالعيد في مملكة "**مالي**"، نلاحظ امتزاج وتداخل بين التَّقاليد الإسلاميَّة الجديدة والتَّقاليد الوثنيَّة القديمة، فإنْ كان غناء التُّرْجمان ونسائه وضرب الدُّفوف والتَّنكُّر في صورة الطُّيور وصورة السَّلام على السُّلطان امتداداً لأعراف مَحلِّيَّة قديمة؛ فإنَّ لباس البياض وترتيب "المشور" وجلوس الأعيان بمراتبهم هي تقاليد جديدة مستمَّدة من المغرب[3].

وقد كانت الاحتفالات بالعيد تتمُّ في شوارع المدن، وذلك من خلال تشكيل مواكب تطوف المدن وهي تدقُّ الطُّبول وتصدر أصوات الأبواق، وكانت تلك المواكب

---

[1] – ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.2، ص.699.

[2] – ابن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.700. **ينظر**، بوبيدي: المرجع السابق، ص.310.

[3] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.310.

تتواجد حتّى في المدن التي لم يُسلم أهلها، ولأنَّ أهل السُّودان عرفوا بميلهم للمرح والبهجة، فقد كان احتفالهم بالأعياد والمناسبات تسوده المسرَّة والغناء[1].

ولم تختلف أجواء الاحتفال بعيد الأضحى عمَّا كانت عليه في عيد الفطر، وتتلخَّص استعدادات السُّودانيين لعيد الأضحى في تزيين المنازل وطلائها بمادة بيضاء، ورسم بعض النِّساء لنقوش هندسيَّة مميَّزة على جدران منازلهم، ويصبغن أيديهنَّ وأقدامهن بالحناء ويُهيِّئن للعيد ما عندهن من الزِّينة، وتتخلَّل أيَّام العيد رَقصات شعبيَّة وفنون أدائيَّة؛ وعلى الرُّغم من الموقف الصَّارم للمذهب المالكي من الغناء واللهو، إلاَّ أنَّ الأعراف والتَّقاليد الموروثة كان لها قوَّة حاضرة[2].

2 – 5 – 5 – الاحتفال بالمولد النَّبوي الشَّريف: لا نملك أيِّ شهادة مصدريَّة واضحة بخصوص هذا الشَّأن تُفصح لنا على أنَّ أهل السُّودان كانوا يحتفلون بالمولد النَّبوي الشَّريف، خاصة وأنَّ الاحتفال به في بلاد المغرب ظهر جلياً خلال منتصف(ق.7هـ/13م)، حيث كانت أسرة الفقيه "**أبي العباس أحمد العزفي**" التي استقلَّت بحكم مدينة "سبته" عام(647هـ/1249م) أوَّلُ من بدأت العمل بهذه السُّنة في "المغرب"[3] ولأنَّ هذه السُّنة تَمَّ إحياؤها في "المغرب" فلا نستبعد في أنْ تكون هذه السُّنة قد وَجدت طريقها إلى بلاد السُّودان، ويمكن الاستناد إلى ذلك بعدَّة دلالات، منها: أنَّ جلَّ التَّأثيرات الإسلاميَّة التي وصلت بلاد السُّودان كان مصدرها من المغرب، ولذلك تكون قد انتقلت إلى حواضر السُودان مع التُّجار والعلماء، وتُشير المصادر بأنَّ أوَّل من بدأ الاحتفال بالمولد النَّبوي الشَّريف في بلاد السُّودان هو الفقيه

---

[1] – بشار أكرم الملاح: المرجع السَّابق، ص.200 – 201.

[2] – آدم بمبا: «**عيد الأضحى في المجتمع الإفريقي رصد لبعض مضامينه الحضاريَّة**»، المرجع السَّابق، ص.78.

[3] – مَحمود مُحمَّد ددب الأرواني(التُّبكتي): **تنبيه المادح المُقلِّد على ما كان عليه أهل تنبكتو في المولد**، منشورات المنظَّمة الإسلاميَّة للتربية والعلوم والثَّقافة، الرِّباط، ط.1، 2011م، ص.155.

"**أبو القاسم التواتي**"(ت.922هـ/1516م) إمام الجامع الكبير "**بتمبكتو**"، وقد بلغ الغاية القصوى في الاهتمام بهذا الاحتفال[1].

ومن عاداتِ السُّودانيين في ليلة المولد تزيين المساجد وخروج الرِّجال والنِّساء والإماء بأفخر زينتهم وأحسن ما يملكونه من الملابس، ويقوم المدَّاحون بقراءة القصائد التي كُتبت في مدح النَّبيِّ ﷺ على أبواب المساجد، وإلى جانب أجواء المديح قُرب المساجد تُضرب الطُّبول ويركب الرِّجال على خيولهم ويلعبون بها، وتستّمر هذه المظاهر الاحتفاليَّة إلى غاية الثُّلث الأخير من الليل[2].

وقد لوحظ في الدِّراسات الأنثرو بونيمية الحضور الكبير لاسم "مُحمَّد" والأسماء المُشْتقَّة منه بين السُّودانيين، وهي دلالة صريحة على تعظيم النَّبيِّ ﷺ[3]، والاحتفالات الدِّينيَّة لم تتوقَّف عند هذا الحدِّ بلْ شملت مناسبات أخرى كإحياء ليلة عاشوراء وغيره.

ومن خلال ما تمَّ ذكره نلاحظ مدى تأثُّر أهل السُّودان بالمغاربة، وكيف اصطبغت احتفالاتهم تلك بالصِّبغة الإسلاميَّة، **فهل طال هذا التَّأثير الأقراح أيضاً ؟ وكيف نظر السُّودانيون للموت؟ وماهي أهمُّ الطُّقوس المتعلِّقة به؟ وما التَّغيير الذي طرأ عليها بعد إسلامهم واختلاطهم بالمغاربة؟.**

2 – 6 – طقوس الموت: كانت الطُّقوس الوثنيَّة هي السَّائدة عند أهل السُّودان فيما يتعلق بالموت، فكانوا إذا مات أحد ملوكهم فإنَّهم يدفنون معهم عبيدهم وأدواتهم في حفرة واحدة، إيماناً منهم بأنَّهم سوف يحتاجون إليها[4]، وفي هذا الشَّأن يذكر "البكري" أنَّ مِنْ عادات أهل "**غانة**" إذا مات ملكهم «عقدوا له قبَّة عظيمة من خشب "السَّاج"

---

[1] – مَحمود مُحمَّد ددب الأرواني(التُّنبكتي): المصدر السابق، ص.157.

[2] مؤلف مجهول: **تذكرة النِّسيان في ذكر ملوك السُّودان**، نشر هوداس، باريس، ط.1، 1899م، ص.152.

[3] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.311.

[4] – بشار أكرم الملَّاح: المرجع السَّابق، ص.203.

ووضعوها في موضع قبره؛ ثُمَّ أتو به على سرير وأدخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حلْيَتَهُ وسلاحه وأنيته التي يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجاله ممن كان يخدم طعامه وشرابه، وأغلقوا عليهم باب القبَّة، وجعلوا عليها الحصر والأمتعة؛ ثمَّ اجتمع النَّاس فردموا فوقها بالتُّراب حتى تأتي كالجبل الفخم، ثمَّ يُخندقون حولها حتَّى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلَّا من موضع واحد، ويذبحون لموتاهم الذَّبائح ويُقرِّبون لهم الخمور»[1].

وانتشرت عندهم أشكال من القبور على شكل أهرامات، ومن المحتمل أنَّ هذا النَّوع من الأشكال جاء تأثَّروا فيه بالمصريين، فقد كان يدفن مع الملك خَدَمُه ولو كانوا من غير دينه، وقد نجا أحد المسلمين من هذا بعدما افتداه والده بمال[2].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ طقوس الدَّفن هذه لم تكن مُتاحه للجميع وإنَّما اقتصرت على الملوك وعِلِّيَّةَ القوم فحسب، أمَّا العامة فيُرمون في الفلاة كما تُرمى الفضلات ويذكر "العمري" أنَّ في مملكة "مالي" «لا يُدفن عندهم مَيِّت إلَّا إذا كان ذا قدر وحشمه وإلَّا فكلُّ من كان سوى هؤلاء ممن لا قدر له، فإنَّه يرمى ميِّتًا في الفلاة كما ترمى باقي الميتات»[3]. ويبدو لي أنَّ الفوارق الاجتماعيَّة لم يسلم منها حتى الموتى.

ومع اعتناق السُودانيين للإسلام واحتكاكهم بالمغاربة، أخذت هذه العادات تتلاشى تدريجيا وتغيَّرت نظرتهم للموت بعدما أدركوا أنَّه حقٌّ على جميع البشر؛ وأنَّ دفن الميِّت يتطلَّب بعض الإجراءات حَدَّدَهَا الإسلام ووجب على المسلم العمل بها،

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.176.

[2] – حسين مرزوقي: **بلاد السُّودان في كتب الجغرافيين والرَّحالين العرب والمسلمين إلى حدود القرن الثَّامن الهجري**، مجمع الأطرش للنَّشر والتَّوزيع، تونس، ط.1، 2018م، ص.207.

[3] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.54.

فظهر عندهم تغسيل الميِّت وتكفينه وفق الشِّريعة الإسلاميَّة، واستخدموا العطور لتطييب الجُثَّة ودفنها في المقبرة، وهذا بحضور أهل وأقارب المُتوفي، وظهرت عندهم العديد من المقابر التي ساهم عدد من علماء حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة في إنشائها، منهم: الفقيه "**أبو القاسم التُّواتي**"، فقد أشار "السَّعدي" إلى أنَّه أحدث مقبرة **بتمبكتو** بعدما امتلأت المقبرة القديمة وجعل لها سوراً[1].

كما كان يتصدَّق على الميِّت ويُتلى له القرآن، وقد حضر "ابن بطوطة" لمراسيم عزاء في مملكة "**مالي**" تَمَّ خلالها قراءة القرآن، وكانت مراسيم العزاء تتمُّ بحضور القاضي والفقيه والخطيب فضلا عن حضور الملك، وكان النَّاس يَسيرون في جنازة الميِّت في خشوعٍ كبير يتصدرها في الغالب طلبة القرآن الكريم وعددٍ من العلماء، وكان عدد المُشيِّعين للجنازة متوقفٌ على مكانة الميِّت الاجتماعيَّة[2].

ويبدو لي أنَّ انتشار الإسلام وسط السُّودانيين وتأثُّرهم بالمغاربة لاسيما الذين استقروا منهم هناك، ساهم في اختفاء وتلاشي العديد من العادات السَّيِّئة التي كانت شائعة في المجتمع السُّوداني والتي تتنافى مع ما جاء به الإسلام؛ وانتشرت في مقابل ذلك العديد من السُّلوكيَّات القيِّمة التي لاقت إعجاب واستحسان كلَّ من زار بلاد السُّودان الغربي فمن العادات التي عرفت نوع من التَّضاؤل، التَّالي:

- **عادة توريث ابن الأخت:** وهي من العادات التي كانت شائعة في بلاد السُّودان الغربي، وقد أشارت إليها العديد من المصادر، "فالبكري" خلال حديثه عن أهل "**غانة**" أشار إلى ذلك بقوله: «.. ومذهبهم أنَّ المُلك لا يكون إلَّا في ابن الأخت لأنَّه لا يشكُّ

[1] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.194 – 195.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.695. **ينظر أيضاً**، بشار أكرم الملَّاح: المرجع السَّابق، ص.204.

فيه، وهو يشكُّ في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به»[1]. وذات الإشارة اوردها "ابن بطوطة" خلال حديثه عن سلطان "**تكدا**"[2].

أمَّا عن السُّلوكيَّات الحسنة التي انتشرت في المجتمع السُّوداني ولاقت إعجاب العديد من الرَّحَّالة الذين زاروا المنطقة، ومن بينهم "ابن بطوطة" الذي أبدى إعجابه بجملة من الخصال الحميدة التي شاهدها عند أهل "**مالي**"، منها:

- ✓ الحرص والمواظبة على أداء الصَّلاة والالتزام بها في الجماعات، وضربهم لأولادهم عليها.
- ✓ لبس الثِّياب البيضاء الحسان يوم الجمعة.
- ✓ العناية والاهتمام بحفظ القرآن الكريم، ومن تقاعس عاقبوه[3].
- ✓ قلَّة الظُّلم، فهم أبعد النَّاس عنه وسلطانهم لا يسامح أحد في شيء منه.
- ✓ اتصافهم بالأمانة وعدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة، وإنَّما يتركونه بيد أحد الموثوقين حتّى يأخذه مُستحقه[4] .

وبما أنَّ تأثير المغاربة قد طال الجانب الاجتماعي للسُّودان الغربي، فلا نستبعد في أنْ يكون لهم تأثير في الجانب العلمي والثَّقافي خاصة إذا علمنا أنّ الجالية المغربيَّة المتواجدة ببلاد السُّودان كانت متميِّزة من حيث النَّوع، فأغلبهم كان من العلماء والفقهاء. فما تأثيرهم في الجانب العقدي والسُّلوكي؟

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.712.

[3] – ابن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.703. **ينظر أيضاً**، أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.203 – 2014.

[4] – ابن بطوطة: المصدر نفسه،ج.2، ص.703.

ثانياً: دورها في التَّأثير العقدي و السّلوكي:

1)- مظاهر الوثنيَّة في السُّودان الغربي:

لم يقتصر تأثير التُّجَّار المغاربة بما فيهم تُجَّار الحواضر الصَّحراويَّة للمغرب الأوسط على الجانب الاجتماعي فحسب، وإنَّما طال الجانب العقدي والسُّلوكي أيضاً؛ وحتَّى يتسنَّى لنا رصد مظاهر التَّأثير في هذا الجانب، حريٌّ بنا أنْ نقف على ديانة ومعتقدات أهل السُّودان قبل انتشار الإسلام، و تأثُّرهم بمن وفد عليهم من أهل الحواضر.

ولقد وفَّرت لنا المصادر العربيَّة مادة هامَّة حول المظاهر الوثنيَّة في السُّودان الغربي حيث انتشرت بينهم الدِّيانة الوثنيَّة وجمعت في معظمها بين الإنسان والبيئة التي يَعيش فيها، واختلفت و تعدَّدَت تلك الاعتقادات باختلاف المناطق والشُّعوب، حيث انتشرت هذه المظاهر باعتبار كلِّ السُّودانيين كانوا على الوثنيَّة وعبادة الدَّكاكير والأسلاف.

ولم تكن الآلهة في بلاد السُّودان آلهة شخصيَّة، بل آلهة قرية أو مدينة أو مملكة، لها مكانٌ مُحدَّدٌ تمارس فيه طقوس العبادة، فمدينة "**غانة**" على سبيل المثال كانت حولها قِباب وغابات وشَعْرَاءُ يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يُقيمون دينهم، وفيها دكاكير وقبور ملوكهم، وعليها حُرَّاس يمنعون النَّاس من دخولها؛ وفي بلاد "**الدَّمدم**" بمنطقة الغابات قلعة عظيمة عليها صنم في صورة امرأة يتألَّهون و يحُجُّون إليها[1]؛ وفي "**ملل**" و"**كوكو**" يضع الوثنيون صنمهم المعبود في بيت خاص به لأداء طقوسهم فيها[2].

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص. 175 – 183.

[2] – البكري: المصدر نفسه، ص.178.

وتحيلنا المادة المصدريَّة إلى عبادة سكَّان السُّودان الغربي لبعض الحيوانات، إذْ تشير المصادر إلى عبادة أهل "**غانة**" و "**زافون**" للحيَّات، فأهل "**غانة**" يعتقدون أنَّ إلهُهم **(واغادوا بيد)** يقوم بحراسة المدينة وحماية ثرواتها وكنوزها ويمنحهم بركات السَّعادة؛ وحرص أهل "**زافون**" على تقديم الطَّعام والشَّراب لمعبودهم وتعليق نفيس الثِّياب وحُرُّ المتاع في مدخل المغارة التي يسكنها، في حين عَبدَ أهل "**غاو**" الحوت[1] ويتجلَّى تقديس أهل السُّودان للحيوانات في وجود قبائل سودانيَّة تحمل اسم الحيوان سواء كانت تعبده، أو ترتبط به بأسطورة تتعلَّق بقدرة جدُّ القبيلة على الفرار من سطوته ومن الواضح أنَّ عبادة الحيوان عند السُّودانيين مَردُّها إلى اعتقادات سائدة لديهم بأنَّ أرواح أسلافهم تسكن أنواع مُعيَّنة منها[2].

كما عرف السُّودانيون عبادة الملوك أيضاً، فأهل "**زغاوة** " قبل اسلامهم قدَّسوا ملوكهم وعبدوهم لأنَّهم يعتقدون بأنَّهم هم الذين يُحيُّون ويُمِيتون ويُمْرِضون ويُصِحُون[3]؛ وبالرَّغم من أنَّ المصادر لم تُظهر ذلك بشكل جليٍّ إلاَّ أنَّ بعض الممارسات والطُّقوس التي يلتزم بها أهل السُّودان في مجالس ملوكهم مثل نزع الثِّياب والتّتريب[4]، توحي لنا بوجود هكذا نوع من العبادة؛ وإلى جانب ذلك فقد عبد بعض السُّودانيون النَّباتات فكان لبعضهم شجرة عظيمة يقيمون لها عيداً في كلِّ سنة ويجتمعون عندها ويلعبون حولها

---

[1] – جوزيف جوان: **الإسلام في ممالك وامبراطوريات إفريقيا السَّوداء**، تر: مختار السُّويقي، دار الكتاب المصري، القاهرة، **ط.1**، 1984م، ص.57. **ينظر أيضا:** البكري: المصدر نفسه، ص.173. **ينظر أيضاً**، السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.4.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.303.

[3] – الحسن بن أحمد المهلبي: **الكتاب العزيزي(المسالك والممالك)**، تع: تيسير خلف، التَّكوين للطباعة والنَّشر، دمشق، **ط.1**، 2006م، ص.54. **وينظر أيضاً**، ك. مادهو بانيكار: **الوثنيَّة و الإسلام**، المرجع السَّابق، ص.465.

[4] – البكري: المصدر نفسه، ص.176. **ينظر أيضاً**، ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.698.

حتى يسقط عليهم ورقها فيتبركون به[1]؛ ولابُدَّ أنَّ لكلِّ تلك العبادات احتفالات وطقوس خاصة بها تُقام احتفاء بالحيوان المعبود عند المغارات والكهوف، أو عند الأنهار بحسب طبيعة الطَّوطم المقدَّس وهو ما يبرز صورة المجتمع الوثني في هذه الممارسات المتكرِّرة والتي تطبع الحياة الاجتماعيَّة بأعراف وتقاليد واحتفالات مُستوحاة من الاعتقاد بها[2].

ومن مظاهر الوثنيَّة عند أهل السُّودان الطَّقس المتعلِّق بالاستسقاء، فقد كان السُّودانيون في المرحلة الوثنيَّة إذا أرادوا ذلك جمعوا عظاماً فكوَّمُوها كالتَّلِّ، ثمَّ أضرموا فيها النَّار وداروا حولها ورفعوا أيديهم إلى السَّماء أو قدَّموا القرابين كالبقر والغنم والحمير، بل والنَّاس كذلك؛ كما اعتادوا الذَّبح لِمَوْتاهم و تقريب الخمور لهم[3].

ويُعدُّ السِّحر من الممارسات الأكثر شيوعاً عند أهل السُّودان، حيث يتمتَّع السَّحرة بمكانة مرموقة وحضور اجتماعي؛ ففي مملكة "**غانة**" الوثنيَّة كان السَّحرة مكلَّفون بإقامة طقوس دينهم والإشراف على الدَّكاكير وهو ما أشار إليه البكري في قوله: «وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يُقِيمون دينهم وفيها دكاكيرهم»[4]؛ ولعلَّ في طرد ملك "**ملل**" لهم بعد إسلامه ما يُدلِّلُ على نفوذهم وقُرْبهم من مجالس الملوك باعتبار أنَّهم القائمون على شؤون العبادات والطُّقوس؛ ولاشكَّ بأنَّهم كانوا يستفيدون من ذلك وجاهة وسلطة على من دونهم من النَّاس، خاصة وأنَّهم يَمدُّون العامة بما يزعمون أنَّه ينفعهم أو يَضرُّهم من التَّمائم

---

[1] – البكري: المصدر السابق، ص.176. **ينظر أيضا**، المسعودي: **أخبار الزَّمان**، ص.88. **ينظر أيضاً**: الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.160.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.304.

[3] – المسعودي: المصدر السابق، ص.87 – 88. **ينظر أيضا**: البكري: المصدر نفسه، ص.176. **ينظر أيضاً**: الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.517.

[4] – البكري: المصدر نفسه ،ص.175.

والطَّلاسم الوثنيَّة، والتي يدلُّ حضورها والاهتمام بها وتعليقها على رمزيَّة بالغة الأهمِّيَّة تُحيلنا لمعتقدات النَّاس وتصوراتهم[1].

وممَّا سبق ذكره حول معتقدات أهل السُّودان تتَّضح لنا الصُّورة العامة لمجتمع السُّودان الغربي الذي انتشرت فيه مظاهر الوثنيَّة ومعالمها، وهي الرُّموز التي بدأ الإسلام يُزاحمها تدريجيا، ويحلُّ محلَّها، رموز جديدة سرعان ما اتَّسعت وانتشرت لتُغيِّر من الصُّورة السَّابقة وتُعيد رسم صورة جديدة مُغايرة لما كانت عليه، فمنذ القرن(4هـ/10م) بدأت الجاليات المغربيَّة تُشكِّل فضاءً مُسلماً جديداً يمثِّل النَّواة الأولى للرموز الإسلاميَّة التي ستصبح حاضرة في أغلب الحواضر السُّودانيَّة[2].

2)- سلوك التُّجار المسلمين وعوامل القضاء على الوثنيَّة:

والمعلوم أنَّ الإسلام لم يصل لبلاد السُّودان على ظهور الجِيـاد وأسنَّة الرِّمـاح والغزو العسكري كما يصوِّره أعداؤه المستشرقين؛ وإنَّما دخل على ظهور الجِمال التي كانت تنقل مُنْتجات بلاد المغرب إلى السُّودان الغربي، فمصادر الفترة أشارت إلى الصِّلات التِّجاريَّة المَبكِّرة التي ربطت بين الضِّفتين[3]، وتعزَّزت تلك الصِّلات مع ظهور الكيانات السِّياسيَّة بالمغرب الأوسط ابتداءً "بالدَّولة الرُّستميَّة" التيّ ارتبطت بعلاقات سياسيَّة و دينيَّة وتجاريَّة رسميَّة مع ممالك السُّودان خاصة مملكة "**غانة**" في السُّودان

---

[1] – البكري: المصدر السابق، ص.178. **ينظر أيضاً** بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.304.

[2] – بوبيدي: المرجع انفسه، ،ص305.

[3] – حول الصِّلات التِّجاريَّة بين المغرب والسُّودان الغربي. **ينظر**، أحاديث هيردوت عن الأمازيغ، ص.42. **وينظر**، فيج ـ جي ـ دي: **تاريخ غرب إفريقيا**، تر: السَّيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، **ط.1**، 1982م، ص.43. **وينظر**، بوفيل: **تجارة الذَّهب وسكَّان المغرب الكبير**، تر: الهادي أبو لقمة و مُحمَّد عزيز، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، **ط.2**، 1988م، ص.43. **وينظر أيضاً**، حسن سيد عبد الله مراد: «**الصِّلات بين بلاد المغرب والسُّودان الغربي (خلال.ق.2 – 6هـ/8 – 12م)**»، أعمال المؤتمر الدُّولي الإسلام في افريقيا، 26 – 27 نوفمبر 2006م، – مركز البحوث والدِّراسات الإفريقيَّة، جامعة *إفريقيا* العالميَّة، الخرطوم، 2006م، ص.375.

الغربي؛ حيث كانت القوافل التِّجاريَّة تخرج من العاصمة "**تيهرت**" إلى "وارجلان"، ومنها إلى بلاد السُّودان الغربي[1].

ولم يكتفِ أمراء "بني رستم" بربط علاقات تجاريَّة مع السُّودان، بل مارس بعضهم النَّشاط التِّجاري؛ فالمصادر تشير إلى أنَّ "**الإمام عبد الوهاب**" كان تاجراً وكانت قوافله تُسافر إلى بلاد السُّودان، وكان يعُدُّ نفسه أحد الموارد الرَّئيسيَّة لبيت مال الإمارة الرُّستميَّة كما كان الإمام "**أفلح بن عبد الوهاب**" شَغوفاً بالتِّجارة مع بلاد السُّودان الغربي، واشتهر عنه وفوده لسفارة إلى ملك السُّودان[2].

وإلى جانب النَّشاط التِّجاري، قد يكون للرُّستميين هدف دعوي يتعلَّق بنشر المذهب الإباضي في بلاد السُّودان؛ فقد أقترن ذكر بعض فقهاء المدرسة الإباضيَّة بمنطقة السُّودان الغربي منذ القرن (3هـ/9م)، ولقد اعتنقت بعض مناطق السُّودان الإسلام على يد تُجَّار وعلماء إباضيَّة[3].

وبسقوط "**الدَّولة الرُّستميَّة**" واصلت حاضرة "وارجلان" قاعدة الرُّستميين التِّجاريَّة نشاطها التِّجاري الحثيث والمركَّز مع بلاد السُّودان، ولقد ساعدها في ذلك سيطرة قبائل "زناته" على الطَّريق التِّجاري الذي يربط "**بلاد الجريد**" و "**أريغ**" و "**وارجلان**" من جهة، وبلاد السُّودان من جهة أخرى[4].

---

[1] – ابن سعيد المغربي: المصدر السَّابق، ص.45.

[2] – ابن الصَّغير المالكي: المصدر السَّابق، ص.62. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد شقرون: «**دور التُّجار المسلمين في نشر الإسلام بغرب إفريقيا في العصر الوسيط**»،_أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي، المرجع السَّابق، ص.62.

[3] – مُحمَّد فرج دغيم: «**التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقيَّة**»، أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي_بين الأقطار الإفريقيَّة على جانبي الصَّحراء، المرجع السَّابق، ص.610.

[4] – إلياس بن عمر حاج عيسى: **مدينة وارجلان دراسة في النَّشاط الاقتصادي والحياة الفكريَّة**، رسالة مُقدَّمة لنيل شهادة الماجستير، تخ: تاريخ إسلامي، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة الجزائر، 2009م، ص.157.

وهو ما ساعدها على التَّنقُّل؛ ومن حاضرة "وارجلان" انتشر الإسلام بالسُّودان الغربي بفضل تُجَّارها وعلماءها الذين تنقَّلوا إلى هناك عبر الطَّريق الرَّابط بين **وارجلان ـ تادمكة ـ غاو**[1].

ولقد اجمعت المصادر على الدَّور الفعَّال الذي قام به التُّجَّار الإباضيَّة في نشر الإسلام ببلاد السُّودان الغربي؛ كما أفادتنا المصادر بنماذج لبعض التُّجَّار الذين كانت لهم رحلات تجاريَّة لبلاد السُّودان منهم الشَّيخ "**أبو صالح الياجراني**" الذي كانت له أسفار إلى مدينة "**تادمكة**"، وكذلك "**تاملي الوسياني**" الذي سافر إلى "**غانة**" واستقر هناك[2].

ومن المؤكَّد أنَّ هؤلاء التُّجَّار لم يحملوا في قوافلهم السِّلع المجلوبة من المشرق والمغرب فحسب، و إنّما حملوا معهم أيضاً أفكارهم ومبادئهم ومعتقداتهم ونظرتهم للدِّين و الدُّنيا معا[3].

فالتَّاجر إلى جانب أعماله التِّجاريَّة كان داعية لدينه يجمع بين نشر الدَّعوة وبيع سلعته وبهذا ارتبطت التِّجارة والدَّعوة ببلاد السُّودان ببعضها البعض؛ بحيث أصبح من الصَّعب الفصل بين دور التَّاجر ودور العالم الدَّعوي، خاصة إذا علمنا أنَّ الكثير من العلماء الإباضيَّة كانوا يُمارسون النَّشاط التِّجاري، فالتِّجارة والدَّعوة وجهان لعملة واحدة.

---

[1] – إلياس بن عمر حاج عيسى: **مدينة وارجلان**، ص.157.

[2] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.374 – 375. **ينظر أيضا**، الشَّمَّاخي: المصدر السَّابق، ج.2، ص.58. **ينظر أيضاً**، مؤلف مجهول: **المعلَّقات**، ص.103.

[3] – مُحمَّد صالح ناصر: **منهج الدَّعوة عند الإباضيَّة**، منشورات جمعيَّة التُّراث، غرداية – الجزائر، **ط.2**، 1999م، ص.270.

وفي هذا السِّياق يرى الدُّكتور "الجنحاني" أنَّه توجد علاقة عضويَّة بين تطوُّر التِّجارة ونشر الإسلام[1] خاصة في المناطق الصَّحراويَّة من المغرب الإسلامي إثر امتداد التِّجارة الصَّحراويَّة منذ القرن3هـ/9م معتمدةً على بضاعتين أساسيتين؛ هما: "الذَّهب" و"العبيد" وبَرزت تجمُّعات سُكَّانيَّة على طول المسالك الرَّابطة بين بلاد السُّودان الغربي والواحات الصَّحراويَّة لخدمة التُّجَّار وبتأثير من التِّجارة، ومن هذه التَّجمُّعات: "**سجلماسة**" "**وارجلان**"، "**غدامس**"، "**توات**"، في الضِّفَّة الشَّماليَّة؛ و"**تادمكة**"، " **ولاته**"، في الضِّفَّة الجنوبيَّة[2].

ولأنَّ من طبيعة التِّجارة القدرة على خلق صلة اتصال وثيقة ومباشرة بين التَّاجر وبين من يتعامل معهم؛ فالتِّجارة عامل قرب بين النَّاس، لذا توغَّل الإسلام لغرب إفريقيا عن طريق التِّجارة، فكان التَّاجر المسلم في تنقُّله بين مختلف المراكز التِّجاريَّة يحتكُّ بالسُّكَّان ويؤثر فيهم بسلوكه الشَّخصي وأمانته وخُلقه الإسلامي؛ وهو ما جعله محلَّ ثقة السُّكان ووفَّر له ذلك القبول الحسن لديهم[3].

فالتُّجَّار المغاربة ولاسيما الإباضيَّة منهم استطاعوا استمالة السُّودانيين لهذا الدِّين من خلال سلوكاتهم ومظهرهم الذي كان عاملاً مُهمًّا في إقبال أهل السُّودان على الإسلام فسلوك وصفات التَّاجر كانت عامل جذب للفرد السُّوداني نحو الإسلام؛ وتتلخَّص تلك المظاهر والسُّلوكيَّات في:

---

[1] – الحبيب الجنحاني: **المغرب الإسلامي الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة(3 – 4هـ/9 – 10م)**، الدَّار التُّونسيَّة للنَّشر، تونس، ط.1، 1978م، ص.16.

[2] – الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص.16.

[3] – مُحمَّد الأمين عطلي: «**الدَّور الحضاري للطرق التِّجاريَّة بين الشَّمال الإفريقي والسُّودان الغربي**»، مجلَّة العلوم_الإسلاميَّة والحضارة،**ع.6**، مركز البحث في العلوم الإسلاميَّة والحضارة، الأغواط–الجزائر، أكتوبر/2017م، ص.252.

• **نظافة البدن والمظهر الجميل والملابس البيضاء:** كان مظهر التَّاجر المسلم يجذب الإفريقي و يؤثِّر فيه، ولقد وصف "الوزَّان" لباس التُّجَّار المغاربة بأنَّه لباس جميل وأنَّهم أكثر أناقة وسخاء[1]، فكان من شأن ذلك أنْ يوثِّق العلاقات بين التُّجَّار المسلمين وبين المُتعاملين معهم، ويخلق نوعاً من الجاذبيَّة والتَّقدير؛ ويتمُّ في هذا الجوِّ تبادل السِّلع والأفكار[2].

• **كثرة الوضوء والصَّلاة:** فالتَّاجر المسلم كان كلَّما دخل قرية سرعان ما يُلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه الذي هو مظهر للنَّظافة المُحبَّبة للنفوس البشريَّة، إضافة إلى انتظام أوقات صلاته وعبادته وحرصه على أداء الصَّلاة في أوقاتها؛ كما كان منظره في سجوده وسكينته يُضفي عليه نوعاً من المهابة والإجلال؛ وهو ما يُحرِّك فطرة الإفريقي الوثني[3].

• **سُمُّو الأخلاق وحُسْنُ المعاملة والمعاشرة:** عُرف عن التُّجَّار المسلمين اخلاصهم في عملهم و بُعدهم عن الغشِّ وأكل الرِّبا، وقد حرص التُّجَّار الإباضيَّة على التَّحرِّي في كسب المال الحلال، و ممَّا روي في هذا الشَّأن أنَّ الإمام "**عبد الوهاب بن رستم**" قد منع ابنه "**أفلح بن عبد الوهاب**" من السَّفر إلى بلاد السُّودان، وذلك بعد أنْ امتحنه في مسائل الرِّبا فتوقَّف في واحدة ولم يُجب عليها، فأمره أبوه بالرُّجوع عن السَّفر خشية أنْ يدخل أموالهم شيء من الرِّبا أو المحظور[4]، وقد أشار "الدِّرجيني" إلى ذلك في

---

[1] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.21.

[2] – عبد الله سالم بازينة: **انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصَّحراء**، منشورات جامعة 7 أكتوبر، طرابلس، ط.1، 2010م، ص.151.

[3] – عبد الله سالم بازينة: المرجع السابق، ص.151. **ينظر أيضا:** عبد الله عيسى: «**مكانة الإسلام في مملكة سنغاي خلال القرن 16م**»، مجلَّة قراءات إفريقيَّة، ع.23، يصدرها المنتدى الإسلامي، الرياض، يناير–مارس/2015م، ص.18.

[4] – مهدي رزق الله أحمد: **حركة التِّجارة والإسلام والتَّعليم الإسلامي في غربي إفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضاريَّة**، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة، الرِّياض، ط.1، 1998م، ص.73. **وينظر أيضاً،** مصطفى شقرون: «**دور التِّجار المسلمين**»، المرجع السَّابق، ص.62.

قوله: «... قد كان أراد السَّفر إلى "**جوجو**" فسأله أبوه عن مسائل الرِّبا فتوقَّف في مسألة واحدة ولم يُجب عنها، فأمره أبوه بالرُّجوع وقال: أقم لئلا تدخل علينا الرِّبا»[1].

وفي رواية "الدِّرجيني" ما يؤكِّد أنّ التُّجار الإباضيَّة بإمكانهم أنْ يقوموا ببثِّ الدَّعوة الإسلاميَّة و يُحبِّبُون النَّاس في الإسلام بسلوكهم الصَّارم في اتباع أصول المعاملات التِّجاريَّة؛ وبالإضافة إلى ذلك فقد أشتهر التُّجَّار بصدقهم وأمانتهم[2].

وفي هذا الشَّأن يورد لنا "الدِّرجيني" رواية عن الشَّيخ "**أبو صالح الياجراني**" لمَّا أراد التَّنقُّل من "**وارجلان**" إلى "**تادمكة**"، كلَّفه رجل من أهل "**وارجلان**" أنّ يبيع له حمل جمل في "**تادمكة**" وكان بِعدَدٍ سمَّاه له، فلمَّا وصل "**تادمكة**" سوَّق ذلك الحمل لكنَّه نقَّص على العدد الذي سمَّاه له صاحب الحمل بشيء قليل، فرأى أنَّه لا يمكن البيع بغير المبلغ الذي حَدَّده له صاحب الحمل، فرجع به إلى "**وارجلان**"، ولم ير النَّاس حمل رجع من "**تادمكة**" إلى "**وارجلان**" غيره و لا سمعوا به؛ و هذا كلَّه لشدَّة التَّحرُّج[3].

وبصرف النَّظر عن مدى صحة هذه الرِّواية أو المبالغة فيها؛ فإنَّها تكشف لنا جانباً مُهمًّا من أخلاق التَّاجر المسلم، وهو جانب مهمٌّ جدّاً في المعاملات التِّجاريَّة يتعلَّق بالأمانة والتَّحرِّي في اكتساب الرِّزق والمحافظة على أمانة الغير، ولقد وصف "الوزَّان" التُّجَّار المغاربة بأنَّهم أناس مُنصفون مُخلصون جدّاً وأمناء في تجارتهم؛ وأهمُّ أسفارهم التِّجاريَّة هو الذي يقومون به إلى بلاد السُّودان[4].

لقد كان التَّاجر داعية إلى دينه إمَّا بطريقة مباشرة أيْ بممارسة الدَّعوة؛ أو بطريقة غير مباشرة؛ وذلك نتيجة اختلاطه وتعامله مع التُّجَّار الآخرين غير المسلمين،

---

[1] – الدِّرجيني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.320.

[2] – مهدي رزق الله أحمد: المرجع السَّابق، ص.74.

[3] – الدِّرجيني: المصدر نفسه، ج.2، ص.374 – 375.

[4] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.21.

فيجذبهم إلى الإسلام بتعامله الحسن، وخُلقه القويم، وصدقه في التَّعامل، وبمظهره الحسن[1].

فكل هذا الزَّخم الهائل من الخلق الحسن خلق دائرة تأثير قويَّة تجذب المتعاملين مع التَّاجر نحوه؛ كما كان دافعا قويًّا للوثنيين لأنْ يتركوا دين آبائهم ويدخلون في الإسلام، لما رأوه ولمسوه وعاشوه؛ وبهذا بدأت مظاهر الوثنيَّة تتراجع بفعل احتكاك أهل السُّودان بالتُّجَّار المسلمين إذْ أبدى هؤلاء تجاوبهم وتفاعلهم مع الإسلام؛ ولقد أشارت المصادر إلى انتشار الإسلام ببعض المدن السُّودانيَّة؛ منها: مملكة "**التَّكرور**" التي تُعدُّ أوَّل منطقة انتشر فيها الإسلام، ذلك بعد إسلام ملكهم "وار ديابيب"؛ وهو أوَّل ملك من ملوك السُّودان يعتنق الدِّين الجديد ويُقرِّهُ ديناً جديداً لمملكته، وهذا ما أكَّده "البكري" خلال وصفه لمدينة "التَّكرور" في قوله: «وأهلها سودان وكانوا على ما سار السُّودان عليه من المجوسيَّة و عبادة الدَّكاكير... حتى وليهم وارجابي بن رايس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها و حقَّق بصائرهم فيها، فأهل التُّكرور اليوم مسلمون»[2] .

أمَّا المملكة التي عَرفت حضوراً قويًّا للإسلام بعد "**التُّكرور**" هي مملكة "**غانة** " التي تقع شرق مملكة "التُّكرور"[3].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ عمليَّة نشر الإسلام ببلاد السُّودان ظلَّت مُستمرَّة وذلك عن طريق: التَّجَّار، والدُّعاة، ثمَّ الحركة المرابطيَّة، إذْ يرى بعض الباحثين أنَّ جهاد المرابطين في الصَّحراء ساعد على انتشار الإسلام في جنوبها وأصبح قسم منها

[1] – مُحمَّد شقرون: المرجع السَّابق، ص.61.

[2] – البكري: المصدر السَّابق، ص.172. **ينظر أيضاً**، رحال بو بريك: «**الإسلام بإفريقيا الصَّيرورة التَّاريخيَّة وأنماط التَّديُّن بغرب إفريقيا**»، **إفريقيا كأفق للتفكير**، مطبوعات أكاديميَّة المملكة المغربيَّة، الرِّباط، ط.1، 2015م، ج.1، ص.266 – 267.

[3] – رحال بو بوريك: المرجع نفسه، ص.267.

تابع لدار الإسلام باعتباره تابعاً للدولة المرابطيَّة؛ وللمرابطين الفضل في تجديد الإسلام ونشر المذهب المالكي في السُّودان الغربي[1]. ولقد ساهمت عِدَّة عوامل في نشر وتغلغل الإسلام بالسُّودان الغربي؛ منها:

2 – 1 – تحوَّل المجتمع الإفريقي من مجتمع فلاحي إلى مجتمع تجاري: وبهذا تشكَّلت تَجمُّعات سُكَّانيَّة حول المراكز المستقرَّة وهذه الأخرى كانت محطة للتُّجَّار المسلمين ومراكز للسُّلطة؛ وهو ما أتاح للتُّجَّار المسلمين الاحتكاك بأكبر عدد من السَّاكنة وخلق مناطق للدَّعوة الإسلاميَّة؛ وبما أنَّ الإسلام هو دين مديني ومدني بالأساس، فالاستقرار كان فرصة سانحة لانتشاره[2].

2 – 2 – بساطة وسماحة العقيدة الإسلاميَّة: فالتُّجَّار المسلمين لم يقيموا وزناً لحاجز اللَّون، إذْ أنَّ لون الزِّنجي لا يحمل اخوانه في الإسلام على أنْ يتعصَّبوا عليه أو يُعاملوه على أنَّه من طبقة دُنيا؛ ففي الإسلام سرعان ما يصبح الأسود المُتحوِّل إلى الإسلام مع المؤمنين على قدم المساواة، ولا يَحُولُ دون لونه أو جنسه[3].

ولقد تمكَّن التُّجَّار الإباضيَّة من خلال شدَّة وَرعهم، وسمُوِ أخلاقهم، وحسن معاملاتهم، من التَّأثير في السُّودانيين وحملهم على ترك وثانيتهم واعتناقهم للدين الإسلامي.

فهل اقتصر تأثير تُجَّار حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة في السُّودانيين عند الجانب العقدي فحسب أمْ أنَّه امتد إلى ما هو أكثر من ذلك؟

---

[1] – مُحمَّد شقرون: **الإسلام الأسود**، دار الطَّليعة للطباعة والنَّشر، بيروت، **ط.1**، 2007م، ص.37. **ينظر أيضاً**،: عزّ الدِّين عمر موسى: «**محاولة لإعادة تقييم دور المرابطين في نشر الإسلام في البلاد السُّودانيَّة**»، أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقيَّة على جانبي الصَّحراء، المرجع السَّابق، ص.190.

[2] – رحال بو بوريك: المرجع السَّابق، ص.269.

[3] – مهدي رزق الله أحمد: المرجع السَّابق، ص.131.

ثالثا: دورها في التَّأثير الثَّقافي والعلمي بالسُّودان الغربي:

لم يقتصر تأثير التُّجار المغاربة بما فيهم تجَّار حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة عند الجانب الاجتماعي والعقدي، وإنّما شمل الميدان الفكري أيضاً؛ وما كان للعلاقات التِّجاريَّة التي ربطت السُّودان الغربي بالمراكز التِّجاريَّة للمغرب الأوسط لتمرَّ دون أنْ تخلِّف آثارا فكريَّة وثقافيَّة كانت عميقة ومهمَّة، أهمِّيَّة العلاقات التِّجاريَّة السَّائدة آنذاكومن الأثار الثَّقافيَّة والفكريَّة التي خلفتها العلاقات الاقتصاديَّة، التَّالي:

1)- انتشار اللغة العربيَّة:

تُعدُّ اللُّغة أكبر وسيلة اتصال ثقافي بين الشُّعوب باعتبارها الوعاء الذي يُوحِّدُ المظاهر السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة؛ فهي لا تتعدَّى عن كونها وسيلة للتخاطب فحسب بل أداة لتوحيد الفكر ونقل التَّجربة الحضاريَّة من مكان إلى آخر؛ فاللُّغة هي القادرة على نقل كل الآراء والأفكار والقيم التي يُراد توصيلها من طرف إلى آخر[1].

وغالبا ما يتمُّ رصد فاعليَّة اللُّغة في اطار رصد الوضع الثَّقافي والمنجز الفكري، لكن ما ينبغي التَّنبيه إليه أنَّ اللُّغة تُمارس دوراً بارزاً في التَّغيُّرات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة؛ وذلك لأنَّها ليست مجرد أداة تفاهم بين النَّاس، بل تحمل من المعاني والدَّلالات في ألفاظها ومصطلحاتها ما يمكِّنُنَا من فهم التَّاريخ، فحضور لغة جديدة في حقل أَلْسُنِي مُغاير، هو مُقدِّمة لإقحام مفاهيم مُبْتكره عن العلاقات الشَّخصيَّة والاجتماعيَّة والمعاملات اليوميَّة في التِّجارة وغيرها، ويمكن الاستدلال على ذلك بالأثر الذي تمارسه كلمتا: "العرضُ و الرِّبَا" في مجتمع لم يكن يستحضر الدَّلالات التي تحيل لها هذه الكلمات[2].

[1] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.208.

[2] – حسين بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.317.

ولقد تضاربت آراء الباحثين حول مدى حضور اللُّغة العربيَّة في السُّودان الغربي؛ فبعضهم يؤكِّد على أنَّها كانت لغة التَّعامل التِّجاري، واتخذتها العديد من القبائل لغة للتَّخاطب[1]؛ ونرى أنَّ هذا الطرح مُبالغ فيه ويتنافى مع الواقع التَّاريخي، ولهذا يستوجب علينا تحليل بعض المعطيات التَّاريخيَّة ورصد أشكال حضور اللُّغة العربيَّة بين السُّودانيين حتَّى يتسنى لنا فهم الدَّور الذي أدَّته اللُّغة العربيَّة في عمليَّة التَّغيير.

تعتبر التِّجارة من أهمِّ الوسائل المُميَّزة في ادخال اللُّغة العربيَّة إلى مختلف مناطق السُّودان الغربي؛ وهذا من خلال استخدام ألفاظها وكلماتها في عمليَّة البيع والشِّراء وعقد الصَّفقات، فوصلت الألفاظ العربيَّة إلى حيث وصل التَّاجر النَّاطق بها[2]

فالتِّجارة بطبيعة الحال تلزم إيجاد لغة للتخاطب بين البائع والمُشتري، كما تُولِّد الصِّلة الحميميَّة بينهما؛ وبما أنَّ اللُّغة العربيَّة كانت أرقى من اللُّغات المحلِّيَّة فمن البديهي أنْ يلتقطها التُّجَّار الأهالي وينشُرونها فيما بينهم، فوضعت هذه العلاقة التِّجاريَّة الحجر الأساس للعربيَّة في بلاد السُّودان، وبدأ أولئك التُّجار يُدخلون كلمات وتعابير في تلك المناطق، وانتشرت تلك الكلمات والتَّعابير تدريجياً حتى توغَّلت في تلك الرُّبوع واندمج بعضها في اللُّغات المحلِّيَّة، خاصة بعد انتشار الإسلام؛ وممَّا يؤكِّدُ هذا وجود كلمات عربيَّة في بعض اللُّغات الإفريقيَّة مثل لغتي: "الهوسا" و "الفلاني"[3].

---

[1] – حسين بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.317.

[2] – مُحمَّد الصَّافي: «**اسهامات علماء المغرب في التَّواصل الفكري والثَّقافي مع بلدان إفريقيا جنوب الصَّحراء**»، **مجلَّة الدِّراسات التَّاريخيَّة والاجتماعيَّة، ع.36**، كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة نواكشط، 2019م، ص.126. **ينظر أيضاً**، مُحمَّد الفران: «**تأثير اللُّغة العربيَّة في بعض اللُّغات الإفريقيَّة**»، أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقيَّة على جانبي الصَّحراء، المرجع السَّابق، ص.131.

[3] – غيثان بن علي بن جريس: **الدَّور الحضاري لنشاط التِّجارة بين شمال وغرب إفريقيا في العصور الإسلاميَّة الوسيطيَّة**، (د. د. ن)، (د. م. ن)، (د. ط)، (د. س. ن)، ص.138 – 139.

وإلى جانب التِّجارة، فقد شكَّل العامل الدِّيني عنصراً هاماً ساهم في انتشار اللُّغة العربيَّة؛ ذلك أنَّ عبادات المسلمين كانت باللُّغة العربيَّة، خاصة إذا أقررْنَا برأي بعض الفقهاء في عدم جواز القراءة بغير العربيَّة في أداء الصَّلاة؛ و لهذا فقد وجب تَعلُّمها وأصبحت ضرورة مُلحَّة لمن اعتنق الإسلام من أهل السُّودان؛ وهذا لفهم الدِّين وأداء فريضة الصَّلاة وحفظ ما تيسَّر من القرآن الكريم، وفي هذا الشَّأن أشار "حسن أحمد محمود" لذلك بقوله: «ما أجمع عليه أغلب الأئمة المسلمين من عدم جواز ترجمة القرآن، فكان لابُدَّ لمن يُريد أن يعرف أسراره أنْ يُقْبِلَ على تعلُّم اللُّغة العربيَّة، وكذلك عدم جواز كتابته بغير العربيَّة، وعدم جواز القراءة بغير العربيَّة في الصَّلاة»[1].

ناهيك على أنَّ مراكز التَّدريس التي تُعلِّمُ أحكام الإسلام تعتمد على اللُّغة العربيَّة؛ وقد جعلت هذه الظُّروف اللُّغة العربيَّة تدريجياً لغة للتواصل والتَّعلُّمِ، وبات من الضَّروري تعلُّمها لمن يرغب في التَّضلُّعِ في الدِّين؛ وقد ساهم غياب لغة سودانيَّة مكتوبة في انتشار اللُّغة العربيَّة في المعاملات التِّجاريَّة وفي كتابة السِّجلَّات الحسابيَّة[2].

أمّا عن مدى حضور اللُّغة العربيَّة بين السُّودانيين؛ فقد تجلَّى في البداية باعتبارها لغة رسميَّة في الإدارة والمُراسلات، وكان هذا منذ عهد مملكة "**غانة**"، "فالبكري" يشير إلى أنَّ صاحب بيت مال الملك وأغلب وزرائه من المسلمين[3]؛ كما حفظ لنا صاحب "الاستبصار" جزءاً من الرِّسالة التي راسل بها ملك "**غانة**" "**يوسف بن تاشفين**" وكانت مكتوبة باللُّغة العربيَّة[4].

---

[1] – حسن أحمد محمود: **الإسلام والثَّقافة العربيَّة في إفريقيا**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط.1، 2001م، ص.43. **ينظر أيضاً**: الصَّافي مُحمَّد: المرجع السَّابق، ص.126.

[2] – أي. إم. لويس: المرجع السَّابق، ص.79. **ينظر أيضاً**: بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.318.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175.

[4] – مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص.219.

وتشير المصادر إلى أنَّ سلطان مملكة "مالي" "**منسى موسى**" وأخوه "**سليمان**" كانا يُتقنان اللُّغة العربية قراءة وكتابة وحديثا، ولم يكونا يَستعمل التُرْجُمان في الحديث مع النَّاطقين بها، إلاَّ التزاما بالتَّقاليد المُلوُكيَّة للسُّودانيين؛ وتمت مراسلاته مع السُّلطان المصري بها وقد جلب معه أثناء عودته من رحلة الحجِّ العديد من الفقهاء لمملكته؛ كما اشترى أيضاً الكثير من الكتب العربيَّة[1].

ولقد عرفت اللُّغة العربيَّة ازدهاراً كبيراً خلال القرن(8هـ/14م) في مملكة "**مالي**"؛ ولعلَّ غياب لغة إفريقيَّة مكتوبة ساهم في ازدهار اللُّغة العربيَّة، كما كان بعض وُلَّاة مملكة "مالي" يُتقْنون العربيَّة و يقرؤون بها؛ ولرُبَّما تعلمهم لها كان على يد بعض فقهاء البلد[2] كما كانت اللُّغة العربيَّة لغة العقود والعهود السُّلطانيَّة في عهد الأساكي[3].

وقد استمرت اللُّغة العربيَّة تمثِّلُ لغة الإدارة والقضاء والمُكاتبات التِّجاريَّة والعلاقات الخارجيَّة وغيرها من المعاملات التي يحتاج فيها إلى التَّخاطب بالكتابة؛ فالكتابة لم تُعْرف في بلاد السُّودان إلاَّ بواسطة اللُّغة العربيَّة، وكل ما كان يُحتاج إلى كتابته وتدوينه وحفظه من الضِّياع، فإنَّه كان يُكْتب باللُّغة العربيَّة دون سواها[4].

إنَّ ما سبق ذكره من أخبار يبرز لنا حضور اللُّغة العربيَّة بين النُّخب المُتعلِّمة وداخل دوائر السُّلطة الحاكمة؛ وبالرُّغم من ذلك فإنَّ هذا لا يمكِّنُنا من القول أنَّ العربيَّة أصبحت اللُّغة الرَّسميَّة لأغلبيَّة السُّودانيين، فالنُّصوص المصدريَّة تكشف لنا عن عدم

---

[1] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.49. وبخصوص المراسلات الدَّاخليَّة بين السُّلطات "منسى موسى" وحكَّام الأقاليم فَيُشير "العمري" بأنَّها «في الغالب لا يكتب شيئا بل أمره بالقول غالبا». **ينظر**، العمري: المصدر نفسه، ج.4، ص.54. **وينظر أيضاً**، مُحمَّد الصَّافي: المرجع السَّابق، ص.126.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.701.

[3] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.137 و 160 و 215.

[4] – عبد العلي الودغيري: **اللُّغة العربيَّة والثَّقافة الإسلاميَّة بالغرب الإفريقي وملامح من التَّأثير المغربي**، منشورات كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرِّباط، ط.1، 2011م، ص.35.

بلوغ اللُّغة العربيَّة مرحلة التَّخاطب بين السُّودانيين؛ ففي مملكة "**غانة**" كان هناك مُترجمين للتواصل بين السُّودانيين والتُّجَّار المغاربة[1].

وفي منتصف القرن(8هـ/14م) يشير "ابن بطوطة" إلى أنَّ سكَّان مدينة "**تياني**" بمملكة "**مالي**" كانوا عاجزين عن استيعاب خطبة الجمعة وبحاجة إلى مُترجم لها[2].

إلاَّ أنَّ هذا لا ينفي من فاعليَّة اللُّغة العربيَّة في تحقيق التَّقارب الاجتماعي بين مختلف الشُّعوب السُّودانيَّة؛ فقد مثَّلت مع الإسلام منطلقاً لتجاوز الانقسامات الدَّاخليَّة، ولقد أشارت بعض الدِّراسات إلى تأثير العربيَّة في اللهجات المحلِّيَّة من خلال دخول عِدَّة مُصطلحات وكذلك من خلال تعبير بعض الحروف ومخارجها ومدلول بعض الكلمات؛ فقد تَدَعَّمَ "**المعجم السُّوداني**" بالعديد من الألفاظ العربيَّة ذات الدَّلالة الاقتصاديَّة كالألفاظ المتعلِّقة بالسِّلع التِّجاريَّة وأنواع النَّباتات والألفاظ الملازمة لعمليَّة التَّبادل التِّجاري[3].

إضافة إلى أسماء الألبسة والأطعمة والحرف والصِّناعات والمهارات والعادات المختلفة؛ هذه الألفاظ من حيث أصولها الاشتقاقيَّة، إمَّا عربية مُحرَّفة من الفصيح، وإمَّا بربريَّة أو مُتأثِّرة في صيغتها الصَّرفيَّة باللِّسان الأمازيغي[4].

وفي كتابي: "تاريخ الفتاش" لـِ"محمود كعت"، و"تاريخ السُّودان لـِ"السَّعدي"، نجد استعمال السُّودانيين للكثير من الألفاظ المغربيَّة؛ منها: البرنوس، بوسكري(نوع من التَّمر)، جنان(بساتين)، حانوت، الدَّلَّال، الرَّحبة، الرَّغايف، زربية، الرَّمكة (الفرس)[5].

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175. **ينظر أيضاً**: بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.319.

[2] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.685.

[3] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.320. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد الصَّافي: المرجع السَّابق، ص.126.

[4] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.322.

[5] – عبد العلى الودغيري: المرجع السَّابق، ص.131 – 192.

وعلى مستوى أسماء الأشخاص يلاحظ تزاوج الاسم العربي والسُّوداني، حيث يُمثِّل الأوَّل: الاسم الشَّخصي، والثَّاني: الاسم العائلي؛ وإذا تمَّ تخصيص الحديث عن أشهر اللُّغات السُّودانيَّة التي اقترضت من اللُّغة العربيَّة، فيلاحظ العدد الكبير من المصطلحات ذات الأصل العربي التي امتصتها مختلف لهجات "الماندي"، وهو ما يُمكِّننا من فهم التَّأثير العميق للُّغة العربيَّة والإسلام على ثقافة هذه المجتمعات، بسبب الحمولة الدَّلاليَّة العربيَّة الإسلاميَّة في كلِّ مصطلح[1].

والجدول التَّالي يُوضِّح الحضور الكبير للألفاظ العربيَّة في مختلف مناحي الحياة لدى السُودانيين، ولقد انتقينا بعض المصطلحات ذات دلالة اقتصاديَّة، ودينيَّة، وكذا اجتماعيَّة؛ مع التَّأكيد على أنَّ المصطلحات ذات الدَّلالة العقائديَّ هي الأكثر حضوراً، ثمَّ تليها المصطلحات ذات الدَّلالة الاقتصاديَّة[2].

الكلمة باللغة العربية	عند الفلان	عند الولوف	عند الماندي	عند السواحلية
المولد النبوي	-------	------	مولد Mawliid	-------
رمضان	--------	-------	رمضانRamadan	--------
عيد الفطر	-------	-------	فطري Fitirr	--------
الزكاة	زكاة Zakaat	زكاة Zakaat	----------	--------
الدفتر	دفتر Deftere	تار Teere	----------	--------
اللوح	لوحُ Lawhu	لوحُ Lawhu	----------	-------
الحرف	حرف Harf	حرف Harf	----------	-------
دكان	--------	-------	----------	دكان Duka
تاجر	--------	-------	----------	تاجر Mtajim

[1] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.323.

[2] – بوبيدي: المرجع نفسه ،ص.324. **ينظر أيضاً:** مُحمَّد الفران: المرجع السَّابق، ص.133.

الكلمة باللغة العربيَّة	عند السَّواحليَّة	الكلمة باللغة العربيَّة	عند الهوسا
مال	Mali	القلم	Alkalami
سوق	Soko	الخبز	Alkhubuz
ورقة	Waraka	الطَّاقيَّة	Tagiga
غرامة	Gharama	قرأ	Karauta
رخيص	Rahisi	المجلس	[1]Majalisa
بيع وشراء	Bia shara	--------	--------

كل ما ورد في الجدول يُوضح لنا انخراط الألفاظ العربيَّة في مختلف اللهجات السُّودانيَّة؛ وهي تحمل دلالات عديدة تبرز تبنِّي السُّودانيين لقيم جديدة وفدت مع التُّجَّار والجاليات؛ كمفهوم الرِّبا والزِّنا والعدَّة والمهر، وألفاظ تمثِّل فاعليَّة الإسلام في المجتمع السُّوداني تتعلق بطلب العلم، ودخول أشياء لم يعرفها مجتمعهم من قبل، فسموها بالاسم الذي جاءتهم به؛ مثل: أنواع الألبسة؛ وكلُّ هذا يكشف لنـــاعن مدى فاعليَّة اللُّغة العربيَّة و تأثيرها في المجتمع السُّوداني[2].

ولم يقتصر حضور اللُّغة العربيَّة على الجانب الاقتصادي والسِّياسي والدِّيني، وإنَّما طال الجانب الاجتماعي أيضاً، ولنا أن نلاحظ ذلك في منظومة التَّسمية للمجتمع السُّوداني والتّي طرأ عليها بعض التَّغيير والتَّحوُّل التَّدريجي من الأسماء المحلِّيَّة؛ مثل: **منين بسي وارجابي، يامازا، كنب، تب، سندياتا، كندوا**؛ إلى أسماء عربيَّة ذات دلالة إسلاميَّة؛ مثل: **مُحمَّد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، سليمان، موسى، جعفر، أيَّوب، حواء**، أو أسماء مُركَّبة سُودانيَّة عربيَّة؛ مثل: **مريم ساري، مريم داب، مُحمَّد فم، كاغ**

[1] – مُحمَّد الفران: المرجع السابق، ص.133 – 134 – 136.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.328.

زكريا[1]؛ وما تجدر الإشارة إليه أنَّ حضور هذه الأسماء اختلف من منطقة إلى أخرى، وهذا راجع إلى حجم الجاليات المغربيَّة بها.

وفي دراسة قام بها الباحث "حسين بوبيدي" حَاول من خلالها رصد التَّغيير الذي طرأ على منظومة التَّسمية في مجتمع السُّودان خلال القرون التَّالية من(ق.5 إلى 10هـ/11 إلى 16م)، كانت كالتَّالي:

جدول أسماء الأشخاص خلال (ق.5هـ/11م):

المدينة	عدد الأسماء المحلِّيَّة	عدد الأسماء العربيَّة	عدد الأسماء المركبة
التَّكرور	2	0	0
غانة	2	0	0
غاوساني	2	10	0
غاو	6	0	0
تادمكة	16	33	2

تدلُّ معطيات القرن (5هـ/11م) إلى أسبقية الحواضر التي تسكنها القبائل الصَّنهاجيَّة الصَّحراويَّة و تستقر بها جاليات مغربيَّة تجاريَّة إلى تبني الأسماء العربيَّة؛ ولقد عرفت مدينة "**تادمكة**" حضوراً معتبراً للتُّجَّار الإباضيَّة، نظراً لوقوعها على الطَّريق الأوسط عبر الصَّحراء الكبرى، لذلك استقرَّ فيها العديد من التُّجَّار المغاربة، ويُذكر أنَّ أغلب سكَّانها برابرة مسلمون[2].

وكانت مدينة "**غاوساني**" مدينة تضمُّ المغاربة و السُّودانيين؛ ومن المُحتمل أنْ تكون بعض الأسماء في "**تادمكة**" و"**غاو ساني**" للجالية المغربيَّة، مثل: أحمد أرْاو سعيد، والفقيه الخير بن مالك، والفقيه علي بن الفقيه مُحمَّد؛ إلاَّ أنَّ حضور أسماء

[1] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.294.

[2] – ابن سعيد: المصدر السَّابق، ص.115. **وينظر أيضاً**، مسعود مزهودي: المرجع السَّابق، ص.146.

محلِّيَّة في بعض الأسماء يدلُّ على وجود عائلات أصيلة، مثل: "كموا"، "تماج"، "مزكيان"، ويلاحظ من خلال سلاسل "**تادمكة**" عمليَّة الانتقال من الأسماء المحلِّيَّة إلى الأسماء العربيَّة في عدَّة نماذج، مثل: "**مُحمَّد بن عبد الله بن كموا**"، "**مُحمَّد بن علي بن ترنضلي**"[1].

ويبدأ التَّسمِّي بأسماء مركبة لأوَّل مرَّة في مثال: "أحمد أراو سعيد"، وفي أوَّل شاهد من شواهد الأسرة الملكيَّة في "ساني" يفتقد اسم الملك الذي تكنَّى بـ: "الملك النَّاصر لدين الله المتوكل على الله أبو عبد الله مُحمَّد بن عبد الله"(ت.494/474هـ)"، و اسم أبيه "زاغي" بما يوحي ببداية تبنِّي هذه الأسرة للأسماء العربيَّة[2].

وفي "**غاو**" استمرَّت التَّسمية بأسماء محلِّيَّة رغم إسلام العائلة المالكة منذ(ق.4هـ/10م) حسب المهلبي[3]؛ حيث تظهر أسماء الملوك في هذه المرحلة سُودانيَّة خالصة "كسي كسي داربي"، "بي كي كم"، "كين نتناسني"، أمَّا في "**غانة**" و"**تكرور**" فاقتصرت العيِّنة على اسمين لملكين في كلِّ مدينة، و هي أسماء سودانيَّة "يسي تنكا منين"، و"ارجابي لبي"[4]. أمَّا في القرن (8هـ/14م)، كانت كالتَّالي:

- جدول أسماء الأشخاص خلال القرن (8هـ/14م):

المدينة	عدد الأسماء المحلِّيَّة	عدد الأسماء العربيَّة	عدد الأسماء المركَّبة
غانة	0	1	0
مالي	12	10	0
تكدا	1	8	0

[1] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.295.

[2] – نفسه.

[3] – المهلبي: **المسالك والممالك**، ص.55.

[4] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.295.

ولاتة	2	6	0
تادمكة	5	19	0
غاو	11	9	9
كوكيا	6	4	1[1]

والملفتُ للنظر في عينات القرن(8هـ/14م) غلبة الأسماء العربيَّة في عدَّة مدن وارتفعت عن نسبتها السَّابقة في مدن أخرى؛ ولعلَّ هذا راجع إلى بدايات تشكُّل الحواضر الإسلاميَّة ذات الإشعاع الثَّقافي مثل "**مالي**"، و"**ولاته**"، و"**غاو**"، وانتقال السُّودانيون من مرحلة استيعاب الثَّقافة الإسلاميَّة إلى نشرها ومحاولة صبغ المجتمع بها؛ ففي مملكة "**مالي**" أصبح أغلب الملوك يحملون أسماء عربيَّة[2].

في حين ظلَّت أسماء النِّساء سُودانيَّة؛ منها: "أنار كنت" زوجة "المنسى موسى"، و "قسا" زوجة "المنسى سليمان، ولا يوجد في "**غانة**" سوى اسم الفقيه "عثمان" الذي نقل عنه "ابن خلدون" معلوماته حول مملكة "**مالي**"[3].

أمَّا مدينة "**تادمكة**" فقد أضحت الأسماء العربيَّة غالبة على سكَّانها مُعلنة بذلك تراجع الأسماء المحلِّيَّة؛ وتظهر فيها صيغة نطق بربريَّة لاسم "مُحمَّد"، هي: "أمحمدن"؛ أمَّا في "**كوكيا**" و "**غاو**" فقد استمرَّ الحضور اللافت للأسماء العربيَّة مع زيادة بارزة للأسماء المركبة في "**غاو**"؛ حيث ساوت لأوَّلِ مرَّة الأسماء العربيَّة؛ وخلافا لأسرة "**زا**" التي بَقيت غالباً وفيَّة للأسماء المحلِّيَّة فإنَّ الملوك الأوائل لأسرة "**سن**" قد تسمُّوا بالأسماء العربيَّة أو المركبة[4].

---

[1] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.298.

[2] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.299.

[3] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.702. **ينظر أيضاً**: ابن خلدون: **العبر**، ج.6، ص.264.

[4] – بوبيدي: المرجع نفسه، ، ص.299.

لقد عبَّر السُّودانيين من خلال اطلاق الأسماء العربيَّة على أولادهم عن رغبتهم في اظهار تمسُّكهم بالإسلام، وحرصهم على تقليد الجالية المغربيَّة المُقيمة بينهم، ولم يكن اختيار الأسماء مُجرَّد تغيير يفتقد إلى الرَّمزيَّة، بل إنَّ ترتيب الأسماء العربيَّة التي اختارها السُّودانيون لأبنائهم سواءً كأسماء مُفْردة أو مُركَّبة؛ يدلُّ دلالة واضحة على التقاء الانتماء الدِّيني مع البعد المذهبي، وهو ما يكشف عليه الإحصاء الذي قام به الباحث "**حسين بوبيدي**" مستنداً في ذلك إلى الأسماء الواردة في النُّقوش المنشورة و المصادر المختلفة[1].

جدول يوضِّح تقسيم الأسماء حسب نسبة الاستعمال بالنسبة للذكور.

الاسم	مشتقاته	ع.حالات الاستخدام	نسبة الاستخدام% من (486)
مُحمَّد	أحمد– محمود–حماد– أمحمدن	139	%28.60
أبو بكر	بكر	43	%8.84
علي	علوا	28	%5.76
عمر	معمر/عمران	25	%5.14
موسى	---------	20	%4.11
إبراهيم	----------	16	%3.29
سليمان	سلمان/سلمن	14	%2.88
عثمان	----------	14	%2.88
عبد الله	----------	8	%1.64
إسحاق	----------	6	%1.23
يوسف	----------	6	%1.23

ومن خلال معطيات الجدول نلاحظ الانتشار الكبير لاسم "**مُحمَّد**" والأسماء المشتقَّة منه، منها: أحمد... الخ؛ ويظهر هذا منذ بداية حضور الأسماء العربيَّة في

[1] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.301.

القرن(5هـ/11م)، وهو ما يدلُّ على توجه اجتماعي للتسمِّي بهذا الاسم لما فيه من إعلان لإتِّباع الرَّسولﷺ والتزام دينه؛ كما يلاحظ ميل السُّودانيين لأسماء الأنبياء وكبار الصَّحابة خصوصاً الخلفاء الرَّاشدين[1]. أمّا بالنسبة للأسماء العربيَّة للإناث، فهي كالتَّالي:

جدول يوضِّح تقسيم الأسماء حسب نسبة الاستعمال بالنسبة للإناث.

الاسم	ع. حالات الاستخدام	نسبة الاستخدام% من (44)
عائشة	10	%22.72
فاطمة	7	%15.90
حواء	7	%15.90
حفصة	4	%9.09
مريم	4	%9.09

مثَّلت نسبة أسماء النِّساء في العيِّنة المدروسة حوالي 15% فقط، وهو ما يقدِّم عدداً أقل من الأسماء؛ وطوال الفترة المدروسة لا يوجد سوى 44 اسما عربياً أو مركباً بالنسبة للنساء من أصل: 121 اسما نسبته 36%، وهو ما يوضِّح بوادر تأخُّر عمليَّة التَّغيير مقارنة بأسماء الذُّكور؛ وبالرُّغم من ذلك يمكن ملاحظة اهتمام السُّودانيين بأسماء نساء عائلة الرَّسولﷺ، بالإضافة إلى اسم "حواء" و"مريم"، كأهمِّ الأسماء التي قدَّمتها النُّقوش والمصادر الأدبيَّة؛ وفي ذلك تبيان لتفضيل السُّودانيين الذين سمُّوا بناتهم بالأسماء العربيَّة للأسماء ذات الدَّلالات الدِّينيَّة[2]، وإلى جانب ذلك فقد لاحظ بعض الباحثون توجُّه السُودانيين إلى تسمية المولود بأسماء الأعياد الدِّينيَّة بأسمائها المحلِّيَّة إذا صادف مولده تاريخها، بالإضافة إلى أسماء الأيّام والأشهر العربيَّة؛ مثل: رجب، شعبان رمضان، عاشور، جُمعة؛ وتضاف علامة التَّأنيث لاسم المرأة؛ فعند

[1] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.301 – 302.

[2] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.302.

"الماندیغ" مثلا: يطلقون اسم **(سونكالو/ sunkolo)** وتعني رمضان بلغتهم، و**(سريبا/seriba)** ويعني عيد الأضحى، و**(دمبا/Domba)** يعني ربيع الأوَّل، ويسمى "الفلان" من وُلد في عيد الفطر **(جلد/Julde)**، وهو اسم هذا العيد عندهم[1].

ولقد عبَّر المجتمع السُّوداني على انخراطه في فلك الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة من خلال تبنيه لمنظومة تسمية جديدة؛ وذلك بالحلول التَّدريجي للأسماء العربيَّة محلَّ الأسماء المحلِّيَّة؛ وهو ما أدى إلى تشكُّل صورة جديدة مخالفة للمرحلة الوثنيَّة، حيث أصبحت أسماء الأشخاص قريبة جدّاً إلى ما هو شائع في دار الإسلام شرقاً وغرباً في تلك المرحلة؛ ولا شكَّ في أنَّ تَغيُّر الأسماء ليس ممارسة عبثيَّة، خاصة إذا قدَّرنا بأنَّ الكثير من الأسماء التَّقليديَّة كانت تحمل دلالات يرفضها الإسلام، كالتَّعبُّد لغير الله، أو إهانة كرامة الانسان، فكان تركها علامة على ترك المعتقدات الفاسدة والقيم المرتبطة بها[2].

وعلى غرار اللُّغة العربيَّة فقد انتشر الخط المغربي أيضاً ببلاد السُّودان، حيث تأثَّرت طريقة الكتابة عندهم بما هو معروف عند المغاربة، وبرز الخط المغربي في كتاباتهم ومُراسلاتهم وعقودهم؛ ففي مملكة "**مالي**" على سبيل المثال، كان الملك يصدر أوامره شفهياً أو يأمر صاحب الدِّيوان بكتابتها باللُّغة العربيَّة أو الخط المغربي[3]، وقد ذكر "العمري" إلى أنَّ كتاب ملك "**مالي**" إلى الحضرة السُّلطانيَّة "**بمصر**" كان مكتوبا بالخط المغربي وفي ورق عريض السَّطر إلى جانب السَّطر[4].

---

[1] – آدم بمبا: «**عيد الأضحى في المجتمع الإفريقي رصد لبعض مضامينه الحضاريَّة**»، المرجع السَّابق، ص.78.

[2] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.302.

[3] – الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، ص.67.

[4] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.58.

كما برز الخط المغربي أيضاً في النَّشاط التِّجاري؛ وذلك من خلال الرَّسائل التي كان يتبادلها التُّجَّار بخصوص بعض السِّلع وأثمانها، ومن الأمثلة على ذلك الرِّسالة التي بعث بها أحد التُّجَّار السُّودانيين، وهو: "**مُحمَّد بن عب**"، إلى التَّاجر: "**بكـــــار بن حيد**" بخصوص ثمـــن بعض السِّلع، وقد كُتبت الرِّسالة بخط مغربي[1]. ولم يقتصر تأثُّر السُّودانيين بالمغاربة في الجانب الثَّقافي على اللُّغة فحسب، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث طال التَّأثير نظام التَّعليم أيضاً.

(2)- النِّظام التَّعليمي ومراحله:

يعتبر النِّظام التَّعليمي من أهمِّ مظاهر عمليَّة التَّفاعل بين الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة وقِيمِ الثَّقافة الإفريقيَّة المحلِّيَّة[2]؛ وقد مرَّ النِّظام التَّعليمي ببلاد السُّودان خلال الفترة محلَّ الدِّراسة بمراحل رئيسيَّة؛ منها:

2 – 1 – مرحلة التَّعليم الأولى (الكتاتيب): تُعدُّ الكتاتيب أوَّل مراحل التَّعليم، وكان السُّودانيون يرتادون الكتاتيب لحفظ القرآن؛ وكانت الطَّريقة المُتَّبعة في تعليم الصِّبيان متشابهة إلى حدٍّ كبير إلى ما كان معمول به في المغرب؛ وذلك أنَّ الأطفال عند التحاقهم بالكُتَّاب يبدأون في تهجِّي وترديد الآيات القرآنيَّة وراء المعلم، وحين يأنس الصَّبِيُّ في نفسه القدرة على الكتابة يأخذ في تدوين الآيات على الألواح الخشبية، ويستمرُّ في الحفظ تحت مراقبة المعلم[3].

أمَّا بِخصوص المواد التي يتلقَّاها المنخرط أو الصِّبيان في هذه المرحلة، فتتمثَّل في تَعلُّمِ القراءة والكتابة بالخط المغربي، وحفظ القرآن الكريم برواية ورش وبعض

---

[1] – نصّ الرِّسالة كاملة في. الهادي المبروك الدَّالي: **التَّاريخ السِّياسي والاقتصادي**،ص.311–312.

[2] – مطير سعد غيث أحمد: **الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة وأثرها على مجتمع السُّودان الغربي– دراسة في التَّواصل الحضاري العربي الافريقي**، دار المدار العربي، بيروت، ط.1، 2005م، ص.219.

[3] – أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.212.

المبادئ الفقهيَّة، وعُرِفت الكتاتيب في بلاد السُّودان بأسماء عديدة؛ منها: "**خلوة**" و "**المحضرة**"[1]. وانتشرت الكتاتيب على ما يبدو في معظم مدن وقرى بلاد السُّودان، بجوار المساجد والتي عادة ما تكون مُلْحقة بها على شكل حُجْرة أو أكثر، مُخَصَّصة للتدريس، مثلما هو شائع في بلاد المغرب؛ وتشير المصادر إلى أنَّ الفقيه "**أبو القاسم التُّواتي**" ابتنى "**محضراً**" في قُبَالة المسجد لاصقا بها وفيها كان يُقْرِأُ الأطفال[2] .

كما وُجِدت هناك نُزُلا لإقامة الطُّلاَّب الذين يأتون من أماكن بعيدة؛ وفي هذا الشَّأن يقول "نعيم قداح": «كانت المدارس ملحقة بالمساجد، فإلى جانب كل مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد وهناك أمكنة أخرى لنوم الطُّلاَّب القادمين من بلاد بعيدة»[3].

وقد حرص أهل السُّودان على تحفيظ أبناءهم القرآن الكريم، وذلك عن طريق التَّلقين والسَّماع من معلِّمه، وكلُّ صبيٍّ يتقاعس على الحفظ يتعرَّض إلى العقاب؛ ولقد أشار "ابن بطوطة" إلى ذلك خلال زيارته لمملكة "**مالي**" بقوله: «... منها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذ ظهر في حقِّهم التَّقصير في حفظه، فلا تُفكُّ عنهم حتى يحفظوه، و لقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له: ألاَ تُسرِّحهم؟ فقال: لا أفعل حتَّى يحفظوا القرآن»[4].

ويُشير "ابن بطوطة" إلى حالة أخرى تعرَّضت للعقاب جراء التَّقصير في حفظ القرآن الكريم في قوله: «ومررت يوما بشاب منهم حسن الصُّورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله

---

[1] – مطير سعد غيث أحمد: المرجع السابق، ص.220. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد الصَّافي: المرجع السَّابق، ص.127.

[2] – الأرواني: المصدر السَّابق، ص.157.

[3] – نعيم قدَّاح: المرجع السَّابق، ص.141.

[4] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.704.

قيْدٌ ثقيل فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عني الشَّاب ضحك، وقيل لي: إنَّما قُيِّد حتى يحفظ القرآن»[1].

أمَّا عن طريقة التَّعليم المُتَّبعة في بلاد السُّودان فقد أشار إليها "الحسن الوزَّان" في قوله: « ولا يُعَلِّمُهم المُعَلِّم القراءة والكتابة من الكتاب، بل في ألواح كبيرة يكتب عليها التَّلاميذ، ودرس كلَّ يوم عبارة عن آية من القرآن، ويختمون القرآن في سنتين أو ثلاثة، ثمَّ يستأنفون ذلك عدَّة مرات، إلى أنْ يحذقه الطِّفل جيداً ويحفظه على ظهر قلب ويحصُل ذلك بعد سبع سنوات على أبعد تقدير؛ وبعد ذلك يقوم المعلِّم بتعليم الأطفال شيئاً من قواعد الكتابة»[2].

وعلى الأغلب أنَّ هذه المرحلة لم ترتبط بسنٍّ مُعيَّنة كما هو سائد في بلاد المغرب، فقد يحدث أنْ يصل السُّوداني مبلغ الشَّباب فيأخذ آنذاك في حفظ كتاب الله؛ ولعل في النَّموذج الثَّاني الذي ذكره "ابن بطوطة" ما يؤكِّد ذلك؛ وكان للصبية أوقات للراحة وأيَّام للعطلة، منها: الخميس والجمعة، أمَّا أيَّام العُطل الرَّسميَّة، أهمُّها: عطلة عيد الفطر، وعيد الأضحى المبارك خمسة عشرة يوماً، وعطلة المولد النَّبوي الشَّريف التي خُصِّص له عشرة أيَّام[3].

وعند الانتهاء من هذه المرحلة يُقام حفل للصبيِّ الذي ختم القرآن الكريم أو جزء منه، مع حفظه لبعض المبادئ الفقهيَّة، بالخروج من الكُتَّاب مع أفراد عائلته وبَقيَّة الصِّبيان بالزَّغاريد والموسيقى إلى البيت الذي يُعدُّ فيه والد الطفل وجبة الطَّعام[4].

---

[1] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.704.

[2] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.1، ص.261.

[3] – ابن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.704.

[4] – أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.212.

2 – 2 – مرحلة التَّعليم الثَّـانية(المسجد): يتمُّ التَّعليم في هذه المرحلة في رحاب المسـاجد أو في منزل الفقيه أحيانا، وهذه المرحلة هي التي تؤهلُّ الطُّلاَّب إلى مرحلة التَّعليم العالي أو الجامعي، ولهذا كان لزاماً على الطَّالب الذي يرغب في مواصلة تعليمه أنْ يدرس ويجتهد بطريقة غير نِظاميَّة في أحد مساجد المدينة[1].

ويتلقى الطَّالب دروسه في هذه المرحلة على يد مجموعة من المُدَرِّسين في حلقات دراسيَّة يحصل من خلالها على علوم التَّفسير، والفقه، والحديث، والفكر الإسلامي، والأخلاق الإسلاميِّة، والتَّاريخ و السِّيرة النّبوية[2]؛ أمّا عن الكتب التي تُدرَّس في هذه المرحلة فهي كتب مُبسَّطة، ويتولى تدريسها غالبا من يُسمُّون بالأشياخ.

2 – 3 – مرحلة التَّعليم العالي(الجامعات): يتمُّ التَّعليم في هذه المرحلة على مستوى الجوامع، وتتميَّز هذه المرحلة عن غيرها من مراحل النِّظام التَّعليمي بأنَّ مناهج الدِّراسة فيها تكون أشدُّ صعوبة وأكثر عُمْقاً من المرحلة السَّابقة، إذ يتمُّ التَّطرُّق فيها إلى القضايا التَّفصيليَّة، والشُّروح الدَّقيقة؛ وبعد فترة من التَّكوين والتي قد تصل أو تزيد عن عشرة سنوات، يُتوَّجُ بعدها الطَّالب بإجازة من شيخه، وهذا بعد مشاركته واجتيازه لامتحانات صعبة من قبل أساتذة كبار مُتضلِّعون في هذا الميدان[3].

وحول هذه المرحلة يشير "عبد القادر زبادية" إلى ذلك بقوله: «فقد كان التَّعليم من النَّوع العالي، حيث تُدرَّسُ المواد في شكل اختصاص وتتناول بتفصيلات واسعة، وتُناقش المسائل فيها على مستوى أُمَّهات المؤلَّفات الكبيرة التي عرفها المسلمون حتى ذلك العهد»[4].

---

[1] – مُحمَّد الصَّافي: المرجع السَّابق، ص.127. **ينظر أيضاً:** مطير سعد غيث أحمد: المرجع السَّابق، ص.222.

[2] – مُحمَّد الصَّافي: المرجع نفسه، ص.127.

[3] – نفسه.

[4] – عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، ص.144.

2 – 4 – مرحلة الاجازات العلميَّة: تُعدُّ الإجازة بمثابة شهادة التَّخرُّجِ، ولا تعطى الإجازة إلاَّ عندما يتأكَّد الأستاذ من أنَّ الطَّالب قد تمكَّن من المادة وأتقنها جيداً وبلغ مرحلة المناقشة والاجتهاد، وتكون الإجازة إمَّا عن طريق نطق الأستاذ بذلك الإقرار، أو على ورقة للطالب المتخرِّج، والإجازة درجات[1].

2 – 4 – 1 – شهادة سماع: و تعني أنَّ الطَّالب اتَّبع أقوال العالم وحفظها.

2 – 4 – 2 – شهادة عرض: أيْ سردِ الطَّالب على أستاذه مع استذكاره للنُّصوص ومعرفة شروحها.

2 – 4 – 3 – إجازة كاملة: وهي أن يصل الطَّالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسـانيد وإرجاعها لمصدرها الأوَّل، وذكر فوارقها في الرِّوايات بعد الإلمام بفنٍّ معيّن من الفنون[2].

وقد تولَّى عمليَّة التَّدريس في بلاد السُّودان الغربي عدد من الفقهاء المغاربة، وفي مقدِّمتهم فقهاء حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة؛ منهم: علماء "**توات**"، فقد ساهم العلماء التُّواتيين في مدِّ مناطق السُّودان الغربي بالأفكار والتَّعاليم الإسلاميَّة كلاًّ حسب طريقته الخاصة؛ فمنذ تأسيس مدينة "**تمبكتو**" في القرن(5هـ/11م) وهي مقصد لكثير من العلماء والفقهاء الذين استقروا بها[3].

---

[1] – مُحمَّد الصَّافي: المرجع السَّابق، ص.128.

[2] – نفسه.

[3] – عبد الله عباس: «**التَّأثيرات الحضاريَّة لإقليم توات في بلاد السُّودان الغربي خلال العصر الوسيط**»، **مجلَّة الحقيقة، ع.34،(ع.3، مج.14)**، قسم العلوم الإنسانيَّة، جامعة أحمد دراية، أدرار – الجزائر، سبتمبر/2015م، ص.100.

ويعتبر الشَّيخ "**أبا القاسم التُّواتي**" من أشهر أئمة جامع "السَّنكري"، وكان محلُّ احترام وتقدير الجميع[1]، ولقد ذكر صاحب "الفتح الشَّكور" أسماء أزيد من أربعين شخصيَّة تواتيَّة من أهل الصَّلاح والولاية والفقه، كان لهم تأثيراً كبيراً في بلاد التَّكرور[2].

2 – 5 – المقرَّرات الدِّراسيَّة: يقصد بالمقرَّرات الدِّراسية مجموعة الكتب والعلوم التي كانت تُدرَّس في بلاد السُّودان؛ وكان في مقدمة تلك العلوم: علوم القرآن الكريم، وقد أشار "ابن بطوطة" إلى ذلك في قوله: «... فهم مسلمون محافظون على الصَّلوات وتعلُّم الفقه وحفظ القرآن»[3]، بالإضافة إلى كتب الحديث الشَّريف الصَّحيحين "**البخاري ومسلم**" حيث كانت منتشرة في بلاد السُّودان ورائجة في حلقات العلم، بالإضافة إلى مؤلَّفات الفقه المالكي التي عَرفت ذُيُوعاً بين الفقهاء والطَّلبة السُّودانيين، متمثلة أساسا في: كتاب "القاضي عياض" "**الشفا**" و"**الرسالة**" لـِ"ابن أبي زيد القيرواني"، و"**المدوَّنة**" للإمام "سحنون عبد السَّلام بن سعيد"، و"**مختصر خليل**"[4].

وعلاوة على ذلك فقد أشار "ابن بطوطة" إلى تواجد كتاب "**المُدْهش**" لـ"ابن" الجوزي في بلاد السَّودان[5]، بالإضافة إلى علم النَّحو؛ واشتهر للتدريس به كتاب "**ألفية ابن مالك**".

3)– المؤسسات التَّعليميَّة ببلاد السُّودان:

تَعدَّدت المؤسَّسات التَّعليميَّة التي أشرفت على تكوين وإعداد الطَّلبة ببلاد السُّودان؛ ومن أبرزها:

---

[1] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.58.

[2] – البرتلي: المصدر السَّابق، ص.97.

[3] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.790.

[4] – أحمد الشُّكري: المرجع السَّابق، ص.215 – 216.

[5] – ابن بطوطة: المصدرنفسه، ،ج.2، ص.708.

3 – 1 – المساجد: لم يقتصر دور المسجد على أداء الصَّلوات فقط وإنَّما كان يؤدِّي أدواراً أخرى أيضا، أبرزها الدَّور التَّعليمي والتَّربوي، حيث أدَّتِ المساجد دوراً كبيراً في نشر الإسلام وتفقيه النَّاس؛ وأشارت المصادر بما فيها المصادر الجغرافيَّة إلى انتشار المساجد ببلاد السُّودان الغربي، "فالبكري" خلال حديثه عن مملكة "**غانة**" أشار إلى وجود اثنا عشرة مسجدا بها[1]، كما اشتهرت مدينتي "**تمبكتو**" و"**غاو**" بكثرة مساجدها، ويُضيف صاحب "تاريخ الفتَّاش" بأنَّ سلطان "**مالي**" "**منسى موسى**" قد أنشأ أثناء سفره إلى الحجِّ مسجداً في كل مدينة يمرُّ بها[2]، ومن أشهر مساجد بلاد السَّودان:

3 – 1 – 1 – الجامع الكبير(مسجد جنغربير): أطلق عليه أهل السُّودان اسم "**الجامع الأعظم**" وهو أوَّل مسجد بُنيَ في "**تمبكتو**"، أشرف على بناءه السُّلطان "**منسى موسى**"، وكان بناءه على الطِّراز المغربي[3]، ووصف أوسكار لنز **(oskar lenz)** هذا المسجد بأنَّه مبنى حصين وممتد، له فناء واسع و بُرج ذو شكل مربع كما في بلاد المغرب[4]؛ و قد تولَّى إمامة الجامع الكبير عددٌ من الأئمة، منهم:

✓ **الإمام أبو القاسم التُّواتي:** وهو من أكبر العلماء التُّواتيين الذين سكنوا "**تمبكتو**" وكان إماماً في الجامع الكبير، وقد سكن بجواره من جهة القبلة وابتنى داراً بالقرب من المسجد ليُعلِّم فيها الأطفال[5].

✓**الإمام منصور الفزاني:** وهو تلميذ "**أبو القاسم التواتي**"، خلفه في منصب الإمامة بعد وفاته، و هو من علماء بلاد المغرب[1].

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175.

[2] – مَحمود كعت: المصدر السَّابق، ص.36.

[3] – الهادي مبروك الدَّالي: **مملكة مالي الإسلاميَّة وعلاقاتها مع المغرب وليبيا**، تق: مُحمَّد رزوق، دار الملتقى للطباعة والنَّشر، بيروت، ط.1، 2001م، ص.104.

[4] – oskar lenz: **Tombouctou voyage au Maroc au Sahara et au soudan**, 2Tome, libraire Maghette, paris, 1887, p151.

[5] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.58.

✓**الإمام علي الجزولي:** كان من عباد الله الصالحين مكث في الإمامة 18 عاما[2].

3 – 1 – 2 – مسجد سنكري: بُني من طرف امرأة ذات مال كثير وحسب ونسب، وعُرف باسم "سنكري" نسبة إلى الحيِّ الذي بني فيه[3]، وبالقرب منه كانت تَصطفُّ حوانيت الورَّاقين الذين يستنسخون الكتب للطلبة؛ وكان من المناظر المألوفة رؤية فقيه يُملي على الكَتَبَةِ فصولاً من كتاب أو حاشية، ولا ينتهي من إملائه إلاَّ وقد حصلت للورَّاق عدَّة نسخ من ذلك الكتاب[4]؛ وقد أضحى المسجد بذلك جامعة إسلاميَّة راقية على نمط "**الجامع الأزهر**" في "**مصر**" وذاع صيته بما بلغه من مستوى علمي رفيع ليجعل من مدينة "**تمبكتو**" عاصمة من عواصم الدِّين والعلم والأدب في السُّودان الغربي[5]، وقد تعاقب على إمامة مسجد "**سنكري**" العديد من الأئمة، منهم:

✓ **الإمام أندغ مُحمَّد بن الفقيه المختار النَّحوي:** ولاه القاضي مُحمود الإمامة في رمضان بعد وفاة أبيه، وكان عالماً متواضعاً، مادحًا لرسول الله ﷺ، ومُدرِّسا لكتاب "**الشِّفا**" للقاضي عياض[6].

✓ **الإمام الفقيه أبو بكر بن أحمد بير:** تولى الإمامة كرهًا فصلى بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم خرج من البلد هاربا[7].

✓ **الإمام عبد الرَّحمان بن الفقيه محمود:** وهو أخ الفقيه "أبي بكر بن أحمد بير" قدَّمته الجماعة لتولي منصب الإمامة بعد فرار أخيه[1].

=

[1] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.58.

[2] – البرتلي: المصدر السابق، ص.197.

[3] – السَّعدي: المصدر نفسه، ص.62.

[4] – مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.521.

[5] – أمطير سعد غيث: المرجع السَّابق، ص.184 – 185.

[6] – البرتلي: المصدر السابق، ص.107.

[7] – السَّعدي: المصدر السابق، ص.63.

3 – 1 – 3 – مسجد سيدي يحي التَّادلسي: يُعتبر من أقدم المساجد في "**تمبكتو**" شُيِّد في عهد حكم الطَّوارق(ق.5هـ/11م) ليكوُن جامعاً للصلوات الخمس والجمعة، وعند انقراض دولة الطَّوارق هُدِّم المسجد ولم يبقى منه إلاَّ بعض الأجزاء، فقام الشَّيخ "**مُحمَّد نصن**" وهو فقيه مغربي من قبيلة **آجر** الصَّنهاجيَّة بإعادة بناءه، وجعل الشَّيخ سيدي "**يحي التَّادلسي**" إماماً و مُدرِّساً فيه[2].

وعلى غرار المساجد برزت الكتاتيب أيضاً كمؤسسة تعليميَّة، اختصَّت بتعليم الصِّبية القرآن الكريم ومبادئ اللُّغة العربيَّة.

وممَّا سبق ذكره نستنتج أنَّ النَّظام التَّعليمي ببلاد السُّودان، كان مُتشابها لحدٍّ كبيرٍ لما كان عليه التَّعليم ببلاد المغرب، سواء من حيث المراحل التَّعليميَّة، أو المُقرَّرات الدِّراسيَّة أو المؤسَّسات المتصدرة للتعليم، وهذا راجع أوَّلاً: إلى تأثُّر السُّودانيين بالمغاربة، وثانياً: إلى توافد عدد معتبر من علماء المغرب الاوسط على بلاد السُّودان، لاسيما علماء الحواضر الصَّحراويَّة الذين استقرَّ عدد كبير منهم هناك، وكان لهم نشاط دؤوب من أجل ترقية المنظومة التَّعليميَّة بالسُّودان الغربي وجعلها على غرار ما هو موجود بالحواضر الصَّحراويَّة، تكويناً وانتاجاً.

4)– المراكز الثَّقافيَّة ببلاد السُّودان الغربي:

ساهم وجود العديد من المؤسسات التَّعليميَّة بمختلف مناطق السُّودان الغربي في خلقِ وتشكُّل مراكز ثقافيَّة علميَّة، كان لها الفضل في بروز حراك ثقافي، أشرف عليه علماء ومشايخ أجلاء؛ كان لهم الفضل في جعل مواطنهم مراكز ثقافيَّة إسلاميَّة؛ ومن أهمِّ هذه المراكز الثَّقافيَّة، التَّالي:

=

[1] – السَّعدي: المصدر السابق ، ص.63.

[2] – السَّعدي: المصدر نفسه ، ص.74.

4 – 1 – غانة: تُعدُّ "**غانة**" من أهمِّ المراكز الثَّقافيَّة السُّودانيَّة التي عرفت حضوراً معتبراً للجاليات المغربيَّة التي قصدتها من كلِّ حدب و صوب، فأضحت بذلك مركز استقطاب للوافدين، لاسيما رجال الدَّعوة منهم؛ الذين وفدوا إليها خصوصا من حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، وحملوا على عاتقهم نشر الإسلام في تلك المناطق؛ ويشير "البكري" إلى وجود الأئمة والفقهاء وطلبة العلم بها، في قوله: «... ومدينة "غانة" مدينتان سهليَّتان، أحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشرة مسجداً أحدها يجتمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذّنون والرَّاتبون، وفيها فقهاء وحملة عِلْمٍ»[1].

ويرى الباحث "علي إبراهيم طرخان" أنَّ مظاهر هذا الدِّين من الشَّعائر والمساجد والثَّقافة واللُّغة العربيَّة قد وجدت طريقها إلى بلاد "**غانة**" في زمن مُبكر قبل دور المرابطين[2]، وفي رأيي الباحث جانب كبيرٌ من الصَّواب، خاصة ونحن نعلم أنَّ أغلب التُّجَّار الإباضيَّة الذين وفدوا إليها كانوا من علماء الدَّعوة، وتُشير المصادر إلى تواجدهم في المدينة بأعداد مُعتبرة، فهم إلى جانب تسويق سلعهم كانوا يسوِّقون آرائهم الدِّينيَّة وثقافتهم الإسلاميَّة أيضاً، فأضحوا بذلك مُبشرين لتلك الثَّقافة في بلاد السُّودان[3].

وقد أمدَّتنا كُتب السِّير والطَّبقات الإباضيَّة بأسماء بعض العلماء وأهل الدَّعوة الذين وصلوا إلى "**غانة**" عن طريق "**وارجلان**"؛ منهم: الشَّيخ "**أبو موسى هارون بن أبي عمران**"[4]، أعدَّه "الشَّمَّاخي" من شيوخ أهل الدَّعوة سافر إلى "**غانة**"، وتوغَّل إلى أبعد منطقة وصل إليها المسلمون آنذاك، وهي "**غيارو**"، فَسَفَرُ هذه الشَّخصيَّة إلى

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175.

[2] – علي إبراهيم طرخان: المرجع السَّابق، ص.43.

[3] – عبد الكريم يوسف جودت: **العلاقات الخارجيَّة للدولة الرُّستميَّة**، المرجع السَّابق، ص.283.

[4] – ينظر إلى ترجمة: في الفصل الثالث

"**غانة**" وتوغُّله هناك لا يمكن أنْ يكون لغرض تجاري(جلب التِّبر) وطلباً للربح الوافر؛ كما ذهب إليه بعض المؤرخين أمثال "ليفتسكي"[1].

ونحن نستبعد الغرض المادي في رحلة الشَّيخ إلى "**غانة**" وتوغُّله فيها، وما يُؤكِّدُ لنا ذلك هو طول إقامته بها إلى أنْ وافته المَنيَّة ودفن هناك؛ فمن الواضح أنَّ هذه الرِّحلة كانت لغرض ديني وهو الدَّعوة لدين اللّه ونشر تعاليم الإسلام بين السُّودانيين، وهذا ما أكَّده الباحث "صالح ناصر" الذي يرى أنَّ سبب سفره هو الدَّعوة لدين الله ونشر تعاليم الإسلام؛ ويقول في ذلك: «وإنَّما الذي نراه من أسبابه الدَّعوة إلى دين الله ونشر تعاليم الإسلام بين أُناس بدائيين وقد طال مقامه بينهم إلى أنْ توفاه الله فدفن هناك، وما دام هذا العالم من المعدودين بين أهل الدَّعوة المقتدرين على التَّوجيه والإرشاد فإنَّ ذلك يُعزِّز من الاحتمال الذي نذهب إليه و يقوِّيه»[2].

وبالإضافة إلى الشَّيخ "**أبو موسى هارون**" فقد ذكرت المصادر شخصيَّات أخرى قصدت "**غانة**" بهدف التِّجارة و الدَّعوة إلى الله ونشر الإسلام، ومن هؤلاء الشَّيخ " **فلحون بن إسحاق**"، فقيه وتاجر وهبي من "**بني واسين**"، كان معاصراً للشَّيخ " **أبي نوح سعيد بن زنغيل**" سافر من "وارجلان" إلى "غانة" واستقرّ "**بغيارو**" إلى أنْ توفى بها[3].

4 – 2 – تمبكتو: تعتبر "تمبكتو" من أهمِّ المراكز الثَّقافيَّة بالسُّودان الغربي، تأسَّست على يد طوارق مقشرن العائدة في أصولها إلى قبيلة "**صنهاجية**" المُسْتوطنة على تخوم الصَّحراء الكبرى من جهة الجنوب، كانت مدينة إسلاميَّة منذ نشأتها، فهي دار فقه

---

[1] – lewicki.(T):**L'état nord –africain de Tahert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle**, cahiers d'Etudes Africaines, vol, cahier8, 1962, p.529.

[2] – مُحمَّد صالح ناصر: **دور الإباضيَّة في نشر الإسلام**، ص.22 – 23.

[3] – الوسياني: المصدر السَّابق، ج.2، ص.567.

وعلم وصلاح، سكنها صفوة من العلماء والفضلاء حتَّى أنَّه لا يوجد مكان في المدينة إلاَّ وفيه وليٌّ من أولياء الله[1].

وقد قال عنها السَّعدي: «ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قطٌّ لغير الرَّحمان، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزَّاهدين، وملتقى الفلك واليسار»[2].

حظيت مدينة "**تمبكتو**" بأهمِّيَّة بالغة وذلك نظراً لموقعها الجغرافي الهامِّ، فهي تقع على الحافة الجنوبيَّة للصحراء الكبرى على منحى نهر النِّيجر، وهو ما ساهم في ازدهارها السِّياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري[3]، فأصبحت تمثِّل مركز الإنتاج الثَّقافي الأوَّل في بلاد السُّودان؛ وقد أشار القاضي "مَحمود كعت" إلى أهمِّيَّة "**تمبكتو**" الثَّقافيَّة باعتبارها أحد مراكز الإشعاع الثَّقافي في بلاد السُّودان؛ فقال ما نصه: «... لا نظير لها في البلدان من بلاد السُّودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مُلئ مروءة وحريَّة، وتعفُّفاً وصيانة وحفظا للعرض ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء، وتلطُّفاً بطلبة العلم وإعانتهم»[4]

شهدت مدينة "**تمبكتو**" نشاطاً علميًّا لا نظير له بعد أنْ ضمَّها السُّلطان "**منسى موسى**" إليه وجعل منها دار السَّلطنة عام(726هـ/1325م)، وذلك عقب عودته من رحلة الحجَّ، واشتهرت المدينة بكثرة مؤسَّستها التَّعليميَّة، التي كانت بمثابة منارات علميَّة زاخرة بالمعارف والعلوم؛ منها: المدارس والمساجد والجوامع، ومن أبرزها جامع "**تمبكتو الكبير**" أو "**المسجد الأعظم**" كما يطلق عليه السُّودانيون، بالإضافة إلى

---

[1] – مُحمَّد حمد كنان ميغا: المرجع السَّابق، ص.26. **ينظر أيضاً**: الهادي المبروك الدَّالي: **مملكة مالي**، ص.91 – 94.

[2] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.21.

[3] – الهادي المبروك الدَّالي: **مملكة مالي**، ص.92.

[4] – مَحمود كعت: المصدر السَّابق، ص.295.

"**مسجد سنكري**" الذي قامت بتشييده سيدة أغلالية فاضلة؛ كانت ذات ثروة وحسب ونسب[1].

وقد ذاع صيت هذه الجامعة بما بلغته من مستوى علمي رفيع، حيث جعلت من مدينة "**تمبكتو**" عاصمة من عواصم الدِّين والعلم والآداب في بلاد السُّودان؛ وقد انفتحت "**جامعة سنكري**" على العديد من مراكز العلم والثَّقافة في الأندلس والشَّمال الإفريقي، في "**فاس**" و"**مراكش**" و"**بجاية**" و"**تونس**" و"**طرابلس**"، وكان التَّشابه واضحاً بينها وبين "**جامعة القرويين**" بفاس[2]؛ وإلى جانب ذلك برزت "**بتمبكتو**" العديد من الكتاتيب والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم؛ ولقد ساهمت جملة من العوامل في تنشيط الحركة الثَّقافيَّة والعلميَّة بمدينة "**تمبكتو**"، منها:

1/- الموقع الجغرافي للمدينة، وذلك لقُربها من المراكز الحضاريَّة في بلاد المغرب؛ كونها بوابة لدخول القوافل إلى بلاد السُّودان.

2/- توافد العديد من العلماء والفقهاء عليها واستقرار الكثير منهم بها؛ إذ توافد عليها عددٌ من العلماء والفقهاء من مختلف الأقطار الإسلاميَّة، لاسيما علماء حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، ومثال ذلك: "**الإمام أبو القاسم التُّواتي**" و ابنه، الشَّيخ "**مُحمَّد بن أبو الزَّمُّوري**"، "**مُحمَّد بن علي التُّواتي**"[3].

3/- اهتمام السَّلاطين بالجانب الثَّقافي والعلمي وفي مُقدِّمتهم السُّلطان "**منسى موسى**"، حيث انصبَّ جُلُّ اهتمامه على تطوير الجانب العلمي والثَّقافي "**بتمبكتو**"؛ وقد

---

[1] - وهي من قبيلة الأغلال التي قطنت جبال أدرار الصَّحراويَّة ببلاد شنقيط. **ينظر**، مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.553. **ينظر أيضاً**: السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.206.

[2] - الهادي المبروك الدالي: **مملكة مالي الإسلاميَّة**، ،ص.105.

[3] - البرتلي: المصدر السَّابق، ص.69. **ينظر أيضا**: مولاي أحمد الأرواني: **السَّعادة الأبديَّة في التَّعريف بعلماء تمبكتو البهيَّة**، تح: الهادي المبروك الدَّالي، جمعيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة، بنغازي، ط.1، 2001م، ص.75 وما بعدها. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد حوتيَّه: المرجع السَّابق، ج.1، ص.277 - 278.

جلب معه في رحلة حجه عدد من العلماء والفقهاء للتدريس بـِ"جامعة سنكري"، كما أوفد عدد من طُلَّاب العلم للدراسة في "جامعة القرويين"، كما عمل على اقتناء المخطوطات ونوادر الكتب من "**مصر**" و"**الحجاز**"، ومن الأقطار التي مرَّ بها، وخَصَّص جزءاً من أموال مملكته لشراء الكتب[1].

4/- تشجيع السَّلاطين للعلماء والفقهاء: كان أغلب حُكَّام بلاد السُّودان يُحبُّون العلماء ويُبجِّلونهم ويحرصون على احترامهم وتبجيلهم؛ ويشير "مُحمَّد كعت" إلى أنَّ السُّلطان "**منسى موسى**" كان لا يُسلِّم على أحد في مملكته إلاَّ على القاضي[2]، واستمر هذا الأمر إلى عهد الأسيقيين؛ إذ شجَّعوا العلماء، وقدَّروا الأدباء، وأغدقوا عليهم الأموال وشجَّعوهم على الإقامة ببلادهم، لتثقيف النَّاس وارشادهم في أمور دينهم[3].

5/- رواج تجارة الكتب بها: وهي من أهمِّ العوامل التي أدَّت إلى ازدهار الحركة الثَّقافيَّة والعلميَّة بتمبكتو، وفْرَتِ الكتب والمكتبات العامة والخاصة؛ فقد اهتم أهلها باقتناء واستنساخ الكتب، واستوى في ذلك العلماء والملوك والتُّجَّار[4]، حيث ساهم التُّجَّار في جلبها إلى أسواق المنطقة؛ وقد أشار " الوزَّان" إلى انتشار المخطوطات بمدينة "تمبكتو" بقوله: «وتُباع أيضاً مَخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدرُّ أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع»[5].

---

[1] - الهادي المبروك الدَّالي: **مملكة مالي**، ص.107. **ينظر أيضاً**: دنيس يولم: **الحضارات الإفريقيَّة**، تر: علي شاهين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، **ط.1**، 1974م، ص.50.

[2] - مُحمَّد كعت: المصدر السَّابق، ص.122. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد رزوق: **دراسات في تاريخ المغرب**، دار إفريقيا الشَّرق، الدَّار البيضاء، ط.1، 1991م، ص.112.

[3] - شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرَّزَّاق إبراهيم: **تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم**، دار الثَّقافة، القاهرة، ط.1، 1996م، ص.118.

[4] - مُحمَّد الغربي: المرجع السَّابق، ج.1، ص.556.

[5] - الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.167.

ولقد ساهمت هذه العوامل في ازدهار مدينة "تمبكتو" ثقافياً وعلمياً، وأضحت بذلك مركز إشعاع علمي؛ وقد ضمَّت المدينة عدداً من العلماء والفقهاء الذين ساهموا في ازدهارها وكانوا جزءاً من الحركة الثَّقافيَّة بها، وقد ترجم "السَّعدي" لعدد معتبر منهم، ومن الأمثلة على ذلك:

- ✓ (الفقيه الحاج جدُّ القاضي عبد الرَّحمان بن أبي بكر بن الحاج)[1].
- ✓ الفقيه أبو عبد الله أندغ مُحمَّد (كان حيًّا خلال القرن 9هـ/15م)[2].
- ✓ الفقيه القاضي الإمام كاتب موسى (ت ق 9هـ/15م)[3].
- ✓ الفقيه المختار النحوي (ت 922هـ/1516م)[4].

4 – 3 – جنى: تُعدُّ مدينة "**جنى**" من أهمِّ المراكز العلميَّة في السُّودان الغربي؛ وبخصوص موقعها الجغرافي يذكر "السَّعدي" بأنَّها إلى الجنوب الغربي من مدينة "**تمبكتو**"، على مرحلة من الضِّفة اليسرى لنهر "بَنِى" أحد روافد نهر النِّيجر[5].

انخرطت مدينة "**جنى**" في الإسلام خلال القرن(6هـ/12م)، فقد أسلم أهلها بإسلام ملكهم "**كُنبُرُ**" ويُشير "السَّعدي" إلى ذلك بقوله: «ابتدأت في الكفر في أواسط القرن الثَّاني من الهجرة النَّبويَّة على صاحبها أفضل الصَّلاة والسَّلام، ثمَّ أسلموا عند تمام القرن السَّادس والسلطان "**كُنبُرُ**" هو الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه، ولمَّا عزم على الدُّخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا على أرض المدينة... فكانت مقبولة وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعاينة»[6] .

---

[1] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.27.

[2] – السَّعدي: المصدر نفسه، ص.28. **ينظر أيضاً:** البرتلي: المصدر السَّابق، ص.112.

[3] – السَّعدي: المصدر نفسه، ص.57.

[4] – السعدي: المصدر نفسه، ص.28 – 29. **ينظر أيضاً:** الأرواني: المصدر السَّابق، ص.84.

[5] – مُحمَّد حمد كنان ميغا: المرجع السَّابق، ص.27. **ينظر أيضاً:** السَّعدي: المصدر نفسه، ص.12.

[6] – السَّعدي: المصدرنفسه، ص.12.

توافد إليها العلماء وشيوخ العلم منذ وقت مبكر، ومن كلِّ حدب وصوب، واتخذوا بها المساجد والمدارس لتعليم القرآن الكريم واللُّغة العربيَّة، ومختلف العلوم الإسلاميَّة، ونُفِقت فيها أسواق العلوم والمعارف، ورحل النَّاس إليها من كلِّ مكان[1].

ويؤكِّد "السَّعدي" ذلك بقوله: «وقد ساق الله لهذه المدينة المباركة سكَّانًا من العلماء والصَّالحين من غير أهلها من قبائل شتى وبلاد شتى»[2]؛ وأضحت بذلك مركزاً إسلاميّاً وعلميًّا وثقافيًّا مباركاً، واحتلت بذلك المرتبة الثَّانية بعد مدينة "**تمبكتو**" من حيث الأهمِّيَّة العلميَّة والثَّقافيَّة، وهذا بشهادة "السَّعدي" فقد كانت "**جنى**" سببا في ازدهار مدينة "**تمبكتو**" وشهرتها في الآفاق فيؤكد ذلك بقوله: «ومن أجل هذه المدينة المباركة يأتي الرِّفاق من جميع الآفاق إلى **تمبكتو** شرقهاً وغربهاً ويمينهاً وشمالهاَ»[3].

وقد ساهم المسجد الجامع الذي بناه الملك "**كُنبُرُ**" خلال القرن(6هـ/12م) في ازدهار هذه المدينة؛ إذ شكَّل هذا المسجد مركزاً ومعهداً للدراسات الإسلاميَّة واللغويَّة، وكان يُضاهي في عطائه معاهد "**تمبكتو**"[4]، وهو ما أدى إلى انتعاش الحركة التَّعليميَّة بها وقيام الحلقات الدِّراسيَّة والمناظرات العلميَّة التي كانت تجرى في منتصف اللَّيل، وذلك لانشغال النّاس في بقية الأوقات[5]؛ وقد وفد إلى مدينة "**جنى**" عدد من العلماء والشُّيوخ وهذا بقصد التَّعليم ونشر العلوم الدِّينيَّة ومختلف المعارف، ولقد أفادنا "السَّعدي" بأسماء عدد مُعتبر من العلماء والفقهاء الذين أسهموا في إثراء الحركة الثَّقافيَّة بمدينة "**جنى**" إلاَّ أنَّ أغلبهم كان له حضورا خلال القرن (10هـ/16م)؛ ومن بين هؤلاء:

---

[1] – مُحمَّد حمد كنان ميغا: المرجع السابق، ص.27.

[2] – السَّعدي: المصدر السابق، ص.16.

[3] – السَّعدي: المصدر نفسه، ص.12. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد حمد كنان ميغا: المرجع نفسه، ، ص.27.

[4] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.269.

[5] – السَّعدي: المصدر نفسه، ص.16.

✓ **الفقيه مور مغ كنكى(كان حيًّا خلال القرن 9هـ/15م):** من أعلام الثَّقافة الإسلاميَّة في مدينة "جنى" وفي بلاد السُّودان كلِّها، وهذا لِمَا خلَّفه من أثر في الحياة العلميَّة بين أهالي المدينة من علماء، وطُلاَّب علم، وعامة النَّاس؛ وصفة السَّعدي بأنَّه «فقيها عالما عابدا جليل القدر، لَمَّا سمع به طلبة العلم اِلتفُّوا من حوله لاقتباس فوائده وفي نصف الليل يخرج من داره إلى الجامع لنشر العلم..»[1].

4 – 4 – جاو(غاو): شَهدت "**جاو**" نشاطاً ثقافياً معتبرا منذ اعتلاء السُّلطان "**منسى موسى**"عرش مملكة "مالي"؛ وذلك بعد عودته من رحلة حجِّه الشَّهيرة عام (725هـ/1325م)، حيث قام ببناء مسجد فخم **بجاو**[2]، وقد أشار "ابن بطوطة" أثناء زيارته لمدينة "**جاو**" إلى وجود مسجداً للبيضان بها، يؤُمُّه فقيه من تافيلالت[3].

كما عرفت "**جاو**" انتشاراً للمكتبات التي كانت تتوفَّر في المدينة بغرض البحث والمطالعة، ومن أشهرها مكتبة "**أسكيا داود**"، ومكتبة "**مُحمَّد الأوّل**"، ومكتبة "**أسكيا مُحمَّد بان بن أسكيا داود**"، وهو ما جعل منها مركزاً علمياً ثقافياً زاخرا بالمعرف، إلى جانب كونها العاصمة السِّياسية[4]؛ وقد ضمَّت المدينة عدداً من العلماء والفقهاء الذين أسهموا في نمو الحركة الثَّقافيَّة والعلمية بها؛ ومن هؤلاء العلماء:

✓ **الفقيه مُحمَّد الفيلالي(كان حيًّا خلال القرن 8هـ/14م):** وهو من علماء القرن الثَّامن الهجري/الرّابع عشر ميلادي، ويبدو من خلال التَّسمية أنَّه قدم من المغرب

[1] – السَّعدي: المصدر السابق، ص 16.

[2] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.270.

[3] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.694.

[4] – مُحمَّد حمد كنان ميغا: المرجع السَّابق، ص.28.

الأقصى، والتقى به "ابن بطوطة" أثناء نزوله بمدينة "**جاو**"، حيث كان إماماً لمسجد البيضان[1].

وأغلب الفقهاء والعلماء الذين ساهموا بدورٍ فعَّالٍ في بعث الحركة الثَّقافيَّة "**بجاو**"، برزوا خلال القرن العاشر الهجري/السَّادس عشر ميلادي على عهد ملوك مملكة "**سنغاي**" الذين هيئوا لهم المناخ المناسب للنهوض بالحركة العلميَّة والثَّقافيَّة بها، هذه النَّهضة لَابُدَّ وأنه كانت لها قاعدة قبليَّة تنبني عليها.

4 – 5 – ولاته(إيوالاتن): تأسَّست هذه المدينة خلال القرن(2هـ/8م)[2]، وهي من كُبريات حواضر الإسلام والثَّقافة العربيَّة في غرب الصَّحراء والسُّودان، وبفضل موقعها الجغرافي الهام كمركز تجاري استقطبت العديد من التُّجَّار والقبائل[3].

بلغت مدينة "**ولاته**" أوجّ ازدهارها الثَّقافي والعلمي في فترة حكم مملكة "**مالي**" الإسلاميَّة وفق ما أشار إليه "ابن بطوطة" الذي أقرَّ بوجود الفقهاء والمُدرِّسين بها قائلاً: «منهم قاضيها "**مُحمَّد بن عبد الله بن ينومر**"، وأخوه الفقيه المدرِّس "**يحي**"». ويضيف "ابن بطوطة" بأنَّ أهلها مُقْبلون على تعلُّم القرآن الكريم والفقه، في قوله: «... وأمَّا هؤلاء فهم مسلمون مُحافظون على الصَّلوات وتعلِّمُ الفقه وحفظ القرآن»[4].

ويذكُر "السَّعدي" بأنَّ المدينة عرفت حركة ثقافيَّة وبشريَّة؛ ظهرت من خلال لائحة أسماء الفقهاء والعلماء الذين استقروا بها، فيقول في هذا الشَّأن: «وإليها يَرِدُ الرِّفاق من الآفاق وسكن فيها من الأخيار من العلماء والصَّالحين وذوي الأموال من

---

[1] – ابن بطوطة: المصدر السابق، ج.2، ص.709.

[2] – حماه الله ولد السالم: **تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2017م، ص.252.

[3] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السابق ،ص.273.

[4] – ابن بطوطة: المصدر نفسه، ج.2، ص.790.

كلِّ قبيلة من كلِّ بلاد، من أهل مصر، ووجل، وفزَّان، وغدامس، وتوات، ودراعة، وتفلالة، وفاس، وغير ذلك»[1].

ومن أبرز علماء "**ولاته**" الذين كان لهم دور في نشر الإسلام واللُّغة العربيَّة والنُّهوض بالحركة العلميَّة بها؛ الشَّيخ "**مُحمَّد بن أحمد بن أبي مُحمَّد التَّازختي**" (ت.936هـ/1529م)[2]، وإنْ كان من المتأخرين.

وإلى جانب المراكز الثَّقافيَّة التي تمَّ ذكرها، فقد ظهرت ببلاد السُّودان مراكزَ أخرى لا يسعنا المقام لذكرها، منها: "تادمكة"، "أودغشت"، "أغاديس"، "كوكو"؛ ومعظم هذه المراكز تُضمُّ جاليات مغربيَّة منهم: التُّجَّار، والعلماء، والفقهاء، ولهذا فقد بدى تأثيرهم الثَّقافي واضح في هذه المراكز، إذْ أنَّ الكثير منهم كانوا أئمة ومُدرِّسين ببعض المساجد.

بفضل هؤلاء عرفت بلاد السُّودان ازدهاراً علميًّا منقطع النَّظير، وأضْحت تُنافس أكبر الحواضر العلميَّة ببلاد المغرب، وانتقل السُّودانيون من طور التَّلقي والاستيعاب، إلى طور الإنتاج؛ بحيث أصبح لهم انتاجهم الفكري، وعلماءهم اللذين تصدروا المشهد الثَّقافي تدريساً وتعليماً، تدويناً وتربية وتكويناً، فشكَّلوا مظهراً مُزهراً يؤكِّد حجم الازدهار العلمي الذي بلغته بلاد السُّودان.

5)- مظاهر التَّواصل الثَّقافي بين بلاد السُّودان وحواضر المغرب:

حاز التَّواصل الثَّقافي العلمي بين بلاد السُّودان وحواضر بلاد المغرب – تلُّها وصحرائها – على عدَّة مظاهر؛ أهمَّها:

[1] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.21.

[2] – السّعدي: المصدر نفسه، ص.39.

5 – 1 – الرَّحلات العلميَّة: أدَّى علماء ضفتي الصَّحراء دوراً هامًّا في الحركة الثَّقافيَّة عبر العصور وذلك من خلال السَّعي إلى زيارة الأقطار الأخرى، إذْ دخل علماء بلاد السُّودان الغربي بمحض إرادتهم أو مُكْرهين إلى مدائن "**فاس**" و"**الجزائر**" و"**تونس**" و"**طرابلس**" لسبب أو لآخر، إمَّا للحج أو لطلب العلم أو التِّجَّارة؛ ولنا مثال على ذلك في شخص "**أحمد بابا التُّنبكتي**" الذي اكتوى بنار الصِّراع السَّعدي السَّنغي، ودخل مُكْرها إلى "**مراكش**" ونهل من ذخائر خزائنها وجالس علماءها وطلبتها وألَّف فيها العديد من التَّآليف، كما دخل إلى "**فاس**" الشَّيخ "**أحمد القاضي الفوني التَّنبكتاوي**" عند إيَّابه من الحجِّ وألَّف فيها "**رسالة شكاية الدِّين المحمدي إلى المولى سليمان مُحمَّد بن يحي الولاتي**"[1]. ورحل إلى "**فاس**" أيضا "**الفقيه القاضي كاتب منسى موسى**" لتعلُّم العلم بأمر من السُّلطان "**منسى موسى**"[2].

كما رحل أيضاً علماء الضِّفَّة الشَّماليَّة إلى الضِّفة الجنوبيَّة، إمَّا للتدريس أو لمُزاولة القضاء، أو لزيارة شيوخ العلم، أو للرحلة عموماً؛ ومن أمثلة هؤلاء: الشَّيخ "**أبو القاسم التُّواتي**" الذي كان من أشهر أئمة "**جامع سنكري**"؛ كذلك "**سيدي مولاي زيدان**"، وكذا الشَّيخ "**عبد الرَّحمن سقن**"[3].

5 – 2 – تداول المؤلفات السُّودانية بالمغرب: يُعدُّ الكِتَاب من أهمِّ مظاهر التَّواصل الثَّقافي، وفي هذا المضمار برزت المؤلَّفات الإفريقيَّة في بلاد المغرب؛ منها:

- كتاب "**نيل الابتهاج بتطريز الدِّيباج**": لمؤلِّفه "**أحمد بابا التُّنبكتي**"؛ فقد قصد مؤلِّفه أنْ يُذيِّل به على تـراجم "**الدِّيباج المذهب في أعيـان المذهب**" لـِ"**ابن فرحون المالكي**"،

---

[1] – حسن الصَّادقي: «**جوانب من التَّواصل الثَّقافي شمال– جنوب**»، أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقيَّة على جانبي الصَّحراء، ص.265.

[2] – السَّعدي: المصدر السَّابق، ص.57.

[3] – عبد الله عباس: «**التَّأثيرات الحضاريَّة لإقليم توات في بلاد السُّودان الغربي**»، ص.100 –101.

بدأ تألّيفه وهو في "**تمبكتو**" وتمَّمه في "**مراكش**"، وقد انتشر "**نيل الابتهاج**" بالمغرب وأفاد منه الدَّارسون والمؤلِّفون.

• والنَّموذج الثَّاني لـِ"**أحمد بن أندغ مُحمَّد السُّوداني**"، صاحب كتاب: "**الفتوح القوميَّة في شرح الآجرومية**"؛ ولقد ضمَّت جُلَّ مكتبات أقطار ضفتي الصَّحراء مَخطوطات لأعلام الضِّفتين، وصلت إمَّا بالإهداء أو النَّسخ أو الشِّراء[1].

5 – 3 – الإجازات العلميَّة: مثَّلت الإجازات العلميَّة مظهراً من مظاهر التَّواصل العلمي والثَّقافي بين الضِّفتين، إذْ بُودلت الإجازات بين العلماء، كما طلب البعض الحصول عليها وتَحْضُرنا في هذا المقام أربع إجازات، منها: إجازة "**أحمد بابا التُّنبكتي**" الذي مكث في "**مراكش**" أربعة عشرة سنة؛ هذا الأخير منح إجازة للعالم المغربي "**عبد الرَّحمن التَّمنارتي**"[2]، وإجازة الإمام المُحدِّث "**أبي العباس السُّوداني**" إلى الإمام "**أبي الفضل يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاجي**"، وإجازة "**أحمد بابا التُّنبكتي**" إلى "**عبد الرَّحمان التِّلمساني**"، "بكتاب الشِّفا"، وإجازة "**أبي العباس السُّوداني**" للخطيب "**أبي زيد بن الوقَّاد التِّلمساني**"[3]؛ وهذه الإجازات خير دليل على التَّواصل الثَّقافي بين الضِّفتين.

5 – 4 – الفتاوى: شارك فيها علماء الضِّفتين؛ وبُودلت الرَّسائل والكتب تعبيراً عن الرَّأي والرَّأي الآخر، ومن بين المسائل التي طُرحت في تلك الفترة وشغلت العامة والخاصة "**مسألة العبيد**"؛ وكان لأهل "**توات**" تساؤلات حول هذه المسألة وقاموا بمراسلة الشَّيخ "**أحمد بابا التُّنبكتي**" حول مجلوب السُّودان[4]، وقد أشار الفقيه " **أحمد بابا**

[1] – حسن الصَّادقي: المرجع السابق، ص.264.

[2] – مُحمد الصَّافي: المرجع السَّابق، ص.128.

[3] – للاطلاع على نصوص الإجازات؛ **ينظر**، حسن الصَّادقي: المرجع السابق، ص267 – 270.

[4] – حسن الصَّادقي: المرجع نفسه، ص.265.

التُّنبكتي" إلى ذلك في قوله: «قُدّم إليَّ سؤال منذ ثلاث سنين أو أزيد من بلاد "توات" صانها الله تعالى من ضروب الآفاق ومن نقص الثَّمرات..»[1].

وكان جواب الشَّيخ لأهل "**توات**" في رسالة بعنوان "**معراج الصُّعود إلى نيل حكم مجلوب السُّود**" أو "**الكشف والبيان لأصناف مجلوب السُّودان**"، لخصَّ فيها الشَّيخ أجوبته حول هذه المسألة في سبع نقاط؛ وهي كالتَّالي:

1/- موقف الفقه المالكي من الرَّقيق المجلوب من البلاد السُّودانيَّة المعروفة بإسلامها.

2/- حكم الشَّرع من الرَّقيق المجهولة الهوِّيَّة.

3/- السِّيرة النَّبويَّة وسيرة الصَّحابة رضوان الله عليهم؛ في تعاملهم مع الرَّقيق المجلوب من الحبشة.

4/- تفنيد أسطورة دعاء نوح على ابنه حام وعقابه.

5/- الضَّوابط الأخلاقيَّة للاسترقاق عند المسلمين.

6/- استرقاق العرب.

7/- وضعيَّة المُوَلَّدِين[2].

وإلى جانب ذلك، فقد كان للشَّيخ "**أحمد بابا التُّنبكتي**" فتوى حول أعراف "**جزولة**" أو "**ألواح جزولة**"، وهي فتوى لي عالم سوداني في أمور تتعلَّق بالأحكام

[1] - أحمد بابا التُّنبكتي: **معراج الصُّعود** "**أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق**"، تح و تر: فاطمة الحرَّاق وجون هانويك، معهد الدِّراسات الإفريقيَّة، الرِّباط، ط.1، 2000م، ص.51.

[2] - أحمد بابا التُّنبكتي: المصدر السَّابق، ص.21.

العُرفيَّة التي كانت تُطَبَّق في بعض الجبال المغربيَّة ناحية "**السُّوس الأقصى**"[1]، إنَّ صور التَّواصل التي تمَّ الإشارة إلى البعض منها تحمل العديد من الدَّلالات، أهمُّها:

- ✓ المكانة العلميَّة التي بلغتها بلاد السُّودان الغربي بحيث ارتبطت بعلاقات ثقافيَّة مع دول الجوار.
- ✓ النُّبُوغ العلمي لعلماء السُّودان الغربي الذي برزَ من خلال مؤلَّفاتهم الفكريَّة.
- ✓ عمق التَّواصل بين الضِّفتين الذي تجاوز التَّواصل التِّجاري، ليشمل الميدان الفكري والثَّقافي أيضاً وبرزت مظاهره في انتشار المذاهب ببلاد السُّودان؛ منها: "المذهب الإباضي" و"المذهب المالكي"، وعرف هذا الأخير انتشار واسعاً، بفضل المُرابطين الذين أدوا دوراً مهمًّا في أخذ السُّكَّان بالمذهب المالكي وتحوِّلهم إليه، ويرى أحد الباحثين أنَّ دور المرابطين ليس في نشر الإسلام، بل في تغيير النَّاس إلى المذهب المالكي[2].

كما أكَّدَت مصادر الفترة على الحضور العلمي لعلماء السُّودان الغربي ومؤلفاتهم بحواضر المغرب بما فيها حواضر المغرب الأوسط الصَّحراوية؛ ويبدو لي أنَّ الوحدة المذهبيَّة للضفتين ساهمت وعزَّزت من هذا التَّواصل.

رابعا: التأثير العمراني:

العمران هو أحد الوجوه الحضاريَّة لأيِّ أمَّة، كما أنَّه مُقوِّمُ يستجيب لعمليات التَّطور المجتمعي، فنراه يولد بدائياً من أجل الاحتماء من الحرِّ والقرِّ، ثمَّ يأخذ في التَّطور من التَّقليدي العتيق، إلى الحضاري المتماشي مع روح عصره؛ فما التَّطورات التي اعترت العمران ببلاد السُّودان الغربي؟

---

[1] – حسن الصَّادقي: المرجع السَّابق، ص.265.

[2] – عزُّ الدِّين موسى: «**محاولة لإعادة تقييم دور المرابطين**»، ص.190.

1)- العمران التَّقليدي بالسُّودان الغربي:

مِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ لكلِّ منطقة طابعها العمراني الخاص بها والذي يستجيب للظروف العامة السَّائدة بالمنطقة وإلى الظُّروف المناخيَّة المختلفة وقد تَمَيَّز الطَّابع العمراني للسُّودان الغربي من حيث الشَّكل ومواد البناء؛ فمعظم بُنيانهم كان من مادة الطِّين؛ وقد أشار "الإدريسي" إلى ذلك بقوله: «... وبناء أهل هذه البلاد بالطِّين والخشب العريض الطَّويل»[1]؛ ويضيف "الحسن الوزَّان" إلى أنَّ السُّودانيون يبنون حيطانهم بالطِّين ويُغطُّونها بطبقة تمزجه بالتِّبن[2].

وقد وجد التُّجَّار المسلمون منذ استقرارهم في جنوب الصَّحراء عمارة تستعمل الطِّين واللبن؛ والرَّأي السَّائد سابقا أنَّهم هم الذين جلبوا هذه المواد وطريقة استعمالها المعماريَّة إلى المنطقة إلاَّ أنَّ الكشوفات الأثريَّة قدَّمت الأدلة المعاكسة لذلك، و بيَّنت أنَّ البناء بالطِّين قديم جدًّا، وهو منتشر في كامل المجال الذي لا تُهدِّده السُّيول في مواسم الأمطار؛ وتتمثَّل طريقة البناء عند السُّودانيين في أنَّهم يُشكِّلون من الطِّين كُرات أسطوانيَّة الشَّكل، وبعد تجفيفها في الشَّمس يغمسونها من جديد في الطِّين ليلتصق بعضها ببعض ثمَّ يكدِّسونها في طبقات متتالية لتشكيل الجدار[3]؛ ولقد أفادنا "العمري" ببعض التَّفاصيل حول طريقة رفع البُنيان في مملكة "**مالي**" في قوله: «... حيث يُبنى جدار بقدر ثلثي ذراع ثمَّ يترك حتى يجفَّ، ثمَّ يُبنى عليه مثله، ثمَّ يترك حتَّى يجفَّ ثمَّ يُبنى عليه مثله، وهكذا إلى أنْ يبلغ العلوَّ المقصود». وقد شبَّه "العمري" طريقة البناء هذه بطريقة بناء أسوار دمشق في عهده[4]؛ ويتمُّ تهيئة الطَّبقة الأخيرة من الحائط عبر تلطيف الطِّين ومزجه بزيت الغرتي(**شجرة الشِّيا- Karite**)، حيث تُبَيَّضُ به البيوت

[1] - الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.20.

[2] - الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.163.

[3] - بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.376.

[4] - العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص.50.

كما يفعل بالجير في أماكن أخرى[1]؛ أمَّا السُّقوف فغالباً ما تكون من الأخشاب والقصب وغالبها قباب أو جملونات كالأقباب وأرضها تراب مُرَمَّل[2].

ولربَّما يكون اختيار هذا الشَّكل مُتعلِّق بالظُّروف الطَّبيعيَّة، كتصريف مياه الأمطار، أو بسبب ندرة الأخشاب الطَّويلة ببعض المناطق، ولهذا كانت البُنيان ضيِّق[3].

وقد أدى كثرة اعتماد السُّودانيين على الخشب والنَّباتات اليابسة في البناء إلى نشوب حرائق مهولة في كثير من الأحيان، أتت إحداها على نصف مدينة "**تنبكتو**" في ظرف خمس ساعات خلال مطلع القرن (10هـ/16م)[4].

ويعتبر الأثريون العمران الدَّائري بمثابة الشَّكل السُّوداني التّقليدي، ودلَّ تواجده في "**غاو**" مع العمارة المستطيلة على تزاوج النَّمطين في المدينة الواحدة، حيث تمَّ التَّأريخ لمنزل دائري فيما بين القرن (5-8هـ/11-14م)؛ وبالرَّغم من التَّحوُّلات العميقة التي شهدتها المنطقة منذ قرون عديدة فقد استمرت الممارسات العمرانيَّة المحلِّيَّة قائمة، وهي لا تزال مستعملة لليوم، إذْ تَمَّت المحافظة عليها من خلال جهود المجتمعات المحلِّيَّة التي بقيت وفيَّة للعادات التَّقليديَّة[5].

وانتشرت أغلب مساكن السُّودانيين على ضفاف نهري "النِّيجر" و"السِّنغال" وروافدهما[6] وذلك لوفرة المياه للسقي وخصوبة الأرض ووفرة المناطق الرَّعويَّة؛ إضافة

---

[1] – العمري: المصدر السابق، ج.4، ص.51.

[2] – العمري: المصدر نفسه، ج.4، ص.50.

[3] – عبد القادر زبادية: **الحضارة العربيَّة والتَّأثير الأوروبي في إفريقيا الغربيَّة جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط.1، 1989م، ص.87 – 88.

[4] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.167.

[5] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.377.

[6] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.17 – 19. **ينظر أيضاً**: الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.161.

إلى لطافة الجوِّ والقدرة على التَّنقل من خلال المراكب[1]؛ وخلت المناطق البعيدة عن الأنهار من العمارة[2] .

وبما أنَّ بناء المسكن كان ينطلق وفقاً لما توفِّره البيئة من مواد طبيعيَّة، فإنَّ أغلب مساكن السُّودانيين بُنيت بأوتاد مملوطة بالطِّين ومسقوفة بالتِّبن[3]، وجدرانها مستديرة منخفضة، وسقوفها مخروطيَّة، يمتاز معظمها بالضِّيق وتُبنى بالقرب من بعضها البعض.

أمَّا في المناطق النَّائية فكانت مساكن النَّاس متواضعة جدًّا؛ إذ استمر بعضهم في سكن الكهوف، وبناء الأكواخ في أعالي الأشجار فراراً من هوام الأرض والحيوانات المُفْترسة[4].

أمَّا القبائل الرُّحل فقد كانت منازلهم في غاية البساطة، فهي عبارة عن أعواد من الخشب، وفوق ذلك أعواد مشتبكة توضع عليها الجلود والثياب القطنيَّة[5].

إلاَّ أنَّ هذا النَّمط من البناء أخذ يتغيَّر تدريجياً بعد وصول المسلمين للمنطقة واستقرار الكثير منهم هناك، لاسيما "فئة التُّجَّار" الذين أجبرتهم ظروف المهنة البقاء

---

[1] – مادهو بانيكار: المرجع السَّابق، ص.487.

[2] – لابُدَّ من الإشارة هنا إلى ما ذكره "ابن خلدون" بخصوص معايير وشروط اختيار أماكن الاستقرار وتخطيط المدن، حيث يرى أنَّ جلب المنافع والمرافق للبلد يجب أنْ يُراعى فيه الأمور التَّالية: «الماء، بأنْ يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة، فوجود الماء قريبا من البلد يُسهِّلُ على السَّاكنة حاجة الماء، وهي ضروريَّة، فيكون لهم في وجوده مرفقه عظيمة عامة. و ممَّا يراعى في المرافق أيضاً طيب المراعي لسائمتهم، إذ صاحب كلَّ قرار لابُدَّ له من دواجن الحيوان للنتاج والرُّكوب ولابُدّ لها من مراعي، فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق لهم. و ممَّا يُراعى أيضاً المزارع، فإنَّ الزَّرع هو القوت فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله». **ينظر**، ابن خلدون: **العبر**، ج.2، ص.13.

[3] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.163 – 165.

[4] – زكرياء بن مُحمَّد القزويني: **آثار البلاد و أخبار العباد**، دار صادر، بيروت، **ط.1**، (د. س. ن)، ص.24.

[5] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.704.

لفترات طويلة، الأمر الذي دفع الكثير منهم لاتخاذ بيوت في تلك الرُّبوع؛ ولقد أشارت المصادر لاستقرار بعض الأُسر التِّجاريَّة في بلاد السُّودان "**كأسرة المقري**" التي استقرَّ بعض أفرادها ببلاد السُّودان؛ وتذكر المصادر بأنَّهم اتخذوا الحوائط والدِّيار وتزوَّجوا النَّساء[1].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ النَّمط المعماري الجديد قد ظهر ببلاد السُّودان الغربي بالمدن التي تشهد استقطاباً كبيراً للأجانب، خاصة المغاربة؛ فما هي أبرز ملامح التَّأثيرات المغربيَّة في النَّمط المعماري للسودان الغربي؟ وما حدود انتشاره؟

2)- التَّأثيرات المغربيَّة في عمران بلاد السُّودان الغربي:

استلهمت العمارة في بلاد السُّودان الغربي الوسيط بعض عناصرها من الفنِّ المعماري المغربي، ومن الطَّبيعي أنَّ انتقال هذه المؤثرات إلى بيئة جديدة يستوجب تكييفها مع مناخ البيئة الجديدة، وما تُوفِّره من مواد بناء، ومع حاجيات الفرد السُّوداني الذي يبدو أنَّه استساغ هذا النَّمط الجديد وأضفى عليه لمسة محلِّيَّة أخذت تتطوَّر عبر الزَّمن لتُشكِّل ما يُعرف "**بالطِّراز المعماري السُّوداني**"؛ وشملت تلك التَّأثيرات العناصر التَّالية[2]:

2 – 1 – مواد البناء: من أهمِّ مظاهر التَّأثير المغربي هو الانتقال من الطُّوب الأسطواني إلى الطُّوب المستطيل المشوي، ولقد عثر **(ثاكيزاوا – sh.Takezawa)**، و(مُحمَّد سيس –**M.cisse**) في تنقيبات لهما بمدينة "**غاو**"، سنتي:(2003/2000م) على ثلاثة هياكل مصنوعة منه؛ ويعتبر هذا الشَّكل غير مألوف في السُّودان الغربي في القرون الوسطى، فمنازل "**جني**" كانت مصنوعة من الطُّوب الطِّيني المجفَّف

[1] – المقري: المصدر السَّابق، ج.5، ص.205.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.382.

الأسطواني، ولا يزال أبناء "**جني**" يُميِّزون هذين النَّوعين من الطُّوب؛ حيث يطلقون على النَّوع الأسطواني (طوب جني – **Jeney ferey**)، أمَّا النَّوع المستطيل فيسمُّونه "**توبايو فيري**" بمعني طوب الرَّجل الأبيض[1].

وإلى جانب الطُّوب المستطيل المشوي، فقد شاع استخدام الحجارة في البناء أيضاً؛ وتعتبر من أبرز ملامح العمارة المغربيَّة، بعد ما كانت خصوصيَّة العمارة السُّودانيَّة يطغي عليها استخدام المواد الطِّينيَّة، واستخدمت هذه التِّقنيَّة في المناطق التي شهدت استقطاباً كبيرا للمغاربة، وفي مقدِّمتها مدينة "**أودغشت**" التي تُعدُّ أولى المحطات التي يتوقَّف بها التُّجَّار الوافدين إلى بلاد السُّودان، فمدينة "**أودغشت**" عرفت تطوُّراً عُمْرانياً كبيراً، ويُجْمع المؤرِّخين المعاصرين الذي اهتمُّوا بتاريخ "**أودغشت**" على أنَّ الجاليات المغربيَّة هي من حملت بذرة التَّحضُّر للمدينة بإشاعتها لأنماط معماريَّة مُختلفة وذلك منذ الرُّبع الأخير من القرن(4هـ/10م)[2].

ولربَّما نؤيِّد ما ذهب إليه المؤرِّخين؛ خاصة إذا علمنا أنَّ معظم سكان "**أودغشت**" هم من أهل "**إفريقية**" و"**برقجانة**" و"**نفوسة**" و"**لواتة**" و"**زناته**" و"**نفزازة**"[3]؛ وقد رصدت التنقيبات الأثرية بداية استخدام الحجارة في عُمْرانها انطلاقا من المستوى الإستراتيغرافي الثَّالث من مستويات الإعمار بالموقع والذي يؤرخ بنهاية القرن (4هـ/11م).[4]

---

[1] – بوبيدي: المرجع السابق، ص.383.

[2] – أحمد مولود ولد أيّده: **الصَّحراء الكبرى مدن و قصور**، وزارة الثقافة، الجزائر، ط.1، 2009م، ج.1، ص.76.

[3] – البكري: المصدر السَّابق، ص.158.

[4] – أحمد مُحمَّد إسماعيل أحمد الجمال: «**تاريخ مدينة أودغشت ودورها في حركة التِّجارة بين المغرب وإفريقيا جنوب الصَّحراء(السودان الغربي)**»، حوليات مركز البحوث والدِّراسات التَّاريخيَّة، ع.8، يصدرها مركز البحوث والدِّراسات التَّاريخيَّة، القاهرة، جويليه/2008م، ص.29 – 30.

ويبدو أنَّ استخدام الحجارة في البناء لم يتوقَّف عند مدينة "**أودغشت**"، فقد انتقلت هذه التقنية إلى مدينة "**غانة**" أيضاً؛ وهذا عقب تخريب المرابطين لـِ"**أودغشت**"، وعقب استعادتها من الغانيين سنة (446هـ/1054م)، فأصبحت مباني المسلمين بالحجارة وخشب السَّنط[1].

وقصد تكييف استخدام الحجارة وفق ما يتناسب مع مناخ المنطقة، اقتضت الضَّرورة إلى الاقتباس من أساليب العمارة السُّودانيَّة، وذلك من خلال كسوِ جدران المباني بطبقة عازلة من الطِّين؛ وقد عثر في أكثر من مكان "**بكومبي صالح**" على آثار لطلاء طيني يميل إلى الحمرة تارة، وإلى البياض تارة أخرى، ومع ما لهذا الطلاء من دور في حماية الجدران وتماسكها من تأثير العوامل الطبيعيَّة، فإنَّه يُنمُّ في الوقت ذاته على نوع من الاهتمام بالنَّاحية الجماليَّة للمنازل[2].

وبالرُّغم من عدم ملائمة استخدام هذه المادة – الحجارة – للبيئة، إلاَّ أنَّ استخدامها وتأثيرها قد تجاوز مدينتي "**أودغشت**" و"**غانة**" إلى مدينة "**أغدس**"، التي وصفها الوزان: «بأنَّها مدينة مُسوَّرة دورها مُتقنة البناء على نمط دور بلاد البربر»[3]؛ وعرفت "**تمبكتو**" أيضاً تطوراً عمرانياً كبيراً حتّى أضحت تضاهي المدن الإسلاميَّة الكبرى، بعدما تَغيَّر نمط ومواد البناء بها؛ ولقد صوَّر لنا "**فليكس ديبوا**" مباني "**تمبكتو**" أثناء حلوله بها ما نصه: «فالمباني المحيطة بها عالية؛... و كان بعضها يضمُّ أدواراً ثانية... تساقطت أعمدة النَّوافذ ذات الطِّراز المغربي... وكانت الأبواب غريبة ذات كتل ضخمة مُثبَّته بمسامير ضخمة، وكانت مغلقة بإحكام»[4]؛ وشهادة "فليكس"

---

[1] – البكري: المصدر السابق،ص.175.

[2] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.384.

[3] – الوزَّان: المصدر السَّابق، ج.2، ص.171.

[4] – فليكسي ديبوا: **تمبكت العجيبة**، تر: عبد الله عبد الرَّزاق إبراهيم، مرا: شوقي عطا الله الجمل، المجلس الأعلى للثَّقافة، القاهرة، ط.1، 2003م، ص.172.

بخصوص مباني "**تمبكتو**"، وإنْ كانت متأخَّرة عن فترة الدِّراسة إلاَّ أنَّنا نستشفُ من خلالها التَّطوُّر العمراني الذي بلغته المدينة، ومدى التَّأثير المغربي في عمران بلاد السُّودان الغربي؛ فالنَّمط المعماري الذي كانت عليه "**تمبكتو**" كان مَعمولاً به في حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، فمساكنهم كانت تضمُّ أدواراً علويَّة للسكن والطَّابق الأرضي غالبا ما كان يُسْتغَّل في تخزين السِّلع والبضائع.

ويعود الفضل في ازدهار عمران مدينة "**تمبكتو**" إلى المغاربة الذين استقرُّوا بها، خاصة فئة التُّجَّار الذين كانت لهم دكاكين كثيرة بها، وبالأخصِّ تُجَّار الأقمشة؛ فبفضل هؤلاء تغيَّر أسلوب البناء وتمكَّن سكَّان المنطقة من استعمال مواد بناء جديدة كالحجارة[1].

وقد خلُص "**ريمون**" إلى أنَّ «المدن المغاربيَّة الواقعة على حدود بلاد السُّودان، والتي أصبحت عبارة عن مستعمرات تجاريَّة حقيقيَّة منها "**سجلماسة**"، "**نول**"، "**لمطة**"، "**تامدلت**"، "**ورقلة**"، "**غدامس**"، "**زويلة**"، "**فزان**"؛ كانت على اتصالات دائمة وتجمعها نقاط مشتركة مع المدن السُّودانيَّة في الجنوب.

إنَّ حفريات "كومبي صالح" **(غانة)**، وبقايا أنقاض "تاغدواست" **(أودغست)**، "السُّوق" **(تادمكة)**، مُقنعة تماماً بأنَّ التُّجَّار العرب والبربر الذين سكنوا المنطقة نقلوا معهم خصائصهم المعماريَّة، ونمط معيشتهم وأدواتهم ومُعدَّاتهم إلى جنوب الصَّحراء»[2].

---

[1] – مسعود خالدي: «**أثر الجاليات العربيَّة والبربريَّة على الحياة الاجتماعيَّة في السُّودان الأوسط والغربي بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين/ الحادي عشر والسَّادس عشر الميلاديين**»، **مجلَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، مج.11، ع.1**، تصدرها كلِّيَّة الآداب والحضارة الإسلاميَّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة، قسنطينة – الجزائر، جوان/2018م، ص.193.

[2] – Mauny (R): **Tableau géographique**.

ولم يقتصر التَّأثير في ادخال مواد بناء جديدة فحسب؛ فمن المحتمل أنْ يكون المغاربة قد نقلوا معهم إلى السُّودان الغربي تصاميمهم الخاصة بإقامة البيوت أيضاً.

2 – 2 – تصاميم وأشكال البيوت: في "**أودغشت**" حلَّت البيوت المُسيَّجة محلَّ التَّخطيط البالغ البساطة السَّابق عنها، وذلك منذ نهاية القرن(3هـ/9م)، وأثناء القرن(4هـ/10م)، هذا ما انتقل بعد ذلك إلى المدن السُّودانيَّة الأخرى؛ فمن أهمِّ مؤثرات الحضور الإسلامي هو الفضاء المسكون، مثل: توزيع الغرف وعلاقتها بمحاور التَّنقُّل والصَّحن الفسيح جدًّا بالنسبة لأماكن الرَّاحة لكونه مكان الحياة الجماعيَّة[1]؛ وقد وصفت دار أحد كبار عبيد "**الأسكيا داوود**" في "**غاو**" بالاتساع وكثرة مخازن المؤونة[2].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ هذا الأسلوب الجديدة في البناء لم يُسْتخدم على نطاق واسع، وإنَّما اقتصر على فئة معيَّنة، أمَّا السَّواد الأعظم من السُّكَّان فقد ظلَّت مساكنهم مبنيَّة من اللبن وأسقفها مسطَّحة؛ وهناك الأكواخ المبنيَّة من النَّباتات والأعشاب؛ ويصف لنا "العمري" مساكن أهل "**مالي**" بأنَّها «... كانت مبنيَّة من الطِّين النّيء»[3].

وفي مملكة "**غانة**" يشير "البكري" أنَّه فيما عدا قصر الملك كانت البيوت الوحيدة التي تُبْنَى بالحجارة، هي بيوت التُّجار الأجانب، وهي بيوت كبيرة الحجم مُحاطة بالحدائق[4].

---

[1] – جون دوفيس: **الفنُّ الإسلامي والتَّأثيرات في شعوب إفريقيا السَّوداء– الفنُّ العربي الإسلامي– العمارة**، المنظَّمة العربيَّة للثَّقافة والعلوم والفنون، تونس، ط.1، 1995م، ج.2، ص394. **نقلاً عن:** بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.391.

[2] – مُحمَّد كعت: المصدر السَّابق، ص.157.

[3] – العمري: المصدر السَّابق، ج.4، ص50.

[4] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175. **ينظر أيضاً:** مادهويا نيكاز: المرجع السَّابق، ص.487.

ويصف لنا "الإدريسي" قصر ملك "**غانة**" «... بأنَّه على ضفة النِّيل وقد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه وزُيِّنت مساكنه بضروب من النُّقوشات والأدهان وشمسيَّات الزُّجاج»[1].

وكان ملوك و قُوَّاد "**غانة**" يَسْتقدمون البنَّائين من المغرب ليبنوا لهم القصور والبيوت على الطِّراز المغربي، وقد دَلَّت الحفريَّات على وجود بِنَايَات جميلة مُخطَّطة أحسن تخطيط على طول اثنين من الكيلومترات، وسُكَّانها أكثر من ثلاثين ألف نسمة، لها بِنَايَات من طابقين مبنيَّة من حجارة الجبس، و جدرانها منقوشة بجبس أصفر[2].

وبما أنَّ بلاد السُّودان عرفت طرازاً معمارياً جديداً يختلف كليًّا عمَّا كان عليه سابقاً، من حيث الشَّكل ومواد البناء، فلا نستبعد وجود تأثيث جديد داخل المنازل يتماشى مع النَّمط المعماري الجديد، لاسيما وأنَّ القوافل التِّجاريَّة كانت تنقل بعض السِّلع الكماليَّة؛ وقد احتوت بعض المنازل على أثاث متنوع وفُرِّشت أرضيتها بالسِّجاد والحُصر، ووضع فيها المقاعد والأَسِرَّةُ الفاخرة، واستُخدمت الصَّناديق الخشبية لحفظ الملابس وأدوات الزِّينة؛ إلاَّ أنَّ هذا ظلَّ محصوراً في قصور الملوك ومنازل حاشيتهم دون العامة[3].

والجدير بالذِّكر أنَّ التَّأثير المغربي لم يشمل العمارة المدنيَّة فحسب، بل طال العمارة الدِّينيَّة أيضاً التي بدت عليها التَّأثيرات المغربيَّة أكثر وضوحاً.

2 – 3 – العمارة الدِّينيَّة: تُشير بعض الأبحاث الأثريَّة إلى وجود نمطين مُختلفين في فنِّ العمارة الدِّينيَّة ببلاد السُّودان الغربي خاصة في تشييد المساجد، ولا ريب في ذلك فالمنطقة احتضنت مذهبين مُختلفين (الإباضي، والمالكي) وعمل كلٌّ منهما على

[1] – الإدريسي: المصدر السَّابق، مج.1، ص.20.

[2] – مسعود خالدي: المرجع السَّابق، ص.191.

[3] – بشار أكرم الملاح: المرجع السابق، ص.194.

تكريس وابراز حضوره بالمنطقة من خلال تشييد أماكن عبادة خاصة به، وقد اختلفت تصاميم المساجد بحسب فقه كلِّ مذهب، وبهذا برز نمطين مختلفين في العمارة الدِّينيَّة ببلاد السُّودان، هما:

2 – 3 – 1 – العمارة الدِّينيَّة الإباضيَّة: حظيت بلاد السُّودان بكثرة المساجد وانتشارها؛ وفي تقرير قام به المستشرق الألماني "**جوزيف شاخت**" حول العمارة الدِّينيَّة العابرة للصحراء، نشره معهد البحث الصَّحراوي بجامعة الجزائر سنة (1954م) عن الإباضيَّة، ولا سيما إباضية "**وارجلان**" و"**سدراته**" و"**وادي ميزاب**"، فجاءت هذه الدِّراسة على ما يبدو مُسْتندة إلى المقارنة والملاحظة والتَّحليل النَّظري، قام بها في بعض بلاد السُّودان، وفي المقابل توجَّه نحو **قرى** "**وادي ميزاب**" و"**وارجلان**" و"**جربة**"، وأثبت من خلالها أنَّ الطِّراز المعماري الإباضي، خاصة في بناء المساجد والمُصلَّيات في بلاد السُّودان، ضاربة بجذورها في تاريخ المنطقة[1]. وخلُص إلى وجود تشابه نمطي بين مساجد **إباضيَّة** "**وارجلان**" و"**ميزاب**"، ومساجد شعب "**الفولي**" أو "**البال**" الكائن ببلاد السُّودان، من خلال ثلاثة دلائل أساسيَّة، وهي كالتَّالي:

✓ **غياب المنبر في مساجد الفلان:** وهو الأثر الأكثر لفتاً للانتباه حيث تفتقد المساجد الإباضيَّة إلى المنابر انطلاقا من عدم توفُّر شرط الإمام العادل لإقامة صلاة الجمعة منذ سقوط إمامتهم، وفسَّر "**شاخت**" ذلك: بأنَّ شعوب "**البال**" اعتنقت المذهب الإباضي منذ الوهلة الأولى لدخول الإسلام للمنطقة، وتأثَّرت العمارة الدِّينيَّة مجسدَّة في بناء المساجد بالطِّراز الإباضي الذين يعود لهم الفضل في نشر الإسلام في بلاد السُّودان[2]، واستنتج "شاخت" بأنَّ غياب المنبر في مساجد "**البال**" في بلاد السُّودان

[1] – مُحمَّد صالح ناصر: **دور الإباضيَّة في نشر الإسلام**، المرجع السَّابق، ص.56.

[2] – Schacht (J): **sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara**, institut de recherche saharienne de l'université d'Alger, t11,p15.

والتي وجدت طريقها إلى المنطقة بعد سقوط الإمامة الإباضيَّة "**بتيهرت**" سنة (296هـ/909م)؛ وأضاف بأنَّ وصولها كان عن طريق التُّجَّار الإباضيين وعبر ممرَّين، الأوَّل: ينطلق من الجنوب التُّونسي (منطقة الجريد)، ثمَّ "**سوف**" وصولا إلى بلاد السُّودان عبر واحة "**وارجلان**"؛ والآخر: يمرُّ عبر "**ميزاب**" إلى "**وارجلان**" ويأخذ نفس طريق الممرِّ الأوَّل[1].

✓ **المحراب ذو الشَّكل المستطيل:** يرى "**شاخت**" أنّ "**ميزاب**" هو بدون شكٍّ نقطة الانطلاق لهندسة المحراب ذو تصميم مستطيل.

✓ **المئذنة ذات الشَّكل الهرمي:** تُعتبر أهمُّ ميزة قدَّمها "**شاخت**"، وهي شكل المئذنة الهرمي الذي يعدُّ طابعاً خاصاً تتميَّز به مساجد الإباضيَّة **بـ**"**وادي ميزاب**" و"**وارجلان**" عن غيرهما من مساجد العالم الإسلامي، ولقد وُجدت هذه المئذنة بهندستها الجميلة بكثرة في مساجد بلاد السُّودان[2].

وقد لقي رأي "**شاخت**" قبولاً من أشهر الباحثين في تاريخ السُّودان الغربي، وفي مُقدّمتهم "**دوفيس**" الذي يبدو أنَّه أعاد النَّظر في قناعته لاحقاً، وطالب بمراجعة الموضوع من جديد وإشباعه بدراسات مختصَّة كالتيّ أجريت على موقع (أغاديس – **Agades**) "**بالنيجر**"، قبل اصدار أيَّ استنتاج، ذلك أنَّ هذه الدِّراسة بَيَّنت قدم هذا الطِّراز المعماري في مكان لم يكن مرتبطاً حينها بعلاقات مع المراكز الشَّماليَّة والصَّحراويَّة[3].

2 – 3 – 2 – العمارة الدِّينيَّة المالكيَّة: كان لانتشار المذهب المالكي الأثر البالغ على العمارة الدِّينيَّة بالمنطقة؛ حيث تجسَّدَ ذلك في إدخال طابع خاص في بناء

---

[1] – Schacht (J): op– cit, p.18.

[2] – تاديوس ليفتكسي: **دراسات عن شمال إفريقيَّة**، تر: أحمد بو مزكو، منشورات مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، كاليفورنيا، ط.1، 2006م، ج.2، ص.52. **ينظر أيضاً**: مُحمَّد صالح ناصر: المرجع السَّابق، ص.58.

[3] – جون دوفيس: المرجع السَّابق، ج.2، ص.395.

المساجد السُّودانية من قبل بعض حواضر الإقليم الصَّحراوي للمغرب الأوسط من خلال استخدام الأجر لأوَّل مرة[1].

علاوة على ذلك أصبح لكلِّ مدينة مسجدها الكبير على غرار المسجد الكبير بـِ"**تمبكتو**" و"**جاو**" و "**جني**" و"**أغاديس**"، وهذا النَّمط من المساجد مُشابه لما هي عليه مساجد حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة، التي تميَّزت بتواجد المحراب والمأذنة المضلَّعة واستخدام الآجر؛ وفي تقرير أعدَّه الباحثان (**سوزان بيرنز – Suzanne Bernes**) و(**باتريس كريسير – Patrice Cressier**) حول المسجد الكبير "**بأغاديس**"، الذي درسا فيه تاريخ وتصميم المسجد، والمواد التي استخدمت في تشييده، حيث أشار التَّقرير إلى استخدام الحجارة في بناء المسجد الكبير بقوله: «يتم استخدام الحجر، في شكل حصوات خشنة فقط، لقاعدة الجدران وأُسُسها»[2].

كما دلَّت الأبحاث الأثريَّة أنَّ مسجد "**كومبي صالح**" كان في القرن (4هـ/10م) مجردَّ بناء بسيط ذو محراب وله أعمدة مربَّعة القاطع، وتمت توسعته مرَّتين الأوَّل عند نهاية القرن (5هـ/11م)، والثَّانية في القرن (7هـ/13م)، بحيث استبدلت الأعمدة المُربَّعة القاطع بركائز أسطوانيَّة مُشيَّدة من حجارة "الشَّيست" المحلِّيَّة، كما تَمَّت توسعة المسجد من جديد في مطلع القرن(8هـ/14م)؛ وَصاحَبَ هذه التِّوسعات المتتالية زيادة في قطر المحراب[3].

[1] – مُحمَّد العيد تيته: المرجع السَّابق، ص.217.

[2] – Cressier (p), Burnus (S): **La grande mosquée d'Agadez**, Im: Journal des africanistes, 1984, t54, fascicule i, p.09.

[3] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.394.

ولقد انتشرت المساجد في بلاد السُّودان الغربي وأضحت تُمثِّلُ رمزاً للانتماء الدِّيني للسُّودانيين "فالبكري" خلال وصفه لمدينة "**غانة**" أشار إلى وجود اثنا عشرة مسجداً[1].

وقد ساهم بعض السَّلاطين في ازدهار العمارة الدِّينيَّة ببلاد السُّودان، ومن هؤلاء السَّلاطين السُّلطان "**منسى موسى**" الذي أحدث ثورة حقيقيَّة في المجال العمراني، لا سيما بعد استقدامه لبنائين ومُهندسين من المغرب مثل "**أبو إسحاق السَّاحلي**" المعروف "**بالطويجين**" و"**عبد الله الكومي**"، بحيث أشرف "**السَّاحلي**" على بناء عدَّة مساجد في كل من "**جاو**"، و"**تمبكتو**"؛ ويذكر "محمود كعت" أنَّ السُّلطان "**منسى موسى**" صاحب "**مالي**" أنشأ أثناء سفره إلى الحجِّ مسجداً في كلِّ مدينة يمرُّ بها[2].

وحُظي المسجد ودار الخطيب بمكانة مُقدَّسة وهيبة عند سلاطين "**مالي**"، فكان المسجد ودار الخطيب المكان الذي يستجير به كلَّ من تعرَّض لغضب وعقاب السُّلطان، كان يستجير بالمسجد و إنْ لم يكن فبدار الخطيب، وفي هذا الشَّأن يذكر "ابن بطوطة" أنَّ الملكة "**قاسا**" زوجة السُّلطان "**منسى سليمان**" قد استجارت بالمسجد بعد أنْ تآمرت عليه وخشيت من عقابه، كما استجار بنات عمِّه أيضاً بالمسجد عندما غضب عليهم السُّلطان "**منسى سليمان**"[3]؛ وهذه الحادثة تكشف لنا قداسة المسجد في مِخيال السُّودانيين.

---

[1] – البكري: المصدر السَّابق، ص.175.

[2] – محمود كعت: المصدر السَّابق، ص.36.

[3] – ابن بطوطة: المصدر السَّابق، ج.2، ص.702. **ينظر أيضاً**: تقي الدِّين عارف الدُّوري و خولة شاكر الدِّجليي: **تاريخ المسلمين في إفريقية**، دار الكتب الوطنيَّة، أبو ظبي، ط.1، 2014م، ص.237.

وإلى جانب العمران المدني والدِّيني؛ فقد برز ببلاد السُّودان نمط المدينة الإسلاميَّة أيضاً، إذ يمكن تمييز المُدن السُّودانيَّة من خلال موقع المسجد داخلها، فيُحيل وجوده في المركز على أنَّ التَّأسيس كان بعد إسلام أهلها ومبادرتهم إلى تبنِّي نمط المدينة الإسلاميَّة، بينما يُحيل وجوده في الأطراف على التَّعمير السَّابق للمدينة واستمراريَّة عمليَّة الأسلمة تدريجياً، فانتصاب المسجد في **(كبين – Kpon)** و "**كومبي صالح**" يفترض أنَّ مُخطَّط المدينة قد وقع تصوُّره وتحقيقه ليتلاءم مع وضعيَّة المسجد المركزي؛ أمَّا الموقع الهامشي لمسجد "**أودغشت**" يدلُّ على تعمير المدينة قبل الإسلام[1]، فموقع المسجد من أهمِّ تمثَّلات التَّأثير الخارجي.

ومن خلال ما تمَّ ذكره حول التَّأثير المغربي في عمران بلاد السُّودان، يبدو لنا أنَّ المجتمع السُّوداني كان مُجتمعاً حِرفيّاً مُتفاعلاً مع ما عرفته الصَّحراء من مُتغيِّرات تأثَّرت فيها بالحضارة الإسلاميَّة في صورتها المغربيَّة، مُنْطلقاً من خُصُوصياته المحلِّيَّة ليُعيد رسم صورته وفق هذا التَّمازج الجديد، وينتهي بها إلى سودان مسلم يُمثِّل امتداد مُتميزٍ لدار الإسلام[2].

[1] – بوبيدي: المرجع السَّابق، ص.385 – 386.

[2] – بوبيدي: المرجع نفسه، ص.395.

الـــــخاتـــمـــة

بعد هذه الدِّراسة التَّاريخيَّة حول(**الحواضر الصَّحراويَّة بالمغرب الأوسط واقعها الاقتصادي ودورها الحضاري (4 – 8هـ/10 – 14م)**)، وتأثيراتها في محيطها القريب والبعيد من خلال البعد الرِّسالي الذي تدثَّر به سكَّانها، توصَّلنا إلى جملة من الاستنتاجات نوردها فيما يلي:

- ✓ تُجمِع جلُّ المصادر التَّاريخيَّة من كتب رحلة وجغرافيين وسير، أنَّ الحواضر الصَّحراويَّة ضاربة بجذورها في تاريخ تلك الأصقاع، بدأً من الإنسان القديم، وأنَّ قبائل "زناتة" وباقي فسيفساء القبائل البربريَّة الأخرى أعطت بعثاً جديداً لمَّا استوطنت تلك البقاع.
- ✓ أنَّ الطَّبيعة الجغرافيَّة للمنطقة – الحواضر الصَّحراويَّة المغرب أوسطيَّة – بوُعورتها وقساوة مناخها لم تكن عائقاً أو حاجزاً أمام إنسانها باني حياتها، في التَّواصل مع غيره، سواءً القريب الدَّاخلي، أو البعيد الخارجي.
- ✓ ساهم الموقع الجغرافي للحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط وبُعدها على مراكز السُّلطة في استقطاب العديد من الهجرات البشريَّة التي لاذت بها بحثا عن الأمن والاستقرار، وقد استقرَّت في حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة العديد من القبائل، وفي مقدِّمتها قبائل "زناته البتريَّة" التي انتجعت صحراء المغرب الأوسط بعد التَّضييق الذي مورس عنها من قبل "صنهاجة المالكيَّة"، إضافة إلى هجرات القبائل العربيَّة التي أصبحت تمثلُ عنصراً هاماً من عناصر السُّكان.
- ✓ لم تكن الحواضر الصَّحراويَّة مجردَّ فضاء واسعٍ تسكنه قبائل مختلفة، وإنَّما شكَّلت مدينة كبيرة لها قوانينها وقيمها وأعرافها وعادتها وتقاليدها وعمرانها، وقدَّمت صوراً مختلفة عن غيرها في شتى مناحي الحياة، لأنَّ طبيعة المكان كانت حاكمة ومُستحكمة في رسم ملامح السُّلوكات الإنسانيَّة للذين يقطون بهذا الفضاء.

✓ عرفت الحواضر الصَّحراويَّة نشاطاً اقتصادياً متنوعاً ومتكاملاً، فاقتصادها لم يقتصر على نشاط الزِّراعة والرَّعي فحسب، بل تعدى ذلك فزاوج بين عدَّة أنشطة، كالتِّجارة والتَّنقل عبر الصَّحراء، وكذا الحرف اليدويَّة، وهذا ما يحيلنا إلى تتبع ذهن إنسان هذه الحواضر المتفتق بإبداعات تبحث على العيش الكريم في بوتقة الاستقرار مع المحكوميَّة بالتَّلاقي مع الأخير أخ الإنسانيَّة البعيد عني في العقيدة مصداقاً لقول الإمام علي ﷺ «**الخلقُ صنفان إمَّ أخٌ لك في الدِّين أو نظير لك في الخلق**»، كلَّ هذا على قاعدة العيش المشترك والمصالح المتبادلة، ومثال ذلك ما وقع بين المسلمين واليهود.

✓ إنّ اقتصاد حواضر المغرب الأوسط الصَّحراويَّة قام على النَّشاط التِّجاري. فكان عماد عُمدِ هؤلاء التُّجَّار – تجَّار وشيوخ علم ودُعاة – الحركة والتِّجوال والحلُّ والتِّرحال في الحواضر المحيطة بهم، القريبة والبعيدة، فبذلك كوَّنوا شخصيَّة إنسان الحواضر الصَّحراويَّة ببلاد المغرب الأوسط المبنيَّة على التَّلاقي مع الآخر، فكسبوا ثقافة، وأكسبوا الآخر ثقافة في دائرة التَّأثير والتَّأثر، ما أكسبهم ثقافة واسعة في فهم أنماط البشر وطرق التَّعامل معها، وهذا ما أهلهم لأداء دور المعلم ثُمَّ الشَّيخ المربي، والتَّأثير في واقع بلاد السُّودان الغربي في شتى المناحي والمجالات، فكان أثرهم الحضاري قوياً وبارزاً لأنَّهم عدَّلوا من واقع تلك الأصقاع وغيروا في نسيج أنظمتها، من خلال المعاملة التي تستند إلى الرِّساليَّة نصحاً وإرشاداً.

❖ **التوصيات:**

ما يمكن أنْ نوصي به التَّالي:

✓ الاهتمام بالمدن الصَّحراويَّة والتَّنقيب في تاريخها، وجعل محور التَّنقيب الإنسان ومكنوناته وسلوكاته حتّى يتسنى لنا معرفة مخرجات أفعاله التي بناها بناء على ما يدور في تفكيره ويختلج

في صدره، وهنا سننتقل من التَّأريخ للحوادث التي يصنعها الإنسان إلى التَّأريخ إلى فكر الإنسان، ومدى مساهمته في صناعة التَّاريخ الإسلامي خاصة، والتَّاريخ الحضاري للبشريَّة عامة .

- ✓ عقد اتفاقيات مع مخابر البحث والتَّنقيب ذات الخبرة، في المجالات المتقاطعة مع أنثروبولوجيا الإنسان.
- ✓ فتح مشاريع الدُّكتوراه التي تهتم بتاريخ المجال الواحاتي للمغرب الأوسط وعلاقاته مع دول الجوار خلال العصر الوسيط.
- ✓ عقد ملتقيات وندوات دوليَّة ووطنيَّة تعرِّفُ بتاريخ الحواضر الصَّحراويَّة بالمغرب الأوسط وإسهاماتها عبر مختلف العصور، في شتى المجالات، الإنسان – الماء – البيئة – العلاقات وأنواعها – ....إلخ.
- ✓ إبرام اتفاقيَّات علميَّة بين الجامعات الجزائريَّة من خلال وزارة التَّعليم العالي، والجامعات الإفريقيَّة من خلال الهيئات الوصيَّة عليها، خاصة "موريتانيا" و"السِّنغال" و"مالي" و"النِّيجر" و"نيجيرا" و"تشاد"، قصد تسهيل عملية البحث الأكاديمي خاصة وأنَّ أغلب البلدان الإفريقيَّة التي لها حدود مع المغرب الأوسط تملك مخطوطاتٍّ ثمينة وقيِّمة تخص تاريخنا المشترك، وهي في هذا تعتبر مجالنا الحيوي الثَّقافي.

الـــملاحـــــق

الملحق رقم : (01)

صورة توضح انكسار الشوارع بإحدى قصور ورقلة[1]



[1] – يمينة بن صغير حضري: المرجع السابق ، ص 867.

الملحق رقم : (02)

صورة توضح التسقيف بعصيّ وجذوع النخل[1]



[1] – يمينة بن صغير حضري: المرجع السابق ، ص 870.

الملحق رقم : (03)

صورة توضح مواد المستعملة في البناء بالطين[1]



[1] – يمينة بن صغير حضري: المرجع السابق ، ص 861.

الملحق رقم : (04)

صورة توضح إستعمال اللون الأبيض في العمارة الدينية[1]



[1] – يمينة بن صغير حضري: المرجع السابق ، ص 871.

الملحق رقم : (05)

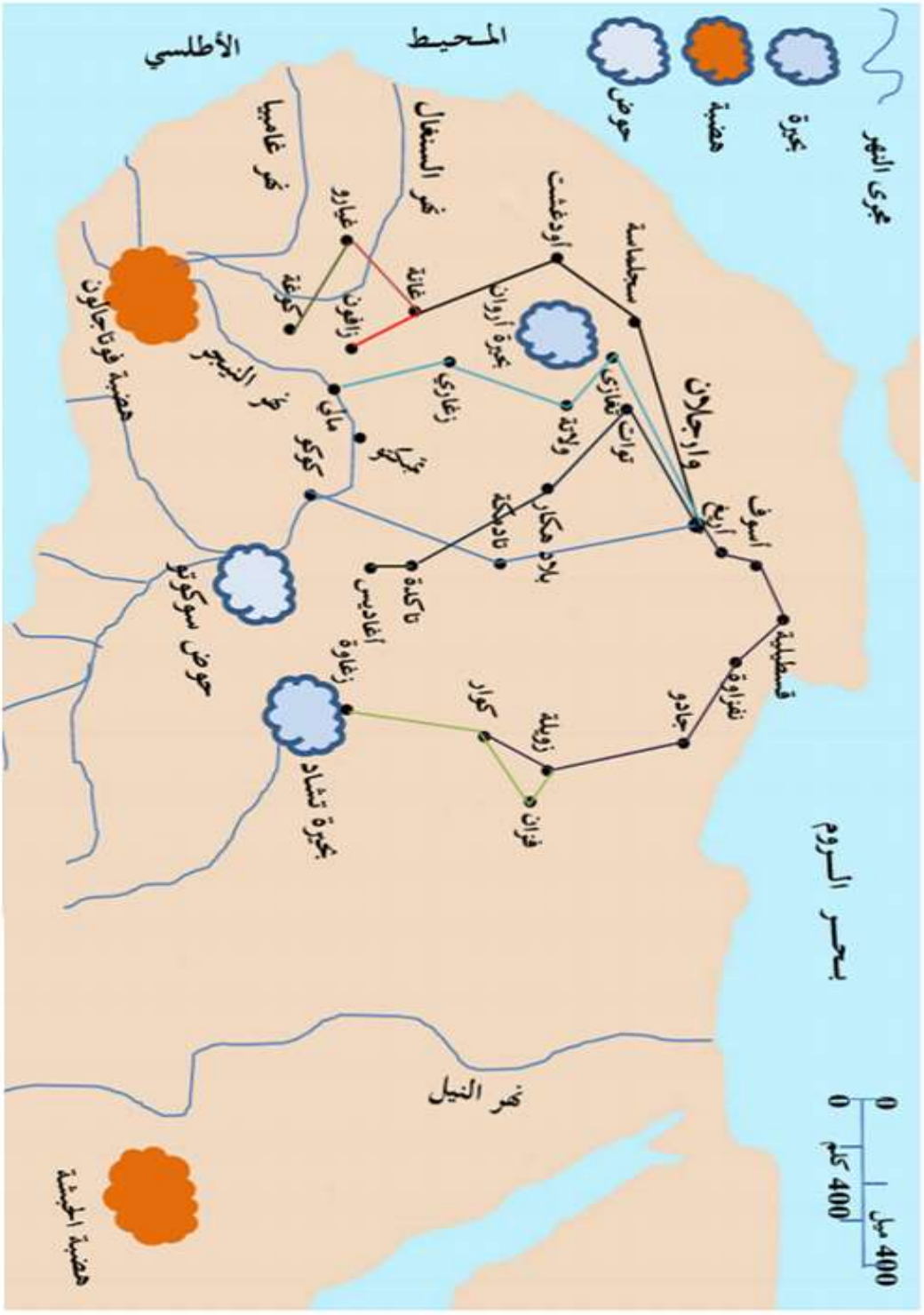
صورة توضح نظام الفقارة بحاضرة توات[1]



[1] – عبد الرحمان محمد بعثمان: **نظام السقي** ، المرجع السابق، ص .144.

الملحق رقم : (06)

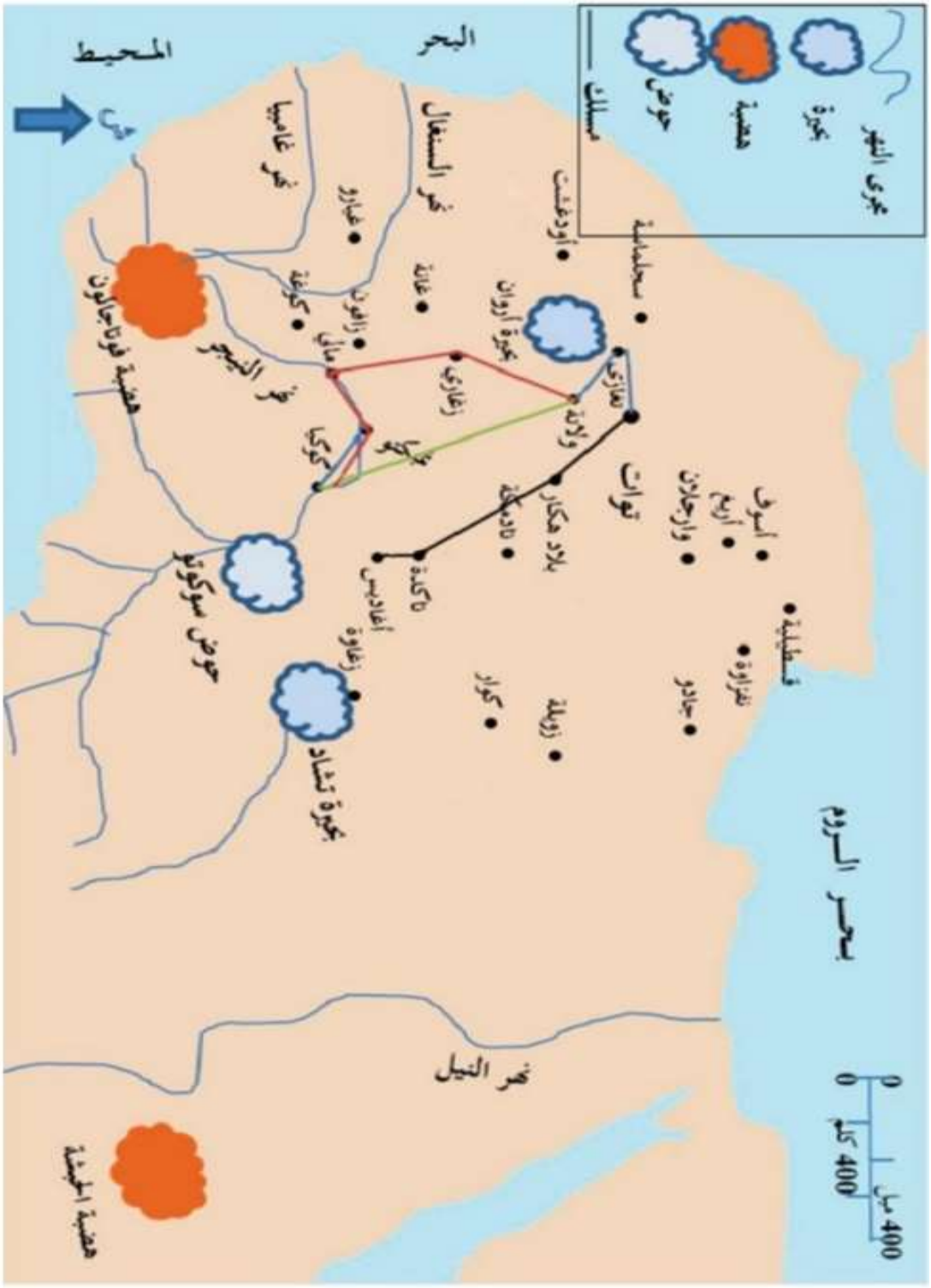
المسالك التجارية التي تربط حاضرة وارجلان بالسُّودان الغربي[1]



[1]– محمد العيد تيته: المرجع السابق ، ص .126.

الملحق رقم : (07)

المسالك التجارية التي تربط توات بالسودان الغربي[1]



[1] – محمد العيد تيته: المرجع السابق ، ص .132.

قـائـمـة المـصادر والمـراجع

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم :**
- **المـصـــــــادر:**

1-ابن الآبار: **الحُلة السيراء**، تح، حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، **ط2**، 1985م.

2-الإباضي إبن سَلام: **الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية** ، تح: ر. ق. شقارتز وسالم يعقوب، دار اقرأ للنَّشر والتَّوزيع والطِّباعة، بيروت، **ط.1**، 1985م.

3-ابن الأثير علي بن أبي الكرم: **الكامل في التَّاريخ**، مر: محمد يوسف الدَّقاق، دار الكتب العلميَّة، بيروت، **ط.1**، 1987م.

4-الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، **ط.1**، 2002م.

5-أطفيش مُحمَّد بن يوسف: **الرّسالة الشّافية في بعض التَّواريخ وأنساب بني مصعب**، (د. م. ن)، **ط.1**، (د. س. ن).

6-الأنصاري أبو عبد الله مُحمَّد: **فهرست الرصَاع**، تح، مُحمَّد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، **ط.1**، 1967م.

7-الإيلاني المصمودي صالح بن عبد الحليم: **مفاخر البربر**، تح: عبد القادر بوبايه، مؤسسة البلاغ للنشر والدِّراسات والبحوث، الجزائر، **(ط.خ)**، 2013م.

8-الباروني عبد الله بن يحي: **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، (د م ن)، (د ط)، (د س ن).

9- (ـــــــــــــــــــــ): **رسالة سلْم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدِّين**، مطبعة النَّجاح، القاهرة، ط1، 1907م.

10- البرادي أبو القاسم إبراهيم: **الجواهر المنتقاة فيما أخلَّ به كتاب الطَّبقات**، طبعة حجرية، القاهرة، ط1 ،(د. ت. ن).

11- البرتلي الولاتي أبي عبد الله: **فتح الشّكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تح: محمد حجي و محمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981م.

12- ابن بطوطة: **تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تق: محمد عبد المنعم العريان، و مرا: مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، **ط1**، 1987م.

13- ابن أبي بكر أبو زكرياء يحي: **كتاب السّير وأخبار الأئمة**، تح: عبد الرَّحمان أيوب، الدَّار التَّونسيَّة للنشر، ط.1، (د. س. ن).

14- البكري أبو عبيد الله: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية_والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط.1، (ب. س. ن).

15- البيدق أبو بكر بن عليّ الصنهاجي: **أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدّين**، دار المنصور للطاعة، الرباط، (د.ط)، 1971م .

16- ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، دار الكتب العلمية، (بيروت)، ط،1992م.

17- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين: **الجامع لشعب الإيمان**، الباب: السُّتون من شعب الإيمان، رقم الحديث.**8369**، تح: مختار أحمد النَّدوي، مكتبة الرُّشد للنشر والتَّوزيع، الرِّياض، **ط.1**، 2003م، **ج.11**.

18- التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحي: **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السّبتي**، تح .أحمد التوفيق، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، الرباط، ط2، 1997م.

19- التجاني أبو محمد عبد الله محمد: **رحلة التجاني**، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، (ليبيا)، **ط1**، 1981م.

20- ابن تغري بردي الأتابكي يوسف: **مورد اللطاف فيمن ولى السَّلطنة والخلافة**، تح: نبيل مُحمَّد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، **ط.1**، 1997م.

21- تغري ابن بردي الأتابكي يوسف (ـــــــــــــــــــــ): **النُّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثَّقافة والإرشاد، القاهرة، **ط.1**، 1963م.

22- ال تُنبكتي أحمد بابا بن مُحمَّد التَّكروري: **نيل الابتهاج بتطريز الدِّيباج**، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس، **ط.2**، 2000م، **ط.1**، 1986م.

23- (ـــــــــــــــــــــ): **معراج الصّعود "أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق"**، تح و تر: فاطمة الحراق و جون هانويك، معهد الدراسات الافريقية (الرباط)، **ط1**، 2000م.

24- (ـــــــــــــــــــــ): **نيل الابتهاج**، تح: علي عمر ،مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، **ط1**، 2004م.

25- التنبكتي الأرواني محمود محمد ددب: **تنبيه المادح المُقلّد على ما كان عليه أهل تنبكتو في المولد**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الرباط)، (د ط)، 2011م.

26- ابن جابر أبي العباس أحمد بن يحي: **فتوح البلدان**، تح: عبد الله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع، مؤسسة المعان للنشر، بيروت، ط.1، 1987م.

27- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: **كتاب الحيوان**، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، (مصر)، ط2، 1967م.

28- الجيطالي إسماعيل بن موسى: **قناطر الخيرات**، تح، سيّد كسْروي حسن وخلاَّف محمود عبد السَّميع، دار الكتب العلميَّة، بيروت، **ط1**، 2001م.

29- ابن حزم الأندلسي علي بن أحمد بن سعيد: **جمهرة أنساب العرب**، تح و تع: عبد السَّلام مُحمَّد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط.5، 1982م.

30- ابن حماد أبو عبيد الله محمد: **أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم**، تح: التُّهامي نقره وعبد الحليم عويس، دار الصَّحوة، القاهرة، ط.1، 1988م.

31- الحموي أبو عبد الله ياقوت: **معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط.1977،1م.**

32- الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، (القاهرة)، (د.ط)، 1966م.

33- الحميري مُحمَّد بن عبد المنعم: **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، مطابع هيد لبرغ، بيروت، ط.2، 1984م.

34- حيدة مُحمَّد بن بابا: **القول البسيط في أخبار تمنطيط**، تح: فرج مُحمَّد فرج: ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط1، 1977م.

35- ابن خُرْداذبة أبي القاسم عبيد الله بن عبد لله: **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، ليْدن – هولندا، ط.1، 1881م.

36- ابن الخطيب لسان الدين: **أعمال الأعلام**، تح: سيد كسروي حسين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2003م.

37- (ـــــــــــــــــــ): **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، (القاهرة)، ط1، (1394هـ/1974م).

38- (ـــــــــــــــــــ): **معيار الإختيار في ذكر المعاهد و الدّيار**، تح: محمد كمال شبانه، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.هـ)، (1423هـ/2002م).

39- (ـــــــــــــــــــ): **نفاضة الجراب في علالة الإغتراب**، تح: السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (د.ط)، 1989م.

40- ابن خلدون أبي زكرياء يحيى: **بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،** تح: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، (الجزائر)، (د.ط)، 2007م.

41- ابن خلدون عبد الرحمان: **المقدمة،** درا الشرق العربي، بيروت، ط 3، 2017م.

42- (ـــــــــــــــــــ): **رحلة ابن خلدون،** تع، مُحمَّد بني تاويت الطَّنجي، ط.1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2004م.

43- (ـــــــــــــــــــ): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشَّأن الأكبر**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 2000م.

44- ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان،** تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط.1، 1977م.

45- الداعي إدريس عماد الدين: **تاريخ خلفاء الفاطميين بالمغرب،** تح. محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي ، بيروت، ط1، 1985م.

46- الدباغ عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسيدي: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،** أكمله وعلق عليه، أبو القاسم بن عيسى بن تاجي التنوخي، تصحيح وتعليق : إبراهيم شبّوح، مكتبة الخانجي، مصر، (د ط)، 1968م.

47- الدِّرجيني أبو العباس أحمد: **طبقات المشائخ بالمغرب،** تح: إبراهيم طلاي،(ب م ط)، **ط.1**،(ب س ن).

48- الدمشقي أبو الفضل جعفر بن علي: **الإشارة إلى محاسن التجارة و معرفة جيد الأعراض و رديها وغشوش المُدلس فيها،** مطبعة المؤيد، (د.م.ط)، (د.ط)، (1318هـ).

49- ابن الدِّين الحاج : **رحلة الأغواطي،** تح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدُّوليَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، (ط.خ)، 2011م.

50- ابن أبي الدِّينار مُحمَّد بن القاسم: **المؤنس في أخبار إفريقيَّة وتونس**، مطبعة الدَّولة التَّونسيَّة، تونس، **ط.1**، 1869م.

51- الربوة شيخ: **نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر**، تص: اغشطس بن يحيى، مطبعة الأكاديمية بط رسبورغ، 1864م.

52- ابن أبي زرع الفاسي علي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، (د.ط)، 1972م.

53- الزَّركلي خير الدِّين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط.15، 2002م.

54- الزَّهري أبو عبد الله مُحمَّد: **كتاب الجغرافيَّة**، تح: مُحمَّد حاج صادق، منشورات مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، **ط.1**، (ب. س. ن).

55- ابن سحنون مُحمَّد : **آداب المُعلِّمين**، تح: محمود عبد المولى، الشَّركة الوطنيَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.1، 1981م.

56- السَّخاوي مُحمَّد بن عبد الرَّحمان: **الضّوء اللاّمع لأهل القرن التَّاسع**، دار الجبل، بيروت، ط2، 1992م.

57- السَّعدي عبد الرَّحمان: **تاريخ السُّودان**، تح: حماه الله ولد سالم، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.2012،1م.

58- (ـــــــــــــــــــ): **تاريخ السُّودان**، طبعة هوداس، 1964م.

59- **سنن أبي داود**، كتاب الأقضية، باب: من القضاء، رقم الحديث.**3633**.

وينظر أيضاً:

60- **سنن التِّرمذي**، أبواب الأحكام، باب: ما جاء في الطَّريق إذا أختلف فيه، رقم الحديث.**1356**.

61- السُّيوطي جلال الدِّين والمحلي جلال الدِّين: **تفسير الجلالين**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 2003م.

62- الشَّماخي أحمد بن سعيد بن عبد الواحد: **السّير**، تح: سعود السّيالي، وزارة التُّراث القومي والثَّقافة، مسقط، ط.2، 1992م.

63- الشِّيفشاوني مُحمَّد بن عسكر الحسني: **دوحة النَّاشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تح: مُحمَّد حجِّي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، الرباط، ط1، 1977 م.

64- **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب: رحمة النَّاس والبهائم، رقم الحديث.**6011**.

65- **صحيح مسلم**، كتاب الربرُّ والصِّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث.**2586**.

66- الضَّبي أحمد بن يحي بن عميرة: **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط.1، 1967م.

67- العبدري أبو عبد الله: **رحلة العبدري**، تح : علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، (دمشق)، ط2، 2005م.

68- ال عسقلاني ابن حجر: **الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة**، تح: مُحمَّد عبد المعين خان مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة، الهند، ط2، 1972م.

69- العمري أبو فضل الله: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح: محمد عبد القادر خريسات و آخرون مركز زايد للتراث و التاريخ، (الإمارات العربية المتحدة)، (د.ط)، 2001م.

70- العياشي أبو سالم عبد الله بن مُحمَّد: **الرِّحلة العياشيَّة**، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السُّويدي للنشر، أبوظبي، ط.1، 2006م.

71- الغبريني أبو العباس: **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تح: عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م.

72- الغزالي أبو حامد: **إحياء علوم الدِّين**، تح: زين الدِّين أبي الفضل عبد الرَّحيم، ج.3، **ط.1**، دار القلم، بيروت، 1989م.

73- الفرسطائي أبي العباس أحمد بن مُحمَّد: **القسمة وأصول الأرضين**، تح: بكير بن مُحمَّد الشَّيخ بلحاج ومُحمَّد صالح ناصر، منشورات جمعيَّة التُّراث، لقرارة – الجزائر، ط.2، 1997م.

74- الفشتالي فارس عبد العزيز: **مناهل الصَّفا في مآثر موالينا الشُّرفا**، تح، عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة والثَّقافيَّة، (د م ن)، (د ط)، (د س ن).

75- الفكون عبد الكريم: **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، (بيروت)، ط1، 1987م.

76- ابن القاضي: **درَّة الحجال في أسماء الرِّجال**، تح: مُحمَّد الأحمدي أبو النُّور، مكتبة دار التُّراث، القاهرة، ط1، 1978م.

77- القرطبي أبو يوسف بن عبد البرّ: **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.3، 2002م،.

78- القزويني زكرياء بن محمد: **آثار البلاد و أخبار العباد**، دار صادر (بيروت)، (د.ط)، (د.س.ن).

79- القلقشندي أبو العباس أحمد: **صبحى الأعشى في صناعة الإنشا**، المطبعة الأميّرية (القاهرة)، ط1، 1915م.

80- القيرواني الرَّقيق: **تاريخ إفريقية والمغرب**، تح: مُحمَّد زينهم مُحمَّد عزب، دار الفرجاني للنشر والتَّوزيع، القاهرة، ط.1، 1994م.

81- ابن كثير إسماعيل:**البداية والنَّهاية**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 1986م.

82- المالكي ابن الصَّغير: **أخبار الأئمة الرُّستميين**، تح و تع: محمَّد ناصر و إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1986م.

83- مخلوف مُحمَّد بن عمر قاسم: **شجرة النُّور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة**، تح: عبد المجيد خيالي دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2003م.

84- مخلوف مُحمَّد بن مُحمَّد: **شجرة النُّور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة**، مطبعة السَّلفيَّة، القاهرة، ط.1، 1930م.

85- المراكشي عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: مُحمَّد زينهم مُحمَّد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.1، 1994م.

86- المراكشي إبن عذارى: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح: ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثَّقافة، بيروت، ط.3، 1983م .

87- مرزوق التلمساني مُحمّد: **المناقب المرزوقيّة**، تح سلوى الزُّهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ،مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء)، ط1، 2008م.

88- ابن مرزوق مُحمد : **المسند الصَّحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن**، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، الشَّركة الوطنيَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط1، 1981م.

89- ابن مريم التِّلمساني أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبعة الثَّعالبيَّة، الجزائر، ط.1، 1908م.

90- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: **أخبار الزمان**، المكتبة الحيدرية، (العراق)، ط2، (1386هـ/1966م).

91- المغربي أبو الحسن علي بن سعيد: **الجغرافيا**، تح: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التِّجاري للطباعة والنَّشر، بيروت، ط.1، 1970م.

92- المقديسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط.3، 1991م.

93- المقريزي تقي الدِّين أحمد بن علي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تح: مُحمَّد حلمي مُحمَّد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط.2، 1996م.

94- (ـــــــــــــــــــــــــــ): **جنى الأزهار من الروض المعطار**، تح، محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، (1426هـ/2006م).

95- المهلبي الحسن بن أحمد: **الكتاب العزيزي (المسالك و الممالك)**، تع: تيسير خلف، التكوين للطباعة و النشر (دمشق)، ط1، 2006م.

96- مؤلف مجهول: **الإستبصار في عجائب الأمصار**، تع: سعد زغلول عبد الحميد، دار النَّشر المغربيَّة، الدَّار البيضاء، ط.1، 1985م.

97- مؤلف مجهول (ـــــــــــــــــــــ): **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، (القاهرة)، **ط1**، 1999م.

98- مؤلف مجهول (ـــــــــــــــــــــ): **كتاب المعلَّقات في أخبار وروايات أهل الدعوة**، تح: سليمان بن إبراهيم بابزيز الوارجلاني، منشورات وزارة التراث والثقافة، عمّان، ط1، 2009م.

99- ابن أبي نصر أبو عبد الله: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، **ط.1**، 1966م.أ

100- النَّصيبي أبو القاسم بن حوقل: **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت، ط.1، 1992م.

101- النميري إبن الحاج: **فيض العبا ب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزَّاب**، تح: مُحمَّد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1990م.

102- النَّويري شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2004م.

103- الهمذاني ابن الفقيه: **البلدان**، تح: يوسف الهادي، منشورات عالم الكتب،(بيروت)، ط1، 1996م.

104- الوارتلاني الحسين بن مُحمَّد: **نزهة الأنظار في فضل علم التَّاريخ والأخبار**، تح: مُحمَّد ابن أبي شنب، مطبعة بير فونتانا الشَّرقيَّة، الجزائر، ط1، 1908م.

105- الوارجلاني أبو يعقوب يوسف: **الدليل والبرهان**، تح: سالم بن حمد الحارثي، وزارة التراث و الثقافة، مسقط، ط2، (1427هـ/2006م).

106- الوزان لحسن بن مُحمَّد: **وصف إفريقيا**، تر: مُحمَّد حجي ومُحمَّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1983م.

107- الوسياني أبو الرَّبيع سليمان بن حسان: **سير الوسياني**، تح: عمر بن لقمان بوعصبانة، منشورات وزارة التُّراث والثَّقافة، مسقط، ط.1، 2009م.

108- الولاتي أبي عبد الله: **فتح الشَّكور في معرفة أعيان علماء التّكرُور**، تح: مُحمَّد إبراهيم الكتَّافي و مُحمَّد حجِّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981م.

109- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيَّة والأندلس والمغرب**، اشْ: مُحمَّد حجي، وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة، الرِّباط، ط.1، 1908م.

110- ابن أبي يعقوب أحمد: **تاريخ اليعقوبي**، تق: محمد صادق، منشورات المكتبة الحيدرية، (النجف)، (د.ط)، (1384هـ،1964م).

111- اليعقوبي أحمد بن أبو يعقوب إسحاق: **البلدان**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط.1، 2002م.

- المـــــراجـــــــع :

116- الأزرق أحمد: **الكتاتيب القرآنيَّة في الجزائر ودورها في الحفاظ على وحدة الأمَّة وأصالتها**، دار الغرب للنشر والتَّوزيع، ط1 وهران، 2002م.

117- أعزام إبراهيم بن صالح: **غصن البان في تاريخ وارجلان**، تح، إبراهيم بحاز وسليمان بومعقل، مطبعة العالميَّة، غرداية – الجزائر، ط.1، 2013م.

118- أعفيف مُحمَّد : **توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرِّباط، ط.1، 2014م.

119- أعوشب بكير بن سعيد: **ميزاب يتكلم تاريخيا عقائديا، اجتماعيا**، (د. م. ن)، ط.1، (د. س. ن).

120- (ـــــــــــــــــــ): **وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية (دينيا، تاريخيا، اجتماعيا)**، المطبعة العربيَّة، غرداية – الجزائر، ط.1، 1991م.

121- بازينة عبد الله سالم: **انتشار الإسلام في افريقيا جنوب الصحراء**، منشورات جامعة 7 أكتوبر، (طرابلس)، ط1، 2010م.

122- باي بلعالم مُحمَّد: **الرِّحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات** (د م ن)، (د ط)، (د س ن).

123- بحاز إبراهيم : **الدَّولة الرُّستميَّة. دراسة في الأوضاع الاقتصاديَّة والحياة الفكريَّة**، منشورات جمعية القرارة – غرداية ، الجزائر، ط2، 1993م.

124- بشير عبد الرَّحمان: **اليهود في المغرب العربي**، منشورات عين للدِّراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، القاهرة، ط.1، 2001م.

125- بكري عبد الحميد: **النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التَّاسع الهجري إلى القرن الرَّابع عشر**، دار الغرب للنشر والتَّوزيع، وهران – الجزائر، ط.1، 2007م.

126- بلعربي خالد: **إضاءات حول تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط (السِّياسيَّة، الاقتصاد، الثَّقافة، المجتمع)**، النَّشر الجامعي الجديد، تلمسان – الجزائر، ط.1، 2018م.

127- بنمليح عبد الإله : **الرقّ في بلاد المغرب والأندلس**، مؤسسة الإنتشار العربي،(بيروت)، ط1، 2004م.

128- بوبريك رحال : "**الإسلام بإفريقيا الصيرورة التاريخية و أنماط التدين بغرب افريقيا**"، افريقيا كأفق للتفكير، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، (الرباط)، (د.ط)، 2015م.

129- بورويبة رشيد: **الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر)، ط1، (1397هـ/1977م).

130- (ـــــــــــــــــــ): **مدن مندثرة، سلسلة فن و ثقافة**، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، (الجزائر)، (د.ط)، (1402هـ/1981م.

131- بوزياني الدراجي: **القبائل الأمازيغيَّة. أدوارها، مواطنها، أعيانها**، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط.1، 2007م.

132- بوعصبانة عمر لقمان: **معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراته**، إشراف مديريَّة الثَّقافة، ورقلة – الجزائر، ط.1، 2009م.

133- بوعمامة فاطمة : **اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السَّابع والثَّامن هجري /14. – 15ميلادي**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.1، 2011م.

134- بونابي الطاهر: **مظاهر المجال والدِّين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، مطبوعات النَّشر الجامعي الجديد، تلمسان – الجزائر، ط.1، 2020م.

135- التِّليسي بشير رمضاني: الاتجاهات الثَّقافيَّة في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرَّابع الهجري العاشر الميلادي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.

136- تيتاو حميد: **الحرب و المجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**، مؤسسة الملك عبد العزيز، (الدار البيضاء)، 2008م.

137- جعفري أحمد أبا الصَّافي: **الحركة الأدبية في إقليم توات**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط.1، 2009م.

138- (ـــــــــــــــ): **من تاريخ توات أبحاث في التراث**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط.1، 2011م.

139- الجنحاني الحبيب : **المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية و الاجتماعية (3-4هـ/9-10م)**، الدار التونسية للنشر، (تونس)، (د.ط)، 1978م.

140- (ـــــــــــــــ) : **دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 1980م.

141- الجهيمي حمد مُحمّد: " **العلاقات التجارية بين مملكة غانا وبلاد المغرب فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين/ التاسع والحادي عشر الميلاديين**" ، كلية الآداب والعلوم، قسم التاريخ، جامعة عمر المختار، (ليبيا)، (د س ن).

142- جودت عبد الكريم يوسف : **الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنيين الثالث و الرابع الهجريين، (9-10م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، (د.س.ن).

143- (ـــــــــــــــ): **العلاقات الخارجيَّة للدولة الرُّستميَّة**، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، **ط.1**، 1984م.

144- الجيلالي عبد الرَّحمان: **تاريخ الجزائر العام**، دار مكتبة الحياة، بيروت، **ط.2**، 1965م.

145- حافظي علوي حسن : **دراسات صحراوية الماء و الإبل و التجارة**، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، (الرباط)، ط1، 2014م.

146- (ـــــــــــــــــــ): **سجلماسة و إقليمها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي**، مطبعة فضالة، (المغرب)، (د.ط)، (1418هـ/1997م).

147- حجازي عبد الرَّحمان: **تطور الفكر التَّربوي الإباضي في الشَّمال الافريقي من القرن الأوَّل حتى القرن العاشر هجري(95هـ-713م/928هـ-1520م)**، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 ،2000م.

148- حجِّي مُحمَّد : **الحركة الفكريَّة بالمغرب في عهد السَّعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، مطبعة فضالة، ط.1، 1978م.

149- حركات إبراهيم: **المغرب عبر التاريخ**، دار الرَّشاد الحديثة، الدَّار البيضاء، ط.1، 2000م.

150- (ـــــــــــــــــــ): **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتى القرن9هـ/15م**، دار الرَّشاد الحديثة، الدَّار البيضاء، ط1، 2000م.

151- الحريري مُحمَّد عيسى: **الدَّولة الرُّستميَّة بالمغرب الإسلامي. حضارتها وعلاقتها الخارجيَّة بالمغرب والأندلس**، دار القلم، الكويت، ط.3، 1987م.

152- حسن أحمد محمود : **الإسلام و الثقافة العربية في افريقيا**، دار الفكر العربي (القاهرة)، (د.ط)، 2001م.

153- حسين أحمد إلياس: **الإباضيَّة في المغرب العربي**، مكتبة الضَّاهري للنشر والتَّوزيع، عَمَّان، ط.1، 1992م.

154- حقي مُحمَّد: **البربر في الأندلس**، شركة النَّشر والتَّوزيع – المدارس، الدَّار البيضاء، ط.1، 2001م.

155- حماه الله ولد السالم: **تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب العلمية، (بيروت)، (د.ط)، 2017م.

156- (ـــــــــــــــــ): **تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 2017م.

157- حوتيّة مُحمَّد الصّالح: **توَات والأزواد**، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط.1، 2007م.

158- خالدي أحمد سامح: **المعاهد المصريَّة في بيت المقدس**، مؤسسة هنداوي للنشر ،القاهرة، ط1، 2014م.

159- خدوسي رابح وآخرون: **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2014م.

160- الدارودي سعيد بن عبد الله: **حول عروبة البربر مدخل إلى عروبة الأمازيغين من خلال اللسان**، منشورات فكر، سلطنة عمان، ط1، 2012م.

161- الدالي الهادي المبروك: **التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة)، ط1، 1999م.

162- (ـــــــــــــــــ): **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، منشورات الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة،) ط1، (1420هـ/1999م).

163- (ـــــــــــــــــ): **مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها مع المغرب و ليبيا**، تق: محمد رزوق، دار الملتقى للطباعة و النشر (بيروت)، ط1، 2001م.

164- دبوز مُحمَّد علي: **تاريخ المغرب الكبير**، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، كاليفورنيا،ط.1، 2010م.

165- (ـــــــــــــــــــ): **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، عالم المعرفة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط1، 2013م.

166- دراسات عن الإباضيَّة، تح: ميخائيل خوري، درا الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2001م.

167- دغفوس راضي: «**الصِّراع المذهبي في إفريقيَّة في منتصف القرن الخامس/الحادي عشر وانتصار المالكيَّة**»، **دراسات في التَّاريخ العربي الإسلامي الوسيط**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2005م.

168- الدُّوري تقي الدين عارف و الدّجليي شاكر خولة **تاريخ المسلمين في افريقية**، دار الكتب الوطنية (أبو ظبي)، (د.ط)، 2014م.

169- رزق الله أحمد مهدي: **حركة التجارة و الإسلام و التعليم الإسلامي في غربي افريقيا قبل الاستعمار و آثارها الحضارية**، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، (الرياض)، ط1، 1998م.

170- رزوق محمد : **دراسات في تاريخ المغرب**، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1991م.

171- زبادية عبد القادر: **الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، ط1، 1989م.

172- (ـــــــــــــــــــ): **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، (د.س.ن).

173- زنبير محمد : **المغرب في العصر الوسيط – الدولة- المدينة. الاقتصاد**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1999م.

174- سعد الله فوزي : **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، دار الأمَّة للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.2، 2004م.

175- **سلسلة قصور غرداية قصر العطف – تجنينت –**، جم: حمو علي حاج داود، ط.1، ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته، غرداية، 2014م .

176- السُّنوسي يوسف: **زناته والخلافة الفاطميَّة**، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ط.1، 1986م.

177- سوادي عبده محمد ، صالح عمّار الحاج: **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، منشورات المكتب المصري، (القاهرة)، ط1، 2004م.

178- (ـــــــــــــــــــــــــ): **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، منشورات المكتبه المصرية، (القاهرة)، ط1، 2004م.

179- (ـــــــــــــــــــــــــ): **الأحوال الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثَّاني الهجري حتى نهاية القرن السَّابع الهجري**، منشورات كلِّيَّة التَّربية، جامعة البصرة، العراق، (د ط)، (د س ن).

180- الشَّرقاوي عوض : **التَّاريخ السِّياسي والحضاري نفوسة في القرنين الثَّاني والثَّالث الهجريين**، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، طرابلس، ط1، 2011 م.

181- شقرون محمد: **الإسلام الأسود**، دار الطليعة للطباعة و النشر، (بيروت)، ط1، 2007م.

182- شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: **تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم**، دار الثقافة ، القاهرة، (د ط)، 1996م.

183- ابن الشيخ سليمان الحسن : **تاريخ ملوك بني صالح شرفاء كومبي صالح ملوك غانة ومالي من بلاد السودان**، دار يوسف ابن تاشفين، (د. م ط)، ط1، 2009م.

184- الشيخلي صباح إبراهيم: "**النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري**"، **تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر**، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، (بغداد)، 1984م.

185- طرخان إبراهيم علي : **إمبراطوريَّة غانة الإسلاميَّة**، منشورات الهيئة المصريَّة العامة للتأليف والنَّشر، القاهرة، 1970م.

186- الطّمار محمد : **الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، 2007 م.

187- ابن عبد الهادي يوسف: **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، المعهد الأفرنسي بدمشق، ط1، بيروت، 1994م.

188- العدواني مُحمَّد بن عمر: **تاريخ العدواني**، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1996م.

189- العربي إسماعيل : **الصَّحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، **ط.1**، 1983م.

190- علي يحي معمر: **الإباضية في موكب التَّاريخ، الحلقة الرَّابعة (الإباضية في الجزائر)**، المطبعة العربيَّة، غرداية الجزائر، ط.1، 1985م.

191- عمارة علاوة: **دراسات في التَّاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط1، 2008م.

192- ابن عمر أسماوي صالح: **العزَّابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب**، ، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ط1، 2006م.

193- العوامر إبراهيم بن مُحمَّد السَّاسي: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تع: الجيلاني بن إبراهيم العوامر، دار ثالة للطباعة، ط.1، 2007م.

194- غربي محمد: **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي " نشأته وآثاره"** ، إش: نقولا زياده، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ،(الكويت)، ط1، 1982م.

195- غلاب عبد الكريم: **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2005م.

196- غيثان بن علي بن جريس: **الدور الحضاري لنشاط التجارة بين شمال وغرب إفريقيا في العصور الإسلامية الوسيطية**، بدون دار نشر ، (د م ن)، (د ط)، (د س ن).

197- فرج محمود فرج: **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، 1984م.

198- فيلالي عبد العزيز: **العلاقات السّياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودُول المغرب**، دار الفجر للنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط2، 1999م.

199- (ـــــــــــــ): **تلمسان في العهد الزياني "دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية"**، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2002م.

200- قادري عبد الحميد إبراهيم: **التعريف بوادي ريغ**، الآمال للطباعة، الوادي – الجزائر، ط.1، 1999م.

201- قداح نعيم : **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام**، مر: عمر الحكيم، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، (دمشق)، (د.ط)، 1960م.

202- الكعاك عثمان : **موجز تاريخ الجزائر**،

203- كواتي مسعود : **اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين**، دار هومه للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ط.1، 2009م.

204- كوردي مُحمود حسين: **الحركة العلميَّة في جبل نفوسة وتأثيرها على بلاد السُّودان الغربي خلال القرون(2- 8هـ /8- 14م)**، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، طرابلس، ط1، 2008م.

205- لمقدم مبروك : **الإمام مُحمَّد بن عبد الكريم المغيلي ودوره في تأسيس الإمارة الإسلاميَّة بإفريقيا الغربيَّة خلال القرن التَّاسع الهجري الخامس عشر للميلاد**، دار الغرب للنشر والتَّوزيع وهران، ط1، 2006م.

206- (ـــــــــــــ): الفقارة في قصور توات و أحوازها النشأة و التعريف، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر)، ط1، 2016م.

207- ماجد عبد المنعم: **تاريخ الحضارة الإسلاميَّة في العصور الوسطى**، مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهر، ط.7، 1996م.

208- مارمول كربخال: **إفريقيا**، تر، مُحمَّد حجي وآخرون، الجمعيَّة المغربيَّة للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، الرِّباط، ط.1، 1989م .

209- مجموعة من الباحثين: **المغيَّبون في تاريخ تونس الاجتماعي**، تن: الهادي التِّيمومي، المجمع التُّونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، ط.1، 1999م.

210- مجموعة من الباحثين: **الطُّوبونيميا بالغرب الإسلامي إسهام في ضبط أسماء الأماكن مُقدِّمات في الفهم والمنهج والعلائق**، مطبعة إفريقيا الشَّرق، الدَّار البيضاء، **ط.1**، 2012م.

211- محفوظ بن ساعد بوكراع السّطيفي: **الفرقد النَّائر في تراجم علماء أدرار المالكيَّة الأكابر**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2016م.

212- محمود إسماعيل عبد الرَّازق: **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرَّابع الهجري**، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.2، 1985م.

213- محمود سلام زناتي: **الإسلام والتقاليد القبلية في إفريقيا**، دار النهضة العربية، بيروت، (د ط)، 1969م.

214- المدني أحمد توفيق: **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط.1، 1984م.

215- مرزوقي حسين: **بلاد السُّودان في كتب الجغرافيين والرَّحالين العرب والمسلمين إلى حدود القرن الثَّامن الهجري**، مجمع الأطرش للنَّشر والتَّوزيع، تونس، ط1، 2018م.

216- مزهودي مسعود: **الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب(296هـ- 909م/442هـ - 1058م)**، منشورات جمعيَّة التُّراث، غرداية - الجزائر، ط.1، 1996م.

217- مصطفى أبو الضَّيف أحمد عمر: **القبائل العربيَّة في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين**، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، ط.1، 1982م .

218- مطير سعد غيث أحمد: **الثقافة العربية الإسلامية و أثرها على مجتمع السودان الغربي- دراسة في التواصل الحضاري العربي الافريقي**، دار المدار العربي، (بيروت)، ط1، 2005م.

219- معيوف مفتاح صالح: **جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية من منتصف القرن الثاني للهجري إلى أواخر القرن الثالث الهجري**، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، (د.ط)، 2006م.

220- مقلاتي عبد الله ورموم محفوظ: دور **منطقة توات الجزائريَّة في نشر الإسلام والثَّقافة العربيَّة بإفريقيا الغربيَّة**، الشُّروق للإعلام والنَّشر، الجزائر، ط.1، 2009م.

221- الملاح بشار أكرم : **التّحولات التي أحدثها الإسلام في المجتمع الافريقي**، دار غيداء للنّشر و التوزيع، (الجزائر)، ط1، 2013م.

222- ابن منصور عبد الوهاب: **قبائل المغرب**، المطبعة الملكيَّة، الرِّباط، ط.1، 1968م.

223- المنصور مُحمَّد: «الوجه الآخر للتجارة. التَّبادل التِّجاري كوسيط ثقافي»، **الذَّاكرة والهوية**، ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة الدَّار البيضاء، ط1، 2013م.

224- ابن موسى مُحمَّد بابا عمّي وآخرون: **معجم أعلام الإباضيَّة من القرن الأوَّل إلى العصر الحاضر(قسم المغرب)**، مُر: مُحمَّد صالح ناصر، منشورات جمعية التُّراث، لقرارة - الجزائر، ط.2، 2000م.

225- مولاي أحمد الأرواني: السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية، تح: الهادي مبروك الدالي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بنغازي، ط1، 2001م.

226- مولود ولد أيده أحمد : **الصحراء الكبرى مدن و قصور**، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، 2009م.

227- مؤنس حسين : **إبن بطوطة ورحلاته. تحقيق ودراسة وتحليل**، دار المعارف، القاهرة، ط.1، 2003م.

228- موهوبي عبد القادر: **ومضات تاريخيَّة واجتماعيَّة لمدن وادي ريغ وميزاب وورقلة والطيَبات والعليَة والحجيرة**، دار البصائر، الجزائر، ط.1، 2011م.

229- مياسي إبراهيم: **قبسات من تاريخ الجزائر**، دار هومة، الجزائر، (د.ط)، 2010م.

230- الميلي بن مُحمَّد مبارك: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تق و تص: مُحمَّد الميلي، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، ط.1، 1986م.

231- ناصر مُحمَّد صالح: **دور الإباضيَّة في نشر الإسلام بغرب إفريقيا**، منشورات وزارة العدل والأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة، مسقط، ط1، 1992م.

232- (ـــــــــــــ): **منهج الدعوة عند الإباضية**، منشورات جمعية التراث، (غرداية)، (الجزائر)، ط2، 1999م.

233- النَّاصري أبو العباس أحمد: **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح: جعفر النَّاصري ومحمد النَّاصري، دار الكتاب، الدَّار البيضاء، ط.1، 1954م.

234- نوحه عبد القادر: **ستارة بين أمجاد الماضي وحواضر المستقبل تاريخ وحضارة**، مطبعة مزوار، الوادي – الجزائر، ط1، 2011م.

235- (ـــــــــــــ): **وادي ريغ في مشبك الأحداث ببلاد المغرب**، مطبعة مزوار، الوادي – الجزائر، ط.1، 2016م.

236- نويهض عادل: **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثَّقافيَّة للتأليف والتَّرجمة والنَّشر، بيروت، ط2، 1980م.

237- الود غيري عبد العلي: **اللغة العربية و الثقافة الإسلامية بالغرب الافريقي و ملامح من التأثير المغربي**، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، (الرباط)، (د.ط)، 2011م.

238- ولد الحسين الناني : **صحراء الملثمين دراسة في تاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف ق 2هـ/8 م إلى نهاية ق5هـ/11م**، تق محمد حجي، دار المدار الإسلامي،(بيروت)، (د ط) 2007م.

239- ولد حامد المختار : **حياة موريتانيا الجغرافيا**، دار الغرب الإسلامي، (بيروت)، (د.ط)، 1994م.

240- يوسف بن بكير الحاج سعيد: **تاريخ بني ميزاب ونضالهم من أجل الحقِّ في التَّباين "دراسة اجتماعيَّة "دراسة اجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسية"**، المطبعة العربيَّة، غرداية – الجزائر، ط.3، 2014م.

المراجـــــع المعرّبـــــة:

241- أ ف. غوتيه: **ماضي شمال إفريقيا**، تر: هشام الحسيني، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، كاليفورنيا، ط.1، 2010م.

242- إصطيفان إكصيل: **تاريخ شمال إفريقا القديم**، تح، مُحمَّد التَّازي سعود، مطبوعات أكاديميَّة المملكة المغربيَّة، الرِّباط، ط.1، 2007م.

243- بانيكار مادهو : **الوثنية و الإسلام تاريخ الامبراطوريات الزنجية في غرب افريقية**، تر: فؤائد بلبع، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 1998م.

244- بوفيل إدوارد وليام : **تجارة الذهب و سكّان المغرب الكبير**، نقله إلى العربية، الهادي أبو لقمة، محمد عزيز، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2، 1988م.

245- تاديوس ليفتكسي: **دراسات عن شمال افريقية**، تر: أحمد بو مزكو، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية (كاليفورنيا)، ط1، 2006م.

246- (ـــــــــــــــ): **المؤرخون الإباضية في إفريقيا الشمالية**، تر: ماهر جرّار وريما جرّار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2000م.

247- جستون كوفي: **غراسة النخيل في سوف**، تر: عبد القادر ميهي، إصدارات دار الثقافة، الوادي،(الجزائر)، ط1، 2013م.

248- (ـــــــــــــــ): **مذكرات حول سوف والسوافة**، تر.عبد القادر ميهي، مطبعة الرمال، الوادي،(الجزائر)، ط1، 2016م.

249- جوان جوزيف: **الإسلام في ممالك و امبراطوريات افريقيا السوداء**، تر: مختار السويقي، دار الكتاب المصري (القاهرة)، ط1، 1984م.

250- جورج غير ستر: **الصَّحراء الكبرى**، تع: خيري حمَّاد، منشورات المكتب التِّجاري، بيروت، ط.1، 1961م.

251- جون دوفيس: **الفن الإسلامي و التأثيرات في شعوب افريقيا السوداء-الفن العربي الإسلامي- العمارة**، المنظمة العربية للثقافة و العلوم و الفنون، (تونس)، (د.ط)، 1995م.

252- دنيس يولم: **الحضارات الافريقية**، تر: علي شاهين منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت)، (د.ط)، 1974م.

253- دومنيك فاليرين: **بجاية ميناء مغربي**، تر: علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، (د.ط)، 2014م.

254- دي فيج جي : **تاريخ غرب افريقيا**، تر،وتق: السيد يوسف نصر دار المعارف، (القاهرة)، ط1، 1982م.

255- روبار برنشفيك : **تاريخ افريقية في العهد الحفصّي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م**، نقله إلى العربية، حمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.

256- روبيناتشي روبيرتو: **العزَّابة حلقة الشَّيخ مُحمَّد بن بكر (وثيقة قديمة عن حياة نُسَّاك الصَّوامع في الإسلام)**، تر: لميس الشَّجني، مؤسسة تاوالت الثَّقافيَّة، طرابلس، ط1، 2006م.

257- روجي فوازن أندري: **سوف مونوغرافيا**، تر. أبوبكر مراد، دار المعرفة، الجزائر، (د.ط)، 2016م.

258- غابرييل كامب: **البربر ذاكرة وهوية**، تر: عبد الرَّحيم حزل، إفريقيا الشَّرق، الرِّباط، ط.1، 2014م.

259- فليكسي ديبوا: **تمبكت العجيبة**، تر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مرا: شوقي عطا الله الجمل، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة)، (د.ط)، 2003م.

260- لومبارد موريس : **الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى**، تر: عبد الرحمان حميدة: دار الفكر، دمشق، (د.ط)، 1998م.

261- لويس آي إم: الإسلام في إفريقيا الإستوائية، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010م.

262- ليزال روجي : **السود في سوف**، تر: عبد القادر ميهي،(د م ط)،(د ط)، (د س ن)،

263- متز آدم: **الحضارة الإسلامية خلال القرن الرابع الهجري أو عصر نهضة الإسلام**، تر: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، (بيروت)، ط5، (د. س. ن).

264- هاينريش فون مالستيان: **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، تر: أبو العيد دودو**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،(د ط)، 1980م

265- هوبكنز أنطوني .ج: **التَّاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية**، تر: أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة،) ط 1 ،1998م.

- **المراجع باللغة الأجنبية:**

266- Cressier (p), Burnus (S): **La grande mosquée d'Agadez**, Im: Journal des africanistes, 1984, t54, fascicule i.

267- De la romciere (CH): **Découverte D'une Relation De voyage Datée Dutouat et Décrivant en 1447 le Bassin Du Niger**, imprinerie matio males paris,1918.

268- Échallier. (J.C): **Villages désertes et structures agraires ancienne au Touat Gourara**, Paris, 1972.

269- CLAMAGERAN: **L'Algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873**, Paris, Librairie Germer Bailliere, 1874.

270- oskar - Lenz: **Tombouctou voyage au Maroc au Sahara et au soudan**, 2Tome, libraire Maghette, paris, 1887.

271- Lethielliux Jean: **ouaregla cité saharienne**, libraire orientaliste, Paul geuthner s.a paris, 1983.

272- Lewicki.(T):**L'état nord -africain de Tahert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle**, cahiers d'Etudes Africaines, vol, cahier8.

273- Lewicki: **Etudes maghrébines et soudanaises**, editions scientifiques de pologne, pologne, 1983.

274- Lô Capitaine: **Les foggaras du Tidikelt**, Travaux de l'Institut de recherches sahari ennes (Alger), T.11, 2éme semestre, 1954.

- **المقالات وأعمال الملتقيات والندوات:**

275- أحمد محمد إسماعيل أحمد الجمال: "**تاريخ مدينة أودغشت و دورها في حركة التجارة بين المغرب و افريقيا جنوب الصحراء (السودان الغربي)**"، حوليات مركز البحوث و الدراسات التاريخية، الحولية الثامنة، القاهرة، يوليو 2008م.

276- أعفيف مُحمّد :«**واحات توات عبر التَّاريخ مجال للتواصل والتَّعايش**»، مقال ضمن كتاب، **مجالات الجوار المغربيَّة استحضار لماض تواصلي عريق**، تن: حميد تيتاو، منشورات كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، وجدة، ط.1، 2016م.

277- بحاز ابراهيم: **الميزابيون المعتزلة قراءة جديدة في نصوص قديمة**، مجلة الحياة، ع1، صادرة عن معهد الحياة الخاصة، غرداية(الجزائر)، جانفي 1998م.

278- برشان مُحمَّد : **الصَّحراء في أبحاث المهدي البوعبدلي إقليم توات أنموذجا.**

279- بركات كمال: «**صور من الحياة الاجتماعيَّة لطبقة خاصة في مجتمع المغرب الأوسط الأئمة الرُّستميون والأمراء الحماديون أنموذجاً**»، مقال ضمن كتاب جماعي **طبقات مجتمع المغرب الأوسط قراءة في الموروث والذهنيات.**

280- بركات كمال، بوعقادة عبد القادر: "**الأولياء والتصدي للجريمة في المجتمع المغرب الاسلامي من خلال كتاب التشوف التادلي قراءة في آليات المجابهة وسبل التخفيف**"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية ، مج19، ع1، جامعة سطيف (الجزائر)، 2022م.

281- بعثمان عبد الرَّحمان "**حملة المغيلي على يهود توات وأثرها على الواقع الحِرفي في المنطقة**"، مجلَّة النَّاصرية، مج.4، ع.1، تصدر عن مخبر البحوث الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، جامعة مصطفى ستامبولي، معسكر – الجزائر، جوان/2013م.

282- (ـــــــــــــــــــــ): "**نظام السقي في الجنوب الغربي الجزائري نظام الفقارة في منطقة توات أنموذجا**"، مجلة كان التاريخية، ع22، الكويت، ديسمبر 2013م.

283- بلاغ عبد الرحمان: "**الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط**"، مجلة الناصرية، مج4،ع1،مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر،(الجزائر)، جوان 2013م.

284- بمبا آدم: " **المرأة في إفريقيا قراءة في العادات**"، مجلة قراءات، ع 23، يصدرها المنتدى الإسلامي ، الرياض، السعودية، يناير. مارس 2015م.

285- (ـــــــــــــــ): " **عيد الأضحى في المجتمع الإفريقي رصد لبعض مضامينه الحضارية**" مجلة قراءات إفريقية، ع26، يصدرها المنتدى الإسلامي، (الرياض)، السعودية، (أكتوبر، ديسمبر)، 2015م.

286- بوباية عبد القادر: «**الحركة العلميَّة في منطقة الزَّاب على عهد بني مزني**»، المجلَّة الخلدونيَّة، ع.9، تصدر عن الجمعيَّة الخلدونيَّة للأبحاث والدِّراسات التَّاريخيَّة، بسكرة – الجزائر، 2011م.

287- بوراس يحيى بن عيسى: «**الحياة الثَّقافيَّة في منطقة مِزاب خلال العصرين الوسيط والحديث**»، مجلَّة الواحات للبحوث والدِّراسات، ع.17، تصدر عن جامعة غرداية – الجزائر، 2012م.

288- بورويبة رشيد : "**الفنّ الرُّستمي بتاهرت و سدراته**"، مجلة الأصالة، مج16، ع41، وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م.

289- بوزياني الدَّراجي: «**بنو هلال وأحلافهم المنشأ والهجرة والاستقرار**»، المجلة الخلدونيَّة، ع.9، عدد خاص تصدر عن الجمعيَّة الخلدونيَّة للأبحاث والدِّراسات التَّاريخيَّة، بسكرة – الجزائر، جانفي/2011م.

290- بوطارن مبارك وخلف محمد نجيب: **الدور التجاري لمدينة ورقلة في العصر الوسيط**، حوليات التاريخ والجغرافيا،مج1،ع2،المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر،جوان2008م.

291- بوعافية عبد الرزاق، علقمة جمال : «**عناصر وأبعاد الاستدامة في تخطيط البيئة المحلِّيَّة للتجمعات العمرانيَّة العتيقة (القصور) بالأقاليم الصَّحراويَّة**»، مجلَّة البحوث العلميَّة في التَّشريعات البيئيَّة، مج.7، ع.2، جامعة ابن خلدون، تيارت – الجزائر، جوان/2017م.

292- البوعبدلي المهدي : «**أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط و دور الإمام المغيلي بها في قضية اليهود**»، مجلَّة الثَّقافة، ع.94، تُصدرها وزارة الثَّقافة والسِّياحة، الجزائر، جويلية، أوت/1986م .

293- بوقزولة عبد المالك: «**دراسة أثرية واجتماعيَّة تحليليَّة للمجتمع الصَّحراوي من خلال القصور الصَّحراويَّة – تقرت نموذجاً –**»، مجلَّة منبر التُّراث الأثري، مج.3، ع.4، يصدرها مخبر التُّراث الأثري وتثمينه بجامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، ديسمبر/2015م.

294- بوكرابيلة الزَّهراء : «**إقليم توات بين التَّعريف والتَّأليف**»، **مجلة القرطاس**، ع.3، تصدر عن مخبر الدِّراسات الحضاريَّة والفكريَّة، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، جانفي/2017م.

295- ثياقة الصِّديق و فاتحي عبد النَّبي: «**النَّمط المعماري للمدينة الصَّحراويَّة ووظائفها الاجتماعيَّة قراءة أنثربو مجاليَّة لقصور توات قصر تمنطيط أنموذجا**»، مجلَّة الباحث

العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، **(ع.خ)** بالملتقى الدولي حول: تحولات المدينة الصَّحراويَّة تقاطع مقاربات حول التَّحول الاجتماعي والممارسات الحضريَّة، مج.7، ع.22، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، مارس/2015م.

296- جعفري مبارك : «**الدَّور التَّعليمي للزوايا والطُّرق الصُّوفيَّة في إقليم توات بالجنوب الغربي الجزائري خلال القرن 12هـ/18م**»، مجلَّة الواحات للبحوث والدِّراسات، ع.15، تصدر عن جامعة غرداية – الجزائر، 2011م.

297- (ـــــــــــــــــ): «**جوانب من الحياة الاجتماعيَّة في منطقة توات من خلال المصادر المحليَّة**»، أعمال الملتقى الوطني حول: الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في الجنوب الجزائري خلال القرنين(13/12هـ - 19/18م) من خلال المصادر المحليَّة، كلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، المركز الجامعي بالوادي، مطبعة منصور، 2012م.

298- الجعيبري فرحات «**حقيقة نظام العزابة**»، **مجلَّة التَّواصل**، مجلَّة فكريَّة ثقافية دوريَّة جامعة ع.4، جانفي/2016م)

299- الجيلالي عبد الرَّحمان: «**أبو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابه الدليل والبرهان**»، مجلَّة الأصالة، **ع.41**، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة والأوقاف، الجزائر، 2011م.

300- حاج عيسى إلياس : "**مصادر المياه و النشاط الفلاحي في واحات المغرب الأوسط وارجلان أنموذجا**"، المجلة الخلدونية، مج9، ع2، جامعة ابن خلدون، تيارت.

301- حسن سيد عبد الله مراد: "**الصلات بين بلاد المغرب و السودان الغربي (خلال ق 2-6هـ/8-12م)**، أعمال المؤتمر الدولي و الإسلام في افريقيا26-27 نوفمبر 2006م.

302- الحسيني عبده . توفيق : " **الطّعام، الثّقافة، السُّكان، دراسة في أنثروبولوجيا الطّعام**"، مجلة الدّراسات الإفريقية، ع16، معهد البحوث والدّراسات الإفريقيّة، القاهرة، 1994م.

303- الحمدي أحمد : «**تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصنف مجلوب السَّودان لأحمد بابا التُّنبكتي**»، مجلة_الحضارة الإسلاميَّة، مج.15، ع.22، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والعلوم الإسلاميَّة، جامعة أحمد بن بلة، وهران – الجزائر، ماي/2014م.

304- حملاوي علي: «**وضعية الآثار بمنطقة وادي ريغ الجنوب الشَّرقي الجزائري**»، مجلة آثار، ع.5، (ع.خ)، جامعة الجزائر، 1999م.

305- أبو حميدة مُحمَّد : «**الجانب التَّاريخي للأسوار**»، مداخلة ضمن النَّدوة الوطنيَّة حول أسوار المُدن العتيقة، مُديريَّة التُّراث الثَّقافي، المملكة المغربيَّة، (د س ن).

306- حناي محمد: «**من أعلام البناء الثَّقافي والتَّعليمي بوادي ريغ العلامة الشَّيخ التِّجاني نصيري**»، مجلَّة الذَّاكرة، ع.8، تصدر عن مخبر التُّراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشَّرقي الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، جانفي/2017م.

307- خالدي مسعود : "**أثر الجاليات العربية و البربرية على الحياة الاجتماعية في السودان الأوسط و الغربي بين القرنين الخامس و العاشر الهجريين/ الحادي عشر و السادس عشر الميلاديين**"، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، مج11، ع1، تصدرها كلية الآداب و الحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، جوان 2018م.

308- خليفة عبد القادر: «**من القصر الصَّحراوي إلى المدينة الحديثة**»، مجلَّة الباحث العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مج.1، ع.1، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، ديسمبر/2010م.

309- ابن خويا إدريس وبرماتي فاطمة: «**خزانة الشَّيخ سيدي سليمان بن على بأدرار و دورها في الحفاظ على المخطوطات**»، مجلَّة الذَّاكرة، مج.2، ع.2، تصدر عن مخبر التُّراث اللغوي والأدبي في الجنوب الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، ديسمبر/2014م.

310- دراجي عبد القادر: "**المظاهر الفنية في المغرب منذ 13000 سنة الزخرفة و النحت على قشور بيض النعام**"، مجلة الدراسات الأثرية، مج1، ع2، صادرة في جامعة الجزائر2، (الجزائر).

311- دعاشي سميرة: "**رحلة بونمان فرانسوا لويس من تقرت إلى غدامس ودورها في الكشف التجاري للصحراء**"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع11، جامعة حمة لخضر، الوادي، (الجزائر).

312- دغيم محمد فرج: "**التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الافريقية**"، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الافريقية على جانبي الصحراء،أيام 14.12 ماي 1998م، تنظيم كلية الأداب، تطوان (المغرب)، وكلية الدعوة الإسلامية، طرابلس(ليبيا)،مرا: عبد الله الهرّامة، ط1، 1999م.

313- ذكار أحمد (ـــــــــــــــ): «**مدينة ورقلة التَّسمية والتَّأسيس(دراسة تاريخية)**»، مجلَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، ع.17، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر، ديسمبر/2014م.

314- ذكار أحمد : "**مدينة ورقلة التسمية و التأسيس دراسة تاريخية**"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج6، ع17، صادرة عن جامعة قاصدي مرباح (ورقلة)، الجزائر، ديسمبر 2014م.

315- رموم محفوظ: «**توات الجغرافيا والمصطلح من خلال المونوغرافيا المحليَّة والأجنبيَّة**»، مجلة الحوار الفكري، مج.11، ع.12، تصدر عن مخبر الدِّراسات الإفريقيَّة للعلوم الانسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة أحمد دراية، أدرار – الجزائر.

316- الروماني بن محمد زيد: «**التُّجار الدُّعاة**»، **شبكة الألوكة**، ينظر الموقع الإلكتروني: http://cp.alukah.net/sharia/0/24062/. تاريخ الاطلاع: يوم 2020/9/20م، على الساعة: 10:06.

317- زقاوي مُحمَّد وبلبشير عمر : «**الحركة العلميَّة بورجلان من خلال نظام حلقة العزَّابة ما بين القرن (4-6هـ) علم الكلام نموذجا**»، مَجلَّة النَّاصريَّة للدراسات الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، مج.8، ع.1، جامعة معسكر، جوان/2017م.

318- زقور أحسن : «**نظام الأسرة في منطقة توات من خلال غنية المقتصد السائل في ماوقع في توات من القضايا والمسائل**»، المجلَّة الجزائريَّة للمخطوطات، ع.15، جامعة وهران(1) أحمد بله، الجزائر، ديسمبر/2016م.

319- زياني الصَّادق: «**جغرافيَّة العمران ببلاد الزَّاب من خلال رحلة فيض العباب للنميري قصر عثمان الرِّياحي أنموذجاً**»، مجلَّة ميلاف للبحوث والدِّراسات، مج.4، ع.1، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصُّوف، ميلة – الجزائر، جوان/2018م.

320- شتره خير الدِّين: «**القيم الاجتماعية بإقليم توات من خلال أدب النَّوازل نوازل عبد الرَّحمان الجنتوري أنموذجا**»، مجلة التراث، ع.17، جامعة زيان عاشور، الجلفة – الجزائر، مارس/2015م.

321- شقرون ابن محمد: "**دور التُجار المسلمين في نشر الإسلام بغرب افريقيا في العصر الوسيط**"، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الافريقية على جانبي الصحراء.

322- الشكري أحمد: " مقاربات تقييمية لدور الصحراء في علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان خلال العصر الوسيط"، مجلة المناهل، ع58، 1998م.

323- شنيتي محمد البشير: "**التوسع الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة**"، مجلة الدراسات التاريخية ، ع2، معهد التاريخ جامعة الجزائر، (الجزائر)، 1986م.

324- (ـــــــــــــــــــــ): «**التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية**»، مجلة_الأصالة، مج.16، ع.41، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة والأوقاف، الجزائر، 2011م.

325- الصادقي حسن : "**جوانب من التواصل الثقافي شمال- جنوب**"، أعمال الندوة التواصل الاجتماعي و الثقافي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء

326- ابن صغير حضري يمينة: «**العوامل المؤثرة في تشكيل مرفولوجيَّة القصور - قصور منطقة وادي ريغ نموذجاً**»، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج.8، ع.2، معهد العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة غرداية، الجزائر، 2015م.

327- طرطاق الوردي: "**أنظمة الريَ التقليدية في الزراعة الصحراوية إقليم وادي ريغ أنموذجا**"، مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية، ع12، جامعة باتنة، جوان2015م.

328- عادل إبراهيم ابتهال ،سوادي هاشم هشام : "**من صور التواصل الاقتصادي لطرق الحج بين العرب المسلمين و سكان افريقيا "تجارة الملح أنموذجا**

329- عباس عبد الله: "**التأثيرات الحضارية لإقليم توات في بلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط**"، **مجلة** الحقيقة، ع34، قسم العلوم الإنسانية، جامعة أحمد دراية، (أدرار).

330- عبد الله عيسى: "**مكانة الإسلام في مملكة سنغاي خلال القرن 16م**"، مجلة قراءات افريقية، ع23، يصدرها المنتدى الإسلامي، الرياض، (يناير- مارس)2015م.

331- ابن عربة مُحمَّد، بوسالم وأحلام (ـــــــــــــــــــــــــــــــ): "**ثروات المغرب الأوسط النباتية و الحيوانية خلال العصر الوسيط من خلال مصنفات الرحلة و الجغرافيا**"، مجلة مدارات تاريخية، مج2 ، ع6، جوان 2020م.

332- ابن عربة مُحمَّد، بوسالم وأحلام: «**دور مدينة وارجلان في تجارة الرَّقيق ببلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**»، مجلَّة العبر للدِّراسات التَّاريخيَّة والأثريَّة في شمال إفريقيا، مج.4، ع.1، جامعة عبد الرَّحمان بن خلدون، تيارت - الجزائر، جانفي/2021م.

333- العسري عبد الواحد : «**أجوبة مغربية على إشكاليات عقدية وردت من بلاد السودان الغربي خلال القرن (6هـ/12م)**»، أعمال ندوة التَّواصل الثَّقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقيَّة على جانبي الصَّحراء،

334- عشي علي: «**أبعاد الحضور المغرب أوسطي في افريقيا جنوب الصحراء الجانب الثقافي (ق5-9م)**»، مجلَّة حروف للدراسات التَّاريخيَّة، ع.1، دوريَّة إلكترونيَّة تصدر عن حروف منثورة للنشر الإلكتروني، الجزائر، أوت/ 2014م.

335- عطية حنان : «**البعد الأمني للعمارة بإقليم توات**»، مجلَّة الدِّراسات التَّاريخيَّة العسكريَّة، ع.1، تصدر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في التَّاريخ العسكري الجزائري، الجزائر، جانفي/2019م.

336- عقيبي عزّ الدين: "**صفحات من صراع الدول بالمغرب الإسلامي من أجل السيطرة على مسالك الاتصالات التجارية الصحراوية**"، مجلة علوم الانسان و المجتمع، ع21، ديسمبر ،2016م.

337- علاوة عمارة : «**التَّحولات المجاليَّة والطُّبونيمية لبلاد الزَّاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثَّامن الهجري الرَّابع عشر الميلادي**»، مجلَّة تراث الزِّيبان، ع.1، جمعية تراث الأجيال، عين النَّاقة، بسكرة - الجزائر، 2016م.

338- عمامرة خولة: «**نسوة المغرب الأوسط الأدوار والوظائف**»، مقال ضمن كتاب جماعي، طبقات مجتمع المغرب الأوسط قراءة في الموروث والذِّهنيات، تن، عبد القادر بوعقادة، النَّشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، ط.1، 2020م.

339- ابن عمر علال : «**حاضرة أسوف وأريغ ومكانتها في الفكر الإباضي من القرن(2هـ-8م/6هـ-12م)**»، مجلَّة_المعارف للبحوث والدِّراسات التَّاريخيَّة، مج.4، ع.3، كلِّيَّة العلوم الإنسانيِّة والاجتماعيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي – الجزائر، جوان/2018م.

340- عمراني معاذ: «**الحضاريَّة في منطقة وادي ريغ فترتي ما قبل التاريخ والعصر القديم**»، **مجلة الباحث في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة**، مج.10، ع.2، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، قسم العلوم الإنسانيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي – الجزائر، 2019م.

341- ابن عميرة محمد: "**معدن ملح أوليل واستغلاله في العصر الوسيط**"، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، ع9، صادرة عن الإتحاد العام للآثاريين العرب، القاهرة، (1429هـ/2008م).

342- غرايسة عمار: «**من الأدوار الحضاريَّة للمدن الصَّحراوية وارجلان أنموذجا**»، مجلَّة الواحات للبحوث والدِّراسات، ع.15، جامعة غرداية – الجزائر، 2011م.

343- غنابزية علي: "**وادي ريغ من خلال كتاب تاريخ محمد العدواني**"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، مج2، ع1، جامعة الوادي، (الجزائر).

344- الفران محمد : "**تأثير اللغة العربية في بعض اللغات الافريقية**"، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الافريقية على جانبي الصحراء.

345- فريدة بنعزوزة: " **قراءة في أبحاث تاديوش لفيتكسي حول فجر العلاقات بين المغرب و بلاد السودان**"، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الافريقية على جانبي الصحراء.

346- قصباوي عبد الخالق: «**المنهج التَّعليمي للمدارس والزَّوايا الدِّينيَّة بحاضرة توات**»، أعمال الملتقى الدُّولي "الوسطيَّة في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوربا"، معهد العلوم الإسلاميَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي – الجزائر، ديسمبر/2017م.

347- قومي محمد : "**دور يهود توات خلال العصر الوسيط**"، مجلة عصور، ع28-29، مخبر تاريخ الجزائر، جامعة أحمد بن بلة (وهران1)، الجزائر، جانفي-جوان 2016م.

348- كركار عبد القادر: «**الرَّوابط الاقتصاديَّة بين ضفتي الصَّحراء الكبرى ودور اليهود في النَّشاط التِّجاري أواخر العصر الوسيط**»، **مجلة الباحث في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مج.6، ع.1**، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، قسم العلوم الإنسانيَّة، جامعة الشَّهيد حمَّه لخضر، الوادي – الجزائر، جوان/2016م.

349- لقبال موسى: «**من قضايا التَّاريخ الرُّستمي مكتبة المعصومة بتاهرت هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراته**»، مجلة الأصالة، ع.41، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينية والأوقاف، الجزائر،طبعة خاصة، 2011م.

350- محمد الأمين عطلي: "**الدور الحضاري للطرق التجارية بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي**" مجلّة العلوم الإسلاميّة والحضارة، ع6، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، أكتوبر 2017م.

351- محمد الصافي : "**اسهامات علماء المغرب في التواصل الفكري و الثقافي مع بلدان افريقيا جنوب الصحراء**"، مجلة الدراسات التاريخية و الاجتماعية، ع36، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة نواكشط، 2019م.

352- مُحمَّد حمد كنان ميغا: «**مظاهر الثَّقافة الإسلاميَّة العربيَّة في تنبكتو وغاو وجنّي في عهد الأساكي**»، مجلَّة_قراءات إفريقيَّة، ع.3، مجلَّة ثقافيَّة فصليَّة مُتخصِّصة في شؤون القارة الإفريقيَّة تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن، ديسمبر/2008م.

353- موسى عزّ الدين عمر: "**محاولة لإعادة تقييم دور المرابطين في نشر الإسلام في البلاد السودانية**"، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الافريقية على جانبي الصحراء.

354- مولاي مُحمَّد و الحمدي أحمد: «**الحواضر العلميَّة بتوات خلال القرنين(11 - 12هـ/17 - 18م)**»، المجلَّة الجزائريَّة للمخطوطات، مج.12، ع.1، جامعة أحمد بن بله، وهران - الجزائر، جانفي/2016م.

355- النامي عمرو خليفة: "**ملامح عن الحركة العلمية بورجلان و نواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري**"، مجلة الأصالة، ع42، وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، الجزائر، 1971م.

356- ابن نعمان إسماعيل : «**نظرة على القصور الصَّحراويَّة من خلال بعض مقالات الدُّكتور علي حملاوي**»، مجلَّة الدِّراسات الأثريَّة، مج.8،ع.1، تصدر عن معهد الآثار، جامعة الجزائر(2)، الجزائر، ديسمبر/2010م.

357- الهطاي علي: «**الجغرافيَّة التَّاريخيَّة لبلاد الزَّاب من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن (5هـ/11م) دراسة في تطور المجال والمواقع**»، مجلَّة المواقف للبحوث والدِّراسات في المجتمع والتَّاريخ، **ع.12**، جامعة مصطفى ستامبولي، معسكر - الجزائر، ديسمبر/2017م.

- **الـرسائـــــل الجامعيـــة:**

رسائل الدكتوراه:

358- بوبيدي حسين: **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من ق 5-10هـ/11- 16م دراسة في تفاعل المؤثرات السودانية المغربية**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ، اشراف: إسماعيل سامعي، كلية الآداب و الحضارة الإسلامية قسم التاريخ، جا معة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (قسنطينة)، 2021/2020م.

359- تيته محمد العيد: **العلاقات بين الإقليم الصحراوي للمغرب الأوسط و بلاد السودان خلال الفترة (3هـ-9م/9هـ-15م)**، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الإنسانية –، تخصص تاريخ المغرب الأوسط و حضارته في العصر الوسيط، إشراف: يوسف عابد، كلية الأداب و لحضارة الإسلامية (قسم التاريخ)، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، (1441-1442هـ/2020. 2021م.

360- جعفري عزّ الدين: **أطلس العادات والتقاليد بمنطقة توات**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ،تخصص تاريخ التراث اللامادي بالجزائر، اشراف: شعيب مقنونيف، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، (تلمسان)، 2018/2017م.

361- ابن عبد الله نور الدين: **قصور منطقتي توات الوسطى والقورارة دراسة أثريَّة عمرانيَّة ومعماريَّة أنموذجاً**،رسالة مُقدَّمة لنيل شهادة الدُّكتوراه، تخصص: الآثار الإسلاميَّة، معهد الآثار، جامعة الجزائر (بوزريعة) – الجزائر، 2010م.

362- غرايسة عمار: **التَّحولات الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة في واحات المغرب الأوسط (الزَّاب، أريغ، أسوف، وارجلان) من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثَّامن الهجري الرَّابع عشر الميلادي**، أطروحة مُقدَّمة لنيل درجة الدُّكتوراه، تخصص التَّاريخ الوسيط، قسم

التَّاريخ، كلِّيَّة الآداب والحضارة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة – الجزائر، 2019م.

363- هواري رضوان: **التَّحولات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في السُّودان الغربي من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م**، أطروحة دكتوراه تخصص: تاريخ المغرب الإسلامي، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، قسم التَّاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، 2020م.

رسائل الماجستير:

364- بوسعيد أحمد : **الحياة الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن (12هـ/18م)**، مُذكِّرة مُقدَّمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص: التَّاريخ المغاربي الاجتماعي والثَّقافي، قسم التَّاريخ، كُلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة والعلوم الإسلاميَّة، 2012م.

365- ابن حاج علي حمزة : **التَّراث الثَّقافي لمنطقة تيدكلت. دراسة تاريخيَّة أثريَّة**، مُذكِّرة مُقدَّمه لنيل شهادة الماجستير، تخصص: صيانة وترميم الآثار، قسم الصِّيانة والتَّرميم، معهد الأثار، جامعة الجزائر(2)، الجزائر، 2012م.

366- دواس أحسن : **صورة المجتمع الصَّحراوي الجزائري في القرن التَّاسع عشر من خلال كتابات الرَّحالة الفرنسيين مقاربة سوسيو ثقافية**، مذكَّرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، تخصص الأدب المقارن، قسم اللغة العربيَّة، كلِّيَّة الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة – الجزائر، 2008م.

367- ذكار أحمد : **حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية بالسودان الغربي من (1000هـ - 1591م/ 1301هـ- 1883م)**، مذكرة مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص: التَّاريخ الإفريقي، كلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة والعلوم الإسلاميَّة، جامعة أحمد دراية، أدرار – الجزائر، 2010م.

368- سالمي زينب : **الحياة العلميَّة في إقليم توات خلال القرون(8 - 10هـ)**، مُذكِّرة مُقدَّمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص: تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التَّاريخ وعلم الآثار، كُلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان – الجزائر، 2012م.

369- شعباني صلاح الدِّين: **التَّربية والتَّعليم عند الإباضيَّة بالمغرب الإسلامي بين القرنين الثَّالث والخامس الهجريين (9-11م)**، رسالة مُقدِّمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص: التَّاريخ الإسلامي، قسم العلوم الإنسانيَّة، كُلِّيَّة التَّاريخ، جامعة الجزائر، 2004م.

370- شعباني نور الدين : **علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية بين القرنيين الخامس والتاسع الهجريين**، مذكرة مقدمة للحصول على شهادة الماجستير ، تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2006م.

371- صالح بن عمر أسماوي: **نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة بواد ميزاب**، رسالة مُقدَّمة لنيل دبلوم الدِّراسات المُعمَّقة في التَّاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987م.

372- عبد الله عباس: **الدور الحضاري لإقليم توات وتأثيراته في بلاد السودان الغربي من القرنيين 9و10هـ/ 15.16م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص التاريخ الوسيط ، إشراف : بشار قويدر، كلية العلم الإنسانية ، قسم التاريخ، السنة الجامعية 2001/2000م.

373- ابن عمر حاج عيسى إلياس: **مدينة وارجلان دراسة في النشاط الاقتصادي والحياة الفكرية**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف: عبد

العزيز لعرج، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2009/2008م.

374- غرايسة عمار: **المدينة الدَّولة في المغرب الأوسط وارجلان أنموذجا**، مُذكِّرة مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص: حضارة المغرب الأوسط، قسم التَّاريخ، كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة – الجزائر، 2009م.

375- ابن موسى جميلة : **تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي من القرن الثالث إلى الثامن الهجري، (9م-11م)**، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف إبراهيم فخار، كلية العلوم الإنسانية، قسم تاريخ، جامعة الجزائر، (2001/2000م).

- **القواميس والمعاجم:**

376- الشرباصي أحمد: **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، دار الجيل، (د.م.ط)، (د.ط)، (1401هـ/1981م).

377- الفيروز أبادي مُحمَّد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، ط.1، 1999م.

378- **المعجم الوسيط، الحرف: زاي، مادة:** رَرَّ، مكتبة الشُّروق الدُّولية،القاهرة، ط.4، 2004م.

379- ابن منظور جمال الدِّين: **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط.1، 1979م.

الـــفـــهـارس

فهرس الآيـــــات القرآنيـــــة

الآيــة	رقمها	السورة	الصفحة
﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾	26	الذَّاريات	48
﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾	91	الصَّافات	48
﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾	3	النساء	102
﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾	72	الرَّحمان	121
﴿أولمْ يرَ الذَّينَ كَفَرُوا أنّ السَّماواتِ و الأَرْضَ كَانَتاَ رَتْقًا فَفَتَقْنَا هُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلاَ يُؤمِنُونَ﴾	30	الأنبياء	151
﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾	5 6 7	النحل	273
﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾	12	العلق	315
﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾	61	البقرة	420

فـهرس الأحاديـــث النبويـــــة الشريفـة

طرف الحديث	الصفحة
«ليس المؤمن من يخاف جاره بوائقه...»	111
«إنا معشر النِّساء محصورات مقصورات»	121
«إذا اختلف النَّاس في الطَّريق فَحدُّها سبعة أذرع»	126
«تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ...»	137
«المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»	137
«دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لأَخِيهِ بظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ...»	281

فهرس الأبيـــــــات الشعريـــــة

البيت الشعري	صاحب الشعر	الصفحة
بِاسْمِ الإِلَهِ الَّذِي أَمْضَى عَلَى الْبَشَرْ ...	أبو صالح جنون	**345**
خَرَجْنَا نَؤمُ الشَّرْقَ مِنْ حَيِّزِ وَارْجَلاَنَ ...	أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الحجازيَّة	**361**
وَ مَغْرَاوَةَ عَلِيًّا زَنَاتَة كُلَّهَا ...	أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الحجازيَّة	**362**

فهرس الاعـــــــلام

- أ -	
أبو إبراهيم إسماعيل بن ملال: 356.	أبو إسحاق الساحلي: 497.
إبراهيم أعزام: 32، 33.	أسكيا داود: 478، 492.
إبراهيم العوامر: 52.	أسكيا محمد بان: 478.
إبراهيم بن الأغلب: 44.	أسماء بنت يزيد الأنصارية: 121.
إبراهيم بن محمد الواغلاني: 356.	أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل: 113.
إبراهيم بن مصكوداسن: 357.	الأغواطي: 80.
إبراهيم بن معاذ: 356.	أفلح بن عبد الوهاب: 88، 108، 193، 260، 341، 398، 412، 442، 445.
إبراهيم بن يحي بن أبي بكر: 103.	أندري روجي فوزان: 53.
إبراهيم مياسي: 53.	أندغ محمد: 469.
أحمد القاضي التنبكتاوي: 481.	
أحمد بابا التنبكتي: 481، 482، 483، 484.	
أحمد بن أندغ: 482.	
أحمد بن مكي البسكري: 364.	
أحمد بن يوسف بن مزني: 291.	
الإدريسي: 25، 61، 98، 165، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 201، 205، 212، 215، 217، 226،230، 235، 240، 247، 250، 261، 264، 269، 289، 399، 400، 404، 485.	
أروى بنت عبد الرحمان بن رستم:219.	
أبو إسحاق إبراهيم الواغلاني:381.	
إسحاق التّسولي: 143.	

- ب -	
الباروني: 98. **إبن البركات:** 79. **إبن بطوطة:** 55، 83، 166، 231، 232، 236، 239، 249، 264، 265، 266، 268، 269، 270، 271، 277، 279، 398، 399، 401، 403، 404، 411، 416، 417، 422، 427، 428، 430، 432، 437، 463، 467،497،479،478. **بكار بن حيد:** 462. **أبي بكر محمد بن اللبادّ:** 307. **البكري:** 25، 162، 164، 173، 174، 197، 205، 213، 214، 215، 224، 227، 228، 230، 235، 238، 240، 241، 243، 245، 246، 248، 249، 254، 255، 256، 258، 261، 264، 266، 280، 299، 363، 397، 398، 399، 400، 413، 418، 434، 436، 471.	**بلال مرداس:** 37. **بلكين بن زيري الصنهاجي:** 68، 173. **بوعصبانة:** 30، 31.

- ت -	
التجاني نصيري: 49. **توفيق المدني:** 28.	**تيغورين بن عيسى الملشوطي:** 107.

- ج -	
جابر بن أبي زيد: 91.	**جنون بن علي:** 103.
جابر بن زيد الأزدي: 338.	**جورج غير ستر:** 29.
جالوت بن ضريس: 61.	**إبن الجوزي:** 338.
إبن الجزولي: 401 .	**جون ليثيو:** 29.
جعفر الوسلاتي المزاتي: 304.	
أبو جعفر مسعود الزناتي: 367.	
إبن الجمع: 211.	
- ح -	
الحاج أحمد بن الأمين: 394.	**أبو حمو الزياني:** 87.
إبن الحاج النميري: 73 ، 74، 139، 140، 141.	**حمو بن للؤلؤ:** 102
حبيب بن أبي عبيدة: 252.	**إبن حوقل:** 26، 44، 194، 239، 245، 254، 258، 267، 269.
حسان بن التعمان: 104.	
الحسن الوزّان: 26، 30، 44، 47، 124، 149، 150، 196، 205، 212، 213، 234، 235، 236، 242، 263، 272، 274، 280، 289، 405، 464، 467.	

– د –	
إبن خردذابة: 43. **أبو خزر يغلى بن زلتاف:** 285. **أبو الخطاب عبد السلام المنصور:** 376، 386. **إبن الخطيب:** 232. **إبن خلدون:** 27، 31، 36، 37، 43، 46، 47، 62، 68، 72، 99، 123، 135، 145، 146، 151،166 ،	168، 177، 178، 180، 229، 233، 272، 290، 291، 335، 382، 424. **إبن خلكان:** 41.
– د –	
الدرجيني: 27، 91، 100، 117، 167، 206، 209، 225، 248، 250، 275، 286، 293، 294، 297، 304، 305، 306، 314، 325، 327، 329، 336، 340، 341، 343، 348، 350، 351، 352، 353، 354، 356، 359، 360، 362، 368، 374، 380، 445، 446.	**دوفيري:** 31. **أبو دوناس:** 315.

- ر -	
أبو الربيع سليمان إبن زرقون: 211. **أبو الربيع سليمان المزاتي:** 305، 350.	**أبو الربيع سليمان بن موسى:** 154.

- ز -	
أبو زكرياء الحفصي: 177 . **أبو زكرياء:** 27، 37، 52، 54، 118، 139، 215، 242، 341، 347، 357، 359. **الزهري:** 26، 226، 227. **إبن الزيات:** 281.	**أبي زيد القيرواني:** 340، 467. **أبي زيد بن الوقاد التلمساني:** 483. **إبن زيري:** 277.
- س -	
سارة اللواتية: 362. **سعيد بن علي الجزولي:** 401، 469. **سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي:** 139. **أبو سعيد يخلف المزاتي:** 327. **إبن سعيد:** 25، 34، 46، 81، 149، 164، 168، 180، 204، 225، 260، 277. **سلمة بن سعد:** 218. **أبو سليمان أيوب بن إسماعيل:** 348.	**أبي سليمان أيوب بن إسماعيل:** 306، 350. **سليمان بن إبراهيم السدراتي:** 340. **سليمان بن علي:** 301. **سليمان بن موسى الياجراني:** 65. **سليمان بن يعقوب بن أفلح:** 340، 344، 345. **أبو سليمان داود:** 65. **سيدي مولاي الزّيداني:** 394.

- ش -	
الشاطبي: 338.	**الشيخ سال:** 355، 377.
الشماخي: 27، 51، 108، 114، 228، 258، 285، 290، 293، 303، 336، 341، 344، 351.	**الشيخ سعادة:** 143.

- ص -	
أبو صالح بن يحي اليراسني: 218.	240، 284، 285، 286، 289، 290، 292، 293، 297، 298، 305، 343، 345، 346، 351،387.
أبو صالح تبركت الياجراني: 65، 153، 225، 398، 442، 446.	**إبن الصغير المالكي:** 199، 204.
أبو صالح جنون بن يمريان: 89، 97، 104، 112، 115، 116، 164، 165، 167، 172، 209،	
- ط -	
طاهر المزوغي: 142.	
- ع -	
إبن عاشر: 309، 340.	**عبد الرحمان التلمساني:** 482.
عائشة إبنة معاذ: 107، 356.	**عبد الرحمان الثعالبي:** 366، 373.
أبي العباس أحمد العزفي: 433.	**عبد الرحمان السعدي:** 57،233، 235، 263، 400، 473، 476، 477، 480.
أبو العباس أحمد الفرسطائي: 290، 351.	**عبد الرحمان الكرتي المصعبي:** 368.
أبو العباس أحمد بن علي: 105.	**عبد الرحمان الناصر:** 66.
أبي العباس السوداني: 482.	**عبد الرحمان بن الفقيه:** 470.
أبي العباس الوليلي: 299.	**عبد الرحمان بن حبيب:** 221، 280.
إبن عبد البرّ: 338.	**عبد الرحمان بن رستم:** 82، 204.

عبد الحميد الفزاني: 250.
عبد السلام بن أبي سلام: 357.
عبد الكريم المغيلي: 79، 285، 287، 302، 338، 343، 372، 373، 383، 394.
أبو عبد الله العصنوني: 78، 383.
عبد الله الكومي: 497.
أبو عبد الله المسوفي: 360، 362.
عبد الله بن إبراهيم البسكري المالكي: 365، 391.
عبد الله بن النجار: 200.
عبد الله بن توتيست: 167.
عبد الله بن يحي: 167.
أبي عبد الله محمد الكناني: 219.
عبد الله محمد المطري: 365، 391.
أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطائي: 92، 95، 107، 117، 172، 176، 286، 294، 299، 302، 303، 304، 305، 315، 334، 336، 349، 350، 351، 355، 357، 358، 359، 366، 367، 380، 385، 386، 387.
عبد المؤمن بن علي: 44.
عبد الرحمان سقن: 482.
عبد الوهاب بن محمد الانصاري: 393.
عبيد الله الحبحاب: 221.
عبيد الله الشيعي: 77، 86، 166، 375.
عبيد الله المهدي: 89، 97، 210، 218.
أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة: 91، 304.
عثمان بن أحمد: 139، 140.
عثمان بن علي الرياحي: 74.
العدواني: 48.
العزّ بت تاغيارت: 347.
إبن عطية: 338 .
عقبة بن نافع: 42، 53، 56، 220.
عكرمة مولى إبن العباس: 219.
علاوة عمارة: 354.
علي يحي معمر: 54، 88، 378.
أبو عمار عبد الكافي التنتاوي: 64، 91، 340، 343، 351، 352، 353، 388، 391، 393، 394
عمر بن الخطاب: 63.
عمران بن زيري: 119.
أبو عمران موسى المزاتي: 356.
أبو عمران موسى المزاتي: 379.
عمرو خليفة النامي: 91.
أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي:

عبد الواحد المراكشي: 44. **عبد الوهاب بن رستم:** 114، 384، 441، 445. **عمروس بن فتح النفوسي:** 108، 338. **العياشي:** 26، 55، 133، 165. 175، 199، 277، 288، 292، 298. **عيسى بن أبي الحجاج:** 90، 97.	341، 351، 359، 362، 389. **عيسى بن زاروا النفوسي:** 118. **عيسى بن سلامة:** 365. **عيسى بن محمد البطوي:** 371.
- غ -	
• **أبي غانم الخراساني:** 108، 338. • **الغبريني:** 201.	

- ف -	
فاضل بن ميمون: 142. **إبن فاطمة:** 120. **إبن فرحون المالكي:** 482. **الفشتالي:** 58.	**أبو الفضل النحوي التوزري:** 364، 389. **أبو الفضل البسكري:** 364، 389.
- ق -	
قاسا: 406، 497. **أبو القاسم التواتي:** 395 ، 436،	463، 467، 468، 469، 475، 481.

أبو القاسم بن أبي الفضل: 281.	
- ل -	
• **لارجو:** 30. • **ليفتسكي:** 194، 215، 224، 226، 349، 352، 374 .	
- م -	
مارمول كربخال: 45. **مارن:** 108. **ماكسن بن الخير:** 89، 97، 248، 357، 377، 388. **إبن مالك:** 309، 313، 343. **مبارك الميلي:** 71. **محمد الفيلالي:** 236، 479. **أبي محمد المنياري:** 302. **محمد الموهوب:** 281. **محمد بن أحمد التازختي:** 480. **محمد بن عبّ:** 462. **محمد بن عبد الجبار الفجيجي:** 373. **محمد بن عرفة:** 193، 260. **محمد بن علي التواتي:** 475.	**محمد بن عمر:** 236. **محمد بن مانوج:** 76. **محمد بن يوسف السنوسي:** 79. **أبو محمد بند كان المسّوفي:** 270. **محمد ساقوا الونكري:** 416. **أبو محمد عبد الله البسكري:** 364، 391. **أبو محمد عبد الله السدراتي:** 248. **أبو محمد عبد الله اللواتي:** 206. **محمود بغيغ:** 243. **مخلد بن كيداد:** 51، 86. **مدرار بن اليسع:** 219.

إبن مرزوق الحفيد: 366.

إبن مرزوق: .300

المستنصر بالله: 70.

مسعود المغراوي: 68.

مسعود مزهودي: 194.

المعزّ بن باديس الزيري: 68، 69، 70.

المعزّ لدين الله الفاطمي: 66، 173.

إبن مغطير الجناوني: 385.

المغير بن فضالة المراغني: 51.

المقديسي: 43.

منسى سليمان: 403، 406، 422، 428، 451، 497، 498.

منسى موسى: 57، 245، 246، 272، 409، 451، 468، 473، 475، 481، 497.

المنصور الحمادي: 177.

منصور الفزاني: 469.

المنصور المزني: 177، 178.

أبا موسى هارون بن أبي عمران: 228، 230، 398، 471.

أبو موسى هارون بن عامر: 392.

أبو موسى هارون بن موسى: 346.

مولاي سليمان الإدريسي: 370، 371.

ميمون بن عفيف: 142.

ميمون بن عمرو الباز: 383.

إبن منظور: 41.

المهدي بن تومرت: 201.

أبو مهدي عيسى الماواسي: 79.

مورمغ كنكى: 477.

- ن -	
نزوراس بن يوسف: 299، 376 **أبو نوح سعيد بن زنغيل:** 76، 85، 112، 116، 167، 209، 285، 286، 289، 290، 292، 293، 344، 357، 358، 387، 388، 472.	**أبو نوح سعيد بن يخلف المدوني:** 112، 275.
- هـ -	
هارون الرشيد: 44. **هشام بن عبد الملك:** 221.	
- و -	
ورتنجيل: 107. **الوسياني:** 27، 47، 89، 117، 120، 150، 168، 182، 225، 248، 299، 303، 347.	

- ي -

ياقوت الحموي: 26، 34، 44، 46، 216، 222، 229، 253، 258، 276.

يحي بن أبي بكر اليهراسني: 347.

يحي بن زكرياء الزواغي: 328.

يحي بن يدير التدّلسي: 383.

أبو يحي محمد المنياري: 372، 383.

يحي إبن غانية: 177، 178.

يجمن الهواري: 346.

يخلف بن يخلف: 360.

يزمر المصعبي: 315.

أبو يعقوب الوارجلاني: 26، 239، 247، 337، 338، 341، 342، 347، 360، 387، 391، 393.

يعقوب بن أفلح: 89، 95، 97، 102، 111، 171، 284، 286، 292، 293، 306، 337، 344.

يعقوب بن سهلون: 100، 380.

يعقوب بن علي: 141.

يعقوب بن علي: 291.

أبو يعقوب بن منيب: 193.

أبو يعقوب محمد: 315.

أبو يعقوب يوسف بن خلفون: 339، 340.

أبو يعقوب يوسف بن نفاث: 357.

اليعقوبي: 43، 226، 254.

أبا اليقظان: 114.

أبو يوسف بعقوب: 104.

يوسف بن عمران المزاتي: 357.

أبو يوسف بن منيب: 193.

يونس بن الشيخ المعز الهواري: 77.

فهرس القبـــــائـــــل

- أ -	
• الاثيج 95.	• اولاد عبد الجليل 155.
• آجر 470.	• اولاد علاهم 77.
• الارغوانيون 206.	• اولاد عمر 73.
• أرور 261 .	• اولاد عيسى 371.
• اميمة 229.	• اولاد عيش 73.
• اولاد امحمد 371 .	• اولاد غانم 73.
• اولاد اوشن 301-302.	• اولاد محمد 73-125-141.
• اولاد رون 373.	• اولاد موسى 373.
• اولاد زنان 73.	• اولاد ميمون 297.
• اولاد سباع بن يحي 73.	• اولاد نابت 73.
• اولاد سعيد 373.	اولاد يعقوب 123.
• اولاد طلحة 73.	

- ب -	
• الباغان 409.	• 74-104-156-171-191-
• البال 494.	194-214-216-227-233-
• البتر 61-63.	234-235-236-242-262-
• البرامكة 155.	308-336-392.
• البرانس 61-415.	• برقجانة 228-256-397-489.
• البربر 29-31-36-37-38-52-	• بنو توجين 36-66.

-69-68-67-66-64-63-62-61

بنو زردال 36-66.

• بنو زلغين 65.

• بنو زنداك 65.

•بنو عبد الواد 36-66- 197.

• بنو مزني 74 -95-291.

• بنو مصاب 36-66.

• بنو هلال 36-70-71-73-139-141-176-177-192-195-211.

• بنو ورماز 65.

• بنو يفرن 65-68-177.

• بني اجاج 303.

• بني امية 221.

• بني تانماك 225-256.

• بني تكسنيت 65.

• بني حماد 95-195-337.

بني رستم 28-32-82-87-88-89-

• 193-194-199-200-213-219-222-223-260-284-295-306-341-374.

• بني رمان 95.

• بني رياح 73-74-139-143.

-114-108-107-91	

- ت -	
• **تناوت** 63- 352.	
- ج -	
• **جراوة** 104. • **جزولة** 280.	
- ح -	
• **الحراطين** 84.	
- خ -	
• **الخنافسة** 73.	
- د -	
• **درجين** 50- 361-376. • **الدمدم** 438. • **دمر** 66. • **دنجين** 62.	
- ذ -	
• **ذوي حسان** 72. • **ذوي عبيد الله** 72. • **الذُواودة** 71.	• **ذوي منصور** 72-73. • **ذو منيع** 119.

- ر -	
• الرواغة 66. • الرومان 31 -37-41-62-63-75. • الربايع 84.	
- ز -	
• زافون 438. • زغاوة 67- 404 -439. • زناتة 27-028-036-37-39-48-54-58-59-62-63-64-66-67-68-69-71-72-86-95-139-156-173-176-194-228-256-257-397-441.	• زنزفة 336. • الزنوج 29.
- س -	
• سدراتة 171-177. • سعيد 71. • سليم 70-71. • سنجاس 66.	

- ش -	
• الشعانبة 84.	

- ص -	
• صدينة 62.	• الصوصو 258-398-412.
• الصقالبة 246.	• الصونكي 83.
• صنهاجة 59-62-66-67-225-247-254-264-272-456-470-473.	
- ع -	
• العرب 42-62-69-74-81-95-105-140-141-142-174-220-415-492.	
• العمور 71.	
- غ -	
• الغنانمة 119.	

- ف -	
• فزاوة 71.	
- ك -	
• كتامة 62.	
• كذالة 67.	
• كرفة 71.	
- ل -	
• لماية 336.	• لملم 248-421.

• لمتة 280. لمتونة 67-123. • لمطة 67.	• لواتة 62-256-397.
- م -	
• الماندنجو 258. • الماندينغ 427-461. • المحارزة 73. • مداسو 421. • مردنة 261. • مزاتة 68-171-336.	• مسلم 71-143. • مسوفة 67-271-280. • مصمودة 62. • مغيلة 62-372. • مكناسة 236. • المهابة 71.
- ن -	
• نفزاوة 228-256-397-489. • نفزة 62-315. • نفوسة 114-193-211-213-214-256-333-337-350-384-385-386-387-397.	• نقاروت 261.
- هـ -	
• هوارة 62. • الهوسا 409-455.	

- و -	
• **واركلان** 62-64.	
• **وتريكة** 67.	
• **ولاتة** 407-416.	
• **الولوف** 427-454.	
- ي -	
• **يزدران** 62.	
اليهود 74-75-76-77-78-79-	
-80-81-150-155-156-180-	
188-189-217-285-287-383.	

فهرس الأمـــــاكــن

– أ –	
آجلو: 47، 350، 355، 356، 375، 376، 377، 385.	**الاندلس**: 44، 66.
أدرج: 172.	**أوجله**: 259.
أرض الشبكة: 36، 40.	**أودغشت**: 173، 199، 205، 222، 228، 229، 238، 241، 242، 244، 245، 248، 252، 253، 255، 267، 280، 397، 398، 399، 408، 421، 480، 489، 490، 492، 498.
أريغ: **37**، 47، 50، 52، 65، 66، 83، 90، 94، 95، 107، 109، 113، 115، 138، 147، 159، 167، 168، 184، 239، 286، 294، 299، 305، 306، 311، 333، 337، 347، 350، 355، 356، 357، 367، 369، 380، 381، 385، 388، 390، 442.	**أوليل**: 238.
أسوف: 25، 49، 50، 53، 81، 83، 84، 94، 138، 165، 215، 216، 293، 333، 351، 356، 357، 358، 359، 360، 380، 385، 495.	**إيفران**: 350.
أشير: 43.	**إيولاتن**: 233، 239، 408، 422، 479، 480.
إفريقية: 34، 41، 61، 69، 104، 149، 204، 215، 221، 228، 259، 263، 279، 387، 390.	
أندرار: 172.	

- ب -	
بادس: 43، 45، 46، 73.	346، 363، 392، 393، 398،
بادية بني مصعب: 36.	399، 402، 411، 414،415،
باغايه: 43، 91، 357.	430، 433، 442، 461، 463،
بجاية: 44، 196، 201، 203، 205،	464، 473، 480، 484، 493.
206.	**بلزمة:** 43.
البرج: 44.	**بني مصعب:** 37، 38، 54، 172،
برنو: 260.	366.
بريان: 40.	**بني يزقن(بني يسجن):** 39، 40.
بسكرة: 28، 43، 44، 45، 46، 47،	**بودة:** 28.
51، 73، 80، 164، 168، 195،	**بونور(آيت بونورة):** 39.
291، 299، 363، 364، 365.	
البصرة: 91، 304.	
بلاد الجريد: 34، 44، 45، 49، 50،	
52، 53، 54، 213، 240، 287،	
358، 359.	
بلاد السودان: 67، 98، 149، 199،	
202، 206، 220، 240، 241،	
242، 243، 244، 246، 248،	
249، 252، 254، 262، 267،	
268، 270، 273، 276، 277،	

- ت -	
تاجنينت: 39، 366، 367، 369.	234، 272، 278، 285، 316،
تادمكة: 213، 224، 225، 227،	366، 372، 413.
240، 241، 242، 243، 256، 257،	**تماواط:** 172، 299.
266، 275، 392، 405، 407، 408،	**تمبكتو:** 233، 234، 236، 242،
414، 418، 421، 442، 443، 444،	260، 262، 263، 274، 409،
446، 456، 457، 458، 480، 492.	416، 429، 430، 433، 436،
تافيلالت: 39.	466، 468، 469، 470، 473،
تاكدة:231، 249، 266، 401، 416.	474، 476، 477، 482، 486،
تبسة: 45.	490، 491، 496.
تجديت: 47، 355، 357، 378،	**تمنطيط:** 28، 69، 72، 78، 80،
379، 380.	123، 188، 189، 228،**233، 290،**
تسابيت: 55، 72، 124.	**296، 297، 317، 382، 383، 384.**
تغازة: 228، 233، 235، 238.	**تهودا:** 43، 164، 299، 363.
تكرت: 44، 80، 83، 113، 180،	**توات:** 25، 28، 54، 55، 56، 57،
270، 290.	58، 59، 66، 67، 69، 72، 73،
التكرور: 247، 415، 419، 421،	77، 78، 79، 80، 83، 85، 86،
447، 456، 457.	95، 97، 103، 110، 119، 124،
تلا عيسى: 172.	125، 148، 149، 152، 154، 155،
تلمسان: 69، 71، 72، 79، 87،	156، 160، 161، 163، 165، 166،
123، 175، 197، 198، 200،	168، 174، 180، 184، 188، 189،
201، 202، 204، 232، 233،	200، 202، 218، 231، 232، 233،
	235، 236، 249،260، 263، 285

،287، 288، 292، 296، 299، 300، 302، 307، 309، 310، 311، 313، 316، 328، 335، 338، 339، 370، 371، 372، 382، 444، 466، 483.	**تيهرت**: 32، 38، 64، 82، 86، 111، 171، 173، 192، 193، 194، 195، 199، 200، 201، 204، 219، 224، 276، 354، 375، 378، 390، 394، 412، 441، 495.
توزر: 43، 213، 293.	
تونس: 45، 79، 212، 213، 343، 352، 366، 374، 481.	
تيجس: 43.	
تيدكلت: 54، 160، 161، 163.	
تيغورت: 381.	
تيكورارين: 54، 68، 72، 149، 150، 152، 166، 228.	
تين يسلي: 176، 355، 380، 381، 385.	

- ج -	
• **جادوا**: 214.	**جبال الأوراس**: 36، 54، 104.
• **جاو (غاو)**: 242، 256، 407، 409، 439، 442، 457، 458، 468، 478، 479، 486، 489، 496.	**جبل كريمة**: 30، 152، 168.
	جبل نفوسة: 108، 213، 214، 215، 260، 287، 349، 350، 367، 384، 385، 386، 387،.

398. **جربة:** 54، 213، 387، 389، 494. **جزائر بني مزغنه:** 366.	**جني:** 260، 416، 476، 477، 478، 489، 496.
– ح –	
الحضنة: 45.	
– د –	
درجين: 49، 50، 360. **درعة:** 56، 220. **الدوسن:** 43، 44.	
– ر –	
ريغ: 46، 65، 71، 73، 74، 152.	
– ز –	
الزاب الشرقي: 46. **الزاب الغربي:** 46. **زاب بادس:** 43. **زاب بسكرة:** 43، 207، 208، 274. **زاب تهودة:** 43. **زاب مليلة:** 43.	**الزاب:** 25، 27، 33، 36، 41، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 66، 71، 73، 74، 81، 83، 95، 139، 141، 142، 143، 166، 197، 240، 241، 287، 288، 291، 299، 306، 363، 364، 422. **زغاوه:** 404، 439. **زويلة:** 248.

– س –	
سامة: 411.	**السنغال:** 180، 255، 487.
سبته: 433.	**السودان الغربي:** 81، 184، 200،
سجلماسة: 56، 72، 89، 166،	201، 203، 215، 219، 220،
196، 210، 211، 217، 219،	223، 224، 227، 229، 231،
226، 227، 232، 233، 235،	233، 234، 236، 245، 252،
236، 238، 241، 248، 253،	258، 262، 264، 266، 268،
254، 259، 274، 280، 281،	292، 392، 394، 399، 401،
369، 422، 444.	404، 409، 413، 417، 436،
سدراته: 38، 148، 149، 153،	437، 440، 441، 442، 443،
171، 345، 494.	448، 466، 470، 476، 484،
سطيف: 43.	485، 488، 491، 497، 500.
سكيكدة: 207، 208.	**سوف:** 50، 51، 53، 54.
سلى: 247، 421.	
– ش –	
شروس: 215.	
شط ملغيغ: 48، 146.	
– ط –	
طبنة: 43، 46، 140.	**طولقة:** 34، 44، 45، 46، 73، 74،
طرابلس: 54، 213، 215، 216،	141، 143، 168.
268، 359، 376، 474، 481.	

- ع -	
• **العراق**: 41. • **العطف**: 39، 40، 367، 369.	
- غ -	
غانة: 219، 225، 227، 228، 229، 230، 238، 240، 243، 245، 246، 247، 257، 258، 259، 264، 275، 277، 316، 352، 392، 393، 399، 400، 409، 413، 418، 419، 436، 438، 440، 441، 443، 447، 451، 452، 456، 458، 468،	471، 472، 490، 492، 493، 497. **غدامس**: 83، 183، 214، 215، 216، 243، 256، 263، 270، 398، 418، 444، 491. **غرداية (تغراديت)**: 39، 40، 367. **غياروا**: 229، 230، 231، 245، 400، 472.
- ف -	
فاس: 64، 71، 79، 175، 231، 249، 316، 373، 474، 481. **فاسطوا**: 367، 386.	**فزان**: 171، 214، 260، 263، 491. **فلسطين**: 61.
- ق -	
القاهرة: 173، 316. **القرارة**: 39. **قسطيلية**: 49، 50، 53، 54. **قسنطينة**: 43، 196، 198، 205،	**القلعة**: 46، 195، 197، 198، 199، 203، 206. **قنطرار**: 51، 54، 118. **قورارة**: 123.

206، 207، 208، 227.	**القيروان:** 49، 54، 71، 210، 211،
قفصة: 43، 213.	212، 213، 216.
– ك –	
كاغوا: 227، 259.	227، 235، 236، 238، 240،
الكانم: 214، 260.	245، 256، 259، 260، 261،
كوار: 205، 247، 250.	264، 392، 398، 407، 415،
كوغة: 242، 266، 400.	418، 438، 480.
كوكو: 193، 224، 225، 226،	
– م –	
مالي: 55، 57، 232، 236، 245،	247، 292.
257، 398، 401، 402، 404،	**المغرب الأوسط:** 25، 32، 33، 34،
409، 414، 416، 417، 419،	36، 40، 46، 55، 58، 59، 64،
421، 422، 427، 428، 432،	90، 94، 95، 96، 97، 98، 104،
436، 437، 451، 452، 453،	105، 107، 111، 112، 113،
457، 458، 461، 468، 478،	115، 116، 117، 118، 119،
485، 492، 497.	120، 146، 149، 170، 173،
المدينة المنورة: 365، 391.	176، 180، 181، 184، 186،
المسيلة: 43، 44، 45، 46، 47،	191، 197، 200، 203، 204،
71، 195.	206، 214، 215، 217، 222،
مصاب: 37، 38.	223، 224، 230، 233، 235،
مصر: 33، 69، 227، 242،	236، 237، 240، 244، 247،

262، 263، 268، 287، 364، 410، 461، 475. **المغرب الأقصى**: 39، 163، 226، 358، 384، 387، 389، 390، 393، 398، 399، 404، 424، 435، 448، 470، 475، 484، 491، 500، 501. **المغرب**: 43، 55، 61، 63، 66، 68، 70، 71، 75، 80، 81، 104، 143، 233، 242، 249، 252، 263، 300، 308. 390. **مقرة**: 43. **مكة**: 37، 352.	253، 258، 260، 261، 263، 264، 277، 284، 287، 295، 296، 304، 333، 354، 355، 404، 438، 440. **مليكة**: 39، 367، 386. **الموصل**: 41، 77. **ميزاب**: 37، 38، 39، 40، 66، 80، 95، 159، 163، 184، 296، 299، 311، 312، 333، 352، 366، 367، 369، 380، 385، 495. **ميلة**: 43.
- ن -	
نفزاوة: 43، 54. **نفطة**: 43، 44، 49، 54، 215. **نقاوس**: 43، 195. **نقوصة**: 149.	**نوميديا**: 41، 124، 196. **النيجر**: 180، 245، 260، 262، 476، 487، 495.
- هـ -	
هضبة تادميت: 55. **هضبة تنزروفت**: 55.	

- و -	
وادي الساورة: 55، 218.	**وادي ريغ:** 25، 45، 46، 48
وادي أميقدن: 55.	،49،65 ، 66، 80، 127، 129 ،
146، 194، 197، 347، 349،	206، 207، 208، 209، 211،
350، 381.	212، 213، 214، 215، 217،
وادي قاريت: 55، 56.	218، 219، 223، 224، 226،
وادي مسعود: 56، 382.	227، 228، 229، 231، 239،
وادي ملوية: 36.	240، 241، 242، 245، 247،
وادي ميزاب: 25، 33، 36، 37، 39،	248، 250، 256، 257، 258،
46، 80، 147، 153، 369، 494.	259، 268، 284، 285، 286،
وارجلان: 25، 27، 28، 29، 30،	287، 288، 289، 290، 292،
31، 32، 33، 34، 35، 38، 46،	293، 295، 297، 298، 299،
49، 50، 52، 54، 64، 65، 66،	303، 304، 305، 306، 311،
71، 73، 76، 77، 80، 81، 82،	314، 333، 341، 343، 345،
83، 85، 86، 87، 88، 89، 90،	346، 347، 348، 349، 350،
94، 95، 96، 97، 98، 100،	351، 352، 353، 354، 355،
104، 105، 107، 111، 112،	358، 359، 368، 375، 380،
113، 115، 116، 117، 118،	385، 388، 390، 391، 392،
119، 120، 138، 146، 148،	393، 394، 398، 420، 441،
149، 150، 152، 158، 160،	442، 444، 446، 471، 472،
163، 166، 168، 170، 172،	494، 495.
174، 175، 176، 177، 179،	

180، 181، 182، 184، 186،191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 199، 204، **واركلان:** 26، 28، 168، 196، 209. **وجدة:** 72. **ورقلة:** 28، 29، 32، 44، 71. **وركلة:** 26، 192.	**وارقلان:** 25، 26، 32، 215. **واركلا:** 26، 27، 32، 46، 152، 180. **وغلانة:** 54، 381. **ولاتن:** 218. **ولاته:** 228، 232، 407، 416، 444، 457، 458. **ونقارة:** 227، 245، 258.
– ي –	
اليمن: 61.	